جواسيس جدعون

التاريخ السري للموساد

تأليف

غوردون توماس

ترجمة

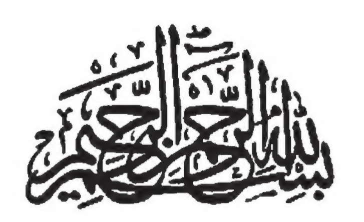
مروان سعد الدين



الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

جواسيس جدعون

التاريخ السري للموساد



يضم هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Gideon's Spies
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Thomas Dunne Books, An imprint of St. Martin's Press
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 978-9953-87-081-6



الدار العربية للعلوم ـ ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

المحتويات

رؤساء الموساد

1951 - 1952	روفين شيلوه
1952 - 1963	آيسر هاريل
1963 - 1968	مير عميت
1968 - 1974	زفي زامر
1974 - 1982	إسحاق هوفي
1982 - 1990	نعوم أدموني
1990 - 1996	شابتي شافيت
1996 - 1998	داني ياتوم
1998 - 2002	إفرايم هالفي
2002 -	مائير داغان

اعرف عدوك

لقـــد هدفت الدار العربية للعلوم من وراء ترجمة ونشر هـــذا الكـــتاب إلى تعريف القارئ العربي على الأدبيات التي يخاطب بها الموساد الرأي العام الغربي والصورة التـــي يـــزرعها فـــي أذهانهم عن قوة وبسالة الموساد بالإضـــافة إلـــى تشويه لصورة القادة العرب والمعادين للنظام الصهيوني.

وهذا الكتاب يندرج تحت تصنيف أعرف عدوك.

الفصل الأول

خلف الزجاج الشفاف

عــندما ومض الضوء الأحمر في الهاتف بجانب السرير، تم تشغيل آلة تسجيل تلقائــية مــتطورة فــي الشقة الباريسية بالقرب من مركز بومبيدو في الجادة الرابعة النابضة بالحياة. وقام بوصل شريط الضوء تقني اتصالات إسرائيلي طار من تل أبيب لتركيب آلة التسجيل، والتي كان المقصود بها تبديد شكوك الجيران حول رنين الهاتف فــي ساعات مزعجة. وكان التقني واحداً من الياهالومين، وعضو وحدة الموساد التي تقــوم بتأميــن الاتصــالات فــي المــنازل الآمنة التابعة لجهاز الاستخبارات السري الإسرائيلي.

كان المنــزل في باريس شبيهاً بالكثير غيره. وكانت بوابته مضادة للقنابل، فيما يســتطيع زجــاج نوافــذه، مــثل زجاج نوافذ البيت الأبيض، تضليل أدوات التجسس الإلكترونية. وكان هناك عدد من الشقق المماثلة في كل المدن الرئيسية في العالم، التي اشــتراها أو استأجرها الموساد لفترات طويلة. وكان الكثير منها يُترك شاغراً لفترات طويلة، وجاهزاً لتنفيذ أي عملية وقت الحاجة.

كانــت إحدى شقق باريس مشغولة منذ حزيران سنة 1997، عندما وصل إليها الســيد موريس. وكان يتكلم الفرنسية بشكل ممتاز بلكنة وسط أوروبا. وعبر السنين، قــابل جيران السيد موريس أشخاصاً آخرين مثله: رجال، وأحياناً نساء، يصلون دون سابق إنذار، ويقضون أسابيع أو شهور بينهم، ثم يختفون في أحد الأيام. ومثل أسلافه، لا يتكلم موريس عن نفسه أو عن عمله.

كان موريس كاستا، أو عميل موساد ميداني.

لــم يكــن موريس شخصاً متميزاً من الناحية الجسدية؛ وكان يُقال إنه قادر على المــرور حــتى في شارع خالٍ دون أن يلاحظه أحد. جند موريس في العصر الذهبي للموســاد، عندما كان يُنظر إلى الموساد على أنه أسطورة في عالم الاستخبارات. وتم الــتأكّد من نواياه خلال الخدمة العسكرية الإلزامية في إسرائيل، وتم نقله بعد معسكر

تدريبـــــي إلـــى استخبارات القوى الجوية. ولوحظ استعداده الكبير لتعلم اللغات (كان يعــرف الفرنســية، والإنكليزية والألمانية)، إضافة إلى قدرات أخرى: كان يُجيد ملأ الثغرات في دراسات القضايا واستنتاج الحقائق، وكان يعرف حدود التخمين المعرفي. وفــوق كل ذلك، كان مراوغاً بطبعه: كان قادراً على الإقناع، والتملّق، والتهديد عندما يفشل كل شيء آخر.

مــنذ تخرّجه من مدرسة تدريب الموساد سنة 1982، عمل في أوروبا وجنوب أفريقــيا والشرق الأقصى. كان يتخفّى في أوقات مختلفة بهيئة رجل أعمال، أو كاتب كثير الترحال، أو مندوب مبيعات. استخدم عدداً من الأسماء والسير الذاتية التي حصل علــيها من مكتبة الأسماء المستعارة لدى الموساد. وأصبح اسمه الآن موريس، ويعمل مرة أخرى كرجل أعمال.

ســمع من خلال مواقع عمله المختلفة عن عملية التطهير في المعهد، وهو الاسم الـــذي يســتخدمه العمـــلاء للموســـاد: شائعات مزعجة عن الوظائف المشينة، وعن التغيــيرات التي تطال قمة الهرم، وعن تغيير الأولويات التي يقوم بها كل رئيس جديد للموساد، والذي لم يفعل أي منهم شيئاً لمنع تدهور المعنويات ضمن الجهاز.

تزايد ذلك مع تعيين بنيامين نتنياهو كأصغر رئيس وزراء إسرائيلي، وهو رجل يتمـــتع بخـــبرة استخباراتية أكيدة، والذي من المفروض أن يعرف كيفية سير الأمور الداخلـــية، ومـــتى يســـتمع، وإلى أي حدّ عليه الذهاب بعيداً. وعوضاً عن ذلك، ومنذ الـــبداية، أدهـــش نتنياهو ضباط الاستخبارات المحترفين بالتدخل في تفاصيل العمليات الميدانية.

كان ذلك يُعزى في البداية لحماسته الشديدة، ولإظهار أنه كان مستعداً للنظر في كـــل دُرج مغلـــق لـــيكون متأكداً من أنه يعرف كل الأسرار. لكن الأمور أخذت تُنذر بالخطـــر عندما أراد ليس فقط رئيس الوزراء، ولكن زوجته سارة، إمعان النظر خلف الـــزجاج الشـــفاف إلـــى عالم إسرائيل الاستخباراتي. وقد استدعت ضباطاً كباراً في الموســـاد إلـــى منـــزلها للإجابة على أسئلتها، وكانت تدّعي أنها تحذو حذو هيلاري كلينتون التي تهتم بمصالحها في السي آي أيه.

وتناقلـــت أروقة مركز قيادة الموساد الخالية المعالم في تل أبيب همسات فضيحة طلب سارة نتنياهو رؤية ملفات صور قادة العالم الذين سوف تستقبلهم أو تزورهم مع زوجهـــا. وسألت بشكل خاص عن تفاصيل حول الحياة الجنسية للرئيس بيل كلينتون. وطلبت أيضاً مراجعة أضابير سفراء إسرائيل الذين ستُقيم في سفاراتهم خلال رحلاتها

إلـــى الخـــارج، وأبـــدت اهتمامها بنظافة مطابخهم وعدد المرات التي يتم فيها تغيير ملاءات الأسرّة في أجنحة الضيوف.

ســبّبت طلـــباتها الإرباك لقادة الموساد الذين شرحوا لزوجة رئيس الوزراء أن الحصـــول على مثل هذه المعلومات يقع خارج حدود صلاحياتهم في جمع المعلومات الاستخباراتية.

تـــم نقـــل بعـــض قدامى العملاء من مواقع رئيسية في الاستخبارات، وأصبحوا مســؤولين عـــن عملـــيات صغيرة لا تتطلب أكثر من بعض الأعمال الورقية التي لا يقـــرأها أحد. واستقال هؤلاء عندما أدركوا أن سيرتهم المهنية قد انتهت، وانتشروا في طـــول إسرائيل، وشغلوا أنفسهم بالقراءة التي كان معظمها تاريخي في محاولة للتأقلم مع حقيقة أنهم أصبحوا من قادة الأمس.

كـــان ذلك سبباً في سعادة موريس لأنه خرج من تل أبيب وعاد للعمل الميداني مجدداً.

قدّمت له المهمة التي أحضرته إلى باريس فرصة أخرى ليثبت أنه عميل منهجي وحـــريص، وقـــادر علـــى تقديم ما يُتوقع منه. وفي هذه الحالة، كانت المهمة بسيطة للغايـــة: لـــم يكن هناك خطر جسدي حقيقي، ولا يوجد سوى الإحراج إذا ما اكتشفت الســـلطات الفرنسية ما يفعله، وستقوم بترحيله بهدوء. كان السفير الإسرائيلي يعلم أن موريس في باريس، لكنه لم يكن يعرف السبب. وكان ذلك إجراءً عملياتياً معروفاً: إذا ساءت الأمور، يستطيع المبعوث أن يتظاهر بالجهل.

كانت مهمة موريس تجنيد مخبر. وكان ذلك معروفاً بلغة الموساد بمحاولة باردة، وتعنـــي إغـــراء شـــخص من جنسية أجنبية. وبعد شهرين من العمل الدؤوب، اعتقد موريس أنه قريب من النجاح.

كـــان هدفـــه هـــنري بول، مساعد مدير فندق ريتز، والذي يعمل أيضاً كسائق لمشاهير الضيوف. وكان أحد هؤلاء جوناثان آيتكن، الوزير في آخر حكومة بريطانية محافظة، والذي تولّى مسؤولية خاصة في تنسيق مبيعات الأسلحة، والذي بنى صلات واسعة مع تجّار الأسلحة في الشرق الأوسط. قاده ذلك للظهور في البرنامج التلفزيوني *عـــالم متغير* (World in Action)، وصحيفة الغارديان التي نشرت تقارير موثّقة حول علاقـــات آيتكـــن برجال ليسوا عادةً وزراء حكوميين. وقاضى آيتكن الصحيفة بتهمة التشـــهير. وتفاعلـــت القضية عندما طلبت منه المحكمة بياناً باسم الشخص الذي دفع حســـاب فندق ريتز الذي أقام فيه للقاء بعض أصدقائه العرب. وهناك، أقسم آيتكن أن

زوجته سددت الحساب.

مـن خـلال طرف ثالث، سرّب الموساد معلومات للمحققين الذين يعملون على القضية أن السيدة آيتكن لم تكن في باريس. وانهارت قضية التشهير، وتمكن الموساد، الذي لطالما اعتبر نشاطات آيتكن تمثّل تهديداً لإسرائيل، من تدميره أخيراً.

فـي سـنة 1999، وبعد محاكمة جنائية طويلة في لندن، تم اعتبار آيتكن مذنباً بـتهمة اليمين الكاذب، وحُكم عليه بالسجن. وكانت زوجته قد هجرته في ذلك الوقت، وواجه الرجل الذي مشى في أروقة السلطة لسنوات عديدة مستقبلاً موحشاً.

جـاء التفهم لما جرى، إن لم يكن التعاطف، من مصدر غير متوقع، وتحديداً من آري بـن – ميناش (انظر إلى الفصل الثامن). وقد اختبر بنفسه قسوة سجن نيويورك بعد سقوطه من موقعه كمنسّق استخباراتي لرئيس الوزراء إسحاق شامير. ومنحه ذلك الموقع رؤية نادرة عن كيفية عمل الموساد وأجهزة الاستخبارات الإسرائيلية الأخرى. لقـد اعتـبر آيتكـن مثل "رجل استهلكه رأيه الخاص بأنه يستطيع التفوق على ذكاء الجميع. وقد فعل ذلك فعلاً لسنوات عديدة. لكن غلطته أنه استخف بقدرة الموساد. إنهم لا يأخذون أسرى".

بعكس جوناثان آيتكن، الذي لم يستطع متابعة حياته الطبيعية بعد السجن، استطاع بـن – ميـناش اسـتعادة حياته الطبيعية بشكل مذهل. وفي سنة 1999، كان قد أنشأ شركة لجمع المعلومات الاستخباراتية مقرها مونريال في كندا، وبنى لها قاعدة عملاء فـي العديـد مـن الدول الأفريقية إضافة إلى بعض الدول الأوروبية. وسعت بعض الشـركات المـتعددة الجنسـيات للحصول على خدماته، والتي كانت متأكدة أن بن – ميناش سيعمل على إبقاء أسمائها سراً.

تكـوّن كادره من عدّة عملاء سابقين في الاستخبارات السرية الكندية، وآخرين عملـوا مـع مـنظمات إسرائيلية وأوروبية مشابهة. وقدّمت الشركة نطاقاً واسعاً من الخدمـات الاقتصادية، والصناعية، وخدمات الحماية. وكان موظفوها يعرفون طريقهم إلـى تجار السلاح ويفهمون جيداً قواعد التفاوض مع المختطفين. ولم تكن هناك مدينة علـى وجـه الأرض لم يكن لهم فيها مخبرون، والذين جنّد الكثير منهم بن – ميناش عـندما كان لاعباً أساسياً في عالم إسرائيل الاستخباراتي. استطاع بن – ميناش دائماً، إضافة إلى العاملين معه، إنشاء علاقات مع حلفاء سياسيين وتغييرها باستمرار، وكان يسـتطيع الـتوقع غالباً أي من حكومات العالم الثالث ستسقط، ومن سيخلفها. وكانت شـركة بـن – ميـناش صغيرة ومتماسكة، وبطرق عديدة نموذجاً عن الموساد. لقد

اعترف بن – ميناش بسعادة: "نتحرك مثل اللصوص في الليل. وهذه هي الطريقة التي يجب أن نتصرف بها في عملنا". وكان العائد مجزياً.

حصـــل بن – ميناش على جنسية كندية جديدة، ووجد نفسه مرة أخرى يعمل مع "أمـــراء وملوك العالم... المشهورين وأولئك الذين يستخدمون ثرواتهم للحصول على حمايـــة أفضـــل. وبالنســـبة لهم، كانت المعرفة الأفضل تعني القوة، وكان تقديم تلك المعلومات الحساسة جزءاً من عملي".

كـــان ينـــزل ضيفاً عزيزاً في فندق سافوي في لندن وريتز في باريس، واللذين كانـــا يُحـــيطانه بحفاوة بالغة. لقد اكتشف بن – ميناش في وقت قصير أن الفندق بقي مكانـــاً لاجتماعات سماسرة سلاح الشرق الأوسط ومورديهم الأوروبيين. وتقابل هناك مـــع زملائـــه فـــي الموساد، وحصل على معلومات منهم عن مدى أهمية الفندق في اســـتراتيجية الموســـاد الشـــاملة. كان بن – ميناش يحب جمع المعلومات بالفطرة – "تعلمـــت مـــنذ مـــدة طويلة أن لا شيء أسمعه يذهب سدى" – وقرّر أن يراقب كيف تـــتطور الأمـــور. وكـــان قراراً تطلّب منه في النهاية التحقيق في مصير ديانا، أميرة ويلز، وحبيبها دودي الفايد، الابن المغامر لمالك ريتز الملياردير محمد الفايد.

قـــرّر الموساد تجنيد مخبر في ريتز يكون قادراً على تقديم تقارير عن النشاطات المخـــتلفة التي تتم فيه. وحاول تنفيذ المهمة بالحصول أولاً على قائمة بأسماء موظفي الفـــندق، وقـــاموا بـــالدخول إلى نظام ريتز الحاسوبي. ولم يظهر أن أياً من مسؤولي الإدارة العليا في الفندق سيكون هدفاً محتملاً؛ ولم يكن لدى الكادر الأقل مستوى القدرة على الوصول إلى النـــزلاء لتنفيذ المهام المطلوبة منه. ولكن مسؤولية هنري بول عن الأمن كانت تعني أن كل مكان في ريتز مفتوح أمامه. وكان بمقدوره استخدام مفتاحه الخـــاص لفـــتح خزائن النـــزلاء. ولم يكن يثير أي أسئلة إذا طلب نسخة عن فاتورة نـــزيل ما، ولم يكن أحد يستغرب إذا ما طلب رؤية قائمة بالمكالمات الهاتفية للحصول علـــى تفاصـــيل عـــن المكالمات التي أجراها تجار السلاح ومصادرهم. كان يستطيع معرفة المرأة التي يستخدمها التاجر من أجل عميله. وكسائق للشخصيات الهامة جداً، كـــان بـــول في موقع جيد لسماع أحاديثهم، ومراقبة تصرفاتهم، ورؤية الأماكن التي يذهبون إليها، والشخصيات التي يلتقون بها.

كانـــت الخطـــوة التالـــية تحضير إضبارة شخصية عن بول. قام كاستا مقيم في بـــاريس بتجمـــيع معلومات عن خلفيته على مدى عدّة أسابيع، واستخدم لذلك عمليات تمويـــه عديدة منها موظف شركة تأمين ومندوب مبيعات هواتف. علم الكاستا أن بول

كــان عازباً، وليس لديه علاقة دائمة، ويعيش في شقة منخفضة الإيجار، ويقود سيارة مينـــي سوداء لكنه يحب السيارات السريعة وسباقات الدراجات النارية التي كان يملك إحداهـــا. تحدّث موظفو الفندق عن شغفه بالشراب. وكان هناك دلائل أنه يستفيد، من وقــت لآخـــر، مـــن خدمـــات غانية مُكلفة والتي تقدّم خدماتها لبعض نـــزلاء الفندق الآخرين.

قـــام أحد علماء نفس الموساد بتقييم المعلومات، وتوصل إلى نتيجة مفادها وجود نقطة ضعف متأصلة في هنري بول. وأوصى عالم النفس بزيادة الضغط تدريجياً على بـــول مع تقديم وعود له بالحصول على مكافآت مالية كبيرة لتمويل حياته الاجتماعية، والتـــي ســتكون الطريقة المثلى لتجنيده. قد تكون العملية طويلة جداً، وتتطلب صبراً متمـــيزاً ومهـــارة كبيرة. وعوضاً عن الاستفادة من كاستا مقيم في باريس، تم إرسال موريس إلى هناك.

كمـــا هـــو الحال في أي عملية للموساد، تبع موريس في عمله إرشادات محددة ســـلفاً. أولاً، وخلال عدّة زيارات، تعرّف جيداً على منطقة ريتز والضواحي المحيطة بهـــا. وتعـــرّف بسرعة على هنري بول، الرجل المفتول العضلات، والذي يختال في مشيته، والذي كان واضحاً أنه لا يحتاج لموافقة أحد على ما يقوم به.

راقـــب موريـــس أيضـــاً العلاقـــة الغريبة التي كانت تجمع بول مع البابارازي (الصـــحفيين الذيـــن يتعقّـــبون المشاهير) الذين يحتشدون خارج بوابة ريتز، مستعدين لالـــتقاط صور للنـــزلاء المشهورين والفاحشي الثراء. ومن وقت إلى آخر، كان بول يأمـــر المصـــورين بالمغادرة، وكانوا يفعلون ذلك عادةً، ويدورون حول المبنى على دراجـــاتهم الـــنارية قـــبل أن يعودوا مجدداً. وخلال تلك الرحلات القصيرة، كان بول يخرج أحياناً من مدخل موظفي الفندق ويمزح مع البابارازي أثناء مرورهم.

في الليل، كان موريس يراقب بول وهو يشرب مع عدّة أشخاص من البابارازي في أحد البارات حول ريتز التي كان يقصدها مع موظفين آخرين بعد العمل.

فـــي تقاريـــر لاحقة إلى تل أبيب، وصف موريس قدرة بول على شرب كميات كبـــيرة من الكحول والبقاء رغم ذلك صاحياً بأنه مثل الصخرة الباردة. وأكّد موريس أيضاً أن بول مناسب جداً كمخبر رغم تلك العادات: فإنه يستطيع الوصول إلى الأماكن الحساسة، وهو موضع ثقة كبيرة.

فـــي إحدى مراحل هذه المراقبة الحذرة، اكتشف موريس كيف يقوم بول بخيانة تلـــك الثقة. كان يتلقى أموالاً من البابارازي مقابل تفاصيل عن حركة النـــزلاء، مما

يسمح للمصورين بالتمركز في مواقع مناسبة لالتقاط صور الاحتفالات.

كـــان تـــبادل المعلومـــات مقابل المال يحدث إما في أحد البارات أو في طريق كامبون الضيق، الذي يقع عليه مدخل موظفي ريتز.

بحلول منتصف آب، ركّز ذلك التبادل على الوصول المتوقع لديانا - أميرة ويلز - وحبيبها الجديد دودي الفايد، ابن مالك الفندق إلى ريتز، واللذين سيقيمان في الجناح الإمبراطوري الفخم.

تلقّـــى كل موظفو الفندق تعليمات مشددة لإبقاء تفاصيل وصول ديانا سرية تحت طائلـــة عقوبـــة الطـــرد الفـــوري. ورغم ذلك، استمر بول بالمخاطرة بوظيفته بتقديم تفاصيل الزيارة المتوقعة لعدّة بابارازي. وتلقى من كل منهم مبلغاً من المال.

رأى موريـــس أن بول بدأ يشرب كميات أكبر من الكحول، وسمع موظفي ريتز يـــتذمرون من أن مساعد المدير الأمني قد أصبح حازماً أكثر من اللازم: طرد مؤخراً خادمـــة ضبطها تسرق لوحاً من الصابون من غرفة نوم أحد النـــزلاء. وقال عدد من موظفي الفندق إن بول يتعاطى أقراصاً أيضاً، وتساءلوا فيما إذا كان لذلك علاقة بسوء مـــزاجه. ووافق الجميع على أنه لم يعد بالإمكان توقع تصرفات بول: يكون هادئاً في لحظـــة مـــا؛ وفـــي اللحظة التالية يغضب بشدة لسبب تافه. وقرر موريس أن الوقت مناسب للقيام بحركته.

كـــان أول اتصال في بار هاري في شارع دانو. عندما دخل بول، كان موريس يرتشـــف كأساً من عصير الفاكهة. بدأ كاستا الموساد الحديث معه بلطف، وقَبِل رجل الأمن شراباً منه بعدما ذكر موريس أن أصدقاءه ينـــزلون في ريتز. وأضاف موريس أنهم تفاجأوا لأن معظم النـــزلاء كانوا من الأثرياء العرب.

حتى لو كانت طلقة في الهواء، كان لا بد من أن تأتي بنتيجة مذهلة. وأجاب بول أن الكثير من العرب غير مهذبين ومتغطرسين، ويتوقعون منه أن يقفز عندما يُشيرون بإصـــبعهم. والأســـوأ بيـــنهم هم... وقال موريس إنه سمع أن النـــزلاء اليهود صعبو المراس. لكن بول لم يوافق على ذلك، وأصر على أن اليهود نـــزلاء رائعون.

عند تلك الملاحظة المهمة، انتهت الأمسية بترتيب لقاء آخر في غضون أيام على العشاء في مطعم قرب ريتز. وأكّد بول خلال العشاء، استجابة لأسئلة موريس المنتقاة بدقة، معظم ما كان الكاستا يعرفه. تحدّث مدير الأمن في الفندق عن شغفه بالسيارات السريعة، وعن محبته لقيادة طائرة صغيرة. لكن من الصعب الاستمتاع بتلك الهوايات نظراً لراتبه.

كانــت تلك هي اللحظة التي بدأ فيها موريس بزيادة الضغط عليه. وقال: "لطالما كــان توفير المال لمثل هذه الهوايات مشكلة، ولكنها ليست عصية على الحل". وكان متأكداً تقريباً أن ذلك سيُثير اهتمام بول.

مــا حــدث لاحقــاً كــان له وقعه الخاص: يضع موريس الطعم، ويتلهف بول للحصــول علــيه. الصنارة في مكانها، ويبدأ موريس في مدّ الخيط بكل ما أوتي من مهارة حصل عليها من مدرسة تدريب الموساد.

فــي مــرحلة ما، غرس موريس الفكرة بأنه يستطيع المساعدة، وربما ذكر أنه يعمل لشركة تبحث دائماً عن طرق لتحديث بياناتها وأنها تدفع مبالغ جيدة لأولئك الذين يســتطيعون مساعدتها في ذلك. وكانت تلك مقدمة مفضّلة لمجندي الموساد في عملية *محاولــة بــاردة*. ومن تلك النقطة، لم يكن هناك سوى خطوة صغيرة لإخبار بول أن نــزلاء ريتز يمتلكون ولا شك نوعية المعلومات التي تبحث عنها الشركة.

قد يرفض بول، الذي لم يقتنع ربما بالحديث. وينتقل موريس عندها إلى المرحلة التالــية، ويقــول إنه بالرغم من تفهّمه لتحفظات بول، إلا أنه يستغرب ذلك منه، لأنه يــأخذ أمــوالاً من البابارازي لقاء مثل تلك المعلومات. ولهذا لماذا يُضيع فرصة جني مبالغ حقيقية؟

لدى إعادة النظر في الأمور، قام آري بن – ميناش بالحكم على العملية في هذه المــرحلة بأنهــا تطــوّرت وفقاً للخطوط التقليدية. "من معرفتي الشخصية، ليس هناك أفضل من موريس، (هذا اسمه لهذه العملية)، للقيام بذلك. وتتطلب عملية *محاولة باردة* دقــة كبيرة. وإذا تحرك العميل بسرعة كبيرة، ستهرب السمكة من الفخ. وإذا استغرق الأمــر وقتاً طويلاً، سرعان ما سيختلط الشك بالخوف. إن التجنيد فنّ بحدّ ذاته، ورد فعــل الأوروبي مثل هنري بول مختلف جداً عن العربي في الضفة الغربية أو قطاع غزة".

مهــارة موريس الفائقة في تقديم عرضه، والمعلومات المرافقة التي يقدّمها عن خلفــية بول، تدلان على حنكته وقدرته على الإقناع، مع مقدار ضروري من الضغط. ولا بد أن ذلك كان له تأثيره على بول.

وحتى إذا لم يسأل، إلا أنه أدرك أن الرجل الذي يجلس قبالته إلى طاولة العشاء ضابط استخبارات، أو على الأقل يجنّد عملاء لإحدى أجهزة الاستخبارات.

ربما يكون الآتي سبب ردّ فعله. ووفقاً لمصدر استخباراتي إسرائيلي مطّلع على القضــية، كان هنري بول يفهم تماماً: هل يطلب منه هذا الرجل أن يتجسّس؟ إذا كان

الأمـــر كذلك، ما هي الصفقة؟ بهذه البساطة. دون حواجز أو كلام فارغ، وإنما نوعية الصفقة فقط؛ ولصالح من سيعمل فعلاً؟ وكانت تلك هي النقطة التي سيقررها موريس آنــذاك. هل سيخبر بول أنه سيعمل لصالح الموساد؟ لا يوجد إجراء معتاد لشيء مثل هذا. وكل هدف مختلف، لكن هنري بول علق بالصنارة.

إذا كـــان الأمـــر كذلـــك، قد يكون موريس أطلع بول على ما هو مطلوب منه: الحصـــول علـــى معلومـــات عن النـــزلاء، وربما تفتيش حقائبهم، وملاحظة خدمات الترفيه المقدّمة لهم. وسيكون هناك نقاشات حول الدفع، مصحوبة بعرض لفتح حساب فـــي مصرف سويسري، أو الدفع نقداً إذا تطلب الأمر ذلك. ولا بد أن موريس أعطى الانطـــباع بأن مثل هذه المسائل ليست مشكلة. وعند تلك النقطة، قد يكون كشف لبول أنـــه ســـيعمل مع الموساد. كل هذا سيكون عادياً للوصول إلى نتيجة ناجحة في عملية *محاولة باردة*.

كان بول خائفاً على الأرجح مما يُطلب منه القيام به. ولم يكن ولاؤه لفندق ريتز موضـــع تســـاؤل، كما هو حال الموظفين الآخرين. لقد عمل في الفندق بسبب الراتب العالـــي والعلاوات الإضافية. وكان ذعر بول مفهوماً لأن ما سيُقدم عليه شيء خطير وقد ينتهي به الأمر في السجن إذا ضُبط يتجسس على نـــزلاء الفندق.

لكـــن ما الذي ستفعله الشرطة إذا ذهب إليها؟ ربما كانوا يعرفون سلفاً أنه يتلقى مـــثل هـــذه العروض. وإذا رفض العرض، ماذا عندها؟ وإذا عرفت إدارة الفندق بأنه يخـــون أثمن ما يقدمه ريتز لنـــزلائه - السرية - بتقديم المعلومات للبابارازي، ربما يُطرد من عمله، وحتى يتعرض للمحاكمة.

لـــم يكـــن هـــناك مهرب بالنسبة لهنري بول في تلك الأيام الأخيرة من آب سنة 1999. واســـتمر في الشرب، وتناول الأقراص، والقلق وإزعاج الموظفين الجدد. لقد كان رجلاً يترنح بالقرب من الحافة.

استمر موريس في الضغط عليه. وكان يتدبّر التواجد في البار عندما يتناول بول الشـــراب خارج أوقات الدوام. كان حضور الكاستا المستمر تذكيراً آخر لرجل الأمن بمـــا هـــو مطلوب منه. واستمر موريس في زيارة ريتز، وارتشاف الشراب في أحد بارات الفندق، وتناول العشاء في مطعمه، وشرب القهوة بعد الظهر في البهو. بالنسبة لهـــنري بول، أصبح موريس مثل ظل شخصي له. ولم يكن ذلك سوى ليزيد الضغط عليه، ويذكِّره بأنه لا مفر من التعاون.

وما زاد من الضغط الزيارة المرتقبة للأميرة ديانا ودودي الفايد. وتم تكليف بول

بتأميـــن حمايتهما أثناء إقامتهما في الفندق، مع مسؤولية خاصة بإبعاد البابارازي. في نفس الوقت، كان المصورون يتصلون على هاتفه الخلوي للحصول على معلومات عن الزيارة؛ وكانوا يعرضون عليه أموالاً كثيرة مقابل التفاصيل. كان إغراء القبول يشكل عامل ضغط آخر على بول. وكان أينما التفت حوله، يجد نوعاً من أنواع الضغط.

لم يكن هنري بول متزناً ذهنياً رغم أنه تدبّر إخفاء ذلك. كان يأخذ أدوية مضادة للكآبـــة، وأقراصـــاً تساعده على النوم، وأقراصاً لزيادة النشاط والحيوية طوال اليوم. وكـــان هـــذا المـــزيج من العقاقير يعزز الضغط على قدرته في الوصول إلى أحكام صحيحة.

شـــعر بـــن – ميناش لاحقاً أنه في حال كان يقوم هو نفسه بالعملية "ستكون تلك لحظـــة الانســـحاب المناسبة. وقد يكون هنري بول ماهراً في إخفاء حالته الذهنية عن معظـــم الناس، لكنّ عميلاً خبيراً مثل موريس، ومدرّباً إلى درجة عالية، سيلاحظ مثل تلـــك الأمـــور، وسيكون الدليل على تدهور حالته الصحية واضحاً للغاية. ولا بد أن موريـــس أخـــبر المســـؤول في تل أبيب، داني ياتوم، أنه سيسحب الطعم... ولتهرب الســـمكة. ولكـــنه لم يفعل ذلك لأسباب لا يعرفها سوى ياتوم نفسه، الذي أمضى سنة كاملة آنذاك في موقعه الحساس، وأراد فعل شيء بنفسه. الغرور، مثل الغطرسة، أحد أكبر الأخطار في عمل الاستخبارات. كان ياتوم يتمتع بالكثير من كلتا الصفتين، وذلك مقبول إلا عندما يعترض طريق الحقيقة. وكانت الحقيقة أن على الموساد الانسحاب.

لم يتم الانسحاب. كانت حاجة ياتوم المتفاقمة لوضع رجل داخل ريتز تقوده. لكنّ أحداثاً أخرى لم يكن أحد قادراً على توقعها كانت تأخذ مجراها.

أفاق موريس على وميض متقطع يعني أن هناك مكالمة واردة عند الساعة 1:58 مـــن بعد منتصف الليل من يوم الأحد في 31 آب سنة 1997. كان المتصل يعمل في وحـــدة درك بـــاريس المسؤولة عن حوادث الطرقات، والذي جنّده موريس قبل بضع ســـنوات؛ ومصنّف تحت *مابواه*، أي مخبر ليس يهودياً. وكان المتصل في أسفل لائحة مخبري موريس الباريسيين.

بغـــضّ النظر عن أي شيء آخر، أذهلت أخبار الحادث المروري موريس. لقد وقـــع الحادث قبل أقل من ساعة على الاتصال عندما اصطدمت مرسيدس بركيزة من الإسمنت المسلح على طريق النفق الغربي تحت مكان يدعى دو لالما، وهو موقع سيئ الصيت لحوادث الطرقات في المدينة.

القتلى كانوا ديانا، أميرة ويلز، ووالدة ملك إنكلترا المستقبلي؛ ودودي الفايد، ابن

محمد المصري المولد ومالك محلات هارودز الملكية وهنري بول. وتعرّض الحرّاس الشخصيون لإصابات بالغة.

طــار موريس عائداً إلى تل أبيب بعد ساعات من الحادث، مع تساؤلات ستبقى دون أجوبة.

هــل لعــب ذلك الضغط أي دور في الحادث؟ هل فقد هنري بول السيطرة على المرســيدس مما تسبّب باصطدامها بالركيزة الإسمنتية الثالثة عشرة في النفق المؤدّي إلــى دو لالمــا، لأنــه لم يجد وسيلة لتخليص نفسه من براثن الموساد؟ هل كان لذلك الضــغط صــلة بمســتوى العقاقير العالي الذي تم إيجاده في دمه؟ وعندما غادر مع الــركاب الــثلاثة فندق ريتز، هل استمر يتأرجح في تفكيره حول ما ينبغي فعله حول ذلك الضغط؟ هل كان مسؤولاً عن حادث مروري مروّع وحسب، أم أنه ضحية جهاز استخبارات قاسٍ لا يرحم؟

اســتمرت الأســئلة فــي التوارد إلى ذهن محمد الفايد. وفي شباط سنة 1998، صــرّح علانــية: "لم يكن ذلك حادثاً. أنا مقتنع بذلك من أعماق قلبي. ولا يمكن إخفاء الحقيقة إلى الأبد".

بعــد خمسة أشهر، بثت شبكة ITV التلفزيونية البريطانية مادة وثائقية تدّعي أن لهنري بول اتصالات مباشرة بالاستخبارات الفرنسية. ولم يكن لديه أي من ذلك. ولمّح الــبرنامج أيضــاً إلى تورط جهاز استخبارات آخر لم يسمّه في الحادث؛ وكان هناك دلائــل غامضــة علــى أن ذلــك الجهاز أقدم على مثل ذلك التصرف لأن الحكومة البريطانية خافت من أن يؤدّي حب ديانا لدودي إلى *تعقيدات سياسية* لأنه كان مصرياً.

لغايــة يومــنا هــذا، مــا زال تورّط الموساد مع هنري بول سرياً للغاية، وهي الطــريقة التــي يفضّــلها ذلك الجهاز. ولم يكن الموساد ليتصرّف بأوامر من خارج إســرائيل. وفي الحقيقة، لا يملك الكثيرون خارج جهاز الموساد أدنى فكرة عن دوره في موت أشهر النساء في العالم.

اســتمر محمــد الفــايد، الــذي اعتبر أن وسائل الإعلام البريطانية تقوم بحملة تحريض ضده، في الإدعاء بأن جهاز استخبارات لم يسمّه كان يحوم حول ابنه وديانا. وفي تموز سنة 1998، أصدر صحفيان يعملان لصالح مجلة التايم Time كتاباً يتضمن إشارةً إلى أن هنري بول ربما يكون على صلة بالاستخبارات الفرنسية. ولم يقدّم الفايد أو الصحفيون أي دليل ملموس على أن هنري بول عميل للاستخبارات أو حتى مخبر، ولم يقترب أي منهم من تحديد طبيعة علاقته بالموساد.

فـــي تموز سنة 1998، سأل محمد الفايد عدداً من الأسئلة في رسالة وجهها إلى كـــل أعضـــاء البرلمان البريطاني، وحثّهم على طرح تلك الأسئلة في مجلس العموم. وادّعـــى: "أن هناك قوة تعمل لحجب الأجوبة التي أريدها". وكان الآخرون يرون في تصـــرفاته رد فعـــل طبيعي من والد حزين على ابنه والذي يندفع في كل الاتجاهات. وتســـتحق تلك الأسئلة أن نُعيد طرحها، ليس لأنها تسلّط الضوء على دور الموساد في حياة هنري بول في الأسابيع الأخيرة التي سبقت الحادث، ولكن لأنها تبيّن حجم الزخم الذي وصلت إليه المأساة بكاملها، والتي لا يستطيع إيقافها سوى الحقائق الفعلية.

كتـــب الفـــايد عـــن خطة للتخلص من ديانا وابنه، وحاول اختصار كل الأحداث اليائســـة بهذه الأسئلة: "لماذا استغرق نقل الأميرة إلى المستشفى ساعة وأربعين دقيقة؟ لمـــاذا فشـــل بعـــض المصورين في تسليم الصور التي في حوزتهم؟ لماذا كان هناك دخـــول بالعـــنوة إلى منـــزل أحد المصورين في لندن والذي يعالج صور البابارازي؟ لماذا لا يوجد فيلم من كل آلات التصوير التلفزيونية في تلك المنطقة من باريس؟ لماذا كانـــت آلات تصوير مراقبة السرعة خالية من الأفلام على طول مسار الرحلة، ولماذا لـــم تكـــن آلات تصـــوير حركة السير فعّالة؟ لماذا لم يتم الحفاظ على إغلاق مسرح الحـــادث، وأُعـــيد افتـــتاحه أمام حركة السير بعد ساعات قليلة؟ من كان الشخص في المجموعـــة الإعلامـــية خارج ريتز الذي ظهر بصفة مصور أخبار؟ من هما الرجلين الغامضـــين اللذين اختلطا بالحشود وجلسا لاحقاً في بار ريتز؟ لقد طلبا شرابهما باللغة الإنكليزية، وكانا يراقبان ويستمعان بطريقة مميزة؟"

لـــم يكن الموساد مهتماً بالعلاقة بين ديانا ودودي. وكان همه الوحيد تجنيد هنري بـــول كمخبر له في ريتز. وفيما يخص مصور الأخبار الغامض: كان الموساد يسمح فـــي الســـابق لعملائـــه بالتخفّي بصفة صحفيين. وقد يكون موريس استمر في الرقابة خـــارج الفندق. وقد يكون للرجلين الغامضين في بار الفندق صلة بالموساد. وسيكون هذا مريحاً دون شك لمحمد الفايد في حال ثبتت صحته.

فـــي ســـنة 1999، كان محمد الفايد يؤمن بوجود خطة مكتملة لما رآه "مؤامرة إجرامـــية مكـــتملة الجوانب". وأصر على أنها من تدبير M15 وM16، والاستخبارات الفرنسية مع الموساد "الذي يتلاعب في الخلفية". وبالنسبة لأولئك الذين كانوا يستمعون لـــه، والذيـــن كانـــت أعدادهم تتناقص باستمرار، أعطى الفايد اسم محرر في صحيفة لندنـــية إضافة إلى صديق مقرّب من ديانا كانا على صلة وثيقة بالاستخبارات السرية البريطانية.

الأسباب التي أدت إلى تورط تلك الاستخبارات في المؤامرة كانت واضحة للغاية في ذهن الفايد. "اتخذت المؤسسة (أشخاص لهم نفوذ واسع) قراراً، إضافة إلى قمة الهرم، بعدم السماح لديانا بالزواج من مسلم، لأنه عندها سيكون لملك إنكلترا المستقبلي، الأمير ويليام، زوج أم عربي وجد عربي آخر. وكان هناك أيضاً خوف حقيقي من أنني سأقدّم المال الذي يسمح لديانا بأن تصبح منافسة لملكة إنكلترا. وستفعل المؤسسة كل ما بوسعها لإنهاء علاقة ابني مع المرأة التي أحبها بصدق".

لم تكن هناك حقائق لدعم هذا الإدّعاء، الذي في حال ثبوته سيسرّع من نهاية العائلة المالكة في بريطانيا، وربما يمهّد الطريق لأزمة ثقة قد تُطيح بالحكومة أيضاً.

بغض النظر عن ذلك، فوّض الفايد المتحدث الرسمي باسمه لوري ماير، الذي عمل سابقاً في إحدى شبكات روبرت مردوخ التلفزيونية، بالتصريح لوسائل الإعلام: "يعتقد محمد بشكل مؤكد أن دي ودودي لقيا حتفهما على يد عملاء موالين للتاج البريطاني وأجهزة استخبارات أخرى شاركت بفاعلية في الجريمة. ويؤمن أيضاً بأن هناك عنصرية متأصلة ضمن المؤسسة".

لإثبات حقيقة حصول الجريمة، استخدم الفايد محقق سكوتلنديارد الخبير السابق جون مكنمارا. وفي بداية سنة 1999، كان المحقق المعسول الكلام يجوب العالم بحثاً عن أدلّة. والتقى خلال رحلته إلى جنيف في سويسرا الضابط السابق في M16، ريتشارد تروملنسون، الذي ادّعى رؤيته لوثائق في مقر قيادة M16 على ضفة نهر التايمز. وأصرّ توملنسون على أنها تصف "خطة لقتل القائد الصربي سلوبودان ميلوزيفيتش، وهي خطة تحمل الكثير من السمات المشتركة مع الطريقة التي مات فيها دي ودودي. وتقول وثيقة M16 إن الحادث يجب أن يقع في نفق لأن فرصة حصول جروح قاتلة كبيرة. وكان السلاح الذي أوصت به الوثيقة قادراً على إطلاق حزمة من الليزر الشديد القوة، والذي يستطيع التسبب بالعمى المؤقت لسائق المركبة الهدف".

رغم كل جهوده، لم يكن مكنمارا قادراً على إيجاد أي دليل مستقل لإثبات ادعاءات توملنسون؛ وفشلت كل الجهود الرامية للحصول على وثيقة M16.

ثم جاءت أخبار أخرى، شبه مؤكّدة، بأن مجلس الأمن القومي الأميركي NSA لديه 1050 صفحة من الوثائق عن الثنائي. ودخل الفايد مباشرة في معركة قانونية في واشنطن للحصول عليها.

قال ماير الموالي له: "كانت عزيمته تشتد كلما زادت ممانعة السلطات". ولكنه، مثل الآخرين، لم يكن يلتقط أنفاسه. "قد تستغرق العملية سنوات للحصول على نتيجة

من خلال النظام".

اكتشفت أن جزءاً من السبب هو أن ديانا ودودي كانا تحت رقابة إيشلون، وهو أحد أكثر أنظمة إدارة الأمن القومي حساسيةً وسريةً. وتعتبر هذه الشبكة الإلكترونية العالمية إحدى أكثر أنظمة التجسس فاعلية. وهي تقوم بوصل الأقمار الصنعية إلى سلسلة من الحواسب العالية السرعة. ويسمح النظام لإدارة الأمن القومي ولحلفائها بالاشتراك في المعلومات - بريطانيا أحد الحلفاء - لاعتراض وفك تشفير كل الاتصالات الإلكترونية في العالم؛ في وقت قياسي. وتبحث شبكة إيشلون عن كلمات رئيسية، وتستطيع تحديد وعزل الرسائل المهمة لمستخدميها.

أطلقت الأميرة ديانا حملتها لإلغاء الألغام الأرضية بعد طلاقها من الأمير تشارلز. وكانت رقيقة، وصريحة واستطاعت جمع الدعم بسرعة لحملتها، وهو الأمر الذي لم يكن موضع ترحيب من قبل إدارة كلينتون أو في لندن والعواصم الأوروبية الأخرى. وكانت بالنسبة للكثيرين تتدخل فيما لا يعنيها، وشخصاً لا يفهم ما يتكلم عنه.

أخبرني مصدر مطّلع في واشنطن: "الحقيقة أن صناعة الألغام الأرضية توفّر آلاف الوظائف. ولا يرغب أحد في رؤية الألغام تُستخدم، لكن لا يرغب أحد بأن يفقد الناس وظائفهم لأن ديانا تضع قبعتها على رأسها". ومن المفهوم بالطبع إصرار ذلك المصدر على عدم ذكر اسمه مقابل هذا التصريح.

كان ظهور دودي في حياة ديانا يعني آلياً أنه أصبح هدفاً لنشاطات إيشلون الاستخباراتية. وسجّلت أقمار إيشلون الصنعية بسرية تامة، ودون علم الحبيبين، كل محادثاتهما مهما كانت حميمة.

في سنة 1997، تمت إضافة اسم محمد الفايد أيضاً إلى برنامج بحث الحاسب العالمي. وقد تكون إيشلون أول من عرف خارج نطاق عائلته عن أمله في زواج ابنه من أميرة ملكية؛ وقد ادّعى أخيراً أنه كان ينوي إعلان خطوبتهما ليلة موتهما.

يوجد الكثير في وثائق مجلس الأمن القومي NSA التي ما تزال تُثير الدهشة، وتقدّم الدليل، من خلال كلمات ديانا نفسها، عن نيتها فعلاً بالزواج من حبيبها.

لم أعرف دور إيشلون سوى قبل فترة قصيرة من إصدار النسخة الأولى لهذا الكتاب في آذار سنة 1999. عرفت وقتها أيضاً الهوس الذي استمر في ملاحقة محمد الفايد حول وفاة ابنه وديانا. لقد تعرّض لصدمة عنيفة غذّاها غضبه وإيمانه بوجود مؤامرة.

قابلت محمد الفايد بعد ظهيرة أحد أيام آذار سراً في قاعته الخاصة في الطابق

الخامس من هارودز. وكان حرّاسه الشخصيون يقومون بحماية الممرات المؤدية للقاعة. وأخبرني الفايد أنهم: "جنود سابقون في SAS، وجميعهم موالون لي. وأدفع لهم رواتب جيدة ليقوموا بحماية حياتي. لقد تعرضت للتهديد مرات عديدة. وسيارتي مضادة للرصاص".

قال هذه الاعترافات بصوت خافت فيما كان يدخل إلى القاعة. ولم أكن واثقاً من فهم ذلك الكلام سواء كتحذير أو كتأكيد على أنني بأمان لإخباره بما يريد سماعه.

لم يُضع الوقت بإخباري ما يريده بالضبط: الوصول إلى كل مصادر الموساد التي أستطيع الاتصال بها. "تُعطيني الأسماء، وهم يعطونني المعلومات التي أريدها. وسأعطيك مليون جنيه بأي عملة تريدها. ولا حاجة لدفع الضرائب. سأتكفّل بكل شيء".

كنت ما أزال حذراً من عنصر تاجر السوق الموجود في الفايد. خلال الدقائق العشرين التالية، أطلق هجوماً لاذعاً لم أكن مستعداً له. وهاجم الملكة والأمير فيليب وشخصيات معروفة فيما أسماه "قوّادي وبغايا المؤسسة". وخصّ الاستخبارات السرية بالقسم الأكبر من سمومه وأطلق عليهم اسم القتلة.

أخذ كتابي، الذي أضاف إليه بعض الملاحظات في الهامش، وقال مجدداً: "الموساد هم الذين يستطيعون إخباري الحقيقة. أحضرهم لي، وسأجعلك رجلاً سعيداً جداً". قبل أن أستطيع قول أي شيء، أطلق هجوماً على هنري بول: "لقد وثقت به، وثقت به فعلاً. وكنت سأفعل أي شيء له لأن دودي كان يحبه. كان ولدي، مثلي تماماً، يثق كثيراً بالناس. وكان ذلك أحد الأسباب التي لأجلها أحبته ديانا، وأرادته زوجاً لها، وأباً لأطفالها. لكنهم لم يرغبوا بذلك. الملكة وزوجها، وخدمها، وشقيقها البغيض الإيرل "سبنسر"... لم يرغب أحد منهم بذلك. لم يرغب أحد منهم بووغ في العائلة. هل تعرف ما هو ووغ (لقب سيئ للعرب في الجيش البريطاني)؟ إنه رجل شرقي وضيع؟ ولم يعتبروا أن دودي رجل نبيل. لقد شوّهوا سمعته عندما كان حياً. واستمروا بفعل ذلك الآن بعد مماته. وكل ما كانت ديانا تحتاجه هو ما قالت لي إنها بحاجة له: شخص تستطيع الوثوق به بعد كل ما مرّت به..."

لا تنقل تلك الكلمات قوة تعبيره، والشتائم التي استخدمها وإيماءات يديه، وفوق كل ذلك العذاب والألم اللذين ظهرا على وجهه. كان محمد الفايد رجلاً يتألم، ولم يكن باستطاعتي سوى الإصغاء فيما كان مستمراً بالإفضاء عن مكنونات صدره.

"هل كنت تعرف أن ديانا كانت حاملاً... ربما في الأسبوع الثامن... وأن دودي،

ابنــي، كــان الأب؟ هــل تعــرف أنـــه في المستشفى في باريس، وبعد موتها، قاموا باستئصـــال الكثـير من أعضائها وأنها عادت إلى لندن مثل المومياء؟ هل تعرف أننا عندما التقينا آخر مرة، أخبرتني عن مدى حبها لدودي وكم هما سعيدان معاً؟"

قلــت له إنني لا أعرف الكثير من هذه الأشياء. وجلس محمد الفايد هناك لدقائق طويلة والدموع تملأ عينيه، ووجهه يختلج كما لو أنه ضائع في عالمه الداخلي.

ثــم قال: "أخبرني من يمكنه مساعدتي لاكتشاف كل الحقيقة حول من دبّر موت ابني وحبيبته ديانا؟"

أخــبرته أن هناك شخصين في ذهني. أحدهما كان فكتور أوستروفسكي (راجع الفصل العاشر). والآخر كان آري بن – ميناش.

قال محمد الفايد بلهجة أمر: "ابحث عنهما. أحضرهما لي". في تلك اللحظة كان هناك أكثر من مجرد تلميح إلى وجود فرعون مستبد بداخله.

اســتغرق الأمــر منـــي أسبوعاً لتحديد مكانيهما. وكان أوستروفسكي يعيش في أريزونا؛ ولم يتكلم معي سوى عبر وسيط، وهو صحفي يعمل لدى مجلة أخبار عربية. وأجرى أوستروفسكي في النهاية محادثة قصيرة مع جون مكنمارا لم تؤدِّ إلى شيء.

كــان آري بن – ميناش قد عاد للتو من أفريقيا عندما تكلمت إليه في مونريال. أخـبرته عــن لقائـــي مع محمد الفايد. وقال بن – ميناش: "ليس كل ما يقوله جنون. وهناك الكثير مما أعرفه. لقد كان هناك وجود استخباراتي أكيد حول ديانا ودودي في أيامهما الأخيرة في باريس".

ووافــق علـــى اللقاء مع محمد الفايد في لندن في الأسبوع التالي، وكان ذلك في بداية نيسان.

ســمع محمد الفايد في ذلك اللقاء من بن – ميناش صدى لما كنت قد سمعته منه أثـــناء لقائي به. وكان بن – ميناش رجلاً يصعب إرضاؤه ومهذباً جداً، وتفاجأ باللغة الانفعالـــية التي استخدمها محمد الفايد لمهاجمة أعضاء في العائلة الملكية. ورغم ذلك، وافــق علـــى إجراء بعض الاتصالات مع تل أبيب ليرى إمكانية إضافة الموساد إلى المادة التي سبق ونشرتها في النسخة الأصلية من هذا الكتاب.

التقى بن – ميناش مع محمد الفايد بعد عشرة أيام في قاعته في هارودز وأخبره أن عــدداً مــن أجهــزة الاســتخبارات "قد يكون لديها قضية ينبغي كشف أغوارها". وأضـــاف بن – ميناش أنه سيكون سعيداً لتسخير جهود كل موظفيه في بناء مثل هذه القضـــية، واقـــترح مقابل أتعاب يصل إلى 750.000 دولار أميركي في السنة إضافة

إلى المصاريف التي سيتم الاتفاق عليها.

أثـناء ذلك، وبشكل مستقل عن بن – ميناش، تابعت طرح أسئلتي لكشف الدور الذي لعبته شبكة إيشلون في الأيام الأخيرة من حياة ديانا ودودي.

اكتشـفت مـن خـلال مصادر في واشنطن وأماكن أخرى أن الثنائي كان تحت المراقـبة باستمرار خلال الأسبوع الذي أمضاه على ساحل إيمرلاند في سردينيا على متـن جونـيكال، اليخت الذي يبلغ طوله 60 متراً والذي يملكه محمد الفايد. وتتبعت إيشلون أيضاً حشد الباباراتزي الذي طاردهما بقوارب سريعة، وعلى الدراجات النارية وفـي السيارات. ولم يمضِ وقت طويل حتى استطاع *جونيكال* تضليل مطارديه. لكن حواسـب إيشلون استطاعت التقاط انـزعاج ديانا بسبب تلك المطاردة. وسجلت شبكة إيشـلون أيضـاً المحادثات بينها وبين دودي، وحديث الثنائي مع حارسهما الشخصي تـريفور ريـيز – جونـز، والتي عكست كلها مزاجها الكدر. وفي ليلة يوم الجمعة، الثامـن والعشـرين من آب سنة 1997، أخبرت دودي أنها تريد الذهاب إلى باريس "بأسرع ما يمكن".

تـم إنهاء الترتيبات في غضون ساعات. وتم جلب طائرة غلفستريم – فور إلى مطـار سردينيا الخاص في اليوم التالي. وتم استئجار خدمات توماس موزو، وهو من سـكان سردينيا، ويمتلك خبرة سنوات طويلة في القيام بجولات حول الجزيرة، لقيادة الثنائي إلى المطار.

كـان انطـباع موزو عن تلك المحادثة تأكيداً مذهلاً لما سجّله أحد أقمار إيشلون الصنعية.

"كانـا يـتحدثان بالإنكليزية، وبكلمات مفعمة بالحب. ومن وقت إلى آخر، كان دودي الـذي يتحدث الإيطالية جيداً، يتكلم معي. ثم يعود إلى الإنكليزية. ورغم أنني لا أتحـدث الإنكليزية جيداً، إلا أن انطباعي كان عن ثنائي يحبان بعضهما البعض كثيراً ويخططان لمستقبلهما".

أصرّت مصادري على أن جزءاً من أشرطة إيشلون تُظهر الثنائي وهما يتحدثان عـن الزواج والحياة التي خططا لها معاً. وكان دودي يؤكد لها دائماً أنه سيعمل على حفظ خصوصيتهما بتطبيق خدمات فريق حماية الفايد.

غـادرت الطائـرة الخاصة سردينيا بعدما قام الطيار بإجراء مكالمة عاجلة مع مركز مراقبة الحركة الجوية الأوروبي في بروكسل ليحصل على أولوية في الإقلاع.

خـلال الـرحلة التي استغرقت ساعتين إلى مطار لوبورجيه، الذي يبعد عشرة

أمـــيال إلـــى الشمال من باريس، كان ركاب الطائرة تحت رقابة إيشلون، وتم تسجيل المحادثـــات بيـــن دي ودودي مـــرة أخـــرى عبر أحد الأقمار الصنعية وإرسالها إلى حواسب فورت ميد في ميريلاند.

رغـــم أن مصـــدري لـــم يكـــن يستطيع تقديم دليل ملموس، إلا أنه كان برأيي الشخصـــي مقتـــنعاً بأن أجزاء من تلك المحادثة ذهبت إلى GCHQ، مركز الاتصالات البريطانـــي. "ووجـــدت طريقها من هناك إلى الأعلى عبر شبكة وايتهول. ومنذ ذلك الوقـــت، كان كل ما تقوله ديانا وأي قرار تتخذه مصدر اهتمام كبير لبعض الأشخاص في السلطة".

وضعت كل هذه المعلومات أمام بن – ميناش. وكان جوابه بسيطاً ولكن مُحبطاً. "أنـــت قريب جداً من الكبس على الزر. لكني لا أستطيع القول إلى أي مدى". كان ما يسعى إليه بن – ميناش بسيطاً، فقد كان يأمل بتوقيع عقد رابح مع محمد الفايد، وكان لا بد أن تمر كل المعلومات عبره أولاً.

في النهاية، لم يتم توقيع العقد. وأراد الفايد أن يرى أولاً الدليل الذي يمكن لبن – ميناش أن يقدّمه قبل أن يوافق على الدفع.

وجـــد بن – ميناش، الذي كان معتاداً أكثر على التعامل مع الحكومات وليس مع "رجـــل لديه أسلوب تاجر السوق"، نفسه يتعامل مع "عدد من مكالمات مكنمارا الهاتفية الهســـتيرية نوعـــاً ما والتي تصرّ على رؤية ما لديَّ من وثائق. كان ذلك مفاجئاً جداً بالنسبة لرجل يمتلك بعض الخبرة عن آلية عمل الاستخبارات السرية من خلال عمله فـــي ســـكوتلنديارد. وكان يجب أن أخبره أن الموساد لا يسلم أي وثائق لديه طواعية. وكـــان يجـــب أن أشـــرح له، مثلما نفعل مع أي وافد جديد، حقائق الحياة في مجتمع الاستخبارات".

رفـــض الفـــايد بعناد الصمت عمّا جرى. ووجد المتحدث الرسمي باسمه لوري مايـــر يخـــوض معارك جديدة مع وسائل الإعلام، التي عارضت بشكل متزايد نظرية الفايد عن "خطة المؤسسة لقتل ابنه وعروسه المستقبلية".

كان بن – ميناش يراقب من بعيد، وشعر بأن الفايد كان "أسوأ أعداء نفسه. ومن بيـــن كل التحريات التي قمت بها، والتي لم تكلفه شيئاً، كان التحقيق البرلماني الذي تم قـــبل أن يتم تعيين شركتي بشكل رسمي، وكان واضحاً أن العائلة الملكية لم يكن لديها ما تجيب عنه. ربما يكونون قد تمنّوا بشكل خاص أن لا تتزوج ديانا من دودي. ولكنّ ذلـــك بعـــيد عن القول إنهم أرادوا قتل الثنائي. ويمكن القول إنني أستطيع الكشف عن

بعض الأدلة التي تشير إلى تواجد بعض أجهزة الاستخبارات حول الثنائي في وقت وفاتهما. وهناك أسئلة جادة لم تتم الإجابة عليها. لكن الفايد لن يحصل على أجوبة إذا استمر بالتصرف على تلك الشاكلة. وهو لا يفهم أساساً عقلية أولئك الذين يحاول إقناعهم. والأسوأ من ذلك أنه محاط بمرؤوسين لا يقولون له سوى "نعم"، ويخبرونه ما يريد سماعه".

في أوائل أيار سنة 1999، طار جون مكنمارا إلى جنيف في سويسرا للقاء ريتشارد توملنسون، الضابط السابق في M16. وطوال أربع سنوات، قاد توملنسون، الذي كان من مسؤولي الاستخبارات البريطانية الرفيعي المستوى، حملة لا هوادة فيها ضد مستخدِميه السابقين. وتم تجنيد توملنسون في جامعة كامبردج من قبل M16 ليكون مكتشف مواهب، وتم صرفه من الخدمة في ربيع سنة 1995 بعدما أخبر الضابط المسؤول عن شؤون الأفراد في جهاز M16 حول صعوبات تنشئته العاطفية.

أخبرني في مكالمة هاتفية أن "مصداقيّتي كلّفتني عملي. وأن القوى الفاعلة قرّرت أنه بالرغم من سجلي المؤثر، إلا أنني أفتقد لميزة الصمت".

وصف توملنسون كيف حاول مقاضاة M16 لطرده من العمل دون سبب وجيه، لكن الحكومة البريطانية استطاعت بنجاح حجب قضيته عن أي محكمة. ثم سحبت عرضها المالي له – "تقودٌ لقاء صمتي" كما وصفها توملنسون – بعد أن قدّم ناشر أسترالي موجز كتاب، كان توملنسون قد أرسله له حول عمله في جهاز الاستخبارات، إلى M16 للحصول على موافقتهم. وتحرّك جهاز M16 بسرعة، وتم اعتقال توملنسون فيما كان يستعد لمغادرة بريطانيا، وحُكم عليه بالسجن سنتين لخرق ميثاق السرية الرسمي.

تم إطلاق سراحه في نيسان سنة 1998، وانتقل توملنسون أولاً إلى باريس وبعدها إلى سويسرا. وبدأ يستخدم منتديات الإنترنت هناك لكشف تفاصيل محرجة جداً عن عمليات M16. وتضمنت تلك المعلومات الكشف عن موظف رفيع المستوى في مصرف ألمانيا المركزي، والادعاء بأن الرجل – اسمه الحركي أوركاديا – خان أسرار بلاده الاقتصادية لصالح البريطانيين. ونشر أيضاً تفاصيل مكيدة قام بها جهاز M16 لاغتيال الرئيس سلوبودان ميلوزيفيتش في صربيا سنة 1992.

ثم جاءت اللحظة التي انتقل فيها من مجرد جاسوس سابق ساخط إلى عالم محمد الفايد، المليء بالأشخاص الذين يؤمنون بنظرية المؤامرة.

كان توملنسون المُعدم تقريباً بالنسبة للملياردير، كما أخبرني الفايد بنفسه: "مثل

علامــة مــن السماء". وشجّع توملنسون على قول كل ما لديه للقاضي الفرنسي الذي يحقّق في موت دي ودودي.

فــي شهادة خطية تحت القسم، ادّعى توملنسون أن M16 كان متورطاً في مقتل الثنائي. وتواجد عملاء الاستخبارات في باريس قبل أسبوعين من مقتلهما، وعقدوا عدّة اجــتماعات مع هنري بول، الذي كان "مخبراً مأجوراً لدى M16". وفي قسم لاحق من شهادته الخطية، زعم توملنسون أن "بول تعرض للعمى المؤقت فيما كان يقود السيارة عــبر الــنفق بســرعة كبــيرة، وهــي التقنية التي تتوافق مع أساليب M16 في تنفيذ الاغتيالات".

قرّبت مثل تلك المزاعم توملنسون من الدائرة الضيقة حول الفايد. وأصبح العميل السابق آنذاك أكثر من مجرد "علامة من السماء". لقد أصبح، كما قال لي الفايد نفسه: "الرجل الذي يستطيع كشف الحقيقة المرعبة عن حادث بهذه الأهمية التاريخية".

وطار مكنمارا إلى جنيف لتشجيع توملنسون على المُضي قدماً في حملته.

كان توملنسون يواجه إفلاساً مزمناً منذ وصوله إلى المدينة. وكان بالكاد يستطيع توفــير إيجار شقته الصغيرة. ولم تُفلح جهوده في كتابة مقالات سياحية بتوفير بعض المــال له. وفشــلت جهــوده أيضاً للعمل كمحقق خاص بسبب خوفه من السفر عبر أوروبــا لأن عملاء M16 "سيخطفونني". وبناءً على نصيحة M16، كان ممنوعاً عليه الســفر إلى الولايات المتحدة، وأستراليا وفرنسا. ووحدها سويسرا وفّرت له ملاذاً آمناً على أرضية أن أي خرق لميثاق السرية الرسمي كان **جريمة سياسية**، وبالتالي لم يكن بالإمكان تسليمه إلى حكومته.

اعتقدت مصادر M16 التي تحدثت لها أن مكنمارا ذهب لرؤية توملنسون لإيجاد حــل لمشــاكل الجاسوس السابق المالية. ومن المؤكد أن توملنسون حصل لاحقاً على تمويــل يكفــي لإطــلاق مــا كــان يدعوه "خياري النووي". وباستخدام أحد برامج مايكروســوفت المــتطورة، والتي نصبّها على حاسبه الشخصي، بدأ توملنسون بنشر أســماء ما يزيد عن مئة عميل يعملون لدى M16 على موقعه الخاص، والمُكلف جداً علــى شبكة الإنترنت؛ من بينهم اثنا عشر عميل قال إنهم متورطون في مؤامرة لقتل ديانا ودودي.

لكــن لم يكن هناك أي دليل حاسم أو ملموس ضد أي من هؤلاء العملاء. ولكنّ أسماءهم أصبحت معروفة حول العالم في غضون ساعات.

حاول جهاز M16 المذهول إغلاق الموقع بيأس، ولكنه كلما نجح في إغلاق أحد

المواقــع، كان هناك آخر. وفي لندن، اعترفت وزارة الخارجية بأن خرق السرية كان الأســوأ منذ الحرب الباردة؛ "وأصبحت حياة بعض عملاء M16 واتصالاتهم معرضة للخطــر". وكــان من الضروري بالتأكيد سحب أولئك الذين ظهرت أسماؤهم والذين يعملون في إيران، والعراق، ولبنان، وبلاد الشرق الأوسط الأخرى بسرعة.

لكــن لــم يخطــر ببال توملنسون أو محمد الفايد أن يكون لذلك تأثير سيئ على قضــيتهم. وكــان الخرق السري الكلي خطيراً جداً لدرجة أن أحداً لم يلاحظ الادعاء بــتورط بعض عملاء M16 في مؤامرة ضد ديانا. وتم تجاهل ذلك واعتباره جزءاً من هوس الفايد.

فــي حزيــران ســنة 1999، أخذت الأمور منحى أكثر جدية عندما نشر موقع هارودز على الإنترنت اسم أحد كبار ضباط M16. وزعم الموقع أن العميل، الذي كان يخدم عندها في البلقان، نسّق "حملة منظّمة" لتشويه صورة الفايد و"تدمير سمعته".

قامت وزارة الدفاع البريطانية بخطوة غير مسبوقة بالتحذير علانية من أن النشر قد عرّض حياة العميل واتصالاته للخطر في كوسوفو وصربيا.

تم الكشف عن هوية العميل إلى جانب قسم يكتب الزوار فيه تعليقاتهم على موت ديانا ودودي.

ووعد لوري ماير، المتحدث باسم هارودز، بإزالة اسم العميل – "من الواضح أن ذلك خطأ".

ظهــرت تقاريــر فــي مجلــة بيلد الألمانية الواسعة الانتشار أن لدى ريتشارد توملنســون دليلاً على قيام هنري بول بوضع جهاز تجسس في الجناح الإمبراطوري فــي فندق ريتز، وأن لديه أشرطة عن "اللحظات الحميمة الأخيرة" بين ديانا ودودي. وقضــى الثنائــي بضــع ســاعات لوحدهما في ذلك الجناح قبل أن يقودهما بول إلى حتفهما.

أصبحت الأشرطة وفقاً لبيلد هدفاً يسعى جهاز M16 لتحديد مكانه.

في ذلك الوقت، قرّر الإيرل سبنسر، شقيق ديانا، التدخّل. وأخبر مشاهدي التلفاز الأميركيين أن أفضل "علاقة تقيمها شقيقته مع دودي الفايد ليست سوى سحابة صيف. وأنه لم يكن لديها أي نية على الإطلاق للزواج منه".

أشــار محمد الفايد، مع ذكر بعض المسوّغات، إلى أن العلاقة بين سبنسر وديانا لم تكن معمّقة وقت وفاتها.

ولم يكن أي من ذلك مفاجئاً لآري بن – ميناش. واستمر في ملاحقة القضية التي

لا تنتهي في محاولات الفايد إثبات "اعتقاده الراسخ أن الملكة والأمير فيليب نظّما مؤامرة لقتل ديانا".

شعر ضابط الاستخبارات الإسرائيلي الواسع الخبرة أن "الفايد فقد الاتجاه باعتماده الكلي على ريتشارد توملنسون. وأنه أصبح يدور في حلقة مفرغة. ورغم ذلك أعرف أنه في حال درس الأمور بشكل ملائم ونظّم تحقيقاً جدياً سيجد بعض الحقائق المثيرة جداً. وهناك شيء غريب جداً في حادثة موت ديانا ودودي، وأنه لا شك في ذلك. وأن هناك قضية ينبغي التحقيق بها. لكن الفايد نفسه شوّش المحاكمة. وربما لا تكون تلك غلطته لأنه محاط بأشخاص يطلبون منه النظر في اتجاه واحد، وليس إلى أي اتجاه آخر. وكان إبقاء الأمور على هذا المنوال بالنسبة لبعضهم يؤمن لهم مبالغ مالية. وكانوا يعرفون أن كل نظرية جديدة يخرجون بها ستشجع الفايد على إنفاق المزيد من النقود في ملاحقتها. ومع مرور الوقت، كان سيتصرف خارج المنطق مع أي دليل قد يتم الكشف عنه".

جاء تلميح عمّا قد يكون ذلك في أواخر حزيران سنة 1999 عندما ظهرت قضية سيارة الفيات أونو البيضاء التي شقّت طريقها من مسرح حادث موت ديانا ودودي. وفي لحظة ما، تحولت سيارة الأونو، التي وجد المحققون آثاراً من طلائها المخدوش في النفق، إلى مجرد كتلة من المعدن المحطم.

جاء ذلك الزعم في تحقيق سري للموساد بدأ في غضون ساعات من الحادث القاتل. وكان رئيس الموساد داني ياتوم قد أمر بذلك التحقيق، والذي كان مهتماً بأن لا تقود محاولات الموساد لتجنيد هنري بول إلى اتهامه بلعب أي دور في موت ديانا.

ركّز التحقيق على فترة امتدت أسبوعين قبل الحادث – أو ما يدعوه الفايد: "ظهور حادث لتغطية جريمة" – والأيام التي تلت ذلك.

اكتشف محققو الموساد أنه إضافة إلى وجود الجهاز في باريس قبل موت الثنائي، كان هناك فريق مؤلف من أربع رجال تابع لجهاز M16. أقاموا في الأسبوع الأول في السفارة البريطانية، لكنهم انتقلوا بعد ذلك إلى شقة مستأجرة – "منزل آمن لـ M16" – قرب ريتز. ونزل أحد أعضاء الفريق في الفندق نفسه قبل أربعة أيام من موت دودي وديانا.

كشف تقرير الموساد عن وصول فريق من CIA إلى المدينة قرابة 14 – 15 آب. وكان الفريق يتعقّب ديانا منذ بعض الوقت ويراقب هجومها على مصنّعي الألغام الأرضية، والذين كان معظمهم يقيم على الأراضي الأميركية.

شـكّلت تقارير CIA جزءاً من الوثائق التي تبلغ 1051 صفحة، والتي كان على محمـد الفـايد خوض معركة قضائية للحصول على نسخ منها. وادّعت وزارة العدل الأميركية أن الوثائق تحتوي على مواد حساسة للأمن القومي.

قال تقرير الموساد إن حساسية الوثائق ربما تشير إلى السبب الذي طلبت بموجبه بريطانيا مساعدة الولايات المتحدة في مراقبة ديانا.

أصـرّ الفـايد على أن "بريطانيا كانت تراها مدفعاً مضاداً. وفي الحقيقة، كانت امرأة تتمتع بشجاعة عظيمة ومستعدة لمواجهة قضية الألغام الأرضية".

كشـفت تحقيقات الموساد تفاصيل عن السرعة التي غادر بها أفراد الاستخبارات السرية المختلفين باريس بعد مقتل ديانا ودودي.

يتضـمن تقرير الموساد جدولاً مفصلاً للساعات الأخيرة في حياة دودي وديانا. واعـتمد الـتقرير بشكل أساسي على ملاحظات موريس ومخبريه المباشرة. وجاءت معلومـات أخـرى مـن قـناة خلفية للموساد نتيجة اتصالاته مع عملاء في العاصمة الفرنسية، ومن M16، وCIA والاستخبارات الفرنسية.

قـال محمـد الفـايد بإصرار: "أخبرني ضابط استخبارات إسرائيلي سابق رفيع المستوى أن كل أجهزة الاستخبارات تلك كانت تراقب ديانا ودودي لمصالح مختلفة".

يـبدأ تسجيل الموساد للحظات الأخيرة في حياة ديانا ودودي عند الساعة 11:45 مسـاءً مـن يوم السبت، 29 آب سنة 1997، عندما تسلّم هنري بول مسؤولية عملية إخراجهم من فندق ريتز.

ما يزال محمد الفايد يتذكّر بوضوح التعليمات التي نقلها هاتفياً إلى بول.

"أخـبرته أن عليه القيادة بحذر، وأنه يجب أن لا ينسى أبداً أن بين يديه أم ملك إنكلـترا المسـتقبلي وابني الحبيب. ووثقت أن لن ينسى ذلك أبداً. والله وحده يعلم كم وثقت به، ووحده يعلم سبب ذلك".

كـان المدخـل التالي للموساد في الساعة 11:50 مساءً. وكان تريفور رييز – جونـز، المفروض به حماية ديانا ودودي، موجوداً في بار ريتز ومجتمعاً مع رجال أمن آخرين من موظفي الفندق وهنري بول يناقشون مسار الرحلة التي سيسلكها.

كـان بـول مـتفائلاً جـداً. وقـال إن الفندق سيقدّم سيارتي رنج روفر كتمويه للـبابارازي الذيـن ينـتظرون أمام البوابة. وسيمنحه ذلك وقتاً كافياً للابتعاد. ويشير التقرير إلى أن رييز – جونـز قال عن الخطة إنها "تبدو جيدة لي".

00:15 صباح يوم السبت في 30 آب. استخدم هنري بول هاتفه الخلوي في بهو

الفندق لتحريك مركبتي التمويه.

00:19 صباحاً خرجت مركبتا التمويه من جادة فيندوم المواجهة لفندق ريتز. وطاردهما البابارازي.

00:20 صباحاً، وصل بول بالمرسيدس إلى بوابة الفندق الخلفية. ورآه أحد شهود العيان الذين استجوبهم الموساد لاحقاً "ينقر أصابعه بعصبية على المقود".

00:21 صباحاً، راقب أحد عملاء الموساد في نهاية شارع كامبون. وقال لاحقاً إن "سيارة فيات أونو بيضاء مرّت من الشارع".

أشار تقرير الموساد إلى وجود رجلين في السيارة يعملان لصالح الاستخبارات السرية الفرنسية DST؛ المعروفة على نطاق واسع باسم "إدارة رقابة الأراضي الفرنسية"، وهي أكبر وأقوى أجهزة الاستخبارات الفرنسية. وتعمل تلك الإدارة، التي يبلغ تعداد موظفيها عدّة آلاف، داخلياً وخارجياً. وتتضمن مهامها الواسعة النطاق مراقبة كل السفارات الأجنبية في باريس، والقيام بعدد من العمليات السرية. وتقدم تقاريرها إلى وزير الداخلية.

00:22 صباحاً، عبرت الفيات أونو أمام إشارة ضوئية في شارع الكونكورد. وتوقفت المرسيدس التي يقودها هنري بول عند الإشارة.

00:23 صباحاً، اقتربت المرسيدس من نفق ألما. وشاهد هنري بول بكل تأكيد الأونو البيضاء أمامه.

00:24 صباحاً، مرّت المرسيدس التي تسير بسرعة عالية في مدخل النفق. ولا بد أن ديانا ودودي اللذين كانا يجلسان في المقعد الخلفي قد اختبرا لجزء من الثانية إحساساً لا يشبه الركوب في أفعوانية.

وبعد ثوانٍ قليلة، انطلق صوت مدوٍّ داخل النفق. صوت تحطّم معدن بدا وكأنه يستمر ويستمر.

هنري بول ودودي كانا ميتين. وكانت ديانا تحتضر.

بعد لحظات، ووفقاً لتقرير الموساد، اندفعت الأونو البيضاء إلى شارع جانبي في جادة مونتالن. وكانت هناك شاحنة مغلقة تنتظر وبابها الخلفي مفتوح. اندفعت الأونو إلى الشاحنة، وتم إغلاق الباب.

بعد ساعات، تم وضع الأونو في آلة سحق المعادن، وتحولت إلى قطعة من المعدن المسحوق الخالي من أي علامة مميزة.

هناك، وفي وقت تأليف هذا الكتاب، بقيت الأمور على حالها. هل يستطيع

توملنســون تقديــم أي شــيء جديد؟ هل سيتمكن بن – ميناش من إيجاد الدليل الذي سيرضــي أخيراً إيمان الفايد بوجود مؤامرة؟ هل كانت ديانا حقيقة حاملاً وقت وفاتها؟ هــل أعمــى الحزن المصحوب بالغضب محمد الفايد بحيث أصبح مستعداً لجعل هذه النظرية مناسبة للوقائع؟

ســتظهر هــذه الأسئلة من جديد في هذا القرن الجديد. لكن إجاباتها قد لا تكون كافية أبداً لإرضاء محمد الفايد وإقناع كل أولئك الذين يعتقدون أنه رجل مُضلل بشكل خطــير، ويستخدم مبالغ طائلة من المال لتثبيت حقيقة ربما – فقط ربما – تكون داخل خزنة لا يملك مفتاحها سوى جميع المتورطين فيها.

شــعر بعض زملاء موريس بأن محاولة الإيقاع بهنري بول كانت دليلاً إضافياً علــى انفلات الموساد خارج السيطرة، وقيامه بتنفيذ عمليات دولية متهورة دون الأخذ بالحســبان العواقب المحتملة الطويلة الأمد على الجهاز نفسه، وعلى إسرائيل، وعلى السلام في الشرق الأوسط، وأخيراً على العلاقة مع أقدم وأوثق صديق للدولة اليهودية؛ الولايــات المــتحدة الأميركية. وقال الكثير من الضباط إن الأمور ساءت منذ أصبح بنيامين نتنياهو رئيساً للوزراء في سنة 1996.

قــال مســؤول قديم في الاستخبارات الإسرائيلية: "ينظر الناس إلى أولئك الذين يعملــون لصــالح الموســاد على أنهم قتلة يتنكرون بهيئة وطنيين. وذلك سيئ لنا [و] لمعنوياتــنا، وفــي الــنهاية، ســيكون لذلــك تأثير سيئ على علاقة الموساد بأجهزة الاستخبارات الأخرى".

كــان ضابط استخبارات إسرائيلي خبيراً آخر فظاً بنفس القدر: "تصرف نتنياهو كمــا لو أن الموساد جزء من نسخته عن *طاولة الملك آرثر*؛ وإذا لم يكن هناك شيء جديــد كل يوم، فإن فرسان طاولته المستديرة سيشعرون بالملل. ولهذا ساءت الأمور كثيراً بالنسبة للموساد. وهناك حاجة لدق ناقوس الخطر قبل أن يفوت الأوان".

كــان أول درس تعلّمته خلال ربع قرن من الكتابة حول الاستخبارات السرية أن الخــداع وتزيــيف المعلومــات مــن صلب أعمالها، إضافة إلى التخريب، والفساد، والابتزاز والاغتيال أحياناً. ويتم تدريب العملاء على الكذب واستغلال الصداقات. وهم لا يؤمنون بالمثل القائل "الرجل النبيل لا يقرأ بريد الآخرين".

اصــطدمت بذلك التصرف أول مرة فيما كنت أحقق في فضائح التجسس الكبيرة خــلال الحرب الباردة: خيانة أسرار القنبلة النووية الأميركية من قبل كلاوس فوكس، وفضائح M15 وM16 البريطانيتين على يد غاي بورغس، ودونالد ماكلين، وكيم فيلبي،

والذيــن اقــترف كل منهم خيانة وأصبح مضرباً للمثل. وكنت أيضاً واحداً من أوائل المؤلفين الذين كتبوا عن هوس CIA بالسيطرة الذهنية، وهو مشروع اضطرت الإدارة للاعــتراف بــه بعد عشر سنوات من نشر كتابي عن الموضوع *رحلة نحو الجنون*. والإنكار هو الفن الأسود الذي تتقنه كل أجهزة الاستخبارات السرية في العالم.

رغم ذلك، وفي محاولة للوصول إلى الحقيقة، قدّم لي ضابطا استخبارات مساعدة قـيّمة: جواكيم كرانر، والد زوجتي الأخيرة، والذي ترأس شبكة M16 في درسدن في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، وبيل بوكلي، الذي كان رئيس وحدة CIA فــي بيروت. وكان الرجلان متشابهين جسدياً: طويلان، نحيلان وأنيقان مع قدرة على مواجهــة المشاكل بشكل بارع. ولم تكن أعينهما تكشف شيئاً؛ ما عدا القول إنك إذا لم تكــن جــزءاً مــن الحــل، فلا بد أنك جزء من المشكلة. وهما مرعبان ثقافياً، وكان انتقادهما لأجهزة الاستخبارات التي عملا لديها في وقت ما صارماً.

كــان الاثــنان يذكّرانني باستمرار أنه يمكن سماع الصفقة العظيمة مما كان بيل يدعوه "شائعات في النــزهة": اشتباك قاتل يحدث في زُقاق دون ذكر الأسماء؛ والتقاط الأنفــاس الجماعي عندما يتم كشف عميل أو شبكة؛ وعملية سرية تتطلب سنوات من بــناء الجســور السياسية العلنية؛ وقُصاصة من معلومات عادية تُكمل شبكة تقاطعات اســتخباراتية معينة. وأضاف جواكيم أنه "في بعض الأحيان تستطيع كلمات قليلة، يتم سماعها صُدفة، إلقاء الضوء على شيء ما".

كان الاثنان فخورين بكونهما عضوين فيما يدعوانه: "ثاني أقدم مهنة"، ولم يكونا صــديقين لي وحسب، وإنما أقنعاني بأن الاستخبارات السرية هي المفتاح للفهم الكامل للعلاقــات الدولية، والسياسات العالمية والدبلوماسية، وبالطبع الإرهاب. استطعت من خلالهمــا تكويــن علاقات مع عدد من أفراد أجهزة الاستخبارات العسكرية والمدنية: BND الألمانية، وDGSE الفرنسية؛ وCIA، والاستخبارات الكندية والبريطانية.

مات جواكيم بعد التقاعد، فيما قتل إسلامي متشدّد بيل بعد أن اختطفه في بيروت وأثار أزمة الرهائن الغربيين في تلك المدينة.

التقيت أيضاً أعضاء الاستخبارات الإسرائيلية الذين ساعدوني أولاً في فهم خلفية محمــد علــي آغا، المتعصب التركي الذي حاول اغتيال البابا يوحنا بولس في ساحة القديــس بطــرس فــي رومــا، في أيار سنة 1981. ونظّم لي تلك العلاقات سيمون فايزنــثال، مطــارد النازييــن المعروف ومصدر لا يقدّر بثمن للموساد لمدة تزيد عن الأربعين سنة. وبسبب شهرته وسمعته، ما يزال فايزنثال يجد الأبواب مفتوحة بسهولة

أمامه، خصوصاً في واشنطن.

تعلّمـــت فـــي تلك المدينة في آذار سنة 1986 عن العلاقة المحيرة بين مجتمعي الاستخبارات في كل من الولايات المتحدة وإسرائيل. وكنت هناك لمقابلة ويليام كيسي، والـــذي كان عندها مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية CIA، لإنهاء كتابي *رحلة نحو الجنون*، والذي يبحث في جزء منه موت بيل بوكلي.

كان كيسي، رغم لباسه الأنيق، شخصاً متثاقلاً. وكان وجهه البارز الفكين شاحباً، وكان هناك دوائر حمراء حول عينيه عندما جلسنا في نادي واشنطن؛ وكان يبدو مثل شخص فقد القدرة على الاحتمال بعد خمس سنوات قضاها في إدارة CIA.

أكّـــد في بداية اللقاء على شروط الاجتماع. لا ملاحظات، لا تسجيل؛ وأي شيء يقولـــه يجب أن يبقى سرياً. ثم قدّم لي ورقة طُبع عليها تفاصيل سيرته الذاتية. لقد ولد فـــي نيويورك في 13 آذار سنة 1913، وتخرّج من جامعة سانت جونـــز سنة 1937 مع إجازة في الحقوق. وتم استدعاؤه إلى احتياط البحرية الأميركية سنة 1943، وانتقل خـــلال أشهر إلى **مكتب الخدمات الاستراتيجية**، وهو الاسم السابق لـــ CIA. وفي سنة 1944، أصـــبح رئيســـاً لوحدة OSS، وهي فرع الاستخبارات الخاص في أوروبا. ثم أصبح رئيساً للجنة الأمن والتعاون (1971 – 73)؛ وبعدها وفي تعاقب سريع، أصبح نائب وزير الخارجية للشؤون الاقتصادية (1973 – 74)؛ ورئيس مجلس إدارة ومدير مصـــرف الاســـتيراد – التصدير في الولايات المتحدة (1974 – 76)؛ وعضواً في المجلـــس الاستشاري للاستخبارات الخارجية التابع للرئيس (1976 – 77). وفي سنة 1980، أصـــبح رئيس الحملة الانتخابية لمحاولة رونالد ريغان للوصول إلى الرئاسة. وبعـــد سنة، وفي 28 كانون الثاني سنة 1981، عيّنه ريغان DCI، ليكون بذلك الرجل الثالث عشر الذي يتولّى إدارة أقوى أجهزة الاستخبارات الأميركية.

في ردّ فعل على ملاحظتي بأنه يبدو محاطاً بأيدٍ أمينة نقلته بين عدد من المواقع، ارتشـــف كيســـي بعـــض المـــاء وتمتم أنه "لا يريد الدخول في الجانب الشخصي من الأمور".

أعـــاد الورقة إلى جيبه، وجلس متحفزاً ينتظر سؤالي الأول: ما هي المعلومات التـــي يمكـــنه تـــزويدي بها عن بيل بوكلي، الذي تم اختطافه قبل سنتين تقريباً – يوم الجمعـــة 16 آذار ســـنة 1984 – في بيروت ولقي حتفه. وأردت معرفة الجهود التي بذلـــتها CIA في محاولة إنقاذ حياة بيل. وقد أمضيت وقتاً في الشرق الأوسط، بما فيها إسرائيل، محاولاً تجميع الصورة.

قاطعني كيسي: "هل تكلّمت مع نعوم أدموني أو أيّ من رجاله؟"

أصبح نعوم أدموني رئيساً للموساد سنة 1982. وعلمت في حفلة كوكتيل لسفارة تـل أبيـب أنه شخص عنيد. ووصف كيسي شخصية أدموني بأنه "يهودي يريد الفوز بمسـابقة تبوّل في ليلة ماطرة في غدانسك". والشيء المؤكد أن أدموني ولد في القدس سـنة 1929، وهو ابن مهاجرين بولنديين من الطبقة الوسطى. تلقّى تعليمه في مدينة ريهافـا - جيمنـيزيوم، وطـوّر مهاراتـه اللغوية التي منحته شارة الملازم كضابط استخبارات في حرب العام 1948.

وكان حُكم كيسي أن "أدموني يستطيع فهم ست لغات".

درس أدموني لاحقاً العلاقات الدولية في باركلي، وعلّم المادة في مدرسة تدريب الموسـاد فـي ضواحي تل أبيب. وعمل أيضاً متخفياً في إثيوبيا، وباريس وواشنطن حيـث بنى علاقات وثيقة مع سلفي كيسي في المنصب ريتشارد هيلمز وويليام كولبي. وسـاعدت تلـك المناصـب فـي تحويل أدموني إلى موظف استخبارات بيروقراطي معسـول الكلام، وعندما أصبح رئيساً للموساد، وصفه كيسي بأنه: "يدير سفينة متينة. وهو اجتماعي بطبعه، ولديه عين ثاقبة ويعرف ما هو الأفضل لإسرائيل".

ووصـف كيسـي تـدرّج رجـل الاستخبارات في المواقع بالقول: "تسلق عبر المناصب بسبب مهاراته في تفادي ذرة مسؤوليه".

جاءت كلماته التالية بنفس الصوت الخافت. "لا يستطيع أحد مفاجأتك مثل شخص يـبدو أنه يتخذ موقفاً ودوداً تجاهك. وأدركنا بمرور الوقت أن أدموني لن يفعل شيئاً، وأن بـيل بوكلـي ميت. وتذكّر كيف كانت الأمور هناك في ذلك الوقت؟ لقد حصلت مجزرة لحوالى ألف فلسطيني في مخيّمي اللاجئين في بيروت. ونفّذت القوات اللبنانية المسيحية عمليات القتل؛ ونظر اليهود إلى الأمر باعتباره مناقضاً للإنجيل. في الحقيقة، كان أدموني مشتركاً مع الجميّل.

كان بشير الجميّل رئيساً لتلك المليشيا، وأصبح لاحقاً رئيساً للبنان.

"كنا نتحكّم بالجميّل أيضاً، لكنني لم أثق به أبداً. وعمل أدموني مع الجميّل طوال الوقت الذي كان بوكلي يتعرض فيه للتعذيب. ولم يكن لدينا أي فكرة عن مكان احتجاز بوكلـي فـي بيروت. وطلبنا من أدموني اكتشاف ذلك. وقال إن لا مشكلة في الأمر. وانـتظرنا وانتظرنا. وأرسلنا أفضل رجالنا إلى تل أبيب للعمل مع الموساد. وقلنا لهم إن المال ليس مشكلة. وتابع أدموني القول: حسناً، مفهوم".

وارتشف كيسي المزيد من الماء، وبدا كما لو أنه حبيس عالمه الخاص. وجاءت

كلماته التالية فاترة، مثل حاجب هيئة المحلفين الذي يسلّم القرار.

"الشـــيء التالـــي الذي حاول أدموني بيعه لنا هو أن منظمة التحرير الفلسطينية وراء عملـــية الخطـــف. وكنا نعرف أن الإسرائيليين مستعدون دائماً لإلقاء اللوم على ياســـر عـــرفات، ولم نستمع إليهم في البداية. لكن كلام أدموني كان يبدو حقيقياً. وقد حضّـــر قضية جيدة. واكتشفنا بمرور الوقت أنه ليس ياسر عرفات، وكان الوقت يمر بالنسبة لبوكلي".

ألقـــى كيســـي نظـــرة خاطفة غير مكتملة حول ما تعتقد CIA أنه حصل مع بيل بوكلـــي: لم يفعل الموساد شيئاً لإنقاذه على أمل أن يتم إلقاء اللوم على منظمة التحرير الفلســـطينية، وهكذا تتلاشى آمال عرفات اليائسة في الحصول على تعاطف واشنطن. وهـــذا يُلقـــي الضـــوء على العلاقة بين جهازي الاستخبارات اللذين يُفترض أن يكونا متعاونين مع بعضهما البعض.

أظهـــر كيسي جانباً آخر من العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل عدا الدعم المالـــي والأهداف المعلنة الأخرى والتماسك الأميركي - اليهودي التي حولت الدولة اليهودية إلى قوة إقليمية عظمى لا تخاف العدو العربي.

قـــبل أن نفترق، كان لكيسي كلمة أخيرة: "تبتكر الأمة مجتمع الاستخبارات الذي تحـــتاجه. وتعتمد أميركا على المعرفة التقنية لأننا مهتمون بالاكتشافات وليس بالحكم الســـري. ويعمـــل الإســـرائيليون بشكل مختلف. والدافع لأعمال الموساد، على وجه الخصوص، هو بقاء الدولة على قيد الحياة".

جعل هذا الموقف الموساد حصيناً عن التدقيق الشديد في أعماله. لكن بعد سنتين مـــن الأبحـــاث لتألـــيف هذه الكتاب، دفعت سلسلة من الأخطاء - الفضائح في بعض الحالات - إلى وضع الجهاز تحت مجهر الوعي الشعبي. وتم طرح تساؤلات، وعندما لـــم تكن هناك إجابات، بدأت تظهر فجوات في درع الحماية الذي ارتداه الموساد ضد العالم الخارجي.

تكلّمـــت مـــع أكـــثر من مئة شخص إما موظفين مباشرة أو يعملون بشكل غير مباشـــر مع الموساد أو أجهزة الاستخبارات الأخرى. واستغرقت المقابلات معهم أكثر مـــن سنتين ونصف. ووافق العديد من مسؤولي الموساد الرفيعي المستوى على إجراء مقـــابلات مســـجّلة والتـــي تمتد على أكثر من ثمانين ساعة، وأخذت حوالى 5.800 صـــفحة. وهناك أيضاً حوالى خمسة عشر دفتراً كبيراً مليئاً بالملاحظات المتزامنة مع التسجيلات. ووجدت تلك المواد، مثلما جرى مع كتبي السابقة، طريقها إلى قسم البحث

فــي مكتــبة الجامعــة. وحثّنـــي الكثــيرون ممن تحدثت إليهم للتركيز على الأحداث المعاصـــرة؛ وأن لا يــتم اســتخدام الماضي سوى لتفسير الأحداث ذات العلاقة بدور الموســاد في جبهات التجسس وجمع المعلومات الاستخباراتية الحالية. وأجريت الكثير مــن المقابلات مع مشتركين لم يتم توجيه أسئلة لهم من قبل؛ ولا يمكن أن ينتج عادةً عــن أي ســبر لها تفسيرات مريحة وبسيطة للطريقة التي يتصرفون أو يتصرف بها الآخــرون. وتكلــم الكثــيرون منهم بصراحة مفاجئة، رغم أن بعضهم لم يوافق على الــتعريف بنفسه في الكتاب. وفي حالة أفراد الموساد العاملين، ممنوع عليهم بموجب القــانون الإســرائيلي نشر أسمائهم طواعية. وطلبت بعض المصادر غير الإسرائيلية ضمانات لإبقاء أسمائها مجهولة وحصلت على ما أرادت.

يمكــن تشبيه المخطط البياني للمنظمة بصحيفة تحاول تجميع المقالات والصدور علانــية، لكــن العديــد من المصادر يبقى ضمن المساحات الفارغة. وما زالت تلك المصــادر تأخذ مسألة الكشف عنها على محمل الجد، وتمنّى بعضها أن يتم التعريف علــيه علــى هذه الصفحات إما باسم مستعار أو باسمه الأول فقط: ولا يقلل ذلك من شهادتهم بأي حال. وقد تتنوع دوافعهم الشخصية لكسر حاجز الصمت: الحاجة لتأمين مكــان لهــم في التاريخ؛ الرغبة في تسويغ أفعالهم؛ حكايات الشيخوخة، وربما تكون عملية تكفير عن الأخطاء. ويمكن قول الشيء نفسه عن أولئك الأشخاص الذين وافقوا على كشف هوياتهم.

ربمــا يكون الحافز الأقوى الذي دفعهم لكسر حاجز الصمت الخوف الحقيقي من تعرّض المنظمة التي خدموها بكل فخر لمخاطر متزايدة من داخلها؛ والطريقة الوحيدة لإنقاذهــا هــي بالكشــف عما حققته في الماضي وما تفعله في الحاضر. ويتطلّب فهم وجهات النظر المختلفة معرفة كيفية ومتى تم إنشاؤها.

الفصل الثاني

قبـــل البـــدايـــة

منذ الفجر، جاء المؤمنون إلى حائط المبكى، وهو الأثر الباقي من الهيكل الثاني فـــي القـــدس. الشباب والشيوخ، النحيلون والبدناء، الملتحون والحليقون: شقوا جميعاً طريقهم عبر الشوارع الضيقة أو من خارج أسوار المدينة.

مشـــى الموظفـــون الحكوميون مع الكهنة من التلال خلف القدس؛ ومشى أفراد الفرق الموسيقية الشباب بفخر مع رجل في خريف العمر. ومشى معلّمون من مدارس المديـــنة الدينـــية كـــتفاً بكتف مع أصحاب المتاجر الذين جاءوا في رحلة طويلة من مسافات بعيدة، من حيفا، وتل أبيب والقرى حول بحيرة طبرية.

كـــان الجمـــيع يرتدون أزياء سوداء غير موحّدة، وحمل كل منهم كتاب صلاة، ووقف أمام حائط المبكى ليتلو أقساماً من الكتاب المقدّس.

كان اليهود يقومون بهذا العمل منذ فجر التاريخ. وكان الحاخامات يدفعون بأكبر عدد ممكن من الناس للاتحاد في الصلاة العلنية، وأن يُظهروا تصميمهم على حقهم في القـــيام بذلـــك. ولـــم يكن ذلك مجرد تعبير عن إيمانهم، ولكنه أيضاً رمز ظاهر عن "الحـــركة الصـــهيونية"، وتذكـــير للسكان العرب الذين يفوقونهم عدداً بكثير بأنهم لن يخافوا.

كانـــت هناك شائعات طوال أشهر أن السكان المسلمين غاضبون جداً من تزايد نشـــاط الصهاينة. وبدأت تلك المخاوف مع "إعلان بلفور" سنة 1917، والتزامه بإيجاد وطـــن لليهود في فلسطين. كان ذلك بالنسبة للعرب اغتصاباً. وأصبحت الأرض التي زرعوهـــا لقـــرون عديدة مهددة، وربما يأخذها منهم الصهاينة وحماتهم البريطانيون، والذين وصلوا إلى فلسطين في نهاية الحرب العالمية الأولى ووضعوها تحت الانتداب. حكـــم البريطانـــيون تلـــك البلاد بنفس الطريقة التي تعاملوا بها مع أجزاء أخرى من الإمـــبراطورية، وحـــاولوا إسعاد كلا الجانبين. كانت تلك علامة على حدوث كارثة. تصـــاعد الـــتوتر بين اليهود والعرب، وكان هناك اشتباكات وإراقة دماء، وغالباً في

الأماكـــن التـــي أراد الـــيهود بـــناء كنائسهم ومدارسهم الدينية فيها. لكن اليهود كانوا مصممين بعناد على ممارسة "حقوقهم في الصلاة" عند حائط المبكى في القدس. وكان ذلك بالنسبة لهم جوهر عقيدتهم.

بحلول منتصف النهار، وهو وقت صلاة الظهر عند اليهود، كان هناك حشد من ألـــف شـــخص يقـــرأون عالياً الكلمات القديمة من الكتاب المقدّس أمام جدار حجارته صفراء اللون. وكان لارتفاع وانخفاض أصواتهم إيقاع خاص به.

بعـــد ذلـــك انهالـــت عليهم بسرعة مذهلة المقذوفات؛ حجارة، وقوارير مكسورة وعلـــب معدنـــية مليئة بقطع الصخور. وأطلق العرب الهجوم من مواقع مختارة حول حـــائط المـــبكى. أطلق مسلمون ملثمون أول شرارة لاشتباك ناري عندما فتحوا وابل أسـلحتهم مـــن رصـــاص البنادق على اليهود. سقط بعض اليهود، وسحبهم من كانوا بجوارهـــم أثـــناء هروبهم. وكانت معجزة أن أحداً لم يُقتل، رغم أنه تم تسجيل بعض الإصابات.

الـــتقى قادة **يشف**، وهم جماعة يهودية في فلسطين، في تلك الليلة. وسرعان ما أدركـــوا أن أفعـــالهم المخططـــة بعناية تفتقد لعنصر أساسي: المعرفة المسبقة بنوايا العرب.

تحـــدث أحـــد مـــن حضـــروا الاجتماع نيابة عن الجميع: "يجب أن نتلو الكتاب المقدّس. ومنذ أيام الملك داوود، اعتمد شعبنا على الاستخبارات الجيدة".

أثـــناء شـــربهم أكواباً من القهوة، وتناولهم بعض فطائر اللحم، زرعوا بذور ما سيصبح يوماً ما أحد أقوى أجهزة الاستخبارات في العالم: الموساد. لكن إنشاء الجهاز لـــم يـــتم ســـوى بعد مضي ربع قرن على ذلك الاجتماع. وكل ما استطاع قادة **يشف** الاتفـــاق عليه كخطوة عملية أولى في ليلة أيلول دافئة كان إنشاء صندوق من الأموال التـــي يستطيعون توفيرها، والطلب من جيرانهم فعل الشيء نفسه. وكانوا يستخدمون الأمـــوال لرشوة العرب الذين كانوا ما يزالون متساهلين تجاه اليهود، والقادرين على تحذيرهم من هجمات أخرى محتملة.

في تلك الأثناء، استمر اليهود في ممارسة حقهم بالصلاة عند حائط المبكى. ولم يعـــتمدوا على البريطانيين لتأمين الحماية لهم، وإنما على **الهاغانا** للدفاع عنهم، وهي المليشـــيا اليهودية المشكّلة حديثاً. وفي الشهور التالية، أحبط مزيج من الإنذار المبكر ووجـــود المليشـــيا هجمـــات العرب. وساد الهدوء النسبي بين العرب واليهود خلال السنوات الخمس التالية.

في تلك الفترة، استمر اليهود في توسيع جمع المعلومات الاستخباراتية دون اسم أو قيادة رسمية. واستمروا في تجنيد المزيد من العرب على القاعدة الآتية: الباعة الجوّالون الذين يعملون في أحياء القدس العربية، وفتيان مسح الأحذية الذين يلمّعون أحذية ضباط الانتداب، إضافة إلى طلاب من كلية *الروضة* العربية المهيبة، والمدرسون، ورجال الأعمال. كان باستطاعة أي يهودي تجنيد جاسوس عربي؛ والشرط الوحيد كان المشاركة في المعلومات. حصلت يشف ببطء، ولكن بثبات على معلومات هامة ليس فقط عن العرب ولكن أيضاً عن النوايا البريطانية.

تسبّب مجيء هتلر إلى السلطة سنة 1933 ببدء هجرة اليهود الألمان الجماعية إلى فلسطين. وبحلول سنة 1936، كان مئات الآلاف منهم قد قاموا بتلك الرحلة الطويلة من أوروبا؛ ووجدوا ملاذاً آمناً في الأراضي المقدّسة. استطاعت يشف تأمين الطعام والإقامة لهم نوعاً ما. وفي غضون أشهر، وصل عدد اليهود إلى ما يقرب من ثلث السكان. وكان ردّ فعل العرب كما كان سابقاً: علت صرخات الشيوخ من مآذن مئات المساجد لإلقاء الصهاينة في البحر.

علت أصوات احتجاجات غاضبة في كل *مضافة* عربية، وهي المنزل الذي يلتقي فيه أعضاء المجالس المحلية العربية: يجب منع اليهود من الاستيلاء على أرضنا؛ ويجب منع البريطانيين من تزويدهم بالسلاح وتدريبهم.

احتجّ اليهود في المقابل بأن العكس صحيح، وأن البريطانيين يشجّعون العرب على سرقة الأراضي التي دفعوا ثمنها بشكل قانوني.

استمر البريطانيون في محاولة استرضاء الطرفين، وفشلوا. وفي سنة 1936، تطورت الاشتباكات المتفرقة إلى ثورة عربية واسعة النطاق ضد كل من البريطانيين واليهود. أخمد البريطانيون العصيان بقسوة. لكنّ اليهود أدركوا أنها مجرد مسألة وقت قبل أن يثور غضب العرب مجدداً.

اندفع اليهود في طول البلاد للانضمام إلى **الهاغانا**، والتي أصبحت نواة جيش سري مخيف: مدرّب جسدياً، ومزوّد بسلاح متطور وماكر مثل ثعلب صحراء النقب.

كانت شبكة المخبرين العرب تتسع. وتم إنشاء قسم سياسي في **الهاغانا** لنشر الأكاذيب عبر تزييف المعلومات. واكتسب رجال، أصبحوا فيما بعد أساطير في عالم الاستخبارات الإسرائيلية مهاراتهم في فترة التكوين تلك قبل بداية الحرب العالمية الثانية. وأصبحت **الهاغانا** – التي تعني **الدفاع** بالعبرية – أفضل الأجنحة العسكرية تزوّداً بالمعلومات في كل الأراضي المقدّسة.

سادت فترة من السلام المضطرب فلسطين خلال الحرب العالمية الثانية. وشعر اليهود والعرب بالمستقبل البائس الذي قد يواجهونه جميعاً إذا ربح النازيون. ووصلت أولى تفاصيل ما يحدث في معسكرات الموت في أوروبا إلى يشف.

كـان ديفيد بن غوريون وإسحاق رابين من ضمن أولئك الذين حضروا اجتماعاً فـي حـيفا سـنة 1942. وكـان هـناك إجمـاع على ضرورة إحضار الناجين من الهولوكوست إلى أرضهم الروحية، إسرائيل. ولم يكن أحد قادراً على تقدير أعدادهم، لكن الجميع وافقوا على أن وصول اللاجئين سيُضرم من جديد المواجهات مع العرب؛ وسـيقف البريطانـيون هـذه المرة وبشكل علني ضد اليهود. كانت بريطانيا تصرّح باسـتمرار أنها ترفض السماح بانتقال الناجين إلى فلسطين بعد هزيمة هتلر، لأن من شأن ذلك الإخلال بالتوازن السكاني.

طالـب بن غوريون بضرورة تطوير قدرة الهاغانا الاستخباراتية، وهو ما وافق علـيه كـل الحضور. وبناءً على ذلك سيتم تجنيد المزيد من المخبرين، وسيتم تشكيل وحـدة استخبارات مضادة لكشف اليهود الذين يتعاونون مع البريطانيين، والكشف عن "اليهود الشيوعيين والمندسّين بين صفوفنا". وكانت الوحدة الجديدة معروفة باسم ريغل هيكدي، ويقودها أحد المحاربين القدماء في الجيش الفرنسي والذي يعمل متخفياً بصفة مندوب مبيعات.

سرعان ما جنّد نساء يهوديات للخروج برفقة ضباط الانتداب؛ وماسحي الأحذية الذين يتعاملون مع البريطانيين؛ ومالكي المقاهي الذين يرفّهون عنهم. كان يتم إحضار المتهميـن فـي أواخـر اللـيل للمـثول أمام محكمة ميدانية للهاغانا، وكان المذنبون يتعرضـون إما لضرب مبرّح أو يتم إعدامهم في تلال يهودا (جنوب فلسطين) بإطلاق رصاصة واحدة في مؤخرة الرأس. ومهّد ذلك الطريق لظهور الموساد لاحقاً.

بحلـول سنة 1945، شكّلت الهاغانا وحدة مسؤولة عن تأمين السلاح. وسرعان مـا انتقلت شحنات أسلحة إيطالية وألمانية من شمال أفريقيا بعد هزيمة رومل، والتي هـرّبها الجـنود الـيهود الذين يخدمون مع الحلفاء عبر صحراء سيناء المصرية إلى فلسـطين. وجاءت الأسلحة في شاحنات متهالكة وعلى قوافل جمال، وتم تخزينها في كهـوف فـي البراري. وكان أحد المخابئ السرية في البحر الميت بالقرب من أماكن اكتشاف لوحات التوراة لاحقاً.

بعـد هـزيمة اليابان في آب سنة 1945 التي أنهت الحرب، وصل اليهود الذين خدمـوا فـي وحـدات اسـتخبارات الحلفاء العسكرية لتقديم خبرتهم لصالح الهاغانا.

وأصبحت كل العناصر متوفرة آنذاك لما توقع به بن غوريون - "الحرب لنيل استقلالنا".

كان يعرف أن الشرارة ستكون بريشا، الاسم العبري للعملية التي لم يسبق لها مثل في نقل الناجين من الهولوكوست من أوروبا. وكانت أعدادهم أولاً بضع مئات، ثم أصبحوا بالآلاف وبعدها بعشرات الآلاف. وكان الكثيرون منهم يرتدون أزياء معسكرات الاعتقال؛ ويحمل كل منهم وشماً مع عدد نازي للتمييز بينهم. جاءوا براً وعلى السكك الحديدية عبر البلقان، وعبروا بعدها المتوسط إلى شواطئ إسرائيل (فلسطين). وتم إما شراء أو استئجار كل سفينة متوفرة من قبل وكالات الإغاثة اليهودية في الولايات المتحدة مقابل مبالغ كبيرة غالباً: وتم تسخير السفن الشراعية، والقوارب الساحلية، والطائرات البرمائية من شواطئ النورماندي، والقوارب النهرية وأي شيء يطفو للقيام بتلك المهمة. ولم يكن هناك إجلاء مثل ذلك منذ ما حدث في دنكيرك سنة 1940.

كان بعض الجنود البريطانيين الذين ينتظرون الناجين على الشواطئ بين حيفا وتل أبيب من بين الذين تمّت إعادتهم من دنكيرك إلى إنكلترا. وكانوا متواجدين هناك لتنفيذ أوامر حكومتهم في إبعاد الناجين من الهولوكوست. حصلت بعض الاشتباكات المروّعة، ولكن كان هناك أيضاً أوقات نظر فيها الجنود البريطانيون بطريقة مختلفة إلى القوارب المحمّلة باللاجئين الذين يصارعون الأمواج، ربما لأنهم تذكّروا آنذاك خلاصهم من دنكيرك.

قرّر بن غوريون أن مشاعر التعاطف تلك لم تكن كافية، وأنه آن الأوان لإنهاء الانتداب. ولم يكن ذلك ممكناً سوى بالقوة. وفي سنة 1946، وحّد بن غوريون الحركات اليهودية السرية المختلفة. وصدرت الأوامر المشتعلة بالروح المتّقدة لأولئك الذين استوطنوا في الأرض بشن حرب عصابات أولاً ضد كل من البريطانيين والعرب.

كان كل قائد يهودي يعرف أنها مقامرة خطيرة: القتال على جبهتين سيشتت قواهم إلى أقصى حدّ. وكانت عواقب الفشل رهيبة. ولم تكن السياسة التي يتبعها بن غوريون تسير وفق قواعد معينة. وسرعان ما انتشرت الأفعال الفظيعة في كل الاتجاهات. وكان يتم قتل اليهود لمجرد الشبهة في التعاون مع الهاغانا. ويتم إطلاق النار على الجنود البريطانيين وتفجير ثكناتهم العسكرية، وكان يتم إحراق القرى العربية. لقد كان الوضع شبيهاً بالعصور الوسطى في أحلك أوقاتها.

بالنسبة للهاغانا، كانت الاستخبارات حاسمة، ولم تكن مهمتها تزييف الحقائق وحسب، وإنما إعطاء الانطباع للبريطانيين والعرب بأن لدى اليهود رجالاً أكثر بكثير مما يمكنهم حشده. ووجد البريطانيون أنفسهم يطاردون عدواً غامضاً. وبدأت المعنويات تنهار ضمن ضباط الانتداب.

حاولت الولايات المتحدة، التي استشعرت بإمكانية ما للتدخل، عقد صفقة في ربيع سنة 1946 تسمح بريطانيا بموجبها بدخول مئة ألف ناجٍ من الهولوكوست إلى فلسطين. لكن تم رفض الاقتراح، واستمر القتال. وأخيراً، في شباط سنة 1947، وافقت بريطانيا على الجلاء عن فلسطين في أيار سنة 1948. ومنذ ذلك التاريخ كان على الأمم المتحدة التعامل مع المشاكل في ما سيصبح دولة إسرائيل.

نتيجة إدراكه أن النزاع الحاسم مع العرب سيستمر، وليكون متأكداً من أن مشروع الأمة لن يُخنق في مهده، أدرك بن غوريون وقادته أن عليهم الاعتماد على استخبارات متفوقة. وتم الحصول على بيانات ضرورية عن معنويات العرب وقوتهم العسكرية. واستطاع الجواسيس اليهود في القاهرة وعمّان سرقة خطط الجيوش المصرية والأردنية. وعندما بدأت ما أصبح يُعرف بحرب العام 1948، حقق الإسرائيليون انتصارات عسكرية مذهلة. ولكن أصبح واضحاً أيضاً لبن غوريون أن القتال مستمر وأنه لتحقيق النصر النهائي لا بد من الفصل الواضح بين الطموحات السياسية والعسكرية. وعندما تحقق النصر أخيراً سنة 1949، لم يكن ذلك الفصل واضحاً، وقاد ذلك إلى نزاعات ضمن مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي حول مسؤولياته في زمن السلم.

وعوضاً عن التعامل مع الوضع بالحزم المعروف عنه، أنشأ بن غوريون، كأول رئيس وزراء لإسرائيل، خمسة أجهزة استخبارات لتعمل داخلياً وخارجياً. كانت بنية الاستخبارات الخارجية مشابهة للاستخبارات السرية البريطانية والفرنسية. ووافق كل من هذين الجهازين بسرعة على التعاون مع الإسرائيليين. وتم إنشاء ارتباط أيضاً مع مكتب الخدمات الاستراتيجية الأميركي OSS في واشنطن عبر رئيس جهاز مكافحة التجسس في إيطاليا جيمس جيسوس أنغلتون. وسيلعب ارتباطه بجواسيس إسرائيل الجدد دوراً محورياً في بناء الجسر النهائي بين مجتمعي الاستخبارات في كلا البلدين.

رغم هذه البداية المشجعة، إلا أن حلم بن غوريون في بناء منظمة استخبارات موحدة مات في آلام مخاض أمة تصارع بنفسها لإيجاد هوية موحدة لها. وبقي تمرين العضلات الأمر اليومي فيما كان وزراؤه ومسؤولوه يتقاتلون حول النفوذ والمناصب.

كان هناك صدامات في كل مستوى. ومن كان بمقدوره تنسيق استراتيجية استخباراتية عامـــة؟ ومن كان يستطيع تقييم البيانات الأولية؟ ومن سيجند الجواسيس؟ ومن سيرى تقاريرهم أولاً؟ ومن سينقل هذه المعلومات إلى قادة البلاد السياسيين؟

كـــان التنافس على أشدّه بين وزارة الخارجية ووزارة الدفاع، والتي ادّعت كلاً مـــنهما الحـــق فـــي العمـــل خارج البلاد. شعر آيسر هاريل، الذي كان مجرد رجل اســـتخبارات شاب آنذاك، أن زملاءه "ينظرون إلى عمل الاستخبارات بمنظار المغامر الرومانســـي. وهـــم يـــتظاهرون بـــأنهم خبراء بكل طرق العالم قاطبة... ويبدو أنهم يتصـــرفون مـــثل الجواســـيس العالميـــن الخياليين الذين يستمتعون بانتصاراتهم فيما يعيشون في ظل الخيط الواهن بين القانون والتحرر من القواعد".

أثـــناء ذلك، استمر قتل الناس من قبل العرب وقنابلهم وكمائنهم المفخخة. وكانت جيوش سورية، ومصر، والأردن، ولبنان ما تزال تشكّل تهديداً. وخلف تلك الجيوش، كـــان ملاييـــن العرب الآخرين مستعدين لإعلان *الجهاد* أو الحرب المقدّسة. ولم تكن هناك أمة على وجه الأرض ولدت في بيئة معادية مثل إسرائيل.

بالنسبة لبن غوريون، كان هناك شعور تبشيري في الطريقة التي ينظر بها شعبه إلـــيه لحمايتهم، وفي الطريقة التي قام بها قادة إسرائيل الكبار بحماية شعبهم. لكنه كان يعرف أنه ليس نبياً، وأنه مجرد مقاتل شوارع عنيد فاز بحرب العام 1948 ضد العدو العربـــي الذي جمع قوات تفوق تلك التي كانت تحت تصرفه بعشرين ضعفاً. ولم يكن هـــناك انتصـــار أعظـــم مـــنذ أن قـــتل الفتى الراعي ديفيد العملاق *جالوت* وأخضع الفلسطينيين القدماء.

لكـــن العـــدو لم يكن قد ذهب بعيداً. وأصبح أكثر ذكاءً وأكثر قسوةً حتى. وهو يضرب مثل لص في الظلام، ويقتل دون تأنيب ضمير قبل أن يختفي.

لمـــدة أربـــع سنين طويلة، استمر التنافس والنـــزاعات في كل تلك الاجتماعات التـــي ترأســـها بـــن غوريـــون في محاولة لحل الأمور العالقة في عالم الاستخبارات الإســـرائيلي. عارضـــت وزارة الدفـــاع خطـــة طموحة لوزارة الخارجية لاستخدام دبلوماســـي فرنســـي كجاسوس في القاهرة، وأرادت إرسال رجلها لتنفيذ المهمة. ألقى ضباط الأمن المصريون القبض على الضابط الشاب، الذي لم يكن يملك أي خبرة في عمـــل الاستخبارات، في غضون أسابيع. كان العملاء الإسرائيليون يعملون في السوق الســـوداء الفنـــية لـــتمويل أعمالهم لأنه لم يكن لديهم ميزانية رسمية كافية ليغطّوا من خلالهـــا نشـــاطاتهم التجسسية. وكانت الخطط المختلفة تلقى المعارضة الشديدة بسبب

الشكوك المتبادلة. وكان الجميع يطمح للعب دور جوهري في ذلك المجال.

كـان الرجال الأقوياء في ذلك الزمان - وزير خارجية إسرائيل، رئيس أركان الجيش، والسفراء - يتقاتلون لبسط سيطرة الاستخبارات التي يعملون لها على الأجهزة الأخرى. وكان أحدهم يريد التركيز على جمع المعلومات الاقتصادية والسياسية. وآخر يعـتقد أن الاستخبارات يجب أن تركّز على القوة العسكرية للعدو. وأصرّ السفير لدى فرنسا على أن عمل الاستخبارات يجب أن يكون مماثلاً لما قامت به المقاومة الفرنسية خلال الحرب العالمية الثانية، مع تعبئة كل يهودي على وجه الأرض. أراد السفير إلى واشـنطن حماية الجواسيس بغطاء دبلوماسي وأن "يندمجوا في العمل اليومي للسفارة بحيـث يصـبحوا فـوق الشبهات". وأراد السفير الإسرائيلي إلى بوخارست أن يعمل جواسيسـه بـنفس طـريقة الكـيه جي بي، وأن يكونوا بنفس القسوة. وطالب السفير الإسـرائيلي إلى بيونس آيريس بأن يركّز الجواسيس على دور الكنيسة الكاثوليكية في مسـاعدة النازييـن علـى الاستقرار في الأرجنتين. واستمع بن غوريون بصبر لكل الآراء.

أخـيراً، في 2 آذار سنة 1951، استدعى قادة أجهزة الاستخبارات الخمسة إلى مكتـبه. وأخـبرهم أنـه ينوي تكليف مهمة نشاطات جمع المعلومات والاستخبارات الخارجية لإسرائيل لوكالة جديدة تدعى ها موساد لي تيوم أو معهد التنسيق. وسيكون لها ميزانية مبدئية تقدّر بحوالى عشرين ألف شيكل إسرائيلي، والتي سيتم إنفاق خمسة آلاف مـنها على "مهام خاصة، لكن بموافقتي المسبقة فقط". وستوظف الوكالة الجديدة كادرهـا مـن أفراد وكالات الاستخبارات الموجودة. وسيتم إطلاق اسم الموساد عليها فقط في الاستعمال اليومي.

سـتكون الموسـاد "فـي كـل شؤونها الإدارية والسياسية" تحت سلطة وزارة الخارجـية. وبكـل الأحـوال، سيكون ضمن كادرها ضباط رفيعو المستوى يمثّلون الأجهـزة الأخـرى ضمن مجتمع إسرائيل الاستخباراتي: شين بيت، الأمن الداخلي، أمـان، الاسـتخبارات العسـكرية، استخبارات القوى الجوية، واستخبارات البحرية. وسـتكون وظـيفة هؤلاء الضباط إطلاع الموساد على الاحتياجات الخاصة لعملائهم. وفي حال الاختلاف على أي طلب، سيتم تحويل الأمر إلى مكتب رئيس الوزراء.

بطريقـته الفظّـة المعتادة في الكلام، قال بن غوريون: "ستقدّمون للموساد قائمة التسـوّق. وسـيذهب الموساد ويحصل على البضائع. وليس من شأنكم معرفة المكان الذي تسوّق منه أو ما دفعه للبضائع".

تصرف بن غوريون مثل لجنة مراقبة تتكون من رجل واحد للإشراف على الجهاز الجديد. وفي مذكّرة لرئيس الجهاز الجديد ريفون شيلوه، أمر رئيس الوزراء بأن "يكون الموساد تحت إشرافي، وأن يعمل وفقاً لتوجيهاتي وأن يقدّم تقاريره لي باستمرار".

لقد تم وضع القواعد الأساسية.

بعد ثماني وعشرين سنة حافلة بالأحداث من جلوس أولئك اليهود في القدس عشية ليلة أيلول سنة 1929 للبحث في الأهمية القصوى للاستخبارات في منع أي هجمات عربية أخرى، أصبح لدى أحفادهم جهاز استخبارات سري سيتحول بمرور الزمن إلى أحد أهم وأقوى أجهزة الاستخبارات في العالم.

لم تكن ولادة الموساد، مثل ولادة إسرائيل، يسيرة أبداً. وتولّى الجهاز الإشراف على شبكة تجسس في العراق كانت تعمل منذ بضع سنوات تحت إشراف القسم السياسي لقوات الدفاع الإسرائيلية. وكانت مهمة الشبكة الأساسية اختراق الدوائر العليا في الجيش العراقي، وتنظيم شبكة هجرة سرية لنقل اليهود العراقيين إلى إسرائيل.

في نيسان سنة 1951، بعد تسعة أسابيع فقط من توقيع بن غوريون على أمر إنشاء الموساد، انقضّ رجال الأمن العراقيون في بغداد على الشبكة. وتم اعتقال عميلين إسرائيليين، إلى جانب العشرات من اليهود العراقيين والعرب الذين كانوا يتلقون رشاوى لإدارة شبكة الهروب والتي كانت تمتد إلى كل الشرق الأوسط. وتم اتهام ثمانية وعشرين شخصاً بالتجسس، وحُكم على كلا العميلين الإسرائيليين بالإعدام، وسبعة عشر بالسجن مدى الحياة، فيما تم إطلاق سراح الآخرين "كمثال على نزاهة القضاء العراقي".

تم إطلاق سراح عميلي الموساد لاحقاً من السجن العراقي حيث تعرضا للتعذيب الشديد، مقابل تحويل مبلغ طائل من المال إلى حساب مصرفي سويسري يخص وزير الداخلية العراقي.

تبع ذلك كارثة أخرى تخص الجاسوس الذي عمل في روما لوقت طويل لصالح القسم السياسي ثيودور غروس، قبل أن يتحول للعمل للموساد بموجب الترتيب الجديد. وفي كانون الثاني سنة 1952، تلقّى آيسر هاريل، الذي كان عندها قائداً للشين بيت، جهاز الاستخبارات الإسرائيلي الداخلي، "إثباتاً لا جدال فيه" على أن غروس عميل مزدوج، ويتلقّى راتباً من الاستخبارات السرية المصرية. وقرّر هاريل السفر إلى روما، حيث أقنع غروس بالعودة معه إلى تل أبيب لأنهم على وشك تعيينه في منصب

كبير في الشين بيت. وتمت محاكمة غروس سراً، وإدانته والحكم عليه بالسجن خمس عشرة سنة. فيما بعد مات غروس في السجن.

نتيجة لتلك الإخفاقات، استقال ريفون شيلوه مكسور الخاطر. وتم استبداله بآيسر، الـــذي سيبقى رئيساً للموساد إحدى عشرة سنة، وهي مدة لم يضاهِه بها أحد في شغل ذلك المنصب.

لـــم يكن الموظفون الذين رحّبوا بهاريل في مركز قيادة الموساد في صباح يوم أيلول سنة 1952 معجبين بمظهره الجسدي. ولم يكن طوله يتجاوز 150 سنتم، وكانت أذناه بارزتين، ويتكلم العبرية بلهجة أوروبية ثقيلة؛ وكانت عائلته قد هاجرت من لاتفيا سنة 1930. وكانت ملابسه تبدو كما لو أنه قد نام وهو يرتديها.

كانـــت أولى كلماته للكادر المجتمع: "انتهى الماضي. لن يكون هناك المزيد من الأخطاء. سنتقدّم معاً. ولن نتكلم مع أحد سوى أنفسنا".

أعطـــى مـــثالاً عمّا كان يقصده في نفس ذلك اليوم. واستدعى سائقه بعد الغداء، وعـــندما سأله عن المكان الذي سيقصدونه، كان الجواب أن ذلك سر وصرف هاريل الســـائق، وجلس بنفسه خلف مقود السيارة. وعاد مع كيس من الفطائر للموظفين. لكن الفكرة كانت قد وصلت. هو من سيطرح الأسئلة.

كانت تلك اللحظة التي أحب بها الموظفون هاريل. وكان قادراً على بث النشاط فـــيهم مـــن خـــلال ذلك المثال. وقد سافر سراً إلى بلاد عربية معادية لينظّم شخصياً شـــبكات الموساد. وقابل كل شخص يريد الانضمام إلى الجهاز. كان يبحث عن أولئك الذين يشبهونه ويأتون من المزارع الجماعية اليهودية.

أخـــبر معاونـــاً له عن سياسته: "أشخاص مثل هؤلاء يعرفون عدونا، ويعيشون بالقرب من العرب. ولا بد أنهم تعلّموا ليس التفكير مثلهم وحسب، وإنما التفكير بشكل أسرع".

كـــان صـــبر هاريل أسطورياً مثلما هي ثورات غضبه؛ وأصبح ولاؤه لموظفيه معـــروفاً علـــى نطـــاق واسع. وكان ينظر إلى كل أولئك الذين يعملون خارج دائرته المغلقة بعين الشك لأنهم "انتهازيون ليس لديهم مبادئ".

لـــم يكـــن يـــتعامل مـــع أشـــخاص يعتبرهم "متسترين بالتعصب مثل القوميين، وخصوصاً في الدين". وأظهر بشكل متزايد كرهاً علنياً لليهود الأرثوذكس.

كـــان هـــناك عدد من هؤلاء في حكومة بن غوريون والذين سرعان ما أظهروا اســـتياءهم مـــن آيســـر هـــاريل، ثم حاولوا إيجاد طريقة لتنحيته. لكن رئيس الموساد

المخـــادع كـــان حريصاً على البقاء قريباً من عامل آخر في المزارع اليهودية، رئيس الوزراء.

ســاعده فـــي ذلـــك أن إنجازات الموساد آنذاك كانت تتحدث عن نفسها. وساهم عمـــلاء هاريل في نجاح اشتباكات سيناء ضد المصريين. وكان لديه جواسيس في كل عاصـــمة عربية، ويقدمون له سيلاً لا ينقطع من المعلومات التي لا تُقدّر بثمن. وحقق نجاحاً آخر عندما سافر إلى واشنطن سنة 1954 للقاء ألان دوليس، الذي كان قد تولّى إدارة CIA للـــتو. ومثّل هاريل مدير الاستخبارات المحنّك مع خنجر بنقوش دينية: "لم يكن حارس إسرائيل في حالة سبات أو نائماً".

أجاب دوليس: "تستطيع الاعتماد عليّ للبقاء متنبهاً معك".

أنشأت تلك الكلمات شراكة بين الموساد وCIA. واستطاع دوليس تزويد الموساد بمعـــدّات حديثة جداً: أجهزة تنصت وتعقّب، آلات تصوير تعمل عن بعد، وتشكيلة من المعـــدّات التي اعترف هاريل نفسه بأنه لم يكن يعرف بوجودها. وأنشأ الرجلان أيضاً أول قـــناة خلفية بين جهازي الاستخبارات، والتي يستطيعان الاتصال من خلالها عبر هـــاتف آمن في حالة الطوارئ. وكانت تلك القناة تتجاوز الطريق الدبلوماسي المعتاد، مما أزعج كلاً من وزارتي الخارجية الأميركية والإسرائيلية. ولم يكن لتلك القناة تأثير في تحسين موقف هاريل في الدوائر الدبلوماسية.

في سنة 1961، كان هاريل العقل المدبّر وراء عملية نقل آلاف اليهود المغاربة إلى إسرائيل. وبعد سنة من ذلك التاريخ، كان رئيس الموساد الذي لا يكل ولا يمل في جـــنوب السودان ليساعد الثوار الموالين لإسرائيل في حربهم ضد النظام. وساعد في تلـــك الســـنة أيضـــاً الملك الإثيوبي هايل سيلاسي في سحق محاولة انقلاب: لقد كان العاهل حليفاً *لإسرائيل* منذ زمن طويل.

لكـــن فـــي الداخل كانت أصوات اليهود الأرثونكس في مجلس الوزراء تتعالى ضـــده، وتـــتذمر مـــن أن آيسر هاريل قد تحوّل إلى مستبد لا يُطاق، وأنه لا يراعي الحساسيات الدينية، وأنه رجل يمتلك برنامجه الخاص، وربما هو طموح للوصول إلى المكتـــب السياســـي الأعلى في البلاد. وارتفع هوائي بن غوريون السياسي، وأصاب الفـــتور العلاقات بينه وبين هاريل. ورغم أنه مَنَحَ هاريل صلاحية مطلقة من قبل، إلا أنـــه بـــدأ آنـــذاك يطلب إطلاعه على أصغر تفاصيل أي عملية. وامتعض هاريل من المعوقات المُحكمة، لكنه لم يقل شيئاً. واشتدّت حملة الشائعات ضده.

فـــي شـــباط سنة 1962، تصاعد الغمز واللمز حول مصير فتى يبلغ من العمر

ثمانـــي سنوات ويدعى جوزيل شوماخر. وكانت منظمة أرثوذكسية متطرفة قد خطفت الطفـل من والديه قبل سنتين. وكان جد الطفل لأمه نامان شتاركس عضواً في جماعة نيـتوري كارتـا، وتعنـي "حـرّاس أسـوار القدس". وكان يشتبه بتواطئه في عملية الاخـتطاف. ورغـم حملة الشرطة الضخمة لإيجاد جوزيل، إلا أنها لم تعثر على أي دلـيل حول مكانه. وتم وضع نامان في السجن لوقت قصير عندما رفض التعاون مع التحقـيقات. وحوّل اليهود الأرثوذكس الرجل العجوز إلى شهيد؛ وتظاهر الآلاف منهم حامليـن رايات تدّعي أن بن غوريون لا يختلف عن النازيين، وأنه يعمل على سجن الشيوخ. وتم إطلاق سراح نامان *لأسباب صحية*، لكن الاحتجاجات تواصلت.

حـذّر مستشـارو بـن غوريون السياسيون من أن تلك القضية قد تجعله يخسر الانتخابات القادمة. والأسوأ من ذلك، أنه في حال وقوع حرب أخرى مع العرب، فإن بعض المجموعات الأرثوذكسية ستقدم لهم الدعم. واستدعى رئيس الوزراء الذي استعد للمعركة هاريل وأمر الموساد بإيجاد الفتى. وجادل هاريل بأن تلك ليست مهمة جهاز الاستخبارات. وقال بكلماته:

"تحـوّل الجـو إلى جليد. وكان يكرّر أن ذلك أمر. وقلت له إنني بحاجة لقراءة ملف الشرطة على الأقل. وقال رئيس الوزراء إن لديَّ ساعة".

كـان الملـف ضخماً، لكن بينما كان آيسر هاريل يقرأه، كان هناك شيء يسري داخلـه؛ حـق الوالديـن فـي تربية طفلهما دون أن يتعرّض لضغوط معتقدات دينية متطرفة".

ولد جوزيل في آذار سنة 1953 لكل من آرثر وعيدا شوماخر. وتم إرسال الفتى للعـيش مع جدّه في القدس نظراً للصعوبات المالية التي كانت العائلة تواجهها. ووجد الطفـل نفسـه فـي جـو ديني، ومعزول روحياً عن باقي المدينة. وعلّم نامان حفيده معـتقدات وطـرق جماعـته الدينية. وعندما زار والدا جوزيل الفتى، انتقدهما نامان بغضب لما اعتبره معتقداتهما الدينية الخاصة.

كان الرجل العجوز ينتسب إلى جيل ساعده إيمانه على النجاة من الهولوكوست. وكانت ابنة نامان وصهره يشعران أن دورهما الرئيسي يتمثّل في تشكيل حياة لهما في الأمة الشابة. وكانت الصلاة تأتي في المقام الثاني غالباً بالنسبة لهما.

قـال والدا جوزيل إنهما طلبا استعادته بعد أن تعبا من انتقادات نامان المستمرة. ولكـن الأخير رفض قائلاً إن انتقال جوزيل في تلك المرحلة سيقطع تعاليمه في الحياة الدينـية والتي ستخدمه في حياته عندما يصبح راشداً. وكان هناك المزيد من النقاشات

الغاضبة. وفي المرة التالية التي زارا فيها القدس، كان جوزيل قد اختفى.

اهــتمّ كــل مــن اليهود الأرثوذكس والعلمانيين بتلك الحادثة، ورأوا في القضية شــرخاً كبيراً يستمر في تقسيم الأمة، وكان ذلك واضحاً لحزب العمل الذي يقوده بن غوريــون، والــذي لم يكن قادراً على الاستمرار في الحكم دون دعم الأحزاب الدينية المتــنوعة في الكنيست. وبالمقابل، كانت تلك الأحزاب تحصل على امتيازات إضافية لتطبــيق القوانين الأرثوذكسية المتشددة في الدولة. وطالب اليهود الليبراليون بأن يعود جوزيل إلى عائلته.

أخــبر هــاريل، بعد قراءته للملف، بن غوريون أنه سيستخدم مصادر الموساد. وقام بتشكيل فريق مكوّن من أربعين عميلاً لتحديد مكان جوزيل. واعترض الكثيرون منهم علانية على ما اعتبروه سوء استخدام لمهاراتهم.

وأسكت انتقاداتهم بخطاب قصير:

"رغم أننا سنعمل خارج إطار أهدافنا المعتادة، إلا أنها تبقى قضية بالغة الأهمية. وتنــبع أهميتها من خلفيتها الاجتماعية والدينية. وهي مهمة لأن هيبة وسلطة حكومتنا على المحك. وهي هامة بسبب القضايا الإنسانية التي تنطوي عليها القضية".

ســرعان مــا اكتشــف الفريق في الأسابيع الأولى من التحقيقات مدى صعوبة المهمة.

تخفّــى رئــيس مســتقبلي للشين بيت، والذي كان عندها عميلاً للموساد، بهيئة أرثوذكســي متشدد وحاول التسلل بين صفوفهم، ولكنه فشل. وصدرت الأوامر لعميل موســاد آخــر بتشديد الرقابة على مدرسة دينية، لكن أمره كُشف خلال أيام. وحاول عمــيل ثالــث التسلل إلى مجموعة من طائفة الهاسيد (طائفة دينية واجتماعية أسسها الحاخــام إسرائيل بن أليعازر في بولندا في القرن الثامن عشر) التي كانت في طريقها إلــى القــدس لدفــن قريب لأحد أعضائها ضمن أسوار المدينة. وسرعان ما تم كشفه عندما فشل في تلاوة الصلوات الصحيحة.

جعلت هذه الإخفاقات هاريل أكثر تصميماً. وأخبر فريقه بأنه متأكد من أن الطفل لــم يعــد في إسرائيل وإنما في مكان ما في أوروبا أو حتى أبعد من ذلك. نقل هاريل مقــر قيادة عملياته إلى منــزل آمن للموساد في باريس. وأرسل من هناك رجالاً إلى كــل جماعــة أرثوذكسية في إيطاليا، والنمسا، وفرنسا وبريطانيا. وعندما لم ينتج عن ذلك شيء، أرسل العملاء إلى أميركا الجنوبية والولايات المتحدة.

استمر التحقيق الذي أصبح مثقلاً بالحلقات الغريبة. وشارك عشرة عملاء موساد

في قدّاس صباح الأحد في كنيس في ضاحية هيندن القريبة من لندن. واستدعى الحشد الغاضب الشرطة لاعتقال "الدخلاء الدينين" بعدما سقطت لحاهم المزيفة خلال الشجار. وتـم إطلاق سراح العملاء بسرعة بعدما تدخل السفير الإسرائيلي مع وزارة الداخلية. تـم اسـتدعاء حاخام أرثوذكسي جليل إلى باريس بذريعة أن أحد أعضاء عائلة ثرية يرغـب مـنه القـيام بمراسم معينة لظرف معين. وقابله في المطار رجلان يرتديان معـاطف وقبعات اليهود الأرثوذكس الشديدة السواد. وكانا عميلين للموساد. وكان في تقريرهما عنصر كوميديا سوداء.

"أخذناه إلى ماخور بيغال دون أن تكون لديه أدنى فكرة عنه. وظهرت اثنتان من الـبغايا اللتيـن دفعـنا لهمـا سلفاً، وألقيتا بنفسيهما على الحاخام. والتقطنا له صوراً فوتوغرافية وأريناها له، وقلنا إننا سنرسلها إلى محفله إذا لم يكشف عن مكان الصبي. وأقنعنا الحاخام أخيراً أنه لا يملك أي فكرة، ولهذا مزّقنا الصور أمامه".

ووقـع حاخـام آخـر يدعى شي فرير في براثن بحث هاريل الذي كان يتوسع باستمرار في عالم اليهود الأرثوذكس. واختطف الموساد الحاخام عندما كان يسافر بين باريس وجنيف. وعندما أصبحوا مقتنعين، بعد استجواب قاسٍ، أنها نهاية ميتة أخرى، أمر هاريل بأن يوضع فرير في منـزل آمن في سويسرا حتى انتهاء البحث لأنه خاف من أن يقوم الحاخام بإنذار المجتمع الأرثوذكسي.

ظهر دليل واعد آخر. كانت مادلين فري، ابنة عائلة أرستقراطية فرنسية، وبطلة المقاومـة الفرنسـية فـي الحرب العالمية الثانية. وقامت مادلين بإنقاذ عدد كبير من الأطفـال الـيهود مـن الترحيل إلى معسكرات الموت النازية. واعتنقت اليهودية بعد الحرب.

أظهرت التحقيقات أنها كانت تقوم بزيارات منتظمة لإسرائيل، وتقضي وقتها مع أعضـاء فـي مجموعـة "نيتوري كارتا"، وأنها التقت جد جوزيل في عدّة مناسبات. وكانت آخر زيارة لها إلى إسرائيل في نفس الوقت الذي اختفى فيه الفتى. ولم تعد إلى إسرائيل منذ ذلك الوقت.

فـي آب سـنة 1962، تعقّـبها عملاء الموساد إلى ضواحي باريس. وهاجمتهم عـندما عرّفوا بأنفسهم. واستدعى أحد العملاء آيسر هاريل الذي شرح لمادلين "الخطأ الكبـير" الذي لحق بوالدي جوزيل، وأن لهما الحق الأخلاقي بتربية ولدهما بالطريقة التـي يرغـبان بها. وأنه يجب عدم إنكار هذا الحق على أي والدين. وأصرّت مادلين أنها لا تعرف شيئاً عن جوزيل. وشاهد هاريل أن رجاله قد صدّقوها.

طلب هاريل جواز سفر مادلين، ووجد تحت صورتها صورة لابنتها. وطلب من أحـد العمـلاء إحضـار صـورة لجوزيل. وكانت ملامح الوجهين لكلا الطفلين في الصورتين متطابقة تقريباً. اتصل هاريل بتل أبيب بعد ساعات قائلاً:

"لـديَّ كل ما أحتاج لمعرفته، من تفاصيل حياتها الجنسية خلال أيام دراستها إلى قـرارها بالانضمام إلى الحركة الأرثوذكسية بعد تبرئتها من المعتقد الكاثوليكي. عدت إلى مادلين وأخبرتها، كما لو أنني أعرف كل شيء، أنها صبغت شعر جوزيل لإخفائه وتهريب الفتى خارج إسرائيل. أنكرت ذلك بشدة. وقلت إنها يجب أن تفهم أن مستقبل الـبلد الـذي تحـب في خطر شديد، وأن الناس في شوارع القدس التي تحبها يرمون الحجارة على بعضهم البعض. ورغم ذلك، رفضت الاعتراف بأي شيء. وقلت لها إن للطفـل أمـاً تحـبه كما أحبت كل أولئك الأطفال الذين ساعدتهم في الحرب العالمية الثانية".

فعل التذكير فعله. وبدأت مادلين فجأة تشرح كيف سافرت بحراً إلى حيفا كسائحة لـرؤية إسـرائيل. وعلـى متـن السـفينة، استطاعت تكوين صداقات مع عائلة من المهاجريـن الجـدد الذيـن كانت لهم طفلة بعمر جوزيل تقريباً. وأنها مشت مع الفتاة الصغيرة على لوح السفينة الخشبي عندما وصلوا إلى حيفا. واعتقد ضابط الهجرة أنها ابنـتها، وأنـه كتـب ملاحظـة بذلك في سجلاته. وبعد أسبوع، وأمام أعين الشرطة الإسرائيلية، طارت في رحلة إلى زيوريخ مع ابنتها. وأقنعت مادلين الفتى جوزيل بأن يرتدي ملابس الفتيات وأن يصبغ شعره.

عـاش جوزيـل لفترة من الوقت في مدرسة أرثوذكسية في سويسرا والتي كان الحاخام شي فرير يدرّس فيها. بعد احتجازه، طارت مادلين مع جوزيل إلى نيويورك، وأسـكنته مـع عائلـة كان أفرادها أعضاء في جماعة "نيتوري كارتا". ولم يكن لدى هاريل عندها سوى سؤال واحد أخير لها: "هل تعطينني اسم وعنوان العائلة؟"

كـان هناك لحظة صمت طويلة قبل أن تقول مادلين بهدوء: "إنه يعش في الشقة 126 في شارع بن، بروكلين، نيويورك. إنه معروف باسم يانكل جيرتنر.

ابتسـم هـاريل للمرة الأولى منذ لقائه بها. "شكراً لك يا مادلين. أرغب بتهنئتك بعرض عمل مع الموساد عليكِ. إن ذكائك سيخدم إسرائيل كثيراً".

رفضت مادلين.

طـار عمـلاء الموسـاد إلـى نـيويورك. وكان في انتظارهم فريق من مكتب التحقـيقات الاتحادي FBI، الذين حصلوا على إذن للتعاون من المدّعي العام روبرت

كينيدي. وكان الأخير قد تلقّى طلباً شخصياً من بن غوريون للمساهمة في حل القضية. وانـتقل العمـلاء إلـى الشقة رقم 126 في شارع بن. وفتحت السيدة جيرتنر الباب، واندفـع العمـلاء إلـى الداخل حيث كان زوجها يصلي. وكان إلى جانبه فتى شاحب الوجه يضع قبعة صغيرة على رأسه.

وقال أحد رجال الموساد بلطف: "مرحبا يا جوزيل. لقد أتينا لنأخذك إلى البيت".

لقد مرت ثمانية أشهر منذ أن بدأ الموساد بحثه، وتم إنفاق مليون دولار أميركي تقريباً على العملية.

ولـم تـنفع عـودة جوزيـل سالماً إلى الديار في جسر الهوة الدينية في البلاد. واستمرت الحكومات المتعاقبة في الترنح والسقوط بفعل الجماعات الأرثوذكسية البالغة الصغر التي يتم انتخابها إلى الكنيست.

رغم نجاحه في إيجاد الفتى، إلا أن هاريل عاد إلى إسرائيل ليواجه انتقاداً شديداً جديـداً من قبل الجنرال مير عميت، الذي تم تعيينه حديثاً رئيساً لأمان؛ الاستخبارات العسـكرية. ورغم أن هاريل تغاضى عن سلفه في المنصب، إلا أنه وجد نفسه يتلقى انتقادات جارحة من عميت تتعلق بعملية إنقاذ جوزيل.

أصبح عميت، القائد الميداني المتمرس، مقرّباً من بن غوريون في رمال السياسة الإسـرائيلية المتحركة دائماً. وأخبر رئيس الوزراء أن هاريل قد "أنفق الموارد"، وأن عملـية الإنقـاذ بكاملها ليست سوى علامة على أن رئيس الاستخبارات قد استمر في منصـبه مدة طويلة جداً. ونسي أن بن غوريون، الذي وافقه الرأي، أمر هاريل بتنفيذ العملية. وفي 25 آذار سنة 1963، استقال آيسر هاريل في سن الخمسين بعدما أنهكه التعـب نتـيجة أسابيع طويلة من العمل المكثّف. وكان رجاله على وشك البكاء عندما صافحهم وخرج من مقر قيادة الموساد. كان الجميع يعرف بأنها نهاية حقبة.

بعـد عدّة ساعات، خطا رجل طويل ممشوق القوام بنشاط عبر أبواب الموساد: لقد تم تعيين مير عميت. ولم يكن هناك حاجة لإخبار أحد أن تغييرات مثيرة ستتم في أسلوب عمل الجهاز.

بعـد خمـس عشـرة دقيقة من الجلوس إلى مكتبه، عقد رئيس الموساد الجديد اجتماعاً لرؤساء الأقسام لديه. ووقفوا مجتمعين أمامه فيما كان ينظر إليهم بصمت. ثم تحدّث بصوت قوي، كان قد أطلق عدداً لا يحصى من المعارك.

لـن يكون هناك المزيد من العمليات لاستعادة أطفال ضائعين. ولن يكون هناك تدخل سياسي كبير في أعمالنا. أشار عميت إلى أنه سيحمي كل واحد منهم من الانتقاد

الخارجي، لكن لا شيء سيحافظ على وظائفهم إذا فشلوا في مهامهم. سيقاتل للحصول على المزيد من الأموال من ميزانية الدفاع للحصول على أحدث المعدّات ومصادر الدعم. لكن ذلك لن يكون على حساب نسيان إحدى أهم مصادر القوة التي وضعها فوق كل شيء: هومنت، أو فن جمع المعلومات الاستخباراتية البشري. وأراد أن تكون تلك أعظم مهارات الموساد.

وجد موظفوه أنهم يعملون مع رجل ينظر إلى أعمالهم خارج نطاق العمليات اليومية، لكنه ينتظر نتائج في السنوات القادمة. وكان الحصول على التقانة العسكرية يقع في تلك الخانة.

بعد وقت قصير من تولّي مير عميت القيادة، دخل رجل قال إن اسمه سلمان إلى السفارة الإسرائيلية في باريس وقدّم عرضاً مذهلاً. وقال إنه يضمن، مقابل مليون دولار أميركي نقداً، تقديم ما كانت عندها أكثر الطائرات المقاتلة سرية في العالم – الروسية ميغ 21. واختتم سلمان عرضه المذهل لدبلوماسي إسرائيلي بطلب غريب. "أرسلوا شخصاً إلى بغداد، وليتّصل بهذا الرقم ويسأل عن جوزيف. ولتكن المليون دولار جاهزة".

أرسل الدبلوماسي تقريره إلى الكاستا المقيم في السفارة، والذي كان أحد أولئك الذين استطاعوا التغلب على عملية التطهير التي لحقت تعيين مير عميت. أرسل الكاستا تقريره إلى تل أبيب مع رقم الهاتف الذي قدّمه سلمان.

وازن مير عميت الأمر ودرسه لعدّة أيام. قد يكون سلمان محتالاً أو مخادعاً، أو حتى جزءاً من مكيدة عراقية للإيقاع بعميل موساد. كانت هناك مخاطرة حقيقية بأن يتم فضح كاستا آخرين يعملون خفية في العراق. لكن احتمال الحصول على ميغ 21 كان لا يُقاوم.

جعل مقدار الوقود الذي تحمله، وارتفاعها، وسرعتها، وتسليحها ووقت طيرانها منها طائرة الجبهة المقاتلة الأولى في العالم العربي. وسيكون قادة القوة الجوية في إسرائيل سعداء لدفع ملايين الدولارات لمجرد إلقاء نظرة على مخطط بناء الميغ، فما بالهم بالحصول على طائرة كاملة. قال مير عميت: "ذهبت للفراش أفكر بالأمر. واستيقظت أفكر فيه. وفكّرت فيه في الحمام، وأثناء تناول العشاء. وفكرت فيه في كل لحظة فراغ كانت لديّ. وكانت متابعة نظام التسليح المتطور للعدو أولوية لأي جهاز استخبارات. أما الحصول عليه فهو شيء لم يحصل من قبل".

كانت الخطوة الأولى إرسال عميل إلى بغداد. وابتكر مير عميت هوية مزيفة

للعميل ووضع اسماً مستعاراً إنكليزياً على جواز سفره - جورج باكون. "لم يكن أحد يعتقد أن يهودياً سيكون له اسم مثل هذا". سافر باكون إلى بغداد بصفة مدير مبيعات لشركة مقرها لندن وتبيع معدّات تصوير بأشعة إكس للمستشفيات.

وصل إلى بغداد على متن رحلة للخطوط الجوية العراقية مع عدّة صناديق من عينات المعدّات، وتظاهر بأنه سيبيع عدّة أجهزة للمستشفيات. وفي بداية أسبوعه الثاني، قام باكون بالاتصال بالرقم الذي حدّده سلمان. وتتضمن تقارير باكون شروحاً تفصيلية:

"استخدمت هاتفاً عاماً في بهو الفندق. وكانت مخاطرة أن يكون الهاتف مراقباً أقل من إجراء المكالمة من غرفتي. أجاب الطرف الآخر على المكالمة فوراً. وسأل صوت بالفارسية عن المتكلم. وأجبت بالإنكليزية، واعتذرت لأنني طلبت رقماً خاطئاً. ثم سأل الصوت، بالإنكليزية أيضاً، عن المتكلم. وقلت إنني صديق لجوزيف. هل هناك شخص بهذا الاسم؟ وطلب مني الصوت الانتظار قليلاً. واعتقدت أنهم ربما سيتعقبون المكالمة، وأن تلك ليست سوى مكيدة. ثم كان هناك صوت مهذب على الهاتف يقول إنه جوزيف وأنه مسرور لأنني اتصلت. ثم سألني إذا ما كنت أعرف باريس. وقلت في نفسي: لقد حصل الاتصال!"

وجد باكون نفسه يوافق على الاجتماع في مقهى في بغداد في ظهيرة اليوم التالي. وفي ساعة اللقاء، قدّم شخص نفسه بابتسامة على أنه جوزيف. وكان وجهه مليئاً بالحفر، وشعره أبيض. وأرسل العميل تقريراً آخر يصف الجو السريالي للقاء:

"قال جوزيف إنه سعيد جداً للقائي، كما لو أنني قريب ينتظره منذ زمن طويل. وبدأ بعدها يتحدث عن الطقس، وكيف أن مستوى الخدمات قد تراجع في مقاهي مثل هذا. وفكّرت هناك أنني في وسط بلد مُعادٍ، وأن أجهزته الأمنية كانت ستقتلني بالتأكيد إذا سنحت لها الفرصة، وأنني استمع إلى تخرّصات رجل عجوز. ووصلت إلى قناعة بأنه مهما كانت صفة الرجل، ومهما كانت علاقته مع سلمان في باريس، لم يكن جوزيف بالتأكيد ضابطاً في جهاز مكافحة التجسس العراقي. وهدّأ ذلك من روعي. وأخبرته أن أصدقائي مهتمون جداً بالسلعة التي ذكرها صديقه. وأجاب: "إن سلمان ابن أخي، وهو يعيش في باريس. إنه نادل في مقهى. وقد غادر كل الندلاء الجيدون هذا المكان". وانحنى جوزيف بعدها عبر الطاولة وقال: "هل أتيت من أجل الميغ؟ لقد حضّرتها لك. لكنها ستكلّف مليون دولار. إن الأمر بهذه البساطة".

شعر باكون عندها أنه ربما كان جوزيف أكثر مما يبدو. وكان ذلك مؤكداً حول

شخصيته. ولكن حالما بدأ بسؤاله، هزّ الرجل العجوز رأسه. "ليس هنا. قد يكون الناس يستمعون".

اتفقا على اللقاء مجدداً في اليوم التالي على مقعد خشبي في منتزه بالقرب من نهر الفرات الذي يتدفق عبر المدينة. ولم ينم باكون تلك الليلة جيداً، وبقي يتساءل حول ما إذا كان يقترب من الفخ المعدّ بعناية، إن لم يكن من قبل الاستخبارات العراقية، فمن قبل رجال مخادعين شديدي الذكاء يستخدمون جوزيف كواجهة لهم.

كشف لقاء اليوم التالي بعض خلفية جوزيف ودوافعه.

لقد انحدر الرجل من عائلة يهودية عراقية فقيرة. وعمل في صباه كخادم لدى عائلة من الأقلية المسيحية في بغداد. ثم، وبعد ثلاثة عشر عاماً من الخدمة المخلصة، تم صرفه من الخدمة بشكل فظ نتيجة اتهامه خطأً بسرقة بعض الطعام. ووجد نفسه، في عيد ميلاده الخمسين، على قارعة الطريق. كان أكبر من أن يجد عملاً آخر، وعاش في فندق متواضع. وقرر عندها أيضاً اكتشاف جذوره اليهودية. وناقش سعيه مع شقيقته الأرملة مانو، الذي كان ابنها منير طياراً في سلاح الجو العراقي. واعترفت مانو أن لديها أيضاً رغبة قوية بالذهاب إلى إسرائيل. لكن كيف يمكنهم القيام بذلك؟ ومجرد ذكر الفكرة كان يعني المخاطرة بدخول السجن في العراق. وإذا تخلّف أي شخص من العائلة، ستعمل السلطات العراقية على معاقبته بشدة، وربما قتله أيضاً. ومن أين سيأتي المال؟ وتنهدت وقالت إن الأمر كله مجرد حلم مستحيل.

لكن الفكرة اتّقدت في ذهن جوزيف. وكان منير يقول إن قائده يتباهى دائماً بأن إسرائيل ستدفع ثروة مقابل الميغ التي يطير بها، "وربما مليون دولار أميركي، أيها الخال جوزيف".

استولى الرقم على ذهن جوزيف، لأنه من خلاله يستطيع رشوة المسؤولين، وتنظيم عملية الهروب. ويستطيع بواسطة ذلك المال إخراج العائلة كلها من العراق. وكلما فكّر بالأمر، كلما وجده معقولاً. كان منير يحب والدته، وكان سيفعل أي شيء لأجلها؛ حتى سرقة طائرته مقابل مليون دولار. ولن تكون هناك حاجة ليقوم جوزيف بتنظيم فرار أفراد الأسرة لأنه سيدع الموساد يقوم بذلك. كان الجميع يعرفون أنهم ماهرون في مثل تلك الأشياء. ولهذا السبب أرسل سلمان إلى السفارة.

ابتسم جوزيف لباكون قائلاً: "وأنت الآن هنا يا صديقي".

"ماذا عن منير؟ هل يعرف أياً من هذا؟"

"نعم. لقد وافق على سرقة الميغ. لكنه يريد نصف المال مقدّماً الآن، والبقية قبل

القيام بذلك".

كـــان باكون مصعوقاً، وبدا أن كل ما سمعه موثّق وعملي. لكن، كان عليه أولاً إرسال تقرير إلى مير عميت.

فـــي تل أبيب، استمع رئيس الموساد طوال فترة بعد الظهر بينما كان باكون يقدّم كل تفصيل في تقريره.

وسأل مير عميت أخيراً: "أين يريد جوزيف أن ندفع له المال؟"

"إلـــى بـــنك سويســـري. لدى جوزيف ابن أخ يحتاج لمعالجة طبية فورية ليست متوفرة في بغداد. ستمنحه السلطات العراقية الإذن للذهاب إلى سويسرا. وعندما يصل إلى هناك، يتوقع منا أن نكون قد حوّلنا المبلغ إلى حسابه".

علّق مير عميت بسخرية: "رجل ذو حيلة واسعة، هذا الجوزيف". .

"حالما يتم تحويل المال إلى ذلك الحساب، لن نستطيع استرداده أبداً".

وطرح سؤالاً إضافياً على باكون: "لماذا تثق بجوزيف؟"

أجاب باكون: "أثق به لأن ذلك هو الخيار الوحيد أمامنا".

أمر مير عميت بتحويل نصف مليون دولار أميركي إلى الفرع الرئيسي في بنك الاعـــتماد السويسري في جنيف. وكان يقامر بما هو أكثر من المال، وكان يعرف أنه لن ينجو بفعلته إذا كان جوزيف مجرد محتال ذكي، والذي يعتقد بعض ضباط الموساد أنه كذلك بالضبط.

كـــان الوقـــت قد حان لتقديم تقرير لرئيس الوزراء بن غوريون، ورئيس أركانه إسحاق رابين. وأعطى كلا الرجلين الضوء الأخضر للعملية. ولم يخبرهما مير عميت أنه قام بخطوة إضافية؛ سحب كامل شبكة الموساد من العراق.

"إذا فشـــلت العملية، لا أريد لأحد أن يُعاقب عداي أنا. لقد حضّرت خمسة فرق. سيكون الفريق الأول صلة الوصل بين بغداد وبيني. ولن يخترقوا صمت اللاسلكي إلا إذا حصـــلت أزمة. وبخلاف ذلك، لا أريد سماع شيء منهم. وسيتمركز الفريق الثاني فـــي بغـــداد دون أن يعرف أي منهم شيئاً. ولن يكون باكون بينهم، ولا أي من أفراد الفـــريق الأول. وسيكونون هناك لإخراج باكون من البلد إذا حدثت مشكلة، وجوزيف أيضاً بالطبع. وسيراقب الفريق الثالث العائلة. وسوف ينسّق الفريق الرابع مع الأكراد، الذيـــن زوّدتهـــم إسرائيل بالسلاح، والذين سيساعدون في المراحل النهائية من إخراج العائلـــة. وســـوف ينسّـــق الفريق الخامس مع واشنطن وتركيا. وحتى تستطيع الميغ الخـــروج من العراق، يجب عليها الطيران فوق المجال الجوي التركي للوصول إلينا.

وستعمل واشنطن، التي توجد قواعدها في شمال تركيا، على إقناع الأتراك بالتعاون والقول إن الأمر سينتهي بالميغ في الولايات المتحدة. وكنت أعرف أن العراقيين يخافون من إمكانية هروب أحد الطيارين إلى الغرب، ولهذا كانوا لا يملأون سوى نصف خزانات الطائرات بالوقود. وكان ذلك شيئاً لا نستطيع فعل شيء تجاهه".

كان هناك مشاكل أخرى عالقة. وقرّر جوزيف أن يكون لدى أقربائه البعيدين وليس عائلته المباشرة وحسب فرصة الهروب من النظام العراقي القاسي. وأراد أن يتم نقل ثلاثة وأربعين شخصاً بالطائرة إلى الأمان.

وافق مير عميت، فقط ليواجه مشكلة جديدة. وأرسل باكون، من بغداد، رسالة مشفّرة أن منير لديه أفكار أخرى. كان رئيس الموساد "يشعر بما يحدث. وكان منير أولاً وقبل كل شيء عراقياً. وكان العراق طيباً معه. ولم يكن مقتنعاً بخيانة بلده لصالح إسرائيل. لقد كنا العدو. وكانوا يعلمونه ذلك طوال حياته. وقررت أن الطريقة الوحيدة كانت بإقناعه أن الميغ ستذهب مباشرة إلى أميركا. وهكذا سافرت إلى واشنطن وقابلت ريتشارد هيلمز، DCI [مدير الاستخبارات المركزية الأميركية]. واستمع إليّ وقال: لا مشكلة. لقد كان دائماً متعاوناً هكذا. ورتّب لقاء الملحق العسكري الأميركي في بغداد مع منير. وأكّد الملحق أن الطائرة ستُسلم إلى الولايات المتحدة. وألقى على مسامع منير الكثير من الكلام حول ضرورة مساعدة أميركا في اللحاق بالروس. وابتلع منير الطعم، ووافق على المضي قُدماً.

كانت العملية تجري وفق خطوات خاصة بها. وحصل قريب جوزيف على إذن الخروج العراقي، وسافر إلى جنيف. وأرسل من هناك برقية: "تجهيزات المستشفى ممتازة. وأكّدوا لي أنني سأتماثل للشفاء الكامل". وكانت الرسالة علامة على أن الخمسمئة ألف دولار الأخرى قد تم تحويلها.

أخبر جوزيف، وهو مطمئن، باكون أن العائلة جاهزة. وفي الليلة التي سبقت قيام منير بالطيران، قادهم جوزيف في قافلة من المركبات شمالاً، إلى هدوء الجبال الباردة. ولم تعترضهم نقاط التفتيش العراقية لأن السكّان يهربون في كل صيف من حرّ بغداد اللاذع. كان الأكراد ينتظرونهم عند سفوح التلال مع فريق الارتباط الإسرائيلي. وقادوا العائلة إلى أعالي الجبال حيث كانت مروحيات الجيش التركي بانتظارهم. وطارت تلك المروحيات تحت مستوى الرادار عائدة إلى تركيا.

اتصل عميل إسرائيلي مع منير ليخبره أن شقيقته قد وضعت بأمان فتاة صغيرة. وكانت تلك رسالة مشفّرة أخرى عن الانتقال الآمن.

في صبيحة اليوم التالي، الموافق 15 آب سنة 1966، وعند بزوغ الفجر، أقلع منير بطائرته في مهمة تدريبية. وحالما غادر أرض المطار، شغّل محراق الميغ ووصل إلى الحدود التركية قبل أن تصدر الأوامر للطيارين العراقيين الآخرين بإسقاطه. وواكبته طائرات الفانتوم التابعة لسلاح الجو الأميركي، وهبط منير في قاعدة جوية تركية، وأعاد التزوّد بالوقود، وأقلع ثانية. وسمع من خلال سمّاعات الرأس الرسالة التالية بكلام واضح هذه المرة: "كل أفراد عائلتك بأمان وفي طريقهم للانضمام إليك".

حطّت طائرة الميغ بعد ساعة من ذلك في قاعدة جوية عسكرية في شمال إسرائيل.

أصبح الموساد لاعباً جدياً على الساحة العالمية. وضمن مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي، أصبحت الأمور الهامة تُصنَّف على أساس BA وتعني قبل عميت وAM وتعني بعد مير.

الفصل الثالث

نقوش غليلوت

خـــرج مير عميت من الطريق السريع شمال تل أبيب، واستمر في الحفاظ على سـرعته فـوق الحدّ المسموح به قليلاً. استمر خرق النظام بحذر جزءاً من حياته منذ حوالى أربعين سنة مضت عندما كان العقل المدبّر وراء سرقة المقاتلة العراقية.

ووضع أسس الرفض الأعمى للتقيد بالقواعد المتّبعة نتيجة لانحداره من الجليل: "نحن شعب عنيد". وولد في المدينة المفضّلة لدى ملوك إسرائيل - طبريا وبالقرب من شـاطئ بحيرتها، وأمضى معظم حياته المبكرة في مزرعة يهودية جماعية. واستطاع اكتســاب لهجة المنطقة بطريقة سلسة منذ وقت طويل من أمه التي كانت مدرّسة "فن الفصاحة". وأصرّت أيضاً على أن يتمتع ابنها بالاستقلالية، وأن لا يتسامح مع الحمقى، وأن يعمل على إخفاء كراهيته لسكّان المدينة. والأهم من ذلك كله، شجّعت مهارته في التحليل وقدرته على التفكير المتشعّب.

اســتخدم تلك القدرات خلال مهنته الطويلة لاكتشاف نوايا العدو. ولم يكن ينتظر غالــباً حــتى تصــبح الأفعال مؤكّدة، كان الحافز والخداع في صلب عمله. وأصبح منــتقدوه فـــي مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي مهتمين بمرور الوقت بما كانوا يرونه قفزات خيالية. وكان لديه جواب واحد لهم جميعاً: "إقرأوا ملف قضية الميغ المسروقة".

فـــي ذلك الصباح من آذار سنة 1997، وفيما كان يقود سيارته خارج تل أبيب، كـــان مـــير عميـــت علـــى قائمـــة المتقاعديـــن رسمياً. لكن لم يكن أحد في مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي يصدّق ذلك لأن خبرته الواسعة كانت أثمن من أن توضع في ثلاجة باردة.

كـــان مير عميت قد عاد من مدينة هو - شي - من في اليوم السابق، حيث كان فـــي زيارة إلى ضباط استخبارات الفايتكونغ السابقين. وكانوا يتبادلون الخبرات بعدما وجــدوا أرضـــية مشتركة للتغلب على الخلافات القديمة: الفيتناميون ضد الأميركيين، وإســـرائيل التي تقاتل العرب. قام مير عميت بزيارات إلى أماكن أخرى حيث تسببت

مـــناوراته السرية فيما مضى بإحداث فوضى عارمة: عمّان، والقاهرة، وموسكو. ولم يجرؤ أحد على السؤال عن أسباب تلك الزيارات، تماماً كما كان الحال خلال السنوات الخمـــس الهامة التي قضاها مديراً عاماً للموساد (1963 - 68) والتي لم يستطع أحد فيها الاعتراض على مصادره أو أساليبه في العمل.

استطاع خلال تلك الفترة تحويل مهمة جمع المعلومات الاستخباراتية إلى فنّ قائم بحــدّ ذاتـــه. ولم يكن أي جهاز استخبارات آخر قادراً على مجاراة عملائه في مجال جمـــع المعلومـــات. واستطاع زرع جواسيس بأعداد كبيرة في كل بلد عربي، وعبر أوروبا، وأميركا الجنوبية، وأفريقيا وفي الولايات المتحدة. وتسلل الكاستا الذين يعملون لصـــالحه إلـــى المخابرات الأردنية، أفضل الأجهزة العربية، والاستخبارات العسكرية الســـورية، الأقســـى على الإطلاق. وكان لعملائه أعصاب باردة وعزيمة فولاذية لا يستطع أي روائي ابتكارها.

بعـــد وقت قصير من تسلمه مهام المدير العام للموساد، وزّع مير عميت مذكّرة سرقها أحد العملاء من مكتب ياسر عرفات:

"لـــدى الموساد إضبارة عن كل منا. وهم يعرفون أسماءنا وعناويننا. ونعرف أن هناك صورتين في كل ملف عنا. تبين إحداها كيف نبدو دون الكوفية، والأخرى ونحن نرتديها. ولهذا لا يجد الموساد صعوبة في تعقّبنا مع أو دون لباس الرأس".

وللإسهام في زيادة الخوف، جنّد مير عميت عدداً لم يسبق له مثيل من المخبرين العـــرب. وعمل على مبدأ أنه من خلال قانون الاحتمالات سيكتشف عدداً كافياً منهم، وأنهـــم ســـيكونون مفيدين على المدى الطويل. وخان عرب مرتشون مسلحي منظمة الـــتحرير الفلســـطينية، وكشفوا مخابئ أسلحتهم، ومنازلهم الآمنة، وترتيبات انتقالهم. ومقـــابل كل إرهابي يقتله الموساد، كان مير عميت يدفع للمخبر مكافأة مقدارها دولار أميركي واحد.

أثناء التحضيرات لحرب الأيام الستة سنة 1967، كان هناك إما كاستا أو مخبر للموســـاد داخل كل قاعدة جوية مصرية ومركز قيادة عسكري. كان هناك ثلاثة منهم علـــى الأقـــل فـــي مركز القيادة العامة العليا في القاهرة، وكانوا ضباط أركان حرب أقـــنعهم مـــير عميـــت بالتعاون. وبقيت الطريقة التي فعل بها ذلك سرية للغاية: "من الأفضل أن تبقى بعض الأمور كما هي".

كـــان يـــزوّد كـــل مخبر وعميل ميداني بنفس التعليمات: "إضافة إلى أننا نريد الصورة الكبيرة، إلا أننا نحتاج التفاصيل الصغيرة أيضاً. كم يمشي الطيار من موقعه

إلى المطعم العسكري ليتناول طعامه؟ كم من الوقت يتأخر ضابط أركان الحرب في ازدحام القاهرة المروري المرعب؟ هل للقائد عشيقة؟" ولم يكن أحد سواه يفهم كيفية استخدام مثل تلك المعلومات.

استطاع كاستا أن يتدبّر لنفسه عملاً كنادل في مطعم الضباط في قاعدة مقاتلة على خط الجبهة. وكان يقدّم تفاصيل أسبوعية عن جهوزية الطائرات وأسلوب حياة الطيارين والفنيين. وكانت عاداتهم في الشراب وحياتهم الجنسية ضمن المعلومات التي يتم إرسالها باللاسلكي إلى تل أبيب.

عمل قسم الحرب النفسية الذي أنشأه الموساد حديثاً تحت اسم **لوه آما سيكولوجيت LAP** على مدار الساعة لتحضير ملفات عن الطيارين المصريين، والكادر الأرضي، وضباط أركان الحرب: مهاراتهم في الطيران، وهل استحقوا رتبهم العسكرية بفضل قدراتهم أم بفضل علاقاتهم، وهل لدى أي منهم مشكلة مع الشراب، أو يزور المواخير أو قد يكون يفضّل الفتيان.

كان مير عميت ينكبّ على الملفات خلال الليل، ويبحث عن نقاط الضعف، وعن رجال يمكن ابتزازهم للعمل لصالحه. "لم تكن مهمة ممتعة، لكن عمل الاستخبارات غالباً ما يكون قذراً".

بدأت عائلات العسكريين المصريين تتلقى رسائل مجهولة المصدر بالبريد تتضمن تفاصيل دقيقة عن تصرفات رجالها. وأرسل المخبرون إلى تل أبيب تفاصيل الشجارات العائلية التي أدّت إلى حصول الطاقم على إجازات مرضيّة. وتلقّى ضباط أركان الحرب مكالمات هاتفية مجهولة تقدّم تفاصيل عن حياة الشريك الخاصة. وتكلمت امرأة بصوت متعاطف مع مدرّس لتخبره أن السبب الوحيد لتراجع نتائج إحدى الطالبات هو أن والدها - الضابط الرفيع المستوى - على علاقة جنسية برجل آخر؛ وقام ذلك الضابط على إثر المكالمة بإطلاق النار على نفسه.

سبّبت هذه الحملة القاسية شقاقاً في الجيش المصري، وجعلت مير عميت راضياً تماماً.

في أوائل سنة 1967، أصبح واضحاً من خلال كل الدلائل التي تقدّمها شبكته المصرية أن قائد البلاد جمال عبد الناصر يستعدّ لحرب ضد إسرائيل. وتم تجنيد المزيد من المخبرين بوسائل مختلفة، وأصبح الموساد يعرف عن القوى الجوية والقيادة العسكرية المصرية بقدر ما تعرف القاهرة.

في أوائل أيار سنة 1967، كان عميت قادراً على تزويد قادة القوى الجوية

الإسـرائيلية بالتوقيت الدقيق الذي ينبغي عليهم فيه توجيه ضربة قاضية ضد القواعد الجوية المصرية. وكان لدى محللي الموساد مخططات تفصيلية لكل تلك القواعد.

بيـن 7:30 و7:45 صـباحاً كانـت وحدات رادار مهابط المطارات في أدنى درجـات الاسـتعداد. وفـي تلك الدقائق الخمس عشرة، يكون المناوبون قد تعبوا بعد نوبـتهم الليلـية الطويلة، فيما يكون الكادر الذي سيحل مكانهم غير مستعد تماماً بعد، وغالـباً ما يكونون متأخرين في تولّي مهامهم نظراً لبطء الخدمة في قاعات المطاعم العسـكرية. كان الطيارون يتناولون الإفطار بين 7:15 و7:45 صباحاً، ويمشون بعد الانـتهاء مـن تلك الوجبة نحو مكاتبهم للحصول على جدول الطيران اليومي. كانت الـرحلة العاديـة تستغرق حوالى العشر دقائق. وكان معظم الطيارين يقضون دقائق إضافية في الحمامات قبل أن يتوجهوا إلى خطوط الطيران. وكانوا يصلون إلى هناك حوالـى السـاعة 8:00 صـباحاً، وهي البداية الرسمية لليوم. وأثناء ذلك يبدأ الطاقم الأرضـي بإخـراج الطائرات من حظائرها لتتم تعبئتها بالوقود وتزويدها بالأسلحة. وخـلال الدقـائق الخمـس عشرة التالية، تكون المطارات مزدحمة بشاحنات الوقود والذخيرة.

تـم الحصـول على معلومات تفصيلية مشابهة لحركة ضباط أركان الحرب إلى مقـر *القـيادة العامـة* في القاهرة. تستغرق رحلة الضابط العادية حوالى ثلاثين دقيقة بالسـيارة مـن منـزلـه فـي إحدى الضواحي. ولم يكن المخططون الاستراتيجيون يتواجدون على مكاتبهم قبل الساعة 8:15 صباحاً. وكانوا يقضون عشر دقائق إضافية تقريـباً فـي الجلـوس وشرب القهوة وتبادل الأحاديث مع الزملاء. ولم يكن الضابط العـادي يـبدأ بدراسـة حركة الإشارة الليلية من قواعد المقاتلات قبل حوالى 8:30 صباحاً.

أخـبر مـير عميـت قادة القوى الجوية الإسرائيلية بأن الوقت المناسب لتواجد طائـراتهم فوق أهدافها يجب أن يكون بين 8:00 و8:30 صباحاً. وسيكونون قادرين فـي غضون هذه الثلاثين دقيقة على سحق قواعد العدو، مع العلم أن الكثير من كبار القادة لن يكونوا متواجدين في القيادة العامة في القاهرة لصد الهجوم.

فـي 5 حزيران سنة 1967، وجّهت القوى الجوية الإسرائيلية تماماً عند الساعة 8:01 صباحاً ضربة قاتلة، وتسللت على ارتفاع منخفض فوق سيناء لتقصف وتضرب بالقـنابل كيفما تشاء. وتحولت السماء في غضون لحظات إلى اللون الأسود الضارب إلى الحمرة مع اللهب المتصاعد من شاحنات الوقود والذخيرة والطائرات المتفجرة.

فـي تل أبيب، جلس مير عميت في مكتبه ينظر من خلال النافذة نحو الجنوب،

وكـــان يعرف أن محللي الاستخبارات قد قرّروا سلفاً نتيجة الحرب. وكان ذلك واحداً مـــن الأمثلة المذهلة عن مهاراته الاستثنائية؛ وعملاً جديراً بالملاحظة عند الأخذ بعين الاعتبار الحجم العددي للموساد.

منذ توليه مهام منصبه، قاوم مير عميت محاولات تحويل الموساد إلى نسخة عن الســـي آي أيـــه أو الكيه جي بي. كان هذان الجهازان يوظفان مئات آلاف المحللين، والعلمـــاء، والاستراتيجيين والمخططين لدعم العملاء الميدانيين. وكان لدى العراقيين والإيرانيين حوالى عشرة آلاف عميل ميداني؛ وحتى جهاز DGI الكوبي كان مؤلفاً من حوالى ألف جاسوس ميداني.

لكـــن مير عميت أصرّ على أن لا يتجاوز العدد الكلي لموظفي الموساد الدائمين 1200 شـــخص. وكان يتم انتقاؤهم بعناية بالغة، ممن يتمتعون بمهارات متعددة: يجب أن يكـــون العـــالم قادراً على العمل الميداني إذا دعت الحاجة لذلك؛ ويجب أن يكون الكاستا قادراً على استخدام مهاراته الخاصة لتدريب الآخرين.

كـــان بالنســـبة لهم جميعاً **ميمون**، والتي تعني بالعبرية **الأول ضمن المتماثلين.** وجـــاء مـــع اللقب قدرة التواصل اليومية مع رئيس الوزراء والإجراءات السنوية في تقديم ميزانيته لمجلس الوزراء الإسرائيلي للموافقة عليها.

قـــبل وقت طويل من حرب الأيام الستة، كان مير عميت قد أسّس لقدرة الموساد علـــى التسبب بخوف قاتل لأعداء إسرائيل، والتسلل بين صفوفهم، وفضح أسرارهم، وقتلهم بفاعلية قل نظيرها. وسرعان ما حوّل الموساد إلى أسطورة.

جـــاء معظم ذلك النجاح نتيجة القواعد التي وضعها لاختيار الكاستا، أو العملاء الميدانييـــن، الذيـــن كـــانوا السبب الحقيقي وراء نجاح الموساد. كان يفهم بشكل كامل الدوافع العميقة والمعقّدة التي تقودهم إلى مصافحته بعد اختيارهم، والإيماءة التي تعني بأنه أصبح القائد الذي ينفذون رغباته كما يريد.

رغم أن كل شيء آخر تغيّر في الموساد منذ ذلك الوقت، إلا أن مير عميت كان يعرف في صبيحة آذار سنة 1997 أن معايير التجنيد ما تزال على حالها:

"لا يـــتم قبول أي كاستا في الموساد يكون حافزه الرئيسي الحصول على المال. ولا مكـــان للصـــهاينة المتعصبين في هذا العمل، لأن ذلك يؤثّر على استيعاب ماهية الأهـــداف. إنـــه يتطلـــب حكمـــاً هادئاً، وواضحاً وبعيد المدى ووجهة نظر متوازنة. ويرغـــب الـــناس بالانضمام إلى الموساد لشتّى أنواع الأسباب. وهناك أيضاً ما يدعى بالســـحر. يحب البعض فكرة المغامرة. ويعتقد البعض أن الانضمام سيحسّن مركزهم، وهـــم أولئك الصغار الذين يريدون أن يكونوا كباراً. ويرغب البعض بالحصول على

القــوة السرية التي يعتقدون أن الموساد يوفّرها لهم. وليس أي من هذه الأسباب مقبول للانضمام".

"يجــب أن تــتأكدوا دائماً وأبداً أن رجلكم في الميدان يعرف أنه يحظى بدعمكم الكــامل. وأنكم ستعتنون بعائلته، وتعملون على إسعاد أطفاله. وفي نفس الوقت، يجب أن تحمــوه. وإذا بدأت زوجته تتساءل عمّا إذا كان لديه امرأة أخرى، يجب أن تؤكّدوا لهــا أن ذلك غير صحيح. وإذا كان لديه امرأة أخرى، لا تخبروها بذلك. وإذا خرجت عــن جــادة الصــواب، أعــيدوها فوراً. ولا تخبروا زوجها. يجب أن لا تفعلوا شيئاً يصــرف انتباهه. يجب أن يعامل مدير الاستخبارات الجيد موظفيه كعائلة. ويجب أن يجعلهــم يشــعرون أنه موجود دائماً من أجلهم، ليلاً ونهاراً، بغض النظر عن الوقت. إنها الطريقة التي تحصل بها على الولاء، وتجعل الكاستا يقوم بما تريده. وفي النهاية، ما تريده مهم".

يخضــع كل كاستا لثلاث سنوات من التدريب المكثّف، بما فيها التعرّض لعنف جسدي قاسٍ جداً تحت الاستجواب. ويصبح هو - أو هي - بارعاً في استخدام سلاح الموساد؛ بيريتا عيار 22.

تمركز أول كاستا خارج البلاد العربية في الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا. في الولايات المتحدة، كان هناك كاستا دائمون في نيويورك وواشنطن. وكان كاســتا نــيويورك مكلّفيــن بمهمــة خاصــة هي التسلل إلى كل بعثات الأمم المتحدة الدبلوماســية وجماعات المدينة العرقية الكثيرة. كان لكاستا واشنطن مهام مماثلة، مع مسؤولية إضافية في التنصت على البيت الأبيض.

عمل كاستا آخرون في مناطق النــزاعات القائمة، وعادوا إلى الوطن عند انتهاء مهامهم.

وسّــع مير عميت الجهاز بشكل كبير، وأضاف **قسم المجموعات** المسؤول عن عملــيات تجميع المعلومات الاستخباراتية في الخارج و*قسم العمل والارتباط السياسي* الذي يعمل مع ما يسمّى أجهزة الاستخبارات الأجنبية الصديقــة مثل CIA الأميركي، وM16 البريطانــي. ويــتكون **قســم الأبحاث** من خمسة عشر فرعاً أو مكتباً تستهدف الــدول العربية. وكان لكل من الولايات المتحدة، وكندا، وأميركا اللاتينية، وبريطانيا، وأوروبا والاتحاد السوفياتي مكاتبها المنفصلة. وتوسّعت هذه البنية التحتية عبر السنين لتتضــمن الصــين، وجــنوب أفريقيا، والفاتيكان. لكن الموساد نفسه بقي نفس الجهاز الصغير بشكل أساسي.

لم يكن يمضي يوم دون وصول حزمة جديدة من قصص الأنباء من محطات ما وراء البحار. وكان يتم توزيع تلك المعلومات عبر المبنى الرمادي الكئيب المرتفع عالياً في جادة الملك سول. في رأي مير عميت: "إذا كان ذلك سيجعل شخصاً ما يمشي مرفوع الرأس، فلا بأس بذلك. وبالطبع، سيجعل ذلك أعداءنا أكثر خوفاً".

كان كاستا الموساد أكفاء بشكل مذهل، وماكرين بشكل يفوق الخيال، ومستعدين لرد النار بالنار. لقد فجّر هؤلاء العاملون أعمال شغب مصممة لإحداث جو من عدم الثقة المتبادل بين الدول العربية، ونظّموا دعاية مضادة سوداء، وجنّدوا المخبرين، ونفّذوا فلسفة عميت: "فرّق، تسد". ووضع رجال ذلك الرجل، في كل ما قاموا به، قواعد جديدة لحرفية بدم بارد، وتحركوا مثل لصوص في الليل، وخلّفوا وراءهم قافلة من الموت والدمار. ولم يكن أحد بمأمن من انتقامهم.

كان الكاستا يعودون بعد انتهاء مهامهم لتقديم تقاريرهم في مكتب مير عميت بالقرب من النافذة التي تطل على شارع عريض يدعى باسم أحد أمراء حرب إسرائيل في العهد القديم. وكان يقود شخصياً من مكتبه جاسوسين لا يوجد لشجاعتهما مثيل في سجلات الموساد. وعندما كان يتذكّر مساهمتهما، كان صوته يتهدّج، وتعلو وجهه ابتسامة عندما يبدأ باستعادة تفاصيل سيرتهما الذاتية.

ولد إيلي كوهين في الإسكندرية في مصر في 16 كانون الأول سنة 1924. وكان يهودياً أرثوذكسياً ورعاً مثل والديه. في كانون الأول سنة 1956، كان من ضمن اليهود الذين طردوا من مصر بعد أزمة السويس. ووصل إلى حيفا وشعر بأنه غريب في أرض جديدة. في سنة 1957، تم تجنيده في جهاز مكافحة التجسس العسكري الإسرائيلي، لكنه سأم من عمله كمحلل. وبدأ يسأل عن إمكانية انضمامه إلى الموساد، لكن طلبه رُفض. ويتذكّر مير عميت: "سمعنا أن رفضنا قد جرح مشاعر إيلي كوهين بعمق. واستقال من الجيش وتزوج امرأة عراقية تدعى ناديا.

عاش كوهين حياة عادية لمدة سنتين وعمل كموظف أرشفة في مكتب تأمين في تل أبيب. ودون علم منه، درس مير عميت خلفيته عبر نظام الموساد **للملفات المرفوضة**، والذي كان يبحث عن "نوع معين من العملاء لتأدية مهمة خاصة جداً". وعندما لم يجد شخصاً مناسباً في الملفات *المقبولة*، تحول إلى *المرفوضة*. وبدا أن كوهين هو الاحتمال الوحيد. وضع كوهين تحت المراقبة. ووصفت تقارير مكتب تجنيد الموساد الأسبوعية عاداته الصعبة وإخلاصه لزوجته وعائلته الشابة. كان عاملاً نشيطاً، وسريع الفهم ويستطيع العمل تحت الضغط. وأخيراً، أخبره الموساد أنه *مناسب*

للعمل معهم.

بــدأ إيلي تدريباً مكثّفاً مدته ستة أشهر في مدرسة تدريب الموساد. وعلّمه خبراء التخريــب كيفية صنع المتفجرات والقنابل المؤقتة من الأبسط إلى الأكثر تعقيداً. وتعلّم القتال القريب وأصبح قنّاصاً من الدرجة الأولى ولصاً بارعاً. واكتشف أسرار التشفير وفك الشيفرة، وكيفية تشغيل جهاز لاسلكي، واستخدام الحبر السري، وإخفاء الرسائل. كان دائماً محط إعجاب مدربيه بمهاراته. جاءت ذاكرته القوية من استذكار مقاطع من الــتوراة عندما كان يافعاً. وذكر تقرير تخرّجه أنه يتمتع بكل المهارات التي يحتاجها الكاتسا. ورغم ذلك، كان مير عميت ما زال متردداً.

"ســألت نفسي مئة مرة: هل يستطيع إيلي فعل ما أريده؟ لقد أظهرت له، بالطبع، دائماً أنه موضع ثقتي. ولم أكن أرغب بأن يفكر للحظة واحدة أنه لا يبعد سوى خطوة واحدة عن الباب الذي سيرسله إلى مملكة. وقد وضع بعض من أفضل رجال الموساد كل ما يعرفونه فيه. وأخيراً، قررت المضي قدماً مع إيلي.

أمضــى مير عميت أسابيع في إنشاء قصة تغطية لصنيعته. كان عليهما الجلوس معاً ودراسة خرائط الشوارع وصور بيونس آيريس بحيث تصبح خلفية كوهين الجديدة واسمه **كميل أمين تابز** مألوفة له. ويصف رئيس الموساد سرعة ذلك:

"تعلّــم لغــة الاستيراد والتصدير إلى سورية. وحفظ الفرق بين البوالص ووثائق الشــحن، والعقود والضمانات، وكل شيء يحتاج لمعرفته. لقد كان مثل الحرباء منتبهاً لكل شيء. وأمام ناظريّ، اختفى كوهين وظهر تابز، السوري الذي لم يتخلَ مطلقاً عن حلمه في الذهاب إلى وطنه دمشق. كان إيلي يصبح كل يوم أكثر ثقة، وأكثر إصراراً ورغبة ليثبت أن باستطاعته تنفيذ الدور. لقد كان مثل عدّاء الماراثون في بطولة العالم الــذي يــتدرب لــبلوغ قمــة الاستعداد عندما يبدأ السباق. ولكنه يتدرب وحيداً طوال سنوات. وقمنا بكل ما نستطيع لنعلّمه كيف يتكيّف مع حياته الجديدة، وكيف يعيش تلك الحــياة. وكانت البقية متعلقة به. كنا نعرف ذلك جميعنا. ولم يكن هناك مع السلامة أو وداع كبير. لقد غادر إسرائيل بالطريقة التي غادرها كل جواسيسي".

في العاصمة السورية، سرعان ما قدّم كوهين نفسه لمجتمع الأعمال، وأنشأ حلقة مــن الأصــدقاء المهميــن. كــان من بين هؤلاء غازي زهر الدين ابن أخت الرئيس السوري.

كــان زهر الدين رجلاً متباهياً، ومتلهفاً ليقنعه أن سورية لا تُقهر. لعب كوهين على ذلك، واستطاع خلال وقت قصير فقط أن يشارك في جولة إلى حصون مرتفعات

الجولان السورية. شاهد الخنادق الإسمنتية العميقة التي تحيط بالمدفعية البعيدة المدى التي أرسلتها روسيا. وحصل أيضاً على إذن بالتقاط الصور. وفي غضون ساعات فقط من وصول مئتي دبابة روسية من طراز "ت – 54" إلى سورية، كان كوهين قادراً على إيصال الخبر إلى تل أبيب. حتى أنه حصل على مخطط تفصيلي كامل للاستراتيجية السورية لقطع أوصال شمال إسرائيل. كانت تلك المعلومات لا تُقدّر بثمن.

فيما كان كوهين يستمر في تأكيد ما يؤمن به مير عميت بأن عميلاً ميدانياً واحداً يساوي فرقة من الجنود، بدأ يصبح أخيراً متهوراً. كان كوهين مولعاً بكرة القدم. وبعد يوم من زيارة فريق هزم إسرائيل في تل أبيب، كسر قاعدة *العمل فقط* المتشددة حول رسائل اللاسلكي، وبعث بالتالي: "لقد حان الوقت حتى نتعلم كيف ننتصر في ميدان كرة القدم".

كان هناك رسائل أخرى تمت ترجمتها: "الرجاء إيصال تحية الذكرى السنوية لزوجتي"، و"عيد ميلاد سعيد لابنتي".

كان مير عميت غاضباً بشكل خاص. لكنه كان يأمل بأن الضغوط التي يتعرض لها كوهين: "ليست أكثر من انحراف مؤقت غالباً ما يواجه أفضل العملاء. لقد حاولت الدخول إلى رأسه. هل كان يائساً، وكانت طريقته في إظهار ذلك بالتخلي عن أمنه؟ وحاولت التفكير مثله، وكنت أعرف أنني سأعيد كتابة حياته. وكان عليّ أن أوازن بين مئات العوامل. لكن في النهاية، كان الشيء المهم الوحيد هو: هل يستطيع إيلي الاستمرار في مهمته؟"

قرّر مير عميت أن كوهين يستطيع ذلك.

في ليلة من شهر كانون الثاني سنة 1965، جلس إيلي كوهين في غرفة نومه في دمشق جاهزاً للعمل على اللاسلكي. وحالما شغّل اللاقط، اندفع ضباط الاستخبارات السورية إلى الشقة. وتم ضبط كوهين باستعمال أحد أكثر أجهزة الرصد تطوراً في العالم؛ الذي قدّمه الروس.

تم إجباره على إرسال رسالة إلى الموساد أثناء الاستجواب. وفشل السوريون في ملاحظة التغير الماكر في سرعة وإيقاع إرسال اللاسلكي. في تل أبيب، تلقّى مير عميت الأنباء بأنه تم إلقاء القبض على كوهين. وأكّدت سورية إلقاء القبض عليه بعد يومين.

"كان الأمر شبيهاً بفقدان أحد أفراد العائلة. وتسأل نفسك نفس الأسئلة عندما تفقد عميلاً: "هل كان باستطاعتنا إنقاذه؟ كيف تم اكتشافه؟ هل كان ذلك بسبب إهماله؟

بسبب شخص قريب منه؟ هل احترق ولم ندرك ذلك؟ هل كان لديه أمنية قبل أن يموت؟ وذلك يحدث أيضاً. أم كان مجرد حظ سيئ؟ وتسأل، وتستمر في طرح الأسئلة. ولا تحصل على أجوبة قاطعة أبداً. لكن السؤال قد يكون طريقة للتأقلم مع ما حدث".

لم يستطع السوريون تحطيم إيلي كوهين في أي مرحلة رغم التعذيب الذي تعرض له قبل أن يُحكم عليه بالإعدام.

خصص مير عميت كل وقته محاولاً إنقاذ إيلي كوهين. وفيما أطلقت ناديا كوهين حملة إعلانية عالمية لإنقاذ حياة زوجها - اتصلت بالبابا، وملكة إنكلترا، ورؤساء الوزارات والرؤساء - عمل عميت بشكل سري. وسافر إلى أوروبا لمقابلة رئيسي جهازي الاستخبارات الفرنسية والألمانية. لكنهما لم يستطيعا فعل شيء. واتصل بشكل غير رسمي مع الاتحاد السوفياتي. بقي يقاتل حتى 18 نيسان سنة 1965، وفي حوالى الساعة 2:00 صباحاً، عندما انطلقت قافلة من سجن المزة في دمشق. وكان إيلي كوهين في إحدى الشاحنات.

كان معه حاخام سوري يبلغ من العمر ثمانين سنة، ويدعى نسيم عندابو. بكى الحاخام علناً لأنه كان يعرف ما سيحدث. وهدّأ إيلي كوهين من روع الرجل العجوز. ووصلت القافلة إلى ساحة المرجة في قلب دمشق. وهناك تلى إيلي الفيدو، وهي الصلاة العبرية لرجل على وشك مواجهة الموت. "أيها الرب القدير، سامحني على كل خطاياي وذنوبي".

عند الساعة 3:35 صباحاً، وعلى مرأى من آلاف السوريين، وتحت أضواء التلفاز، وقف إيلي على منصة المشنقة.

في تل أبيب، كانت ناديا كوهين تشاهد زوجها يحتضر، وحاولت قتل نفسها. تم نقلها إلى المستشفى وإنقاذ حياتها.

في اليوم التالي، وفي مراسم خاصة صغيرة في مكتبه، عبّر عميت عن تقديره لإيلي كوهين. ثم عاد إلى عمله في توجيه عميله المفضل الثاني.

وصل ولفغانغ لوتز، اليهودي الألماني، إلى فلسطين بعد وقت قصير من وصول هتلر إلى السلطة. وفي سنة 1963، اختاره مير عميت من ضمن قائمة صغيرة من المرشحين للقيام بمهمة تجسس في مصر. ورغم أن لوتز اجتاز نفس التدريب القاسي مثل كوهين، إلا أن مير عميت كان يفكّر ملياً حول تغطية عميله. قرّر عميت أن يجعل منه مدرّب فروسية، وأن يقدّم نفسه كلاجئ من ألمانيا الشرقية خدم في الفيلق

الأفريقـي في الحرب العالمية الثانية، وعاد إلى مصر ليفتح أكاديمية للفروسية. سوف تمـنحه تلـك المهنة اتصالاً مباشراً مع مجتمع القاهرة المخملي، وسيتم بناء المدرسة بجانب جمعية المدينة للفروسية.

سـرعان مـا أنشـأ لوتز حلقة من الأصدقاء تتضمن نائب رئيس الاستخبارات العسكرية المصرية، ورئيس أمن منطقة قناة السويس. وبشكل يضاهي ما فعله كوهين، أقنع لوتز أصدقاءه الجدد بأن يسمحوا له بمشاهدة الدفاعات المصرية: منصات إطلاق الصـواريخ في سيناء وعلى الجبهة. وحصل لوتز أيضاً على نسخة كاملة من العلماء النازييـن الذيـن يعيشـون في القاهرة، والذين كانوا يعملون على الصواريخ وبرامج التسلح المصرية. وسرعان ما تم إعدامهم بشكل منهجي من قبل عملاء الموساد.

بعـد سـنتين من العمل متخفياً، تم إلقاء القبض أخيراً على لوتز وإدانته. وأحس المصـريون أنه أثمن من أن يقتلوه، ولهذا حافظوا على حياته في انتظار أن يقايضوه مع جنود مصريين قد تلقي إسرائيل القبض عليهم في أي حرب مستقبلية. وأصبح مير عميت مجدداً شديد القلق بسبب إلقاء القبض على لوتز.

كتب مير عميت إلى الرئيس المصري آنذاك جمال عبد الناصر يطلب منه مبادلة لوتـز وزوجـته مقابل عودة أسرى الحرب المصريين الذين أسرتهم إسرائيل. رفض ناصر. وطبّق عليه عميت ضغوطاً نفسية:

"سـأخبر الأسـرى المصـريين أنهـم جميعاً موقوفون لأن ناصر رفض تسليم إسـرائيليين. وسنسـمح لهـم بمراسلة عائلاتهم. وستكون مشاعرهم واضحة جداً في رسائلهم".

كتب مير عميت إلى ناصر مرة أخرى يقول إن إسرائيل ستمنحه كل الضمانات المطلوبة علناً لاستعادة أسرى الحرب، وسوف تستعيد لوتز وزوجته بصمت. لم يوافق ناصـر أيضـاً. هكذا حوّل عميت القضية إلى قائد قوات الأمم المتحدة المسؤولة عن حفظ السلام في سيناء. وسافر المسؤول إلى القاهرة، وحصل على تأكيد بأن يتم إطلاق سراح لوتز وزوجته في موعد مستقبلي.

فهم مير عميت *الرسالة المشفّرة*. غادر لوتز وزوجته القاهرة سراً إلى جنيف بعد شهر. "وكانا في غضون ساعات في مكتبي".

أدرك مير عميت أن عملاءه يحتاجون للدعم في الميدان. وقام بإنشاء سيانيم، أو **المعـاونون الـيهود المتطوعون**. وكان كل سايان مثالاً عن التماسك التاريخي ضمن المجـتمع اليهودي العالمي. وبغض النظر عن ولائه لوطنه أو وطنها، يجب على كل

سايان أن يقدّم ولاء أكبر: الولاء الروحي لإسرائيل، وضرورة حمايتها من أعدائها.

أنجزت سيانيم العديد من الوظائف. سايان في إدارة شركة تأجير سيارات، والذي يـزوّد الكاسـتا بمركبة دون الوثائق المعتادة، وسايان في شركة تأجير عقارات تقدّم شـققاً، وموظـف مصـرف يصرف الأموال خارج ساعات العمل المعتادة، وسايان الطبيـب الـذي يقـدّم المساعدة الطبية - معالجة جرح رصاصة مثلاً - دون إخبار السلطات. لم يكن هؤلاء يتلقون أي أموال سوى على ما يقدمونه من خدمات.

كـانوا يجمعـون معلومات تقنية وكل أنواع المعلومات العلنية: شائعة في حفل اسـتقبال، وخبر ما عبر الإذاعة، وفقرة في صحيفة وقصة نصف مكتملة على طاولة العشـاء. كـانوا يقدّمون الإرشادات للكاستا. لم يكن الموساد قادراً على الحركة دون هؤلاء السايان.

مجـدداً، لم تبقَ أسطورة مير عميت على حالها، وإنما توسعت بشكل هائل. في سنة 1998، كان هناك 4000 سايان في بريطانيا، ويبلغ عددهم أربعة أضعاف ما هو موجـود فـي الولايـات المتحدة تقريباً؛ وفيما لم يكن لدى مير عميت سوى ميزانية محـدودة لإدارة عملياته، ينفق الموساد اليوم عدّة ملايين من الدولارات شهرياً للحفاظ علـى مصـادر قوتـه، ويدفع نفقات السايان، ويدير منازل آمنة، ويقدّم ثمن تكاليف العمليات اللوجستية وتغطية العملاء.

كـان مير عميت قد ترك لهم شيئاً آخر كتذكار عن حقبته كقائد لهم: لغة خاصة بهم. كان نظام كتابة التقارير معروفاً باسم ناكا؛ وكان ضوء النهار يعني أعلى درجات التأهـب؛ وكـيدون عضواً في فريق اغتيال الموساد؛ ونيفوت مسؤولاً عن المراقبة؛ وياهالومين الوحدة التي تتولى الاتصالات مع الكاستا؛ وصفانيم وحدة استهداف منظمة الـتحرير الفلسـطينية؛ وبالدر مراسل؛ وسليك مكان آمن لحفظ الوثائق؛ وتودز تعني تزوير.

فـي صبيحة ذلك اليوم من آذار سنة 1997، وفيما كان يقود سيارته ويسترجع الماضـي، كان مير عميت يعرف بأن الكثير تغيّر في الموساد، وأنه يتعرض لضغط كبـير ناتج عن المطالب السياسية وخصوصاً من رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو. قال مير عميت إن الموساد أصبح معزولاً بشكل خطير عن أجهزة الاستخبارات الأجنبية. وفـيما كانت عقيدة الجهاز الرئيسية هي "إسرائيل أولاً، وأخيراً ودائماً. أبداً"، إلا أنها تحولـت إلـى أخـرى، كما قال هو نفسه، وبكلماته: "الاستفادة من جيوب أصدقائك". وكانت الكلمة الأساسية "القبض" كما أضاف بابتسامة ساخرة أخرى.

كـــان تســـلل الموســـاد المتزايد في الولايات المتحدة عبر التجسس الاقتصادي، والعلمـــي، والتكنولوجي مثالاً صارخاً على ذلك. انتشرت وحدة خاصة، اسمها السري "آل" والتي تعني بالعبرية فوق، عبر وادي السليكون في كاليفورنيا والطريق 128 في بوســـطن للحصـــول علـــى أسرار التقانة العالية. وفي تقرير للجنة الاستخبارات في الكونغـــرس، حـــدّدت CIA إسرائيل كواحدة من ضمن ستة بلدان أجنبية تبذل "جهوداً سرية تديرها وتنسقها الحكومة للحصول على أسرار الولايات المتحدة الاقتصادية".

حذّر رئيس جهاز الاستخبارات الداخلية الألمانية، بوندشمات فور فيرفاسونغشاتز (BFD)، إدارتـــه مـــن أن الموساد يبقى تهديداً رئيسياً لسرقة آخر الأسرار الحاسوبية للجمهوريـــة. وتم إصدار تحذير مماثل من قبل الإدارة العامة للاستخبارات الخارجية الفرنسية (DGSE) بعد ضبط أحد عملاء الموساد قرب مركز *معالجة الصور الفضائية* فـــي كـــريل. كانـــت إسرائيل تحاول منذ وقت طويل زيادة قدراتها في الفضاء لتماثل قدراتهـــا النووية على الأرض. لقد قام جهاز مكافحة التجسس البريطاني M15 بتقديم تقاريـــر إلـــى رئيس الوزراء البريطاني المنتخب حديثاً طوني بلير يشرح فيها جهود الموساد للحصول على بيانات علمية ودفاعية حساسة في المملكة المتحدة.

لم يعترض مير عميت، كما فعل كثيرون غيره، على مثل تلك المغامرات، والتي يبدو أن تنفيذها يتم غالباً بغياب التخطيط وتجاهل العواقب الطويلة المدى.

ينطـــبق الشـــيء نفسه على الطريقة التي يقوم فيها علماء النفس في LAP بتنفيذ حملاتهـــم الدعائـــية. كـــان ذلك القسم قد أنشأ في أيامه شبكة عالمية من العلاقات مع وســـائل الإعلام واستخدمها بمهارة عالية. يكون هناك اتصال، بعد حادث إرهابي في أوروبا، مع وكالة أنباء لها خلفية معينة، والتي يكون لها مصلحة معينة في العمل على القضـــية، ونتم كتابة القصة بالطريقة التي يريدها LAP. تقوم الوحدة بتقديم المعلومات أيضاً إلى الملحقين الإعلاميين في السفارات الإسرائيلية ليمرروها إلى أحد الصحفيين خلال تناول الشراب أو العشاء، وعندها يمكن نشر سر على نطاق واسع وتدمير سمعة شخص ما.

رغـــم أن جوهـــر تلك الدعاية السوداء تبقى نفسها، إلا أن هناك فرقاً جوهرياً: اختـــيار الهـــدف أو الضحية. بالنسبة لمير عميت، كان يبدو غالباً أنه يتم اتخاذ القرار بـــناءً علـــى احتياجات سياسية: الحاجة لصرف الانتباه عن مناورة دبلوماسية تخطط إســـرائيل للقـــيام بها في الشرق الأوسط، أو لاستعادة شعبيتها المتذبذبة، خصوصاً في الولايات المتحدة.

عندما تحطّمت رحلة خطوط عبر العالم الجوية رقم 800 قبالة السواحل الجنوبية الشرقية لجزيرة لونغ في 17 تموز سنة 1996، وقُتل جميع الركاب 230 الذين كانوا على متنها، بدأ LAP حملة للإيحاء بأن سبب المأساة كان إيران أو العراق، وهما عدوا إسرائيل اللدودان. وسرعان ما انتشرت آلاف القصص في وسائل الإعلام حول الحادثة. وبعد مرور سنة تقريباً، وبعد إنفاق حوالى خمسمئة ألف دولار، وعشرة آلاف ساعة من العمل، نفى كبير محققي FBI جيمس ك. كالستورم وجود قنبلة إرهابية أو أي دليل على أن جريمة ما وراء الحادث. لقد أخبر زملاءه بشكل شخصي: "إن كان هناك من طريقة للنيل من أولئك الأوغاد في تل أبيب لتسببهم بضياع وقتنا، فمن المؤكد أنني أرغب برؤيتها. لقد كان علينا تفحّص كل مادة سرّبوها لوسائل الإعلام".

ضربت LAP مجدداً بعد تفجيرات الألعاب الأولمبية في أطلانطا. وتقول القصة بأن القنبلة "تحمل كل العلامات" بأنها من صنع شخص اكتسب مهاراته من صانعي القنابل في وادي البقاع في لبنان. وتفاعلت القصة، وتسبّبت LAP بجعل شبح الإرهاب يحوم على الشعب الأميركي. كان المشتبه به الوحيد رجل أمن بائس في الألعاب الأولمبية – رجل لا علاقة له بالإرهاب العالمي – ماتت القصة عندما تم إطلاق سراحه.

كان مير عميت يفهم أهمية تذكير العالم بالإرهاب. لكن التحذير "يجب أن يكون محبوكاً بدقة، وهو شيء لطالما أصررت عليه". كان الاعتراف متبوعاً دائماً بلا مبالاة، كما لو أن أداة إطفاء داخلية كانت ترش شعلة الاحتراق لديه". تعلّم، قبل وقت طويل، إخفاء مشاعره وأن يكون غامضاً حول التفاصيل؛ وكانت السرية نقطة قوته لسنوات.

في رأيه، بدأ مسلسل انحدار الموساد مع اغتيال رئيس الوزراء إسحاق رابين في تجمّع للسلام في تل أبيب في تشرين الثاني سنة 1995. وقبل وقت قصير من قيام متشدد يهودي بإطلاق النار على رابين – وهي علامة أخرى على الانحراف العميق الذي رآه مير عميت في المجتمع الإسرائيلي – كان مدير عام الموساد حينها شابتي شافيت قد حذّر حرّاس رابين من وجود محاولة تستهدف حياته. ووفقاً لأحد موظفيه، تم تجاهل ذلك الاحتمال لأنه لم يكن واضحاً بتاتاً و"لم يكن يشكّل تهديداً أكيداً".

لم يكن الموساد مفوضاً بالعمل ضمن إسرائيل تحت قيادة مير عميت، تماماً مثلما لا تستطيع CIA فعل شيء يذكر داخل الولايات المتحدة. ورغم الانتقادات الموجهة إليه، كان مير عميت يحب القول إن الموساد قد شارك في صنع قدر إسرائيل. تحت

قيادته، كان تأثير عمليات الموساد يتردد صداه في كل أنحاء العالم، وكان يعزو معظم ذلك إلى الولاء، وهي خاصية تبدو الآن بالية. ورغم أن الناس ما زالوا يقومون بأعمالهم - الخطيرة والقذرة كما كانت دائماً - إلا أنهم يتساءلون فيما إذا كانوا سيتعرضون للمحاسبة ليس من قبل المشرفين عليهم وحسب وإنما بسبب بعض الاعتبارات السياسية في الخلفية. وقد يكون التدخل بسبب جنون العظمة الذي يطفو على السطح بشكل اعتيادي والتحدّي الذي يفرضه المبدأ الذي يقول إن إسرائيل ديمقراطية حقيقة فعلاً.

يوجد إلى جانب الطريق الرئيسي بين منتجع هيرزليا وتل أبيب منشآت تنتصب عليها الهوائيات. إنها مدرسة تدريب الموساد. ومن ضمن الأشياء الأولى التي يبدأ موظف سياسي، أو جاسوس في سفارة أجنبية تعلّمها في تل أبيب هي موقع هذه المباني البنية اللون. ورغم ذلك لا تستطيع أي مطبوعة إسرائيلية كشف وجودها دون أن تتعرض لمخاطر المقاضاة. في سنة 1996، كان هناك نقاش غاضب ضمن مجتمع استخبارات البلاد حول ما ينبغي فعله بعد أن نشرت صحيفة في تل أبيب اسم آخر مدراء الموساد داني ياتوم. كان هناك كلام عن اعتقال المراسل المتهم ورئيس التحرير. وفي النهاية، لم يحدث شيء عندما أدرك الموساد أن اسم ياتوم انتشر عالمياً.

كان مير عميت ضد مثل هذه الاختراقات: "إن كشف اسم رئيس الاستخبارات خطير جداً. إن التجسس عمل سري، وليس ممتعاً. ولا أهمية لعمل أي شخص مهما كان، لأن المفروض حمايته أو حمايتها من الدخلاء. وتستطيع التعامل معه أو معها بقسوة كما تريد داخل الجهاز. لكن يجب أن يبقى أو تبقى فوق النقد بالنسبة للعالم الخارجي، ولا يمكن محاسبته أو معرفته".

كان لقبه خلال بقائه في منصبه كمدير عام لموساد رام. ولتلك الكلمة صدى مرضٍ في العهد القديم عن غلام تربّى بروح الروّاد الأوائل في وقت كانت فيه كل فلسطين العربية ثائرة ضد الانتداب البريطاني واليهود. عمل على تمرين جسده بقسوة منذ طفولته. وأصبح مير عميت الضعيف جسدياً قوياً ورياضياً، ومعززاً بالإيمان أن هذه هي أرضه - أرض إسرائيل. ولم يكن يهمه أن بقية العالم تدعوها فلسطين لغاية سنة 1947، عندما اقترحت الأمم المتحدة التقسيم.

كانت ولادة دولة إسرائيل عسيرة بسبب محاولة الجيوش العربية إبادتها لاستعادة الأرض. لقد مات ستة آلاف يهودي، ولم يستطع أحد الحصول على الأرقام الحقيقية للعرب الذين سقطوا. لقد ساهمت رؤية هذا العدد الكبير من الجثث في نضوج مير

عميــت. وعمّق وصول الناجين من معسكرات الموت النازية العملية، والذي كان كل مــنهم يحمــل وشماً أزرق على جسده أو جسدها. "كان المنظر تذكيراً عن عمق فساد الأخــلاق البشــرية". كانت كلمات الآخرين تبدو عادية وغير مناسبة: لقد منحهم مير عميت الكرامة.

كانــت مهنته العسكرية سيرة حياة جندي يتجه نحو القمة: قائد فصيلة في حرب سنة 1948؛ وقائد فوج بعد سنتين بإمرة موشي دايان؛ ثم وفي غضون خمس سنوات رئيس عمليات الجيش، وهو ثاني أعلى منصب في قوات الدفاع الإسرائيلية. لقد أنهى حــادث – الفشــل الجزئــي فــي فتح مظلته – مسيرته العسكرية. دفعت له الحكومة الإســرائيلية تكالــيف الذهاب إلى جامعة كولومبيا، حيث حصل على إجازة في إدارة الأعمال. عاد مير إلى إسرائيل عاطلاً عن العمل.

اقــترح موشي دايان أن يصبح مير عميت رئيساً للاستخبارات العسكرية. ورغم المعارضـــة المبدئــية، والتــي اســتند معظمهـــا إلـــى أنه لا يمتلك خبرة في مجال الاســتخبارات، إلا أنه تسلم منصبه: "إحدى المزايا التي كنت أتمتع بها هي أنني كنت قــائداً ميدانــياً وأعرف أهمية الاستخبارات الجيدة للجنود المقاتلين". في 25 آذار سنة 1963، اســتلم مهام مدير الموساد من آيسر هاريل. وتعددت إنجازاته بحيث أصبحت تحتاج إلى قائمة خاصة بها: الرجل الذي أدخل سياسة اغتيال الأعداء للموساد؛ والذي بــنى علاقــة عمــل ســرية مع الكيه جي بي في الوقت الذي كان فيه ملايين اليهود يتعرضــون للاضطهاد؛ والذي أعاد تعريف دور المرأة واستخدام المكائد الجنسية في عمل الاستخبارات.

بقيت التقنيات التي ابتكرها لتحقيق كل ذلك موضع استخدام لغاية اليوم. لكن لن يكــون باستطاعة أي دخيل أن يعرف كيف طورها في المقام الأول. توترت عضلات فكيه فيما كان يقول: "هناك أسرار، وهناك أسراري".

عندما حان الوقت الذي شعر فيه بأن الموساد قد يستفيد من يد جديدة تتولى إدارة الدفّة، غادر دون مشاكل. واستدعى كادره إلى اجتماع وذكّرهم بأنهم إذا وجدوا في أي وقــت أن كونهــم يهوداً والعمل لصالح الموساد سيخلق مشكلة بين أخلاقهم الشخصية ومطالب الدولة، يجب أن يستقيلوا على الفور. ثم غادر بعد أن صافحهم جميعاً.

لكن كل رؤساء الموساد القادمين قاموا بدعوته من وقت لآخر لشرب القهوة في مكتبه في شارع جابوتنسكي في ضاحية رامات كان الجميلة بالقرب من تل أبيب. في تلــك المناســبات، كان يتم إغلاق باب مكتب مير عميت بشكل كامل وقطع المكالمات

الهاتفية.

شـــرح بالإنكلـــيزية، وهو يضع ابتسامة رجل عجوز ماكر: "كانت والدتي تقول دائماً إن انعدام الثقة يعني خسارة صديق".

لـــم يكن أحد خارج عائلته المباشرة – مجموعة صغيرة من الأطفال، والأحفاد، وأبناء العمومة والأقرباء – يعرف مير عميت فعلاً. ولم يكن لديه أي خيار آخر.

فـــي صـــبيحة ذلـــك اليوم من آذار سنة 1997، وخلف مقود سيارته، كان مير عميت يبدو شاباً بشكل لافت للنظر، وأقرب إلى الستينيات من عمره الحقيقي الذي يبلغ الخامســـة والســـبعين. تراجعت البنية التي كانت تسمح له بإنهاء اختبار الجهد مثل أي لاعـــب أولمبـــي؛ وكان هناك علامة على امتلاء كرشه تحت السترة الجلدية الزرقاء اللـــون. ورغـــم ذلـــك كانت عيناه ما تزالان حادتين بما فيه الكفاية ليحدّق ويتفحّص ويخـــترق الأشـــياء المحـــيطة فـــيما كـــان يقـــود سيارته في طريق يخترق أشجار الأوكاليبتوس.

لـــم يكـــن يعـــرف عدد المرات التي قام بها بتلك الرحلة. لكن كل زيارة تذكّره بحقيقة قديمة: "العيش كيهودي ما زال يعني الدفاع عن نفسك حتى الممات".

كـــان نفس التذكير بادياً على وجوه الجنود الذين ينتظرون تحت الأشجار خارج معســـكر التدريـــب فـــي غليلوت، إلى الشمال من تل أبيب. كان هناك زهو وإعجاب بيـــنهم، وحتى غطرسة، وكانوا يؤدون خدمتهم الإلزامية في قوات الدفاع الإسرائيلية، مشبعين بفكرة أنهم يخدمون في أفضل جيش على وجه الأرض.

لـــم ينظر سوى قلة منهم إلى مير عميت ثانية. ولم يكن بالنسبة لهم سوى رجل عجـــوز آخـــر جـــاء ليســـتعيد ذكـــرياته عند نصب تذكاري للحرب قريب من مكان انـــتظارهم. إســـرائيل أرض مثل هذه الأبنية التذكارية – يزيد مجموعها عن 1500 بشـــكل عام – والتي ترمز إلى المظليين، والطيارين، وسائقي الدبابات والمشاة. وتخلّد تلـــك الصـــروح ذكرى الأموات في الحروب الخمس التقليدية الواسعة النطاق، وتشير إلى خمسين سنة من الغارات العابرة للحدود وعمليات حرب العصابات. في أمة توقّر محاربيها الذين سقطوا بطريقة لم نشهدها منذ أن احتل الرومان هذه الأرض، لا يوجد صرح تذكاري في إسرائيل شبيه بذلك الذي ساعد مير عميت في بنائه.

وهـــو يقـــف ضـــمن أسوار معسكر التدريب الذي يتكوّن من مبانٍ ذات جدران إسمنتية وكتلة ضخمة من الجدران الحجرية على شكل دماغ بشري. اختار مير عميت ذلـــك الشـــكل لأن "كـــل عمل الاستخبارات يتعلق بالدماغ، وليس ببعض الأشخاص

الأقوياء الذين يقفون في وضعية بطولية".

يخلّد هذا الصرح ذكرى 557 رجلاً وامرأة من أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية، والذين خدم 71 منهم في الموساد.

لقد ماتوا في كل أصقاع الأرض: في صحارى العراق، وجبال إيران، وغابات أميركا الجنوبية والوسطى، وأدغال أفريقيا وشوارع أوروبا. وحاول كل منهم، بطريقته أو طريقتها الخاصة، إحياء شعار الموساد: "بطريقة معينة من الخداع، يجب أن تشارك في الحرب".

كان مير عميت يعرف الكثيرين منهم بشكل شخصي؛ وكان قد أرسل بعضهم إلى حتفه في مهام أقرّ بأنها "على شفير الخطر المقبول، لكن تلك طبيعة العمل التي لا مفر منها. ويجب قياس موت شخص ما مقابل أمن أمة. وكان الأمر على ذلك النحو دائماً".

لا يوجد أي نقوش أخرى على الجدران الحجرية الملساء سوى أسماء وتاريخ موت هؤلاء الأشخاص. ولا دلائل أخرى على الظروف التي ماتوا فيها: شنق علني، وهو مصير كل الجواسيس اليهود المدانين في البلاد العربية؛ سكين قاتلة اندفعت في زُقاق لا اسم له؛ إطلاق السراح بدافع الشفقة بعد شهور من التعذيب في السجن. لن يعرف ذلك أحد أبداً. وحتى مير عميت لم يكن لديه سوى شكوك، كان يعمل على إبقاء تلك الأفكار السوداء لنفسه.

الصرح التذكاري على شكل الدماغ البشري ليس سوى جزء من مجموعة أبنية تذكارية. ويوجد ضمن المباني الإسمنتية *غرفة الملفات* التي تحتوي على السير الذاتية الشخصية للعملاء الموتى. وتم توثيق حياة كل شخص إضافة إلى خدمته العسكرية بدقة؛ مع إغفال المهمة السرية الأخيرة. ولكل عميل يوم ذكراه أو ذكراها والذي يتم إحياؤه في كنيس صغير.

يوجد مدرج خلف الكنيس تجتمع عليه العائلات في "يوم الاستخبارات" لتتذكر موتاها. ويخاطبهم مير عميت أحياناً. ويقومون بعد ذلك بزيارة متحف الصرح التذكاري المليء بالمعدّات: جهاز إرسال في قاعدة مكواة؛ ومذياع في إبريق قهوة؛ وحبر سري في قارورة عطر؛ والمسجّل الأصلي الذي سجّل سراً المحادثة الخطيرة بين ملك الأردن حسين والرئيس المصري ناصر، ومواد حرب الأيام الستة التي تم الكشف عنها.

لمّع مير عميت قصص الرجال الذين استخدموا المعدات لدرجة أنه جعلهم أبطالاً

أســطوريين. وكـــان يشير دائماً إلى التمويه الذي استخدمه ياعا بوقاعي عندما انسل دخولاً وخروجاً من الأردن حتى تم إلقاء القبض عليه وإعدامه في عمّان سنة 1949، واللاسلكي الكريستال الذي استخدمه كل من ماكس بنيت وموشي مرزوق لإدارة أنجح شبكة في مصر قبل أن يلقيا حتفهما بشكل مؤلم وبطيء في سجن القاهرة.

كـــانوا بالنسبة لمير عميت بمثابة جدعون. وجدعون هو بطل العهد القديم الذي أنقذ إسرائيل من قوى العدو المتفوقة لأنه امتلك استخبارات أفضل.

أخـــيراً، حان الوقت بالنسبة له للذهاب إلى المتاهة بصحبة أمين المتحف. توقفا أمـــام كل اسم محفور، وقطّبا جبينيهما ثم تابعا. لقد انتهى كل شيء بشكل غير متوقع. ولـــم يكـــن هناك مزيد من الأموات لإظهار مشاعر الاحترام لهم؛ فقط مساحة واسعة للمزيد من الأسماء على شواهد القبور الصفراء اللون.

اســتغرق مير عميت للحظة في أوهام اليقظة، وقال رئيس الموساد القديم همساً بالعبرية لأمين المتحف: "مهما حدث، يجب أن نحرص على استمرار هذا المكان".

كمـــا لـــو أن شـــيئاً لم يحدث من قبل، أضاف مير عميت أن على جدار مكتب الرئـــيس الســـوري حافظ الأسد في دمشق لوحة واحدة فقط، وتمثّل صورة لانتصار صـــلاح الديـــن على الصليبيين سنة 1187. وأدّى ذلك الانتصار بالعرب إلى استعادة السيطرة على القدس.

بالنسبة لمير عميت، كان ولع الأسد بالصورة "هاماً معنوياً بالنسبة لإسرائيل. إنه يـــرانا بنفس الطريقة التي رآنا بها صلاح الدين؛ أشخاص ينبغي التغلب عليهم أخيراً. هـــناك كثـــيرون يشاركونه ذلك الطموح. ويتظاهر بعضهم بأنهم أصدقاؤنا. ويجب أن نكون حذرين بشأنهم..."

توقـــف، وودّع أمين المتحف، وسار عائداً إلى سيارته كما لو أنه قال أكثر مما ينبغي؛ وكما لو أن ما قاله سيثير مجدداً الهمسات التي بدأت تنتشر في مجتمع إسرائيل الاستخباراتي. كان هناك أزمة أخرى في التحالف الصعب بين الموساد والاستخبارات الأميركية على وشك أن تطفو على السطح؛ مع تأثيرات مدمّرة على إسرائيل.

تم إلقاء القبض على أحد أهم وأقسى العملاء الذين سبق أن عملوا تحت إمرة مير عميـــت بســـبب فضيحة شراب، وهو رجل عمل على وضع اسمه في التاريخ نتيجة إلقائه القبض على أدولف إيتشمان، إلا أنه كان يحب اللعب بالنار.



الجاسوس في القنـــاع الحديدي

اعتاد السكان الأغنياء في ضاحية أفيقا المتكلّفة شمال تل أبيب على رؤية رافائيل إيـــتان أو كما يدعونه رافي، وهو رجل كهل، قصير القامة، عريض الصدر، ضعيف النظر وأذنه اليمنى صماء بالكامل تقريباً منذ حرب العام 1948، يعود إلى منـــزله مع قطـــع مـــن أنابيب الحمامات المستعملة، سلاسل الدراجات الهوائية، والخردة المعدنية المتـــنوعة الأخـــرى. كان يرتدي سراويل وقمصاناً يشتريها من سلسلة متاجر معينة، وتغطّـــي وجهه آثار لحام المعادن، وكان يشكّل الخردة في أشكال سوريالية باستخدام شعلة أستيلين.

تســـاءل بعض الجيران فيما إذا كان ذلك هروباً آنياً مما فعله. كانوا يعرفون أنه قـــتل لصـــالح بلده، ولم يكن ذلك في معركة مفتوحة، وإنما في مواجهات سرية كانت جـــزءاً مـــن حرب سرية لا تنتهي تشنّها إسرائيل ضد أعداء الدولة. لم يكن أحد من الجـــيران يعـــرف على وجه الدقة عدد الأشخاص الذين قتلهم رافي إيتان، والذين لقوا حـــتفهم على يديه القويتين المتينتين. كان كل ما قاله لهم: "كلما قتلت أحداً، يكون عليّ الـــنظر في عينيه، إلى بياض عينيه. ثم أهدأ تماماً، وأركّز كثيراً، وأفكّر فقط فيما كان علـــيّ فعلـــه. ثم كنت أقوم بذلك. هكذا كانت تجري الأمور". بصحبة الكلمات تخرج ابتسامة جسورة يستخدمها بعض الرجال الأقوياء عندما يسعون للحصول على موافقة الضعفاء.

كـــان رافـــي إيتان مساعد رئيس الموساد لشؤون العمليات لحوالى ربع قرن. لم تكـــن تناســـبه حـــياة الجلوس وراء المكاتب، وقراءة التقارير، وإرسال الآخرين في مهمات. كان يقوم بالعمل الميداني في كل فرصة سانحة، ويجوب العالم، مندفعاً تحركه فلسفة يمكن اختصارها بجملة واحدة: "إذا لم تكن جزءاً من الحل، عندها ستكون جزءاً من المشكلة".

لـــم يكـــن هناك أحد يشبهه في القسوة الباردة، والخداع، والقدرة على الارتجال

بسرعة كبيرة، ومهارته في استيعاب أعقد الخطط، والقيام بأصعب أنواع المطاردات. اجتمعت كل تلك المهارات في عملية واحدة منحته شهرة كبيرة – اختطاف أدولف إيتشمان، البيروقراطي النازي الذي كان رمزاً مرعباً *لحل هتلر النهائي*.

بالنسبة لجيرانه في شارع شي، كان رافي إيتان شخصية متحفّظة، والرجل الذي ثأر لأقربائهم الموتى، والثائر السابق الذي سنحت له الفرصة لتذكير العالم بأن أي نازي سابق لن يكون بأمان. لم يتعبوا أبداً من دعوته لهم إلى منزله والاستماع له مجدداً يصف عملية ما تزال فريدة في جرأتها. كان رافي إيتان، الذي يجلس وسط أعمال فنية جميلة، يفرد ذراعيه، ويميل برأسه إلى أحد الجانبين، ويبقى صامتاً للحظة واحدة مما يسمح لمستمعيه بالعودة في مخيلتهم إلى ذلك الوقت عندما ولدت إسرائيل بالرغم من كل الظروف المحيطة. يبدأ بعدها بصوت قوي، بصوت ممثل لعب كل الأدوار ولم يفته شيء، يخبر أصدقاءه الموثوقين كيف استطاع إلقاء القبض على أدولف إيتشمان. كان يصف أولاً مسرح ما يمكن اعتبارها واحدة من أكثر عمليات الاختطاف إثارة في كل الأوقات.

كان الناجون من الهولوكوست يتعقّبون مبدئياً مجرمي الحرب النازيين بعد الحرب العالمية الثانية. وكان يدعون أنفسهم **نوكمن** أو **المنتقمون**. ولم يكونوا يزعجون أنفسهم بإقامة محاكم قانونية، وإنما كانوا يقومون بإعدام أي نازي يجدونه. وباعتقاد رافي إيتان، لم تكن هناك قضية واحدة قتلوا فيها شخصاً بطريق الخطأ. ولم يكن هناك اهتمام رسمي كبير في إسرائيل بملاحقة مجرمي الحرب. كان ذلك متعلقاً بالأولويات. كانت إسرائيل، كدولة، تقاتل بأطراف أصابعها لإثبات وجودها، وكانت ما تزال محاطة ببلدان عربية معادية لها. كان ذلك يوماً تاريخياً، كان البلد مفلساً تقريباً، ولم تكن هناك أموال إضافية لمعالجة شرور الماضي.

في سنة 1957، تلقّى الموساد أنباءً صاعقة أن إيتشمان موجود في الأرجنتين. وتم اختيار رافي إيتان، النجم الصاعد في الموساد نتيجة قيامه بغزوات ماهرة ضد العرب، لإلقاء القبض على إيتشمان وجلبه إلى إسرائيل لتقوم بمحاكمته.

أخبروه أن النتيجة سيكون لها عدد من الفوائد الهامة، وستكون بمثابة العدالة الإلهية لهؤلاء الأشخاص. وستذكّر العملية العالم بمعسكرات الموت والحاجة للعمل على منع تكرارها ثانية. وستجعل الموساد في مقدمة مجتمعات الاستخبارات العالمية. ولم يجرؤ جهاز آخر على القيام بمثل هذه العملية، وكانت المخاطر كبيرة جداً. كان سيعمل على بعد آلاف الأميال من الوطن، ويسافر بموجب وثائق مزوّرة، ويعتمد

بشـكل كـامل على مصادره الخاصة ويعمل في بيئة معادية. وكانت الأرجنتين مأوى فردوسي للنازيين. وقد ينتهي الأمر بفريق الموساد في السجن أو حتى التعرض للقتل.

انـتظر رافـي إيـتان بصبر مدة سنتين كاملتين حتى تم تأكيد المشاهدة بصورة قاطعـة - الرجل الذي يعيش في ضاحية للطبقة الوسطى بجانب بيونس آيريس باسم ريكاردو كليمنت هو نفسه أدولف إيتشمان.

عندما جاء أمر تنفيذ العملية أخيراً، أصبح رافي إيتان بارداً كالثلج. كان قد فكّر فـي كـل مـا يمكـن أن يحدث من أخطاء؛ سياسية ودبلوماسية، والآثار الهائلة التي سـتتركها علـى مهنته. تساءل أيضاً فيما سيحدث إذا تدخلت الشرطة الأرجنتينية بعد القبض على إيتشمان. "قرّرت خنق إيتشمان بيدي العاريتين. وإذا تم إلقاء القبض عليّ، سأدافع أمام المحكمة أن ذلك حكم العين بالعين الوارد في الكتاب المقدّس".

اشـترت شـركة الطيران الوطنية العال، خصيصاً من ميزانية الموساد، طائرة بريطانيا بريطانية للرحلات الطويلة إلى الأرجنتين. ويقول رافي إيتان:

"أرسـلنا شخصاً ما إلى إنكلترا لشراء واحدة. وسلّمهم المال، واستلمنا الطائرة. ورسـمياً، كانـت الـرحلة إلى الأرجنتين لنقل وفد إسرائيلي سيحضر احتفالات عيد استقلال الأرجنتين المئة والخمسين. ولم يكن أحد من أعضاء الوفد يعرف سبب ذهابنا معهم، أو أننا حضّرنا زنـزانة في نهاية الطائرة لحبس إيتشمان.

وصل رافي إيتان وفريقه إلى بيونس آيرس في عيد العمّال سنة 1960. وانتقلوا إلى واحد من سبعة منازل آمنة كان عميل للموساد قد استأجرها. أطلقوا عليه بالعبرية الاسـم المسـتعار مـيوز أو المتين. كانت الشقة بمثابة القاعدة لتنفيذ العملية. وكانوا يشـيرون إلـى مـنـزل آمن آخر باسم تيرا أو القصر، وكان المكان الذي سيتم فيه احـتجاز إيتشـمان بعد القبض عليه. كانت المنازل الأخرى جاهزة في حال اضطروا لنقل إيتشمان تحت ضغط ملاحقة الشرطة المتوقعة. وتم استئجار عشر سيارات أيضاً لتلك العملية.

حالمـا تـم تجهيز كل شيء، أصبح رافي إيتان ثابت التصرفات وعاقد العزم. كانت أي شكوك بالفشل ممنوعة؛ وجاء تنفيذ الأعمال التمهيدية ليخفف توتر الانتظار. وقـام مع فريقه، لمدة ثلاثة أيام، بمراقبة أدولف إيتشمان، الذي كان سائقه ينقله سابقاً بالمرسيدس، وأصبح ينتقل الآن باستخدام الحافلة وينتظر على ناصية شارع غاريبالدي في ضاحية خارج المدينة، وكان ما يزال دقيقاً في مواعيده مثلما كان في توقيع أوامر معسكرات الموت.

في ليلة العاشر من أيار سنة 1960، اختار رافي إيتان للاختطاف سائقاً ورجلين آخرين لإخضاع إيتشمان حالما يصبح في السيارة. وكان أحد الرجلين مدرباً على إخضاع هدف بالقوة في الشارع. كان رافي إيتان سيجلس بجانب السائق، "مستعداً للمساعدة بأي طريقة أستطيعها".

كان توقيت العملية في الأمسية التالية، وتحركت سيارة الفريق عند الساعة 8:00 مساءً في 11 أيار إلى شارع غاريبالدي.

لم يكن هناك أي توتر، فقد تجاوز الجميع تلك المرحلة منذ زمن طويل. ولم يتكلم أحد، لأنه لم يكن هناك ما يتحدثون عنه. نظر رافي إيتان إلى ساعته: 8:03. وانتقلوا جيئة وذهاباً في الشارع الخالي. وعند الساعة 8:04، جاءت عدّة حافلات وغادرت. عند 8:05، جاءت حافلة أخرى. ورأوا إيتشمان يترجل منها. وكان يبدو لرافي إيتان: "متعباً قليلاً، ربما كما كان يبدو بعد أن يرسل شعبي إلى معسكرات الموت".

"كان الشارع ما يزال خالياً. وسمعت خلفي رجلنا المختص بالاختطاف يفتح باب السيارة. وقدنا السيارة نحو إيتشمان حتى أصبحنا خلفه تماماً. كان يسير بسرعة، كما لو أنه يريد الوصول إلى منزله لتناول العشاء. كنت أسمع المختص يتنفّس بثبات، بنفس الطريقة التي علمّناها إياها أثناء التدريب. كان يستطيع تنفيذ الاختطاف في اثنتي عشرة ثانية فقط. ويخرج من باب السيارة، ويمسك أي شخص من عنقه، ويسحبه إلى الداخل. خروج، إمساك، سحب".

سارت السيارة بمحاذاة إيتشمان. واستدار نصف دورة، وألقى نظرة شك على المختص الذي كان يخرج من السيارة. تعثّر الرجل برباط حذائه المنحل، ووقع على الأرض تقريباً. وأصاب الذهول رافي إيتان للحظة لم يستطع فيها التحرّك. لقد قطع نصف العالم للقبض على الرجل الذي كان سبباً بموت ستة ملايين يهودي، وكانوا على وشك أن يفقدوه لأن رباط الحذاء لم يكن مشدوداً جيداً. بدأ إيتشمان يسير بسرعة مبتعداً، وقفز رافي إيتان من السيارة.

"أمسكت به من عنقه بقوة كبيرة بحيث رأيت عينيه تبرزان من محجريهما. كاد سيموت لو أنني كنت أقسى قليلاً. كان المختص واقفاً على قدميه يفتح باب السيارة. دفعت إيتشمان نحو المقعد الخلفي. وقفز المختص إلى السيارة، وجلس فوق إيتشمان. ولم يستغرق الأمر كله أكثر من خمس ثوانٍ".

كان رافي إيتان يستطيع، من المقعد الأمامي، سماع صوت إيتشمان الكريه فيما

كـــان يحاول التقاط أنفاسه. وساعده المختص على فتح وإغلاق فمه، وأصبح إيتشمان اهدأ. استطاع حتى أن يسأل عن معنى هذا الاعتداء.

لــم يتحدث إليه أحد، ووصلوا بصمت إلى منــزلهم الآمن على بعد ثلاثة أميال. أشـــار رافي إيتان إلى إيتشمان ليتعرّى. ثم تفحّص مقاساته الجسدية التي حصل عليها من ملف SS (الاستخبارات الألمانية أيام هتلر). ولم يفاجأ عندما رأى أن إيتشمان أزال بطـريقة مـــا وشــم SS. لكن مقاساته الأخرى كلها كانت مطابقة للملف؛ حجم رأسه، والمســـافة من المرفق إلى الرسغ، ومن الركبة إلى الكاحل. ثم قام بربط إيتشمان إلى ســرير بالسلاســل. وتــركه هناك بصمت كامل مدة عشر ساعات. أراد رافي إيتان: "تشـــجيع شـــعور الـــيأس لديه. قبل الفجر تماماً، كان إيتشمان في أدنى درجات يقظته الذهنـــية. ســـألته عن اسمه. أجاب باسم إسباني. وقلت له: لا، لا، لا اسمك الألماني. أجاب باسمه الألماني المستعار؛ الاسم الذي استعمله للهروب من ألمانيا. وقلت مجدداً: لا، لا، لا، اسمك الحقيقي، اسم SS. وتمدّد على السرير كما لو أنه يريد الوقوف وقال بصـــوت عـــالٍ وواضح: أدولف إيتشمان. ولم أسأله شيئاً آخر أبداً، لأنه لم يكن هناك حاجة لذلك".

بقـــي إيتشـــمان ومحـــتجزوه في الأيام السبعة التالية في المنـــزل. ولم يكن أحد يـــتحدث إلى إيتشمان. وكان يأكل، ويستحم ويذهب إلى المرحاض بصمت كامل. قال رافي إيتان:

"كان الحفاظ على الصمت أكثر من ضرورة عملياتية. ولم نكن نرغب بأن يشاهد إيتشمان مدى توترنا. الأمل يجعل الرجل اليائس خطيراً. كنت أريده يائساً بقدر شعبي عندما كان يرسلهم بالقطارات إلى معسكرات الموت".

كـــان القرار حول نقل إيتشمان من المنـــزل الآمن إلى طائرة العال التي تنتظر لإعـــادة الوفد إلى الوطن مليئاً بحس الدعابة السوداء. جعلوه أولاً يرتدي بذلة إضافية لطـــاقم العـــال أحضـــرها رافي إيتان من إسرائيل. ثم أجبروه على تناول قارورة من الويسكي، مما أصابه بغيبوبة ثمالة.

ارتـــدى رافـــي إيـــتان وفـــريقه لباس طاقم الطائرة، ورشّوا أنفسهم بالقليل من الويسكي. ووضعوا قبعة على رأس إيتشمان، وأجلسوه في المقعد الخلفي للسيارة التي قادهـــا رافي إيتان إلى القاعدة العسكرية الجوية حيث كانت بريطانيا تنتظر ومحركاتها تعمل.

أشار الجنود الأرجنتينيون للسيارة للتوقف عند بوابة القاعدة. وكان إيتشمان يغطّ

في نوم عميق. يقول رافي إيتان:

"كانت السيارة تتمايل وتتأرجح. وكانت تلك هي اللحظة التي نلنا فيها أوسمة الموساد! لقد لعبنا دور اليهود السكارى الذين لم يستطيعوا تحمّل تأثير الشراب الأرجنتيني القوي. كان الحرّاس يضحكون، ولم يُلقوا نظرة ثانية على إيتشمان.

بعد خمس دقائق من منتصف ليلة 21 أيار 1960، أقلعت بريطانيا وكان أدولف إيتشمان ما يزال يغطّ في نوم عميق في زنزانته في مؤخرة الطائرة.

بعد محاكمة طويلة، وُجد إيتشمان مذنباً بارتكاب جرائم ضد الإنسانية. في يوم إعدامه 31 أيار 1962، كان رافي إيتان موجوداً في غرفة الإعدام في سجن الرملة: "نظر إيتشمان إليّ وقال: "سيأتي اليوم الذي تلحقني به، أيها اليهودي". وأجبت: "لكن ليس اليوم يا أدولف، ليس اليوم". وتدلّى حبل المشنقة في اللحظة التالية. ولم يصدر عن إيتشمان سوى صوت اختناق صغير. وكان هناك رائحة تغوّط أمعائه، ثم صوت الحبل المشدود فقط. إنه صوت مُرضٍ بالتأكيد".

تم تشييد فرن خاص لحرق الجثة. وانتشر الرماد في غضون ساعات على مساحة واسعة من البحر. وأمر بن غوريون بأن لا يبقى له أي أثر حتى لا يجعل المتعاطفون مع النازية من إيتشمان رمزاً لهم. أرادت إسرائيل أن تمحوه من على وجه الأرض. وتم تفكيك الفرن بعد ذلك ولم يوضع موضع الاستخدام أبداً. وقف رافي إيتان على الشاطئ في تلك الأمسية ونظر إلى البحر، وشعر براحة كاملة: "علمت أنني أنهيت مهمتي. لطالما كان ذلك شعوراً جيداً".

استمر رافي إيتان، كرئيس لعمليات الموساد، بالطواف عبر أوروبا للبحث عن وإعدام الإرهابيين... واستخدم لتحقيق غاياته قنابل تنفجر عن بعد؛ ومسدس عميل الموساد المفضل - بريتا؛ وكان يستخدم يديه العاريتين عندما يكون الصمت مطلوباً لخنق الضحية بسلك فولاذي أو تنفيذ ضربة الأرنب القاتلة. كان يقتل دائماً دون تأنيب ضمير.

عندما كان يعود للوطن، كان يقف لساعات في فرن الهواء الطلق في منزله، ويحمل شعلة اللهب وينشغل كلياً في تشكيل المعدن حسب إرادته. ثم ينطلق مجدداً في رحلات تتطلب عادة تغيير الطائرة عدّة مرات قبل أن يصل إلى وجهته النهائية. كان يختار لكل رحلة جنسية وهوية مختلفتين، ويستخدم عدداً كبيراً من جوازات السفر المسروقة أو المزوّرة بعناية والتي كان الموساد يحصل عليها.

بين أعمال القتل، كان يستخدم مهارته الأخرى في تجنيد المزيد من السيانيم.

كانت لديه طريقته الخاصة التي تستغل حب اليهود لوطنهم الأم.

"كنت أخبرهم أن شعبنا بقي يحلم طوال ألفي سنة. وأننا نحن اليهود صلينا للحرية ألفي سنة. وبقي الحلم حياً في أغانينا، وشعرنا وفي قلوبنا؛ وأبقانا الحلم أحياء. وقد تحقق الحلم الآن. ثم كنت أضيف: لضمان استمرار الحلم، نحتاج لأشخاص مثلكم".

كان يكرّر تلك الكلمات المؤلمة في مقاهي على طول جادات باريس، ومطاعم على ضفة الراين، وفي مدريد، وبروكسل، ولندن. كانت وجهة نظره دائماً أن اليهودي اليوم هو سايان آخر غداً. بالنسبة لأولئك الذين كانوا يترددون، كان بالتأكيد يمزج بين الشخصي والسياسي، ويقص عليهم ما كان يحدث معه عندما كان في الهاغانا مع قصص مؤثرة حول بن غوريون والقادة الآخرين، وكانت آخر مقاومة تذوب فوراً.

سرعان ما أصبح لديه ما يفوق مئة رجل وامرأة عبر أوروبا ينفذون ما يطلبه منهم: محامون، وأطباء أسنان، ومعلمون، وأطباء، وخياطون، وأصحاب محلات، وربّات بيوت، وسكرتيرات. كان يعتز بمجموعة واحدة خصوصاً: اليهود الألمان الذين عادوا إلى أرض الهولوكوست، كان رافي إيتان يدعوهم "الجواسيس الناجحين".

رغم انشغاله الشديد بعمليات الموساد، إلا أن رافي إيتان كان حذراً للغاية في إبعاد نفسه عن النشاطات السياسية التي تُربك مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي. كان بالطبع يعرف ما يحدث حوله، ويعرف مناورات أمان، وهي الاستخبارات العسكرية، والشين بيت للتخفيف من سلطة الموساد المتفوقة. سمع عن الجمعيات السرية التي كانت تتشكل ويعاد تشكيلها مجدداً، وعن تقارير شهود العيان التي كان يتم إرسالها إلى مكتب رئيس الوزراء. لكن الموساد تحت قيادة مير عميت بقي صامداً كالصخرة، ودفع جانباً كل المحاولات للتقليل من دوره الريادي.

ثم، لم يعد مير عميت في القيادة يوماً ما؛ واختفت خطواته السريعة النشيطة من الأروقة، إلى جانب نظراته الثاقبة والابتسامة التي كان يبدو أنها لا تفارق شفتيه. ألحّ الزملاء في الموساد على رافي إيتان ليسمح لهم بالضغط ليتولى قيادة الموساد بديلاً عن مير عميت بعد استقالته، وأشاروا إلى أنه يتمتع بمؤهلات وخصائص قيادية وشعبية ضمن الجهاز. لكن قبل أن يستطيع رافي إيتان اتخاذ قرار، ذهب المنصب إلى مرشح حزب العمل، زافي زامر الباهت الشخصية والمدّعي العلم. استقال رافي إيتان على إثرها. ولم يكن على وفاق مع رئيس الموساد الجديد؛ وأحس ببساطة أن الموساد لم يعد المكان الذي يشعر فيه *بالراحة*. وكان يستطيع القيام بما يريده دون قيود نظرياً

في ظل قيادة مير عميت؛ وشعر أن *زافي* لم يكن يعمل إلا "وفقاً للقواعد". "لم يكن ذلك مناسباً لي".

عمل رافي إيتان كمستشار خاص يقدّم خدماته للشركات التي تحتاج لتعزيز أمنها أو لأشـــخاص أغنـــياء يـــريدون تدريب موظفيهم على أساليب حمايتهم ضد الهجمات الإرهابية. لكن سرعان ما تراجعت تلك الأعمال، وأعلن رافي إيتان بعد سنة من ذلك أنه مستعد للعودة إلى عمل الاستخبارات.

عــندما أصبح رابين رئيساً للوزراء في سنة 1974، عيّن إسحاق هوفي المتشدّد والمســيطر علــى رأس الموساد، وجعله مرتبطاً بالمتشدد الآخر أرييل شارون، الذي كان مستشار رابين لشؤون الأمن. عيّن شارون مباشرة رافي إيتان مساعداً له. ووجد هوفــي نفســه يعمــل بشــكل مقّرب مع شخص يشاركه مواقفه الحادة تجاه عمليات الاستخبارات.

بعــد ثلاث سنوات، وفي تعديل وزاري آخر، عيّن رئيس الوزراء الجديد مناحيم بيغــن رافي إيتان مستشاراً خاصاً له لشؤون الإرهاب. وكان أول عمل يقوم به إيتان تنظيم اغتيال الفلسطينيين المسؤولين عن تخطيط مجزرة الألعاب الأولمبية في ميونيخ ســنة 1972 التــي لقي 11 رياضياً إسرائيلياً حتفهم فيها. لقد اغتال الموساد كل القتلة الفعليين واحداً تلو الآخر.

كــان أول مــن مــات يقف في بهو شقته السكنية في روما عندما أصابته إحدى عشرة رصاصة من مدى قريب؛ رصاصة لكل رياضي مقتول. عندما أجاب الإرهابي الثانــي على مكالمة هاتفية في شقة باريسية، انفجر رأسه بقنبلة مزروعة في السمّاعة يــتم الــتحكم بهــا عن بعد. كان إرهابي آخر نائماً في غرفة فندق في نيقوسيا عندما تحطّمــت نتــيجة لقنبلة مماثلة، ولبث الذعر في نفوس الأعضاء الباقين من مجموعة أيلول الأسود التي قتلت الرياضيين، جعل السيانيم العرب العاملون مع الموساد نعواتهم تظهــر فــي الصحف العربية المحلية، وتلقت عائلاتهم الزهور وبطاقات التعزية قبل وقت قصير من مقتل كل واحد منهم.

حاول رافي إيتان إيجاد وقتل رئيس المجموعة علي حسن سلامة، المعروف في العــالم العربــي باسم الأمير الأحمر. كان يتنقل منذ قيامه بعملية ميونيخ من عاصمة عربــية إلى أخرى، ويحاضر في الجماعات... عن الاستراتيجية. ولم يكن رافي إيتان قــادراً علــى ضربه لأنه كان يتحرك كثيراً. لكنه استقر أخيراً بين صانعي القنابل في بــيروت. ورغــم أن رافي إيتان كان يعرف المدينة جيداً، إلا أنه قرر تنشيط ذاكرته.

وتـــنكّر بزي رجل أعمال يوناني، وسافر إلى هناك. وفي الأيام القليلة التالية، اكتشف مكان تواجد وتحركات سلامة بدقة.

عـــاد رافي إيتان إلى تل أبيب ووضع خططه. عبر ثلاثة عملاء للموساد يمكنهم دخـــول البلاد العربية إلى لبنان ودخلوا المدينة. استأجر أحدهم سيارة، ووصل الآخر سلسلة من القنابل إلى هيكلها الأساسي، وسقفها وأبوابها. وركن العميل الثالث السيارة علـــى نفس الطريق الذي يسلكه الأمير الأحمر إلى مكتبه صباح كل يوم، وبالاستفادة مـــن التوقيت الدقيق الذي قدّمه رافي إيتان، كانت السيارة مجهزة للانفجار لدى مرور سلامة. وقد انفجرت فعلاً، وحولته إلى أشلاء.

أظهـــر رافـــي إيـــتان مـــرة أخرى أنه لاعب أساسي في مجتمع الاستخبارات الإســـرائيلي. لكن رئيس الوزراء مناحيم بيغن قرّر أن رافي إيتان أثمن من أن يخاطر بمثل تلك المهمات مرة أخرى، وأخبر مستشاره أنه منذ تلك اللحظة يجب أن يبقى في مكتبه وأن يخفف من نشاطه. استخدم ***جون لو كاري*** إيتان كنموذج للشخصية الرئيسية التـــي تتعقـــب الإرهابييـــن وتقتلهم في رواية الرعب التي ألّفها بعنوان **قارعة الطبل الصغيرة**.

لكـــن إطـــلاق العـــنان لمخيلة روائي لم تهدّأ من قلق رافي إيتان المستمر. كان يرغـــب بالتواجد في قلب الحدث، لا أن يجلس خلف مكتب أو يحضر جولة لا تنتهي من الاجتماعات. بدأ يطلب من رئيس الوزراء بيغن أن يكلفه بعمل آخر.

بعـــد قليل من التردد – لأن رافي إيتان كان مستشاراً ممتازاً في أنشطة مكافحة الإرهـــاب – عيّنه بيغن في أحد أكثر مواقع الاستخبارات حساسية، موقع سيوسع من آفاقـــه ويُرضـــي تلهفـــه للأعمال الميدانية. وأصبح رافي إيتان مديراً **لمكتب الارتباط العلمي** المعروف باللغة العبرية باسم **لاكام**.

تـــم إنشاء هذا المكتب سنة 1960، وكان بمثابة وحدة تجسس وزارة الدفاع التي تعمـــل للحصول على البيانات العسكرية "بكل الوسائل الممكنة". كان ذلك يعني إمكانية سرقة أو رشوة الأشخاص للحصول على الأسرار. كان الموساد ينظر إلى تلك الوحدة بعدائـــية مـــنذ البداية ولا يرى فيها إلا كما يقولون "طفل صغير يلعب". حاول كل من آيســـر هـــاريل ومير عميت إما إغلاق **لاكام** أو دمجها بالموساد. لكن شمعون بيريز، نائـــب وزيـــر الدفـــاع الإسرائيلي أصرّ بعناد أن وزارة الدفاع تحتاج إلى جهاز جمع المعلومـــات الاستخباراتية الخاص بها. وبدأت **لاكام** عملها ببطء وجد، وأنشأت مكاتب فـــي نـــيويورك، وواشنطن، وبوسطن، ولوس أنجلوس وهي المراكز الرئيسية للعلوم

المتقدّمة. كان موظفو لاكام يشحنون أسبوعياً صناديق مليئة بالمجلات العلمية إلى إسرائيل، وكانوا يعرفون أن مكتب التحقيقات الاتحادي يراقب أنشطتهم.

ازدادت هذه الرقابة بعد سنة 1968، بعدما تم اكتشاف أن أحد المهندسين الذين يعملون على بناء المقاتلة الفرنسية ميراج قد سرق ما يزيد عن مئتي ألف مخطط تفصيلي لها. حكمت السلطات على ذلك المهندس بالسجن أربع سنوات ونصف لتسريبه تلك المعلومات إلى لاكام التي كانت تحاول بناء نسخة طبق الأصل عن الميراج. ولم تستطع لاكام تحقيق أي نجاح يذكر منذ ذلك الوقت.

كانت ذكرى نجاح الميراج بالنسبة لرافي إيتان عاملاً حاسماً. ما تم تحقيقه من قبل يمكن تحقيقه مجدداً. وتولّى آنذاك وحدة لاكام التي كانت تحتضر نظرياً، وحولّها إلى قوة يمكن الاعتماد عليها.

عمل في مكاتب ضيقة في تل أبيب، وأخبر كادره الجديد، بعدما أدرك أنه يقود أحد الأجهزة المتطورة، أنه لا يعرف شيئاً عن العلم يتجاوز أنبوب الاختبار وأن أمامه الكثير، ولكنه أضاف أنه سريع التعلّم.

انغمس في عالم العلوم، يبحث مناطق أهداف محتملة. كان يغادر منزله قبل الفجر وغالباً ما يعود قرب منتصف الليل مع الكثير من الأوراق التقنية التي يقرأها بتمعّن، ولم يكن هناك الكثير من الوقت للاسترخاء وتشكيل الخردة المعدنية. خلال تلك الفترات التي استغرق فيها بمقادير كبيرة من البيانات، أعاد صلاته بجهازه القديم. كان لدى الموساد آنذاك مدير جديد نعوم أدموني. كان لدى أدموني شكوك عميقة مثل رافي إيتان حول نوايا الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. استمرت واشنطن ظاهرياً بإعلان التزامها مع إسرائيل، وأبقت CIA قناة الاتصال الخلفية التي أنشأها كل من آيسر هاريل وألان دوليس مفتوحة. لكن أدموني كان يشتكي من أن المعلومات من ذلك المصدر لم تكن ذات أهمية بالغة.

كان رئيس الموساد مهتماً أيضاً بتقارير كاستا الموساد أنفسهم والسيانيم المتواجدين في واشنطن. واكتشف هؤلاء اجتماعات سرية بين مسؤولين كبار في وزارة الخارجية الأميركية وقادة عرب قريبين من ياسر عرفات كانوا يناقشون فيها سبل الضغط على إسرائيل لتتجاوب أكثر مع مطالب الفلسطينيين. كان أدموني يخبر رافي إيتان أنه لا يستطيع اعتبار الولايات المتحدة "صديق عند الضيق".

تعزّز هذا الموقف بحادث صدم الاعتقاد الأميركي باستحالة اختراقهم أكثر من أي شيء آخر منذ حرب فيتنام. في آب سنة 1983، اكتشف عملاء الموساد وجود

مخطط لمهاجمة القوات الأميركية في بيروت المتواجدة هناك كقوات حفظ سلام تابعة للأمم المتحدة. وحدّد العملاء بأن التهديد سيكون من قبل شاحنة مرسيدس تحتوي على أكــثر من نصف طن من المتفجرات. كان يتعين على الموساد، باستخدام قناة الاتصال الخلفــية، تمرير هذه المعلومات إلى CIA. ولكن في الاجتماع الذي عقده قادة الجهاز فـــي مقـــر قيادة الموساد في جادة الملك سول نصّت التعليمات على "التأكد من مراقبة رجالـــنا للشـــاحنة. وفيما يخص الأميركيين، لسنا هنا لحمايتهم، إنهم يستطيعون القيام بجمـــع المعلومات بأنفسهم. إننا نقوم بالكثير من العمل لصالح الأميركيين، وينبغي أن نفعل شيئاً لصالحنا".

فـــي 23 تشـــرين الأول ســـنة 1983، وعلى مرأى من أعين عملاء الموساد، اندفعـــت الشـــاحنة بأقصـــى سرعة نحو مقر قيادة كتيبة المارينـــز الأميركية الثامنة المتمركزة بالقرب من مطار بيروت. ومات واحد وأربعون رجلاً من المارينـــز نتيجة لذلك.

وفقاً للضابط السابق في الموساد فكتور أوستروفسكي، كان ردّ فعل الدوائر العليا للجهاز: "لقد أرادوا التدخل في الشأن اللبناني، ولهذا دعوهم يدفعون الثمن".

شـــجّع هذا الموقف رافي إيتان أكثر على التفكير بجدية حول استهداف الولايات المـــتحدة. كـــان مجـــتمعها العلمـــي الأكـــثر تقدماً في العالم، ولا يوجد مثيل لتقانتها العســـكرية. كان الحصول على بعض المعلومات الأميركية يمثّل نجاحاً هائلاً بالنسبة للاكـــام. كانـــت أول عقـــبة هي الأصعب: إيجاد مخبر يمكن زرعه بكفاءة لتزويدهم بالمعلومات.

باستخدام قائمة سيانيم الولايات المتحدة الذين شارك في تجنيدهم خلال خدمته مع الموســـاد، نشـــر الخبر عن اهتمامه بالاتصال بأي شخص في الولايات المتحدة يمتلك الخلفية العلمية المناسبة ويكون معروفاً بولائه لإسرائيل. ولم يجد أحداً طوال أشهر.

ثم، في نيسان سنة 1984، ذهب آفيم سيلا، العقيد في القوى الجوية الإسرائيلية، والـــذي كان في منحة لدراسة علوم الحاسب في جامعة نيويورك، إلى حفلة يستضيفها طبيـــب يهودي ثري مختص بالأمراض النسائية في الجانب الشرقي من مانهاتن. كان سيلا ضيف شرف ضمن مجتمع المدينة اليهودي لأنه كان الطيار الذي قاد حملة جوية قبل ثلاث سنوات ضد مفاعل العراق النووي.

كـــان يوجد في الحفلة شاب بابتسامة خجولة ويبدو مريضاً في فترة نقاهة ضمن مجموعـــة صغيرة من الأطباء، والمحامين والمصرفيين. أخبر سيلا أن اسمه جوناثان

بولارد، وأن السبب الوحيد لحضوره هو اللقاء به. ارتبك سيلا لهذا الإطراء الواضح، وأجـرى معـه حديثاً قصيراً وكان على وشك المغادرة عندما كشف بولارد أنه ليس صـهيونياً ملـتزماً وحسـب وإنما يعمل في استخبارات البحرية الأميركية. علم سيلا الذكـي فـي وقت قصير أن بولارد يعمل في مركز مكافحة الإرهاب في إحدى أكثر مقـرات الـبحرية سـرية في سويتلاند، في ميريلاند. كانت واجبات بولارد تتضمن مراقـبة كل المواد المختلفة المتعلقة بنشاطات الإرهاب العالمية، وكان عمله مهماً جداً لدرجة أنه يحمل أعلى تصريح أمني في مجتمع الاستخبارات الأميركي.

لم يصدّق سيلا ما تسمعه أذناه، خصوصاً عندما بدأ بولارد بشرح تفاصيل دقيقة حول حوادث لم تتعاون فيها الاستخبارات الأميركية مع نظيرتها الإسرائيلية. بدأ سيلا يتسـاءل فـيما إذا كان بولارد جزءاً من عملية لمكتب التحقيقات الاتحادي في تجنيد إسرائيليين.

لكـن كان هناك شيء في بولارد العاطفي يبدو حقيقياً. هاتف سيلا تل أبيب في تلـك الأمسية، وتحدّث مع قائد استخبارات القوى الجوية. وحوّل الضابط المكالمة إلى رئيس أركان القوى الجوية. وصدرت الأوامر لسيلا بتطوير علاقته مع بولارد.

بـدأ الاثـنان يلتقيان: في حلبة التزلج في بلازا روكفلر؛ في مقهى في الشارع الثامن والأربعين؛ في الحديقة المركزية. في كل مرة، كان بولارد يسلّم سيلا مستندات رسمية لتأكيد مصداقية ما يقوله. كان الأخير يرسل المواد إلى تل أبيب، ويستمتع كونه جزءاً من عملية استخبارات مهمة. لهذا كان مندهشاً عندما علم أن الموساد يعرف كل شـيء عـن بولارد، الذي عرض التجسس لصالحهم قبل سنتين وتم رفض طلبه لأنه "غـير مستقر". ووصف كاستا موساد في نيويورك أيضاً بولارد أنه: "وحيد... ويتمتع بنظرة غير واقعية نحو إسرائيل".

رفـض سـيلا التخلي عن عملية فيها متعة أكثر من الجلوس أمام لوحة مفاتيح حاسـب في غرفة صف، وبحث عن طرق لإبقاء العملية مستمرة. كان تعرّف، خلال بقائه في نيويورك، على الملحق العلمي في القنصلية الإسرائيلية في المدينة. كان اسمه يوسـف يـاغور. وكان رئيس عمليات لاكام التي يقودها رافي إيتان في كل الولايات المتحدة.

دعـا سـيلا ياغور لتناول العشاء مع بولارد. كرّر بولارد أثناء العشاء أنه يتم حجـب معلومـات تحـتاجها إسـرائيل للدفاع عن نفسها ضد الإرهابيين العرب لأن الولايات المتحدة لم تكن ترغب بأن تسوء علاقاتها مع منتجي النفط العرب.

في تلك الليلة، وباستخدام هاتف القنصلية الآمن، تحدّث ياغور هاتفياً مع رافي إيتان. كان الوقت مبكراً جداً في تل أبيب، لكن إيتان كان ما يزال يعمل على دراساته. كان الفجر على وشك البزوغ عندما وضع سمّاعة الهاتف. وكان فرحاً: لقد حصل على مخبره.

خلال الأشهر الثلاثة التالية، أحاط ياغور وسيلا كلاً من بولارد وزوجته المستقبلية آن هندرسون بكل رعاية واهتمام، واصطحباهما إلى مطاعم راقية، وعروض مسرحية، وأفلام تُعرض للمرة الأولى، واستمر بولارد في تسليمهما مستندات بالغة الأهمية. كان رافي إيتان سعيداً جداً بجودة المعلومات التي ترد إليه، وقرّر أن الوقت حان للقاء المصدر.

في تشرين الثاني 1984، دعا ياغور وسيلا كلاً من بولارد وهندرسون ليرافقاهما في رحلة مدفوعة التكاليف إلى باريس. أخبر ياغور بولارد أن العطلة "مكافأة صغيرة لكل ما تقوم به من أجل إسرائيل". سافروا جميعاً بالدرجة الأولى وانتقلوا بسيارة مع سائق إلى فندق بريستول. كان رافي إيتان في انتظارهم هناك.

في آخر الأمسية، أنهى رافي إيتان كل الترتيبات العملية لاستمرار بولارد في خيانته. لن تستمر الأمور بتلك الطريقة السهلة والمجانية بعد الآن. كان سيلا سيختفي من الصورة لأن دوره انتهى. وسيصبح ياغور المسؤول الرسمي عن بولارد. تم ابتكار نظام توزيع مناسب لتسليم المستندات. كان بولارد يسلّمها إلى شقة آيرت إيرب، التي يشبه شعرها شعر الفئران، والسكرتيرة في السفارة الإسرائيلية في واشنطن. تم وضع ناسخة زيروكس عالية السرعة في مطبخها لنسخ المستندات. كان يفصل بين زيارات بولارد فترة تتناسب وموعد غسيل السيارة. وفيما يتم تنظيف سيارته، كان بولارد يقوم بتسليم الوثائق إلى ياغور، الذي يغسل سيارته هو الآخر في نفس الوقت. كان هناك ناسخة أسفل مقعد سيارته تعمل بالمدّخرة. كان كل من شقة إيرب ومغسل السيارات قريبين من مطار واشنطن الوطني، مما يسهّل على ياغور الطيران ذهاباً وإياباً إلى نيويورك، وكان يرسل المواد من القنصلية باستخدام فاكس آمن إلى تل أبيب.

عاد رافي إيتان إلى تل أبيب في انتظار النتائج، والتي فاقت أقصى توقعاته: تفاصيل الأسلحة الروسية المسلّمة إلى سورية والبلاد العربية الأخرى، بما فيها المواقع الدقيقة لصواريخ إس إس 21 وإس إيه 5؛ وخرائط وصور أقمار صنعية للترسانات العراقية، والسورية، والإيرانية بما فيها مصانع إنتاج الأسلحة الكيميائية والبيولوجية.

سرعان ما حصل رافي إيتان على صورة كاملة لأساليب جمع المعلومات الاستخباراتية الأميركية، ليس في الشرق الأوسط وحسب، وإنما في جنوب أفريقيا أيضاً. وزوّده بولارد بتقارير من مخبري CIA تقدم مخططات تفصيلية كاملة لشبكات التجسس الأميركية ضمن البلاد. كانت إحدى الوثائق تحتوي على تفاصيل دقيقة عن كيفية قيام جنوب أفريقيا بإجراء تفجير ذري في 14 أيلول سنة 1979، في أقصى جنوب المحيط الهندي. أنكرت حكومة بريتوريا دائماً أنها تحولت إلى قوة نووية. رتّب رافي إيتان أن يقوم الموساد بتسليم كل الوثائق المتعلقة بجنوب أفريقيا إلى بريتوريا، وهو ما دمّر نظرياً شبكة CIA. وتم إجبار اثني عشر مخبراً على مغادرة البلاد بسرعة كبيرة.

خلال الأحد عشر شهراً التالية، استمر جوناثان بولارد في تعرية مصادر قوة الاستخبارات الأميركية. وتم نقل ما يزيد عن ألف مستند سري للغاية، و360 قدم مكعّب من الأوراق إلى إسرائيل. كان رافي إيتان يقرأها بسرعة قبل أن يمرّرها إلى الموساد، وساعدت البيانات نعوم أدموني على إطلاع حكومة الائتلاف برئاسة شمعون بيريز على كيفية التجاوب مع سياسات واشنطن في الشرق الأوسط بطريقة لم تكن ممكنة من قبل. قال أحد المراقبين الذين حضروا الاجتماعات الوزارية يوم الأحد في القدس أن: "الاستماع إلى أدموني كان ثاني أفضل شيء بعد الجلوس في المكتب الأبيض. ولم نكن نعرف حدود تفكير واشنطن في كل المسائل التي تهمنا وحسب، وإنما كان لدينا الوقت الكافي للتفكير قبل اتخاذ قرار".

أصبح بولارد عاملاً حاسماً في أسرار صنع القرار السياسي الإسرائيلي، وأساساً في اعتبار الخيارات المتنوعة. وأقرّ رافي إيتان إصدار جواز سفر إسرائيلي لبولارد باسم داني كوهين، إضافة إلى معاش شهري كبير. وبالمقابل، طلب من بورلاد تقديم تفاصيل عن نشاطات استراق السمع الإلكترونية لوكالة الأمن القومي في إسرائيل، ووسائل التنصّت المستخدمة ضد السفارة الإسرائيلية في واشنطن، ومواقعها الدبلوماسية الأخرى ضمن الولايات المتحدة.

قبل أن يتمكّن بولارد من تقديم هذه المعلومات، تم اعتقاله في 21 تشرين الثاني 1985، خارج السفارة الإسرائيلية في واشنطن. بعد ساعات قليلة، استطاع كل من ياغور، وسيلا وسكرتيرة السفارة في واشنطن اللحاق برحلة العال من نيويورك إلى تل أبيب قبل أن يتمكن مكتب التحقيقات الاتحادي من القبض عليهم. واختفوا في إسرائيل في برنامج الحماية التابع لمجتمع الاستخبارات. وتم الحكم على بولارد

بالسجن مدى الحياة، وعلى زوجته بالسجن خمس سنوات.

في سنة 1999، كان بولارد موضع اهتمام عدّة جماعات يهودية قوية طالبت بإطلاق سراحه. وأطلق مؤتمر "المنظمات الأميركية - اليهودية الرئيسية"، وهو تجمّع من حوالي خمسين مجموعة، حملة محمومة لإطلاق سراحه على أرضية أنه لم يرتكب خيانة عظمى بحق الولايات المتحدة "لأن إسرائيل كانت عندها وما تزال اليوم حليفاً مقرباً". دعمت الحملة جماعات دينية يهودية نافذة مثل "محفل اتحاد إصلاح الأميركيين اليهود" و"الاتحاد الأرثوذكسي". قال أستاذ القانون في هارفارد ألان م. ديرشويتر، الذي كان محامي بولارد، أنه لم يكن هناك شيء يؤكد أن الجاسوس قد عرّض للخطر فعلاً "قدرات جمع المعلومات الاستخباراتية للأمة أو فضح معلومات استخباراتية على نطاق واسع".

قامت الاستخبارات الأميركية، التي كانت تعرف أنها ستواجه حملة علاقات عامة ماهرة تنظّمها إسرائيل، بخطوة غير اعتيادية. لقد خرجت من الظل وتحركت على الملأ، ونشرت حقائق خيانة بولارد. كان ذلك قراراً خطيراً وشجاعاً بنفس الوقت. لم يُلقِ ذلك الضوء على معلومات حساسة وحسب، وإنما حشد اللوبي اليهودي القوي لمهاجمتهم أيضاً. كانوا يشاهدون ما يحدث للآخرين في جو واشنطن المسعور، ويمكن تدمير سمعة أحدهم أثناء تناول كأس شراب في سفارة ما، أو في مركز كينيدي أو حتى على عشاء هادئ في جورجتاون.

كان رجال الاستخبارات يخافون أن يقوم كلينتون - "في إحدى لحظاته المثالية"، كما أخبرني أحد ضباط CIA - بإطلاق سراح بولارد قبل أن تنتهي ولايته إذا كان ذلك يضمن دخول إسرائيل في تسوية سلمية، مما سيمنحه نجاحاً أخيراً في السياسية الخارجية. كان مدير CIA في وقت تأليف هذا الكتاب، جورج تينيت، قد حذّر الرئيس: "إطلاق سراح بولارد سيُضعف معنويات مجتمع الاستخبارات"، وتشير التقارير إلى أن كلينتون قال: "سوف نرى، سوف نرى".

في تل أبيب، تابع رافي إيتان كل حركة عن كثب، وأخبر أصدقاءه أنه: "سيأتي اليوم الذي يتمكن فيه بولارد من العودة إلى إسرائيل. وسأكون سعيداً لشرب فنجان من القهوة معه".

أثناء ذلك، يستمر إيتان بالاستمتاع بنجاح عملية أخرى كان قد أطلقها أيضاً ضد الولايات المتحدة، والتي أدّت إلى أن تصبح إسرائيل القوة النووية الأولى في الشرق الأوسط.


صفحة فارغة

الفصل الخامس

سيف جدعون النووي

شاهد رافي إيتان في ظُلمة سينما تل أبيب ولادةَ العصر النووي فوق هيروشيما. فيما كان الجنود الشباب الذين يحيطون به يصفّرون ويبتهجون لدى رؤية الفيلم الوثائقي القصير عن المدينة اليابانية المدمّرة، لم يخطر بباله سوى فكرتين. هل ستمتلك إسرائيل يوماً مثل هذا السلاح؟ وماذا سيحدث إذا امتلكه جيرانها العرب أولاً؟

جالت هذه الأسئلة في ذهنه من حين لآخر وعلى مرّ السنين. لو أن مصر كان لديها قنبلة نووية، لفازت في حرب السويس، ولما كان هناك حرب الأيام الستة أو حرب أكتوبر، وستصبح إسرائيل صحراء نووية. بالمقابل ستصبح إسرائيل منيعة مع السلاح النووي.

في تلك الأيام، كانت هذه الأسئلة بالنسبة لعميل يتركّز نشاطه بشكل أساسي على قتل الإرهابيين مجرد اهتمام أكاديمي، وكانت الإجابة عليها من اختصاص الآخرين. بكل الأحوال، عندما تولّى قيادة لاكام، بدأ دراسة الموضوع بجدّية. وكان لديه آنذاك سؤال واحد: هل يستطيع المساعدة في توفير درع نووي لإسرائيل؟

كان يقرأ خلال الليل مستعيناً بأربعين حبة فيتامين يبتلعها كل يوم، واكتشف كيف انقسم سياسيو وعلماء إسرائيل حول التحول إلى *قوة نووية*. كان هناك تفاصيل عن المناقشات الغاضبة في ملفات اجتماعات مجلس الوزراء، وفي آراء العلماء والتي كان يغلب عليها صوت رئيس الوزراء ديفيد بن غوريون الذي يتدخل في السجالات المؤلمة الطويلة.

بدأت المشاكل سنة 1956 عندما أرسلت فرنسا مفاعلاً بقوة أربع وعشرين ميغاوات إلى إسرائيل. أعلن بن غوريون أن الهدف من هذا المفاعل هو توفير *محطة ضخ* لتحويل الصحراء إلى "جنة زراعية بتحلية مليار غالون مكعب من مياه البحر سنوياً". دفع هذا الادعاء إلى استقالة ستة من سبعة أعضاء في *لجنة الطاقة النووية الإسرائيلية*، الذين احتجوا على أن المفاعل سيمهّد الطريق نحو "مغامرة سياسية

ستوحّد العالم ضدنا". ساندهم كبار الاستراتيجيين العسكريين في إسرائيل. وأدان يغال ألــون، بطل حرب العام 1948، *الخيار النووي* بشكل دائم؛ كما احتج إسحاق رابين، الــذي سرعان ما سيصبح رئيس أركان IDF، على ذلك أيضاً. وحتى أرييل شارون، الــذي كان وسيبقى صقر إسرائيل الأول، عارض بشدّة الترسانة النووية. "لدينا أفضل القوات التقليدية في المنطقة".

تجــاهل بــن غوريون كل المعارضة وأصدر أمراً بوضع المفاعل في صحراء النقــب، بالقرب من مستوطنة ديمونا الموحشة التي تعصف بها الرمال. كانت ديمونا فيما مضى موقعاً مهماً على طريق قوافل الجمال بين القاهرة والقدس، إلا أنها تحولت بمــرور الزمــن إلــى مكــان منسي. ولم تكن الكثير من الخرائط تلحظ وجودها في الصــحراء جنوب تل أبيب. لكن منذ ذلك الوقت لم يكن مسموحاً لأي راسم خرائط أن يحدد بدقة موقع أولى خطوات إسرائيل المترنحة نحو العصر النووي.

ارتفعــت قــبة فضــية في ديمونا – التي تم وضع المفاعل أسفلها – في حرارة الصحراء، ووظفت كيريا لي ميهيكار، وهو الاسم العبري لديمونا، ما يزيد عن 2500 عــالم وتقني. عملوا ضمن أكثر المصانع تحصيناً في العالم. وكان يتم تفحّص الرمال حــول الأســوار المحــيطة لكشــف علامات عن أي دخلاء محتملين. كان الطيارون يعــرفون أن أي طائرة تحلّق ضمن منطقة الحظر التي يبلغ قطرها خمسة أميال سيتم إســقاطها، وجهّــز المهندسون غرفة يبلغ عمقها ثمانين قدماً ليتم وضع المفاعل فيها، وهــي جــزء من مبنى تحت الأرض يدعى **ماشون اثنان**. في قلب ذلك المبنى يوجد مصــنع الفصــل/المعالجــة الذي تم وضع لصاقات "آلات نسيج" عليه عند شحنه من فرنسا.

لــم يكن المفاعل بنفسه قادراً على تزويد إسرائيل بقنبلة نووية، والتي تحتاج إلى مادة انشطارية مثل اليورانيوم أو البلوتونيوم، واتفقت مجموعة القوى النووية فيما بينها علــى عــدم تــزويد مــا مقــداره غرام واحد من تلك المواد لأي دولة خارج ناديها الحصــري. ونتــيجة لذلك لم يكن مفاعل ديمونا أكثر من مجرد نموذج عرض حتى تصله مواد انشطارية.

بعد ثلاثة أشهر من تركيب المفاعل، فتحت شركة صغيرة لمعالجة المواد النووية أبوابها للعمل في أحد مصانع الحرب العالمية الثانية للفولاذ في بلدة أبولو في بنسلفانيا. كان اسمها *شركة المواد والمعدّات النووية*، وكان مديرها التنفيذي د. سلمان شابيرو.

كــان شــابيرو علــى قائمة قاعدة بيانات حواسب لاكام عن اليهود الأميركيين

البارزين والذين يتمتعون بخلفية علمية، وهو أيضاً نصير قوي لإسرائيل. عرف رافي إيتان أنه وجد جواباً محتملاً حول كيفية تزويد مفاعل ديمونا بمواد انشطارية. أصدر أوامره بإجراء تحقيق شامل عن خلفية شابيرو، وكل أعضاء الشركة نفسها. قام كاستنا في واشنطن بإجراء البحث اللازم.

انطلقت الأسئلة، واستمر رافي إيتان في فرض نفسه على قصة تحوّلت من صحراء ديمونا اللاهبة إلى أروقة البيت الأبيض الباردة.

أرسل كاستنا واشنطن، من ضمن البيانات الأخرى، نسخة عن مذكّرة مكتوبة في 20 شباط سنة 1962، وموجهة من لجنة الطاقة النووية إلى شابيرو تحذّر بشكل فظ الشركة من "أن الفشل في الاستجابة للقواعد الأمنية قد يعرضها للعقاب المنصوص عليه في القانون، بما فيها *قانون الطاقة النووية* لسنة 1954 وقوانين التجسس".

زاد ذلك التهديد من شعور رافي إيتان بأنه وجد طريقة لاختراق الصناعة النووية الأميركية. وبدا أن تلك الشركة لا تعاني من ضعف الأنظمة الأمنية وحسب، ولكن من إهمال في المحاسبة والإدارة والتي استرعت انتباه الحارس النووي الأميركي. لقد جعلت مواطن الضعف تلك من الشركة هدفاً رائعاً.

كان ذكاء وتألق سلمان شابيرو، ابن الحاخام الأرثوذكسي، قد رفعاه عالياً. لقد حصل على الدكتوراه في الكيمياء من جامعة جون هوبكنز عندما كان في الثامنة والعشرين من العمر. حوّلته قدرته على تحمل العمل الشاق إلى عضو بالغ الأهمية في مخبر أبحاث وتطوير الطاقة النووية في ويستنغهاوس؛ كانت تلك الشركة مرتبطة بعقد مع بحرية الولايات المتحدة لتطوير مفاعلات الغواصات. كشفت التحقيقات عن خلفية شابيرو الشخصية أن بعضاً من أقربائه كانوا ضحايا الهولوكوست، وأن شابيرو نفسه "بطريقته النموذجية الحذرة" قدّم عدّة ملايين من الدولارات لمعهد التقانة في حيفا الذي يدرّس العلوم والهندسة.

غادر شابيرو ويستنغهاوس سنة 1957 وأسس شركة نوميك Numec. كان هناك خمسة وعشرون من حملة الأسهم، وجميعهم متعاطفون علناً مع إسرائيل. وجد شابيرو نفسه رئيساً لشركة صغيرة في صناعة أجواؤها عدوانية لا ترحم. بالرغم من ذلك، فازت نوميك بعدد من العقود لمعالجة اليورانيوم المخصّب، وهي عملية تقود عادةً إلى فقدان جزء من اليورانيوم. لم تكن هناك طريقة لمعرفة مقدار أو توقيت ذلك الفقدان. وجعل هذا الاكتشاف رافي إيتان مرتاحاً للغاية.

استمر رافي إيتان يقرأ كيف توترت العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة

نتـيجة رغـبة الدولة العبرية في التحول إلى قوة نووية عندما سافر بن غوريون إلى واشـنطن سـنة 1960. عقد بن غوريون سلسلة من الاجتماعات مع مسؤولي وزارة الخارجـية الأميركـية الذين أخبروه بفظاظة أن امتلاك إسرائيل لأسلحة نووية سيؤثر على توازن القوى في الشرق الأوسط. في شباط سنة 1961، كتب الرئيس جون ف. كينـيدي إلى بن غوريون يقترح إخضاع مفاعل ديمونا للتفتيش الدوري الذي تقوم به الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

سـافر بن غوريون، الذي استشعر الخطر، إلى نيويورك للقاء كينيدي في فندق ولـدروف - أسـتوريا. كـان القـائد الإسرائيلي *قلقاً جداً* حول ما كان يراه *ضغوطاً أميركـية لا تنتهي*، لكن كينيدي كان حازماً: "يجب أن يكون هناك تفتيش". استسلم بن غوريون لأن ليس بيده حيلة. عاد إلى الوطن مقتنعاً "كاثوليكي في البيت الأبيض يعني خبراً سيئاً لإسرائيل". عندئذ تحول رئيس الوزراء إلى الرجل الوحيد في واشنطن الذي يمكنه الوثوق به، أبراهام فينبرغ، وهو مناصر صهيوني لطموحات إسرائيل النووية.

كـان ذلـك النيويوركـي، مـن جهـة، أحد أهم مانحي الأموال اليهود للحزب الديمقراطي. كان فينبرغ واضحاً حول سبب تبرعه بملايين الدولارات: كل دولار كان للتأكد من دعم الحزب لإسرائيل في الكونغرس. قدّم أيضاً وبسرية تامة بضعة ملايين إضـافية من الدولارات لإنشاء ديمونا. جاءت الأموال على شكل شيكات مصرفية إلى مصـرف إسرائيل في تل أبيب، واستطاع بذلك تفادي قوانين تبديل العملات الأجنبية الإسـرائيلية. طلـب بن غوريون من فينبيرغ أن "يُحرج الفتى. وأن يجعله يفهم حقيقة الحياة".

اعـتمد فينـبرغ أسـلوب الضغط السياسي المباشر؛ نفس الأسلوب الذي أغاظ كينيدي عندما اشترك في الانتخابات. ثم أخبره فينبرغ بكل فظاظة: "نحن قادرون على دفـع فواتـيرك إذا سمحت لنا بالتحكم في سياستك بالشرق الأوسط". وعد كينيدي بأن "يمـنح إسرائيل كل فرصة ممكنة". ووافق فينبرغ على دفع مساهمة مبدئية في حملة كينيدي مقدارها خمسمئة ألف دولار؛ "مع المزيد لاحقاً".

اسـتخدم آنذاك نفس الطريقة المباشرة: إذا استمر الرئيس كينيدي في الإصرار على تفتيش ديمونا، يجب أن "لا يعتمد على دعم اليهود المالي في الانتخابات السياسية القادمـة". لقـي ذلك دفعاً قوياً من مصدر غير متوقع. أخبر وزير خارجية الولايات المـتحدة روبـرت إس. مكـنمارا الرئيس كينيدي أنه "يتفهم لماذا تريد إسرائيل قنبلة نووية".

رغم ذلك، كان كينيدي عازماً على إجبار إسرائيل على قبول التفتيش. قدّم الرئيس عرضاً في اللحظة الأخيرة يضمن أن تقوم الولايات المتحدة ببيع إسرائيل، في حال سماحها للمفتشين بدخول مفاعل ديمونا، صواريخ أرض – جو من طراز هووك والتي كانت أكثر الأسلحة تطوراً في العالم حينها. لم يشترط الرئيس أن تقوم الوكالة الدولية للطاقة الذرية بالتفتيش، وإنما فريق من الأميركيين فقط؛ والذي سيجدول زيارته قبل أسابيع من حدوثها.

وضع رافي إيتان خطة تفصيلية لخداع المفتشين الأميركيين. وتم بناء مركز سيطرة مصطنع فوق المركز الحقيقي في ديمونا، مع لوحات تحكّم مزيفة وأجهزة قياس موصولة حاسوبياً والتي تعطي انطباعاً موثوقاً عن قراءات نتائج مفاعل يعمل في مجال الري لتحويل النقب إلى أرض زراعية خصبة. وتم عزل المنطقة التي تحتوي على الماء الثقيل الذي تم تهريبه من فرنسا والنرويج وجعلها محظورة لأسباب السلامة. كانت الكمية الكبيرة من الماء الثقيل دليلاً على تجهيز المفاعل لغرض مختلف تماماً.

عندما وصل الأميركيون، ارتاح الإسرائيليون لأن أياً منهم لم يكن يعرف العبرية. وساهم ذلك في تقليل احتمالات قيام المفتشين بكشف الغاية الحقيقية من ديمونا. كانت الطريق ممهدة أمام رافي إيتان.

كان الدخول إلى مصنع شركة نوميك سهلاً نسبياً. طلبت السفارة الإسرائيلية في واشنطن الإذن من لجنة الطاقة الذرية الأميركية لقيام "فريق من علمائنا بزيارة المصنع ليتمكنوا من استيعاب المخاوف التي عبر عنها مفتشوكم عن معالجة الفضلات النووية بشكل أفضل". تمت الموافقة على الطلب، رغم أن مكتب التحقيقات الاتحادي كان يقوم بعملية مراقبة واسعة النطاق ليكتشف فيما إذا كان شابيرو مجنداً كجاسوس إسرائيلي.

لم يكن كذلك؛ ولن يكون أبداً. كان رافي إيتان مقتنعاً بأن شابيرو مخلص للوطن، وصهيوني يؤمن بحق إسرائيل في الدفاع عن نفسها. ولم يكن شابيرو من عائلة فاحشة الثراء لديها استثمارات ضخمة في سوق الأسهم وحسب، وإنما كانت ثروته الشخصية تتزايد بسرعة من الأرباح الهائلة التي تكسبها نوميك. وبخلاف جوناثان بولارد، لم يكن شابيرو خائناً؛ وكان حبه لأميركا جلياً. كان رافي إيتان يعرف بأن أي محاولة لتجنيده ستأتي بنتائج عكسية. كان إبقاء شابيرو خارج العملية قد تبلور في ذهن رافي إيتان.

رغم ذلك، كان هناك بعض المخاطر التي لا يمكن تفاديها. وللحصول على صورة أوضح عن نوميك، أرسل رافي إيتان عميلين من لاكام إلى أبولو. كانا أبراهام هيرموني، والذي كان يعمل بغطاء دبلوماسي في السفارة الإسرائيلية في واشنطن كمستشار علمي، وجيرام كافكافي، الكاستا الذي يعمل في الولايات المتحدة ككاتب علمي مستقل.

جال كلا العميلين في مصنع المعالجة، لكن لم يُسمح لهما بالتقاط أي صور. أشار شابيرو بأن ذلك سيكون خرقاً لقواعد لجنة الطاقة النووية الأميركية. ووجدا كل الترحيب من شابيرو، لكن حُكم هيرموني على الموقف كان أنه "رجلٌ ثابت المواقف".

قرّر رافي إيتان أن الوقت قد حان ليذهب بنفسه إلى أبولو. شكّل لجنة من *المفتشين*، وكان من بينهم عالمان من ديمونا يتمتعان بمعرفة متخصصة في معالجة الفضلات النووية. كان عضو آخر في الفريق مدرجاً على القائمة بصفته *رئيس قسم الإلكترونيات* في جامعة تل أبيب في إسرائيل. لم يكن هناك منصب مماثل في حرم الجامعة، وكان الرجل ضابط أمن من لاكام مهمته محاولة اكتشاف طريقة لسرقة مواد انشطارية من المصنع. ولخّص هيرموني: "ستكون مهمته تحديد مناطق الخلل الأمني التي اكتشفها خلال زيارته السابقة. سافر رافي إيتان مستخدماً اسمه بصفة *مستشار علمي لمكتب رئيس وزراء إسرائيل*.

صادقت السفارة الأميركية في تل أبيب على سفر الوفد، ومنحته تأشيرات الدخول. حذّر رافي إيتان الفريق من أن مكتب التحقيقات الاتحادي سيضعهم تحت رقابة مشددة منذ لحظة هبوطهم في نيويورك. لكن، لدهشته الشديدة، لم تلحظ عيناه الخبيرتان أي دليل على ذلك.

تصادف وصول الإسرائيليين إلى أبولو مع عودة شابيرو من جولة مفاجئة أخرى إلى الجامعات الأميركية حيث كان يحث العلماء المتعاطفين مع إسرائيل الذين يوافقون على الذهاب إلى هناك و"حل المشاكل التقنية والعلمية". كان يتعهّد بدفع كل مصاريفهم، وتعويض أي نقص في رواتبهم.

كانت فترة بقاء رافي إيتان وفريقه في أبولو قاتمة الظلال. حجزوا غرفاً في فندق صغير، وقضوا معظم وقتهم في مصنع نوميك يتعلمون تعقيدات تخصيب اليورانيوم. شرح شابيرو أن قواعد لجنة الطاقة النووية تفرض دفع غرامات عن كل مادة مخصّبة لا يتم الإعلان عنها، وتبلغ 10 دولارات للغرام الواحد أو 4.500 دولار للرطل. غادر رافي إيتان وجواسيسه أبولو بنفس الهدوء الذي دخلوها به.

لا يمكن استنتاج ما حصل لاحقاً سوى من تقارير مكتب التحقيقات الاتحادي، رغم أنها تركت أسئلة محيرة حول مدى تورط سلمان شابيرو بعد زيارة رافي إيتان. يقول أحد التقارير إنه بعد شهر من عودة الإسرائيليين إلى بلدهم، أصبحت نوميك شريكاً مع الحكومة الإسرائيلية في أعمال يمكن وصفها "بسترة الطعام وتعقيم العينات الطبية بتعريضها للإشعاع".

حذّر تقرير آخر لمكتب التحقيقات الاتحادي من أن "هناك تحذير على كل حاوية بأنها تحتوي مواد مشعة، ولم يفتحها أو يفحصها أحد؛ ولم يسمح لنا أحد بفعل ذلك".

كان سبب الرفض أن السفارة الإسرائيلية في واشنطن قد أوضحت لوزارة الخارجية بأنه إذا حاول أحد تفتيش الحاويات، فإنها ستضعها تحت الحصانة الدبلوماسية. تكلّمت وزارة الخارجية مع وزارة العدل وحذّرت من العواقب الدبلوماسية الجدّية التي ستنتج عن أي خرق للحصانة الدبلوماسية. كل ما استطاع عملاء مكتب التحقيقات الاتحادي المعترِضون فعله هو مراقبة الحاويات التي كان يتم تحميلها في طائرات شحن شركة العال في مطار إيدلوارد.

رغم الجهود الكبيرة لمدير محطة CIA في تل أبيب جون هادن، إلا أنه لم يكن قادراً على *تأكيد* فيما إذا كان الأمر ينتهي بتلك الحاويات في ديمونا. سجّل مكتب التحقيقات الاتحادي تسع شحنات في فترة ستة أشهر أعقبت زيارة رافي إيتان. لاحظ أن الحاويات تصل عند الغسق وتغادر قبل الفجر: كانت مغلّفة جميعها بالرصاص اللازم لنقل اليورانيوم المخصّب، وعلى كل منها صفيحة معدنية بالعبرية تدلّ على أن حيفا هي المقصد النهائي. وشاهد العملاء في مناسبات عديدة تحميل *أنابيب مواقد* - مستوعبات تخزين اليورانيوم المخصّب - في خزائن فولاذية على رصيف تحميل نوميك. وكان كل أنبوب يحمل رقماً يدل على أنه جاء من أقسام بالغة السرية في الشركة. ومع ذلك لم يستطع مكتب التحقيقات الاتحادي فعل شيء، وتحدثت مذكرة له عن "الضغط السياسي من وزارة الخارجية لضمان عدم حصول مشكلة دبلوماسية".

توقفت الشحنات فجأة بعد عشرة أشهر. لم يكن بمقدور مكتب التحقيقات الاتحادي سوى الافتراض بأن كميات كافية من المواد الانشطارية قد وصلت فعلاً إلى ديمونا. أنكر شابيرو، خلال المقابلات اللاحقة معه، أن يكون قد زوّد إسرائيل بأي مواد لصنع قنبلة نووية. قال مكتب التحقيقات الاتحادي إن تدقيقهم في وثائق الشركة كشف وجود اختلاف في كمية المواد المعالجة. أصرّ شابيرو أن "التفسير الأكثر منطقية" لأي كمية يورانيوم مفقودة كان خسارته في الأرض أو "تبخره في الهواء". كانت كمية المواد

المفقودة تعادل مئة رطل. ولم يتم توجيه أي تهم لشابيرو.

فـــي الســـنوات التالية، أصبح من الممكن الصفح عن رافي إيتان لتفكيره بمدى ســـهولة سرقة المواد الانشطارية بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. أثبتت حادثة جرت في مطار شيرميتيفو في موسكو في 10 آب سنة 1994 صحة ذلك.

عـــند الساعة 12:45 من بعد ظهيرة ذلك اليوم، وصل جوستيانو توريس، الذي كـــان يـــرتدي بذلة رمادية قاتمة تم شراؤها خصيصاً لهذه الرحلة، متأخراً عمداً عن رحلة لوفتهانـــزا (شركة الطيران الألمانية) رقم 3369 المتجهة إلى ميونيخ. كان ذلك الـــرجل القوي جسدياً ما يزال يتعرق قليلاً بسبب ثقل حقيبته الجلدية السوداء الجديدة. أظهـــر توريـــس بطاقـــة الدرجة الأولى وابتسم لموظف المطار. وتم ضبط الابتسامة بوساطة آلة تصوير موضوعة سراً خلف المكتب لتسجيل كل حركة تحدث أمامه.

صوّرته آلات تصوير أخرى سراً خلال الأشهر الأخيرة. وتم تسجيل اجتماعاته مـــع عـــالم الذرة الروسي الساخط إيغور تاشنكا: لقاءاتهما في تلال ستالين؛ رحلاتهما علـــى متـــن يخت سياحي في نهر موسكو؛ وجباتهما في مطاعم تسيطر عليها المافيا الروســـية؛ وأخيراً، الاجتماع الذي سلّم فيه تاشنكا الحقيبة وتسلّم بالمقابل مغلّفاً يحتوي 5000 دولار أميركي. كان توريس، في كل لحظة، يعتقد أنه عقد صفقة رائعة. كانت الحقيبة تحتوي على مواد انشطارية.

كـــان جوســـتيانو توريس مراسلاً لكارتل ممنوعات كولومبي وسّع نشاطه نحو الاتجار بالمواد الانشطارية. احتوت الحقيبة، في مستوعبين مختومين، مئتي غرام من البلوتونـــيوم 239 التـــي باعها تاشنكا له. كانت قيمتها الحقيقية تبلغ 50 مليون دولار. كـــان البلوتونـــيوم قاتلاً جداً لدرجة أن الاقتراب من ذرة مجهرية يعتبر مميتاً. كانت محتويات الحقيبة كافية لصنع قنبلة نووية صغيرة.

كانت تلك العملية بالنسبة ليوري ساغوي، الرئيس السابق للاستخبارات العسكرية الإســـرائيلية، تشـــكّل "كابوساً لكل شخص مفكّر: حفنة من الإرهابيين يضعون أياديهم على مواد انشطارية تكفي لتدمير تل أبيب أو أي مدينة أخرى. وفي مهام الاستخبارات اليومية، أصبح التعامل مع التهديد النووي في قمة الأولويات".

كـــان مجـــتمع الاســـتخبارات الإسرائيلي يعرف منذ زمن طويل أن الإرهابيين يســـتطيعون تصـــنيع قنبلة نووية بدائية. كان أحد طلاب قسم الفيزياء الأميركيين في ســـبعينيات القـــرن العشـــرين يعرف ويستطيع تنفيذ كل العمليات المطلوبة لصنع تلك القنبلة. وسبّب كتابه المنشور ذعراً للموساد.

كانت سيناريوهات يوم الحساب أمراً محسوماً. يمكن للقنبلة أن تصل مفككة على متن أي سفينة، أو يتم تهريبها عبر الحدود البرية وتجميعها في إسرائيل. ويمكن تفجير السلاح بالتحكم عن بعد في حال لم يتم تحقيق مطلب مستحيل. هل ستقف الحكومة قوية عندها؟ قرّر محللو الموساد أنه لن يكون هناك استسلام. كان ذلك التوقع مرتكزاً على فهم عميق لذهنية الإرهابيين في أي وقت: في سبعينيات القرن العشرين، كانت أشد المجموعات تطرفاً ستتردّد في الحصول على قنبلة نووية بسبب الثمن السياسي الذي ستدفعه جراء ذلك. وستصبح في تلك الحالة منبوذة حتى من قبل تلك الدول التي ساندتها دائماً.

جدّد انهيار الشيوعية السوفياتية مخاوف الموساد، ونشأ عن ذلك حالة من الشكوك، ولم يكن أحد متأكداً من تطور الاتجاهات السياسية الجديدة في روسيا. كان الموساد قد اكتشف أن صواريخ سكود السوفياتية تم تصديرها إلى الكثير من بلاد الشرق الأوسط مقابل العملة الصعبة. ساعد الفنيون السوفيات الجزائر على بناء مفاعل نووي. وكان لدى روسيا ترسانة ضخمة من الأسلحة البيولوجية، بما فيها الأسلحة الجرثومية الفتّاكة التي يمكنها قتل ملايين الأشخاص. وإذا افترضنا أن جزءاً صغيراً منها وقع في أيدي الإرهابيين، وحتى وعاء صغير مليء بتلك الجراثيم يمكنه محو تل أبيب. لكن فوق كل ذلك كان هناك خوف من أن تقوم روسيا ببيع ترسانتها النووية وهو ما كان موضع اهتمام كبير. كان ذلك بالنسبة ليوري ساغوي يمثل تهديداً "لا يمكن لأحد تجاهله".

وضع علماء نفس الموساد ملفات نفسية للعلماء الروس الذين قد يقدّمون تلك المواد ودوافعهم: كان هناك أولئك الذين قد يفعلون ذلك لمجرد الحصول على المال، وآخرين لأسباب أيديولوجية متعددة. كانت قائمة المنشآت الروسية التي يمكن سرقة تلك المواد منها كبيرة بشكل يثبّط الهمة. أرسل المدير العام للموساد شابتي شافيت اثنين من الكاتستا إلى موسكو مزوّدين بأوامر خاصة للتسلل إلى المجتمع العلمي.

كانت إحداهما تدعى ليلى، وهي مولودة في بيروت لوالدين يهوديين، كانت حاصلة على إجازة في الفيزياء من الجامعة العبرية في القدس وتعمل في قسم الاستخبارات العلمية في الموساد. كانت قد راقبت الاجتماعات التي عقدها توريس مع تاشنكا وكيف يتم عقد الصفقات.

عملت ليلى وزميلها بالتعاون مع عملاء الموساد في ألمانيا وأمكنة أخرى. قادتها الحملة إلى كولومبيا، ثم عادت إلى الشرق الأوسط. راقب عملاء موساد آخرون

اجـــتماعات في القاهرة، ودمشق، وبغداد، وانفتحت آفاق جديدة: يبدو أن البوسنة ربما تكـــون طريقاً لتهريب البلوتونيوم 239 إلى وجهته النهائية؛ العراق. لكن معرفة نوايا نظام صدّام والتأكّد منها كان صعباً جداً.

لهــذا تم السماح لتوريس بالسفر على متن رحلة طيران تجارية مع شحنة قاتلة. درس رؤساء الاستخبارات الروسية والألمانية هذا القرار بتمعّن، وتوصلوا إلى قناعة بأن خطر انفجار البلوتونيوم كان ضئيلاً إلى أدنى حدّ. ومنحت حكومتاهما المحترمتان الإذن لـــتوريس للقيام برحلته لمعرفة فيما إذا كان ذلك سيقودهم إلى معرفة المستهلك النهائي للمادة. لم يتم استشارة إسرائيل في ذلك الموضوع. كانت تلك عملية ألمانية – روســـية محضـــة. كان الموساد فيما مضى، وفي أكثر من مناسبة، شريكاً صامتاً فيما كانت الأجهزة الأخرى تتسابق لإعلان نجاحها.

مـــن نقطة تمركزها التي تطل على بوابات المغادرة في المطار في صبيحة ذلك اليوم من آب، كانت ليلى تعرف أن دورها في تلك القضية قد انتهى. كان أحد عملاء الموســـاد – لقبه أدلر – ينتظر عندها في بهو فندق إكسلسيور في وسط مدينة ميونيخ حيث كان من المتوقع أن يقوم توريس بعملية التسليم. كان عميل آخر – يدعى مورت – ينتظر وصول الرحلة رقم 3369 في مطار ميونيخ.

كـــان عميل ثالث – إيب – يجلس على بعد مقعدين خلف توريس عندما انطلقت الطائـــرة غرباً في رحلتها التي تستغرق ثلاث ساعات. على الجانب المواجه لتوريس مـــن ممـــر الطائرة، كان يجلس فكتور سيدورينكو نائب وزير الطاقة الذرية الروسي. كانت مسؤولياته تتضمن حماية ترسانة بلاده النووية. كان لدى روسيا آنذاك 130 طناً من البلوتونيوم الذي يمكن استخدامه في صنع الأسلحة النووية، وهي كمية تكفي لصنع ست عشرة قنبلة ذرية، وكل منها أقوى بمرتين من تلك التي دمّرت هيروشيما.

كـــان سيدورينكو قد تلقّى عدداً من التقارير المثيرة للقلق حول الرقابة المتساهلة فـــي المنشـــآت النووية، وانخفاض المعنويات بين أفراد مئات المعاهد ومراكز البحث الروسية التي تستطيع الوصول إلى المواد المشعّة. قبل عدّة أشهر، تم اعتقال عامل في محطـــة نوويـــة في الأورال مع كميات من اليورانيوم المشع في حقيبة بلاستيكية. تم اكتشـــاف ما يزيد عن خمسة كيلوغرامات من اليورانيوم قام عاملون في محطة أخرى قـــرب مينسك بإخفائها في منازلهم. ولم يتم ضبط اللصوص سوى عندما تم بيع كيلو مـــن اليورانيوم مقابل عشرين زجاجة من الفودكا. كان سيدورينكو مسافراً إلى ألمانيا لـــيؤكّد لحكومـــة المستشار هيلموت كول أن حوادث مثل تلك لن تحدث مجدداً؛ والتي

هدّد الألمان بفرض عقوبات اقتصادية بسببها.

عند الساعة 5:45 من بعد الظهر، في الوقت المحدد تماماً، هبطت الرحلة رقم 3369 في مطار فرانز جوزيف شتراوس في ميونيخ، واتجهت إلى الموقف المخصص لها. كان الوزير سيدورينكو أول المغادرين، ونقلته سيارة كانت في انتظاره إلى المنطقة الأمنية.

دخل توريس منطقة القادمين، ولم يتفاجأ بالوجود الكثيف للشرطة الألمانية المزودة بالسلاح. ولطالما أظهرت ميونيخ تشدداً في الإجراءات الأمنية بعد مجزرة الألعاب الأولمبية التي طالت الرياضيين الإسرائيليين. أجرى توريس مكالمة هاتفية إلى فندق إكسلسيور، وتم وصله بالغرفة رقم 23. وكان في انتظاره هناك الإسباني خافيير أراتيبيل، الذي يصفه جواز سفره بأنه صناعي. وفي الحقيقة، كان سمسار البلوتونيوم والذي تحدث هاتفياً مع رجل يعرفه باسم خوليو - أو فقط.

كان الهاتف مراقباً من قبل ضباط الاستخبارات الألمانية. وفيما كان توريس يمشي بهدوء إلى قاعة الشحن لاستلام حقيبته، كان يراقبه من مكتب قريب رئيس شركة ميونيخ ولفغانغ ستوفاسيوس وضباط استخبارات رفيعو المستوى.

التقط توريس حقيبته وسار باتجاه مخرج "لا شيء للتصريح عنه". وتبعه إب وموورت، ولم يستطيعا فعل أي شيء آخر. ولم يكن لديهما السلطة لاعتقاله. ظهر ستوفاسيوس من مكتبه، وكانت تلك إشارة التحرك.

في غضون لحظات، كان توريس محاصراً وملقى أرضاً. أخذت الحقيبة إلى إحدى الغرف التي كان ينتظر فيها شخص يرتدي ملابس بيضاء مع مقياس غايغر. كان معه خبراء في تفكيك القنابل. استخدموا آلة أشعة إكس محمولة ليروا فيما إذا كان هناك متفجرات في الحقيبة. لم يكن فيها شيء من ذلك. ولم يكن هناك أيضاً صوت من مقياس غايغر يدل على أي تسرب إشعاعي. فتحت الحقيبة، وكان في داخلها مستوعبات البلوتونيوم 239 مغلّفةً بطبقة بلاستيكية سميكة. تم انتزاعها ووضعها في صناديق مضادة للقنابل وحملها إلى شاحنة مدرّعة تنتظر خارجاً. أخذت من هناك إلى أحد مباني الطاقة الذرية في ألمانيا.

تم اعتقال أراتابيل في فندق إكسلسيور، لكن صلة الوصل التالية في السلسلة خوليو - تمكن من التسلل عبر الحدود إلى هنغاريا. قالت الشرطة الهنغارية إنها ستبحث عنه، لكن لم يستطع أحد تحديد هويته في ميونيخ. والمعروف عن هنغاريا أنها نقطة عبور المهربين الروس نحو الغرب.

أخبر رجال الموساد تل أبيب بما حدث، واعتبر مدير عام الموساد شابتي شافيت أن النتـيجة تمـثّل انتصاراً صغيراً آخر في المعركة المستمرة ضد الإرهاب النووي. لكـنه لم يكن الوحيد الذي تساءل عن عدد الحقائب الأخرى التي تسللت عبر الحدود، ومـا هـو الوقت الذي سيمضي قبل أن يحصل انفجار نووي إذا لم تتم تلبية مطالب مستحيلة.

على بعد أميال من المكان الذي كان يفكّر فيه شافيت بتلك الأسئلة، استمر رافي إيـتان، الذي ما زال مكتب التحقيقات الاتحادي وCIA يعتقدان أنه العقل المدبّر وراء سـرقة مواد نووية من مصنع معالجة شركة نوميك في أبولو، في قضاء وقت فراغه فـي صـنع المزيد من تماثيل الخردة المعدنية. كان ظاهرياً في حالة سلام مع العالم المحـيط به. كانت كل من عمليتي بولارد وأبولو قد تلاشتا من الذاكرة؛ وعند إجراء مقابلة صحفية معه قال إنه لا يستطيع تذكّر الاسمين الأوليين سواء لبولارد أو شابيرو. رسـمياً تم إغلاق لاكام، وأصرّ رافي إيتان على أن عمله آنذاك كان مختلفاً جداً عمّا كـان يقوم به من قبل: كان مديراً لشركة شحن صغيرة في هافانا، وكان مهتماً أيضاً بشـركة تصنّع مبيدات حشرية زراعية. وادّعى أن له علاقة وثيقة مع فيدل كاسترو، "وربمـا كان ذلك غير مريح للأميركيين". ولم يطأ بقدمه الولايات المتحدة منذ رحلته إلـى أبولـو، قـال إنه لا ينوي القيام بذلك على الأقل لأنه يشك بأنه سيكون عُرضة "للكثير من الأسئلة" حول جوناثان بولارد وما حدث بالضبط بعد زيارته لمدينة أبولو.

فـي نيسـان سـنة 1997، بدأ اسم رافي إيتان يظهر مجدداً لارتباطه بجاسوس للموساد في واشنطن حدّده مكتب التحقيقات الاتحادي باسم ميغا.

أخـبر المصدر الخاص داخل الموساد رافي إيتان بأن مكتب التحقيقات الاتحادي بـدأ التحقـيق في أن يكون ميغا يقوم بنفس العمل الذي كان يقوم به جوناثان بولارد. وهل كان ميغا مصدراً لبعض المواد البالغة السرية التي مرّرها بولارد؟ كان المحققون قـد أعـادوا اسـتجواب بولارد في السجن واعترف أنه لم يكن قادراً، حتى باستخدام تصـريحه الأمنـي العالـي المستوى، على الحصول على بعض الوثائق التي طلبها مشـرفه يـاغور. كان مكتب التحقيقات الاتحادي يعرف أن لمثل تلك الوثائق رموزاً خاصة لا يمكن الوصول إليها سوى باستخدامها، وأنها تتغير من حين إلى آخر، وعلى أسـس يومـية أحـياناً. رغم ذلك كان ياغور قادراً على معرفة الرموز في غضون سـاعات، كـان يمـرّرها إلى بولارد. هل كان ميغا يقدّمها؟ هل كان ميغا الجاسوس الإسـرائيلي الثاني في واشنطن والذي شكّ به مكتب التحقيقات الاتحادي طويلاً؟ وما

درجة علاقته مع رافي إيتان؟

كانــت تلك الأسئلة الخطيرة التي تم طرحها في واشنطن والتي يمكن لها ضرب العلاقــة بيــن واشــنطن وتل أبيب. وبعد أن تعرّف مكتب التحقيقات الاتحادي عليه بوصــفه الســيد الخفــي خلــف بولارد، قرّر رافي إيتان أن بقاءه في الاستخبارات الإســرائيلية قــد انتهى أخيراً. وكان يتطلع قدماً لإنهاء حياته بعدم مواجهة أي خطر سوى ما يأتي من الفرن الذي يستعمله لتشكيل تلك التماثيل.

كــان يعــرف غريــزياً أن الأحداث في واشنطن تمثّل تهديداً ليس له وحسب - يســتطيع فريق اختطاف من CIA أسره عندما يأتي ويذهب من كوبا، ويقوم بإحضاره إلــى واشــنطن لاســتجوابه، ولم يكن هناك طريقة لمعرفة ما سيحدث عندها - لكن اكتشــاف وجــود مــيغا قد ينعش ذاكرة الدوائر العليا في "لجنة رؤساء الأجهزة" في مجــتمع الاســتخبارات الإســرائيلي، والتــي تتمــثّل مهمتها الأساسية في تنسيق كل النشاطات الاستخباراتية والأمنية في الداخل والخارج.

كــان أعضاء اللجنة يعرفون، بكل الأحوال، أن رجال قسم مكافحة التجسس في مكتب التحقيقات الاتحادي يعتقدون بأن عدم القدرة على التحرك ضد الموساد يعود إلى قوة اللوبي اليهودي في واشنطن، وتردد الإدارات المتعاقبة على مواجهته. من الممكن الطلــب من اللوبي مجدداً ترطيب الأجواء الملبّدة لأن مكتب التحقيقات الاتحادي كان أول مــن اكتشــف ميغا. في 16 شباط سنة 1997، زوّد مجلس الأمن القومي NSA مكتب التحقيقات الاتحادي بنسخة عن تسجيل لمكالمة هاتفية في وقت متأخر من الليل مــن الســفارة الإســرائيلية بين ضابط استخبارات إسرائيلي معروف فقط باسم دوف والمشرف عليه في تل أبيب الذي لم يتم الكشف عن اسمه خلال المحادثة القصيرة.

ســأل دوف عــن *توجيهات* فيما إذا كان "يجب عليه الذهاب إلى ميغا" للحصول علــى نسخة من رسالة كتبها وارن كريستوفر، الذي كان عندها وزيراً للخارجية إلى رئــيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات. تتضمن الرسالة عدداً من التأكيدات التــي تعهــد بهــا كريســتوفر لعــرفات في 16 كانون الثاني حول انسحاب القوات الإســرائيلية من مدينة أريحا في الضفة الغربية. صدرت الأوامر من ذلك الصوت في تــل أبيــب إلــى دوف تأمره "بنسيان الرسالة لأن هذا شيئاً لا نستخدم ميغا للحصول عليه".

كانــت تلــك المحادثة القصيرة أول دليل يمتلكه مكتب التحقيقات الاتحادي حول أهمــية مــيغا. لــم يكــن أحد قد سمع بذلك الاسم المستعار من قبل رغم أن السفارة

الإســرائيلية ودبلوماسييها يخضعون للرقابة على مدار الساعة. قلّص مكتب التحقيقات الاتحــادي، باســتخدام حواسب لا مثيل لها، البحث عن هوية ميغا إلى شخص يعمل هــناك فعــلاً أو يستطيع الوصول إلى مسؤول رفيع المستوى يعمل في مجلس الأمن القومــي، ويقدّم نصائح للرئيس تتعلق بشؤون الاستخبارات والدفاع. يقع مكتب الأمن القومــي فــي البيــت الأبيض، ويضم بين أعضائه نائب الرئيس ووزيري الخارجية والدفــاع. ولكــل مــن مدير الاستخبارات المركزية ورئيس الأركان المشتركة دور استشاري فيه. ويرأس جلسات الأعضاء الدائمين مستشار الرئيس للأمن القومي.

ما يزال السر حول كيفية معرفة السفارة الإسرائيلية باختراق قناة اتصالها الآمنة مع تل أبيب غامضاً مثل هوية ميغا. مثل كل البعثات الإسرائيلية، كان يتم دائماً تزويد السفارة في واشنطن بأحدث الأنظمة المعقّدة لتشفير الاتصالات: تم تعديل قسم مهم من هذه المعدّات بالاعتماد على تصميمات أميركية مسروقة.

في 27 شباط سنة 1997، وفي يوم ربيعي جميل في تل أبيب، قاد أعضاء لجنة رؤســاء الأجهــزة الأمنية سياراتهم من مكاتبهم المختلفة في المدينة على طول شارع عريض يدعى "ريهوف شول هاماليكو" إلى بوابة محروسة في جدار فارغ عالٍ تعلوه الأســلاك الشائكة. كل ما يمكن رؤيته مختفياً خلف الجدار هو أسقف الأبنية. ويتطاول فوقهــا جميعاً برج إسمنتي ضخم يمكن رؤيته من كل أنحاء تل أبيب. هناك هوائيات إلكترونــية علــى ارتفاعات مختلفة. يعتبر البرج المبنى الرئيسي من مقر قيادة قوات الدفاع الإسرائيلية. المبنى معروف باسم كيريا وهو يعني ببساطة *المكان*.

قــبل وقــت قصير من الساعة 11:00 قبل الظهر، استخدم قادة الأجهزة الأمنية بطاقاتهم الخاصة لدخول أحد المباني قرب البرج. كانت قاعة الاجتماعات التي دخلوها رثّة مثل معظم المباني الحكومية الإسرائيلية.

تــرأس الاجــتماع داني ياتوم، الذي عينه رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو مؤخراً رئيســاً للموســاد. كــان ياتوم يتمتع بشهرة واسعة كمتشدد، وعلى تواصل كبير مع نتنياهو. سرت شائعات في تل أبيب أن رئيس الموساد الجديد عمل على حماية رئيس الوزراء عندما هدّدت حياة نتنياهو الخاصة مستقبله السياسي. استمع الرجال الجالسون إلــى طاولــة الاجــتماعات المصــنوعة من شجر الأرز بانتباه فيما كان ياتوم يشرح الاستراتيجية التي ينبغي اعتمادها إذا تحوّل الوضع مع ميغا إلى أزمة متفجرة.

ســتقدّم إســرائيل احــتجاجاً شديد اللهجة لانتهاك حرمة بعثتها الدبلوماسية في واشــنطن نتــيجة التجسس عليها؛ حركة ستسبّب بلا شك الإحراج لإدارة كلينتون، ثم

يجب إعطاء تعليمات للسيانيم المرتبطين بوسائل الإعلام الأميركية لوضع قصص حول أن ميغا ليست سوى حل لشيفرة غير صحيحة للعامية العبرية إلغا والتي لطالما استخدمها الموساد للإشارة إلى CIA. إضافة إلى ذلك، كانت كلمة ميغا جزءاً معروفاً من اسم الاستخبارات الأميركية. وكانت كلمة ميغاوات اسماً مستعاراً استخدمه الموساد حتى وقت قريب لوصف عمليات استخباراتية مشتركة. يجب أن يضيف السيانيم، لأسباب وجيهة، أن هناك كلمة أخرى هي كيلووات يتم استخدامها للدلالة على البيانات المشتركة الخاصة بالإرهابيين. واختتم ياتوم الاجتماع بأنهم لن يفعلوا شيئاً في ذلك الوقت.

في آذار سنة 1997، تحرّك ياتوم بعد أن وصلته معلومات من كاستا الموساد في واشنطن. وأرسل فريق ياهالومين إلى واشنطن لمتابعة تقرير الكاستا الذي يقول بأن الرئيس كلينتون يقوم باستمرار بإجراء مكالمات هاتفية عن الجنس مع المساعدة السابقة في البيت الأبيض مونيكا لوينسكي. وكان يتصل بها من المكتب الأبيض إلى شقتها في مبنى ووتر - غيت. كان فريق ياهالومين يعرف تماماً بأن البيت الأبيض محمي كلياً بإجراءات إلكترونية مضادة، ولهذا ركّز على شقة لوينسكي. بدأ باعتراض المكالمات الهاتفية من الرئيس إلى لوينسكي. وتم إرسال التسجيلات بالحقيبة الدبلوماسية إلى تل أبيب.

في 27 آذار، دعا كلينتون مرة أخرى لوينسكي إلى المكتب البيضاوي، وكشف لها هناك أنه يعتقد أن سفارة أجنبية تقوم بتسجيل محادثاتهما. ولم يمنحها أي تفاصيل إضافية، لكن العلاقة انتهت بعد وقت قصير من ذلك.

في تل أبيب، فكّر استراتيجيو الموساد في كيفية استخدام المحادثات المسجلة التي تسبب إحراجاً كبيراً؛ وكانوا فريق الابتزاز - رغم أن أحداً لم يقترح القيام بأي محاولة لابتزاز رئيس الولايات المتحدة. رأى البعض في التسجيلات سلاحاً فعّالاً يمكن أن تستخدمه إسرائيل إذا وجدت نفسها محصورة في الشرق الأوسط وغير قادرة على الاعتماد على دعم كلينتون.

كان هناك اتفاق في الآراء على أن مكتب التحقيقات الاتحادي يعرف بالتأكيد بأمر المحادثات بين كلينتون ولوينسكي. وحثّ بعض الاستراتيجيين ياتوم على استخدام "قناة الاتصال الخلفية" مع واشنطن، وأن يخبر مكتب التحقيقات الاتحادي بأن الموساد يعرف بمكالمات الرئيس الهاتفية: ستكون تلك طريقة ماكرة لإخبار الوكالة بإيقاف بحثها المستمر عن ميغا. حثّ محللون آخرون على إتباع سياسة الانتظار ومراقبة ما

سـيحدث، وقـالوا إن تلك المعلومات ستكون ملتهبة بغض النظر عن توقيت كشفها. وتغلّبت وجهة النظر تلك.

فـي أيلـول سـنة 1998، نُشِر تقرير ستار بعد أن غادر ياتوم منصبه. تضمن الـتقرير إشارة خفية إلى قيام كلينتون بتحذير لوينسكي في آذار سنة 1997 بأن إحدى السفارات الأجنبية راقبت هاتفه. ولم يتابع ستار المسألة عندما أدلت لوينسكي بشهادتها أمام هيئة المحلفين الكبرى حول علاقتها مع كلينتون. بكل الأحوال، لم يكن باستطاعة مكتـب التحقيقات الاتحادي أن ينظر إلى هذه التسريبات سوى كدليل إضافي على عدم قدرته على كشف ميغا.

بعـد سـتة أشـهر، وفـي 5 آذار 1999، نشرت نيويورك بوست على غلاف صـفحتها الأولى التسريبات التي تضمنتها الطبعة الأولى من هذا الكتاب. وبدأت قصة صحيفة بوست: "كتاب جديد يدّعي أن إسرائيل تبتزّ الرئيس كلينتون بتسجيلات هاتفية لمحادثاتـه الحارة مع مونيكا لوينسكي. الثمن الذي يدفعه الرئيس كلينتون لقاء صمت وكالـة تجسس الموساد هو توقف مكتب التحقيقات الاتحادي عن البحث عن جاسوس إسرائيلي رفيع المستوى".

في غضون ساعات من نشر الحقائق الكاملة في الكتاب (والذي تأكّدت منه بعناية من مصادر في إسرائيل)، ظهرت مراجعة صحيفة بوست في آلاف الصحف الأخرى حول العالم.

ضـاعت النقطة الأساسية في قصتي، التي لم يلاحقها المدّعي العام كينيث ستار فـي تحقيقه حول كلينتون. ولاحظ ستار في تقريره أنه في 29 آذار سنة 1997: "هو (كلينـتون) قـام بإخـبارها (لوينسكي) أنه يشك بأن سفارة أجنبية (لم يحدّدها) تسجّل مكالماتـه الهاتفية. وإذا سأل أي شخص عن الجنس الهاتفي الذي يقومان به، يجب أن تقـول إنهما كانا يعرفان أن مكالماتهما كانت مراقبة طوال اليوم، وأن الجنس الهاتفي كان خدعة".

أشارت كلمات الرئيس بشكل قاطع إلى أنه أصبح قلقاً من أن يكون هدفاً محتملاً للابـتزاز. نتـيجة حديـثه مع لوينسكي عبر شبكة هاتفية عامة - ليس هناك دليل أنه حـاول تأمين الهاتف في شقتها - ترك الرئيس نفسه عُرضة لتسجيل مكالماته من قبل مسترقي السمع الأجانب، وتخلّى عن الحماية التي تقدّمها له وكالة الأمن القومي. ولأن أي رئيس يحصل بشكل روتيني على تقارير وكالة الأمن القومي، كان كلينتون يعرف بأن مكالماته إلى مونيكا ستنتهي في مطاحن إشاعات واشنطن.

يمكن ملاحظة الشعور بالخوف في البيت الأبيض نتيجة اكتشافاتي من مؤتمرات المتحدثين باسم البيت الأبيض باري تويف وديفيد ليفي. وكانت ردّات فعلهما مضطربة حول عدم الكشف عن وثائق البيت الأبيض.

ســؤال: لماذا أخبر الرئيس بشكل متكرّر مونيكا لوينسكي بأن لديه شكوكاً حول تسجيل مكالماته الهاتفية؟

تويــف: حسناً، تعرفون أنه إلى جانب شهادة الرئيس في القضية، لم نعلّق على التفاصيل، تفاصيل أخرى مثل هذه، ولن نبدأ ذلك الآن.

سؤال: متى سمع الرئيس بهذا الخبر، وهل كان قلقاً بشأنه، وهل تعرض للصدمة نتيجة له؟ ماذا كان ردّ فعله يا سيد تويف؟

تويف: لأكون صادقاً، لم أحصل على ردّ فعل الرئيس على الكتاب.

سؤال: حسناً، ماذا قال لمونيكا لوينسكي؟ لماذا حذّرها؟

تويف: لم أجب على هذا السؤال من قبل. (ضحك). آسف.

سؤال: أعلم أنك لم تجب عليه، لكنه مهم جداً، فعلاً.

تويــف: حســناً، مرة أخرى، لن ندخل في تعليقات على تفاصيل لم يُدلِ الرئيس بشهادته حولها.

ســؤال: لا أفهم لماذا تعتقد أنه يحق لك عدم التعليق على ما قاله رئيس الولايات المــتحدة بأنـــه يعتقد أن حكومة أجنبية تسجّل مكالماته. الأمر بالنسبة لك، لا يستحق التعليق.

تويــف: هــناك الكثير من الأسئلة حول كل أنواع التعليقات التي صدرت أو تم الإدلاء بشهادة حولها، لم نخرج عن نطاق شهادة الرئيس في مناقشة هذه الأسئلة، ولن نفعل ذلك.

سؤال: هذا لأنك قلت إن ذلك غير لائق وأنه حول الجنس. إنه أمر يتعلق بالأمن القومـــي للولايات المتحدة وبقول الرئيس أن حكومة أجنبية تسجّل مكالماته. وأنت لن تقول سوى أنك آسف، ولا يوجد تعليق؟

تويف: لن أذهب خلف ما أدلى به لغاية الآن؟

سؤال: أنت لا تنكر الأمر. لا تنكر الأمر.

ليفـــي: من الواضح أنك غير مدرك لوجود جاسوس في البيت الأبيض. لكن هذا إجــراء معتاد بالنسبة للأشخاص الذين يتحدثون على هذه المنصة بأن يشيروا إلى أن

تلك المكالمات أصبحت في عهدة السلطات المختصة التي ستقوم بالتحقيقات اللازمة.

سؤال: هل كانت هناك أي محاولة من قبل الرئيس للتدخل في أي نوع من التحقيقات أو البحث عن الجاسوس؟

ليفي: لا. ليس هناك أساس لهذا الادعاء بتاتاً.

سؤال: حسناً، هناك أساس لذلك. هناك شهادة لوينسكي تحت القسم والتي تنسب فيها للرئيس قوله إن سفارة أجنبية تسجّل...

ليفي: لقد أجاب باري عن ذلك السؤال.

سؤال: كان جوابه بأنه لن يعلّق على ذلك. وهذا ليس بجواب. مع كل الاحترام.

ليفي: دعوني أقول شيئين.

تويف: لن أذهب أبعد مما قلته.

ليفي: نعم، لن أضيف بالتأكيد أي شيء على تعليقات باري. لكن دعوني أقول الآتي: لقد اتخذنا كل الاحتياطات اللازمة لتأمين اتصالات الرئيس. ولا أساس إطلاقاً للادعاءات الواردة في ذلك الكتاب.

سؤال: هل قام بذلك مكتب التحقيقات الاتحادي أم CIA، أم أنكم ستقومون بذلك بأنفسكم في ضوء ردود الفعل الآلية التي شاهدناها؟

ليفي: يمكنك أن تعتبر ذلك رسمياً.

سؤال: فهمت أنكم ستعملون على تأمين اتصالاته. بكل الأحوال، إذا أمسك الهاتف واتصل ببعض المواطنين العاديين في الساعة 2:30 صباحاً إلى شققهم، كيف يمكننا التأكد أن مكالمة الشخص العادي لن يتم تسجيلها؟ هل يمنع نظامكم الأمني ذلك؟

ليفي: هناك بعض المزاعم الخطيرة جداً في هذا الكتاب، ما أقوله هو أنه لا يوجد أساس لتلك الادعاءات. ولهذا يجب ترك الأمور عند هذا الحد.

ولم تحاول أي صحيفة جادة متابعة تلك التعليقات.

ظهر أن الموساد لم يكن المنظمة الوحيدة التي سجّلت مكالمات الجنس الهاتفية. لقد أخبر السيناتور الجمهوري عن أريزونا جون كايل والعضو في لجنة الاستخبارات صحيفته المحلية أريزونا ريبيبليك أن وكالة استخبارات أميركية قد تكون سجلت المحادثات الهاتفية بين الرئيس كلينتون ومونيكا لوينسكي. هناك أجهزة مختلفة في الحكومة تقتضي طبيعة عملها تسجيل مثل هذه الأشياء لأسباب مختلفة، وكانت تلك الوكالة أحد تلك الأجهزة".

رفض كايل في حديثه للصحيفة تحديد هوية الوكالة أو الوكالات: "تلك شيء لا أستطيع قطعاً الدخول في تفاصيله". قال وفقاً لمصادره لخاصة إنه: "من الواضح أنهم يستطيعون القيام بذلك. ويمكن الافتراض بأنهم أشخاص كانوا موظفين في الحكومة في وقت معين". قارن بين وجود الأشرطة ودليل "سلاح الدخان" في فضيحة ووتر - غيت.

لم تتم ملاحقة هذه المزاعم الخطيرة الصادرة عن سياسي محترم كما يجب. ووفقاً لمصدر استخباراتي إسرائيلي واسع الإطلاع، تلقّى رافي إيتان مكالمة هاتفية من ياتوم يؤكّد فيها على البقاء حذراً من الولايات المتحدة في المستقبل المنظور.

لم يكن رافي إيتان بحاجة لمن يخبره كم سيكون الوضع ساخراً إذا وقع ضحية التقنية التي جعلت منه أسطورة؛ اختطاف أدولف إيتشمان. والأسوأ أن يموت بهدوء باستخدام إحدى الطرق التي أكسبته شهرته بين الرجال الذين كانوا يرون في الاغتيال جزءاً من عملهم.


صفحة فارغة

الفصل السادس

المنتقمون

فـي ظهـيرة يوم حار في منتصف تشرين الأول 1995، استخدم تقني في قسم الأمـن الداخلـي في الموساد أتوهات بيلوت ميدينت ماسحاً ضوئياً يعمل يدوياً لفحص شـقة في شارع بنسكر في وسط تل أبيب للتأكد من خلوها من أجهزة التنصت. كانت الشـقة إحدى المنازل الآمنة العديدة التي يمتلكها الموساد في المدينة. كان البحث دلالة علـى حساسية الاجتماع الذي سيعقد بعد وقت قصير. غادر التقني بعد التأكد من خلو الشقة من أي أجهزة إلكترونية.

جاء أثاث الشقة من مزاد بيع، ويبدو أن لا مثيل له. كانت هناك بعض اللوحات الرخيصـة المعلّقة على الجدران، وتمثّل مواقع يحب السياح زيارتها في إسرائيل. كل غـرفة مـزودة بهاتف مستقل. ويوجد في المطبخ، عوضاً عن التجهيزات المنـزلية، حاسب، وكارت اتصال، وآلة لإتلاف الورق، وفاكس وخزنة في المكان الذي يجب أن يكون الفرن فيه.

تكـون المنازل الآمنة عادة سكناً للمتدربين من جواسيس مدرسة الموساد الواقعة فـي ضواحي المدينة، والتي يتعلمون فيها مهارات قتال الشوارع: كيفية تعقّب شخص أو الهـروب مـن الـرقابة؛ وكيفية إعداد صندوق بريد وهمي، أو كيفية إخفاء تبادل المعلومـات عبر الصحف. كانت شوارع تل أبيب مسرحاً لتدريبهم ليلاً ونهاراً تحت أعيـن المشرفين عليهم. عند العودة إلى المنازل الآمنة، كانت الدروس تستمر: كيفية تلقيـن التعلـيمات للكاسـتا الذي سيعمل في البلد الهدف، وكيفية كتابة رسائل بالحبر السـري أو اسـتخدام الحواسـب لتجمـيع معلومات يمكن نقلها بدفعات صغيرة على موجات خاصة.

يـتمحور جـزء هام من ساعات التدريب الطويلة التي يبدو أنها لا تنتهي على كيفية إنشاء علاقات مع أشخاص أبرياء لا يمكن الشك بهم. يعتقد ياكوف كوهين، الذي عمـل مـدة خمـس وعشرين سنة ككاستا متخفي في كل أنحاء العالم، أن أحد أسباب

نجاحه كان تلك الدروس التي تعلّمها في تلك المحاضرات:

"كل وأي شخص يمكن أن يصبح أداة. وكنت أكذب عليهم لأن الحقيقة ليست جزءاً من علاقتي معهم. وكل ما يهم هو استخدامهم لمصلحة إسرائيل. ومنذ البداية، تعلّمت فلسفة: قم بما ينفع الموساد وإسرائيل".

أولئك الذين لا يستطيعون العيش وفقاً لتلك العقيدة يجدون أنفسهم خارج الخدمة بسرعة. كان الأمر بالنسبة لديفيد كيمش، الذي يعتبر أحد أفضل عملاء الموساد:

"إنها القصة القديمة عن استدعاء الكثيرين، واختيار قلّة منهم. بتلك الطريقة نكون مثل الكنيسة الكاثوليكية. يطوّر أولئك الذين يبقون روابط تدفعهم عبر الحياة. ونعيش وفق قاعدة: 'سأساعدك، إذا ساعدتني'. ونتعلّم أن نثق بالناس الذين يعيشون نفس نمط حياتنا. ولا يوجد ثقة أكبر قد يمنحها شخص لشخص آخر".

في الوقت الذي يصل فيه كل رجل أو امرأة إلى المنازل الآمنة، وينتقل إلى المجموعة التالية، تكون تلك الفلسفة محفورة في أذهانهم. ويصبحون حينها كاستا يغادرون للقيام بمهام معينة أو يعودون ليقدموا تقاريرهم. وهم معروفون باسم **القافزون** لأنهم يعملون ما وراء البحار على أسس قصيرة المدى، ويدعون المنازل الآمنة بشكل مؤكد **مواقع القفز**. وكان رؤساؤهم يرفضون الوصف الذي يبالغ في الخيال.

أخيراً، كان يتم استخدام المنازل الآمنة كأماكن للاجتماع بمخبر أو لاستجواب أحد المشتبه بهم الذي توجد إمكانية لتجنيده كجاسوس. إن الإشارة الوحيدة عن اعداد الجواسيس جاءت من ضابط سابق رفيع المستوى في الموساد فكتور أوستروفسكي الذي ادّعى أنهم في سنة 1991 كانوا "حوالى 35.000 في العالم. 20.000 منهم يعملون و15.000 نائمين. العملاء السود هم العرب، فيما العملاء البيض هم غير العرب. وعملاء التحذير هم أولئك الاستراتيجيون الذين يحذّرون من الاستعدادات لشن الحروب: طبيب في مستشفى سوري يلاحظ وصول إمدادات جديدة كبيرة من العقاقير والأدوية؛ موظف ميناء يكتشف نشاطاً متزايداً لحركة السفن الحربية".

تلقّى بعض هؤلاء العملاء أولى تعليماتهم في منزل آمن مثل ذلك الذي جرى فحصه للتأكد من خلوه من أجهزة التنصت في تلك الظهيرة من تشرين الأول. ولاحقاً في ذلك اليوم، سيلتقي بعض الأعضاء البارزين في مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي حول طاولة طعام تلك الشقة للتصديق على عملية اغتيال ستلقى موافقة كاملة من رئيس الوزراء إسحاق رابين.

علـــى مـــدى ثـــلاث سنوات من بقائه في منصبه، حضر رابين عدداً كبيراً من الجـــنازات لضـــحايا الهجمات الإرهابية، وكان في كل مرة يمشي فيها خلف النعوش، ويشاهد أشخاصاً راشدين يبكون عندما يستمعون إلى صلاة الوداع. كان يقول مع كل وفـــاة "إنها جنازة في قلبي". كان يقرأ بعد ذلك كلمات حزقيال: "وسيعرف العدو أنني المولى عندما ينـــزل ثأري بهم".

لـــم تكـــن تلك المرة الأولى التي شعر بها رابين بالرغبة في الانتقام؛ لقد شارك بنفسه في أكثر من مناسبة للأخذ بالثأر. كانت أكثر تلك المناسبات بروزاً اغتيال نائب ياســـر عرفات، خليل الوزير، المعروف في العالم العربي وفي قوائم حواسب الموساد باســـم أبو جهاد، صوت الحرب المقدسة، الذي عاش في تونس. في سنة 1988، كان رابين وزير الدفاع في إسرائيل، عندما تم اتخاذ قرار في نفس الشقة في شارع بنسكر بأن أبو جهاد يجب أن يموت.

راقب عملاء الموساد طوال شهرين فيلا أبو جهاد في منتجع سيدي بو سعيد في ضـــواحي تونس. الطرق التي تصل إليها، ونقاط الدخول، وارتفاع الجدران وأنواعها، والـــنوافذ، والأبواب، والأقفال، والتحصينات والأسلوب الذي يتّبعه حرّاس أبو جهاد: تمّت مراقبة كل شيء، وإخضاعه للتدقيق والتدقيق مجدداً.

شـــاهدوا زوجة أبو جهاد تلعب مع أطفالها، وكانوا يذهبون برفقتها عندما تخرج للتســـوق أو تذهب إلى مصففة الشعر. استمعوا إلى مكالمات زوجها الهاتفية، وزرعوا أجهزة التنصت في غرف النوم وأصغوا إلى علاقتهما الزوجية. حسبوا المسافات بين الغـــرف، واكتشـــفوا مـــا يقوم به الجيران، ومتى يكونون في منازلهم، وسجّلوا أنواع وألوان ولوحات تسجيل كل المركبات التي تدخل وتخرج من الفيلا.

كانـــت القـــاعدة التي وضعها مير عميت لتحضير عملية اغتيال قبل وقت طويل ماثلة في أذهانهم: "فكّروا كما يفكر هدفكم، وتوقفوا عن ذلك فقط عندما تضغطون على الزناد".

عاد الفريق إلى تل أبيب راضياً بما لديه. تدرّب أفراده طوال الشهر التالي على مهمتهم القاتلة داخل وخارج منـــزل آمن للموساد قرب حيفا والذي جعلوه مماثلاً للفيلا الهدف. منذ اللحظة التي سيدخلون فيها منـــزل أبو جهاد، يجب أن لا تستغرق العملية أكثر من 22 ثانية لقتله.

في 16 نيسان سنة 1988، تم إصدار أمر القيام بالعملية.

أقلعت في تلك الليلة عدّة طائرات تابعة لسلاح الجو الإسرائيلي من طراز بوينغ

707 مــن قــاعدة عســكرية جنوب تل أبيب، وأقلّت إحداها إسحاق رابين، وضباطاً إســـرائيليين آخرين رفيعي المستوى، كانت طائراتهم على اتصال مباشر عبر لاسلكي آمن مع فريق التنفيذ الذي كان قد اتخذ موقعه ويقوده ضابط يرمز له بالاسم المستعار السـيف. كانت الطائرة الأخرى مليئة بالأدوات وتجهيزات المراقبة. عملت طائرتان 707 أخــرتان كخــزّانات وقود. وحلّق أسطول الطائرات عالياً فوق الفيلا، وتابع كل حركة على الأرض عبر موجة لاسلكية مؤمنة. بعد وقت قصير من منتصف ليل 17 نيسان، سمع ضباط القوة المحمولة جواً أن أبو جهاد عاد إلى المنــزل في المرسيدس التــي مــنحه إياها ياسر عرفات كهدية زواجه. كان الفريق قد وضع قبل ذلك أدوات تنصت حسّاسة قادرة على التقاط أي صوت داخل الفيلا.

أعلــن السيف، من موقعه بالقرب من الفيلا، عبر مذياعه أنه يستطيع سماع أبو جهــاد يصعد الدرج، ويذهب إلى غرفة نومه، ويهمس لزوجته، ويمشي على أطراف أصــابعه إلى غرفة مجاورة ليقبّل ابنه النائم، قبل أن يعود أخيراً إلى مكتبه في الطابق الأرضــي. التقطــت طائــرة مخصصـــة للحرب الإلكترونية تلك التفاصيل؛ النسخة الإســـرائيلية عن الأواكس الأميركية، والمتصلة مع طائرة القيادة التي كان فيها رابين. في الساعة 12:17 صدر الأمر: "انطلقوا!"

كــان سائق أبو جهاد نائماً في المرسيدس خارج الفيلا. ركض أحد رجال السيف نحــوه، ووضع بريتا صامت في أذنه، وضغط على الزناد. وخرّ السائق صريعاً على المقعد الأمامي.

بعد ذلك، وضع السيف وعضو آخر من فريق التنفيذ عبوة ناسفة على قاعدة باب الفــيلا الأمامـــي الحديــدي الثقــيل. كان ذلك نوعاً جديداً من المتفجرات البلاستيكية الصامتة التي لا يصدر عنها صوت قوي عند تفجير مفصلات الباب. في الداخل، كان هــناك اثــنان مـــن حــرّاس أبو جهاد يقفان عند المدخل، ولم يستطيعا التحرك نتيجة الصدمة التي أصابتهما من التفجير. وتم قتلهما أيضاً باستخدام أسلحة كاتمة للصوت.

وجــد الســـيف، لدى دخوله إلى غرفة المكتبة، أبو جهاد يشاهد أفلام فيديو عن مـــنظمة التحرير الفلسطينية. وحالما نهض على قدميه، أطلق عليه السيف الرصاص مرتيــن فـــي الصـــدر. وقـــع أبـــو جهاد على الأرض. وتقدّم السيف بسرعة وأطلق رصاصتين إضافيتين في جبينه.

واجـــه، لدى مغادرته الغرفة، زوجة أبو جهاد، والتي كانت تحمل ابنها الصغير بين ذراعيها. وقال لها السيف بالعربية: "عودي إلى غرفتكِ".

ثم اختفى مع فريقه في ظلمة الليل. ولم يستغرق الأمر منذ دخولهم إلى الفيلا حتى مغادرتهم إياها سوى ثلاثة عشر ثانية فقط؛ أسرع بتسع ثواني حاسمة من أفضل تمارينهم.

لاقت عملية الاغتيال الإسرائيلية تلك انتقاداً عاماً للمرة الأولى. وحذّر الوزير عيزر وايزمن من أن "تصفية الأشخاص لن تحقّق تقدماً في عملية السلام". لكن عمليات الاغتيال استمرّت رغم ذلك.

بعد شهرين فقط، تم إجبار شرطة جنوب أفريقيا أخيراً على كشف عملية كانت إسرائيل تضغط لإبقائها سراً: أعدم الموساد رجل الأعمال ألان كيدغير من جوهانسبرغ الذي كان يزوّد إيران والعراق بمعدّات عالية التقنية، والتي يمكن استخدامها في تصنيع الأسلحة البيولوجية والكيميائية. وجدت الشرطة جثة كيدغير مبتورة الذراعين والقدمين. قال رئيس شرطة جوهانسبرغ، المفتش الكولونيل تشارلز لاندمان إن عملية القتل كانت "رسالة واضحة من الحكومة الإسرائيلية عبر موسادها".

قبل ستة أسابيع من اغتيال أبو جهاد، لعب الموساد دوراً هاماً في عملية اغتيال أخرى مثيرة للجدل؛ أطلق فريق يرتدي ملابس "القوات الجوية البريطانية الخاصة" الرصاص على ثلاثة أعضاء غير مسلحين من "جيش التحرير الأيرلندي" IRA بعد ظهيرة يوم أحد في جبل طارق.

في سنوات سابقة، أحضر رافي إيتان بعضاً من زملائهم في الاستخبارات البريطانية سراً إلى تل أبيب ليشاهدوا بأم أعينهم كيف يقوم الموساد باغتيال الإرهابيين العرب في شوارع بيروت الخلفية ووادي البقاع اللبناني.

قبل أربعة أشهر من حادثة جبل طارق، بدأ عملاء الموساد مراقبتهم لكل من ميريد فاريل، وشون سافيج، ودانييل مكان لاعتقادهم بأنهم يقومون "بجولة تسوق لشراء السلاح من العرب لصالح IRA".

يعود اهتمام الموساد لنشاطات IRA إلى الحقبة التي أحضرت بها حكومة تاتشر، بسرية بالغة، رافي إيتان إلى بلفاست ليوضح للأجهزة الأمنية الرابط المتطور بين مجموعات الإرهاب الأيرلندية ومنظمة...

"وصلت في يوم ماطر. وكانت تمطر يومياً في أيرلندا. أخبرت البريطانيين كل ما أعرفه. ثم ذهبت في جولة عبر الإقليم، وصولاً إلى الحدود مع الجمهورية. وكنت حذراً بأن لا أعبرها. وتخيّلوا ما كانت الحكومة الأيرلندية ستقوله لو أمسكوا بي! وقبل أن أغادر، رتّبت قيام وفد من "استخبارات الجو الخاصة" (SAS) بزيارة إسرائيل

بحيث يستطيعون رؤية شيء من أساليبنا في التعامل مع الإرهابيين".

تطـوّرت علاقـة عمل وثيقة منذ تلك البدايات المبكّرة بين SAS والموساد. كان ضـباط موسـاد رفـيعو المستوى يسافرون بانتظام إلى مقر قيادة SAS في هيرفورد ليشرحوا لاستخبارات الجو الخاصة عن عمليات تجري في الشرق الأوسط. في عملية واحـدة على الأقل، تعقّبت وحدة موساد - SAS مشتركة رجال IRA من بلفاست إلى بيروت، وصوّرتهم في اجتماعات مع قادة في منظمة...

فـي تشرين الأول سنة 1987، تعقّب عملاء الموساد الباخرة إكسوند فيما كانت تشق طريقها عبر المتوسط مع 10 أطنان من السلاح تتضمن صواريخ أرض - جو، وقاذفات قنابل يدوية، ورشاشات، ومتفجرات وصواعق ناسفة. وكانت جميعها مشتراة عبر عملاء IRA في بيروت. اعترضت السلطات الفرنسية الباخرة إكسوند.

نتـيجة عـدم قدرته على التعاون مع السلطات الأمنية الأيرلندية - ما يزال أحد ضـباط الموساد على الأقل يعتقد أن ذلك نابع من معارضة إسرائيل القوية لأن تلعب ايرلـندا أي دور فـي عملـية حفـظ السلام في لبنان - استخدم الموساد جهاز SAS البريطانـي كقـناة لتزويد دبلن بمعلومات سرية حول شحنات أسلحة أخرى تتجه إلى أيرلندا.

قرر عملاء الموساد الذين يتعقبون وحدة IRA القيادية في إسبانيا بسرعة أنهم لم يكونـوا هـناك للقـاء تجـار السـلاح العرب، ولا الاتصال مع منظمة إيتا الباسكية الانفصـالية. رغـم ذلك، استمر عملاء الموساد في السير على خطى *وحدة الإرهاب العالمي* الإسبانية التي كانت تلاحق الثلاثي الأيرلندي أيضاً.

اتخـذ الإسبان أولاً موقفاً بإبقاء مسافة فاصلة عنهم. وكانت تلك عمليتهم الأولى التـي يشـتركون بها فعلياً مع كل من M15 وSAS في التعامل مع IRA. كان الإسبان يريدون أن ينسبوا النجاح، إذا تحقق، لأنفسهم. سرعان ما اتخذ الموساد قراراً بأن كل ما يريده هو المساعدة. ونتيجة لذلك، سرعان ما عمل الإسبان مع الموساد.

عندما أضاع الإسبان آثار ميريد فاريل، تمكّن كاستا من تحديد مكانها. واكتشف أن فـاريل استأجرت سيارة أخرى - فيستا بيضاء - وحمّلتها بحوالى 64 كيلوغراماً من مادة سيمتكس و36 كيلوغراماً من الشظايا في مكان سري في ماربيلا.

ذلك المنتجع الجميل ليس ملجأ مفضلاً من حرارة شمس الصحراء وحسب والذي يفضّل بعض البارزين العرب قضاء أوقاتهم فيه يحلمون باليوم الذي سيتمكنون فيه من القضـاء على إسرائيل التي يكرهونها، وإنما لا تبعد ماربيلا سوى مسافة قصيرة عن

مرسى السفن في بورتو بانوس، حيث ترسو يخوت الكثير من الأثرياء العرب. لطالما كـان الموسـاد يخـاف ومنذ وقت طويل من أن تقوم السفن العابرة للمتوسط بتهريب المـتفجرات والأسلحة للإرهابيين العرب. كان هناك اشتباه بأن سيارة فاريل موجودة هـناك لهذا السبب، ومستعدة للصعود على متن أحد القوارب الذي يقوم ظاهرياً برحلة سياحية إلى الأراضي المقدّسة.

أخضـع فـريق الموساد السيارة لرقابة مشددة. وراقبوا أيضاً فاريل خلف مقود سـيارة فيستا أخرى، وهي نفس السيارة التي استخدمتها لتجول مع مكان وسافيج في كـل أرجاء إسبانيا خلال الأسابيع الماضية. ولحق اثنان من فريق الموساد وحدة IRA فـيما كانـت تـتجه جنوباً نحو بورتو بانوس. وبعد عشر دقائق من مغادرة ماربيلا، عبرت فاريل المعبر إلى مرسى السفن واستمرت في القيادة على طول الساحل.

باسـتخدام راديو السيارة الذي تم ضبطه على قناة الشرطة، حذّر كاستا الموساد الشـرطة الإسـبانية بأن ثلاثي IRA يتجهون نحو جبل طارق. وحذّر الإسبان بدورهم السـلطات البريطانية، وتحرّك فريق SAS إلى موقعه. وبعد عدّة ساعات لقي كل من فاريل، ومكان وسافيج مصرعهم. ولم يتلقوا أي تحذير أو تُتاح لهم فرصة الاستسلام. لقد تم إعدامهم.

بعد أسبوع من ذلك، اتصل ستيفن لاندير، ضابط M15 الذي كان مسؤولاً بشكل مباشر عن العملية - والذي سيصبح لاحقاً مديراً عاماً لجهاز M15 - بأدموني ليشكر الموساد على مساعدتهم في تنفيذ الاغتيال.

في أمسية ذلك اليوم من تشرين الأول سنة 1995، وفي منـزل آمن في شارع بنسكر، كان كل شيء جاهزاً لعقد الاجتماع الذي سيقرر عملية الاغتيال التالية.

علـم الموساد أن مجموعة الشقاقي كانت وراء موت ما يزيد عن عشرين راكباً إسرائيلياً في حافلة تم تدميرها في كانون الثاني الماضي من قبل مهاجمين انتحاريين(*) خارج بلدة بيت ليد الصغيرة.

زادت تلـك الحادثـة من عدد الهجمات الإرهابية إلى ما يزيد عن عشرة آلاف خـلال الربع الأخير من القرن. خلال ذلك الوقت، لقي ما يزيد عن أربعمئة إسرائيلي مصرعهم، وتعرض حوالى الألف للإصابة. ولاحق الكاستا ياكوف كوهين الكثير من هؤلاء المسؤولين عن عمليات القتل والتشويه وقتلهم، وكان يقوم بنفسه ببعض عمليات

(*) وفقاً للوصف الإسرائيلي لمنفذي هذا النوع من العمليات.

الـــثأر، ويصفها بقوله: "كل تلك الشوارع الخلفية التي لا أسماء لها؛ والتي يمكن فيها لسكين أن تكون أكثر فاعلية أحياناً من البندقية؛ وفيها إما أن تكون قاتلاً أو مقتولاً".

فـــي هذا العالم العديم الرحمة، كان الناس يحتفلون ويكرّمون الشقاقي. استغل في تحضـــيره للمهاجمين الانتحاريين في بيت ليد الاندفاع العاطفي لدى صغار السن غير المتوازنيـــن(*)، اللذيـــن ذهبا – مثل المراهقين الكاميكاز اليابانيين في الحرب العالمية الثانـــية – إلى نهايتهما في ذلك اليوم من كانون الثاني بسبب ديني أيضاً. دفع الشقاقي بعد ذلك تكاليف نعوة موتهما في صحيفة الجهاد، ورفع من شأن تضحيتهما في صلاة الجمعة، وأكّد لعائلاتهما أن ابنيهما وجدا مكاناً لهما في الجنة.

فـــي أجواء التوتر التي طغت على الشوارع التي كان يعمل منها، أصبح مسألة شرف أن تقدّم العائلات أبناءها للشقاقي ليضحوا بحياتهم. كانت العائلات تتذكر هؤلاء الذيـــن يموتـــون كـــل يـــوم بعد أن يرفع المؤذن صوته عبر مكبرات الصوت داعياً المؤمنين إلى الصلاة. كانت ذكراهم تبقى نابضة بالحياة في مساجد جنوب لبنان.

بعـــد اختيار المجندين، وانتقاء الأهداف، كان الشقاقي يسلّم الشباب إلى صانعي القـــنابل. وكان أولئك الاستراتيجيون يستطيعون دراسة صورة هدف ما وإقرار كمية المـــتفجرات التـــي يحـــتاجها. ومـــثل الكيميائيين القدامى، كانوا يعملون وفقاً للخبرة والفطـــرة، وكانـــت لغـــتهم مليئة بكلمات مفعمة برائحة الموت: "مؤكسد"، و"متحجر العاطفـــة"، و"مواد لدنة" و"كآبة نقطة الصفر". كانت تلك مجموعة الشقاقي. كان يقتبس عـــبارة قالها مرة أحد قادة العدو الذي يكرهه إسرائيل، ويقول لهم جميعاً: "نحن نقاتل، إذاً نحن موجودون".

فـــي تلك الأمسية من تشرين الأول، وعندما كان مصيره على وشك التحديد في أحـــد مـــنازل تل أبيب الآمنة، كان الشقاقي في منـــزله في دمشق مع زوجته فتحية. كانـــت الشـــقة مختلفة تماماً عن بؤس مخيمات اللاجئين التي ترعرع فيها. يوجد فيها سجاد ولوحات معلّقة على الجدران جاءت كهدايا من آيات الله في إيران. هناك صورة فـــي إطار مذهّب للشقاقي مع معمر القذافي والتي قدّمها له القائد الليبـــي كهدية أيضاً. ومجموعة قهوة مصنوعة من الفضة هدية من الرئيس السوري.

كان يؤكد لزوجته خلال تناوله لوجبة الكسكس المفضلة لديه أنه سيكون آمناً في رحلـــته القادمـــة إلـــى ليبيا لتأمين المزيد من الأموال من القذافي؛ وكان يأمل بالعودة بمليون دولار، وهو كامل المبلغ الذي طلبه في فاكس أرسله إلى قيادة الثورة الليبية في طـــرابلس. كـــان سيتم تحويل المبلغ كالعادة عبر مصرف ليبـــي في فاليتا في جزيرة

مالطـــا. خطط الشقاقي لقضاء أقل من نصف يوم على الجزيرة قبل أن يستقل الطائرة عائداً إلى المنـــزل.

حثّــت أنباء التوقف في مالطا ابنيه المراهقين على الطلب منه التسوق لهما: ستة قمصان لكل منهما من محل في مالطا كان قد اشترى منه الشقاقي من قبل.

تستعيد فتحية الشقاقي الذكريات: "أصرّ زوجي على أنه إذا كان الإسرائيليون قد خططـــوا شيئاً ما ضده، فقد كان يجب أن ينفذوه. ويستجيب اليهود بسرعة لأي حادثة. لكـــن زوجـــي كـــان متأكداً جداً أنهم في حالته لا يستطيعون فعل شيء يجعل سورية غاضبة".

كـــان الشـــقاقي قـــادراً، حتى قبل ثلاثة أشهر، على إطلاق الحكم الصحيح على المـــزاج العـــام في تل أبيب. في بداية صيف سنة 1995، أوقف رابين خطة للموساد تقضـــي بتفجير شقة الشقاقي في ضاحية دمشق الغربية، بعدما أخبره يوري ساغوي، وكـــان حيـــنها رئيســـاً للاستخبارات العسكرية وأحد أبطال مجتمع الاستخبارات في إسرائيل، والذي كانت لديه سلطة حتى على الموساد، أنه لاحظ "تغيّراً في بحر دمشق. ولا يـــزال الأسد عدونا في الظاهر، لكن الطريقة الوحيدة للتغلب عليه هي فعل ما هو غـــير متوقع. وهذا يعني إعادة مرتفعات الجولان، وإعادتها كاملة. وإخلاء كل شخص مـــن شعبنا من هناك. إنه ثمن باهظ، لكنها الطريقة الوحيدة للحصول على سلام دائم وشامل".

اســـتمع رابين، وكان يعرف ما هي الكلفة الشخصية التي دفعها ساغوي شخصياً بالنســـبة للجـــولان. لقـــد أمضى معظم خدمته العسكرية يدافع عن تضاريس الجولان الصعبة. وتعرض للإصابة أربع مرات خلال ذلك. ورغم ذلك كان مستعداً لوضع كل ذلك خلفه في سبيل رؤية إسرائيل تحصل على سلام حقيقي.

قام رئيس الوزراء بتأجيل خطة الموساد للقضاء على الشقاقي فيما كان ساغوي يستكشـــف حقيقة آماله. وكانا قد ذبلا من شدة حرارة صيف المنطقة، وأصدر رابين، الذي حاز على جائزة نوبل للسلام، الأمر باغتيال الشقاقي.

أمـــر شابتي شافيت، في آخر عملية رئيسية له كرئيس للموساد، عميلاً أسود في دمشـــق بمتابعة الرقابة الإلكترونية على شقة الشقاقي. كانت معدّات العميل الأميركية متطورة بما يكفي لاختراق الدوائر الدفاعية في أنظمة اتصالات الشقاقي الروسية. وتم إرسال تفاصيل عن زيارة الشقاقي المرتقبة إلى ليبيا ومالطا إلى تل أبيب.

فـــي تلك الأمسية من تشرين الأول سنة 1995، شق رؤساء أقوى ثلاثة أجهزة

استخبارات إسرائيلية طريقهم عبر شارع بنسكر. وكان كل منهم يؤيد اغتيال أعداء إسرائيل الذين عرّفهم مير عميت عندما كان مديراً عاماً للموساد:

"لن يتعرّض القادة السياسيون للقتل، وإنما يجب التعامل معهم سياسياً، ولن تتعرض عائلة الإرهابي للقتل، وإذا اعترض أفرادها طريقنا، لن تكون تلك مشكلتنا. يجب أن يصدّق رئيس الوزراء على كل عملية اغتيال، يجب القيام بكل شيء وفقاً للقواعد المتّبعة، والاحتفاظ بمحضر اجتماع اتخاذ القرار، ويجب أن يكون كل شيء مرتباً ودقيقاً، ويجب أن لا ينظر أحد إلى أفعالنا على أنها جريمة ترعاها الدولة، وإنما عقاباً عادلاً تستطيع الدولة فرضه. ولن نكون مختلفين عن الجلاد أو أي منفّذ قانوني لحكم الإعدام".

منذ القضاء بنجاح على الإرهابيين التسعة الذين قتلوا الرياضيين الإسرائيليين في الألعاب الأولمبية سنة 1972، أخذت كل عمليات الاغتيال اللاحقة هذه الشروط بعين الاعتبار. مرّت حوالى ثلاث وعشرين سنة منذ أن وضع مير عميت القواعد لعمليات الاغتيال التي ترعاها الدولة، وتوجّه خلفاؤه في ذلك اليوم إلى المنزل الآمن.

كان أول من وصل شابتي شافيت، وكان زملاؤه يقولون إن لديه أسلوب عامل استقبال في أحد فنادق تل أبيب المتواضعة: يرتدي دائماً ملابس منتقاة بعناية، ومصافحته كانت قصيرة. كان قد أمضى في منصبه ثلاث سنوات، ويعطي الانطباع بأنه لا يعرف تماماً إلى متى سيبقى.

ثم وصل العميد دوران تامير، رئيس استخبارات قوات الدفاع الإسرائيلية. وهو رشيق وفي مقتبل العمر، ويوحي كل شيء حوله أن السلطة جاءت إليه نتيجة سنوات طويلة في القيادة.

وفي النهاية، وصل يوري ساغوي، ودخل إلى المنزل الآمن مثل إله المحاربين، وكانت تلك طريقته في إظهار نجوميته التي طغت على منصبه كمدير *لأمان*، الاستخبارات العسكرية. إنه معسول الكلام ومتواضع، واستمر في إثارة الخلاف بين نظرائه بإصراره على أن سورية مستعدة للدخول في محادثات سلام رغم تصريحاتها النارية.

كانت العلاقة بين الرجال الثلاثة، كما وصفها شافتي، ودّية لكنها حذرة. يقول يوري ساغوي: "من الصعب المقارنة بيننا. كنت أعهد بمهمات للآخرين كرئيس لأمان. كان هناك منافسة بيننا، لكن طالما كنا نسعى إلى نفس الهدف، كانت الأمور بخير".

جلس الثلاثة مدة ساعتين إلى طاولة غرفة المعيشة، وراجعوا خطة اغتيال فتحي الشـقاقي، والتي ستكون فعلاً معبّراً عن الثأر، وتطبيقاً لما يقوله الكتاب المقدّس العين بالعين؛ وهو المبدأ الذي يؤمن الإسرائيليون بأنه يبرّر مثل تلك العمليات. لكن الموساد يغـتال أحـياناً شخصاً ما عندما يرفض بعناد تقديم خدماته لدعم طموحات إسرائيل. وعوضـاً عن المخاطرة بوقوع مثل تلك المهارات في أيدي العدو، يتم القضاء عليها دون رحمة.

كان د. جيرالد بول عالماً كندياً، وأفضل خبراء القذائف في العالم. قامت إسرائيل بعـدّة محاولات فاشلة لشراء خبراته. كان بول يُظهر نفوره من الدولة العبرية في كل مرة. عوضاً عن ذلك، قام بتقديم خبراته إلى صدام حسين لبناء مدفع عملاق قادر على إطـلاق قذائف تحمل رؤوساً حربية نووية أو كيميائية أو بيولوجية من العراق مباشرة إلـى إسرائيل. كان طول سبطانة المدفع العملاق يبلغ 148 متراً، ومصنوع من اثنين وثلاثين طناً من الفولاذ الذي تورّده شركات بريطانية للعراق. في أواخر سنة 1989، تم تجريب نموذج أولي في حقل مدفعية في الموصل شمال العراق. أمر صدام حسين ببـناء ثلاثة مدافع بكلفة تصل إلى 20 مليون دولار. احتفظ بول بوظيفة مستشار بعقد يصل إلى مليون دولار أميركي. وحمل المشروع اسماً مستعاراً هو بابل.

تـم تسجيل شركة بول المتخصصة في تصنيع الأسلحة تحت اسم *مؤسسة أبحاث الفضـاء* (SRC) في بروكسل. أرسلت من هناك قائمة تفصيلية بطلباتها إلى الموردين الأوروبيين، بمن فيهم عشرون في بريطانيا، لتزويدها بمعدات عالية التقنية.

فـي 17 شباط سنة 1990، حصل كاستا في بروكسل على نسخ من الوثائق التي توضح أهداف بابل التقنية: المدفع العملاق سيطلق في الواقع صاروخاً عابراً للقـارات متوسـط المـدى. ستكون صواريخ سكود نواة نظام إطلاق السلاح في مجموعات من ثماني لمنح الرؤوس الحربية مدى يصل إلى 783 كيلومتراً. وهكذا ستصـبح الكثير من المدن الأوروبية، إضافة إلى إسرائيل، في مدى ذلك السلاح. كـان بـول يعـتقد أنه يمكن أخيراً إنتاج مدفع عملاق قادر على تحقيق إصابات مباشرة في لندن من بغداد.

طلـب مدير عام الموساد نعوم أدموني اجتماعاً فورياً مع رئيس الوزراء إسحاق شـامير، والـذي كان قائداً سابقاً لمجموعة ثوار قاتلت البريطانيين بضراوة في الأيام الأخيرة للانتداب. كان شامير من نوعية القادة السياسيين الذين تحبهم الموساد، ويدعم بشـكل كـامل تدمـير أعـداء إسرائيل عندما يكون ذلك ضرورياً، وعندما تفشل كل

الوسائل الأخرى. خلال ستينيات القرن العشرين، عندما كان علماء الصواريخ النازيون يعملون مع مصر لتطوير أسلحة طويلة المدى قادرة على ضرب إسرائيل من صحراء سيناء، كان الموساد يستعين بخبرات شامير في تخطيط عمليات الاغتيال. كان اختصاصه خلال حكم الانتداب استنباط طرق لقتل الجنود البريطانيين. كان شامير يرسل أعضاء من قواته السرية لقتل العلماء الألمان. وأصبح بعض من هؤلاء القتلة لاحقاً أعضاء مؤسسين في وحدة كيدون في الموساد.

أمضى شامير وقتاً قصيراً في دراسة ملف الموساد عن بول، وقام الجهاز بعمله المعتاد في متابعة عمل بول منذ كان عمره اثنان وعشرين سنة عندما حصل على دكتوراه في الفيزياء والتحق بالعمل مع *مؤسسة أبحاث وتطوير التسليح* التابعة للحكومة الكندية. واصطدم هناك مع المسؤولين الذين زرعوا بذور الكراهية في نفسه مدى الحياة لكل ما هو حكومي. بعد ذلك، عمل كمستشار خاص؛ "سلاح يمكن استئجاره"، وهو الوصف الحرفي الذي جاء في الملف عنه.

ذاعت شهرته كمخترع أسلحة سنة 1976 عندما صمم مدفع هاون من عيار 45 ملم، والذي يمكنه إطلاق قذائف يصل مداها إلى 40 كيلومتراً؛ وكان مدى السلاح المشابه الوحيد الذي يمتلكه الناتو (منظمة حلف شمال الأطلسي) في تلك الأيام لا يتجاوز 27 كيلومتراً. لكن بول شعر بالإحباط مرة أخرى من موقف الحكومة تجاهه. ولم يشترِ أعضاء الناتو سلاحه الجديد لأن مصنّعي السلاح الأوروبيين الرئيسيين مارسوا ضغوطاً سياسية هائلة عليهم. أخيراً، باع بول المدفع الجديد إلى جنوب أفريقيا.

انتقل بعدها إلى الصين، وساعد جيش التحرير الشعبي على تطوير قدرات صواريخه. حسّن بول من قدرة صواريخ دودة القز، ومنحها مدى أوسع إضافة إلى قدرة أفضل على حمل متفجرات أكبر. بعد ذلك، باعت الصين مجموعات من تلك الصواريخ إلى صدام حسين. في البداية، استخدم صدام تلك الصواريخ في حربه الطويلة ضد إيران. لكن كميات كبيرة من "دودة القز" بقيت في مواقع إطلاق الصواريخ العراقية، كان الموساد يعتقد بأنه سيتم استخدامها أخيراً ضد إسرائيل.

كان مشروع بابل في مرحلته التجميعية أثناء ذلك. وتم اختبار نموذج أكثر تطوراً. وأفادت تقارير المعارضين لنظام صدام الذين جنّدهم الموساد كمخبرين في العراق بأن مخروط مقدمة الصواريخ مصمّم لحمل أسلحة كيميائية وبيولوجية.

بعد ظهيرة 20 آذار سنة 1990، وفي مكتب رئيس الوزراء، وافق إسحاق

شـــامير مع نعوم أدموني على أن جيرالد بول يجب أن يموت. وبعد يومين من اتخاذ القرار، وصل فريق كيدون مؤلف من رجلين إلى بروكسل، وكان في انتظارهما كاستا راقب عن كثب نشاطات بول.

عـــند الســـاعة 6:45 من مساء 22 آذار سنة 1990، تحرك الرجال الثلاثة في سيارة مستأجرة إلى مبنى سكني يعيش فيه بول. كان كل فرد من كيدون يحمل مسدساً في قراب تحت سترته.

بعـــد عشـــرين دقـــيقة، أجاب بول الذي كان يبلغ من العمر 61 سنة على رنين جـــرس الباب في شقته المترفة. تلقّى خمس رصاصات في رأسه وعنقه من مسدسات فريق كيدون من عيار 7.65 ملم، وخرّ صريعاً خارج باب منـــزله. أصرّ مايكل، ابن بول، لاحقاً على أن والده تلقّى تحذيرات بأن الموساد سيقتله. إلا أنه لم يقل من حذّره، أو سبب تجاهل والده لذلك التحذير.

حالمـــا عـــاد فريق كيدون سالماً إلى الديار، بدأ قسم الحرب النفسية في الموساد بتسريب قصص لوسائل الإعلام توحي بأن موت بول كان بسبب رغبته في إنهاء عقده مع صدام حسين. بعد خمس سنوات من ذلك التاريخ، تم استخدام نفس تكتيكات اغتيال بـــول، وهـــو عـــالم كانت إسرائيل تعتبره إرهابياً بقدر فتحي الشقاقي، في أمر مباشر أصدره رئيس وزراء آخر هو إسحاق رابين.

في 24 تشرين الأول سنة 1995، غادر رجلان في أواخر العقد الثاني من العمر - اسماهما المستعاران جل وران - تل أبيب على متن رحلتين مختلفتين؛ إذ سافر ران إلـــى أثينا وجل إلى روما. حصل كل منهما على جواز سفر بريطاني جديد من سايان محلـــي. ووصـــلا إلى مالطا على متن رحلة مسائية ونـــزلا في فندق ديبلومات الذي يطل على ميناء فاليتا. تم تسليم دراجة نارية إلى ران في ذلك المساء، وأخبر موظفي الفندق بأنه سوف يستخدمها للقيام بجولة في أرجاء الجزيرة.

لـــم يلاحـــظ أحـــد فـــي الفندق أي صلة بين الرجلين، اللذين أمضيا وقتهما في غرفتيهما. عندما قال أحد حمّالي الفندق إن حقيبة جل ثقيلة، ابتسم الأخير وأخبره بأنها تحوي سبائك ذهبية.

أبحرت سفينة شحن في اليوم السابق من ميناء حيفا متجهة إلى إيطاليا، وأخبرت ســـلطات موانـــئ مالطا أنها تعرضت لمشاكل في المحرك، وأنها ستبقى في الجزيرة حتى يتم إصلاحه. كان على متن سفينة الشحن شابتي شافيت وفريق صغير من خبراء الاتصـــالات فـــي الموســـاد. قاموا بإجراء اتصال لاسلكي مع جل الذي كانت حقيبته

تحتوي لاسلكياً صغيراً لكنه قوي.

كــان يجب فتح أقفال الحقيبة بعكس اتجاه عقارب الساعة لتعطيل الصمامات في الشــحنتين المزروعتيــن في الغطاء. كانت الشحنتان مصممتين لتنفجرا في وجه أي شخص يحاول فتح الحقيبة بإدارة المفتاح باتجاه عقارب الساعة. كان هوائي اللاسلكي علــى شكل مُعين، وهو حبل من الألياف الضوئية يبلغ طوله ربع ميل، وتم ثنيه بعناية ليشــكّل قرصاً يبلغ قطره 15 سنتم. كان هناك أجزاء إلكترونية أخرى تصل القرص بأربعــة هوائيات ثنائية الاستقطاب مثبتة داخل كل زاوية من زوايا الحقيبة. وتلقّى جل خلال الليل عدداً من الرسائل اللاسلكية من الباخرة.

كــان فتحي الشقاقي قد وصل باكراً في تلك الليلة على متن عبّارة من طرابلس إلــى فاليــتا، ورافقــه رجال أمن ليبيون بقوا على القارب لأن مهمتهم انتهت بمجرد نــــزولـــه علــى الشاطئ وحيداً. كان قد حلق لحيته قبل أن يصل. وعرّف عن نفسه لمسؤولي الهجرة المالطيين باسم إبراهيم درويش، وقدّم لهم جواز سفره الليبـــي. وبعد الوصـــول إلى فندق ديبلومات، أمضى الساعات القليلة التالية في مقاهي على الواجهة الــبحرية، وارتشــف عــدداً لا يحصى من فناجين القهوة وتناول الحلويات العربية. وأجرى العديد من الاتصالات الهاتفية.

في صبيحة اليوم التالي، وبينما كان الشقاقي عائداً بالقمصان التي وعد ابنيه بها، ويســير على طول الواجهة البحرية، خفف رجلان على دراجة نارية سرعتهما خلفه. وأطلــق أحدهمــا علــيه ست رصاصات في الرأس من مسافة قريبة. فمات الشقاقي مباشــرة. واختفى راكبا الدراجة، ولم يتم العثور على أي منهما أبداً. ولكن بعد ساعة مــن الحــادث، أبحر قارب صيد خارج ميناء فاليتا، وألقى مرساته بالقرب من سفينة الشحن. وأخبر قبطان السفينة بعد وقت قصير من ذلك سلطات الميناء بأنه تم إصلاح عطــل المحــرك بشــكل مؤقــت، لكــن السفينة ستعود إلى حيفا لإجراء المزيد من الإصلاحات.

فــي إيران، وهي موطن الشقاقي الروحي، أعلن يوم حزن وطني عليه. وفي تل أبيب، قال رئيس الوزراء رابين تعليقاً على موته: "لست حزيناً بالتأكيد".

بعــد عدّة أيام، وفي 4 تشرين الثاني سنة 1995، تم اغتيال رابين في سباق من أجــل الســلام فــي تل أبيب، قريباً من المنــزل الآمن الذي تم فيه التحضير لاغتيال الشــقاقي. مات رابين على أيدي المتعصب اليهودي يغال عمير الذي كانت لديه نفس القدرات القاسية التي لطالما كانت مصدر إعجاب رئيس الوزراء بالموساد.

إسحاق رابين الصقر الذي تحوّل إلى حمامة، والقائد السياسي القوي الذي أدرك أن فرصـــة الســـلام الوحيدة في الشرق الأوسط تتمثل في اقتباسه الخاص لكلمات من كتابه المفضل الإنجيل: "تحويل السيوف إلى نصل للمحراث وفلاحة التربة مع جيراننا العـــرب"، مات مقتولاً على يدي شخص من شعبه لأنه فشل في قبول فكرة أن أعداءه مـــن الـــيهود سيتصـــرفون بنفس الطريقة القاسية التي تصرف بها أعداءه العرب - المجموعتان مصممتان على تدمير رؤيته للمستقبل.

فـــي ســـنة 1998، كـــان هناك 48 عضواً في كيدون، ستة منهم نساء. وكانوا جميعهم في العشرينيات من العمر ومدربين تدريباً جيداً. كانوا يعيشون ويعملون خارج مقـــر الموســـاد في تل أبيب، ويتدرّبون في منطقة محظورة ضمن قاعدة عسكرية في صـــحراء النقب. يمكن لمقرهم أن يتحول إلى شارع أو مبنى سيتم تنفيذ عملية اغتيال فيه. كان هناك سيارات عابرة ومسلك مليء بالعقبات ينبغي تجاوزه.

يـــتألف كـــادر التدريـــب من أعضاء سابقين في الوحدة يشرفون على مهارات اســـتخدام الأسلحة، ويعلّمون كيفية إخفاء القنابل، ونشر دواء قاتل في حشد من الناس، وجعل الموت الناتج عن الاغتيال يبدو عرَضياً. يشاهد أفراد كيدون أفلاماً عن عمليات اغتـــيال ناجحـــة - إطـــلاق النار على الرئيس جون كينيدي مثلاً - ويدرسون وجوه وعادات مجموعة من الأهداف المحتملة مخزّنة في حواسبهم، ويحفظون عن ظهر قلب مخططات الشوارع التي تتغيّر باستمرار للمدن الرئيسية إضافة إلى مخارج المطارات والموانئ.

تعمل الوحدة في فرق مكوّنة من أربعة أشخاص تسافر عادةً للخارج في رحلات تآلف مع المواقع إلى لندن، وباريس، وفرانكفورت، والمدن الأوروبية الأخرى. يكون هناك أيضاً رحلات إلى نيويورك، ولوس أنجلوس وتورنتو. خلال كل تلك الرحلات، يـــرافق المدربـــون تلك الفرق، ويقيّمون مهارات أفرادها في تنفيذ العمليات دون لفت الانتـــباه إلـــى أنفســـهم. يتم اختيار الأهداف من قبل متطوعين سيانيم محليين الذين لا يعرفون سوى بأنهم سيكونون جزءاً من تدريب أمني مصمم لحماية مصالح إسرائيلية، والتـــي تكـــون عـــادةً إمـــا كنيس أو مصرف يمتلكه اليهود. يجد المتطوعون أنفسهم يتعرضون للهجوم في شارع هادئ ويتم سحبهم إلى إحدى السيارات، أو يستيقظون في منتصـــف اللـــيل ليجدوا أن هناك من دخل منازلهم ويوجه إليهم ماسورة سلاحه. يأخذ أفراد كيدون هذه التدريبات على محمل الجد، ويكون كل فريق مدركاً لمخاطر "الفشل الذريع في ليلهامر".

فــي تمــوز سنة 1973، وفي ذروة مطاردته لقتلة الرياضيين الإسرائيليين في أولمبــياد ميونيخ، تلقّى الموساد معلومة أن الأمير الأحمر أو علي حسن سلامة، الذي خطط للعملية، يعمل كنادل في بلدة ليلهامر النرويجية الصغيرة.

كلّــف مايكل هراري، الذي كان حينها رئيساً لعمليات الموساد، فريقاً من خارج وحــدة كيدون التي كان أفرادها مبعثرين في أرجاء العالم يطاردون الباقين الذين نفّذوا عملــية ميونــيخ. ولــم يكن فريق هراري يتمتع بأي خبرة ميدانية، لكنه كان واثقاً أن خــبرته بــالعمل كاســتا فــي أوروبا ستكون كافية. ضم فريقه امرأتين، سلفيا رافايل وماريان غلادنيكوف، وجزائري يدعى كمال بينامي والذي كان مراسلاً لجماعة "أيلول الأسود" قبل أن يقنعه هراري بأن يصبح عميلاً مزدوجاً.

تحولــت العملــية إلى كارثة منذ البداية. وأثار وصول مجموعة من الغرباء إلى لــيلهامر، التــي لــم تحــدث فيها جريمة قتل واحدة منذ أربعين سنة، الشكوك. بدأت الشرطة المحلية بمراقبتهم، وكانت قريبة جداً عندما أردى هراري وفريقه نادلاً مغربياً يدعى أحمد بوشيكي، والذي لم تكن له أي علاقة بالإرهاب، ولم يكن حتى يشبه سلامة من الناحية الجسدية. استطاع هراري وبعض من فصيلته الهروب، لكن تم إلقاء القبض على ستة عملاء للموساد بمن فيهم المرأتان.

أدلــى المقبوض عليهم باعترافات كاملة، وكشفوا للمرة الأولى أساليب الاغتيال التــي يتّــبعها الموســاد، وتفاصيل محرجة أخرى حول نشاطات الجهاز السرية. وتم توجيه تهمة القتل من الدرجة الثانية إلى المرأتين إضافة إلى زملائهما الرجال، وحُكم عليهم بالسجن خمس سنوات.

لدى عودته إلى إسرائيل، طُرد هراري من عمله، وتم تغيير كامل شبكة الموساد في أوروبا من المنازل الآمنة، وصناديق البريد المخفية وأرقام الهواتف السرية.

انقضــت ســت سنوات أخرى قبل أن يموت علي حسن سلامة أخيراً في عملية كــان رافــي إيتان العقل المدبر وراءها، والذي قال: "كانت ليلهامر مثالاً على تكليف الأشخاص الخطأ بالمهام الخطأ. ولم يكن مفروضاً أن تحدث أبداً؛ ويجب أن لا تحدث مجدداً أبداً".

لكن الخطأ وقع بالفعل.

فــي 31 تموز سنة 1997، وبعد يوم من قيام انتحاريين(*) من حماس بقتل 15

(*) وفقاً للوصف الإسرائيلي لمنفذي هذا النوع من العمليات.

وجرح 157 شخصاً، في أحد أسواق القدس، حضر رئيس الموساد داني ياتوم اجتماعاً ترأسه رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو. وكان رئيس الوزراء قد جاء للتو من مؤتمر صحافي عاطفي وعد فيه بأنه لن يرتاح أبداً حتى إزالة التهديد الذي يشكّله أولئك الذين خططوا للتفجيرات الانتحارية.

ظهر نتنياهو هادئاً وعازماً على الملأ، وكانت إجاباته مدروسة ورزينة بأن حماس لن تفلت من العقاب، لكن شكل ذلك العقاب لم يكن موضوعاً للنقاش. كانت تلك نوعية الإجابات التي استخدمها نتنياهو في تعليقه على حرب الخليج لمحطة CNN الأميركية، والتي نال عليها مديحاً متواصلاً لتقديراته الصحيحة لقدرات صدام حسين وكيف تراها إسرائيل.

لكن في ذلك اليوم العصيب، وبعيداً عن آلات التصوير، ومحاطاً فقط بياتوم وكبار ضباط الاستخبارات ومستشاريه السياسيين، قدّم نتنياهو صورة مختلفة تماماً. ولم يكن هادئاً أو يقدم صورة تحليلية للواقع. وعوضاً عن ذلك، وفي قاعة الاجتماعات المكتظّة المجاورة لمكتبه، قاطع الحاضرين مراراً بقوله: "سأنال من هؤلاء الأوغاد في حماس حتى إذا كان هذا آخر شيء أقوم به". وأضاف، وفقاً لأحد الحاضرين، "إنكم هنا لتخبروني كيف سيحدث هذا. ولا أريد أن أقرأ في الصحف أي شيء عن الثأر. هذه العملية تتعلق بالعدالة؛ العقاب وحسب".

تم تحديد جدول الأعمال.

جلس ياتوم، الذي اعتاد جيداً على تغيرات مزاج رئيس الوزراء، صامتاً إلى الطاولة فيما استمر نتنياهو بالصراخ. "أريد رؤوسهم. أريدهم موتى. لا يهمني كيفية حدوث ذلك. أريده فقط أن يتحقق. وأريده عاجلاً وليس آجلاً".

ازداد التوتر عندما طلب نتنياهو من ياتوم تقديم قائمة بكل قادة حماس ومواقع منازلهم الحالية. ولم يطلب أي رئيس وزراء من قبل هذه التفاصيل العملية الحساسة أبداً في مثل تلك المرحلة المبكرة. واعتقد أكثر من شخص في الغرفة أن "رئيس الوزراء يرسل إشارة بأنه سيتولى بنفسه هذه العملية".

زاد ذلك من قلق بعض ضباط الموساد بأن يقوم نتنياهو باستخدام الجهاز لمصالحه الخاصة. أخبر ياتوم، الذي ربما شعر بذلك، رئيس الوزراء بأنه سيقدّم القائمة لاحقاً. واقترح رئيس الموساد عوضاً عن ذلك أن "الوقت قد حان للنظر في الجانب العملي من الأمور"، لأن تحديد مواقع قادة حماس سيكون "مثل البحث عن جرذان وحيدة في مجاري بيروت".

ثار نتنياهو غضباً مرة جديدة. ولم يكن يريد أعذاراً، وإنما أفعالاً. كان يريد بدء العملية "هنا والآن".

بعد انتهاء الاجتماع، غادر الكثير من ضباط الاستخبارات مع انطباع أن بنيامين نتنياهو قد تخطّى الحدّ الذي يفصل بين المطالب السياسية والمتطلبات العملية. لم يكن هناك رجل في الغرفة لم يدرك بأن نتنياهو يحتاج إلى حملة علاقات عامة لإقناع العامة بأن سياسة مكافحة الإرهاب القاسية التي جاءت به إلى منصبه لم تكن بلاغاً خاوياً. كان ينتقل أيضاً من فضيحة إلى أخرى، وكان يتخلص منها في كل مرة بإلقاء اللوم على الآخرين. كانت شعبيته في أدنى مستوياتها على الإطلاق. كانت حياته الشخصية كلها تحت مجهر الصحافة. وكان يحتاج بشدة لأن يظهر بأنه ما زال المسؤول الأول، وتقديم رأس أحد قادة حماس سيكون طريقة مؤكدة لإثبات ذلك.

تكلم أحد مسؤولي الاستخبارات الإسرائيلية بما يدور في ذهن الكثيرين حين قال: "رغم أننا كنا جميعاً موافقين أنه لا اعتراض على المبدأ بأن قطع رأس الأفعى سيقتلها، إلا أن التوقيت الزمني كان مصدر قلق كبير لنا. كل حديث نتنياهو عن "العمل الآن" كان محض هراء. تتطلب كل عملية من ذلك النوع تخطيطاً دقيقاً. كان نتنياهو يطلب نتائج كما لو أن الأمر لعبة حاسب، أو أحد أفلام الأبطال الخارقين القديمة التي يحب مشاهدتها. لكن الأمر لم يكن يسير على تلك الشاكلة في العالم الحقيقي".

أمر ياتوم بإجراء بحث شامل في كل بلد عربي، وأرسل العديد من الكاستا إلى غزة والضفة الغربية لاكتشاف المزيد عن أماكن تواجد الأشخاص الذين يقودون حماس. خلال شهر آب سنة 1997، قدّم عدّة تقارير إلى مكتب رئيس الوزراء حول تقدم العمل؛ ولم يكن هناك شيء. كان مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي حافلاً بالتفسيرات حول طلب رئيس الوزراء من ياتوم إرسال المزيد من الرجال إلى الميدان، وأن هناك إشارات بأنه إذا لم يرَ نتائج قريباً، فسيضطر لاتخاذ "إجراءات أخرى". إذا كان نتنياهو يعتقد أن ذلك سيمثّل تهديداً لرئيس الموساد، فقد كان مخطئاً. قال ياتوم ببساطة إنه "يفعل كل شيء ممكن". كان المعنى المخفي أنه إذا أراد رئيس الوزراء طرده، سيكون ذلك من ضمن سلطاته؛ لكن سيكون هناك نقاش علني حول ذلك، وستكون هناك أسئلة حول دور نتنياهو. لكن رئيس الوزراء استمر في الضغط لقتل أحد قادة حماس؛ وأراد ذلك عاجلاً وليس آجلاً.

في أيلول سنة 1997، بدأ نتنياهو يتصل مع ياتوم في كل ساعات الليل لسؤاله

عن تطور العملية. خضع رئيس الموساد للضغوط، وسحب كاستنا من محطّات أخرى. كما قال أحدهم "كان ياتوم يعيد ترتيب الخريطة وفقاً لمطالب نتنياهو. كان ياتوم رجلاً صلباً، لكن عندما يتعلق الأمر بالضغط والملاحقة، لم يكن هناك مثيل لنتنياهو الذي بدأ بالحديث عن السرعة التي وضع بها شقيقه خطة الهجوم على عينتاب. لم يكن لتلك المقارنة أي معنى. لكن ذلك ما كان نتنياهو يجيده؛ استخدام أي شيء يمكن أن يفيد القضية".

في 9 أيلول، وصلت أنباء إلى تل أبيب بأن حماس ضربت مجدداً، وتعرّض هذه المرة حارسان إسرائيليان للملحق الثقافي في السفارة الإسرائيلية التي تم افتتاحها حديثاً في عمّان، العاصمة الأردنية لإصابات خطيرة.

بعد ثلاثة أيام، وقبل أن تبدأ عطلة يوم السبت، طلب نتنياهو من ياتوم الاجتماع به لتناول الغداء في منزله في القدس. وجلس الاثنان يتناولان وجبة من الحساء، والسلطة، والسمك ويشربان الجعة والمياه الغازية. أثار رئيس الوزراء مباشرة الهجوم في عمّان. وكيف استطاع رجال حماس المسلحون الاقتراب بما يكفي لإطلاق النار؟ لماذا لم يكن هناك تحذير مسبق؟ ماذا فعلت محطة الموساد في عمّان حيال ذلك؟

قاطع ياتوم نتنياهو في منتصف حديثه: هناك قائد من حماس في عمّان يدعى خالد مشعل، ويقود المكتب السياسي للمنظمة من مكتبه في المدينة. كان مشعل مسافراً طوال أسابيع إلى بلاد عربية كثيرة، لكن محطة عمّان أفادت أنه عاد إلى المدينة.

استشاط نتنياهو غضباً، وقال عبر الطاولة: "إذاً اذهب واقضِ عليه!. هذا ما عليك القيام به. اقضِ عليه! أرسل رجالك إلى عمّان للقيام بذلك!"

قام رئيس الموساد، المنزعج من ستة أسابيع من الضغط الذي مارسه عليه رئيس الوزراء الذي يبدو أنه لا يستوعب الحساسية السياسية لأي عملية استخباراتية، بتقديم درس قاسٍ. وحذّر، وعيناه تلمعان، من أن أي هجوم في عمّان سيدمّر العلاقة التي أنشأها سلف نتنياهو، إسحاق رابين، مع الأردن. سيعرّض اغتيال مشعل على الأراضي الأردنية عمليات الموساد للخطر في بلد يقدّم سيلاً دائماً من المعلومات الاستخباراتية عن المتشددين السوريين، والعراقيين، والفلسطينيين. اقترح ياتوم أنه من الأفضل الانتظار حتى يغادر *مشعل* عمّان مجدداً وضربه عندها.

يقال إن نتنياهو صرخ: "أعذار! هذا كل ما لديك! أعذار! أريد أفعالاً. وأريدها الآن. والشعب يريد أفعالاً". وأضاف: "إن روش هاشانا قريبة" في إشارة إلى رأس السنة اليهودية الجديدة. "ستكون تلك هديتي للشعب".

منذ تلك اللحظة، كان نتنياهو يوافق شخصياً على كل خطوة يقوم بها ياتوم. ولم يُبدِ أي رئيس وزراء إسرائيلي من قبل مثل هذا الاهتمام الشخصي الشديد بعملية اغتيال ترعاها الدولة.

كان خالد مشعل يبلغ من العمر 41 سنة حينها، وهو رجل ملتحٍ وقوي جسدياً. كان يعيش بالقرب من قصر الملك حسين، وفي مطلق الأحوال كان زوجاً مخلصاً وأباً لسبعة أطفال. مثقف ويجيد الخطابة، وبقي شخصية مغمورة في حركة المقاومة الإسلامية. لكن البيانات التي جمعتها محطة الموساد في عمّان بسرعة أشارت إلى أن مشعل كان القوة المحركة وراء الهجمات الانتحارية(*) ضد المدنيين الإسرائيليين.

تم الحصول على تفاصيل تحركات مشعل، إضافة إلى صورة التقطها له سراً رئيس محطة الموساد. ووضع الكاستا ملاحظة شخصية في تقريره تقول إن على ياتوم أن يحاول مرة أخرى إقناع نتنياهو بعدم المضي قُدماً بعملية الاغتيال في عمّان. سيعرّض مثل هذا العمل المتهور سنتين من العمل الهام المضاد للتجسس الذي قام به الموساد بالتعاون مع الأردن للخطر. رفض نتنياهو الملاحظة، وقال إنها تبدو مثل توقّع الفشل، وهو شيء لن يتسامح معه.

في تلك الأثناء، كان يتم تجهيز فريق كيدون مكوّن من ثمانية أشخاص: فريق مكوّن من شخصين سينفذ العملية في وضح النهار؛ وسيقدّم الآخرون الدعم اللازم بما في ذلك السيارة. وسيعود الفريق بأكمله إلى إسرائيل بالسيارة، وسيعبرون جسر اللمبي قرب القدس.

كان السلاح الذي اختاره الموساد غير عادي، ولم يكن مسدساً وإنما أداة مليئة بغاز الأعصاب. كانت تلك هي المرة الأولى التي يستخدم فيها فريق اغتيال من كيدون تلك الطريقة في القتل، رغم أنها مستخدمة منذ زمن بعيد من قبل الكيه جي بي وأجهزة الاستخبارات السوفياتية الأخرى. جنّد الموساد العلماء الروس الذين هاجروا إلى إسرائيل مؤخراً لتصنيع سموم قاتلة تتضمن التابون والسارين والسومان، وهي جميعها غازات أعصاب محرّمة بموجب القوانين الدولية. كانت تلك المواد قاتلة إما فوراً أو بعد حين؛ وفي كل الأحوال كانت الضحية تفقد السيطرة على الأعضاء الداخلية وتعاني من آلام مبرّحة يصبح معها الموت نفسه رحمة لها. تم اختيار طريقة القتل هذه خصيصاً لاغتيال مشعل.

(*) وفقاً للوصف الإسرائيلي لهذا النوع من العمليات.

في 24 أيلول سنة 1997، سافر فريق كيدون بالطائرة إلى عمّان من أثينا، وروما وباريس حيث أمضوا عدّة أيام. سافر بعض الأعضاء بوثائق فرنسية وإيطالية. تم تزويد فريق الاغتيال بجوازات سفر كندية باسمي باري بيدس وشون كيندال. وأخبرا موظفي فندق إنتركونتيننتال في المدينة أنهما سائحان. وتمركز الكاتسا الآخرون في السفارة الإسرائيلية أو بعيداً مسافة قصيرة منها.

انضم بيدس وكيندال إلى باقي الفريق في اليوم التالي. وتفحص الرجلان مجدداً آلة القتل. لم يكن أحد يعرف نوعية الغاز المستخدم فيها. كان العملاء يعتقدون أنه قد يتسبب بأي شيء من الهذيان إلى توقف القلب قبل الموت. زوّدهم مدير محطة الموساد في عمّان بآخر تحركات مشعل.

كان مشعل في لندن خلال أيلول من سنة 1978 عندما تم اغتيال الخائن البلغاري جورجي ماركوف باستخدام غاز الأعصاب. حيث وخزه عابر سبيل في فخذه بواسطة طرف مظلة. مات ماركوف ميتة مؤلمة نتيجة غاز الريسن، وهو سم قاتل يستخلص من بذور نبات الخروع. كان عابر السبيل عميل الكيه جي بي لم يتم إلقاء القبض عليه أبداً.

عاد كل من بيدس وكيندال، بعد سماعهما تلك الملاحظة المتفائلة، إلى فندقهما قبل منتصف الليل بقليل. طلب كل منهما إفطاراً إلى غرفته مكوّناً من القهوة، وعصير البرتقال، والمعجنات الدانمركية. عند الساعة 9:00 من صبيحة اليوم التالي، ظهر بيدس في البهو وأشار إلى إحدى السيارتين المستأجرتين وكانت تويوتا زرقاء. ووصلت السيارة الثانية، وهي هيونداي خضراء، بعد وقت قصير من ذلك واستقلّها كيندال؛ والذي أخبر أحد موظفي الاستقبال بأنه ذاهب مع صديقه لاستكشاف جنوب البلاد.

عند الساعة 10:00، كان مشعل وسائقه يتجهان بالسيارة إلى العمل؛ وكان معه في المقعد الخلفي ثلاثة من أبنائه الصغار، وهم صبي وبنتان. تبعهم بيدس من مسافة آمنة بسيارته المستأجرة. كان أعضاء الفريق الآخرون في سيارات أخرى على الطريق.

حالما دخلوا منطقة الحدائق في المدينة، أخبر السائق مشعل بأن هناك من يلحق بهم. استخدم مشعل هاتف السيارة ليخبر شرطة عمّان بنوع ورقم سيارة بيدس.

بينما كانت التويوتا التي يقودها بيدس تتجاوز سيارة مشعل، لوّح الأطفال له كما فعلوا مع كل السيارات الأخرى، لكن عميل الموساد تجاهلهم. تجاوزت سيارة كيندال

الهيونداي الخضراء سيارة مشعل أيضاً واختفت مع السيارة الأخرى في زحمة السير.

اتصل ضابط في قيادة شرطة عمّان بعد دقائق قليلة مع مشعل ليقول له إن السيارة مؤجرة لمواطن كندي. استراح مشعل وراقب أطفاله يلوحون مرة أخرى للسيارات على الطريق فيما كانت وجوههم ملتصقة بالنوافذ. كانوا يستقلون السيارة كل صباح مع والدهم الذي يذهب إلى العمل قبل أن يقلّهم السائق إلى مدارسهم.

في حوالى الساعة 10:30، دخل السائق شارع وصفي التل، حيث تجمّع حشد من الناس خارج مكتب حماس وبينهم كيندال وبيدس. ولم يكن حضورهم مصدر قلق لأحد لأنه غالباً ما يأتي سياح إلى المكتب لتعلّم المزيد حول طموحات حماس.

قبّل مشعل أطفاله على عجل قبل أن يغادر السيارة. وتقدّم بيدس للأمام كما لو أنه يريد مصافحته، وكان كيندال خلفه تماماً، ويحمل حقيبة بلاستيكية.

سأله بيدس بلطف: "السيد مشعل؟"

نظر مشعل إليه بشك، وأخرج كيندال سلاحه في تلك اللحظة، وحاول رش محتوياته في أذن مشعل اليسرى. وتراجع قائد حماس فزعاً، ومسح صيوان أذنه. حاول كيندال مرة أخرى رش المادة في أذن مشعل. وكان الحشد من حوله قد بدأ يفيق من الصدمة، وامتدت الأيدي في محاولة للإمساك بالعميلين. قال بيدس بالعبرية: "اهرب!"

اندفع بيدس، يلحقه كيندال، إلى سيارته التي كانت تقف على مسافة غير بعيدة في الشارع. وشاهد سائق مشعل ما كان يحدث، وبدأ يعود بسيارته عكسياً في الشارع محاولاً صدم التويوتا.

كان مشعل يترنح في مشيته، ويئن من الألم. حاول بعض الناس مساعدته حتى لا يقع، فيما صرخ الآخرون طلباً للإسعاف.

استطاع بيدس، وبجانبه كيندال الذي كان ما يزال يقبض على سلاح الغاز الذي لم يستخدم نصفه، تفادي سيارة مشعل وزاد من سرعته في الشارع.

تسابقت سيارات أخرى لمطاردتهما. كان لدى أحد السائقين هاتفاً خلوياً، وكان يطلب إغلاق الشوارع في المنطقة. استخدم سائق مشعل هاتف السيارة للاتصال بقيادة الشرطة.

كان أعضاء الدعم في فريق كيدون قد وصلوا آنذاك. وتوقف أحدهم ولوّح لبيدس للانتقال إلى سيارته. وحالما قفز رجلا الموساد خارج التويوتا، قطعت مركبة أخرى الطريق عليهما، وانبثق منها عدد من الرجال المسلحين. أجبروا بيدس وكيندال على

الاستلقاء على الأرض، ووصل رجال الشرطة بعد لحظات قليلة. أدرك الأعضاء الآخرون في فريق كيدون أنهم لا يستطيعون فعل أي شيء، ولهذا ابتعدوا، وشقوا طريقهم أخيراً دون أن يلاحظهم أحد.

بيدس وكيندال كانا أقل حظاً. تم أخذهما إلى مقر قيادة شرطة عمّان حيث قدّما جوازي سفريهما الكنديين، وأصرّا على أنهما ضحية "مكيدة رهيبة". وأنهى وصول رئيس جهاز مكافحة التجسس الأردني، مزاعم الرجلين. وأخبرهما أنه يعرف هويتهما؛ وأنه تلقّى للتوّ اتصالاً من رئيس محطة الموساد. ووفقاً لرئيس جهاز مكافحة التجسس، أعلن مدير الاستخبارات لاحقاً أنه "قام بمواجهة واضحة. وقال إنهم رجاله، وأن إسرائيل سوف تتعامل مع الملك مباشرة".

أمر رئيس جهاز مكافحة التجسس بأن يتم احتجاز عميلي الموساد في زنزانتين منفصلتين دون أن يتعرّضا لأي أذى.

أثناء ذلك، تم نقل مشعل إلى وحدة العناية المركّزة في مستشفى عمّان الرئيسي. وعانى من ضجيج مستمر في إذنه اليسرى و"شعور بالرعشة مثل الصدمة يسري في جسدي"، وصعوبة متزايدة في التنفس. وقام الأطباء بوصله إلى أجهزة الإنعاش.

وصلت أنباء فشل العملية إلى ياتوم في اتصال هاتفي من رئيس محطة الموساد في السفارة الإسرائيلية في عمّان. وتفيد التقارير بأن كلا الرجلين كانا غاضبين من تلك الكارثة.

في الوقت الذي وصل فيه ياتوم إلى مكتب نتنياهو، كان رئيس الوزراء قد تلقّى مكالمة هاتفية من الملك حسين عبر الخط الساخن الذي يصل بين القائدين للتعامل مع الأزمات. ووصف أحد ضباط الاستخبارات الإسرائيلية تلك المكالمة لاحقاً بقوله: "كان لدى حسين سؤالان لنتنياهو. ما الذي قمتم به وعلى من تلعبون؟ هل لديكم ترياق لغاز الأعصاب؟"

قال الملك إنه يشعر مثل رجل قام أعز أصدقائه باغتصاب ابنته، وأنه إذا حاول نتنياهو إنكار أي شيء، من الأفضل أن يفهم أن عميليه قد أدليا باعترافات كاملة مصورة، وهي في طريقها الآن إلى واشنطن لتشاهدها مادلين أولبرايت وزيرة خارجية الولايات المتحدة. جلس نتنياهو في مكتبه وقد انحنى فوق الهاتف "مثل أي شخص تم إلقاء القبض عليه ويداه في درج النقود".

عرض نتنياهو السفر مباشرة إلى عمّان لشرح الأمور للملك. طلب منه الملك عدم إضاعة الوقت. يستعيد ضابط الاستخبارات تلك اللحظة: "يستطيع المرء سماع

الصوت الجليدي على الخط من الأردن. ولم يعترض نتنياهو حتى عندما أخبره الملك حسين أنه يتوقع من إسرائيل إطلاق سراح الشيخ أحمد ياسين [قائد حماس الذي كانت إسرائيل تحتجزه منذ بعض الوقت]، إضافة إلى عدد من الأسرى الفلسطينيين. ولم تستغرق المكالمة سوى بضع دقائق. ولا بد أنها كانت أسوأ لحظة في حياة نتنياهو السياسية".

اتخذت الأحداث زخماً خاصاً بها بعد ذلك. وفي غضون ساعة واحدة فقط، تم إرسال ترياق لغاز الأعصاب إلى عمّان على متن طائرة عسكرية إسرائيلية، حقن مشعل به، والذي بدأ يتماثل للشفاء. في غضون أيام، استطاع استعادة عافيته بما يكفي للظهور في مؤتمر صحفي سخر فيه من الموساد. عقد رئيس محطة الموساد في عمّان ورئيس جهاز مكافحة التجسس اجتماعاً قصيراً تحدثا فيه إلى ياتوم عبر الهاتف. وعد مدير الموساد بعدم القيام بأي محاولة اغتيال أخرى على الأراضي الأردنية، وأجرت مادلين أولبرايت في اليوم التالي مكالمتين قصيرتين مع نتنياهو؛ وأوضحت موقفها مما جرى، كانت لغتها قاسية أحياناً مثل لغة الملك حسين.

استدعت كندا سفيرها من إسرائيل بعد أن علمت كيف تم استغلال جوازات سفرها؛ وهي خطوة تسبق قطع العلاقات الدبلوماسية.

عندما بدأت التفاصيل بالظهور، تعرّض نتنياهو لانتقادات لاذعة في الصحافة الإسرائيلية والعالمية كانت ستدفع أي مسؤول آخر للاستقالة.

في غضون أسبوع، تم إطلاق سراح الشيخ ياسين، وعاد ليلقى استقبال الأبطال في غزة. بعدها عاد كل من كيندال وبيدس إلى إسرائيل دون جوازي سفرهما الكنديين اللذين تم تسليمهما إلى السفارة الكندية في عمّان من أجل "الاحتفاظ بهما بأمان".

لم يعد عميلا الكاستا إلى وحدة كيدون أبداً؛ وتم إسناد مهام مكتبية لهما في مقر قيادة الموساد. وقال أحد ضباط الاستخبارات: "هذا يعني أنهما سيكونان مسؤولين عن الأمن في حمامات المبنى".

لكن رئيس الموساد ياتوم أصبح مثل البطة العرجاء. وشعر ضباطه بأنه فشل في التصدي لنتنياهو. انخفضت المعنويات في الموساد كثيراً، وسرّب مكتب رئيس الوزراء الفكرة القائلة إنها "مجرد مسألة وقت قبل أن يغادر ياتوم منصبه".

حاول ياتوم الإيحاء بأن أحد ضباط الموساد الكبار يحاول استغلال "موجة الأسى الكبيرة التي نغرق بها جميعاً". تبنّى ياتوم ما كان يدعوه "موقف البروسي"، ووصل به الأمر إلى تهديد موظفيه، وكان هناك مواجهات غاضبة وتهديدات بالاستقالة.

في شباط سنة 1998، استقال ياتوم نفسه في محاولة لقطع ما كان يدعوه تمرد قريب. ولم يرسل رئيس الوزراء نتنياهو رسالة الشكر المعتادة إلى رئيس استخباراته المستقيل لخدماته التي قدّمها.

غادر ياتوم منصبه مع ظهور أولى الدلائل عن عملية اغتيال رئيس الوزراء رابين. وقام صحفي متخصص بالتحقيقات الجنائية يدعى باري شاميش شخصياً بجمع التقارير الطبية وتلك المتعلقة بالمقذوفات وإفادات شهود العيان من حرّاس رابين الشخصيين، وأرملته، والجراحين، والممرضات، إضافة إلى تقارير ضباط الاستخبارات الإسرائيليين الذي تحدث إليهم. تم الكشف عن معظم تلك المعلومات في قاعات مغلقة.

بحلول سنة 1999، بدأ شاميش - مخاطراً بنفسه - بنشر ما وجده في معلومات على الإنترنت. كان هناك ردّ غريب عن الشكوك المثارة حول وجود رجل مسلح وحيد في عملية اغتيال جون كينيدي سنة 1963. ناقش شاميش بأن النتائج التي ظهرت مخادعة، واستنتج أن "نظرية الرجل المسلح، التي قبلت بها لجنة شامغر الحكومية الإسرائيلية في اغتيال رابين ليست سوى غطاء لفشل الاغتيال المنهجي لشعبية رابين الكبيرة جداً لدى جمهور الناخبين. ووافق يغال عمير على لعب دور الرجل المسلح الوحيد لصالح المشرف أو المشرفين عليه في مجتمع الاستخبارات الإسرائيلية.

"أطلق عمير رصاصة فارغة، ولم يُطلق سوى رصاصة واحدة وليس ثلاث. أظهرت نتائج الاختبارات التي قامت بها الشرطة الإسرائيلية أن المقذوفات التي تم إيجادها في مسرح الجريمة لا تتطابق مع سلاح عمير. ولم يشاهد أحد رابين ينزف دماءً. ثم هناك سر في كيفية ضياع سيارة رابين لمدة تتراوح بين ثماني واثنتي عشرة دقيقة على طريق لا يستغرق سلوكه سوى 45 ثانية للوصول إلى المستشفى في شوارع خالية تحاصرها الشرطة لضمان سلامة سباق السلام الذي كان رابين يحضره".

يقول أكثر ادعاءات شاميش خطورة؛ مثل كل المزاعم الأخرى التي قدّمها، لكن هذا الأخير لم يدحضه أي مسؤول إسرائيلي في السلطة: "خلال تلك الرحلة الغريبة إلى المستشفى التي قادها سائق خبير جداً، تم إطلاق رصاصتين حقيقيتين على رابين جاءتا من مسدس حارسه الشخصي يورام روبن. واختفى مسدسه في المستشفى، ولم يتم العثور عليه أبداً. ضاعت الرصاصتان اللتان تم استخراجهما من جثة رئيس

الوزراء لإحدى عشرة ساعة. وانتحر روبن فيما بعد".

تحدث شاميش إلى الجراحين الثلاثة الذين كانوا متواجدين في غرفة العمليات، والذين كافحوا لإنقاذ حياة رئيس الوزراء. ناقش المراسل معهم شهادة ضباط الشرطة الذين كانوا موجودين عندما أطلق عمير النار. شهد كل الضباط بأن إسحاق رابين لم يكن مصاباً بأي جروح عندما تم وضعه في السيارة، وعندما وصل رئيس الوزراء أخيراً إلى المستشفى، كانت تظهر عليه إشارات واضحة نتيجة تعرّضه لجروح كبيرة في الصدر وأضرار بالغة في النخاع الشوكي في منطقة أسفل الرقَبة. أصرّ الجراحون بأنه لا يمكن للجروح الناتجة عن إطلاق النار أن تجعل رابين يغادر موقع الهجوم دون دليل على وجودها، وأن يصل إلى المستشفى مصاباً بأضرار جسدية بالغة.

توصلت لجنة شامغر إلى نتيجة مفادها أن لا يوجد دليل لتأكيد حصول تلك الإصابات. لقد رفض الأطباء في وقت لاحق مناقشة المسألة. وخارج نطاق التحقيق الخاص الذي قام به شاميش، لم تكن هناك شهادة مستقلة تحت القسم لتأييد زعمه بأن "ما حصل عميق وينطوي على مؤامرة".

لدى الاستماع إليه، أخبر عمير المحكمة: "إذا قلت الحقيقة، سينهار النظام كله. أعرف ما يكفي لتدمير هذا البلد".

شهد عميل للشين بيت كان قريباً من عمير عندما أطلق النار على رابين: "سمعت شرطياً يطلب من الناس الهدوء. الرصاصة خلّبية". وأدلى ذلك الرجل بشهادته في محكمة مغلقة.

قالت ليا رابين في نفس الجلسة أن زوجها لم يترنح ويسقط بعدما تعرّض لما كان يبدو أنه رصاصة من مدى قريب. "كان يقف ويبدو جيداً". أصرّت أيضاً أنها مُنعت من رؤية زوجها لساعة كاملة بعد وصولها إلى المستشفى، ووفقاً لشاميش فقد أخبرها ضابط استخبارات كبير بأنها يجب أن "لا تقلق لأن كل شيء تحت السيطرة".

رفضت أرملة رئيس الوزراء بثبات التعليق علناً على هذه المعلومات أو أي شيء يتعلق بمقتل زوجها، ويعتقد شاميش أن صمتها ناجم عن الخوف مثل السبع عشرة ممرضة في المستشفى الذي تم نقل رابين إليه في ذلك اليوم. "كانت الخطة شريرة وذكية. لقد أقنعوا رابين بأن يقوم شخص ما بإطلاق الرصاص عليه لمساعدته على زيادة شعبيته. لهذا لم يكن يرتدي السترة الواقية من الرصاص. وتم اختيار عمير بعناية ليكسب شهرة في غضون خمس عشرة دقيقة. كان مجرد مغفّل في أيدي المشرف أو المشرفين عليه".

لم يقدّم باري شاميش صورة واضحة عن "تفاصيل المؤامرة"، وهو حريص جداً فيما يكتبه، ويغطّي كل دليل بشهادة معزّزة. ولم يكن متسرعاً في إطلاق الأحكام، وأعطى الانطباع بأن هناك المزيد من التفاصيل التي يستطيع تقديمها؛ لكن ليس بعد. والشيء المؤكد هو أن شاميش يسير في طريقه الخاص، ولا يدين بالفضل لأحد، والأهم من ذلك أنه موضع ثقة.

لقد وضع كل الأدلّة التي بحوزته لغاية الآن على الإنترنت، وهو يقوم بذلك كضمان له من جهة، ولأنه يريد كشف الحقيقة من جهة أخرى. وهو واقعي بما يكفي لقبول فكرة أن الحقيقة قد لا تطفو على السطح أبداً بشكل يمكن أن تقبله أي محكمة قانونية.


صفحة فارغة

الفصل السابع

الجاسوس النبيل

في صبيحة يوم ربيعي رطب من سنة 1997، أرشد ديفيد كيمش عاملي الحدائق العــرب إلى ما يريد فعله بحديقته في ضاحية تل أبيب. لم يكن واثقاً مما يريد، وكان صوته العذب مناسباً للاستخدام ضمن حرم جامعي أكثر من التعامل مع عمّال عاديين، كان يوحي بأن كيمش متحدّر من جيل من الإداريين الذين رفعوا العلم البريطاني فوق أراضٍ نائـــية. كـــيمش ابن لعائلة يهودية بريطانية من الطبقة الوسطى، وكانت مسيرة حـــياته بعـــيدة عـــن الخطـــأ، وهو ما عمّق من صورته كرجل إنكليزي مثالي. تؤكّد الملابـــس الغالـــية الثمن على رجل أنيق يحافظ على رشاقته ويتّبع حميةً قاسية. كان كـــيمش يـــبدو أصغر بعشرين سنة من عمره الحقيقي الذي يقترب من الستين، وكانت تلـــك ميزة خاصة به. كانت إيماءاته الخاصة أثناء إعطاء التعليمات للعاملين – إبعاد الشعر عن جبهته، والتوقف مطولاً عن الكلام، والتحديق العميق – توحي بأنه أمضى حياته معزولاً في حرم جامعي.

فـــي الحقـــيقة، كـــان ديفـــيد كيمش ما يدعوه مير عميت "إحدى محطات التوليد الفكـــرية" خلف الكثير من عمليات الموساد. كانت مهاراته الفكرية مصحوبة بأعصاب فولاذيـــة، وتجمـــع بيـــن الحذر الشديد والحركات غير المتوقعة إطلاقاً والتي تحصل بســـرعة على احترام الزملاء الساخرين. لكن طريقة تفكيره كانت تجعلهم في الغالب يحـــافظون علـــى مســـافة منه؛ كان بعيداً جداً وتجريدياً حيال أساليبهم التقليدية. شعر الكثيرون مثل رافي إيتان: "إذا قلت صباح الخير لديفيد، سيعمل فكره على تحليل ذلك الخير، وكم بقي من الصباح قبل أن ينتهي".

كان كيمش يعتبر على نطاق واسع ضمن الموساد صورة مصغّرة عن الجاسوس النبـــيل، والذي يتمتع بدهاء قط بري متوحش. بدأت رحلته ضمن الموساد بعدما أنهى دراســـته فـــي جامعـــة أوكســـفورد بحصوله على المركز الأول بين خريجي العلوم الاجتماعـــية ســـنة 1968. بعد عدّة شهور، جنّده الموساد الذي كان حينها بقيادة مير

عميـت، الـذي كان يسعى لإدخال خريجين جامعيين لامعين إلى صفوفه لتتكامل مع قسوة رجال مثل رافي إيتان الذين تعلّموا مهاراتهم في الميدان.

كيف، ومتى ومن جنّد كيمش سيبقى شيئاً محفوظاً للأبد وراء قفل ومفتاح. قدّمت طاحونـة الإشاعات في مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي عدّة سيناريوهات: إحدى تلك الشائعات تشير إلى أن تجنيده حدث أثناء تناول العشاء مع ناشر يهودي في لندن، كان سـايان لفـترة طويلة؛ فيما تشير شائعة أخرى أنه تلقّى العرض في مكتب حاخام في كنيس غولدرز غريين؛ فيما تقول إشاعة أخرى إن قريباً بعيداً قام بالخطوة الأولى.

الحقيقة الوحيدة هي أنه في أحد أيام الربيع في بداية الستينيات، دخل كيمش مقر قـيادة الموسـاد في تل أبيب باعتباره العضو الجديد في قسم **التخطيط والاستراتيجية**. وكانت تتوزع على جوانب المقر عدة مكاتب تجارية ومقهى وفرع لمصرف إسرائيل. انـتظر كـيمش فـي البهو الذي يشبه الكهف لأنه لم يكن يعرف ما يفعل أو إلى أين يذهب. لقد كان ذلك مختلفاً جداً عن المدخل المهيب لمقر السي آي أيه الذي قرأ عنه. تعلـن وكالـة الاستخبارات الأميركية عن وجودها بفخر في لانغلي مع رخام يغطي الأرضية وست عشرة نجمة مرصعة على درع يهيمن عليه رأس نسر أصلع، وكلمات تقول: "وكالة الاستخبارات المركزية للولايات المتحدة الأميركية". ويوجد على الحائط الكلمات التي قالها يوحنا المعمدان حول الناس الذين تحررهم الحقيقة. وخلف اللوحة، هناك مجموعة مصاعد يحميها حرّاس مسلحون.

لكـن هـنا، في البهو الكئيب لذلك المبنى في جادة الملك سول، ليس هناك سوى موظفـي المصارف خلف مكاتبهم وأشخاص يجلسون على مقاعد المقاهي البلاستيكية. ولـم يكن أي منهم يبدو موظفاً في الموساد. في زاوية البهو البعيدة، فُتح باب عادي، وانبثق منه شخص مألوف، وهو موظف قنصلي في السفارة الإسرائيلية في لندن الذي زوّد كيمش بوثائق سفره. سار مع كيمش إلى الباب، وشرح له أن وضعه الدبلوماسي يحمي عمله الحقيقي ككاستا للموساد في بريطانيا. سلّم كيمش عند الباب مفتاحين وقيل له إنهما سيكونان من الآن فصاعداً وسيلته الوحيدة لدخول مقر قيادة الموساد. يفتح أحد المفتاحيـن الباب، فيما يفتح الآخر باب المصعد الذي يصعد عبر طوابق مقر الموساد الثمانية. كان مقر الموساد "مبنى ضمن مبنى" بمرافقه الخاصة – كهرباء، ماء وصحية – المنفصـلة عـن بقية المبنى. أصبح ذلك المبنى مقراً للموساد بعد فترة قصيرة من انتهاء حرب السويس سنة 1956.

في تشرين الأول من تلك السنة، شنّت القوات البريطانية، والفرنسية والإسرائيلية عدوانـاً مشتركاً ضد مصر لاستعادة قناة السويس، التي أمّمها الرئيس المصري جمال

عــبد الناصر. لقد كان ذلك العدوان ذروة دبلوماسية القوة التي هيمنت على المنطقة لفترة طويلة. لم يكن لدى الولايات المتحدة أي معرفة سابقة بالغزو والذي تحول ليكون الــرمق الأخير في سيطرة كل من البريطانيين والفرنسيين على الشرق الأوسط. بذلت واشــنطن ضــغطاً دبلوماســياً هــائلاً لوقف القتال، وكانت تخاف من تدخل الاتحاد الســوفياتي فــي الــنــزاع إلــى جانــب مصر مما سيؤدي إلى مواجهة بين القوتين العظمتيــن. عندما انتهى القتال على ضفاف قناة السويس، وجدت بريطانيا وفرنسا أن دورهمــا كقوى أجنبية مهيمنة في الشرق الأوسط قد تراجع لحساب الولايات المتحدة. لكــن إسرائيل أصرّت على الاحتفاظ بالأرض التي احتلتها في صحراء سيناء. سافر ريتشارد هيلمز، المدير القادم للسي آي أيه، إلى تل أبيب واستقبله كبار ضباط الموساد في مقر قيادتهم. عامل هؤلاء الضباط هيلمز مثل "مجموعة من السماسرة بكل لطف".

شرح الدليل لكيمش – فيما كانا يصعدان بالمصعد – أن الطابق الأول يوجد فيه مركــز التنصــت والاتصــالات؛ فيما توجد مكاتب الضباط ذوي الرتب الصغيرة في الطــابق الثاني. أما الطوابق العليا فمخصصة للمحللين، والمخططين، وفرق العمليات. يقع قسم التخطيط والاستراتيجية في طابق خاص به. وفي الطابق الأخير هناك مكاتب المدير العام ومساعديه.

حصــل كيمش على مكان ضمن المخططين والاستراتيجيين. كان مكتبه مزوداً بتجهــيزات كثــيرة مثل كل المكاتب الأخرى: طاولة خشبية رخيصة، وخزانة ملفات فولاذيــة مزودة بمفتاح واحد فقط، وهاتف أسود ودليل داخلي مختوم بعبارة **لا تنقله**. وتُكمــل قطعــة ســجاد صغيرة الأثاث. كان المكتب مطلياً باللون الأخضر الزيتوني، ويطــل علــى مشــهد واسع للمدينة. خلال الثلاثة عشر عاماً التالية، شهد مقر قيادة الموساد علامات على اهتراء الأثاث والتجهيزات؛ وسقط الطلاء عن بعض الجدران، وأصبح السجاد بحاجة للتبديل.

لكن رغم هذه النواقص، شعر ديفيد كيمش بأنه وصل في وقت زاخر بالأحداث. كان مير عميت على وشك المغادرة ليخلفه بعد وقت قصير رافي إيتان وضباط موساد آخرون رفيعو المستوى.

تضمن جزء من عمل كيمش مراقبة الأوضاع في المغرب؛ الذي كان يعيش فيه عدد كبير من اليهود في ظل حكم الملك الحسن. في محاولة لجعل حياتهم أسهل، أنشأ مــير عميــت علاقة عمل مع جهاز الأمن المغربي، ووجد سبباً مشتركاً معه للإطاحة بالرئــيس المصري ناصر، والذي كان يكره إسرائيل بنفس القدر الذي كان لا يود به

الملـــك. كان ناصر يرى في الملكية عائقاً أمام حلمه لإقامة اتحاد عربي قوي من قناة السـويس إلـى المغـرب على سواحل الأطلسي. وحثّ التهديد الذي يشكّله مثل هذا الـتحالف مـير عميـت على تدريب رجال الملك على الأنشطة المضادة للجاسوسية وتقنيات الاستجواب التي تتضمن تعذيباً قاسياً.

عاشـت معارضة صغيرة لكنها قاسية أيضاً ضمن المغرب، كان يقودها المهدي بـن بركة. تابع كيمش حياة بن بركة العملية: مدرّس الملك الخاص، والرئيس السابق للجمعـية الوطنـية المغربية الاستشارية، وهي برلمان لا يمتلك الصلاحيات ولا يقوم سـوى بالتصديق على المراسيم. أخيراً، أصبح بن بركة صوت المعارضة الموثوق، وتمكّـن بـن بركة مراراً وتكراراً من تفادي إلقاء القبض عليه من قبل رجال الملك. ولكـن لأنـه يعرف أنها مجرد مسألة وقت قبل أن يُعتقل، هرب المدرّس السابق ذو الشخصية المتميزة إلى أوروبا. واستمر من هناك بالتخطيط لإسقاط الملكية.

كانـت حركة المقاومة الصغيرة لكن الفعّالة التي ترأسها بن بركة قريبة مرتين مـن النجاح في قلب النظام. أمر الملك الساخط بمحاكمة بن بركة غيابياً، حيث صدر بحقه حكم بالإعدام، كان ردّ فعل بن بركة بأن أمر أنصاره بشنّ المزيد من الهجمات.

في أيار سنة 1965، طلب الحسن المساعدة في التعامل مع بن بركة. وتم إسناد مهمـة تقيـيم الطلـب إلى ديفيد كيمش. سافر كيمش في وقت لاحق من ذلك الشهر مسـتخدماً جواز سفره البريطاني إلى لندن. كان ظاهرياً في إجازة، ولكنه في الحقيقة كـان يضـع اللمسات الأخيرة على خطته. لقد زوّده سايان بجواز سفر بريطاني آخر مـزوّر بعناية، ووضع عليه تأشيرة دخول بريطانية؛ ثم سافر كيمش إلى روما؛ حيث أمضى يوماً هناك في التجول في المدينة - حركة للتأكّد بأن أحداً لا يتبعه - ثم سافر إلى المغرب.

اسـتقبله محمـد أوفقير في مطار الرباط، وهو وزير الداخلية المخيف. في تلك اللـيلة، وعلـى مأدبـة عشاء مفعمة بالحيوية بحضور أفضل راقصي البلاد، أوضح أوفقـير ما يريده الملك: رأس بن بركة. أظهر أوفقير مزيجاً من حس الدعابة السمجة والـتقدير للـتاريخ الـيهودي، وأضـاف: "بالنتيجة، طلب سالوم اليهودي من الملك هيرودتس رأس مثير المتاعب".

قـال كيمش إنه رغم أن ذلك صحيح، لكن ذلك ليس من صلاحياته، وأن أوفقير يجـب أن يعود معه لمقابلة مير عميت في منـزل آمن، وكان مؤدباً لكن حذراً. أخبر كـيمش أنـه "غير مهتم كثيراً" بأن يقوم بعمل أوفقير القذر، وأصرّ على أن "اشتراكنا يجب أن يكون محصوراً بالأعمال التحضيرية".

مـا لم يكن معروفاً لمير عميت أن أوفقير عقد اتفاقاً مع قسم ضمن الاستخبارات السـرية الفرنسية SDECE لقتل بن بركة إذا أمكن استدراجه خارج منـزله المحصّن فـي جنيف وعبر الحدود السويسرية إلى فرنسا. أصرّ مير عميت، الذي كان لا يزال متردداً، علـى أن رئيس الوزراء ليفي أشكول يجب أن يوافق على اشتراك الموساد شخصياً. وافق رئيس الوزراء على اشتراك الموساد.

انطلـق الموسـاد للعمل. وسافر كاستا مولود في المغرب إلى جنيف وتسلل إلى دائـرة بن بركة. خلال بضعة أشهر، زرع العميل بحرص الفكرة بأن لديه اتصالاً مع مليونير فرنسي متعاطف مع بن بركة، والذي يرغب بأن تحل الديمقراطية الحقيقية في المغـرب. كان كيمش من ابتدع تلك القصة، وفي 26 تشرين الأول سنة 1965، علم كيمش أن بن بركة، مثل "المسكيّة القرمزية"، على وشك السفر إلى باريس.

أرسـل مركز اتصالات الموساد رسالة مشفّرة إلى أوفقير في المغرب. في اليوم التالـي، سـافر الوزير برفقة فريق صغير من رجال الأمن إلى باريس. تلقّى الوزير تقريراً من قسم SDECE في تلك الأمسية، واتصل عميل الموساد الذي رافق بن بركة إلـى العاصمة الفرنسية - والذي تم استثناؤه من الاجتماع - مع كيمش عبر خط آمن لتلقّـي التعليمات. استشار الأخير مير عميت، واتفق الاثنان كما قال عميت بأنه: "يتم طبخ شيء بشع، ويجب أن نبقى حذرين جداً".

تمركزت شاحنة تنصت تابعة للاستخبارات الفرنسية في الليلة التالية خارج المطعم الـذي وصـل إليه بن بركة لتناول العشاء في مقاطعة سان جيرمان. كان يعتقد أنه قادم للقـاء المليونـير. بعـد أن انتظر ساعة كاملة ولم يظهر أحد، غادر بن بركة المطعم. وحالما توقف على الرصيف، أمسك به عميلان من SDECE وسحباه إلى الشاحنة. اقتاداه إلـى فـيلا في مقاطعة فونتيناي - فيكومت التي كان جهاز SDECE يستخدمها من وقت لآخر لاستجواب المشتبه بهم. طيلة الليل، أشرف أوفقير على استجواب بن بركة وتعذيبه حـتى تـم إعدام الرجل المنهار أخيراً عند الفجر. التقط أوفقير صوراً للجثة قبل أن يتم دفنها في حديقة الفيلا، سافر الوزير إلى وطنه مع الفيلم.

عـندما تـم اكتشاف الجثة، تعالت الصيحات في كل فرنسا حتى وصلت القصر الرئاسـي. عـندها أمـر شارل ديغول بإجراء تحقيق لم يسبق له مثيل قاد إلى إجراء تغييرات هائلة في جهاز SDECE. جاهد مدير SDECE، المهتم بالمحافظة على التنسيق مـع أجهـزة الاستخبارات الأخرى، لإبقاء اسم الموساد خارج الصورة. لكن ديغول، الـذي لـم يكـن صديقاً لإسرائيل، كان مقتنعاً أن الموساد كان متورطاً. أخبر ديغول

مســـاعديه بـــأن العملـــية تحمل "علامات تل أبيب". وقال إن الإسرائيليين وحدهم من يتجاهلون القوانين الدولية لهذا الحدّ. لقد أنهت تلك العملية ما كان مرة علاقة وثيقة بين إســـرائيل وفرنســـا، والتي نشأت في حرب السويس سنة 1956. أمر ديغول مباشرة بإيقـــاف إمـــدادات الأسلحة إلى إسرائيل، إضافة إلى التعاون الاستخباراتي. وفي هذا السياق يقول مير عميت إنه "يتذكّر المشاكل التي جاءت مثل أمطار باريس".

بالنسبة لكيمش: "كانت طريقة إدارة مير عميت للموقف نبيلة. كان بمقدوره إلقاء اللـــوم علـــيّ أو على الآخرين المشاركين في العملية. وعوضاً عن ذلك، أصرّ على تحمّل كامل المسؤولية. كان قائداً حقيقياً".

نأت حكومة رئيس الوزراء إشكول، التي عانت من ردّ فعل باريس، بنفسها عن رئيس الموساد، وجاءت انتقادات أخرى من مصدر غير متوقع. كلما جادل مير عميت بـــأن دور الموســـاد كـــان ثانوياً، ولم يتعدَّ "تقديم عدّة جوازات سفر واستئجار بعض الســـيارات، كلما أصرّ سلفه آيسر هاريل على أن قضية بن بركة ما كانت لتحدث أبداً في أيامه. حذّر مير عميت رئيس الوزراء بأن كليهما سيتعرضان للنقد. أصدر إشكول أمـــراً بتشكيل لجنة تحقيق ترأستها وزيرة الخارجية غولدا مائير. وتوصلت اللجنة إلى نتـــيجة مفادهـــا أن على مير عميت الاستقالة، لكنه رفض حتى يستقيل إشكول أيضاً، واستمر المأزق، ومضت سنة كاملة قبل أن يعتبر مير عميت أن موت بن بركة لم يعد يثير المشاكل بالنسبة له. لكن تلك لم تكن سوى هدنة مؤقتة.

كـــان لـــدى كيمش أمور أخرى يهتم بها طوال تلك الفترة. كان الفلسطينيون قد درّبـــوا ســـراً وحدة مغاوير لاستغلال ضعف استخباراتي لم يتوقع به حتى الموساد: اخـــتطاف طائرات في الجو، وحالما يتم الاستيلاء على الطائرة في الأجواء، يجب أن تتجه إلى بلد عربي صديق، ويجب احتجاز المسافرين هناك حتى تلبية مطالب معينة؛ إما الحصول على مبالغ مالية كبيرة لقاء حريتهم، أو مبادلتهم بأسرى عرب تحتجزهم إســـرائيل، وســـتكون الدعاية العالمية التي ستحصل عليها منظمة التحرير الفلسطينية بمثابة مكافأة إضافية.

فـــي تمـــوز سنة 1968، تم اختطاف طائرة العال المتجهة من روما وتحويلها إلى الجزائر. كان الموساد مندهشاً من جرأة العملية. سافر فريق من الكاستا إلى الجزائر فيما عمـــل كيمش والمخططون الآخرون على مدار الساعة تقريباً لوضع استراتيجية لتحرير المســـافرين الخائفين. لكن أي محاولة لاقتحام الطائرة كان يعيقها حضور وسائل الإعلام العالمـــية التي تغطي الحدث. أوصى كيمش باللعب على عامل الوقت على أمل أن تفقد

القصــــة بـــريقها ويســـتطيع الكاستا التحرّك. لكنّ المختطفين كانوا منتبهين لذلك، وبدأوا بـــإطلاق تهديـــدات مخـــيفة في حال لم تتم تلبية مطلبهم المتمثل بإطلاق سراح السجناء الفلســـطينيين فـــي السجون الإسرائيلية. دعمت الحكومة الجزائرية المختطفين، وأدرك كـــيمش: "كنا بين المطرقة والسندان"، وكان من بين أولئك الذين اقترحوا بأن تتم مبادلة السجناء بالمسافرين، كان يعرف "تمام المعرفة آثار مثل هذا العمل. وأنه سيمهّد الطريق لحـــدوث عملـــيات اختطاف أخرى، وأن أعمال منظمة التحرير الفلسطينية ستحظى من الآن فصـــاعداً بتغطـــية إعلامـــية كبيرة، وأن إسرائيل وجدت نفسها في موقف دفاعي، وكذلـــك الحكومات الغربية التي لم يكن لديها حلول لعمليات الاختطاف. إذاً ما الذي كان يمكننا فعله سوى انتظار عملية الاختطاف التالية؟"

توالـــت عمليات الاختطاف فعلاً، وكانت كل واحدة أفضل تحضيراً من سابقتها، وخلال وقت قصير، تعرّضت ما يزيد عن ست طائرات ركّاب أخرى للاختطاف من قـــبل أشـــخاص لـــم يكونـــوا خبراء في إخفاء الأسلحة ووضع المتفجرات على متنها وحســـب، إنما كانوا مدرّبين على قيادة الطائرات، ويعرفون مهام طاقمها بدقة. تدرّب الخاطفون في الصحراء الليبية على تبادل إطلاق النار في منطقة محصورة مثل قمرة الطائرة، وكانوا يعرفون أن العال وضعت حرّاساً مسلحين على طائراتها، وكان وضع الحـــراس أحد الترتيبات الأولى التي نصح بها كيمش. كان يتوقع بشكل صحيح أيضاً بأن المختطفين يعرفون قوانين البلاد المختلفة التي سيدخلون ويخرجون منها، وأنه في حـــال إلقـــاء القبض عليهم سيقوم زملاؤهم باستخدام تلك القوانين لضمان حريتهم عن طريق المساومة أو التهديد.

كـــان كـــيمش يعرف أن الموساد يحتاج بسرعة لحادثة تمكّن الجهاز من التغلب علـــى المختطفيـــن فـــي المهارتيـــن المعروفتين عنه: الدهاء والقسوة. ومثلما استخدم المختطفون الدعاية بفاعلية، أراد كيمش عملية تكون بمستوى الثناء العالمي الذي تلقّته إســـرائيل بعد اختطافها أدولف إيتشمان. يجب أن تكون تلك الحادثة مفعمة بالتشويق، وخطـــيرة نوعاً ما، ونتائجها محسوبة سلفاً. ويجب أن تجتمع هذه العناصر لإظهار أن الموساد ما زال يقود القتال.

فـــي 27 حزيران سنة 1976، تم اختطاف طائرة تابعة للخطوط الفرنسية مليئة بالـــركاب اليهود في رحلتها من تل أبيب إلى باريس بعد توقفها في مطار أثينا، السيئ الصـــيت بالـــنظر إلى إجراءاته الأمنية المتساهلة. كان المختطفون أعضاء في فصيل وديع حدّاد المتشدّد، وكان لديهم مطلبان: إطلاق سراح الأربعين فلسطينياً في السجون

الإســـرائيلية، إضـــافة إلـــى بعض العشرات منهم المحتجزين في السجون الأوروبية، بالإضافة لإطلاق سراح إرهابيين ألمانيين تم إلقاء القبض عليهما في كينيا عندما حاولا إسقاط طائرة شركة العال بصاروخ سام 7 فيما كانت تقلع من مطار نيروبي.

بعــد توقفها في الدار البيضاء، وعدم السماح لها بالهبوط في الخرطوم، اتجهت الطائرة إلى عينتب في أوغندا. أعلن المختطفون هناك أنهم سينسفون الطائرة بركابها ما لم تتحقق مطالبهم. كان الموعد النهائي لذلك في 30 حزيران.

فـــي جلســـة مغلقـــة لمجلس الوزراء في تل أبيب، اختفت الصورة العامة لعدم الاستســـلام للإرهاب. فضّل الوزراء إطلاق سراح سجناء منظمة التحرير الفلسطينية لدى إسرائيل. قدّم رئيس الوزراء رابين تقريراً للشين بين يقول إنها ستكون سابقة في إطـــلاق ســـراح مجرمين مدانين، وأعلن رئيس الأركان مردخاي غور بأنه لا ينصح بالقـــيام بـــأي عمـــل عســـكري نظراً لشحّ المعلومات الاستخباراتية في عينتب. فيما اســـتمرت مناقشـــاتهم المؤلمـــة، جاءت أخبار من عينتب بأنه جرى فصل المسافرين اليهود عن الآخرين على متن الطائرة – تم إطلاق سراح هؤلاء المسافرين وكانوا في طريقهم إلى باريس.

كانت تلك الفرصة التي احتاجها الموساد. جادل رئيس الموساد إسحاق هوفي – فـــيما كان يعتبر أفضل فرصة له – بقوة وحماسة للقيام بعملية إنقاذ. نفض الغبار عن الخطـــة التي استخدمها رافي إيتان لإلقاء القبض على إيتشمان. كان هناك نقاط تشابه: عمـــل رافـــي إيـــتان ورجالـــه بعيداً عن الوطن في بيئة معادية، وارتجلوا في عملهم مســـتخدمين الخـــداع؛ الميزة اليهودية المعروفة. يمكن القيام بذلك مجدداً. كان هوفي يتصـــبّب عرقاً، وقد أصبح صوته أجشاً من النقاش والجدال عندما غادر غرفة مجلس الوزراء.

"إذا تركنا شعبنا يموت، سيفتح ذلك بوابات الفيضان. ولن يكون أي يهودي بأمان في أي مكان. وسيحرز هتلر انتصاراً من القبر!" أخيراً قال رابين: "جيد. سنحاول".

كمـــا هـــو حال كيمش، استنفر كل استراتيجي ومخطط آخر في الموساد. كانت الخطـــوة الأولى فتح قناة اتصال آمنة بين تل أبيب ونيروبي؛ كان هوفي قد عمل على تقوية علاقة الاستخبارات غير المعلنة بين الموساد ونظيرتها الكينية والتي أنشأها مير عميـــت، وقـــد بـــدأت العلاقة تؤتي بنتائج فورية. تم وضع ستة كاستا ترعرعوا في نيروبـــي في أحد منازل الاستخبارات الكينية الآمنة. كانوا بمثابة رأس الجسر للهجوم الرئيسي. تغلّب كيمش أثناء ذلك على مشكلة أخرى، كانت أي مهمة إنقاذ تتطلب توقفاً

في نيروبي للتزود بالوقود، استطاع من خلال الهاتف الحصول على الموافقة الكينية في غضون ساعات، والتي تم تقديمها "على أسس إنسانية".

لكن ما زال هناك مشكلة صعبة في الوصول إلى عينتب. كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد أنشأت ذلك المطار كنقطة عبور إلى أوغندا، والتي كانت المنظمة تدير عملياتها منها ضد نظام الفصل العنصري الأبيض في جنوب أفريقيا والذي كان يدعم إسرائيل. كان عيدي أمين، ديكتاتور أوغندا المستبد قد زوّد منظمة التحرير الفلسطينية فعلاً بموقع سكن السفير الإسرائيلي كمركز قيادة لها بعد قطع العلاقات الدبلوماسية مع القدس سنة 1972.

كان كيمش يعرف أنه من الضروري التأكّد من أن منظمة التحرير الفلسطينية ما زالت في البلد. وسوف يشكّل ثوارها المدرّبون جيداً قوة كبيرة للتغلب على محاولة الإنقاذ الفعلية التي لا يوجد أمامها سوى وقت قصير للغاية: لا يمكن للقوات الإسرائيلية التواجد على الأرض سوى لدقائق، وإلا فإنها ستخاطر بالتعرّض لهجوم مضاد قوي. أرسل كيمش اثنين من كاستا نيروبي بالقارب عبر بحيرة فكتوريا. ونزلا بالقرب من عينتب ووجدا أن مقر قيادة منظمة التحرير الفلسطينية مهجور؛ وأن الفلسطينيين انتقلوا مؤخراً إلى أنغولا.

ثم، وبضربة حظ تحتاجها أي عملية، اكتشف أحد ضباط الأمن الكينيين الذي رافق عملاء الموساد أن أحد أقرباء زوجته لم يكن سوى أحد الرجال الذين يحتجزون الرهائن. تسلّل ذلك الكيني إلى المطار، وكان قادراً على رؤية أن كل الرهائن بخير، وشاهد خمسة عشر حارساً متوترين وعصبيين جداً. انتقلت هذه المعلومات إلى تل أبيب باللاسلكي.

أثناء ذلك، استأجر اثنان من الكاستا المؤهلين كطيارين طائرة من طراز سيسنا وحلّقا من نيروبي، ظاهرياً ليصوّرا بحيرة فكتوريا لإعداد كتيب عن العطلات. مرّت طائرتهما فوق مطار عينتب مباشرة، وتمكن أحد الكاستا من التقاط صور جيدة لمدارج الهبوط والمباني المجاورة. وتم نقل الفيلم إلى تل أبيب جواً. أوصى كيمش هناك باتّباع استراتيجية أخرى لإرباك المختطفين.

خلال عدّة محادثات هاتفية مع قصر عيدي أمين، أوضح المفاوضون الإسرائيليون في تل أبيب أن حكومتهم مستعدة لقبول شروط المختطفين. تم استخدام دبلوماسي في قنصلية أوروبية في أوغندا لمنح مصداقية لهذا الاستسلام الظاهر، وتم الطلب منه سراً استخدام لغة مناسبة يقبلها المختطفون. أخبر كيمش المبعوث: "يجب

أن لا يكـــون هـــناك مطالـــب كثيرة من إسرائيل، لكن أيضاً ليس شيئاً يستحيل على المختطفيـــن قبوـــله". أسرع الدبلوماسي إلى المطار بتلك الأنباء، وبدأ بتجهيز كلمات مناسبة. كان ما يزال يقوم بذلك عندما وصلت عملية كرة الرعد إلى مراحلها الأخيرة.

تـــم استخدام طائرة بوينغ 707 لا تحمل أي علامات إسرائيلية كمستشفى طائر، وحطّـــت بالقـــرب من مطار نيروبي، كان يقودها طيارون IDF يعرفون مطار عينتب جـــيداً. وأثناء ذلك، حاصر ستة كاستا من الموساد ذلك المطار؛ وكان كل منهم يحمل لاسلكياً بتردد عالٍ وآلة إلكترونية ستعطّل عمل الرادار في برج المراقبة. لم يسبق أن تم استخدام تلك الأدوات أبداً في ظروف قتالية من قبل.

غـــادر خمســـون مـــن سلاح المظليين الإسرائيلي، تحت جنح الظلام، الطائرة المستشـــفى وتوجهـــوا بأقصـــى ســـرعة إلى بحيرة فكتوريا. وعبروا المياه بقواربهم المطاطـــية القابلـــة للنفخ، وانتظروا بالقرب من الشاطئ الأوغندي، مستعدين لاقتحام الطائـــرة فـــي مطار عينتب. في تل أبيب، كان هناك تدريب على تنفيذ مهمة الإنقاذ؛ وعـــندما حـــان الوقـــت، عبرت مجموعة من طائرات النقل من طراز "سي – 130 هيركولـــيس" الـــبحر الأحمر واتجهت جنوباً، وتزوّدت بالوقود في نيروبي، ثم طارت على مستوى منخفض وتسلّلت إلى مطار عينتب.

عملـــت أدوات تعطيل الرادار بشكل فعّال. وكانت سلطات المطار ما تزال تعمل لاكتشـــاف مـــا يحدث عندما هبطت ثلاث طائرات هيركوليس ومستشفى طائر. اندفع الجـــنود إلـــى المبنى الذي يُحتجز فيه الرهائن، وكانوا وقتها يهوداً فقط. كان أمين قد حرّر كل الجنسيات الأخرى، ويجلس مستمتعاً بأنه أصبح مصدر اهتمام العالم. لم يتم اســـتدعاء المظليين الذين كانوا ينتظرون في المطار للقيام بأي عمل. وعبروا البحيرة عائدين إلى نيروبي، حيث أقلّتهم من هناك طائرة نقل إسرائيلية أخرى إلى الوطن.

تـــم تحرير الرهائن وقتل كل الإرهابيين في غضون خمس دقائق – أقل بدقيقتين كاملتين من الوقت المسموح – إضافة إلى ستة عشر جندياً أوغندياً يحرسون السجناء. فقـــدت قـــوة الهجـــوم ضابطاً واحداً هو المقدم يوناتان نتنياهو، الشقيق الأكبر لرئيس الوزراء المستقبلي بنيامين نتنياهو – في وقت لاحق سيقول رئيس الوزراء نتنياهو إن تشدده ضد كل الإرهابيين جاء كنتيجة لموت يوناتان – بالإضافة إلى ثلاثة رهائن.

تم تحقيق رغبة كيمش في توجيه طعنة خاطفة للخاطفين. كانت عملية الإنقاذ في عينتـــب بمثابة مهمة تعريف عن الموساد نفسه، حتى أكثر مما كانت عليه عملية إلقاء القبض على أدولف إيتشمان.

وجـد كيمش نفسه، على نحو متزايد، منشغلاً أكثر بعمليات الموساد ضد منظمة الـتحرير الفلسطينية. كان هذا الصراع القاتل يجري خلف حدود إسرائيل، في شوارع المـدن الأوروبـية. كان كيمش أحد الاستراتيجيين الذين وضعوا الأرضية لبناء وحدة القـتل الخاصة بالموساد؛ كيدون. قام أفراد تلك الوحدة بعمليات في باريس، وميونيخ، وقبرص، وأثينا. كان القتل بالنسبة لكيمش يتم عن بعد؛ وكان مثل قائد القاذفة الذي لا يـرى مكان سقوط قنابله. ساعدت عمليات القتل تلك على انتشار مزاج مستمر ضمن الموساد بأن أفراده لا يُقهرون: كانت المعلومات الدقيقة التي تأتي من المخططين تعني أن أفراد كيدون متقدمون دائماً بخطوة على العدو.

وصل كيمش في صبيحة أحد الأيام إلى عمله ليجد زملاءه في حالة من الصدمة. لقـد اغتال أحد مسلحي منظمة التحرير الفلسطينية أحد أكثر عملائهم خبرة في مدريد. حصل الاغتيال عندما كان عمل ذلك الكاستا يتطور في عملية لاختراق المجموعة.

لكـن لـم يكن هناك وقت للحزن. اشترك كل شخص متوفر في مهمة الردّ على النار بالنار. وكانت تلك الفترة بالنسبة لكيمش: "لم نتوقّع أي رحمة منهم، ولم نرحمهم بالمقابل".

استمر الضغط القاسي لاكتشاف طرق جديدة للاقتراب من قيادة منظمة التحرير الفلسـطينية وإيجاد ما يكفي من المعلومات حول أعمالها الداخلية لاغتيال قادتها. كان الأمـر بالنسبة لكيمش: "كان قطع الرأس الطريقة الوحيدة لإيقاف اهتزاز الذيل". كان ياسر عرفات الرأس الأول على قائمة أهداف كيدون.

بدأ ذهن كيمش ينشغل بتهديد آخر أكثر جديةً: احتمال اندلاع حرب ثانية واسعة الـنطاق مع العرب تقودها مصر ضد إسرائيل. لكن الموساد لم يكن إلاّ صوتاً وحيداً فـي مجـتمع الاستخبارات الإسرائيلي. ورفضت الاستخبارات العسكرية *أمان* الأخذ بأسـباب قلق كيمش التي نقلها المشرفون عليه. وبيّن استراتيجيوها أن مصر طردت للتو عشرين ألف مستشار عسكري سوفياتي من أراضيها مما يعني دلالة واضحة على أن الرئيس المصري أنور السادات يبحث عن حل سياسي في الشرق الأوسط.

لـم يقتنع كيمش بتلك التحليلات، ونتيجة المعلومات التي كانت تأتي إلى مكتبه، أصـبح واثقـاً بـأن السادات سيشن ضربة استباقية؛ ببساطة لأنه من المستحيل على إسـرائيل تلبية المطالب العربية: تريد مصر استعادة الأراضي المحتلة، وإنشاء دولة فلسـطينية ضـمن إسرائيل. كان كيمش يعتقد أنه حتى في حال تقديم تلك التنازلات، ستستمر منظمة التحرير الفلسطينية في حملتها لإخضاع إسرائيل.

تصاعد قلق كيمش عندما استبدل السادات وزير الحربية لديه بشخصية من الصقور، والذي كان أول عمل له تعزيز الدفاعات المصرية على طول قناة السويس. قام القادة المصريون أيضاً بزيارات منتظمة إلى العواصم العربية الأخرى للحصول على الدعم. كما وقّع السادات عقد شراء أسلحة جديداً مع موسكو.

كانت تلك الإشارات تنذر بالسوء لكيمش: "لم يكن السؤال فيما إذا كانت الحرب ستقع، وإنما متى ستبدأ".

لكن قادة *أمان* استمروا في تجاهل التحذيرات التي تأتي من الموساد. وأخبروا قادة IDF أنه حتى إذا كانت الحرب تبدو قريبة، سيكون هناك "على الأقل خمسة أيام كفترة تحذير قبلها"، وهي أكثر من كافية كي يستطيع سلاح الجو الإسرائيلي تكرار ما حققه من نجاح في حرب الأيام الستة.

ردّ كيمش بأنه من المؤكد أن العرب تعلّموا من الأخطاء الماضية، ووجد نفسه يتحول إلى "عضو موساد مهووس بالحرب"، وهو اتهام لم يكن يتوافق ورجل ينتقي كلماته بعناية فائقة. وجلّ ما استطاع فعله هو الاستمرار في تقييم الاستعدادات المصرية ومحاولة وضع تاريخ محتمل لبدء الهجوم.

تراجعت حرارة آب اللاهبة في سنة 1973 لإفساح المجال أمام شهر أيلول الأكثر اعتدالاً، وأظهرت آخر تقارير كاستا الموساد على جانب سيناء من قناة السويس أن الاستعدادات المصرية قد وصلت إلى ذروتها. كان المهندسون في الجيش يضعون اللمسات النهائية لبناء الجسور العائمة التي ستعبر عليها القوات والعربات المدرّعة فوق المياه. عندما حثّ الموساد وزير الخارجية الإسرائيلي على إثارة تلك الاستعدادات المثيرة للقلق في الأمم المتحدة، قال مبعوث مصر بهدوء: "هذه النشاطات روتينية"، وكانت تلك الكلمات لكيمش تحمل "نفس المصداقية" التي نطق بها السفير الياباني في واشنطن عشية الهجوم على بيرل هاربر.

رغم كل ذلك قبلت *أمان* بالتفسيرات المصرية، ووصلت أكثر المعلومات موثوقية إلى كيمش في تشرين الأول، وكانت هناك إشارات كثيرة على حدوث المزيد من المشاكل من عيونه المنتشرة في كل مكان؛ وقامت ليبيا بتأميم شركات النفط الغربية؛ وكان هناك حديث في الدول الخليجية المنتجة للنفط عن قطع إمدادات الطاقة عن الغرب.

استمر المخططون في *أمان* رغم ذلك في إساءة تفسير الصورة الاستخباراتية بشكل يدعو للأسى. وعندما هاجمت طائرات الميغ مقاتلات سلاح الجو الإسرائيلي

فوق سورية – كانت النتيجة نصراً لـ IDF نظراً للتكتيكات التي عرفها الطيارون من طائرة الميغ المسروقة من العراق – كان سقوط اثنتي عشرة طائرة سورية بمثابة دليل إضافي *لأمان* على أن إسرائيل قادرة على إلحاق هزيمة نكراء بالعرب إذا دخلوا الحرب معها.

في ليلة 5 – 6 تشرين الأول، تلقّى الموساد دليلاً صارخاً على أن الحرب وشيكة، وأن موعد اندلاعها لا يتعدّى بضع ساعات. كان الكاستا والمخبرون في مصر يرسلون تقارير بأن القيادة العليا للجيش المصري قد وُضعت في أعلى درجات التأهب. لم يكن ممكناً تجاهل ذلك الدليل إطلاقاً.

عند الساعة 6:00 صباحاً، انضم رئيس الموساد زافي زامر إلى *قادة* أمان في وزارة الدفاع. كان المبنى شبه خالٍ: وكان يوم الغفران وهو أقدس أعياد اليهود، وهو اليوم الذي يرتاح فيه حتى اليهود غير المتدينين، ويتم إغلاق كل الخدمات العامة بما فيها محطة الإذاعة الحكومية. ولطالما كان يتم استخدام الإذاعة لاستدعاء الاحتياط في حالة الطوارئ القومية.

نتيجة الدليل الحاسم الذي قدّمه الموساد، تحركت الأحداث أخيراً ودقّ ناقوس الخطر في كل أرجاء إسرائيل بأن هجومين كبيرين – من سورية في الشمال ومصر في الجنوب – على وشك غمر إسرائيل.

بدأت الحرب في الساعة 1:55 ظهراً بالتوقيت المحلي فيما كان مجلس الوزراء الإسرائيلي منعقداً في جلسة استثنائية؛ أكّد استراتيجيو *أمان* أن الحرب لن تبدأ قبل الساعة 6:00 بعد الظهر. وتحوّل التوقيت ليكون مجرد تخمين.

لم يواجه مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي مثل هذا الفشل الذريع من قبل في توقّع الأحداث. وتم تجاهل كل الأدلّة التي قدّمها ديفيد كيمش وآخرون.

بعد انتهاء الحرب، كان هناك تغييرات واسعة في دوائر اتخاذ القرار العليا في أمان، وأصبح للموساد مرة أخرى السيطرة على مجتمع الاستخبارات، رغم أن تغييراً جوهرياً طاله أيضاً: تم تغيير زامر من منصبه كمدير عام على أرضية أنه لم يكن حاسماً بما فيه الكفاية أمام نظيره في *أمان*. وذهب المنصب إلى إسحاق هوفي.

استقبل كيمش وصول المدير الجديد بمشاعر مختلطة. كان هوفي، بطرق عديدة، من نفس الخلفية التي جاء منها مير عميت: نفس السلوك المستقيم، ونفس الخبرة الميدانية المكتسبة، ونفس الأسلوب الحاد وعدم القدرة نهائياً على تحمّل الفشل بأي ثمن. لكن هوفي كان أيضاً فظاً إلى درجة الوقاحة، ويعود التوتر بينه وبين كيمش إلى

الأيام التي كانا يدرّبان العملاء فيها في مدرسة الموساد من ضمن مهام أخرى يقومان بهـا. لـم يكـن هوفي، بتفكيره المباشر الذي اكتسبه من المزارع الجماعية اليهودية، صبوراً مع نمط تفكير كيمش البطيء ولهجته الإنكليزية المهذبة عندما كان يحاضر في التلاميذ. لكن كيمش لم يكن مجرد عميل موسمي آنذاك وإنما نائب هوفي. تمّت ترقيته إلـى منصب نائب مدير عام الموساد قبل وقت قصير من مغادرة زامر. وقبل كل من هوفـي وكـيمش على تنحية خلافاتهما الشخصية جانباً لضمان استمرار الموساد في العمل بأقصى فاعلية ممكنة.

أسـندت إحـدى أصعب المهام في الموساد لكيمش: أصبح مسؤولاً عن حساب لبـنان، وبدأت الحرب الأهلية في ذلك البلد بعد سنتين من حرب أكتوبر، وفي الوقت الـذي أصـبح فـيه كيمش مسؤولاً عن الأنشطة الاستخباراتية فيه، كان المسيحيون اللبنانـيون يقـاتلون فـي معركة خاسرة. وبعد سنوات من دخول سلمان إلى السفارة الإسـرائيلية في باريس لبدء الخطوات الأولى في سرقة الميغ العراقية، ذهب مبعوث مـن المسيحيين في أيلول سنة 1975 إلى هناك وطلب مساعدة إسرائيل في تزويدهم بأسلحة لإيقاف إبادتهم. وانتهى الطلب على طاولة كيمش. ورأى فرصة تسمح للموساد بالتغلغل في "النسيج اللبناني".

أخـبر هوفـي أن الأمـر يـبدو منطقياً لتقديم "مساعدة جزئية" للمسيحيين ضد المسلمين الذين يرغبون بتدمير إسرائيل. كان تأويله مقبولاً مرة أخرى. ستقدّم إسرائيل أسلحة مناسبة للمسيحيين للتعامل مع المسلمين، لكنها لن تكون كافية لتشكّل تهديداً على إسـرائيل. بدأ الموساد بشحن الأسلحة من إسرائيل إلى لبنان. وقام كيمش تالياً بزرع ضـباط للموسـاد فـي قيادة المسيحيين. في الظاهر، كان ضباط الموساد متواجدين للمسـاعدة على الاستفادة لأقصى حدّ من الأسلحة. في الحقيقة، كان الضباط يزوّدون كيمش بسيل دائم من المعلومات الاستخباراتية التي ساعدته على معرفة تطور الحرب الأهلـية. وسـاعدت تلك المعلومات الموساد على شنّ عدد من الهجمات الناجحة ضد حصون منظمة التحرير الفلسطينية في جنوب لبنان.

لكن علاقة الجهاز بالمسيحيين تراجعت في كانون الثاني سنة 1976 عندما دعا القـادة المسـيحيون الجيش السوري لتقديم المزيد من الدعم لهم. وخلال أيام، أصبح آلاف الجـنود السوريين المدربين تدريباً جيداً في لبنان، وتحرّكوا بالقرب من الحدود مع إسرائيل. اكتشف المسيحيون بعد فوات الأوان أنهم كما قال كيمش: "تصرفوا مثل مغامر صغير استنجد بالذئب".

تحـــوّل المســـيحيون مـــرة أخرى إلى الموساد لمساعدتهم. لكن كيمش أدرك أن شــبكته المتيـــنة لتزويدهم بالسلاح كانت غير كافية. كانوا يحتاجون إلى عمليات دعم إســـرائيلية واسعة النطاق. وتم إرسال عشرات الدبابات، والصواريخ المضادة للدروع والأسلحة الأخرى للمسيحيين. وبدأت الحرب الأهلية في لبنان بالخروج عن السيطرة.

شـــنّ كـــيمش، بغطـــاء من الموساد، حرب عصابات ضد عدو إسرائيل اللدود؛ منظمة التحرير الفلسطينية. وسرعان ما توسع القتال ليشمل الشيعة اللبنانيين. وأصبح لبـــنان حقـــل تجـــارب للموساد ليختبر مهاراته، ليس فقط في الاغتيال، وإنما في شن الحرب النفسية. كان ذلك وقتاً ذهبياً للرجال الذين يعملون خارج المبنى العالي الخالي من المعالم في جادة الملك سول.

داخـــل المبـــنى، كانت العلاقات بين كيمش وهوفي تتدهور. كان هناك همسات حـــول عدم التوافق العنيف على الشؤون العملياتية، كان هوفي يخشى أن يسعى كيمش إلـــى منصـــبه، فيما كان كيمش يشعر بأن عمله وإسهاماته لا تلقى التقدير اللازم. لم يـــناقش كـــيمش مـــثل تلـــك المسائل لغاية ذلك اليوم، وكان يقول فقط إنه: "لن يمنح الإشاعات أي مصداقية بالتعليق عليها".

فـــي صـــبيحة أحـــد أيـــام الربيع سنة 1980، استخدم كيمش بطاقة دخوله غير المقـــيدة، التـــي حلّت محل المفتاحين، لدخول مبنى قيادة الموساد. ولدى وصوله إلى مكتـــبه، تلقّـــى ملاحظة بأن هوفي يرغب برؤيته حالاً. مشى كيمش بهدوء على طول الممر إلى مكتب المدير العام، وطرق الباب، ودخل الغرفة، ثم أغلق الباب خلفه.

مـــا حـــدث هـــناك أصـــبح من أسرار الموساد الأسطورية، وتقول الرواية إن الأصوات ارتفعت بحدة وكان هناك اتهامات واتهامات مضادة. استمر الشجار عشرين دقيقة مشحونة بالتوتر. ثم خرج كيمش من المكتب بصمت مطبق. لقد انتهى عمله في الموســـاد. لكـــن نشاطاته الاستخباراتية لصالح إسرائيل كانت على وشك التحوّل نحو مـــيدان مألوف، الولايات المتحدة. ولن تتضمن نشاطاته هذه المرة سرقة مواد نووية، ولكن الكشف عن الفضيحة التي أصبحت معروفة باسم إيران - غيت.

بعـــد قضـــائه فـــترة في التفكير بمستقبله، قَبِلَ ديفيد كيمش تولّي مهام إدارة أمن وزارة الخارجية الإسرائيلية. كان المنصب مناسباً لقدراته في تحليل المواقف والخروج منها بنتيجة إيجابية. ووفّرت له تلك المهمة فرصة لاختبار قدراته على الساحة الدولية بما يتجاوز لبنان كثيراً.

في الولايات المتحدة، كانت قصة الرئيس نيكسون وفضيحة ووتر - غيت تصل

إلـــى مراحلها النهائية التي لا مفرّ منها، وتركت CIA ملطخة بالشكوك، وهو وضع لم تمـــر به منذ موت الرئيس كينيدي، وظهر المزيد والمزيد من الأسرار حول نشاطات الوكالة خلال سنوات حكم نيكسون.

درس كيمش كل وجوه القضية بعناية، و"استوعب الدروس المستقاة من عائق لم يكن من المفترض حدوثه أبداً. كانت النتيجة أنه ما كان يجدر بنيكسون الاحتفاظ بتلك الأشرطة أبداً. وربما كان لا يزال رئيساً في حال عدم وجود تلك الأشرطة".

فـــي موقـــع أقرب إلى الوطن، كانت الأحداث التي تجري في إيران في صلب اهتمام إسرائيل، وقد شغلت كيمش أيضاً. ومع وجود الخميني ورجال الدين المتشددين في الحكم، شكّل فشل CIA ووزارة الخارجية الأميركية في إطلاق الحكم الصحيح على الموقف صدمة كبيرة لكيمش.

لكـــن كان هناك رئيس جديد في البيت الأبيض، رونالد ريغان، الذي وعد بولادة فجـــر جديـــد للـــ CIA. كانت الوكالة، كما تناهي إلى كيمش من مصادره الخاصة في واشنطن، ستصبح "ورقة ريغان الرابحة" في السياسة الخارجية. كان رئيس CIA ويليام كيســـي، والذي شعر كيمش بأنه ليس صديقاً لإسرائيل، لكنه شخص يمكن التفوق عليه بالمناورات إذا اقتضت الضرورة ذلك.

تـــابع كـــيمش عن كثب، كجزء من عمله، عمليات CIA في أفغانستان وأميركا الوســـطى. وســـبب الكثـــير منها صدمة له لأنها "أساليب بدائية وعتيقة الطراز لجمع المعلومات الاستخباراتية، الممتزجة مع بعض عمليات القتل القاسية جداً".

تحوّل اهتمام كيمش مجدداً للتركيز على إيران، وما كان يحدث في بيروت.

بعـــد عدّة أشهر من تولي كيمش مهام منصبه الجديد في وزارة الخارجية، بدأت إســـرائيل بـــتزويد إيـــران بالسلاح بدعم خفي من الولايات المتحدة. وقدّمت إسرائيل المســـاعدة لإضعاف النظام في بغداد، جزء من التكتيك الذي تلعبه القدس في ما كان كيمش يدعوه "اللعب على الحبلين".

بعـــد ثلاث سنوات، أثّرت حادثتان على سير الأمور. كان هناك مجزرة السيارة المفخخة في بيروت والتي راح ضحيتها 241 من جنود المارينـــز، وشكوك الولايات المـــتحدة المتزايدة بأن الموساد لم يكن يعلم بالهجوم مسبقاً وحسب، وإن الاستخبارات الإيرانية ساعدت في التحضير له. تعرّضت إسرائيل لضغوط لإيقاف إمدادات السلاح إلـــى طهران. وتصاعدت الضغوط مع اختطاف، وتعذيب، وموت ويليام بوكلي رئيس محطة CIA في بيروت. في تطور سريع، اختطفت مجموعة مدعومة من إيران سبعة

أميركيين آخرين واحتفظت بهم كرهائن.

بالنسبة لإدارة ريغان القاسية الكلام، والتي جاءت إلى الحكم بناءً على وعد قطعته بمكافحة الإرهاب، كانت فكرة موت مواطنين أميركيين تحت أنقاض بيروت تتطلب عملاً سريعاً. لكن الانتقام لم يكن مقبولاً؛ وعارض أكثر مساعدي ريغان تشدداً اقتراحه القاضي بقصف طهران، وقال رئيس قوة دلتا إن أي مهمة إنقاذ محكوم عليها بالفشل.

ثم جرت محادثة بين الرئيس وروبرت مكفارلين، ضابط المارينز السابق والذي كان وقتها مستشاراً للأمن القومي. ويتذكّر كيمش أن مكفارلين أخبره أن المحادثة جرت على النحو الآتي:

"ما الذي يحتاج إليه الإيرانيون بشدة يا سيدي الرئيس؟"

"أخبرني أنت يا بوب".

"الأسلحة لقتال العراق".

"إذاً نعطيهم ما يحتاجون إليه. ونسترجع مواطنينا بالمقابل".

وأخذ ريغان ومكفارلين - بخلاف نصيحة كيسي ورؤساء أجهزة الاستخبارات الأميركية الأخرى - بوجهة النظر البسيطة التي تقول إن تزويد إيران بالأسلحة سينتج عنه قيام رجال الدين هناك بالضغط على المجموعة في بيروت لإطلاق سراح الرهائن، وسوف يحسّن من علاقات الإدارة مع طهران. وقد يكون هناك مكافأة إضافية أيضاً تتمثل في إضعاف موقف موسكو في إيران. كانت البذور تُزرع لما أصبح يعرف بعدها بإيران - غيت.

تم تعيين عقيد المارينز أوليفر نورث مسؤولاً عن إمدادات الأسلحة. قرّر نورث ومكفارلين إقصاء CIA عن تلك الخطط، وكانا كلاهما رجلين يعيشان في قلب الأحداث. كان تفكيرهما الهجومي قد خدمهما جيداً في فيتنام، ولم يكن هناك شبيه لهما من بين كل من سمعوا عنهم سوى الإسرائيليين. هكذا، وكما قال نورث: "كان الوقت مناسباً لإشراك إسرائيل في العملية". وكان هناك أيضاً طموح شخصي بزيارة الأراضي المقدّسة، وكان نورث مسيحياً ورعاً، وتطيب له فكرة السير على خطى السيد المسيح (عليه السلام).

قرر إسحاق شامير، رئيس وزراء إسرائيل الجديد، أن هناك شخصاً واحداً فقط قادر على تولّي طلب واشنطن بالمساعدة؛ ويكون متأكداً أن مصالح إسرائيل محمية تماماً. وفي 3 تموز سنة 1983، سافر ديفيد كيمش للقاء مكفارلين في البيت الأبيض.

قـال كـيمش إنه يعتقد أن صفقة السلاح – مقابل – الرهائن قد تنجح. وسأل فيما إذا كانت CIA "مشتركة بفاعلية"، وأخبروه بأنها خارج العملية.

بالمقابل، سأل مكفارلين كيمش حول كيفية اشتراك الموساد: "بالنتيجة، سيكونون الـرجال الذين يقومون بكل العمل السري ما وراء البحار". أخبره كيمش بأن إسحاق رابين، وزير الدفاع حينها، وشامير قررا إقصاء الموساد وترك المسألة برمتها له. قال مكفارلين إن ذلك مناسب له. لم يكن كيمش قد أخبره بأن رئيس الموساد نعوم أدموني حيـنها، يشارك كيسي مخاوفه بأن صفقة السلاح – مقابل – الرهائن مليئة بالأخطار العملياتية.

قـاد مكفارليـن السيارة إلى مستشفى بيثسدا البحري لنقل وجهة نظر كيمش إلى ريغـان الـذي كان يتعافى من عملية في القولون. كان لدى الرئيس سؤال واحد: هل يسـتطيع كيمش ضمان حفاظ إسرائيل على سرية الصفقة؟ إن أي تسريب للمعلومات سيؤثّر سلباً على علاقات الولايات المتحدة مع الدول العربية المعتدلة الخائفة أصلاً من الـتطرف الإيرانـي المـتزايد. ويدّعي كيمش أن مكفارلين أكّد لريغان أن إسرائيل: "ستغلق كل الأبواب". على هذا الأساس تمّت الصفقة. سافر كيمش عائداً إلى إسرائيل. وعـاد كيمش بعد أسبوعين إلى واشنطن، وشرح خطته لمكفارلين على طاولة العشاء. يتذكّر كيمش أن المحادثة جرت على النحو الآتي:

سأل كيمش مكفارلين: "هل تريد الأنباء الجيدة أم السيئة أولاً؟"

"الجيدة".

"سنشحن السلاح لكم، مستخدمين نفس المسلك الذي استخدمناه من قبل".

وقال مكفارلين: "لا توجد مشكلة".

كانـت طريقة كيمش تضمن أن لا يكون للولايات المتحدة أي اتصال مباشر مع طهـران، وهكـذا لن تتم المساومة على موقف الإدارة العدائي حيال الإرهاب: ستتم المحافظـة علـى حظر بيع الأسلحة إلى إيران، ولن يتم إطلاق سراح الرهائن مقابل الأسلحة بشكل مباشر.

سأل مكفارلين: "والأخبار السيئة؟"

قـال كـيمش إن اتصالاته الموثوقة في إيران غير متأكدة من قدرة رجال الدين علـى ضـمان إطـلاق سـراح الرهائـن في بيروت. تابع كيمش مخبراً مضيفه أن "المتشددين هناك بدأوا يخرجون عن سيطرة طهران".

لـم تظهـر خيـبة الأمل على مكفارلين رغم أنه قد يكون أُصيب بها. في اليوم

التالـــي، أخبر وزير الخارجية جورج شولتز ريغان الذي عاد إلى المكتب الأبيض أن المخاطـــر عالـــية جـــداً. كان هناك احتمال بأن يأخذ الإيرانيون الأسلحة ثم يكشفون الصفقة لإحراج **الشيطان الأكبر**؛ الاسم الذي يطلقه رجال الدين على الولايات المتحدة؟ ألـــن يدفـــع ذلك بالعراق بعيداً في المعسكر السوفياتي؟ وماذا عن الرهائن؟ قد يصبح حالهم أسوأ بعد هذه الصفقة. استمر الجدال طوال فترة الصباح. وظهر الإعياء واضحاً علـــى ريغان مع اقتراب موعد الغداء. كان القرار مفاجئاً حين صدوره. وافق الرئيس علـــى اقتراح أن تقوم الولايات المتّحدة بتعويض كل الأسلحة التي تبيعها إسرائيل إلى إيـــران. عاد كيمش مجدداً إلى الوطن بالضوء الأخضر. رغم ذلك، أصرّ شامير على اتخـــاذ كـــل الإجـــراءات اللازمـــة حتى "تستطيع إنكار أي علاقة بالمسألة إذا حدثت مشكلة".

لضـــمان ذلك، حشد كيمش مجموعة متنوعة من الشخصيات للبدء بالعملية. كان هـــناك عدنـــان خاشـــقجي، الملياردير السعودي الذي كان معتاداً على تناول الكافيار بالأرطـــال وعينه على الفتيات؛ مانشتر ثوربانفير، العميل السابق في استخبارات الشاه السيئة السمعة سافاك والذي كان ما يزال يتصرف كجاسوس ويدعو إلى اجتماعات في منتصف الليل. كان هناك أيضاً ياكوف نمرودي الذي كان يدير عملاء لمصلحة *أمان*، وكـــان فيما مضى ملحقاً عسكرياً لإسرائيل في إيران خلال عهد الشاه. كان يصطحبه بشكل دائم آل شويمر، المؤسس الصامت للصناعات الجوية الإسرائيلية.

عقـــد خاشـــقجي صـــفقة كانـــت بادرة لكل ما تلاها. كان يترأس اتحاداً سيدفع تعويضـــات للولايـــات المـــتحدة في حال فشلت إيران في الالتزام بواجباتها، وسيقوم بحمايـــة مصـــالح إيـــران إذا كانـــت الأسلحة غير مقبولة كما هو محدد. مقابل هذه الضمانات، سيحصل الاتحاد على 10% من قيمة الأموال التي تحصل عليها الولايات المـــتحدة مقـــابل تلـــك الصفقة. في المقابل، سيعمل الاتحاد أيضاً كحاجز لضمان حق حكومتـــي إيـــران والولايات المتحدة في إنكار الصفقة ظاهرياً إذا ساءت الأمور. كان الجمـــيع علـــى درايـــة كاملة بأن الاتحاد سيعمل بشكل أساسي خارج نطاق السيطرة السياسية وأن حافزه الأول والأخير سيكون الربح المادي.

في أواخر آب سنة 1985، حطّت أول طائرة محمّلة بالأسلحة في طهران قادمة مـــن إسرائيل. وفي 14 أيلول، تم إطلاق سراح الرهينة الأميركي الكاهن بنيامين وير فـــي بـــيروت. وفيما تسارعت وتيرة العملية، انضم المزيد من اللاعبين الأوغاد إلى الاتحـــاد بمن فيهم مايلز كوبلاند، الضابط السابق في CIA، والذي أرسل عملاء CIA

إلـــى أسواق طهران لتوزيع أوراق نقدية من فئة المئة دولار لأي شخص يجرؤ على قــول "عــاش الشـــاه!" وذلك عشية سقوط نظامه وتحوّله فيما بعد إلى ما بات يُعرف بالجمهوريـــة الإسلامية الإيرانية. اشتركت شخصيات أخرى في العملية، مثل الضابط السابق في استخبارات القوى الجوية الذي كان يدير شركة في لندن، وقدّم مرة خدمات غـــير محـــددة للموســـاد. وأثـــناء ذلك، أغلق صانعو السياسية في إسرائيل وواشنطن الطريق الآخر. وكل ما كان مهماً عندها هو انطلاق العملية رغم أنف العالم المتشكك؛ لتلك اللحظة على الأقل.

استلمت إيران 128 دبابة أميركية، ومئتي ألف صاروخ كاتيوشا؛ وعشرة آلاف طـــن من قذائف المدفعية من كل العيارات؛ وثلاثة آلاف صاروخ جو – جو؛ وأربعة آلاف بندقية؛ وما يقرب من خمسين مليون عبوة من الذخيرة.

مـــن قـــاعدة مارامـــا الجوية في أريزونا، تم نقل أربعة آلاف صاروخ تاو إلى غواتيمالا لتبدأ بعد ذلك رحلتها إلى تل أبيب. من بولندا وبلغاريا، تم شحن ثمانية آلاف صاروخ أرض – جو من طراز سام 7، إضافة إلى مئة ألف بندقية كلاشينكوف. كما قدّمـــت الصـــين مئات صواريخ بحر – بحر من طراز "دودة القز"، وعربات مدرعة وناقلات جند برمائية. أما السويد فقدّمت قذائف مدفعية من عيار 105 ملم، فيما قدّمت بلجيكا صواريخ جو – جو.

كـــان يتم شحن الأسلحة بوثائق تُظهر أن إسرائيل المستفيد النهائي. ومن قواعد IDF العســكرية في صحراء النقب، تدبّر الاتحاد طائرات نقل عارضة لشحن الأسلحة إلى إيران. حصل الاتحاد على "عمولة شحن" عن كل مهمة، كانت إيران تدفع الأموال عـــبر حسابات مصرفية في سويسرا. ووصل المبلغ الإجمالي إلى 7 مليون دولار. لم تحصـــل إســـرائيل على أي تعويض مادي، وارتاحت برؤية إيران تطوّر من قدراتها لقـــتل المـــزيد من العراقيين في الحرب الطويلة الأمد بين البلدين. كان الأمر بالنسبة لديفيد كيمش مثالاً آخر عن سياسة "فرّق تسد" التي كان يؤيدها بقوة.

رغـــم ذلـــك، أخبره حدسه الدقيق بأن ما كان *عملية سهلة* يتعرّض الآن لخطر الخـــروج عن السيطرة. وفي رأيه: "يمتلك الرجال غير الجديرين الآن قوة كبيرة جداً في الاتحاد".

كـــان يشـــرح دائماً سياسة إسرائيل الحقيقية على أنها مستعدة لمساعدة الولايات المـــتحدة لأنها تدرك أنها لا تستطيع البقاء دون دعم واشنطن في مناطق أخرى. كانت تلـــك أيضـــاً طريقة لإظهار بأن إسرائيل تستطيع العمل بفاعلية على المسرح الدولي

وإبقاء الأمور سراً.

لكن كلما طال أمد عملية السلاح - مقابل - الرهائن، أحس كيمش أن خطر اكتشاف الأمر أصبح أكبر. في كانون الأول سنة 1985، أخبر كيمش الاتحاد بأنه لم يعد قادراً على الاستمرار في نشاطاته؛ استخدم الحجة القديمة بأنه منشغل للغاية في نشاطات وزارة الخارجية.

شكره الاتحاد لمساعدته، وأقام له حفلة وداع في أحد فنادق تل أبيب، وأخبره بأن صلة الوصل الإسرائيلية أصبحت في عهدة عميرام نير، الذي كان مستشار بيريز لشؤون الإرهاب. كانت تلك هي اللحظة، كما أقرّ كيمش لاحقاً، التي تم فيها وضع عملية السلاح - مقابل - الرهائن على مسار التدمير الذاتي السريع. إذا كان من أحد قادراً على تحويل العملية عن مسارها، سيكون نير بالتأكيد. وأظهر نير، الصحافي السابق، ميلاً نحو اعتبار عمل الاستخبارات الحقيقي جزءاً من نفس العالم الذي تظهر فيه بطولات جيمس بوند الذي كان يحب أفلامه كثيراً. وكان يشترك في هذا العيب القاتل مع رجال في الموساد قرّروا أيضاً أن الصحفيين يستطيعون خدمة أهدافهم.

في نيسان سنة 1999، أظهر ديفيد كيمش أنه لم يفقد مهاراته في قراءة الوضع السياسي الحالي في الشرق الأوسط. تحوّل ياسر عرفات، الرجل الذي خطط كيمش سابقاً لاغتياله "لأنه كان عدوي اللدود، وأنا متأكد من أن موته سيمثّل نصراً عظيماً لإسرائيل"، ليصبح "أفضل أمل لإسرائيل في تحقيق سلام دائم. ولا زلت لا أتقبّل فكرة أن يكون السيد عرفات جاري، لكنه القائد الفلسطيني الوحيد القادر على تقديم تنازلات لإسرائيل ويبقى مع ذلك محتفظاً بالسلطة ومتمتعاً بالدعم الشعبي".

كان كيمش يعتقد أنه وجد أرضية مشتركة مع عرفات، وكان مقتنعاً بأن قائد منظمة التحرير الفلسطينية قد أدرك أخيراً ما رآه كيمش قبل ربع قرن مضى "يتجسّد التهديد الحقيقي في الألفية الجديدة في الأصولية الإسلامية".

جلس كيمش في مكتبه الصغير ينظر إلى الحديقة التي أينعت ثمارها، وكان قادراً على إطلاق حكم متوازن: "لا أستطيع الصفح عن عدوي القديم لتوقيعه على اغتيال مواطني بلدي قبل عقود مضت. لكنني سأقترف خطأً لا يُغتفر أيضاً إذا أنكرت أن أمام عرفات - وكذلك الإسرائيليين - فرصة لإنهاء إراقة الدماء للمرة الأخيرة".


صفحة فارغة

الفصل الثامن

أورا والوحش

كان بهو فندق فلسطين – المريديان في بغداد مزدحماً كالعادة في آخر يوم جمعة من نيسان سنة 1988، وكانت الأجواء سعيدة. لقد فاز العراق للتو بمعركة فاصلة ضد إيـران فـي خليج البصرة، وكان هناك إجماع بأن تلك الحرب تقترب من نهايتها بعد سبع سنوات دامية.

يعـود أحـد أسـباب الفوز العراقي الوشيك إلى الغرباء الذين جلسوا في البهو مرتديـن سـترات أنيقة وبناطيل لها ثنيات كحدّ السيف، مع ابتسامة مندوبي المبيعات التـي لا تفـارق وجوههـم أبداً. كان هؤلاء تجّار السلاح المستعدين دائماً لبيع أحدث الأسـلحة، رغم أنهم نادراً ما يستخدمون تلك الكلمة، ويفضلون استعمال تعابير حيادية مثل: الطريقة المثلى، وأنظمة التحكم وقدرة التطور. كان بينهم باعة يمثّلون الصناعات الدفاعـية فـي أوروبـا، والاتحاد السوفياتي، والولايات المتحدة والصين. كانت اللغة المشتركة في تجارتهم هي الإنكليزية، التي يتكلمونها بلهجات مختلفة.

لم يكن مضيفوهم العراقيون يحتاجون للترجمة: كانوا يعرضون عليهم تشكيلة من القـنابل، والطوربـيدات، والألغـام وأدوات التدمير الأخرى. كانت الكتيبات التي يتم تداولها تحتوي على مروحيات تحمل أسماء غريبة – فارس البحر، وشينوك [قبيلة من الهنود الحمر]، وفرس النهر. وتستطيع إحدى المروحيات التي تدعى الأم الكبيرة حمل جسر صغير، فيما تستطيع أخرى تدعى الآلة التي لا تُصدّق حمل فصيلة من الجنود، وتُظهـر كرّاسات أخرى أسلحة قادرة على إطلاق ألفي مقذوفة في الدقيقة، أو إصابة هـدف مـتحرك فـي الظلام الدامس باستخدام رقاقة حاسوبية. كان كل وأي نوع من السلاح معروضاً للبيع.

تكلـم المضـيفون أيضـاً بلغة خاصة يستطيع تجار السلاح فهمها: عشرون في الـيوم، وثلاثون بموجب نصف – ونصف – ناقص واحد: عشرين مليون دولار في يـوم التسليم، أو ثلاثون مليون دولار للشحنة، يتم دفع نصفها مقدماً، والباقي في اليوم

الـــذي يســـبق شحن الأسلحة. كانت كل الدفعات النقدية تتم بالدولار الأميركي الذي لا يزال النقد المفضّل في هذا العالم المغلق.

كـــان هذا السوق المتغير دائماً من التجار والزبائن الذين يجتمعون حول أكواب الشـــاي بالنعـــناع يخضـــع لـــرقابة ضـــباط دائـــرة المخابرات العامة، وهي منظمة الاســـتخبارات العراقية الرئيسية، والتي يديرها سبعاوي، أخ صدام حسين غير الشقيق والمخيف مثله تقريباً.

كان بعض تجار السلاح متواجدين في بهو الفندق قبل سبع سنوات عندما أخبرهم مضـــيفوهم أن إســـرائيل، العدو المكروه أكثر من إيران، شنت هجوماً قوياً ضد الآلة العسكرية العراقية.

فمـــنذ تشكيل الدولة العبرية، كانت هناك حالة من الحرب الرسمية بين إسرائيل والعـــراق. كانت إسرائيل تشعر بالثقة لأن قواتها قادرة على الفوز بأي حرب تقليدية. لكـــن فـــي ســـنة 1977، اكتشف الموساد أن الحكومة الفرنسية، التي زوّدت إسرائيل بقدراتها النووية، قد منحت العراق أيضاً مفاعلاً ومساعدة تقنية. كان موقع المفاعل في التويثة إلى الشمال من بغداد.

بـــدأ ســـلاح الجـــو الإسرائيلي في التخطيط لقصف الموقع قبل أن يصبح حاراً بوجـــود قضـــبان اليورانيوم في قلب المفاعل. كان تدميره بعد ذلك يعني التسبب بقتل أعـــداد كبيرة من الناس، ونشر التلوث على نطاق واسع، وتحويل بغداد ومنطقة كبيرة من العراق إلى صحراء مليئة بالإشعاعات؛ وحصول إسرائيل على إدانة عالمية.

لتلك الأسباب عارض إسحاق هوفي الذي كان عندها رئيساً للموساد الغارة، وقال إن أي ضربة جوية ستتسبب بمعدّل وفيات كبير بين التقنيين الفرنسيين، وسوف تعزل الـــبلاد الأوروبـــية بعـــيداً عـــن إسرائيل التي تحاول جاهدة إقناعها بنواياها السلمية، وسيضع قصف المفاعل نهاية مؤثرة للمناورة الحساسة التي تحاول إقناع مصر بتوقيع اتفاقية سلام.

وجـــد هوفي نفسه يشرف على منـــزل مقسّم. وجادل العديد من رؤساء الأقسام بأنـــه لا يوجـــد خـــيار آخر عدا تحييد المفاعل. كان صدام عدواً قاسياً؛ وحالما يمتلك ســـلاحاً نووياً، لن يتردد في استخدامه ضد إسرائيل. منذ متى تقلق إسرائيل أكثر من الـــلازم حـــول اكتساب الأصدقاء في أوروبا؟ إن أميركا هي المهمة، أتت الهمسة من واشنطن بأن تدمير المفاعل لن ينتج عنه أكثر من توجيه توبيخ من الإدارة.

حـــاول هوفـــي تكتـــيكاً مختلفاً، واقترح أن تقوم الولايات المتحدة بحملة ضغط

دبلوماسية على فرنسا لإيقاف تصدير المفاعل. وتلقّت واشنطن صداً جافاً من باريس. بعـد ذلـك، استخدمت إسرائيل أسلوباً مباشراً. أرسل هوفي فريقاً من الكاسِتا لتدمير المصـنع الفرنسي في لا سين - سور - مير بالقرب من طولون، حيث كان يتم بناء قلـب المفـاعل العراقي. وتم تدمير نواة المفاعل من قبل منظمة لم يسمع بها أحد من قبل؛ جماعة البيئة الفرنسية. لقد اختار هوفي الاسم بنفسه.

بيـنما بدأت فرنسا في بناء نواة مفاعل جديد، أرسل العراق يحيى المشد عضو لجـنة الطاقة الذرية إلى باريس للإشراف على شحن الوقود النووي إلى بغداد. أرسل هوفـي فـريقاً مـن الكـيدون لاغتياله. وفيما جال أفراد الفريق الآخرون الشوارع المحـيطة، دخـل اثنان منهم غرفة نوم المشد باستخدام مفتاح خاص، وقاما بذبحه من حـنجرته وطعـناه في القلب، ونهبا الغرفة لتبدو العملية وكأنها بدافع السرقة. أخبرت غانـية في الغرفة المجاورة الشرطة بأنها قدّمت خدماتها للعالم قبل ساعات من موته، وفـيما كانـت تخدم زبوناً آخر لاحقاً، سمعت حركةً غير عادية في غرفة المشد. بعد سـاعات مـن تقديم إفادتها تلك للشرطة، لقت حتفها في حادث بسيارة مجهولة لم يتم العثور عليها أبداً. ولحق فريق كيدون برحلة شركة العال وعاد إلى تل أبيب.

رغم تلك الخسارة، استمر العراق - بمساعدة من فرنسا - في سعيه للتحوّل إلى قـوة نوويـة. في تل أبيب، استمر سلاح الجو الإسرائيلي في استعداداته فيما اختلف رؤسـاء أجهـزة الاستخبارات مع هوفي لاعتراضاته المستمرة. وجد رئيس الموساد تحدياً من شخص غير متوقع. لقد شدّد نائبه نعوم أدموني على أن تدمير المفاعل ليس ضرورياً وحسب وإنما "سيلقّن درساً لأي عربي آخر يحمل أفكاراً كبيرة".

بحلول شهر تشرين الأول من العام 1980، شغلت المناقشات كل اجتماع لمجلس الوزراء ترأسه مناحيم بيغن. تم عرض وجهات النظر مراراً وتكراراً. وأصبح صوت هوفـي الوحـيد ضد الهجوم. رغم ذلك، تابع الكفاح، وقدّم وثائق مكتوبة عن موقفه، وكان يعرف أنه يكتب نعي سيرته المهنية.

لـم يخـفِ أدموني طموحه لاستلام منصب هوفي. أصبح الرجلان، اللذان كانا صـديقين مقرّبيـن، زميليـن متباعديـن. ورغم ذلك، استغرق الأمر ستة شهور من الصـراع المريـر بين رئيس الموساد المستعد للمعركة وكبار مسؤوليه قبل أن توافق هيئة الأركان على الهجوم في 15 آذار سنة 1981.

كـان العمل نموذجاً عن البراعة التكتيكية. طارت ثماني قاذفات إف 18 تواكبها سـت مقاتلات اعتراضية إف 15 على ارتفاع منخفض جداً عبر الأردن قبل أن تدخل

الأجـواء العراقية. وصلت تلك الطائرات حسب ما هو مخطط في الساعة 5:34 بعد الظهـر بالتوقيـت المحلي، بعد دقائق من مغادرة الكادر الفرنسي للبناء. كان مجموع الوفـيات تسعة، وتحول المصنع النووي إلى أنقاض، وعادت الطائرات سالمة. انتهى عمل هوفي في الموساد، وتولّى أدموني مهام المنصب.

فــي صبيحة ذلك اليوم من نيسان سنة 1988، تفاجأ تجار السلاح في بهو فندق فلســطين – المريديان، الذين تعاطفوا قبل سبع سنوات مع مضيفيهم المصدومين نتيجة الهجــوم الإسرائيلي – قبل بيع العراق أنظمة رادار متطورة – عندما عرفوا أنه يوجد عميل للموساد في الفندق يلاحظ بصمت أسماءهم وما يقومون به.

في وقت باكر من يوم الجمعة ذاك، قاطع وصول سبعاوي التكريتي الأعمال في الــبهو، وهو رئيس الاستخبارات السرية العراقية وترافقه كتيبة حرسه الخاص. اندفع أخ صدام حسين غير الشقيق إلى المصعد، في طريقه إلى جناح في أعلى الفندق، حيث كانــت تنــتظره هــناك غانــية طويلة ممتلئة الجسم جاءت خصيصاً من باريس لتقدّم خدماتهــا له. كــان ذلك عملاً يدر مالاً وفيراً، لكنه مليء بالمخاطر. لقد اختفت بعض الغانيات الأخريات ببساطة بعدما انتهى سبعاوي منهن.

غادر رئيس الاستخبارات خلال فترة بعد الظهيرة. وبعد ذلك بوقت قصير، ظهر مــن الجــناح المجــاور لجناح الغانية شاب طويل يرتدي سترة قطنية زرقاء وبنطالاً واســعاً. كان وسيماً نوعاً ما، وكانت لديه عادة عصبية بمداعبة شاربه أو حك وجهه مما يزيد نوعاً ما من حساسيته.

كــان اســمه بازوفت وفي التفاصيل على سجل الفندق – يتم إرسال نسخة عنه بشــكل روتينــي إلى مديرية سبعاوي– وصف بازوفت نفسه على أنه مراسل أجنبي لصــحيفة الأوبزرفــر التــي تصدر في لندن. لم يكن الوصف دقيقاً: وحدهم مراسلو الصحيفة الذين يقومون بمهام ما وراء البحار يمكن لهم تسمية أنفسهم مراسلين أجانب. كــان بازوفــت مراسلاً حراً أرسل خلال السنة الماضية عدّة قصص إلى الأوبزرفر تتضــمن مواضــيع عــن الشرق الأوسط. اعترف بازوفت لمراسلي وكالات الأنباء الأخــرى الذيــن كــانوا فــي بغداد أيضاً أنه يقدّم نفسه دائماً على أنه مراسل أجنبي للأوبزرفــر عندما يقوم برحلات إلى مدن مثل بغداد لأن ذلك يضمن له أفضل غرفة مــتوفرة فــي الفــندق. كان يُنظر إلى قصته المزيفة كمثال آخر على شخصيته غير الناضجة.

كــان هناك جانب مظلم في شخصية بازوفت لم يكن معروفاً لزملائه الصحفيين،

وهو جانب قد يعرّضهم للخطر إذا كان هناك اشتباه بأنهم متورطون في السبب الحقيقي لوجوده في بغداد. كان بازوفت جاسوساً للموساد.

تم تجنيده بعد وصوله إلى لندن من طهران قبل ثلاث سنوات، حيث عرّضت آراؤه الصريحة عن الخميني حياته للخطر. مثل الكثيرين قبله، وجد بازوفت أن لندن غريبة عنه ووجد أن الإنكليز شعب محافظ. حاول إيجاد دور له في المجتمع الإيراني في المنفى، وجعلته معرفته الجيدة عن البنية السياسية الحالية في طهران ضيفاً مرحباً به لفترة من الزمن على طاولات العشاء. لكن رؤية نفس الوجوه المألوفة سرعان ما أصبحت أمراً يدعو للكآبة بالنسبة للشاب الطموح النابض بالحيوية.

بدأ بازوفت بالبحث عن المزيد من الإثارة التي لم يجدها في مجرد تحليل الأنباء في طهران. بدأ بإنشاء علاقات مع عدو إيران، العراق. في منتصف ثمانينيات القرن العشرين، كان هناك عدد كبير من العراقيين في لندن، وكانوا زواراً مرحباً بهم لأن بريطانيا كانت تنظر إلى العراق ليس كمستورد مهم لبضائعها وحسب، وإنما دولة قادرة، في ظل صدام حسين، على التصدي لتهديد الأصولية الإسلامية التي يمثلها نظام الخميني.

كما كانوا مستعدين للتعبير عن عواطفهم بحرية أكبر من الإيرانيين. وبالمقابل، كان العراقيون معجبين بأسلوبه الهادئ ودعاباته التي لا تنتهي عن آيات الله في طهران.

في إحدى الحفلات كان هناك رجل الأعمال العراقي أبو العبد، الذي استمع إلى بازوفت – مرة أخرى، ثملاً قليلاً في نهاية الأمسية – يعلن صراحة عن طموحه الدائم في أن يكون مراسلاً، وأن البطلين المفضلين لديه كانا بوب وودورد وكارل بيرنشتاين الذين أسقطا الرئيس نيكسون. أخبر بازوفت أبو العبد أنه سيموت سعيداً إذا استطاع إسقاط آية الله الخميني. كان بازوفت في ذلك الوقت يكتب مقالات لصحيفة إيرانية محدودة التوزيع للمنفيين في بريطانيا.

كان أبو العبد اسماً مستعاراً لكاستا عراقي المولد، وفي تقريره التالي إلى تل أبيب، وضع ملاحظة عن بازوفت تتضمن عمله الحالي وطموحاته. ولم يكن هناك شي غير عادي في القيام بذلك لأن مئات الأسماء كانت تصل إلى الموساد كل أسبوع لتجد طريقها إلى قاعدة البيانات.

لكن نعوم أدموني كان يدير الموساد متلهفاً لتوسيع اتصالاته في العراق. تم توجيه كاستا في لندن لبناء علاقة مع بازوفت. خلال دعوات عشاء على فترات

متــباعدة، اشتكى بازوفت إلى أبو العبد من أن مدير التحرير المسؤول عنه لا يستفيد من قدراته بالشكل الأمثل. فاقترح عليه مضيفه أن يحاول دخول الصحافة الإنكليزية. وكان لا بد من وجود فرصة عمل لمراسل يمتلك مهارات لغوية جيدة ومعرفة بإيران. اقترح أبو العبد هيئة الإذاعة البريطانية BBC كنقطة بداية.

كان هناك عدّة سيانيم ضمن هيئة الإذاعة والذين تتضمن مهامهم مراقبة البرامج التـــي ستبث عن إسرائيل، إضافة إلى الأشخاص الذين يعملون في القسم العربي. ليس مؤكـــداً فيما إذا كان لأي سيانيم دور مباشر في وظيفة بازوفت أم لا، لكن BBC كلّفته بمهمـــة صـــحفية بعـــد ذلك الاجتماع مع أبو العبد بوقت قصير. وأبلى حسناً. تتابعت الأعمال، ووجد مدراء التحرير أنهم يستطيعون الوثوق ببازوفت لفهم المكائد التي تقوم بها طهران.

في تل أبيب، قرر أدموني أن الوقت قد حان للقيام بالحركة التالية. وحالما بدأت صـــورة إيـــران - غيت تتضح تدريجياً في الولايات المتحدة، قرر رئيس الموساد أن يكشـــف الدور الذي لعبه ياكوف نمرودي، عميل *أمان* السابق في تلك الفضيحة. كان نمـــرودي عضـــواً في الاتحاد الذي شكّله ديفيد كيمش، واستخدم خبرته الاستخباراتية لإبقـــاء الموساد خارج ما كان يحدث. كان نمرودي رجلاً ماكراً، سريع الكلام، ودفع وزيـــر خارجية الولايات المتحدة جورج شولتز، حالما بدأت عملية السلاح - مقابل - الرهائن للقول إن "جدول أعمال إسرائيل لا يتطابق مع جدول أعمالنا، وقد لا نستطيع الاعتماد بشكل كامل على العلاقة الاستخباراتية مع إسرائيل فيما يخص إيران".

عـــندما انســـحب كيمش من الاتحاد، بقي نمرودي لوقت أطول. لكن فيما تعالت الأصوات في واشنطن والتي شكّلت إحراجاً كبيراً لإسرائيل، اختفى عميل *أمان* السابق فجـــأة. كـــان لدى أدموني، المنـــزعج من الطريقة التي عامل بها نمرودي الموساد، خطـــط أخـــرى: سيعمل على إحراج نمرودي علناً، وسيمنح في الوقت ذاته بازوفت نجاحاً مهنياً سيمكّنه من خدمة الموساد بشكل أفضل.

زوّد أبـــو العبد المراسل بازوفت بتفاصيل وافية حتى يعتقد أن تلك هي فرصته الكبرى. وأخذ القصة إلى الأوبزرفر التي نشرتها مع الإشارة إلى أن "إسرائيلياً غامضاً يدعـــى نمرودي متورط في إيران - غيت. وسرعان ما أصبح بازوفت مراسلاً دائماً لصـــحيفة الأوبزرفـــر. أخيراً، حصل على مكتبه الخاص كجائزة له رغم أنه كان من خارج كادر الصحيفة. كان ذلك يعني أنه لم يعد مضطراً لتسديد تكاليف هاتفه لمتابعة قصة ما من منـــزله. لكن بازوفت لم يكن يتلقى أي أجور عن مقالاته إذا لم تُنشر في

الصحيفة. كان ذلك بمثابة التحفيز له لإيجاد المزيد من القصص، ودفعه للقيام برحلات إلى الشرق الأوسط. في تلك المناسبات، كانت الصحيفة تغطي كل مصاريفه، مثل المراسلين الآخرين، وكان قادراً على التلاعب بحساباته للحصول على مال أكثر مما كان ينفق. ولطالما كان نقص المال مشكلة بالنسبة لبازوفت، وهو الشيء الذي كان حريصاً على إخفائه عن زملائه في الأوبزرفر. لم يشك أحد قطعاً بأن المراسل الذي يقضي ساعات يتكلم الفارسية على الهاتف مع المشرفين ليس سوى لص مدان. أمضى بازوفت ثمانية عشر شهراً في السجن بعد أن سرق شركة لتمويل العقارات. أمر القاضي في حيثيات قرار الحكم بأن يتم ترحيل بازوفت بعد قضاء فترة حكمه وإطلاق سراحه، استأنف بازوفت الحكم على أرضية أنه سيتعرض للإعدام إذا عاد إلى إيران. ورغم رفض الاستئناف، تم منحه "إذناً استثنائياً" ليبقى في بريطانيا وقتاً غير محدد. وبقيت خلفية مثل تلك الخطوة غير الاعتيادية حبيسة سراديب وزارة الداخلية البريطانية.

تبقى مسألة طلب الموساد، الذي لاحظ إمكانية تجنيد بازوفت، من أحد السيانيم في وايتهول حلّ تلك المشكلة دون جواب. لكّن الاحتمال قائم.

بعد إطلاق سراح بازوفت من السجن، بدأ يعاني من نوبات من الإحباط التي كان يعالجها بجرعات صغيرة من الأدوية. اكتشف كاستا للموساد هذه الخلفية عنه. ولاحقاً، سيقول الكاتب الإنكليزي روبرت أليسون، وعضو البرلمان المحافظ، والخبير في أساليب تجنيد الاستخبارات بأن شخصية مثل بازوفت تجعل منه هدفاً رئيسياً للموساد.

تمكّن أبو العبد من تجنيد بازوفت بعد سنة من لقائهما الأول. كيف وأين تم ذلك يبقى ذلك غير معروف. كان الحصول على أموال إضافية أحد الاعتبارات المهمة بالنسبة لبازوفت والذي كان يعاني بسبب فقدانها. بالنسبة لشخص غالباً ما يرى الحياة من منظور الإثارة، قد يكون تحقيق أحد أحلامه - كونه جاسوساً مثل مراسل أجنبي آخر معجب به فيلبي، والذي عمل سابقاً مع الأوبزرفر كغطاء لعمله كجاسوس سوفياتي - عاملاً مهماً أيضاً.

الشيء المؤكد أن بازوفت بدأ باكتساب سمعة صغيرة لنفسه؛ وما كان يفتقده في أسلوب الكتابة، عوّض عنه بالأبحاث المتمكنة. كل ما كان يكتشفه في إيران كان يذهب مباشرة إلى كاستا في لندن. بالإضافة إلى كتابته القصص لصالح الأوبزرفر، قام بازوفت بمهمات لصالح أخبار تلفزيون الإندبندنت وصحيفة ميرور. كان نيكولاس

ديفز رئيس تحرير الأخبار العالمية في ديلي ميرور في ذلك الوقت. وكان يرتدي غالباً بذلة سفاري، ويبدو كما لو أنه قد خرج من كتاب سكوب لمؤلفته إيفلين ووغ. كان يتمتع بموهبة صحفية في نشر الإشاعات، وقدرة على احتمال الشراب، وكان مستعداً دائماً لشراء المزيد منه. كانت لهجته الإنكليزية الشمالية قد اختفت: قال زملاؤه إنه أمضى ساعات يتدرّب على نغمة الصوت الرخيمة التي يستعملها، وكانت النساء يُعجبن بأساليب تعامله الجيدة، وبالطريقة القيادية التي كان يطلب بها عشاءه وباختياره زجاجة جيدة من الشراب. وكن يحببن ذهنيته الحاضرة دائماً، وطريقته في الكلام عن الأماكن البعيدة كما لو أنها جزء من ممتلكاته الخاصة. أثناء تناول شراب آخر في وقت متأخر من الليل، كان يشير إلى مغامرات يقول عنها الآخرون بسخرية إنها ببساطة رومانسية حالمة.

لم يشك أحد للحظة واحدة فقط - زملاؤه في صحيفة ميرور، ودائرة أصدقائه الواسعة خارج العالم الصحفي، وحتى زوجته جانيت الممثلة الأسترالية المولد التي لمعت في مسلسل تلفزيوني ناجح عرضته BBC بعنوان "د. من" - بأن نعوم أدموني أعطى الإشارة الخضراء لتجنيد ديفز.

كان ديفز يؤكّد دائماً أنه حتى إذا كانت هناك محاولة، إلا أنه لم يصبح عميلاً للموساد أبداً، وأن وجوده في بهو الفندق في ظهيرة يوم الجمعة من نيسان كان بصفته صحفياً يراقب تجار السلاح وهم يقومون بعملهم. ولم يتذكر لاحقاً الموضوع الذي تحدّث به مع بازوفت عندما كانا في البهو، ولكنه قال: "أتخيل أنه كان حول ما يجري". ورفض التوسع في الشرح، وهو موقف حافظ عليه بثبات.

سافر الاثنان إلى العراق مع مجموعة صغيرة من الصحفيين (من بينهم مؤلف هذا الكتاب في مهمة لصالح برس أسوسييشن، وكالة الأنباء البريطانية القومية). وعلى متن الرحلة من لندن، أبهج ديفز المجموعة بقصصه البذيئة حول روبرت مكسويل الذي اشترى مؤخراً صحيفة ميرور، وأطلق عليه لقب "وحش الجنس الذي يتمتع بشهية كبيرة لإغواء السكرتيرات الموظفات لديه"، وأوضح بأنه قريب من مكسويل، وأنه: "من الرائع التواجد قرب الكابتن بوب، وهو يعرف أنني أعلم الكثير بحيث لا يستطيع صرفي من الخدمة". لم يُلقِ المستمعون بالاً لادعاء ديفز بأنه محصّن بسبب ما يعرفه عن الأسطورة، واعتبروه غلواً.

على متن الرحلة، كان بازوفت هادئاً، ولا يتحدث كثيراً مع الآخرين، ويكتفي بالحديث مع المرافقين بالفارسية. ساعدته مهاراته اللغوية في مطار بغداد على تجاوز

صعوبات الترجمة مع المنظمين العراقيين المخصصين لمرافقة الوفد. قال ديفز بصوت خافت إنهم رجال أمن فعلاً. قال ديفز متوقعاً: "هؤلاء الأشخاص التافهون لن يتعرّفوا إلى جاسوس حتى إذا كان واضحاً للعيان".

في فندق فلسطين - المريديان، أخبر مراسل ميرور زملاء السفر أنه موجود هنا فقط لأنه سئم كثيراً من لندن. لكنه أوضح أن لا نية له للتقيّد بجدول الرحلة الرسمي، والذي يتضمن زيارة إلى ساحة القتال في البصرة، حيث كان الجيش العراقي متلهفاً لإظهار الآثار التي خلّفتها الحرب بعد نصره على القوات الإيرانية. قال بازوفت إنه لا يعتقد أن الرحلة باتجاه الجنوب إلى الخليج ستكون محط اهتمام صحيفته.

في ذلك المساء من يوم الجمعة في نيسان سنة 1988، وبعد أن أمضى ساعات في بهو الفندق يراقب تجار السلاح يأتون ويذهبون، والحديث مع ديفز، تناول بازوفت طعامه وحيداً في مطعم الفندق. ورفض دعوة للانضمام إلى المراسلين الآخرين من لندن، وقال إن عليه "التفكير في جدول أعماله". تلقّى، أثناء تناول الطعام، مكالمة هاتفية في البهو. وعاد بعد عدّة دقائق مستغرقاً في أفكاره. غادر الطاولة بشكل مفاجئ رغم أنه كان قد طلب الحلويات، وتجاهل النكات البذيئة من بعض المراسلين بأن لديه فتاة في مخبأ بعيد.

لم يعد حتى اليوم التالي. حيث ظهر أكثر توتراً حتى، وقال لآخرين من بينهم كيم فلتشر - صحفي حر كان يعمل حينها لصالح ديلي ميل - إن "كل شيء على ما يرام بالنسبة لكم لأنكم بريطانيو الولادة والنشأة. أنا إيراني. وهذا يجعلني مختلفاً". لم يكن فلتشر الوحيد بين المراسلين الذين تساءلوا فيما إذا كان "بازوفت يحتج بعنف مجدداً على صعوبة أن تكون لشخص خلفية مثل تلك".

أمضى بازوفت معظم ذلك اليوم يجول في بهو الفندق أو في جناحه. غادر الفندق لفترة قصيرة مرتين، وفي البهو، أجرى عدّة محادثات مع نيكولاس ديفز، الذي قال لاحقاً إن بازوفت كان: "مثل أي شخص يلاحق قصة ما، ويتساءل فيما إذا كان يستطيع الحصول على ما يريده". ومن جهته، أعلن رئيس تحرير ميرور أنه لن يكتب أي شيء "لأنه لا يوجد شيء هنا يهم الكابتن بوب".

غادر بازوفت مرة أخرى الفندق في وقت متأخر من ظهيرة ذلك اليوم. وتبعه كالعادة مخبر عراقي. ولكن عندما ظهر بازوفت مجدداً، كان وحيداً. سمع المراسلون بازوفت يقول لديفز بأنه "لا يريد أن يتبعه أحد مثل غانية متهيجة جنسياً".

لم تؤثر ضحكة ديفز في التخفيف من حدّة مزاج بازوفت. صعد بازوفت مرة

أخرى إلى جناحه. وعندما ظهر مجدداً في البهو، أخبر عدّة مراسلين بأنه لن يعود إلى لندن معهم. وقال بصوت غامض كان يحب استخدامه أحياناً: "هناك شيء ما".

قال فلتشر: "لا بد أن هناك قصة جيدة وراء بقائه هنا". غادر بازوفت الفندق بعد ساعات. وكانت تلك آخر مرة يراه فيها أيّ من زملائه حتى ظهر في فيلم نشره النظام العراقي عالمياً بعد سبعة أسابيع من اعتقاله، والذي يتهمه فيه بأنه عميل للموساد.

خـــلال ذلك الوقت، كان بازوفت في مهمة للموساد كانت تتطلب مهارات كاسثا مدرّب جيداً. وكان قد تلقّى أوامر بمحاولة اكتشاف مدى تقدّم خطط جيرالد بول لتزويد العـــراق بـــالمدفع العمـــلاق. كان مجرد إسناد مثل هذه المهمة لصحفي يوضّح مدى اســـتعداد المشرفين عليه لاستغلاله. كان الموساد قد قام بخطواته الخاصة التي يظهر فيها بازوفت، في حال إلقاء القبض عليه، يعمل لصالح شركة مقرها لندن هي "أنظمة الدفـــاع المحدودة". عند اعتقال بازوفت بالقرب من أحد مواقع اختبار المدفع العملاق، وجـــد رجـــال الأمـــن العراقيون في حوزته أيضاً عدداً من الوثائق التي تدل على أن بازوفت أجرى عدّة مكالمات هاتفية من الفندق إلى مكاتب تلك الشركة. أنكرت الشركة أي معرفة ببازوفت، أو أي علاقة مع الموساد.

فـــي شريط الفيديو، ظهر بازوفت محدقاً بعينيه، قبل أن ترمشا بسرعة، ويجول برأســـه في الغرفة، وخلفه ستارة مرسوم عليها نباتات متعرّشة. كان يبدو مثل شخص يجزم بأنه لا يستطيع فعل شيء لتجنب مصيره المحتوم.

درس علمـــاء نفس الموساد في تل أبيب حالته. بالنسبة لهم، كانت التفاصيل التي تظهـــر علـــى بازوفـــت تشبه إلى حدّ بعيد ما يلاحظه المحققون الإسرائيليون عندما ينـــتزعون الاعـــترافات مـــن إرهابـــي بعد اعتقاله. مرّ بازوفت أولاً بمرحلة الإنكار الغريزي بأن ما يحدث يحصل له فعلاً. ثم أتى الإدراك الشامل والمفاجئ: هذا يحدث فعـــلاً. في تلك المرحلة، ربما كان المراسل تعرّض لنوعين آخرين من ردّات الفعل: الرعب المطلق والإجبار على الكلام. وربما يكون قد اعترف بأنه عميل للموساد التي تم تسجيلها على شريط فيديو في تلك المرحلة.

تـوحـــي نبرة صوته الرتيبة بأنه قد مرّ بأشواطٍ من الاكتئاب الخارج عن إرادته عندما أصبح في الأسر، وذلك نتيجة إبعاده عن المحيط المألوف له وانهيار نمط حياته العـــادي بالكامل. لا بد أنه شعر بالتعب المتواصل، وكان يشعر بالخمول الشديد نتيجة لحـــرمانه من النوم لفترات طويلة. كانت هناك مرحلة من الاتهام الذاتي الأكثر إيلاماً، كمـــا أن شـــعوره بفقـــدان الأمل كان يتزايد. استحوذ اتهامه لنفسه عليه، كما هو حال

السجين في رواية الكاتب كافكا بعنوان *المحاكمة* الذي شعر بأنه غبي بسبب التصرفات التي قام بها والتي عرّض بها الآخرين للخطر.

علـــى شـــريط الفـــيديو، أظهرت عينا بازوفت علامات على أنه تعاطى عقاقير معيـــنة. ووجـــد صـــيادلة الموســـاد أنـــه من المستحيل معرفة نوع العقاقير التي تم استخدامها.

كـــان نعـــوم أدمونـــي يعرف بأن مثل هذا الاعتراف المُذل الذي يحتويه شريط الفيديو كان مقدّمةً لإعدام بازوفت. أمر رئيس الموساد أخصائيي الحرب النفسية بشن حملة لإبعاد الأنظار عن الأسئلة المحرجة حول تورّط الجهاز مع بازوفت.

سرعان ما انتقد أعضاء في البرلمان البريطاني الأوبزرفر لإرسالها بازوفت إلى العـــراق. فـــي نفس الوقت، حصل مراسلون موضع ثقة على قصص تقول بأن صدام حســـين شـــاهد أفلامـــاً عـــن كل مراحل استجواب بازوفت. قد تكون تلك القصص صحيحة. الشيء المؤكد بأن ذلك كان سبباً في تذكير العالم بأن التعذيب والقتل كانا من أدوات سياســـة الدولـــة فـــي العراق. تم شنق بازوفت في بغداد في آذار سنة 1990، وكانت آخر كلماته على منصة الإعدام: "أنا لست جاسوساً إسرائيلياً".

فـــي لـــندن، قرأ نيكولاس ديفز تقرير الإعدام عبر رسالة وكالة رويترز للأنباء التي وصلت إلى مكتب المراسلين الأجانب لصحيفة ديلي ميرور. كما تنص التعليمات حـــول كـــل القصص من الشرق الأوسط التي يعتقد أنها مهمة، أخذ ديفز التقرير إلى مكتب روبرت مكسويل.

مـــنذ سنة 1974، كان الناشر أقوى سايان في بريطانيا. ويتذكّر ديفز: "قرأ بوب الـــتقرير دون التعليق عليه". ولكنه لم يستطع بكل صدق أن يعرف شعوره حول موت بازوفت.

فـــي تل أبيب، كان من ضمن من قرأوا عن الإعدام أحد أقوى الشخصيات التي خدمت جهاز التجسس الإسرائيلي، آري بن – ميناش. وقتها لم يكن بن – ميناش يعلم بوجود بازوفت. لكن ذلك لم يمنع شعور بن – ميناش المتقلب بالأسى لأن "رجلاً جيداً آخر كان في المكان الخطأ، وفي الزمن الخطأ". كانت مثل تلك الأحكام الانفعالية هي التي أبعدت بن – ميناش الوسيم، والسريع البديهة عن تولّي مهام أي موقع حساس في مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي. ورغم ذلك، احتفظ لحوالى عشر سنوات، من 1977 – 1987، بموقـــع حسّـــاس فـــي قســـم العلاقـــات الخارجية ERD في قوات الدفاع الإسرائيلية، وهي إحدى أقوى المنظمات وأكثرها سرية في مجتمع الاستخبارات.

أنشـأ رئيس الوزراء السابق إسحاق رابين ERD سنة 1974، كنتيجة للألم الذي شـعر بـه مـن المفاجـأة الكاملة التي تعرضت لها إسرائيل من الهجوم المصري – السوري في حرب يوم الغفران (أكتوبر)، قرّر بأن الطريقة الوحيدة لتفادي وقوع مثل ذلـك الفشـل فـي عمـل الاستخبارات مجدداً هي بوجود جهاز يراقب عمل أجهزة الاستخبارات الأخرى، ويقوم في نفس الوقت بجمع المعلومات.

تـم إنشاء أربعة فروع للعمل تحت مظلة ERD. وكانت أهمها SIM؛ وهي تقدّم مسـاعدة خاصة للأعداد المتزايدة من حركات *التحرر* في إيران، والعراق وبشكل أقل في سورية. الفرع الثاني RESH، ويتولى العلاقات مع شبكات الاستخبارات الصديقة. كـان على رأس تلك الشبكات مكتب أمن الدولة في جنوب أفريقيا. كان لدى الموساد وحـدة مشـابهة تدعـى TEVEL، التـي ترتبط بعلاقات وثيقة مع مجتمع الجمهورية الاسـتخباراتي. وكانـت العلاقـة بيـن RESH وTEVEL متوترة غالباً بسبب تداخل الصلاحيات.

كان مكتب الارتباط الخارجي، وهو الفرع الثالث من ERD، يتعامل مع الملحقين العسـكريين الإسـرائيليين وموظفي IDF الآخرين الذين يعملون وراء البحار. يشرف القسم أيضاً على نشاطات الملحقين العسكريين الأجانب في إسرائيل. كان ذلك سبباً في المـزيد من النـزاعات، ولكن هذه المرة مع الشين بيت، الذي كان لغاية ذلك الوقت الجهـاز الوحيد المسؤول عن مثل تلك النشاطات. كان الفرع الرابع من ERD يدعى استخبارات الاثنا عشر، والذي تم إنشاؤه للتنسيق مع الموساد. كان لهذا الفرع علاقات رديـئة مـع الأشخاص في الطوابق العليا للمبنى الواقع في جادة الملك سول، فقد كان هؤلاء يشعرون بأن ERD سوف يقلّص من صلاحياتهم.

كان بن – ميناش ملحقاً بـ RESH، مع مسؤولية محددة عن الحسابات الإيرانية. ووصـل في وقت كانت فيه إسرائيل على وشك فقدان حليفها القوي في المنطقة. فلمدة تـزيد عن الربع قرن، عمل شاه إيران جاهداً من خلف الستار لإقناع جيران إسرائيل العـرب على إنهاء عدائهم للدولة العبرية، وكان يحرز تقدماً طفيفاً، خصوصاً مع...، عـندما أطاحـت ثـورة آية الله الخميني الإسلامية بعرشه في شباط سنة 1979. سلّم الخميـني السـفارة الإسـرائيلية في طهران إلى منظمة التحرير الفلسطينية، وتحولّت إسـرائيل بالسـرعة نفسها نحو مساعدة الأكراد على شن حرب عصابات ضد النظام الجديـد. وفي نفس الوقت، استمرت إسرائيل بتزويد طهران بالسلاح لاستخدامه ضد العراق. كانت سياسة قتل الجانبين التي أيّدها ديفيد كيمش وآخرون في الموساد ملائمة

وشديدة الفاعلية.

سرعان ما وجد بن – ميناش نفسه مشتركاً في خطة ديفيد كيمش لمقايضة الرهائن بالسلاح مع إيران. سافر الرجلان معاً إلى واشنطن، وادّعى بن – ميناش بأنه قد تجول في أروقة البيت الأبيض الواسعة، والتقيا الرئيس ريغان، وكانا على قدم المساواة مع أقرب مساعديه.

كان بن – ميناش ساحراً وذا مواقف جريئة، وشخصية محبوبة في مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي، وكان يستطيع تبادل الأحاديث مع السياسيين. قليلون هم الذين كانوا يستطيعون رواية القصص بشكل أفضل من بن – ميناش. وفي الوقت الذي بدأ فيه كيمش عملية الرهائن – مقابل – السلاح، تم تعيين بن – ميناش *مستشاراً شخصياً* لرئيس الوزراء إسحاق شامير لشؤون الاستخبارات، أخبر شامير بأنه يعرف أين "تم دفن كل الجثث". قرر كيمش أن بن – ميناش خيار مثالي للعمل مع ضابط الاستخبارات الذي يعجبه أكثر من الآخرين، رافي إيتان. تم إنهاء تكليف بن – ميناش من كل المهام الأخرى ليعمل مع إيتان بموافقة كاملة من رئيس الوزراء. سافر الاثنان إلى نيويورك في آذار سنة 1981. وكان هدفهما، كما يتذكّر بن – ميناش، مباشراً: "أصدقاؤنا في طهران بأمس الحاجة للحصول على معدات إلكترونية متطورة لسلاحهم الجوي والدفاعات الأرضية والجوية. وبالطبع، تريد إسرائيل مساعدتهم قدر الإمكان في حربهم ضد العراق".

استخدم الاثنان في سفرهما جوازي سفر بريطانيين، وهي الجوازات المفضّلة لدى الموساد، وقاما بإنشاء شركة في مقاطعة نيويورك. وسرعان ما وظّفا فريقاً من خمسين سمساراً أخذ يجول في مصانع الإلكترونيات في الولايات المتحدة للحصول على المعدّات المناسبة. كانت كل المبيعات مصحوبة بوثائق تبين أن المستهلك النهائي سيكون إسرائيل فقط. يتذكّر بن – ميناش: "كانت لدينا مجموعات من الوثائق التي كنا نملأها ونرسلها إلى تل أبيب للاحتفاظ بها في السجلات في حال أراد أي شخص تفقد ما يجري".

كانت المعدّات تشحن إلى تل أبيب، وكان يتم تحويلها هناك، دون الدخول في الجمارك، إلى طائرة تقوم برحلات عارضة بين جينيس بيت في أيرلندا وطهران. كان استخدام جينيس بيت، وهي شركة الطيران المحترمة التي توظّف طيارين أيرلنديين، فكرة رافي إيتان. كان رافي يحافظ على ما يدعوه "العلاقات الأيرلندية. وعندما يتعلق الأمر بالصفقات، يفهم الأيرلنديون القواعد. وكل ما يهمهم هو الدفع في آخر اليوم".

عندما تزايد نشاط عملية نيويورك، أصبح من الضروري بناء شركة قابضة مركزية لتحويل مليارات الدولارات الناتجة عن عمليات شراء وبيع الأسلحة. كان الاسم الذي تم اختياره لتلك الشركة أورا أو *الضوء* باللغة العبرية.

في آذار سنة 1983، طلب رافي إيتان من بن - ميناش توظيف نيكولاس ديفز في أورا. ولا بد أن مدير الاستخبارات سمع عن ديفز من خلال الموساد؛ وبالمقابل لا بد أن الجهاز قد سمع عن ديفز من خلال بازوفت، الذي كان صحفياً مستقلاً يعمل لصحيفة ميرور. في وقت متأخر من ذلك الشهر، التقى بن - ميناش وديفز في بهو فندق تشرشل في لندن. وعندما غادرا، كان بن - ميناش يعرف أن "ديفز رجلنا المطلوب". في اليوم التالي، تناولا الغداء في منزل ديفز. كانت جانيت زوجة ديفز حاضرة. وسرعان ما تشكّل لدى بن - ميناش انطباع بأن ديفز خائف من فقدانها. "كان ذلك جيداً. هذا يجعله قابلاً للاختراق".

تقرّر دور ديفز الاستشاري في أورا أخيراً في اجتماع تم عقده في فندق دان أكاديا على شاطئ البحر إلى الشمال من تل أبيب. يتذكّر بن - ميناش: "اتفقنا على أن يكون صلة الوصل في لندن لشراء السلاح، وأن يكون مندوبنا لعقد الصفقات سواء الإيرانية أو الأخرى، وأن يتم استخدام عنوان منزله كمقر لأورا، وأن يستطيع أصدقاؤنا الإيرانيون استخدام هاتفه المباشر خلال النهار - 8223530 - في اتصالاتهم.

بالمقابل، سيحصل ديفز على عمولة تتناسب ودوره الجديد كلاعب رئيسي في عملية السلاح - إلى - إيران. بالمحصلة، سيتم تحويل 1.5 مليون دولار إلى حسابه المصرفي في غراند كايمان في بلجيكا واللوكسمبورغ. وسيذهب جزء من ذلك المال لتسوية طلاقه. لم تتلقَ جانيت سوى دفعة واحدة قدرها 50.000 دولار أميركي. سدّد ديفز كل ديونه المصرفية، واشترى منزلاً من أربعة طوابق، والذي أصبح مقراً لأورا في أوروبا، وكان هاتفه - 2310015 - صلة وصل أخرى لتجار السلاح الذين أصبحوا حينها جزءاً من حياة الصحفي.

عبر موقعه كمراسل أجنبي، بدأ ديفز بزيارة الولايات المتحدة، وأوروبا، وإيران والعراق.

لاحظ بن - ميناش أنه "خلال رحلاته يقدّم نفسه كممثل لمجموعة أورا. وكان عادة يرتّب اجتماعاً خلال عطلات نهاية الأسبوع، ويسافر إلى المدينة المعنية، ويعقد اتفاقاً حول كمية الأسلحة المطلوبة وطريقة التسديد".

في سنة 1987، تلقّى آية الله الإيراني علي أكبر هاشمي رفسنجاني برقية من أورا تتعلق بصفقة بيع أربعة آلاف صواريخ تو إلى إيران بقيمة 13.800 دولار أميركي لكل واحد منها. وانتهت البرقية بالتأكيد على أن نيكولاس ديفز ممثل *أورا ليمتد* لديه صلاحية توقيع العقود".

كانت تلك لحظة سعيدة بالنسبة لآري بن – ميناش، ونيكولاس ديفز والشخص القوي الذي كان يبدو أكبر في خلفية الأحداث المكشوفة روبرت مكسويل. لكن أحداً لم يشك للحظة واحدة بالحقيقة القاسية التي كان ديفز يقتبسها من تعابير هوليوود: "ليس هناك شيء مثل غذاء مجاني".


صفحة فارغة

الفصل التاسع

مال الممنوعات، والجنس والكذب

كانت الأشياء تبدو مختلفة تماماً في صبيحة ذلك اليوم من آذار سنة 1985 عندما استقل بن – ميناش رحلة الخطوط الجوية البريطانية من تل أبيب إلى لندن. وفيما كان يتـناول إفطاره المسموح به دينياً على متن الطائرة، أدرك أن الحياة لم تكن جيدة بهذا الشـكل مـن قـبل. فهو لم يكن يجني مالاً وفيراً وحسب، وإنما تعلّم الكثير من ديفيد كـيمش فـيما كانا يعملان في العالم البيزنطي لمبيعات الأسلحة إلى إيران. طوال تلك المـدة، عمّـق مـن ثقافـته حـول التفاعل المستمر بين السياسيين ورؤساء أجهزة الاستخبارات في إسرائيل.

كـان بـن – ميناش يعرف بأن ديفز يستمر في تكديس ثروته، الأكبر بكثير من راتبه السنوي البالغ خمس وستين ألف جنيه والذي يتقاضاه نتيجة عمله لصحيفة ديلي مـيرور، وكانت عمولة ديفز من أورا تعادل هذا المبلغ شهرياً. ولم يكن بن – ميناش يمـانع إذا أخذ الصحفي "قطعة إضافية من الكعكة؛ لأن هناك الكثير. وكانت تلك هي الأوقات السعيدة".

كـان روبرت مكسويل يوزّع الكعكة من مكتبه في أعلى مبنى ميرور لضيوفه. وعـندما حطّـت رحلـة الخطوط البريطانية، تم نقل بن – ميناش في سيارة ليموزين أرسـلها له مكسويل، وهي دلالة أخرى على مدى الأهمية التي أصبح يحظى بها الآن لديـه. كـان نعوم أدموني، مدير عام الموساد، في السيارة معه والذي سافر على متن رحلـة العـال التـي تتأخر ساعة عن طائرة الخطوط البريطانية. خطّط بن – ميناش لقضـاء الوقـت وهو ينتظر وصول أدموني إلى مطار هيثرو، ويفكّر كم أصبح هذا السلطان الإعلامي القوي أهم سايان جنّده الموساد.

تطـوّع مكسويل لتقديم خدماته في نهاية اللقاء الذي جمعه في القدس مع شمعون بـيريس بعـد وقت قصير من تشكيل الأخير حكومة اتحاد سنة 1984. ووصف أحد مساعدي بيريس اللقاء بأنه "الأنا تقابل جنون العظمة". كان بيريس متغطرساً ومستبداً.

لكــن مكســويل تابع الحديث وقال أشياء مثل "سأضخّ الملايين إلى إسرائيل، وسأنعش الاقتصــاد". كــان مــثل رجل يجري وراء منصب. كان مغالياً، ومعترضاً، ويخالف الآخريــن فــي الــرأي، ويقول نكات بذيئة. جلس بيريس هناك، وحيث كانت ابتسامة الأسكيمو لا تفارق وجهه".

أدرك بــيريس أن مكسويل طوّر خلال السنين علاقات قوية في أوروبا الشرقية، ولهذا رتّب له لقاءً مع أدموني. جرى اللقاء في الجناح الرئاسي، في فندق الملك ديفيد في القدس، الذي كان مكسويل ينــزل فيه. وجد مكسويل وأدموني أرضية مشتركة في خلفيــتهما التي تعود إلى أوروبا الوسطى؛ فقد كان مكسويل من مواليد تشيكوسلوفاكيا (وهذا ما دفع بيريس لقول إحدى النكات التي يعرفها: "إنه التشيكي القوي الوحيد الذي أعرف أن لديه مالاً"). اشترك كلا الرجلين في الالتزام القوي بالصهيونية والإيمان بأن إسرائيل لديها حق إلهي بالعيش. كما كان لديهما شغف بالطعام والشراب الجيد أيضاً.

كــان أدمونــي مهتماً كثيراً بوجهة نظر مكسويل بأن كلاً من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي لديهما رغبة متشابهة في تحقيق الهيمنة العالمية، لكن عبر أساليب مخــتلفة تماماً. كانت روسيا تعتبر الفوضى العالمية جزءاً من استراتيجيتها، فيما ترى واشــنطن العــالم مــن مــنظور *أصدقاء وأعداء* وليس أمماً تملك مصالح أيديولوجية متعارضة. قدّم مكسويل وجهات نظر مختلفة: علاقة CIA السرية مع نظيرتها الصينية التــي تســبب القلــق لوزارة الخارجية، والتي تجد أنها قد تؤثر على سياسات وأفعال دبلوماسية مستقبلية.

رســم أســطورة المــال صوراً لرجلين يحظيان باهتمام كبير من أدموني. قال مكســويل إنــه بعــد لقائــه رونالد ريغان، قد خرج بانطباع أن الرئيس متفائل دائماً، ويســتخدم ســحره الخــاص لإخفــاء سياسي قاسٍ خلفه. وكان أكثر ما يتعلق بريغان خطورة أنه يبسّط الأمور كثيراً، ولا يبالي بالشرق الأوسط.

قــابل مكسويل ويليام كيسي أيضاً، وكوّن رأياً عن مدير CIA بأنه رجل ذو أفق ضــيق وليس صديقاً لإسرائيل. كان كيسي يدير وكالة "هائلة بقدراتها" إلا أن أفكارها عتــيقة الطــراز حــول دور الاستخبارات على الساحة الدولية الحالية. بحسب رأي مكسويل، كان ذلك دليلاً واضحاً على أن كيسي يخطئ قراءة النوايا العربية في الشرق الأوسط.

توافقــت تلك الآراء مع ما يفكر به نعوم أدموني. وبعد الاجتماع، انتقلا بسيارة أدمونــي إلى مقر قيادة الموساد، وقام المدير العام باصطحاب أسطورة المال في جولة

إلى أهم مرافق الجهاز.

بعد سنة من ذلك، وفي 15 آذار سنة 1985، التقيا مجدداً. وعندما دخل أدموني وبن - ميناش جناح مكتب مكسويل في مقر صحيفة ميرور في لندن، أعلن مضيفهما بـأن شخصاً آخر سيكون حاضراً ليشاركهم الفطائر، والسلمون المدخّن والقهوة التي كان مكسويل يأمر بأن تكون جاهزة كلما كان في المبنى.

مثل ساحر يخرج الأرنب من القبعة، قام مكسويل بتقديم فكتور شيبريكوف، نائب رئيس KGB، وأحد أقوى مدراء الاستخبارات في العالم. وفي إيجاز معبّر، قال بن - ميناش لاحقاً بأن "تواجد قائد من KGB في مكتب ناشر صحيفة بريطاني قد تبدو فكرة خيالـية. لكـن في ذلك الوقت كان الرئيس غورباتشوف على علاقة ودية جداً برئيسة الوزراء مرغريت تاتشر، ولهذا كان مقبولاً وجود شيبريكوف في بريطانيا".

ما كان قابلاً للنقاش هو ما وضعه مؤسس "التاتشرية" ومبادئها في التجارة الحرة على جدول الأعمال لذلك اللقاء. قاد أدموني وبن - ميناش المناقشات وهما مسترخيان علـى المقاعد الجلدية الوثيرة ذات الصناعة اليدوية في مكتب مكسويل. وأرادا معرفة أنـه في حال *تحويل مبالغ معقولة من المال* إلى مصارف في الاتحاد السوفياتي، هل يستطيع شيبريكوف تأمين سلامتها؟ وكانت الأموال من أرباح أورا الناتجة عن مبيعات الأسلحة الأميركية إلى إيران. سأل شيبريكوف عن مقدار المبلغ المراد تحويله. أجاب بـن - ميناش: "أربعمئة وخمسون مليون دولار أميركي. بالإضافة إلى دفعات لاحقة بنفس القيمة. مليار، وربما أكثر". نظر شيبريكوف إلى مكسويل كما لو أنه يريد التأكد أن ما سمعه صحيح. وهزّ مكسويل رأسه مشجّعاً، وأضاف: "هذه هي البيروسترويكا!"

كانت بساطة الصفقة بالنسبة لبن - ميناش عامل جذب إضافي، ولن تكون هناك كوكبة من الوسطاء الذين يقتطعون حصتهم من العمولة. لن يكون هناك سوى مكسويل مـع علاقاتـه، وشيبريكوف بسبب قدرته على إنجاح الأمر. كان اشتراكه ضماناً بأن السوفيات لن يسرقوا أي مبالغ مالية. وتم الاتفاق على تحويل المبلغ الأول البالغ 450 مليون دولار من مصرف الاعتماد السويسري إلى مصرف بودابست في المجر. حيث يسـتطيع المصـرف المجـري تحويـل المـال إلى مصارف أخرى في المجموعة السوفياتية".

سيتم دفع عمولة مقدارها 8 ملايين دولار إلى روبرت مكسويل لإتمامه الصفقة. فـي الـنهاية، عقـدت الصـفقة بالمصافحة. اقترح مكسويل شرب الأنخاب احتفالاً برأسـمالية روسيا المستقبلية. سافر الضيوف بعد ذلك في مروحية أسطورة المال إلى

مطار هيثرو للحاق برحلتهم إلى الوطن.

بغضّ النظر عن نيكولاس ديفز، لم يعلم أي من الصحفيين في مبنى ميرور بأنه أضـــاع قصة لا مثيل لها. وسرعان ما ستتلاشى قصة أخرى من بين أصابعهم عندما قلل مكسويل من مهارتهم الصحفية في محاولة لحماية إسرائيل.

فـــي بدايـــة علاقـــته مع الموساد، تم الاتفاق على أن مكسويل كان أثمن من أن يشـــترك فـــي أنشـــطة اســـتخباراتية روتينـــية، ووفقـــاً لعدد من الضباط في مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي: "كان مكسويل يتمتع بأهمية بالغة بالنسبة للموساد. كان يفتح الأبـــواب نحـــو المناصـــب العالـــية. كانت قوة صحيفته تعني بأن الرؤساء، ورؤساء الوزراء على استعداد لاستقباله. وبسبب مكانته، كانوا يتحدثون إليه بصفته رجل دولة، ولـــم يدركـــوا أبداً أين ستنتهي المعلومات التي يزوّدونه بها. كان الكثير مما استطاع الحصول عليه ليس أكثر من مجرد أقاويل، لكن جزءاً منها كان حقيقياً دون شك. كان مكســـويل يعـــرف كـــيف يطـــرح الأسئلة. لم يتلقَ أي تدريب منا، لكنه حصل على توجيهات عن الأمور التي تهمّنا".

فـــي 14 أيلـــول سنة 1986، اتصل روبرت مكسويل بنعوم أدموني على خطه المباشر لينقل إليه أخباراً بالغة السوء. لقد أجرى أوسكار غوريرو، الصحفي المستقل الكولومبي المولد، اتصالاً مع صحيفة صنداي ميرور التي يملكها مكسويل لنشر قصة مثيرة؛ قصة ستمزّق الغطاء المحبوك بعناية لتمويه الهدف الحقيقي من مفاعل ديمونا. ادّعـــى غوريرو بأنه استقى المعلومات من تقني سبق له أن عمل في المصنع النووي. كـــان الـــرجل، خـــلال ذلك الوقت، قد قام سراً بجمع صور ودلائل أخرى تؤكد بأن إســـرائيل قد أصبحت آنذاك قوة نووية رئيسية، وتمتلك ما لا يقل عن مئة رأس نووي بقدرات تدميرية مختلفة.

كـــان يـــتم تسجيل هذه المكالمة آلياً مثل كل المكالمات الهاتفية من وإلى رئيس الموســـاد. وادّعى ذلك العضو في مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي لاحقاً بأن الشريط يحتوي على الحديث الآتي:

أدموني: "ما اسم هذا التقني؟"

مكسويل: "فعنونو. مردخاي فعنونو".

أدموني: "أين هو الآن؟"

مكسويل: "سيدني، أستراليا، على ما أعتقد".

أدموني: "سأتصل بك لاحقاً".

كانت أول مكالمة يجريها أدموني إلى رئيس الوزراء شمعون بيريس، الذي أمر باتخـــاذ كل الإجراءات "لتأمين الوضـع". كان بيريس قد منح الإذن بهذه الكلمات للقيام بعملية تتطلب مرة أخرى كفاءة عالية من الموساد.

سرعان ما أكّد موظفو أدموني أن فعنونو عمل في ديمونا من شباط سنة 1977 إلى تشرين الثاني سنة 1986. وكان مركزه في ماشون – تو (الوحدة الثانية)، الأكثر ســرية بين كل أقسام المصنع العشرة. وكان المبنى الخرساني الخالي من النوافذ يبدو مـــن الخارج مثل مستودع. لكن جدرانه كانت سميكة بما فيه الكفاية لمنع أقوى آلات تصـــوير الأقمار الصنعية من التسلل إليه. وداخل المبنى المحصّن، كان هناك جدران مزيفة تقود إلى مصاعد تعمل بين ستة طوابق حيث يتم تصنيع الأسلحة النووية.

كـــان تصـــريح فعنونو الأمني كافياً للوصول إلى كل زاوية من ماشون – تو. وكانت بطاقته الأمنية الخاصة – رقم 520 – إضافة إلى توقيعه على وثائق إسرائيلية رســـمية سرية يضمنان عدم تعرّض أحد له عندما يقوم بواجبه كميناهل – مراقب في المناوبة الليلية.

قـــيل لأدمونـــي المصـــعوق بأنه من المؤكد أن فعنونو يقوم منذ شهور بتصوير تفاصيل ماشون – تو سراً: لوحات التحكم، وصناديق المواد الإشعاعية، وآلات تصنيع القـــنابل النووية، وأشارت الدلائل إلى أنه احتفظ بالأفلام في خزانة ملابسه، حيث قام بتهريبها إلى خارج ما يُفترض أنه أكثر الأماكن سرية في إسرائيل.

أمر أدموني بمعرفة كيف قام فعنونو بكل ذلك؛ وربما المزيد. وهل هناك احتمال بـــأن يكون قد عرض تلك المواد على CIA؟ أو على الروس؟ أو على البريطانيين أو حـــتى الصينيين؟ لأنه عندها لا يمكن حصر الضرر. سيتم اعتبار إسرائيل كاذبة أمام العالم – كاذبة مع القدرة على تدمير قسم كبير من العالم. من هو فعنونو؟ ولصالح من كان يعمل؟

ســـرعان ما تتالت الإجابات. كان فعنونو يهودياً مغربياً، مولود في 13 تشرين الأول ســـنة 1954 فـــي مـــراكش، وكان والداه صانعي أحذية متواضعين. في سنة 1963، عـــندما تحولـــت معـــاداة السامية – التي لم تكن أبداً بعيدة عن السطح في المغرب – إلى عنف مفتوح، هاجرت العائلة إلى إسرائيل واستقرت في بلدة بيرشيبا في صحراء النقب.

عـــاش مردخاي حياة عادية عندما كان مراهقاً. وكما هو حال أي شاب آخر، تم تجنـــيده في الجيش الإسرائيلي عندما حان الوقت. وبدأ يفقد شعره بشكل واضح، مما

جعله يبدو أكبر من عمره البالغ عندها تسع عشرة سنة. وصل إلى رتبة رقيب أول في وحـدة نـزع الألغام المتمركزة في مرتفعات الجولان، وبعد انتهاء الخدمة العسكرية، الـتحق بجامعـة رامـات أبيـب في تل أبيب. وغادر الحرم الجامعي بعدما فشل في اختبارين في نهاية سنته الأولى من دراسة الفيزياء.

فـي صـيف سنة 1976، تقدّم إلى وظيفة تقنيين متدربين كان مفاعل ديمونا قد أعلـن عـنها. بعد مقابلة مطوّلة مع ضابط أمن المنشأة، تم قبوله للتدريب وإخضاعه لـدورة مكثّفة في الفيزياء، والكيمياء، والرياضيات واللغة الإنكليزية. وأبلى بلاءً حسناً ليلتحق بديمونا أخيراً كتقني في شباط سنة 1977.

تـم تعييـن فعـنونو مشرفاً في تشرين الثاني سنة 1986. وفي ملفه الأمني في ديمونا، كان من الملاحظ أن أفكاره "يسارية متطرفة ومناهضة للعرب". غادر فعنونو إسـرائيل إلـى أسـتراليا، ووصل سيدني في أيار من السنة التالية. في مكان ما من رحلته، التي يقوم بها الشباب الإسرائيلي عبر الشرق الأقصى، أعلن فعنونو عن إيمانه القـوي بالـتحول عن الديانة اليهودية ليصبح مسيحياً. بدأت الصورة التي قدمت عن فعـنونو مـن عشرات المصادر تتضح لأدموني فهي تقدّم شاباً غير جذاب ويبدو أنه مـنعزل عـن محـيطه: لم تكن له صداقات في ديمونا؛ ولم تكن لديه صديقة حميمة، وأمضـى وقته في المنـزل يقرأ الكتب الفلسفية والسياسية. أخبر علماء نفس الموساد أدموني أن رجلاً مثل ذلك قد يكون متهوراً، ولديه قيم عليا، وغالباً ما يكون خائباً. قد تكون تلك النوعية من الشخصيات خطيرة بشكل غير متوقع.

الـتقى فعـنونو في أستراليا أوسكار غوريرو، وهو صحفي كولومبي يعمل في سـيدني، عـندما كان يعمل في طلاء كنيسة، وسرعان ما لفّق الصحفي الثرثار قصة غريبة كانت مصدر سعادة لأصدقائه في حي الملك في سيدني. ادّعى أنه ساعد عالماً نوويـاً إسرائيلياً على تسريب تفاصيل خطط إسرائيل الحقيقية لضرب جيرانها العرب بقـنابل نووية، وأن ذلك العالم - وفي خطوة تسبق الموساد - يختبئ الآن في منـزل آمـن في ضاحية المدينة، وأن غوريرو أصبح آنذاك العقل المدبّر لما كان يدعوه "بيع قصة القرن".

ثار غضب فعنونو من مثل تلك الادعاءات التي لا أساس لها من الصحة، وكان فعـنونو، الـذي التزم النهج السلمي، يريد أن تظهر قصته في حلقات متسلسلة لتحذير العـالم من التهديد الذي تمثّله إسرائيل بقدرتها النووية. على كل حال، اتصل غوريرو بمكتـب صـحيفة صـاندي تايمز في مدريد، حيث قامت الصحيفة اللندنية التي تتمتع

بسمعة شجاعة بإرسال مراسل إلى سيدني للقاء فعنونو.

سرعان ما تداعت أوهام غوريرو تحت ضغط الأسئلة. بدأ الكولومبي يشعر بأنه على وشك فقدان السيطرة على قصة فعنونو، وازداد خوفه عندما قال مراسل صاندي تايمز بأنه سيسافر مع فعنونو إلى لندن، حيث يمكن التأكد من صحة ادعاءاته. خطّطت الصحيفة لاستجواب التقني من قبل أحد علماء الذرة البريطانيين البارزين.

شاهد غوريرو كلاً من فعنونو ورفيق سفره يصعدان على متن الطائرة إلى لندن، وتعمقت شكوكه في تلك اللحظة. كان يحتاج إلى نصيحة في كيفية إدارة الوضع، والشخص الوحيد الذي فكّر فيه كان عضواً سابقاً في جهاز الاستخبارات والأمن الأسترالي ASIS. أخبره غوريرو بأنه تعرض لعملية احتيال في قصة ستهز العالم، ووصف بالضبط ما قام فعنونو بتهريبه خارج ديمونا؛ ستون صورة مأخوذة من ماشون - تو، إضافة إلى خرائط ومخططات بيانية. كانت تكشف بما لا يدع مجالاً للشك بأن إسرائيل كانت القوة النووية السادسة في العالم.

عاند الحظ غوريرو مرة أخرى. فقد اتصل بالرجل الخطأ. لقد قام عميل ASIS السابق بالاتصال بالمشرفين عليه وأعاد عليهم ما أخبره إياه غوريرو. كانت هناك علاقة عمل وثيقة بين الموساد وASIS. كان الجهاز الأخير يقدّم معلومات عن تحركات الإرهابيين(*) العرب الذين يغادرون الشرق الأوسط إلى المحيط الهادئ. قام جهاز ASIS بإخبار الكاستا الملحق بالسفارة الإسرائيلية في كانبيرا عن الاتصال من عميله السابق. أرسلت المعلومات مباشرة عبر الفاكس إلى أدموني. كانت أخبار مقلقة أكثر قد وصلت إليه في ذلك الوقت. ففي رحلته إلى أستراليا، توقف فعنونو في نيبال، وزار السفارة السوفياتية في كاتمندو. هل ذهب إلى هناك لعرض دليله على السوفيات؟

استغرق الأمر من سايان للموساد ضمن موظفي ملك نيبال ثلاثة أيام لاكتشاف أن هدف فعنونو الوحيد من الذهاب إلى السفارة كان السؤال عن وثائق السفر التي يحتاجها لقضاء إجازة في الاتحاد السوفياتي في وقت لاحق لم يحدده، وفي طريقه حصل على كمية كبيرة من الكتيبات.

في الساعات التي تلت سفر فعنونو إلى لندن مع مراسل صاندي تايمز، حاول غوريرو جني بعض النقود - فقدّم نسخاً عن وثائق فعنونو إلى صحيفتين أستراليتين اللتين رفضتا المواد لأنها أجنبية.

(*) وفقاً للوصف الإسرائيلي.

ازداد يـــأس غوريـــرو، وسافر إلى لندن محاولاً اللحاق بفعنونو. ترك غوريرو الوثـــائق لـــدى صنداي ميرور بعدما فشل في العثور عليه، وكان من ضمنها صورة لفعـــنونو مأخوذة في أستراليا. في غضون ساعات قليلة، عرف نيكولاس ديفز بأنهما كانـــا هناك، وأخبر مكسويل فوراً. اتصل الناشر بأدموني. وبعد عدّة ساعات، وعندما اتصـــل رئـــيس الموساد مجدداً بمكسويل، تلقّى أدموني صدمة أخرى. كانت صنداي تايمـــز تـــأخذ قصـــة فعنونو على محمل الجد، وكنتيجة لما تقدّم كان من المهم للغاية معرفة ما الذي قام التقني بتصويره. وكان هناك أمل بأن يكون الضرر الذي سيتسبّب بـــه رد الفعل محدوداً حتى يمكن التعامل معه. حملت التقارير الواردة من كانبيرا بأن الحافـــز الأكـــبر المحرّك لغوريرو هو المال. وإذا تم إظهار فعنونو بأنه يملك طموحاً ممـــاثلاً، سيكون ممكناً عندها شن حملة تزييف ناجحة للحقائق ترتكز على أن صنداي تايمز قد تعرضت للخداع من قبل رجلين محتالين.

تـــم اســـتدعاء آري بن – ميناش الذي لا يتعب مرة أخرى لتولّي المهمة. طلب أدمونـــي مـــنه الســـفر إلى لندن للحصول على نسخ الوثائق التي قدّمها غوريرو إلى صنداي ميرور. استدعى بن ميناش لاحقاً صحفي التحقيقات الأميركي المحنّك سيمور هـــيرش الـــذي يقول: "رتّب ديفز لقاء غوريرو مع الصحفي الأميركي "البارز" – أي هـــيرش. عـــرض غوريـــرو، المتلهف لبيع قصته، خلال اللقاء بعض صور فعنونو الملونـــة. ولم يكن لديَّ، أي بن – ميناش، أدنى فكرة فيما إذا كانت مهمة. وكان يجب أن يراها خبراء من إسرائيل. فتابع بن – ميناش أخبرت غوريرو بأنني أحتاج لنسخ. وامتـــنع عـــن تزويدي بها. قلت له إنني أريد التأكد من حقيقتها إذا كان يريد مالاً وأن نـــيك سيكفلني". قام غوريرو بتسليم بن – ميناش عدة صور، والتي تم إرسالها إلى تل أبيب.

أثـــار وصول تلك الصور المزيد من القلق. وتعرّف مسؤولون من ديمونا على "ماشـــنون – تو" من الصور. كانت إحدى الصور تظهر المنطقة التي يتم فيها تصنيع القنابل الأرضية النووية قبل أن يتم زرعها على طول الحدود مع سورية في مرتفعات الجـــولان. ولـــم يكن هناك شك بأن أحداً قادر على تدمير مصداقية فعنونو. كان أي فيزيائي نووي قادراً على تحديد ماهية استخدام تلك المعدّات.

شـــكّل رئيس الوزراء بيريس فريق أزمة لمراقبة الوضع، واقترح بعض رؤساء الأقســـام في الموساد أن يتم إرسال فريق كيدون إلى لندن للعثور على فعنونو وقتله. رفـــض أدمونـــي الفكـــرة، ولم يكن لدى صنداي تايمز مساحة كافية لنشر كل ما قاله

فعنونو للصحيفة؛ كان الأمر يتطلّب كتاباً كاملاً ليحتوي على كل المعلومات التي كانت بحـوزة فعنونو. لكن حالما انتهت الصحيفة من فعنونو، كان هناك احتمال بأن يسعى جهازا M16 وCIA لاستجوابه، وعندها ستواجه إسرائيل المزيد من المشاكل. كان من المهـم معرفة كيف استطاع فعنونو تنفيذ نشاطاته التجسسية في ديمونا وفيما إذا عمل وحيداً أو مع آخرين، وفي حال كانت الفرضية الأخيرة صحيحة فلصالح من يعملون. وكانت الطريقة الوحيدة لاكتشاف ذلك إعادة فعنونو إلى إسرائيل لاستجوابه.

كان أدموني يحتاج إلى طريقة لإخراج التقني من المكان الذي تخفيه فيه صنداي تايمـز. وكان من الأسهل التعامل مع فعنونو علناً، وفي النهاية إذا كان لا بد من قتله، لـن تكون المرة الأولى التي يرتكب فيها الموساد جريمة في شوارع لندن. وفي سعيه وراء الذيـن اقترفوا مجزرة الرياضيين الإسرائيليين في الألعاب الأولمبية في ميونيخ، قام الموساد بقتل أحد أعضاء مجموعة *أيلول الأسود* في حادث سيارة معّد بعناية عندما كان يسير عائداً إلى فندق بلومزبوري.

فـي لندن، كانت صنداي تايمز تدرك أن إسرائيل ستفعل كل ما بوسعها لتشويه سـمعة فعـنونو، ورتّبـت له لقـاءً مع د. فرانك بارنابي، وهو فيزيائي نووي يحمل شـهادات علـيا وعمل في منشأة تصنيع الأسلحة النووية البريطانية في ألدرماستون. توصل بارنابي إلى نتيجة مفادها أن الصور والوثائق أصلية وأن التفاصيل التي قدّمها التقني دقيقة.

بعـد ذلك، قامت صنداي تايمز بخطوة قاتلة. حيث قدّم مراسلها ملخصاً عن كل مـا كشـفه فعـنونو للسفارة الإسرائيلية في لندن، إضافة إلى صور عن جواز سفره، والصـور التـي الـتقطها مـع شهادة بارنابي. كانت الغاية من ذلك إجبار الحكومة الإسـرائيلية على الاعتراف بالأمر. عوضاً عن ذلك، رفضت السفارة استلام الوثائق لأنه "ليس لها أساس من الصحة أبداً".

سـبّبت تلـك النسـخ التي تم تقديمها إلى السفارة المزيد من القلق. وكان الأمر بالنسبة لين – ميناش: "كانت القطة خارج الحقيبة. وكانت ما تزال في لندن عدما قال ديفـز إن مكسـويل يرغب برؤيتي. والتقينا في نفس المكتب الذي وافقت فيه على أن أدفع له 8 ملايين دولار أميركي كعمولة لإخفاء أموالنا خلف *الستارة الحديدية*. أوضح مكسويل أنه يتفهم ما ينبغي فعله بخصوص قصة فعنونو، وقال إنه تحدّث إلى رئيسي فـي تل أبيب". نتيجة لذلك الاتصال، توصل أدموني أخيراً إلى طريقة لإخراج فعنونو إلى العلن.

تضمّن العدد التالي من صنداي ميرور صورة كبيرة لمردخاي فعنونو، إضافة إلى قصة تجعل من التقني وأوسكار غوريرو محطّ سخرية الجميع، وتصف الكولومبي بأنه كاذب ومحتال، وأن الادعاء حول قدرة إسرائيل النووية ليس سوى خدعة. قام مكسويل بإملاء التقرير بنفسه وأشرف أيضاً على رسم صورة فعنونو النهائية. هكذا تم إطلاق أول رصاصة في حملة تزييف الحقائق التي قادها قسم الحرب النفسية في الموساد.

أصبح فعنونو بعد قراءة ذلك متحفّزاً لدرجة أنه أخبر "القائمين عليه" من صحيفة صنداي تايمز - المراسلين الذين رافقوه منذ وصوله إلى لندن - أنه يريد الاختفاء. "لا أريد أن يعرف أحد مكاني".

كان التقني المذعور يقيم في آخر فندق اختاره له القائمون عليه - مونتابن - بالقرب من جادة شافتسبوري في وسط لندن.

بعد المقال، الذي نشرته صنداي ميرور، تم تعبئة السيانيم في لندن لإيجاد فعنونو. استلم كل فرد من المتطوعين اليهود الموثوقين لائحة بالفنادق والمباني السكنية التي يجب عليه تفقّدها، وفي كل مرة كانوا يقدّمون تفاصيل لفعنونو من الصورة المنشورة في صنداي ميرور، ويدّعون أنهم أقارب له يبحثون عنه.

يوم الأربعاء 25 أيلول، تلقّى أدموني معلومات من لندن تفيد بأنه تم تحديد موقع فعنونو. وبذلك، حان الوقت للانتقال إلى المرحلة التالية من خطته.

كانت العلاقة بين عمل الاستخبارات والمكائد الجنسية قديمة قدم التجسس نفسه. وفي كتاب موسى (عليه السلام) الرابع، أنقذت الغانية *رهاب* حياة جاسوسين يعملان لصالح جوشوا من رجال مكافحة التجسس الذين يعملون لصالح الملك جيريكو، وهذا أول لقاء مسجّل بين أقدم مهنتين في التاريخ. كانت ماتا هاري إحدى ورثة *رهاب* في أعمال الحب - و - التجسس، وهي غانية ألمانية عملت لصالح الألمان في الحرب العالمية الأولى وأعدمها الفرنسيون. منذ البداية، أدرك الموساد أهمية المكائد الجنسية، وكان الأمر بالنسبة لمير عميت:

"كان ذلك سلاحاً آخر. تتمتع المرأة بمهارات لا يتقنها الرجل ببساطة. وهي تعرف كيف تستمع. وحديث الوسادة ليس مشكلة بالنسبة لها، ويمتلئ تاريخ الاستخبارات الحديثة بحالات عن نساء يستخدمن الجنس لصالح بلادهن. والقول بأن إسرائيل لم تستخدم تلك الطريقة ليس سوى قول مخادع. لكن نساءنا متطوعات، ومبادئهن نبيلة، ويعرفن المخاطر التي قد يتعرّضن لها. يتطلب ذلك نوعاً خاصاً من

الشجاعة. الأمر لا يتعلق بالنوم مع شخص ما، وإنما دفع رجل ما للاعتقاد بأنهن سيفعلن ذلك مقابل ما سيقوله لهن، ولا يمكن وصف المهارات الرائعة التي تتطلب تحقيق ذلك".

اختار نعوم أدموني عميلة تتمتع بكل تلك المزايا لجذب مردخاي فعنونو إلى قبضة الموساد.

كانت شيرل بن - توب *بات ليفا* وهي أقل درجة من كاستا. ولدت لعائلة يهودية ثرية في أورلاندو، فلوريدا، ورأت نهاية زواج والديها المتمثل بطلاق مرير، ووجدت في الدراسات الدينية عزاءً لها، مما قادها لقضاء ثلاثة شهور في مزرعة يهودية جماعية في إسرائيل. انغمست هناك بالتاريخ اليهودي واللغة العبرية، وقرّرت البقاء في إسرائيل. في سن الثامنة عشر، التقت يهودياً مولوداً في فلسطين ووقعت في حبه، ويدعى عوفر بن - توب. كان يعمل لدى *أمان* كمحلل. وتزوج الثنائي بعد سنة من لقائهما.

كان من بين الضيوف عدد من أعضاء الاستخبارات الإسرائيلية البارزين، ومن ضمنهم مدعو من ميلوخا، وهي إدارة التجنيد في الموساد. خلال مأدبة الزواج، طرح على شيرل الأسئلة التي تتوقعها أي عروس. هل ستعمل؟ هل ستشكل عائلة في الحال؟ وفي إثارة الاحتفال، قالت شيرل إن خطتها الوحيدة هي إيجاد طريقة لرد شيء ما لبلدها الذي أعطاها الكثير، وأشارت إلى إسرائيل على أنها عائلة. وبعد شهر من عودتها من شهر العسل، تلقّت اتصالاً من ضيف مأدبة الزواج: قال إنه يفكّر بما كانت تتحدث حوله، وربما كانت هناك طريقة لمساعدتها.

اتفق الاثنان على اللقاء في مقهى في وسط تل أبيب، وأدهشها بمعرفته لعلاماتها المدرسية، وتاريخ عائلتها، وكيف التقت زوجها. وربما شعر بغضبها نتيجة انتهاك خصوصيتها، ولذلك شرح لها بأن كل تلك المعلومات موجودة في ملف زوجها في *أمان*.

فهم ضابط التجنيد أن العلاقة بينه وبين المجندة المحتملة تتطلب الحذر والبراعة، وتم تشبيه تلك العلاقة بعرّاف يحاول إدخال مستجد إلى جمعية سرية لها رموزها، وتعاويذها وطقوسها الخاصة: إنهم أتباع *أورفيوس* دون أن يكونوا من محبي الموسيقى. بعد أن أخبر شيرل لصالح من يعمل، زوّدها بجزء من الصورة، وهي أن الموساد يبحث دائماً عن أشخاص يريدون خدمة بلدهم. وهذا ما أحس به عندما قارنت إسرائيل خلال حفلة زواجها مع عائلة. حسناً، لقد كان الموساد يحب ذلك. وحالما يتم

قبولكِ ستصبحين جزءاً من عائلته، وسيعمل على حمايتك ورعايتك. بالمقابل ستخدمين العائلة بأي طريقة تطلبها منكِ. هل كانت مهتمة؟

كانت شيرل مهتمة. أخبرها ذلك الرجل بأنها ستخضع لعدّة اختبارات أولية. وخلال الشهور الثلاثة التالية، خضعت لعدد من الفحوص المكتوبة والشفهية في عدّة منازل آمنة حول تل أبيب. جعلت منها معلوماتها الغزيرة - سجّلت باستمرار معدل 140 في تلك الاختبارات - وخلفيتها الأميركية، وثقافتها العامة، ومهاراتها الاجتماعية مجندة فوق العادة. وتم إخبارها بأنها صالحة للتدريب.

كان عليها قبل ذلك حضور جلسة أخيرة مع الضابط الذي قام بتجنيدها، حيث أخبرها أنها على وشك دخول عالم لا تستطيع مشاركة خبراتها فيه مع أحد، ولا حتى مع زوجها. وفي مثل هذا المكان الموحش، ستشعر بالحاجة إلى من تثق به، لكنها لا تستطيع الوثوق بأحد عدا زملائها. ستتلقى دروساً في الخداع، وتتعلم استخدام أساليب تنتهك أي شعور بالحشمة والكرامة؛ ويجب أن تتقبل طرقاً جديدة للقيام بالأشياء. ستجد بعض الأشياء التي سيُطلب منها القيام بها غير لائقة إطلاقاً، لكنها يجب أن تضعها دائماً في سياق المهمة التي سيتم تكليفها بها.

انحنى ضابط التجنيد عبر الطاولة في غرفة اللقاء، وقال إن الوقت ما زال متاحاً أمامها إذا أرادت تغيير رأيها. ولن يكون هناك أي إجراءات ضدها، ويجب أن لا يكون لديها أي شعور بالفشل. قالت شيرل إنها مستعدة تماماً للتمرين.

وجدت نفسها في السنتين التاليتين في عالم كان حتى تلك اللحظة جزءاً من الاسترخاء المفضّل لديها، والمتمثّل في الذهاب إلى دور العرض. تعلّمت سحب مسدس بينما تكون جالسة على كرسي، وكيف تتذكر أكبر عدد ممكن من الأسماء التي تمر بسرعة كبيرة أمامها على شاشة صغيرة. تعلّمت كيف تضع مسدسها البريتا داخل بنطالها على الورك، وكيف تصنع مخبأً صغيراً في تنورتها أو فستانها لتستطيع الوصول بسهولة إلى مسدسها.

بين الحين والآخر، كان مجندون آخرون في صفها يغادرون مدرسة التدريب؛ ولم تكن تلك الحالات موضع نقاش أبداً. تم إرسالها في مهام تدريبية؛ الدخول إلى غرفة فندق مغلقة، وسرقة وثائق من أحد المكاتب. كان مدرّبوها يحللون أساليبها لمدة ساعات، وكانت تنهض من سريرها في منتصف الليل وتقوم بتمارين إضافية: التعرّف إلى سائح في نادٍ ليلي، ثم إخراج نفسها من فندقه. كان مدربوها يراقبون كل حركة تقوم بها.

كان يتم توجيه أسئلة لها حول خبراتها الجنسية. كم عدد الرجال الذين التقت بهم قبل زوجها؟ هل ستنام مع غريب إذا كانت مهمتها تتطلب ذلك؟ أجابت بصدق: لم يكن هـناك أحـد قـبل زوجها؛ وإذا كانت متأكدة تماماً بأن نجاح المهمة يعتمد على ذلك، عـندها سـتذهب إلـى السرير مع رجل. فذلك سيكون جنساً فقط، وليس حباً. تعلمت استخدام الجنس للإكراه والإغواء والسيطرة. وأصبحت جيدة في ذلك على نحو خاص.

تعلمـت كـيف تقتل بإطلاق مجموعة كاملة من الرصاص على هدف، وتعرّفت علـى مذاهـب الإسـلام المخـتلفة، وكيفية إنشاء ميشلاشيم أو صندوق بريد سري، وأمضـت يومـاً بكاملـه فـي إتقـان وضع شريط تصوير صغير داخل مغلّف. وتم تخصيص يوم آخر لتتدرب على تمويه نفسها بوضع حشوات قطنية في وجنتيها لتغيير شكل وجهها بشكل ماكر. كما تعلمت سرقة السيارات، والتظاهر بالثمالة والحديث إلى الرجال.

تم استدعاؤها في أحد الأيام إلى مكتب قائد مدرسة التدريب. الذي نظر إليها من أعلـى رأسـها إلـى أخمـص قدميها كما لو أنه يفحصها، ويتفقد كل بند على القائمة الموجودة في ذهنه. أخيراً قال إنها نجحت.

تـم تعييـن شـيرل بن – توب *كبات ليفا* للعمل في قسم الموساد الذي ينسق مع السـفارات الإسرائيلية. كان دورها تقديم غطاء – أي كصديقة حميمة أو حتى زوجة الكاسـتا الذيـن يقومـون بمهام خارج إسرائيل. عملت في عدد من المدن الأوروبية، وكانت تقدّم نفسها كمواطنة أميركية. ولم تنم مع أحد أحبابها أو أزواجها.

قـام أدمونـي شخصياً بإيضاح مدى أهمية مهمتها الأخيرة لها: مع تحديد موقع فعـنونو، سـيكون عليها استخدام مهاراتها لإخراجه من بريطانيا، وستعمل هذه المرة بصـفة سـائحة أميركـية تجول وحيدة في أوروبا بعد طلاق مؤلم. ولمنح المصداقية لقصـتها تلـك، سوف تستفيد من تفاصيل انفصال والديها، وسيكون الجزء الأخير من قصتها أن لديها شقيقة تعيش في روما. وكان الهدف إيصال فعنونو إلى هناك.

في يوم الثلاثاء 23 أيلول سنة 1986، انضمت شيرل بن – توب إلى فريق من تسـعة كاستا للموساد كانوا متواجدين في لندن. كانوا بقيادة مدير عمليات الموساد بني زيفي، وهو رجل قاسٍ بأسنان مصبوغة بالأصفر نتيجة التدخين.

كـان الكاسـتا يقيمون في فنادق في شارعي أوكسفورد وستراند. وسجّل اثنان مـنهما في ريجنت بالاس. وحجزت شيرل بن – توب تحت اسم سيندي جونسون في سـتراند بالاس، ونـزلت في الغرفة 320. وحجز زيفي غرفة في المونتباتن، بالقرب

من الغرفة 105 التي كان يقيم بها فعنونو.

قد يكون زيفي من أوائل من شاهدوا تغير مزاج التقني. كانت علامات التوتر المتزايد تظهر على فعنونو. كانت لندن بيئة غريبة بالنسبة لشخص عاش في بلدة بيرشيبا الصغيرة. بالرغم من جهود مرافقيه، كان وحيداً ومتعطشاً لرفقة أنثوية، إلى امرأة ينام معها. وكان علماء نفس الموساد قد توقعوا ذلك الاحتمال.

يوم الأربعاء في 24 أيلول، أصرّ فعنونو بأن يسمح له مضيفوه في صنداي تايمز بالخروج وحيداً، فوافقوا على مضض. بكل الأحوال، تبعه مراسل مباشرة إلى ساحة ليشستر. شاهده المراسل يتكلم إلى امرأة. ووصفتها الصحيفة لاحقاً بأنها "في منتصف العشرينيات، وطولها حوالى خمسة أقدام وثمانية إنشات، ممتلئة الجسم، شعرها أشقر قصير، وشفتاها سميكتان، وترتدي قبعة بنية، وسترة صوفية بنية وربما تكون يهودية".

بعد قليل، افترق الاثنان، وعندما عاد فعنونو إلى الفندق أكّد للمضيفين من الجريدة أنه التقى فتاة أميركية تدعى سيندي. وقال إنه يخطط للقائها ثانية، وكان المضيفون قلقين. وقال أحدهم إن ظهور سيندي في ساحة ليشستر قد لا يكون مجرد مصادفة، إلاّ أن فعنونو رفض الأسباب التي تدعوهم للقلق. ومهما كان ما قالته سيندي، فقد كان كافياً لجعله يرغب بقضاء وقت أطول معها؛ وليس في لندن، ولكن في شقة شقيقتها في روما.

كان بني زيفي وأربعة كاسنا آخرون من الموساد قد ركبوا على متن الرحلة التي سافرت بها شيرل وفعنونو إلى روما. واستقلّ الثنائي سيارة أجرة إلى شقة في الحي القديم للمدينة.

كان في الانتظار ثلاثة كاسنا من الموساد. وتغلب الكاسنا على فعنونو بالقوة وحقنوه بعقاقير مهدئة. وصلت سيارة إسعاف في وقت متأخر من تلك الليلة، وتم حمل فعنونو على نقّالة خارج المبنى. وأخبر الكاسنا الذين أظهروا قلقاً شديداً عليه بأن قريبهم مريض جداً. صعدت شيرل إلى السيارة التي انطلقت بعيداً.

خرجت سيارة الإسعاف من روما وصولاً إلى الساحل. عند نقطة معينة، كان ينتظرهم قارب سريع تم نقل فعنونو إليه. غادر المركب الساحل بعدما رفع مرساته، وكان فعنونو على متنه. سافر بني زيفي وشيرل معه. وبعد ثلاثة أيام، وفي منتصف الليل، رسا القارب في ميناء حيفا.

سرعان ما واجه فعنونو محققي نعوم أدموني البارعين. كانت تلك مقدمة

لمحاكمة سريعة وصدور حكم عليه بالسجن الانفرادي مدى الحياة، واختفت شيرل بن - توب مجدداً في عالمها السري.

بقي مردخاي فعنونو مدة تزيد عن إحدى عشرة سنة في زنـزانة انفرادية حيث تعـتزم إسرائيل الاحتفاظ به حتى القرن القادم. كانت ظروفه المعيشية موحشة: طعام سـيئ، وساعة واحدة للتمارين في اليوم، وأمضى وقته في الصلاة والقراءة. ثم وافقت حكومة إسرائيل في آذار سنة 1988، نتيجة للضغط الدولي، على وضع فعنونو تحت ظـروف أقـل تشدداً. على كل حال، بقي سجين ضمير بالنسبة لمنظمة العفو الدولية، تذكّـر صـنداي تايمز قراءها بورطته دائماً. ولم يحصل فعنونو على أية أموال لقاء القصة التي هزّت العالم والتي قدّمها للصحيفة. في سنة 1998، تم إخراجه أخيراً من السـجن الانفرادي، ولكن رغم عدد كبير من طلبات الاستئناف التي تقدّم بها محاموه، كان احتمال إطلاق سراحه من السجن يبدو بعيد المنال.

بعـد عشر سنوات، وقد أصبحت ممتلئة الجسم الآن، عادت شيرل التي تتلاعب نسـائم بحر فلوريدا العليلة بشعرها الطويل الآن إلى أورلاندو، ظاهرياً في إجازة إلى عالم والت ديزني مع ابنتيها الشابتين.

عـندما أجرى مراسل صنداي تايمز مقابلة معها في نيسان سنة 1997، لم تنكر دورهـا في عملية الاختطاف، وكان مصدر قلقها الوحيد بأن تؤدي الدعاية إلى إلحاق الضرر بموقعها في الولايات المتّحدة.

كان خوف بن - ميناش أقل وطأة. فقد رأى الكثير من الرجال الصالحين يأتون ويذهبون، وهم ضحايا التلاعب المستمر ضمن مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي. لكنه لم يعتقد أبداً أن الدور سيأتي عليه.

فـي العام 1989، تم اعتقاله في نيويورك واتهامه بأنه يتآمر "مع آخرين" لخرق "قانون الرقابة على صادرات الأسلحة" بمحاولة بيع طائرات "سي 130" العسكرية إلى إيران. كانت الطائرات في الأصل مباعة إلى إسرائيل.

خـلال جلسات الاستماع التمهيدية للمحكمة، قالت حكومة إسرائيل بأنها لا تملك "أدنـى فكـرة" عن بن - ميناش. ولكنه قدّم ملفاً عن أشخاص يمكن الرجوع إليهم من المشـرفين علـيه في مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي. قالت الحكومة الإسرائيلية إنها أسماء ملفّقة. شهد بن ميناش أمام المحكمة بأنهم حقيقيون، إلاّ أن الحكومة الإسرائيلية قالـت عـندها إن بـن - ميـناش كان مجرد "مترجم متواضع" يعمل "ضمن" مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي. وردّ بن - ميناش بأن القضية المرفوعة ضده - بيع الطائرة

– من تخطيط الحكومتين الإسرائيلية والأميركية. تحدّث عن "مئات ملايين الدولارات الناتجة عن صفقات بيع الأسلحة إلى إيران".

كـان هناك قلق في تل أبيب مرة أخرى. وسئل كل من رافي إيتان وديفيد كيمش حول ما يعرفه بن – ميناش وعن الضرر الذي قد يتسبب به. وكانت الإجابات أقل من أن تؤكد ذلك. قال رافي إيتان إن آري بن – ميناش كان في موقع يؤهله لفضح الشبكة الأميركية – الإسرائيلية لبيع السلاح إلى إيران والتي انتشرت مجسّاتها في كل مكان: أميركا الوسطى والجنوبية، وعبر لندن إلى أستراليا، وعبر أفريقيا وأوروبا.

فـي انتظار محاكمته في مركز إصلاح ميتروبوليتان في نيويورك، زار محامو الحكومـة الإسـرائيلية بن – ميناش، وعرضوا عليه صفقة: الاعتراف بالذنب مقابل تسوية مالية سخية ستضمن له حياة كريمة بعد خروجه من السجن. قرّر بن – ميناش أن يقـول ما كان يجري تماماً. بدأ بفعل ذلك عندما برّأته هيئة محلفين كبرى فجأة في تشرين الثاني سنة 1990 من كل التهم الموجهة له.

شعر عدد من الزملاء السابقين في الاستخبارات الإسرائيلية أن بن – ميناش كان محظوظاً لأنه تمكن من النجاة؛ وادّعوا أنه استخدم خلال محاولاته لاستعادة حريته ما كان أحد ضباط الموساد يدعوه طريقة المسدس الطائش بمهاجمة كل من يهدد حريته. عكس كيمش أمل الكثيرين عندما قال لاحقاً: "كل ما أردناه هو أن يختفي عن أنظارنا. لقد خرج ليضر بنا، وببلده، وأمنه. لقد كان هذا الرجل وما زال يشكل تهديداً".

لكـن إسـرائيل لم ترد على انتقام بن – ميناش لنفسه. وضع بن – ميناش كتاباً بعـنوان **فوائـد الحرب** كان يأمل بأن يكون له نفس التأثير الذي حققه كل من وودورد وبيرنشـتن بعرضهما لفضيحة ووتر – غيت التي أسقطت الرئيس ريتشارد نيكسون. كـان القصد من كتاب بن – ميناش واضحاً كما وصف ذلك بنفسه: "تصويب الأخطاء الفظـيعة التـي وقعـت فـي ثمانينيات القرن العشرين، والمساعدة في إزاحة أولئك المسؤولين عن ذلك من السلطة".

عقـدت اجـتماعات عاجلـة فـي تل أبيب. وتمّت مناقشة مسألة شراء المسودة ووضـعها فـي صندوق مقفل. كان هناك توضيح بأن بن – ميناش رفض للتو مبلغاً كبـيراً مـن المال – يقال إنه مليون دولار – للبقاء صامتاً، ولم يكن يبدو أنه سيغير رأيه. في النهاية، أخذ قرار بأن يستخدم كل سايان في صناعة النشر في نيويورك كل وسيلة ممكنة لمنع الكتاب من الظهور. لم يكن النجاح مؤكداً لأن المسودة وصلت إلى عدّة ناشرين رئيسيين قبل أن تصدر عن دار نشر صغيرة في نيويورك تدعى *شرايدن*

سكوير برس.

يصف بن - ميناش كتابه بالقول: "حكاية حكومة مكوّنة من عصابات سرية، كيف تقرّر حفنة من الأشخاص في أجهزة الاستخبارات سياسات حكوماتها، وتدير سراً عمليات ضخمة دون أن تتعرّض للمحاسبة العلنية، وتسيء استخدام السلطة وثقة العامة بها، وتكذب وتتلاعب بوسائل الإعلام وتخدع الجمهور. أخيراً، وليس آخراً، إنها حكاية حرب، حرب لا يقودها الجنرالات، ولكن رجال مرتاحون في مكاتب مكيّفة لا يأبهون بالمعاناة البشرية".

نظر الكثيرون إلى الكتاب على أنه عمل خارق لتعويض ما تعرّض له مؤلفه؛ فيما رآه آخرون مثل نسخة مبالغ بها عن الأحداث، التي يحتل بها آري بن - ميناش دوراً محورياً.

في لندن، وكما فعل عدّة مرات من قبل، اختبأ روبرت مكسويل خلف القانون، وهدّد بمقاضاة كل من يجرؤ على تكرار إدعاءات بن - ميناش ضده. لم يكن هناك أي ناشر إنكليزي مستعد لتحدّي أسطورة المال؛ ولم تكن هناك صحيفة مستعدة لاستخدام مهاراتها البحثية للتحقق من صحة ادعاءات بن - ميناش.

كان روبرت مكسويل، مثل بن - ميناش، يؤمن فيما مضى وبقي مقتنعاً بأنه حصين لسبب واحد بسيط. لقد أصبح لصاً لصالح الموساد، وكلما نهب أكثر لصالحهم، كلما زاد اعتقاده بأن الجهاز لا يستطيع الاستغناء عنه.

كما قال بن - ميناش مرة، كان مكسويل يفضل القول أثناء زياراته إلى إسرائيل بأنه يعرف أيضاً مكان دفن كل الجثث. لم يكن ذلك الادعاء ليمر دون أن يلاحظه الموساد.



الفصل العاشر

ارتباط خطير

كـان روبـرت مكسـويل، الذي طرد مرّة مراسلاً لأنه غشّ في تسجيل نفقاته، يسـرق مـن صندوق تقاعد موظفيه لدعم الموساد. إن عمليات السرقة الكاملة تعكس دهاء الموساد القاسي والرغبة المتزايدة في دخول مغامرات عالية الخطورة.

نقـل مكسويل الأموال شخصياً عبر سلسلة من التحويلات المالية التي ستترك - بعـد سنوات من ذلك - المحققين في عمليات الاحتيال محتارين مما حدث. لقد أعطى مكسويل لعمليات الاحتيال الواسعة النطاق بعداً جديداً، وحوّل مئات ملايين الدولارات فـي كـل مرة إلى حساب الموساد في مصرف إسرائيل في تل أبيب. كان يتم غسل الأمـوال أحياناً عبر حساب للسفارة الإسرائيلية في لندن مع مصرف باركليز. كما أن مكسـويل اسـتخدم مصارف أخرى لتنفيذ عملياته، دون معرفة من الموساد، بما فيها مصـرف كريدت في جنيف، وهو المصرف الذي حول منه بن - ميناش 450 مليون دولار أميركـي من أرباح أورا، بغطاء من مكسويل. كانت أموال التقاعد تدور أحياناً حـول العـالم، وتمـر عبر مصرف كيمكال في نيويورك، ومصرف أستراليا القومي الأول، ومصارف في هونغ كونغ وطوكيو. لم يكن سوى روبرت مكسويل يعرف أن هـناك اخـتلاس للأموال، ومكان تواجدها في أي وقت من رحلتها. وما جعل الأمور أسوأ أنه كان يطلب من صحيفته باستمرار مهاجمة جرائم تبييض الأموال.

كـان فكـتور أوستروفسـكي، الإسرائيلي المولود في كندا، والذي خدم كضابط موساد بين سنتي 1984 - 1986، أول من اكتشف ما يحدث:

"كـان الموسـاد يموّل الكثير من عملياته في أوروبا من الأموال المسروقة من صندوق تقاعد موظفي صحيفة مكسويل. لقد وضعوا أيديهم على الأموال حالما اشترى مكسـويل مجموعة صحيفة ميرور، وقد ساعده الموساد في ذلك، إضافة إلى النصائح الخبيرة التي تلقّاها من المحللين الماليين. وما كان سيئاً بالنسبة له، إضافة إلى السرقة، أن أياً من موظفي شركته الإخبارية الذين يسافرون إلى أي منطقة في الشرق الأوسط

كان عُرضة للاشتباه بالعمل لصالح إسرائيل، ولم يكن بعيداً أبداً عن حبل المشنقة".

خلال زياراته إلى إسرائيل، كان يتم استقبال مكسويل كرئيس دولة؛ وكان ضيف شرف دائم على الولائم الحكومية، وينزل في أفخم المنازل والفنادق. لكن الموساد اتخذ كل وسائل الحيطة والحذر. بعد أن اكتشف أن مكسويل لديه شهوة قوية للجنس، ويفضل الفموي نظراً لحجمه الكبير، رتّب الموساد تقديم تلك الخدمة لأسطورة المال خلال زياراته إلى إسرائيل من قبل إحدى الغانيات التي يستخدمها الجهاز لأغراض الابتزاز. سرعان ما حصل الموساد على مكتبة صغيرة من الأشرطة لمكسويل في أوضاع جنسية مختلفة. وتم زرع آلة تصوير سرية في غرفة النوم في جناح الفندق الذي يقيم فيه.

ظهرت ادعاءات أوستروفسكي في كتابين شخصيين له ما زالا يشعلان مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي بأكمله. لقد مزّق كتابا **في طريق الخداع وجانب آخر من الخداع** غطاء السرية حول خدمته في الموساد. كما وصف أساليب عملياتية، وسمّى عدداً كبيراً من الضباط، ربما يكون قد توصل إلى تسوية مع بعض ممن يعتقدون أن الجهاز لم يعاملهم بشكل عادل عندما صرفهم من الخدمة.

لسخرية القدر، لم تأخذ الحكومة الإسرائيلية بنصيحة مكسويل لتجاهل ادعاءات أوستروفسكي. في اجتماع في تل أبيب مع رئيس الوزراء اسحاق شامير، استشهد أسطورة المال بما حدث عندما حاولت حكومة تاتشر إيقاف نشر كتاب للضابط السابق في جهاز M15، بيتر رايت. وتضمّن كتابه المعنون **ملتقط الجواسيس** تفاصيل محرجة حول جهاز الأمن البريطاني. خلال حملتها لإيقاف النشر، وصلت الحكومة البريطانية أخيراً إلى المحاكم الأسترالية حيث كان يقيم ناشر رايت. إلا أن كتاب **ملتقط الجواسيس** أصبح من أفضل الكتب مبيعاً في العالم، وبدت بريطانيا حمقاء.

واجهت الحكومة الإسرائيلية نفس المصير. ونتيجة لضغط أعضاء سابقين في الموساد – كان مير عميت وآيسر هاريل يطلبان على وجه الخصوص اتخاذ إجراءات ضد أوستروفسكي – أمر شامير المدّعي العام باتخاذ خطوات قانونية لإيقاف الكتاب الأول للكاستا السابق.

زادت القضية من شعور شامير بمعاداة أميركا والذي تعود جذوره إلى اعتقاد راسخ بأن الولايات المتحدة كانت مسؤولة جزئياً عن **الهولوكوست**. كان هناك ادعاءات بأنه يعتقد أن الرئيس روزفلت قد توصل إلى *اتفاق* – إحدى كلمات شامير المفضّلة – مع هتلر لاستبدال بريطانيا التي كانت حينها القوة المهيمنة في الشرق

الأوسط بالرايخ الثالث. بالمقابل، يسمح هتلر لليهود بالسفر إلى فلسطين، ولولا ذلك لما كانت الهولوكوست لتحدث.

رغم أن الفكرة سخيفة بحدّ ذاتها، إلا أنها صبغت آراء شامير حول الولايات المتحدة إلى درجة قريبة من الكراهية. لقد سمح شامير شخصياً كبادرة حسن نية (عبارة أخرى يفضّلها شامير) بتمرير جزء مما يُقدّر بخمسة آلاف صفحة سرقها جوناثان بولارد إلى الاتحاد السوفياتي. كان شامير يأمل بأن يسهم ذلك في تحسين علاقة إسرائيل مع موسكو. كانت الوثائق تحتوي على النشاطات الاستخباراتية الحالية للولايات المتحدة على الدفاعات الجوية السوفياتية، والمراجعة السنوية للـ CIA لقدرة روسيا الكاملة على شنّ حرب. تضمنت إحدى الوثائق صوراً للأقمار الصنعية، وتسجيلات للاتصالات، ومعلومات عن الرادارات، وتقارير من عملاء CIA في الاتحاد السوفياتي. عندما أخبر نعوم أدموني شامير بأن المعطيات ستمكّن جهاز مكافحة التجسس السوفياتي من اكتشاف الجواسيس، هزّ كتفيه استهجاناً.

خلال لقائهما لمناقشة ما سيقومان به بخصوص أوستروفسكي، أعاد شامير على مسامع روبرت مكسويل ما أخبره للآخرين: سيفعل أي شيء لتقليل النفوذ الأميركي في العالم. كان مقتنعاً بأن واشنطن قد شجّعت أوستروفسكي على نشر كتابه على سبيل الانتقام.

طلب شامير من مكسويل استخدام مصادره الإعلامية القوية لتدمير مصداقية أوستروفسكي. وأوضح مكسويل أنه كان ينبغي على الموساد التأكد تماماً من خلفيته قبل أن يضمه إلى صفوفه.

رغم ذلك، أصبح أوستروفسكي هدفاً لحملة تشويه سمعة قامت بها وسائل إعلام مكسويل، بما فيها صحيفة معاريف في تل أبيب، التي اشتراها مكسويل. كان يوصف بأنه خيالي، وكاذب، وليس صديقاً لإسرائيل بعكس مكسويل.

بعد دراسة كتابي أوستروفسكي، كان أعضاء بارزون في مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي يعرفون أن ما يقوله صحيح. ورفضت محكمة نيويورك قبول التماس الحكومة الإسرائيلية بأن المعلومات التي يقدّمها أوستروفسكي تعرّض أمن إسرائيل القومي للخطر. وأصبح كتابه الأفضل مبيعاً.

رغم أنه كان أول شخص يشير علانية إلى علاقة روبرت مكسويل بالموساد، إلا أن أوستروفسكي لم يكشف كامل القصة، وكما هو حال الكثير من الأمور الأخرى، تعود جذور ذلك إلى نشاطات رافي إيتان الصديق المقرّب من شامير.

كــان الــرجلان يعرفان بعضهما البعض منذ خمسينيات القرن العشرين، عندما عملا في الموساد، واشتركا في التصميم على القتال لتحقيق مكان لإسرائيل في العالم.

بعــد ثلاثيــن سنة، وتحديداً في سنة 1986، كان شامير من وقف بجانب رافي إيــتان ضد الانتقادات الحادة التي تعرض لها بعد فضيحة عملية بولارد، واتهامه بأنه قائد "مجموعة من ضباط الاستخبارات الخائنين الذين يتصرفون دون تفويض".

كانــت تلــك الكذبة محاولة يائسة من قبل الحكومة الإسرائيلية لإبعاد نفسها عن فصــل اســتفاد مــنه مجتمع الاستخبارات بشكل كبير، كما استفاد أولئك في الاتحاد السوفياتي وجنوب أفريقيا. بغض النظر عن إسرائيل، تلقّى كلا البلدين معلومات قيّمة عن نشاطات التجسس الأميركية.

رغــم ذلــك، ومع افتضاح دوره في فضيحة السلاح - إلى - إيران، تعرّضت ســمعة رافي إيتان المهنية لضرر كبير. ورغم شعوره بالأذى والغضب من الطريقة التــي ألقى بها نظراؤه اللوم عليه بمفرده، إلا أن مدير الاستخبارات القديم بقي صامتاً فــي العلن؛ وبالنسبة لأصدقائه المقربين الذين جلسوا مرةً في غرفة معيشته واستمعوا مفتونيــن إلــى روايته عن القبض على أدولف إيتشمان، كان لديه قصة جديدة يرويها لهم: كيف انقلبت إسرائيل على نفسها.

كان المزيد من الأشخاص يقرعون باب منــزل رافي إيتان في شارع شاي، أو ينضــمون إليه لإلقاء عبارات الإعجاب على آخر تشكيلاته من الخردة المعدنية. وكان يقف ساعات طويلة وحيداً أمام فرنه يلوّح بالشعلة النارية، ولم يعد ذهنه مليئاً بالغضب مــن الطــريقة التي عامله بها الآخرون، وإنما بخطط لإيجاد طريقة ليس "للعودة إلى اللعبة" وحسب، وإنما لجني بعض *المال* لنفسه أيضاً. إن قراره بالاستمرار في مساعدة بــلاده رغم العار الذي لحق به يتضمن بساطةً مؤثرة: "الوطنية لم تعد كلمة حديثة بعد الآن. أنا وطني. وأؤمن ببلدي. وسواءً كان على صواب أم خطأ، سأقاتل كل من يهدده أو يهدد شعبه".

كــان ذلك الينبوع الذي لا ينضب للخطة التي وضعها سراً في ذروة تورّطه في إيــران - غيــت. وكما هو حال الكثير من خطط رافي إيتان، كانت تلك تتطلب منه اســتخدام ذكائه الذي لا يشك أحد فيه لاستغلال الفكرة الأصلية لشخص آخر. وكانت تلــك الخطــة ستقود أخيراً إلى أن يتذكره الجميع ليس على أنه من ألقى القبض على أدولف إيتشمان وحسب، ولكن على أنه الشخص الذي أصبح زميلاً مقرّباً من روبرت مكسويل.

فـــي سنة 1967، عاد خبير الاتصالات ويليام هاملتون إلى الولايات المتحدة من فيتنام، حيث اخترع شبكة من نقاط الاستماع الإلكترونية لمراقبة الفيتكونغ أثناء تحرك قواتهم عبر الغابات. حصل هاملتون على وظيفة في وكالة الأمن القومي. كانت أولى مهامـــه وضـــع قاموس إلكتروني فيتنامي - إنكليزي، والذي كان يُعتقد أنه سيكون ذا فائدة كبيرة في ترجمة رسائل الفيتكونغ واستجواب السجناء.

فـــي تلـــك الحقبة من الزمن، كانت ثورة الاتصالات الإلكترونية - تقانة الأقمار الصـــنعية والدوائر الإلكترونية المصغّرة - تغيّر وجه جمع المعلومات الاستخباراتية: تشـــفير أســـرع وأكـــثر أمانـــاً، وصور أفضل تأتي مباشرة بسرعة كبيرة. أصبحت الحواســـب أصـــغر وأســـرع؛ وكانـــت الحسّاسات المتطورة قادرة على فصل آلاف المحادثـــات؛ وتنتقي أجهزة التحليل الضوئي الصور المهمة من بين الملايين؛ وجعلت الـــرقاقات المجهرية من الممكن سماع همسة على بعد مئات الأمتار؛ وأصبح بالإمكان الرؤية في دجى الليل باستخدام عدسات الأشعة تحت الحمراء.

ســـمحت الألياف الضوئية من الجيل الجديد بتنفيذ عمليات استخباراتية جديدة لم تكن ممكنة من قبل: تجميع وربط البيانات بنسبة تفوق القدرة البشرية مما قدّم أداة قوية فـــي البحـــث عـــن شكل وطريقة عمل الهجمات الإرهابية. وبُدِئ العمل بنظام تحوير ومقارنـــة صـــفات الوجه الذي يعتمد على الحواسب *وجوه* الذي أحدث ثورة في نظام الـــتعرّف على الأشخاص من الصور. يستطيع *وجوه* القيام بخمسة عشر مليون عملية نعـــم/لا في ثانية واحدة. وتقوم حواسب الشبكات بأبحاث متزامنة لتصل أخيراً إلى 40 مليون عملية مذهلة في الثانية. وبدأت الحواسب نفسها تصبح أصغر حجماً، ولكنها في نفس الوقت تحتوي على ذاكرة تمكنها من استيعاب معلومات تعادل كتاب من خمسمئة صفحة.

عـــندما كان لا يزال يعمل لدى وكالة الأمن القومي، رأى هاملتون فرصة كبيرة فـــي هذا السوق المتزايد باضطراد مما دفعه لابتكار برنامج يمكنه التواصل مع بنوك المعلومـــات فـــي الأنظمة الحاسوبية الأخرى. وتعني تطبيقات ذلك البرنامج في عمل الاســـتخبارات أن مالكـــه سيكون قادراً على اختراق معظم الأنظمة الأخرى دون علم المســـتخدمين النهائيين. قرّر هاملتون - الرجل الوطني - أن تكون حكومة الولايات المتحدة أول زبائنه لهذا النظام الجديد.

كما منحت ناسا البلاد موقع الصدارة في تقانة الفضاء، كذلك كان ويليام هاملتون واثقـــاً من أنه سيقدّم الشيء نفسه لمجتمع الاستخبارات الأميركي. عمل هذا المخترع،

بتشـــجيع من NSA، ست عشرة ساعة في اليوم، وسبعة أيام في الأسبوع. لقد كان من نوعـــية الباحثيـــن المثاليين الذين تستحوذ عليهم الفكرة، ويعملون عليها بسرية، والتي تمتلئ بهم NSA.

كـــان هاملـــتون قريباً بعد ثلاث سنوات من إنتاج أداة المراقبة النهائية؛ برنامج يستطيع تعقّب تحركات عدد غير محدود نظرياً من الناس في كل أنحاء العالم. وبذلك كـــان تحذيـــر الرئـــيس ريغـــان للإرهابيين: "تستطيعون الهروب، لكن لا تستطيعون الاختباء" على وشك أن يصبح حقيقة.

اســـتقال هاملـــتون مـــن NSA واشترى شركة صغيرة تدعى أنسلو. كانت مهمة الشركة الرئيسية التدقيق في أعمال المحاكم واكتشاف ما إذا كان هناك خلفية مشتركة للخصـــوم، والشهود وعائلاتهم وحتى للمحامين؛ أي شخص طرف أو يصبح طرفاً في عملهـــا. منح هاملتون النظام اسم بروميس. وبحلول سنة 1981، كان قد طوّر النظام إلـــى درجـــة اســـتطاع معها تسجيل حقوق ملكية البرنامج وتحويل أنسلو إلى شركة صغيرة تدرّ أرباحاً. كان المستقبل واعداً.

احتجت NSA بأنه استفاد من تجهيزات البحث الخاصة بالوكالة لإنتاج البرنامج. رفض هاملتون بقوة ادعاء NSA، لكنه وافق على تأجير بروميس لوزارة العدل بشكل مباشـــر: ستتلقى أنسلو رسوماً في كل مرة يتم فيها استخدام البرنامج. لم تكن الصفقة المقـــترحة مميزة بحدّ ذاتها لأن وزارة العدل، مثل أي هيئة حكومية، كان لديها مئات العقود لتقديم الخدمات. أرسلت وزارة العدل، دون معرفة هاملتون، نسخة من البرنامج إلى NSA لتقييمها.

ســـتبقى أســـباب القيام بذلك غير واضحة. كان هاملتون قد شرح لوزارة العدل حيـــنها أن بـــرنامج برومـــيس يمكنه القيام بما يدّعيه؛ أي التدخل الإلكتروني في حياة الـــناس بطـــريقة لـــم تكـــن ممكنة أبداً من قبل. وفّر بروميس لوزارة العدل وذراعها التنفـــيذي FBI أداة قوية لمحاربة تبييض أموال المافيا والنشاطات الإجرامية الأخرى. كمـــا ســـاهم أيضـــاً فـــي إحـــداث ثورة في الطريقة التي تحارب بها DEA بارونات الممـــنوعات الكولومبيين. أما بالنسبة للـــ CIA، فيمكن لبروميس أن يتحول إلى سلاح بالغ الدقة وبنفس فاعلية أقمار التجسس الصنعية. ولم يكن للاحتمالات حدود.

فـــي تلك الأثناء، سمعت إحدى تلك الشخصيات في عالم الصفقات العالمي حول برومـــيس. كان إيرل بريان وزير صحة كاليفورنيا عندما كان ريغان حاكماً للولاية. ولأن بـــريان يـــتكلم الفارسية، شجّعه ريغان على وضع خطة عناية صحية للحكومة

الإيرانية. كانت تلك إحدى الأفكار المثالية التي أحبّها الرئيس القادم للولايات المتحدة: ستقدّم نسخة من برنامج الرعاية الصحية جانباً إيجابياً من الولايات المتحدة لإيران، وتحسّن في نفس الوقت صورة الولايات المتحدة في المنطقة. وفي عبارة للذكرى قالها الحاكم لبريان: "إذا كان برنامج الرعاية الصحية ناجحاً في كاليفورنيا، يمكن أن يكون ناجحاً في أي مكان".

خلال زياراته إلى طهران، أصبح بريان موضع اهتمام رافي إيتان الذي كان حينها أحد أعضاء لجنة إدارة صفقة الرهائن – مقابل – السلاح. وجّه رافي دعوة لبريان لزيارة إسرائيل، وتوثّقت علاقة الرجلين مباشرة. كان بريان متأثراً بسجل مضيفه في القبض على إيتشمان؛ وكان رافي إيتان مفتوناً بوصف ضيفه للحياة في كاليفورنيا وتطورها السريع.

سرعان ما أدرك رافي إيتان أن بريان لا يستطيع توسيع دائرة علاقاته في إيران، وكان يعتقد أن فكرة ريغان حول برنامج الرعاية الصحية في إيران ليس "سوى أكثر الأشياء جنوناً التي سمعتها منذ وقت طويل". بقي الرجلان على تواصل بمرور السنوات؛ ووجد رافي إيتان وقتاً ليرسل إلى بريان بطاقة بريدية من أبولو في بنسلفانيا حيث كان يتفقّد مصنع نوميك. كانت الرسالة تقول: "هذا مكان جيد ليكون المرء منه". كان بريان يخبر رافي إيتان عن بروميس.

في سنة 1990، وصل بريان إلى تل أبيب. وكان مرهقاً جداً من رحلته الطويلة؛ وكان وجهه شاحباً نتيجة لغضبه من وزارة العدل التي كانت تستخدم نسخة من برنامج بروميس لتعقّب تبييض الأموال والنشاطات الإجرامية الأخرى.

كان لدى رافي إيتان حدس بأن صديقه القديم وصل في وقت ملائم للغاية. وكان النزاع قد تصاعد مرة أخرى بين الموساد وأجهزة أخرى في مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي. وكان السبب هذه المرة *الانتفاضة*. ويمكن لبروميس أن يكون سلاحاً فعّالاً لمواجهة نشاطاتها.

انتشرت الانتفاضة بسرعة كبيرة أذهلت الإسرائيليين، وأثارت الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، وكلما زادت إسرائيل من اعتقالاتها، وقتلها، وضربها، واقتلاعها للفلسطينيين من منازلهم، كلما انتشرت الانتفاضة بشكل أسرع. كان هناك شيء قريب من التفهم خارج إسرائيل عندما استخدم فتى عربي صغير السن طائرة شراعية للهروب من الدفاعات الإسرائيلة المتطورة مع لبنان وهبط في غابة قريبة من بلدة كريات شمونه الصغيرة الواقعة شمال البلاد. خلال بضع دقائق، قتل الشاب ستة

جنود إسرائيليين مدججين بالسلاح وجرح سبعة آخرين قبل أن يُقتل.

بقي الحادث عالقاً في ذهن الفلسطينيين؛ وكان هناك أصابع غاضبة ضمن مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي. ألقى الشين بيت باللوم على *أمان*؛ وألقى كلاهما اللوم على الموساد لفشله في توفير تحذير مسبق من لبنان. جاء الأسوأ لاحقاً. هرب ستة إرهابيين (وفقاً للوصف الإسرائيلي) خطيرون من سجن يخضع لإجراءات أمنية مشددة في غزة. ألقى الموساد باللوم على الشين بيت. دافعت الشين بيت عن نفسها بقولها إن خطة الهروب جاءت من خارج البلاد؛ مما يجعل الموساد يتحمّل اللوم.

لقي الجنود الإسرائيليون والمدنيون حتفهم بشكل يومي تقريباً في شوارع القدس، وتل أبيب، وحيفا. وأعلن وزير الدفاع اسحاق رابين، في محاولة يائسة لاستعادة الأمن، أنه سيطبّق سياسة *القوة، والجبروت والضرب*، لكن لم يكن لها تأثير يذكر.

نتيجة للشقاقات بين الأجهزة الأمنية المختلفة، لم يكن مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي قادراً على وضع سياسة منسّقة للتعامل مع الثورة (الانتفاضة) الهائلة التي انطلقت على نطاق لم تشهده إسرائيل منذ حرب الاستقلال (وفقاً للوصف الإسرائيلي). كان هناك شوكة إضافية تتمثل في الانتقاد الذي وجهته الولايات المتحدة نتيجة للدلائل المتزايدة على شاشات التلفاز عن الأساليب الوحشية التي يستخدمها الجنود الإسرائيليون، وبدأت شبكات التلفزة الأميركية المناصرة عادةً لإسرائيل، وللمرة الأولى ببث مشاهد تعرض وحشية شديدة لا مثيل لها سوى ما كان يحدث في ساحة تيانامين في بكين. تم تصوير جنديين إسرائيليين يحطمان بصخرة ذراع شاب فلسطيني؛ والتقطت إحدى آلات التصوير دورية IDF تضرب أماً فلسطينية حاملاً؛ وكان هناك مشاهد لأطفال فلسطينيين تتعرّض أجسادهم للضرب بأخماص بنادق IDF لإلقائهم الحجارة على الجنود الإسرائيليين.

نتج عن الانتفاضة ظهور *القيادة الوطنية المتحدة*. وامتلأ كل مجتمع عربي بالكثير من التعليمات باللغة العربية حول كيفية توجيه الضربات، وإغلاق المحال، ومقاطعة البضائع الإسرائيلية، ورفض الاعتراف بالإدارة المدنية. كان ذلك تذكيراً بالمقاومة في الأيام الأخيرة للاحتلال الألماني لفرنسا في الحرب العالمية الثانية.

كان نعوم أدموني يائساً لاستعادة دور الموساد القيادي ضمن مجتمع الاستخبارات، لهذا قام بالمبادرة. وفي 14 شباط سنة 1988، تم إرسال فريق كيدون إلى ميناء سيبرويت في ليماسول. وزرع الفريق قنبلة قوية في سيارة فولسفاغن غولف. كانت تعود إلى محمد تميمي وهو أحد قادة الانتفاضة. كان معه ضابطان

بـــارزان مـــن منظمة التحرير الفلسطينية. كان الثلاثة التقوا بمسؤولين ليبيين سلّموهم ملـــيون دولار للاستمرار في تمويل الانتفاضة. لقي الرجال الثلاثة حتفهم في الانفجار الضخم الذي هزّ الميناء بأكمله.

فـــي الـــيوم التالي، ضرب الموساد ثانية – زرع لغماً مغناطيسياً في بدن سوي فاين، وهي سفينة ركّاب كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد اشترتها للتو للقيام بحملة علاقـــات عامة. كان يُفترض بالسفينة، التي تحمل على متنها وسائل الإعلام العالمية، أن تُـــبحر إلـــى حـــيفا كتذكـــير أليم بحق الفلسطينيين في العودة إلى وطنهم؛ وتذكير بـــالقوارب اليهودية، التي خلّدها إكسدوس الذي تحدّى البحرية البريطانية قبل أربعين سنة، وأحضر الناجين من الهولوكوست إلى إسرائيل، تحت شعار حق العودة، وبالفعل تم تدمير سوي فاين.

لـــم تُثبّط تلك العمليات من التصميم العربي. في كل مناسبة، كان الثوار قادرين علـــى الـــتفوق على الإسرائيليين، الذين لم تكن ردود أفعالهم سوى العنف والمزيد من العـــنف. راقـــب العالم فيما كانت إسرائيل ليست عاجزة عن إيقاف الانتفاضة وحسب وإنمـــا تخســـر حـــرب الدعايـــة، وقام المعلّقون بعقد مقارنات عن حدوث نـــزاعات عصرية بين ديفيد والعملاق، مع أخذ IDF لدور العملاق الفلسطيني.

استفاد ياسر عرفات من الانتفاضة كفرصة لاستعادة السيطرة على شعبه المجرّد مـــن أرضـــه. وانتشر صوته بغضب في كل أنحاء العالم عبر الراديو والتلفاز بأن ما يحـــدث نتـــيجة مباشرة لسياسة إسرائيل في سرقة الأراضي العربية، وحثّ كل عربي علـــى تقديـــم المســـاعدة له. فـــي أحد الأيام، كان عرفات في الكويت يحث حماس، المجموعة المدعومة من إيران، على شن عمليات قاتلة. وانتقل تالياً إلى لبنان، والتقى قادة الجهاد الإسلامي. كان عرفات قادراً على تحقيق ما كان مستحيلاً قبل وقت قصير فقط؛ أي توحيد العرب من كل الاتجاهات في قضية مشتركة. وكان بالنسبة لهم *السيد فلسطين* أو *رئيس المنظمة*.

كـــان الموســـاد محـــتاراً من استراتيجيات عرفات فيما كان ينتقل بين العواصم العربية. ولم يكن هناك تأكيد إلى أين سينتهي، أو من سيكون الحليف التالي إلى جانبه.

شـــرح رافي إيتان كل ذلك وأكثر لضيفه إيرل بريان. وبالمقابل، وصف بريان كيفية عمل بروميس. وبرأيه، كان ما يزال هناك عمل يتوجب القيام به لجعل البرنامج ســـريعاً بمـــا يكفي. أدرك رافي إيتان أن بروميس قد يكون له تأثير على الانتفاضة. وكـــبداية، يمكـــن وصـــل الـــنظام مع الحواسب الموجودة في مكاتب منظمة التحرير

الفلسطينية السبعة عشر المنتشرة حول العالم لتحديد المكان الذي سيذهب إليه عرفات وماهية خططه. وضع رافي إيتان شغفه بالخردة المعدنية جانباً، وركّز على كيفية استغلال العالم الجديد الرائع الذي يقدّمه بروميس.

قبل مضي وقت طويل، سيكون هذا البرنامج ضرورياً للاعتماد على الاستخبارات البشرية لفهم طبيعة تفكير الإرهابيين. وسيكون ممكناً مع بروميس معرفة متى وأين بالضبط سيضرب الإرهاب مجدداً. ويستطيع بروميس تعقّب كل خطوات الإرهابيين (وفقاً للوصف الإسرائيلي).

كان تحقيق مثل هذا الاختراق سيجعله مرة أخرى دون شك شخصية قوية في مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي. ولكن آثار الضربات التي وجهها له نظراؤه السابقون كانت ما تزال ماثلة للعيان. فقد تمّت إحالته إلى التقاعد براتب تقاعدي فوق المتوسط بقليل. وكان يتقدّم بالعمر، وكانت أولى التزاماته تجاه عائلته، التي تجاهلها خلال عمله لفترات طويلة. كان بروميس يقدم فرصة لإدخال بعض التحسينات، وإذا تم استغلالها بشكل ملائم، قد يجني من ورائها ثروة. على كل حال، لم يكن رافي إيتان عبقرياً بالحواسب رغم كل ذكائه، ولم تكن مهاراته في ذلك المضمار تتعدى إغلاق حاسبه. ولكن سنوات خدمته في لاكام عرّفته على كل الخبراء الذين قد يحتاج لهم.

عندما عاد إيرل بريان إلى الولايات المتحدة، شكّل رافي إيتان فريقاً صغيراً من مبرمجي لاكام السابقين. وقاموا بتفكيك أسطوانة بروميس وإعادة تجميع مكوّناتها المختلفة، ثم أضافوا عدّة عناصر من ابتكارهم. لم تكن هناك طريقة يستطيع بها أي شخص ادعاء ملكية ما أصبح عليه برنامج بروميس. قرّر رافي إيتان المحافظة على الاسم الأصلي لأنه *كان أداة تسويقية جيدة لشرح ما كان عليه النظام*.

كان باستطاعة موظفي الاستخبارات، غير المدربين على تقانة الحواسب عدا معرفة المفاتيح التي ينبغي الضغط عليها، الوصول إلى معلومات وأحكام أكثر شمولاً مما كانوا يستطيعون من قبل باستخدام أياديهم فقط. ويأتي القرص الموجود عليه برنامج بروميس ملائماً لحاسب محمول، ويستطيع اختيار آلاف الاحتمالات التي تبدو أقرب للمنطق. سيُلغي البرنامج الحاجة للاستنتاج، لأن هناك الكثير من الأمور الصحيحة التي لا علاقة لها بالموضوع، والتي لا يمكن للإنسان أخذها بعين الاعتبار. يمكن برمجة بروميس لحذف كل الخطوط غير الضرورية، وجمع وربط البيانات بسرعة ودقة تتجاوز القدرة البشرية.

لكن رافي إتان، ووفقاً لبن – ميناش، كان يحتاج إلى عنصر إضافي قبل أن

يتمكــن من بيع البرنامج. ادّعى بن – ميناش لاحقاً أنهم طلبوا منه العمل على إضافة بوابــة خفية، وهي عبارة عن رقاقة داخلية تسمح لرافي إيتان بمعرفة المعلومات التي يتم استخدامها دون علم المشتري.

كان بن – ميناش يعرف شخصاً يستطيع ابتكار بوابة خفية لا تستطيع أكثر آلات الرصــد تطوراً اكتشافها. كان الرجل يدير شركة تطوير وأبحاث حاسوبية صغيرة في كاليفورنيا الشمالية. وكان مع بن – ميناش صديقي دراسة، ووافق مقابل خمسة آلاف دولار علــى تصنيع الرقاقة. كانت الرقاقة، كما أعترف بن – ميناش، رخيصة الثمن. وكانت المرحلة التالية اختبار النظام.

تــم اختــيار الأردن كموقــع للاختبار، ليس بسبب مجاورتها لإسرائيل وحسب، ولكن لأنها أصبحت مقصداً لقادة الانتفاضة. كانوا يقودون جماهير الشارع العربية في الضــفة الغربية وغزة من مملكة الصحراء لشن المزيد من الهجمات داخل إسرائيل. كــان إرهابــيو مــنظمة التحرير الفلسطينية (وفقاً للوصف الإسرائيلي) يتسلّلون عبر الحدود إلى الأردن بعد القيام بعمليات فظيعة، وكان الجيش الأردني يغض الطرف عن ذلك.

كان الأردن، قبل وقت طويل من اندلاع الانتفاضة، قد تحول إلى أرضية خصبة للموســاد لــتطوير مهارتــه الإلكترونية. ففي سبعينيات القرن العشرين، تمكن تقنيو الموســاد مــن التسلل إلى الحواسب التي باعتها شركة IBM إلى جهاز الاستخبارات العســكري الأردني. كانت المعلومات التي يتم جمعها تتكامل مع ما كان يقدّمه كاستا زرعه رافي إيتان داخل قصر الملك بعناية شديدة. وكان بروميس يعد بتقديم المزيد.

كانــت عملــية بــيع الــبرنامج إلى الأردن بشكل مباشر مستحيلة لأن العلاقات الــتجارية العاديــة بيــن البلدين ظهرت بعد ذلك بعدّة سنين. وعوضاً عن ذلك، قامت شــركة إيرل بريان التي تدعى *هادرون* بعقد الصفقة. وعندما وضع خبراء الحواسب البرنامج في مقر قيادة الجيش في عمّان، اكتشفوا أن الأردنيين يمتلكون نظاماً فرنسي التصــميم لتعقّب قادة منظمة التحرير الفلسطينية. وتم وصل بروميس سراً مع النظام الفرنسي. في تل أبيب، سرعان ما رأى رافي إيتان النتائج لأن *البوابة الخفية* أظهرت قادة منظمة التحرير الفلسطينية الذين كان الأردن يتعقّبهم.

كانــت المــرحلة التالية اختبار برنامج بروميس. تم اختيار ياسر عرفات كمثال لذلــك. كــان معروفاً عن رئيس منظمة التحرير الفلسطينية أنه مهووس بالأمن؛ فكان يغــيّر خططــه باستمرار، ولا ينام في السرير ذاته ليلتين على التوالي، ويبدّل أوقات

طعامه في اللحظة الأخيرة.

حيثما تحرّك عرفات، كان يتم إدخال التفاصيل في حاسب منظمة التحرير الفلسطينية آمن. لكن بروميس استطاع اختراق دفاعاته لاكتشاف الأسماء المستعارة، وجوازات السفر الزائفة التي كان يستخدمها. كان بروميس قادراً على الحصول على فواتير هاتفه ومعرفة الأرقام التي اتصل بها. كان يتم تدقيق الأرقام التي يتصل بها من هاتفه ثانيةً مع المكالمات التي تتم من تلك الأرقام. وبتلك الطريقة، كان بروميس يستطيع الحصول على *صورة* عن اتصالات عرفات.

في رحلته، كان عرفات يتكلم مع سلطات الأمن المحلية في أماكن تواجده، وكان هناك خطوات يتم اتخاذها لتأمين الحماية له، وكان باستطاعة بروميس الحصول على التفاصيل باختراق حواسب الشرطة. بالمختصر، لم يكن ياسر عرفات قادراً على الاختباء من بروميس أينما ذهب.

أدرك رافي إيتان أنه لا يملك، وكذلك إيرل بريان، المصادر اللازمة لتسويق بروميس عالمياً. فلقدكان ذلك يتطلب شخصاً يمتلك علاقات دولية واسعة، وطاقة شاسعة، ومهارات تفاوض راسخة. لم يكن هناك سوى شخص واحد يعرفه رافي إيتان يمتلك تلك المؤهلات: روبرت مكسويل.

لم يكن مكسويل يحتاج لإقناع، وقال بأسلوبه الحماسي المعتاد عند وجود صفقة تجلب له أرباحاً بأن لديه شركة حواسب يمكن بيع بروميس من خلالها. كان مقر شركة *ديجيم كومبيوترز ليمتد* (حواسب الجوهرة المحدودة) في تل أبيب، كانت تلعب دوراً مفيداً في نشاطات الموساد. سمح مكسويل لعملاء الموساد، المتخفّين كموظفين في الشركة، باستخدام مكاتبها الفرعية في أميركا الوسطى والشمالية. كان مكسويل يرى فرصة آنذاك ليس لجني ثروة كبيرة من تسويق بروميس عبر ديجيم وحسب، وإنما لإبراز أهميته المتزايدة بالنسبة للموساد وإسرائيل أخيراً.

خلال زياراته المتكررة إلى إسرائيل، بدأ مكسويل بإظهار مزايا مخيفة، وأخبر أدموني بأنه سيوظّف علماء نفس لقراءة ما يجول في ذهن أعداء الموساد. بدأ باقتراح الأهداف التي ينبغي التخلص منها. كان يرغب بلقاء أفراد كيدون وتفقّد معسكرات تدريبهم. تفادى رئيس الموساد كل هذه المطالب بحزم ولكن بتهذيب. لكن بدأت الأسئلة تبرز ضمن الموساد حول مكسويل. هل كان تصرفه نابعاً من جنون العظمة الذي ينتابه؟ أم أنه بادرة لشيء آخر؟ هل سيأتي وقت أخيراً يصبح فيه مكسويل، رغم كل ما فعله لإسرائيل، غير متزن ذهنياً، ولا يمكن التوقع بما قد يسببه لها من مشاكل؟

لكن لم يكن هناك شك بأن مكسويل مسوّق بارع لبرنامج بروميس؛ أو أن دوره، فيما يخص الموساد، فعّال بالنسبة للنظام. كان الموساد أول من اقتنى الجهاز الذي كان أداة قيّمة في حملته ضد الانتفاضة. كان العديد من قادتها قد غادروا الأردن نحو مخابئ أكثر أمناً في أوروبا بعد أن اغتالت فرق كيدون الكثيرين منهم فيه.

تحقق نجاح مذهل عندما اتصل أحد قادة الانتفاضة الذين انتقلوا إلى روما برقم في بيروت كانت حواسب الموساد تصنّفه كمنزل لصانع قنابل معروف. كان المتصل من روما يريد لقاء صانع القنابل في أثينا. استخدم الموساد بروميس لتفقّد كل مكاتب السفر في روما وبيروت لمعرفة تفاصيل سفر كلا الرجلين. في بيروت، كشفت تحقيقات إضافية أن صانع القنابل أمر شركات الخدمات المحلية بإيقاف الإمدادات لمنزله، وكشف بحث إضافي قام به بروميس في حواسب منظمة التحرير الفلسطينية المحلية أيضاً أن صانع القنابل غيّر حجز رحلته في اللحظة الأخيرة. لكن ذلك لم ينقذه. لقد لقي صانع القنابل حتفه في انفجار سيارة في طريقه إلى مطار بيروت. وبعد ذلك بوقت قصير، وفي روما، لقي قائد الانتفاضة حتفه أيضاً في حادث سيارة لم يُعرف سائقها.

أثناء ذلك، كان الموساد يستخدم بروميس لقراءة المعلومات السرية لعدد من أجهزة الاستخبارات المختلفة. وفي غواتيمالا، كشف البرنامج عن العلاقات الوثيقة بين قوات أمن البلاد وتجار الممنوعات ومنافذهم في الولايات المتحدة. ومرّر الموساد الأسماء إلى DEA وFBI.

في جنوب أفريقيا، استخدم كاستا في السفارة الإسرائيلية بروميس لتعقّب المنظمة الثورية المحظورة في البلاد وعلاقاتها مع مجموعات الشرق الأوسط. في واشنطن، استخدم خبراء الموساد في السفارة الإسرائيلية بروميس لاعتراض اتصالات البعثات الدبلوماسية الأخرى والوزارات الحكومية الأميركية. نفس الشيء كان يجري في لندن والعواصم الأوروبية الأخرى. واستمر النظام في توفير معلومات قيّمة للموساد. وبحلول سنة 1989، تم بيع ما تزيد قيمته عن 500 مليون دولار أميركي من برامج بروميس إلى بريطانيا، وأستراليا، وكوريا الجنوبية وكندا. وكان يمكن لهذا الرقم أن يكون أكبر إلا أن CIA كانت تسوّق نسختها الخاصة لوكالات الاستخبارات. في بريطانيا، استخدم M15 بروميس في أيرلندا الشمالية لتعقّب الإرهابيين، وتحركات القادة السياسيين مثل جيري آدمز.

تمكن مكسويل أيضاً من بيع النظام لوكالة الاستخبارات البولندية UB. وبالمقابل،

ووفقــاً لبن – ميناش، سمح البولنديون للموساد بسرقة ميغ 29 روسية. كانت العملية تذكيراً بسرقة طراز أقدم من الميغ من العراق. تولّى جنرال بولندي يتولى مهام إدارة UB فــي غدانســك، ومقابل مليون دولار أميركي تم تحويلها إلى حساب في مصرف ســيتي – بنك في نيويورك، مهام وضع الطائرة خارج الخدمة نتيجة لعدم صلاحيتها للطــيران رغــم أنهــا كانت قد وصلت للتو من المصنع الروسي. تم تفكيك الطائرة، ووضــعها في صناديق مكتوب عليها *آلات زراعية* وترحيلها إلى تل أبيب. وهناك قام سلاح الجو الإسرائيلي بتجميع الطائرة من جديد واختبارها للطيران، مما مكّن طياريه من مواجهة الميغ 29 السورية.

مــرّت أســابيع قــبل أن تكتشف موسكو السرقة خلال جرد روتيني للطائرات المســلمة لبولندا. احتجت موسكو بقوة لدى إسرائيل، وهدّدت بإيقاف هجرة اليهود من الاتحاد السوفياتي. إلا أن الحكومة الإسرائيلية اعتذرت – بعد أن اكتشف سلاح جوها كــل أســرار الميغ 29 – عن "الحماسة الخاطئة للضباط الذين يتصرفون بشكل غير رسمي"، وأعادت الطائرة مباشرة. كان جنرال UB البولندي يستمتع حينها بثروته من الــدولارات فــي الولايات المتحدة. ووافقت واشنطن على منحه هوية جديدة مقابل أن يتمكن USAF من إجراء فحصه الخاص عن الميغ.

ســافر روبرت مكسويل بعد ذلك بفترة قصيرة إلى موسكو. وكان سبب الزيارة الرســمي مقابلــة ميخائــيل غورباتشوف. في الحقيقة، كان سبب الزيارة محاولة بيع برومــيس لجهاز KGB. وعبر رفاقة البوابة الخفية، استطاعت إسرائيل الوصول إلى معلومــات عسكرية سوفياتية فريدة، مما جعل الموساد أحد أفضل الأجهزة فيما يخص النوايا الروسية.

ســافر مكســويل مــن موسكو إلى تل أبيب. وتم استقباله كالعادة كرئيس دولة، وتخطّــى كل الإجراءات المعتادة في المطار ولقي ترحيباً رسمياً من قبل أحد موظفي وزارة الخارجية.

عــامل مكسويل ذلك الموظف بنفس الطريقة التي يعامل بها كل موظفيه، وأصرّ أن يحمــل حقائــبه، وأن يجلــس بجانب السائق. طلب مكسويل أيضاً معرفة ما حدث لموكــب الدراجات النارية الذي كان يرافقه عادة، وأخبره الموظف أنها غير متوافرة، وهــدّد مكسويل بالاتصال بمكتب رئيس الوزراء لطرده. عند كل توقف على إشارات المــرور، كــان مكسويل يحاضر في الموظف السيىء الطالع، واستمر بفعل ذلك كل الطــريق إلى جناحه في الفندق. كانت في الانتظار الغانية المفضّلة لدى مكسويل التي

طردها من جناحه لأن هناك أموراً أكثر أهمية بكثير من إرضاء حاجاته الجنسية.

فـــي لندن، كانت إمبراطورية روبرت مكسويل الصحفية تعاني من مشاكل مالية صـــعبة. وإذا لم تتلقَ مساعدات مالية عاجلة، سيكون عليها إيقاف عملياتها. كان هناك معارضة شديدة في مدينة لندن – حيث استطاع مكسويل سابقاً إيجاد التمويل اللازم له دائمـــاً – لمـــنحه المـــزيد من الأموال. شعر الخبراء الماليون المتمرّسون الذين التقوا مكســـويل أن خلف عربدته وأساليبه الصبيانية هناك رجل يفقد فطنته الرأسمالية التي ســـمحت لهـــم سابقاً بالتغاضي عن الكثير. في تلك الأيام كان يثور غضباً ويهدد لأتفه الأســـباب. كان المصرفيون يكبحون غضبهم ويمتثلون لمطالبه. لكنهم لن يقوموا بذلك بعـــد الآن. في مصرف إنكلترا، والمؤسسات المالية الأخرى في العاصمة الإنكليزية، كان القرار بأن مكسويل لم يعد رهاناً رابحاً.

اســـتندت تلـــك المعلومات جزئياً على التقارير السرية من إسرائيل بأن مكسويل كـــان يـــتعرض للضـــغط من مستثمريه الإسرائيليين لإعادة نقودهم التي ساعدته في الحصـــول علـــى مجموعـــة مـــيرور. كان الوقت المحدد لإعادة الأموال قد انقضى، وأصبحت مطالب الإسرائيليين أكثر إلحاحاً. في محاولة لإبعادهم عنه، وعدهم مكسويل بفـــائدة أكـــبر على أموالهم إذا انتظروا. لم يكن الإسرائيليون راضين: كانوا يريدون اســـتعادة أموالهم حالاً. كان هذا هو سبب مجيء مكسويل إلى تل أبيب، فلقد كان يأمل بـــأن يتمكـــن مـــن الحصول على فرصة أخرى منهم. إلا أن الإشارات لم تكن جيدة. وخـــلال الـــرحلة، تلقّـــى عـــدّة اتصالات هاتفية غاضبة من المستثمرين الذين هدّدوا بمقاضاته أمام محاكم لندن.

كان هناك أمر آخر يتعيّن على مكسويل القلق بشأنه. لقد سرق مبالغ مالية كبيرة مـــن أربـــاح أورا والتـــي كان مؤتمناً على إخفائها في المصارف السوفياتية المغلقة. اســـتخدم تلك الأموال في محاولة لدعم مجموعة ميرور. كان مكسويل قد سرق كل ما يستطيع من صندوق تقاعد الموظفين، ولم تكن أموال أورا بمنأى عمّا يفعله.

إلـــى جانب المستثمرين الإسرائيليين، سيجد نفسه فور اكتشاف أمر السرقات في مواجهـــة رجال أشدّاء، ومن ضمنهم رافي إيتان. كان مكسويل يعلم ما فيه الكفاية عن رئيس الموساد السابق ليدرك أن تلك لن تكون مفاجئة سارة.

بـــدأ مكسويل بوضع استراتيجيات مختلفة من جناحه في الفندق. كان يعرف أن حصـــته مـــن أربـــاح تسويق شركة ديجيم لبرنامج بروميس ليست قادرة على إخماد الأزمـــة؛ كذلك الأرباح من معاريف، الصحيفة الإسرائيلية التي تعتبر نسخة مصغّرة

عــن ديلــي ميرور. بقي هناك احتمال واحد وهو شركة سايتكس التي كان مقرها تل أبيب وتصنّع أجهزة طباعة عالية التقانة. إذا استطاع بيع سايتكس بسرعة، قد يستطيع الحصول على أموال تكفي لحل تلك المشاكل.

اســتدعى مكســويل مديــر سايتكس 'التنفيذي، وهو ابن رئيس الوزراء إسحاق شــامير، إلـــى جــناحه. كان لدى المدير التنفيذي أخبار سيئة، فليس من الممكن القيام بعملــية بــيع سريعة. لقد كانت سايتكس تواجه منافسة متصاعدة، ولم يكن ذلك الوقت مناســباً لبيعها في السوق. ستؤدي عملية البيع إلى خروج موظفين ماهرين من العمل في وقت كانت فيه البطالة مشكلة حقيقية في إسرائيل.

كان رد فعل مكسويل غاضباً جداً لأن الأمل الأخير في إنقاذه قد تلاشى. واقترف خطــأ تكتيكــياً بتوبيخ ابن رئيس الوزراء، الذي أخبر والده آنذاك بأن مكسويل يواجه مشــكلة مالية جدّية. أخبر رئيس الوزراء، الذي يعرف بعلاقات مكسويل مع الموساد، نعــوم أدموني. ودعا الأخير إلى اجتماع لكبار موظفيه للبحث في كيفية التعامل مع ما أصبح مشكلة.

ظهــر لاحقاً أنهم ناقشوا عدّة احتمالات. كان الموساد يستطيع الطلب من رئيس الــوزراء استخدام نفوذه الكبير مع المستثمرين الإسرائيليين ليس للانتظار فترة أطول للحصــول على أموالهم وحسب، وإنما للاستفادة من مصادر تمويلهم وعلاقاتهم لتوفير أمــوال لمساعدة مكسويل. رُفِضَ هذا الاقتراح على خلفية أن مكسويل أغضب شامير بتصــرفاته المتعجرفة. كان الجميع يعرفون أن لدى شامير شعوراً قوياً بالحفاظ على الذات، وسينأى بنفسه آنذاك عن الموساد.

كــان خــيار الموساد الآخر الاتصال مع سيانيم رفيعي المستوى في مدينة لندن لحــثّهم علــى تقديم عرض إنقاذ للموساد. وفي نفس الوقت، يمكن تشجيع الصحفيين المواليــن للموساد في بريطانيا على كتابة قصص تدعم أسطورة المال الذي يعاني من المشاكل.

تــم تجاهل هذين الاقتراحين. وكانت التقارير التي تلقّاها أدموني من لندن تشير إلـــى أن الكثير من السيانيم سيرحبون بسقوط مكسويل، وأن قلّة من الصحفيين خارج صــحف مجموعة ميرور يوافقون على كتابة قصص جيدة حول أسطورة المال الذي قضى سنوات طويلة يهدد وسائل الإعلام.

كــان الخــيار الأخــير للموساد هو قطع كل العلاقات مع مكسويل. كانت هناك مخاطــرة بذلــك، فقد يستخدم مكسويل، الذي كان هناك دلائل على عدم اتزان حالته

الذهنـــية – صحفه لمهاجمة الموساد فعلياً. قد يكون لتلك العملية تداعيات خطيرة نظراً للمعلومات التي يملكها الرجل.

انـــتهى الاجـــتماع مع تلك الملاحظة الكئيبة، وتم الاتفاق على أن يلتقي أدموني مع مكسويل، ويذكّره بمسؤولياته تجاه كل من الموساد وإسرائيل. التقى الرجلان في تلك الليلة علـــى العشاء في جناح الفندق الذي ينـــزل فيه مكسويل. وما رشح عن ذلك الاجتماع بقي ســـرياً. لكـــن بعد عدّة ساعات، غادر روبرت مكسويل تل أبيب على متن طائرة خاصة. كانت تلك المرة الأخيرة، كما تبيّن لاحقاً، التي يراه أحد فيها حياً في إسرائيل.

بعـــد عودته إلى لندن، وبعكس كل التوقعات، بدا أن مكسويل سينجح في الحفاظ علـــى مجموعـــته الصحفية. كان يشبه راقصاً من الدراويش الأفارقة في حركته من اجـــتماع إلى آخر بحثاً عن الدعم المالي. اتصل مكسويل بالموساد بين الوقت والآخر للحديث مع أدموني، وكان يخبر أمينة سر المدير العام دائماً بأن *التشيكي الصغير* على الخط. كان مكسويل قد حصل على هذا الاسم المستعار بعد تجنيده. وسيبقى ما دار في تلك المحادثات الهاتفية طيّ الكتمان والسرية.

لكـــن دليلاً سينبثق لاحقاً من الكاستا السابق فكتور أوستروفسكي الذي يعتقد أن مكســـويل كـــان يصـــر على أن وقت رد الدين قد حان؛ وأنه يجب أن يسترد المبالغ الضـــخمة التـــي ســـرقها من صندوق تقاعد موظفي ميرور. وفي نفس الوقت، اقترح مكســـويل أن يقـــوم الموساد – نيابة عنه – بالضغط من أجل إطلاق سراح مردخاي فعـــنونو وتســـليمه له. سيعمل مكسويل بعدها على ضمان سفر التقني إلى لندن ويقوم شخصـــياً بإجـــراء مقابلـــة صحفية معه لصالح ديلي ميرور. ستكون القصة نوعاً من التعويض الذي سيناله فعنونو، وسيتم كتابتها بطريقة تظهر فيها رحمة وشفقة إسرائيل. أضاف مكسويل بأن القصة ستحمل الطابع الجريء للكثير من أعماله، وستحقق توزيعاً كبيراً لصحيفة ميرور، وتفتح بالتالي الأبواب التي ما تزال مغلقة أمامه في لندن.

لـــم يكن أوستروفسكي الوحيد الذي يعتقد بأن تلك الخطة المنافية للعقل هي التي أقنعت الموساد أخيراً بأن روبرت مكسويل تحوّل إلى شخص متهور وخطير.

فـــي 30 أيلـــول سنة 1991، ظهر دليل آخر على تصرفات مكسويل الغريبة عندما اتصـــل هاتفياً بأدموني. ولم يكن التهديد خافياً في كلمات مكسويل هذه المرة. لقد تدهورت أمـــوره الماليـــة نحـــو الأسوأ، واستطاع تفادي تحقيق حوله في البرلمان ووسائل الإعلام البريطانـــية باســـتخدام محامين بارزين دفع لهم أموالاً طائلة. في ذلك الوقت، قال مكسويل إنه إذا لم يقم الموساد بإعادة أموال صندوق تقاعد موظفي ميرور فوراً، لن يكون واثقاً من

قدرتــه على إبقاء تفاصيل اللقاء الذي جمع أدموني مع فلاديمير كريتشكوف، نائب الرئيس السابق للكيه جي بي، سراً. كان كريتشكوف حينها في أحد سجون موسكو ينتظر محاكمته لدوره في التحضير للانقلاب الفاشل ضد ميخائيل غورباتشوف. لقد تم وضع أحد العناصر الأساسية لخطة الانقلاب في اجتماع عقده كريتشكوف على متن يخت مكسويل في المحيط الأطلسي قبل وقت قصير من وقوع الانقلاب.

وعــد الموســاد بأن تقوم إسرائيل باستخدام نفوذها لدى الولايات المتحدة والبلاد الأوروبية الرئيسية للاعتراف دبلوماسياً بالنظام الجديد في موسكو. وبالمقابل، سيضمن كريتشكوف إطلاق سراح اليهود السوفيات ونقلهم إلى إسرائيل. لم تؤدِّ المفاوضات إلى أي نتــيجة. لكــن الكشف عنها قد يضر كثيراً بمصداقية إسرائيل مع النظام الروسي الموجود آنذاك ومع الولايات المتحدة.

كانــت تلــك هي اللحظة، كما كتب فكتور أوستروفسكي، التي "توصل اجتماع صغير للقادة المناسبين في مقر قيادة الموساد إلى إجماع بقتل مكسويل".

إذا كــان ادعاء مكسويل صحيحاً – وهو شيء لم تتكره إسرائيل رسمياً – فمن غير المعقول أن يقوم الجهاز بمثل هذا التصرف دون تصديقه من الدوائر العليا وحتى بموافقة ضمنية من رئيس وزراء إسرائيل، إسحاق شامير، الرجل الذي شارك مرة في قتل أعداء الموساد بنفسه.

أصــبحت تلــك المسألة بالنسبة للموساد بالغة الأهمية مع قيام مراسل التحقيقات الأميركــي الخبــير ســيمور إم. هيرش بنشر كتاب بعنوان **خيار شمشون: إسرائيل، أمــيركا والقنبلة** الذي يتناول ظهور إسرائيل كقوة نووية. أصابت أنباء صدور الكتاب الموساد بمفاجأة كبيرة، وتم إرسال نسخ عنه إلى تل أبيب. بعد تصفحها جيداً، كان ما يزال ممكناً التعامل معها بفاعلية بالتزام الصمت؛ وتتم الاستفادة من الدرس المؤلم في مواجهة ناشر أوستروفسكي (ناشر هذا الكتاب أيضاً). لكن كانت هناك مشكلة واحدة: كشــف هــيرش عن علاقات مكسويل بالموساد. وكانت تلك العلاقات تتضمن معالجة مجموعة ميرور لقصة فعنونو، والعلاقة بين نيك ديفر، أورا، وآري بن – ميناش. كما هو متوقع، اختبأ مكسويل خلف مجموعة من المحامين، الذين استطاعوا الحصول على أوامر قضائية ضد هيرش وناشره اللندني. لكن، وللمرة الأولى، واجه مكسويل نظيراً لــه. رفــض هيرش، الحائز على جائزة بوليتزر للصحافة، الرضوخ للضغوط. وفي الــبرلمان، تــم طــرح المــزيد من الأسئلة حول علاقات مكسويل بالموساد. ظهرت الشكوك القديمة على السطح. وطالب أعضاء البرلمان، بموجب امتيازاتهم، أن يطّلعوا

علـــى مقـــدار مـــا يعرفه مكسويل حول عمليات الموساد في بريطانيا. بالنسبة لفكتور أوستروفسكي: "بدأت الأرض تحترق تحت قدمي مكسويل".

ادّعـــى أوستروفسكي بأن خطة الموساد التي تم وضعها بعناية لقتل مكسويل قد توقفت على إقناعه بالتوجه إلى مكان اللقاء الذي سيضرب به الموساد. وكانت الخطة تشبه إلى حدٍّ بعيد تلك التي قادت إلى موت المهدي بن بركة في باريس.

فـــي 29 تشـــرين الأول سنة 1991، تلقّى مكسويل اتصالاً هاتفياً من كاستا في السـفارة الإســـرائيلية في مدريد، الذي طلب منه المجيء إلى إسبانيا في اليوم التالي. ووفقاً لأوستروفسكي: "وعد المتصل بأن الأمور ستكون بخير، ولن تكون هناك حاجة للخوف". أخبر مكسويل بأن يسافر إلى جبل طارق ثم يستقل يخته *السيدة غلسين* ويأمر كادره بالتوجه نحو جزر الكناري، وينتظر هناك لتلقي رسالة. وافق روبرت مكسويل على فعل ذلك.

في 30 تشرين الأول، وصل أربعة إسرائيليين إلى ميناء الرباط المغربي. وقالوا إنهـــم ســـياح سيقضون إجازتهم في الغوص وصيد السمك، واستأجروا يختاً مخصص للسفر في المحيطات. وتوجهوا إلى جزر الكناري.

في 31 تشرين الأول، وبعد وصول مكسويل إلى ميناء سانتا – كلوز في جزيرة تينـــيريف، تـــناول طعـــام الغداء وحيداً في فندق مينسي. وانضم إليه رجل بعد الغداء بوقـــت قصير. من كان وما الذي تحدثا حوله سيبقى جزءاً من اللغز الذي غلّف آخر أيام روبرت مكسويل. وبعد وقت قصير، عاد مكسويل إلى يخته وأمر بأن يغادروا إلى عـــرض الـــبحر. خـــلال الساعات الست والثلاثين التالية، أبحرت *السيدة غلسين* بين الجـــزر، وبقيت بعيدة عن اليابسة، وسارت بسرعات مختلفة. وأخبر مكسويل القبطان بأنـــه يفكـــر في المكان الذي سيذهبون إليه تالياً. ولم يتذكر طاقم اليخت أنهم شاهدوا مكسويل في حيرة من أمره هكذا من قبل.

ادّعت مجلة بيزنس إيج البريطانية في *قصتها الحصرية* بعنوان "كيف ولماذا قُتل روبـــرت مكسويل" بأن فريقاً ضارباً من رجلين انتقل إلى قارب مطاطي صغير خلال اللـــيل من أحد اليخوت وتوجّه إلى *السيدة غلسين*. ولدى صعودهما إلى اليخت، وجدا مكســـويل على ظهر السفينة. وتغلب الرجلان عليه قبل أن يتمكن من طلب النجدة. ثم "قـــام أحـــد القاتليـــن بحقن فقاعات هوائية في عنق مكسويل عبر الوريد التاجي. ولم يستغرق الأمر سوى بضع لحظات حتى كان مكسويل ميتاً".

انتهـــت المجلـــة إلـــى أن القاتليـــن رميا بالجثة من على القارب وعادا إلى يختهما.

ومضت ست عشرة ساعة قبل أن تتم استعادة جثة مكسويل؛ وهذا وقت كاف لاختفاء وخزة الإبرة بحيث يصبح إيجادها مستحيلاً نتيجةً لغمر المياه للجثة وقضم الأسماك للجلد.

الشيء المؤكد أنه في ليلة 4 – 5 تشرين الثاني كانت مشاكل الموساد مع مكسويل مدفونة في مياه الأطلسي الباردة. وترك تحقيق الشرطة اللاحق والطب الشرعي الإسباني أسئلة دون أجوبة. لماذا لم يكن هناك سوى رجلين من طاقم اليخت البالغ أحد عشر شخصاً مستيقظين، رغم أن خمسة منهم يشتركون في المناوبة الليلية عادةً؟ لمن أرسل مكسويل عدداً من الرسائل بالفاكس خلال تلك الساعات؟ ماذا حل بالنسخ؟ لماذا استغرق الأمر وقتاً طويلاً من الطاقم ليدركوا بأن مكسويل ليس على اليخت؟ لماذا تأخروا في إصدار التحذير سبعين دقيقة إضافية؟ ولم تظهر إجابات مقنعة لغاية يومنا هذا.

تم تعيين ثلاثة أطباء إسبان لتشريح الجثة. أرادوا الحصول على الأعضاء الحيوية والأنسجة في مدريد لإجراء المزيد من الاختبارات عليها. لكن قبل القيام بذلك، تدخّلت عائلة مكسويل وأمرت بتحنيط الجثة وإرسالها إلى إسرائيل لدفنها. ولم تعترض السلطات الإسبانية على غير العادة. من أو ما الذي دفع بالعائلة لاتخاذ هذا القرار فجأة؟

في 10 تشرين الثاني 1991، جرت مراسم دفن مكسويل في جبل الزيتون في القدس، وهو المكان الذي يتم فيه دفن الأبطال الموقرين. اتخذت الجنازة كل أشكال مناسبة الدولة، وحضرها أعضاء حكومة البلاد وقادة المعارضة. استمع ستة من قادة الاستخبارات الإسرائيلية الحاليين آنذاك والسابقين إلى ما قاله رئيس الوزراء شامير: "قدّم لإسرائيل أكثر بكثير مما يمكن الحديث عنه اليوم".

كان من بين أولئك الذين حضروا المأتم رجل يرتدي سترة وقميصاً أسودين. وكان شخصاً شبحاً ومولوداً لعائلة مسيحية لبنانية – يبلغ طوله بالكاد خمسة أقدام ويزن أكثر بقليل من مئة رطل. ولكن الأب إبراهيم لم يكن كاهناً عادياً، وإنما كان يعمل لدى وزارة خارجية الفاتيكان.

لم يكن حضوره الحذر في الجنازة ليشهد رحيل روبرت مكسويل عن الأرض، وإنما اعترافاً بالعلاقات التي كانت ما تزال سرية بين البابوية وإسرائيل. كان ذلك مثالاً رائعاً عن قول مير عميت المأثور إن لا حدود للتعاون الاستخباراتي.

الفصل الحادي عشر

تحالفات غير مقدّسة

منذ البداية، كان رؤساء الوزراء الإسرائيليون المتعاقبون مفتونين بمفهوم اختيار البابا كحاكم مطلق يتم انتخابه مدى الحياة، وكقائد ليس عُرضة للمحاسبة أمام أي سلطة قضائية أو يخضع لأي سيطرة تشريعية. يتمتع الحبر الأعظم، مستفيداً من بنية هرمية وإمبراطورية، بنفوذ استثنائي لتشكيل الحياة الاقتصادية، والسياسية والأيديولوجية ليس لأتباعه الكاثوليك وحسب وإنما للعالم بأسره. تتذّر ديفيد بن غوريون مرة قائلاً: "لا تفكروا أبداً بذلك الهراء حول أقسام البابوية؛ انظروا إلى عدد الأشخاص الذين يستطيع حشدهم لمساعدته".

كان الإغراء بالنسبة للموساد يتمثّل في السرية المطلقة التي يعمل بها الفاتيكان. كانت آلية العمل واضحة، وراسخة، وتُخفي كل ما يقوم به الحبر الأعظم. كانت تمر شهور عادةً قبل أن تظهر الدلائل الأولى على اشتراك البابا في بعض المبادرات الدبلوماسية؛ ولا تظهر القصة كاملة إلى السطح سوى نادراً. تساءل كل مدير للموساد حول كيفية اختراق ذلك الغطاء. ولكن الفاتيكان رفض محاولات متعددة من قبل الحكومة الإسرائيلية والموساد لبناء علاقة عمل جيدة بتهذيب وحزم في الوقت نفسه.

كانت الحقيقة أنه يوجد ضمن أمانة سر دولة الحبر الأعظم - المكافئة لوزارة الخارجية للدول - قسم قوي مناهض لإسرائيل. كان هؤلاء القادة الدينيون يشيرون إلى الضفة الغربية وقطاع غزة على أنهما *أراض محتلة*، وإلى مرتفعات الجولان على أنه تم *ضمّها* من سورية. خلال المساء، كان هؤلاء يخرجون من دولتهم - المدينة الصغيرة إلى شقق يمتلكها أثرياء عرب في حي فيا - كوندوتي في روما، أو ينضمون إليهم لتناول شراب الفواكه في بيازا - نافونا، ويستمعون بحيادية إلى أحلامهم في إزالة إسرائيل من على وجه الأرض.

كان الكهنة حذرين فيما يقولونه، وكانوا يعرفون أن الدولة اليهودية وعملاءها في كل مكان يراقبون ويستمعون وربما حتى يسجّلون ويصوّرون. كان أول التحذيرات

التـي يـتلقاها أي وافد جديد إلى أمانة السر أن يكون حذراً من التعرض "للتجسس أو المراقبة وخصوصاً من عملاء لبلاد يرفض الفاتيكان بشدة الاعتراف الدبلوماسي بها". كانـت إسـرائيل على رأس تلك القائمة. ولدى انتخابه سنة 1978، أعاد البابا يوحنا بولس الثاني التأكيد على تلك الحقيقة؛ طالما أن قداسته لم يوافق أخيراً على الاعتراف الدبلوماسي الكامل بإسرائيل.

اسـتمرت المعلومـات التي كان البابا يتلقّاها عن إسرائيل تتأثر بالعلاقات التي تقـيمها بعـثاته الدبلوماسـية مع العرب. كانت زياراتهم إلى روما تنتهي دائماً بعودة رجال الدين إلى الطابق الثالث من القصر الرسولي، المزدحم دائماً، والمضاء صناعياً والـذي يعتبر مقر قيادة الخدمة الدبلوماسية البابوية في الهواء الطلق. كان ذلك القسم معـروفاً باسـم *قسم الشؤون الاستثنائية*، وكان مسؤولاً عن تطبيق السياسة الخارجية للحبر الأعظم. كانت مكاتبه العشرون تتعامل مع أعمال ورقية مثل أي وزارة خارجية عادية أخرى، وتدل على توسّع مصالح الفاتيكان الدبلوماسية في كل أنحاء العالم.

كان مكتب الشرق الأوسط موجوداً في غرفة صغيرة جداً تطل على ساحة سان داماسـو، وهـي ميدان عام رائع في قلب القصر الكبير. وكانت إحدى أولى الأوراق التـي قدّمهـا المكتب للبابا البولندي الجديد تتضمن قضية خلافية حول الوضع الدولي للقـدس، وحمايـتها مـن قبل قوات تابعة للأمم المتحدة مع إشراف الفاتيكان على كل المواقـع المسيحية في المدينة. وصلت أنباء ذلك العرض إلى تل أبيب في بدايات سنة 1979، وحصلت إسرائيل على نسخة من الوثيقة التي كان أحد رجال الدين قد مرّرها إلى مسيحي لبناني ثري يعيش في روما. كان هناك سايان ضمن موظفي ذلك الرجل. أغضـبت إمكانية إخضاع القدس للإشراف الدولي رئيس الوزراء مناحيم بيغن، الذي أمر مدير الموساد إسحاق هوفي بمضاعفة جهوده لبناء علاقات مع الفاتيكان.

كـان الرجلان (بيغن وهوفي) يعرفان ما حدث في آخر مرة حاول فيها الموساد القيام بذلك خلال زيارة الدولة التي قامت بها سلف بيغن، غولدا مائير المهيبة.

في أواخر سنة 1972، تلقت غولدا مائير أخيراً إجابة من البابا بولس الرابع بأنه سـيكون مسـتعداً لاسـتقبالها لوقت قصير. وفي كانون الثاني من تلك السنة، أخبرت أعضـاء مجلس الوزراء خلال اجتماعهم الأسبوعي بتلك الدعوة، وتساءل هؤلاء فيما إذا كـان سينتج عن هذا الاجتماع أي شيء مثمر نتيجة "البنية الماركسية للبابوية. ففي الـبداية، تتمـتع البابوية بقوة مالية لا مثيل لها. ثم أنها تعمل دون أحزاب سياسية أو اتحـادات عمالـية. وكل النظام مصمم لإحكام السيطرة عليه. وتسيطر إدارة الكنيسة

الكاثوليكــية الرومانــية على الأساقفة، ويسيطر الأساقفة على الكهنة، ويسيطر الكهنة علــى جمهــور المؤمنين. ومع وجود الكثير من أمانات السر، والبعثات والتنظيمات المختلفة، يمكن اعتبار النظام جاهزاً للتجسس ونقل المعلومات!"

تــم تحديد موعد المقابلة البابوية في 15 كانون الثاني 1973، وتم إخبار غولدا مائــير بأنــه ســيكون لديها خمس وثلاثون دقيقة بالضبط مع البابا؛ وأنهما سيتبادلان الهدايا في نهاية المقابلة. لم يكن هناك جدول أعمال محدد للاجتماع، ولكن غولدا مائير كانــت تأمل بإقناع البابا بزيارة إسرائيل. وسيكون السبب الرسمي للزيارة إقامة قدّاس لمــئات آلاف العــرب المسيحيين في البلد. لكنها كانت تعرف أيضاً أن وجوده سيمنح البلد مكانة كبيرة على الساحة الدولية.

لــم يكن هناك إعلان مسبق عن الاجتماع لأسباب أمنية. وفي نهاية زيارتها إلى مؤتمر الاشتراكية الدولية في باريس، ستسافر غولدا مائير إلى روما على متن طائرة شــركة العــال. وسيتم إخبار الصحفيين المرافقين لها بأنها متوجهة إلى الفاتيكان فقط عندما يصبحون على متن الطائرة.

ســافر زافــي زامر، مدير الموساد، إلى روما لتفقّد الإجراءات الأمنية. وكانت المدينة قاعدة للفصائل الإرهابية من الشرق الأوسط وأوروبا. كانت روما قد أصبحت أيضــاً موقعــاً هاماً لعمليات الموساد آنذاك في تحديد مواقع وقتل أولئك الذين اقترفوا مذبحة الألعاب الأولمبية في ميونيخ.

زرع زامــر مــارك هيسنر، أحد أفضل الكاستا لديه، في روما لمراقبة الجالية العربــية الكبيرة في المدينة. ووضع مدير الموساد شي كولي، وهو كاستا خبير آخر، فــي مــيلانو التــي تعتبر مركزاً آخر للنشاطات الإرهابية. وبعد أن أخبر زامر كلا الرجلين عن الزيارة المنتظرة، رافقاه إلى الفاتيكان.

في 10 كانون الثاني سنة 1973، وفيما كان الرجال الثلاثة يستقلون سيارة عبر رومــا إلــى الفاتيكان، عرفوا عن علاقة الحبر الأعظم الطويلة مع جهاز استخبارات آخر أكثر مما قد يتخيله مضيفهم.

فــي سنة 1945، تم الترحيب بمبعوث مكتب الحرب في الخدمات الاستراتيجية OSS - تحــول لاحقــاً إلى CIA - في الفاتيكان، كما يقول جيمس جيسوس أنغلتون، رئيس محطة OSS في روما "بأذرع مفتوحة". طلب البابا بايوس الثاني عشر ومجمعه الكنســي من أنغلتون المساعدة في حملة الكنيسة المناهضة للشيوعية بتنصيب الحزب الديموقراطي المسيحي في السلطة. استخدم أنغلتون، الكاثوليكي الملتزم، كل المصادر

المتاحة له لرشوة وابتزاز وتهديد الناخبين لدعم ذلك الحزب. واستطاع الوصول إلى كل المعلومات التي يقوم الفاتيكان بجمعها عبر إيطاليا؛ كان كل قس وكاهن يقدّم تقاريراً حول نشاطات الشيوعيين الإيطاليين في منطقته، وكان الفاتيكان يمرّر تلك المعلومات، بعد تقييمها، إلى أنغلتون الذي يقوم بإرسالها إلى واشنطن.

كان يتم استخدام تلك المعلومات هناك لدعم ما كان آنذاك خوفاً عميقاً متأصلاً لدى وزارة الخارجية من أن الاتحاد السوفياتي يمثل خطراً حقيقاً وطويل الأمد على الغرب. طُلب من أنغلتون القيام بأي شيء لإيقاف نشطاء المقاومة زمن الحرب في الحزب الشيوعي الإيطالي من الوصول إلى السلطة. وكما هو حال البابا، كان يستحوذ على أنغلتون شبح التهديد الشيوعي العالمي الذي سيقسم الكرة الأرضية إلى معسكرين – الرأسمالي والشيوعي – الذين لن يتعايشا بسلام أبداً. وكان ستالين قد أكّد ذلك بنفسه.

كان البابا مقتنعاً بأن الشيوعيين الإيطاليين كانوا رأس الحربة في حملة لتدمير الكنيسة في أي فرصة مواتية. تحولت الاجتماعات الدورية بين البابا بيوس وأنغلتون الورع إلى جلسات عمل يخيّم عليها شبح الشيوعية. حثّ البابا أنغلتون على الطلب من الولايات المتحدة فعل ما تستطيعه لتدمير هذا التهديد. أصبح الحبر الأعظم الذي يمثّل السلام على الأرض مناصراً متحمساً لسياسة الولايات المتحدة الخارجية التي قادت إلى الحرب الباردة.

بحلول سنة 1952، أصبح كاثوليكي ورع آخر مديراً لمحطة روما وهو ويليام كولبي؛ الذي أصبح فيما بعد مديراً لأنشطة CIA في فيتنام. أنشأ كولبي شبكة قوية من المخبرين ضمن وزارة خارجية وكل محافل وأقسام الفاتيكان. استخدم تلك الشبكة لمساعدة CIA في مكافحة الجاسوسية السوفياتية عبر الكوكب. عادة، يقدّم الكهنة تقاريراً للفاتيكان حول ما يجري. وفي بلاد مثل الفلبين، التي كان الشيوعيون يحاولون تدريجياً الاستيلاء على ما كان لوقت طويل بلداً كاثوليكياً ورعاً، كانت CIA قادرة على شن هجمات معاكسة فعّالة. ورأى البابا أنه إذا لم تقم الولايات المتحدة بما قال عنه مرة "أفعال كئيبة لكن ضرورية" سيكون على العالم أن يتحمل عقوداً من المعاناة.

في سنة 1960، حققت CIA إختراقاً آخر عندما زوّدها كاردينال ميلانو مونشني – سيصبح بعد ثلاث سنوات البابا بولس الرابع – بأسماء الكهنة في الولايات المتحدة الذين يعتقد الفاتيكان بأنهم ما زالوا معتدلين تجاه الشيوعية. كانت الحرب الباردة في ذروتها؛ وكان جنون الارتياب ينتشر في واشنطن. طاردت FBI هؤلاء الكهنة، وغادر

الكثـــيرون منهم البلاد، وتوجهوا إلى أميركا الوسطى والجنوبية. كانت بتصرف CIA مـــبالغ كبيرة تدعى "أموال المشروع"، وكانت تستخدمها لتقديم منح سخية للجمعيات، والمدارس ودور الأيتام الكاثوليكية وترميم مباني الكنائس التي يمتلكها الفاتيكان. كانت CIA تدفــع كــل نفقـــات العطـــلات التي يقوم بها الكهنة والرهبان المعروفين بأنهم مخلصـــون فـــي دعمهـــم لأميركا. تلقّى الكرادلة والأساقفة الإيطاليون حقائب من... وسلال كبيرة من الطعام الشهي في بلد كان ما يزال يعاني من نقص الغذاء الذي لحق بـــه في الحرب العالمية الثانية. كان الفاتيكان يعتبر مدراء محطة CIA المتعاقبين أكثر أهمية من سفراء أميركا إلى إيطاليا.

عـــندما تـــم انـــتخاب يوحنا الثالث والعشرين حبراً أعظم في سنة 1958، أذهل المجمع الكنسي (جهاز الفاتيكان المدني) بالقول إن الحملة ضد الشيوعية قد فشلت فشلاً ذريعـــاً، وأمـــر الأساقفة الإيطاليين بأن يكونوا "حياديين سياسياً". أصيبت CIA بالذعر عـــندما أمـــر البابا يوحنا بإيقاف التعاون المفتوح مع الفاتيكان، وازداد خوف الوكالة عـــندما علمت بأن البابا بدأ بزرع بذور لسياسة غير ناضجة وشرع في إجراء حوار حذر مع نكيتا خروتشيف، القائد السوفياتي. وكان الأمر بالنسبة لمدير محطة CIA في روما: "لم يعد الفاتيكان ملتزماً كلياً بالنظام الأميركي. إن الحبر الأعظم عدائي، ويجب أن نرى نشاطاته من الآن فصاعداً من خلال هذا المنظور".

أعـــدّ محللو CIA في واشنطن تقييمات شاملة تحمل عناوين طموحة مثل *العلاقة بيـــن الفاتيكان والشيوعية*. وفي أواخر ربيع سنة 1963، أرسلت محطة روما تقريراً بـــأن الحبر الأعظم على وشك إقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع روسيا. سافر مدير CIA، جـــون مكـــون إلى روما وعقد اجتماعاً مع البابا يوحنا، وقال إنه جاء نيابة عن أول رئـــيس كاثوليكي لأميركا جون ف. كينيدي. أخبر مكون البابا بأن الكنيسة "يجب أن توقف هذا الانسياق نحو الشيوعية. ومن الخطير وغير المقبول مساومة الكرملين. إن الشيوعية حصان طروادة كما تدل انتصارات الجناح اليساري في الانتخابات العامة الإيطالية. قام الشيوعيون فور استلامهم للسلطة، بإلغاء الكثير من السياسات التي كانت الأحزاب الكاثوليكية تدعمها".

تحـــدّث مكـــون مدة عشر دقائق كاملة بأسلوبه الفظ دون مقاطعة. وخيم الصمت أخـــيراً على حجرة الاستقبال في القصر الرسولي. نظر البابا لدقيقة طويلة إلى زائره الطويل المتقشف. ثم شرح البابا يوحنا، بصوت هادئ، إن الكنيسة التي يقودها تتحمل واجباً عاجلاً: إنهاء الفقر المدقع وإنكار حقوق الإنسان، وإغلاق الأحياء الفقيرة ومدن

الأكــواخ، وإنهاء العنصرية والقمع السياسي، أضاف البابا أنه سيتكلم إلى أي شخص يساعده على القيام بذلك؛ بمن فيهم السوفيات. والطريقة الوحيدة لمعالجة التحدي الذي تمثّله الشيوعية هي بالتصدي لها بالنقاش العقلاني.

قال مكون، الذي لم يستطع إخفاء غضبه أكثر من ذلك: "لم آتِ للنقاش". تابع أن CIA لديهــا دلــيل واضــح، أنه فيما يعمل البابا على خفض التوتر مع موسكو، يقوم الشــيوعيون بإعدام الكهنة في الكتلة السوفياتية، وآسيا وأميركا الجنوبية: وأدرك البابا يوحنا بأن ذلك سبب كافٍ لإنشاء علاقة أفضل مع السوفيات. عاد مكون إلى واشنطن محبطاً ومقتنعاً بأن البابا يوحنا كان "ألطف على الشيوعية من أيٍ من أسلافه".

لقــي مــوت يوحنا غير المتوقع - سرطان تطوّر بسرعة - راحة لدى كل من مكون والرئيس كينيدي.

استراحت واشنطن عندما أصبح مونتشني، كاردينال روما، البابا بولس الرابع في أواخر سنة 1963. وبعد يومين من تنصيبه، استقبل البابا كينيدي في خلوة خاصة. في الخارج، كان مكون يمشي عبر حدائق الفاتيكان مثل صاحب الأرض الذي عاد لها بعد طول غياب.

عانــت بابويــة بولس الطويلة على الصعيد الشخصي من تراجع صحته، وعلى الســاحة الدولية من حرب فيتنام. ووصل إلى قناعة بأن التصعيد الذي أمر به الرئيس ليــندون جونسون كان خاطئاً من الناحية الأخلاقية، وأن دور الحبر الأعظم يجب أن يتمــثّل فــي حفــظ السلام. سافر ريتشارد نيكسون، بعد ثلاثة شهور من وصوله إلى المكتــب الأبيض، إلى روما للقاء البابا. وأخبره الرئيس بأنه سيعمل على زيادة التزام أميركا في فيتنام، ووجدت CIA نفسها مرة أخرى مكروهة في الفاتيكان.

كان زافي زامر يعرف بكل ذلك من خلال كاستا واشنطن. وفي صبيحة يوم 10 كــانون الأول المشمس الرائع من سنة 1973، وفيما كان يتوجه مع اثنين من زملائه إلــى الفاتيكان لتفقّد الإجراءات الأمنية لزيارة غولدا مائير، كان زامر يأمل بأن يتمكن الموساد من أخذ دور CIA في التنسيق الذي يقوم به الفاتيكان مع عالم الاستخبارات.

كان في انتظارهم خارج القصر الرسولي رئيس أمن الفاتيكان، وهو رجل طويل يــرتدي سترة زرقاء داكنة، وهو لباس فيجلي أو جهاز أمن الفاتيكان. اصطحبهم لعدّة ســاعات فــي جولة داخل الدولة - المدينة الصغيرة، وتفقّدوا الأماكن التي يمكن أن يختبئ فيها أحد المسلحين العرب في محاولة لاغتيال غولدا مائير. في غفلة من رئيس أمــن الفاتيكان، كان زافي زامر يبحث أيضاً عن أماكن يستطيع الموساد زرع أجهزة

تتصـــت فيها حالما يبني علاقة عمل مع الحبر الأعظم. سافر زامر عائداً إلى تل أبيب مطمئـــناً من الإجراءات الأمنية للدولة – المدينة. والأهم من ذلك أنه لاحظ وجود لين في موقف الحبر الأعظم تجاه إسرائيل.

حتى قبل أن يحط زامر في إسرائيل، كانت تفاصيل زيارة غولدا مائير في أيدي مجموعـــة أيلـــول الأسود، والتي من المؤكد أن أحد الكهنة الموالين للعرب في وزارة خارجية الفاتيكان سرّبها لهم. كانت زيارة غولدا مائير بالنسبة لعلي حسن سلامة، قائد المجموعة الذي يطارده الموساد بعد التخطيط لمذبحة ميونيخ، فرصة لا يمكن تجاهلها. وبدأ بالتخطيط لشن هجوم بالصواريخ ضد طائرتها عندما تهبط في مطار ليوناردو دا فنشي في روما. كان يأمل بأن يقتلها إضافة إلى وزراء الحكومة البارزين الذين كانوا سيصـــحبون رئيســـة الوزراء، وضباط الموساد الذين سيكون على متن الرحلة. وفي الوقـــت الـــذي تكـــون فيه إسرائيل منشغلة بتلك العملية، كان سلامة يأمل بأن يتمكن ورجاله من الاختفاء في المخبأ الذي كان يتفاوض مع الروس على تقديمه لهم.

مـــنذ ســـنة 1968، وبعد أن شن الجيل المولود بعد الحرب العالمية الثانية حربه علـــى المجتمع – تحت أسماء يائسة مثل الألوية الحمراء في إيطاليا، وفصيل الجيش الأحمـــر فـــي ألمانـــيا، وجـــيش التحرير الشعبي في تركيا، وإيتا في إسبانيا ومنظمة الـــتحرير الفلســـطينية – كان الكرملين يعرف قيمة تلك التنظيمات للمساعدة في تدمير الإمبريالية – وإسرائيل.

ضـــرب الإرهابـــيون العـــرب (وفقاً للوصف الإسرائيلي) على وتر حسّاس مع KGB: كـــانوا أكـــثر جـــرأة ومهارة من أي مجموعات أخرى. وكانوا يواجهون أكثر الأعـــداء قـــوة – الموساد – وهو الجهاز الذي لطالما كرهه KGB وأثار إعجابه في الوقـــت نفســـه لقســـوته التي لا ترحم. اختار KGB عدداً من الناشطين العرب ليتلقّوا تدريـــباً فـــي جامعـــة باتريس لومومبا في موسكو. لم تكن تلك جامعة اعتيادية، وإنما مدرسة لإعداد الإرهابيين. لم يكونوا يتلقّون مذهباً سياسياً معيناً وحسب، وإنما تدريبات حـــول أحدث طرق KGB في اختيار الأهداف الإرهابية وتقنيات الاغتيال. في باتريس لومومـــبا، وضـــع سلامة اللمسات الأخيرة على عملية ميونيخ. وبعد الهجوم الدامي، طلـــب الأعضاء الناجون من المجموعة من روسيا منحهم ملجأ. لكن السوفيات كانوا مترددیـــن للقيام بذلك: موجة الغضب العارمة التي أثارتها مذبحة ميونيخ جعلت حتى الكرمليـــن غـــير راغب بأن يوفر الحماية للقتلة. أخبر الروس سلامة بأن طلبه لمنحه حق اللجوء السياسي مع رفاقه ما زال قيد الدراسة.

رغم ذلك، لم يفعل الروس شيئاً للتعاون في إلقاء القبض على أفراد مجموعة أيلول الأسود، ولم يكشفوا بالتأكيد أن المجموعة تمتلك مخبأ للصواريخ الروسية في يوغسلافيا، والتي سوف تستخدمها لإسقاط طائرة غولدا مائير.

كانت الخطة جريئة وبسيطة مثل كل الخطط التي وضعها سلامة. سيتم تحميل الصواريخ على قارب في دبروفسك ونقلها عبر البحر الأدرياتيكي إلى باري على الساحل الشرقي لإيطاليا. ثم ستنقل براً من هناك إلى روما قبل وقت قصير من وصول طائرة غولدا مائير. لم ينسَ سلامة أيضاً دروس الاستراتيجية التي تلقّاها من KGB في باتريس لومومبا: اجعل العدو ينظر إلى مكان آخر دائماً. كان سلامة يحتاج إلى توجيه أنظار الموساد بعيداً عن روما في وقت الهجوم.

في 28 كانون الأول سنة 1972، هاجمت وحدة من أيلول الأسود السفارة الإسرائيلية في بانكوك. وتم رفع علم منظمة التحرير الفلسطينية فوق المبنى، وأسر ستة إسرائيليين كرهائن. وسرعان ما أحاط خمسمئة من رجال الشرطة وأفراد الجيش التايلنديين المبنى. طالب الإرهابيون (وفقاً للوصف الإسرائيلي) بأن تقوم إسرائيل بإطلاق سراح ستة وثلاثين أسيراً من منظمة التحرير الفلسطينية، وإلا سيقتلون الرهائن.

في تل أبيب، كان هناك سيناريو مألوف. حيث عقد مجلس الوزراء جلسة طارئة، وكان هناك الحديث العادي عن الوقوف بحزم أو الاستسلام. انتهى الأمر بزافي زامر ليقول إن العملية تتطلب دعماً لوجستياً ليس متوافراً في تلك البيئة العدائية. كانت السفارة الإسرائيلية في قلب بانكوك المزدحمة، ولن تسمح الحكومة التايلندية أبداً بحدوث محاولة لإطلاق النار، وبعد مفاوضات قصيرة، وافق الإرهابيون (وفقاً للوصف الإسرائيلي) بشكل غير متوقع على عرض تايلندي بتوفير مخرج آمن لهم من البلاد مقابل إطلاق سراح الرهائن. كان أفراد أيلول الأسود بعد ساعات على متن طائرة متجهة إلى القاهرة، حيث اختفوا هناك.

في تل أبيب، تحولت راحة زافي زامر نتيجة عدم موت أي إسرائيلي إلى شك. لقد كان أفراد أيلول الأسود مدربين تدريباً عالياً، ومتحفزين ويمتلكون مصادر مالية جيدة، وأظهروا أن لديهم دهاءً استراتيجياً. كانوا يفهمون الأساليب ونقاط الضغط التي يمكنها إخضاع أي حكومة. لهذا لماذا استسلموا بسرعة هذه المرة؟ كانت السفارة في بانكوك هدفاً رائعاً لمنحهم المزيد من الدعاية وإقناع الآخرين بقضيتهم. بالتأكيد لم تكن هناك عشوائية في اختيارهم للأهداف، وكان كل ما تفعله المجموعة جزءاً من هجومها

المركـــز على الديموقراطية. وتبع الإرهابيون (وفقاً للوصف الإسرائيلي)، ضمن مبنى السـفارة، نصيحة مرشدهم الروحي تشي غيفارا في إذكاء البغيضة. واستمع الرهائن العاجـزون إلى خُطبة معادية للسامية – لكن هل كان ذلك مجرد تكتيك تمويهي؟ هل كـان يتم التخطيط لعملية أخرى في مكان ما من العالم ضد إسرائيل؟ أين ومتى؟ كان زامـر ما يزال يفكّر في تلك الأسئلة عندما سافر مع غولدا مائير إلى مؤتمر باريس. واستمر هناك في البحث عن الأجوبة.

في الساعات الأولى من يوم 14 كانون الثاني سنة 1973، جاءت المفاجأة. تولّى سـايان يعمـل في مركز هاتف روما المركزي تحويل مكالمتين من هاتف مدفوع في شقة كان رجال منظمة التحرير الفلسطينية يقيمون فيها أحياناً. كانت الأولى إلى باري، والثانية إلى أوستيا، الميناء الذي يخدم روما. كانت كلا المكالمتين بالعربية، وهي لغة يتكلمها السايان. وقال المتصل بأن الوقت حان "لتوريد شموع عيد الميلاد للاحتفال".

أقنعـت الكلمات زامر بأنها أمر مشفّر له علاقة بالهجوم الإرهابي القادم. ويمكن أن تشـير شموع عيد *الميلاد* إلى الأسلحة؛ وكان أقربها معنى للشمعة هو الصاروخ، والذي سيكون طريقة ممتازة لتدمير طائرة غولدا مائير.

كـان تحذيـرها بلا طائل، لأنها كانت امرأة لا تعرف الخوف. وقد يقود تحذير الفاتـيكان إلى إلغاء الزيارة: آخر شيء يريده الحبر الأعظم أن يكون عُرضة لحادث إرهابي، خصوصاً إذا كان يتعين عليه إدانة أصدقائه العرب.

اتصـل زامـر بكل من هيسنر وكولي، الكاستا الذين رافقاه سابقاً إلى الفاتيكان، ونقـل كولي من ميلانو إلى روما. ثم سافر زامر مع فريق الموساد الصغير الذي كان برفقة غولدا مائير على متن أول رحلة إلى المدينة. كان مزاجهم العام يعكس مخاوف زامر من أن تصبح روما مدينة القدر لغولدا مائير.

فـي رومـا، نقـل زامـر مخاوفه إلى رئيس DIGOS، جهاز مكافحة الإرهاب الإيطالـي. وأغـار ضـباط الجهاز على المبنى السكني الذي صدرت منه المكالمات الهاتفـية إلـى باري وأوستيا. ولدى تفتيش إحدى شققه، وجدوا كتيب تعليمات روسي حـول كيفية إطلاق الصواريخ. طوال الليل، نفّذت فرق DIGOS، التي رافق كل منها كاستا موساد، سلسلة من الغارات على شقق أخرى لمنظمة التحرير الفلسطينية. لكنهم لم يجدوا شيئاً يؤكد مخاوف زامر. ومع بزوغ الفجر، لم يكن هناك سوى عدّة ساعات على وصول طائرة غولدا مائير، وقرّر زامر تركيز بحثه داخل وحول المطار.

بعد شروق الشمس بقليل، لاحظ هيسنر شاحنة فيات متوقفة في حقل بالقرب من

مـــدرج المطار. وأمر الكاستا سائق الشاحنة بالابتعاد. وعوضاً عن ذلك، فتح السائق بـــاب المركــبة الخلفـــي وانطلقت منه الأعيرة النارية. لم يصب هيسنر بأذى، ولكن إرهابييـــن (وفقـــاً للوصف الإسرائيلي) في مؤخرة الشاحنة تعرضا لإصابات خطيرة عندما رد على النار بالمثل. انطلق هيسنر يطارد السائق جرياً على الأقدام، واستطاع اللحاق به، ووضع كاستا الموساد الاثنين الإرهابي السيئ الطالع داخل السيارة، وانطلقا بسرعة عالية إلى حيث أقام زامر مركز قيادته المتنقّل - شاحنة.

كـــان مدير الموساد قد تلقّى رسالة لاسلكية تقول بأن شاحنة الفيات تحتوي ست صـــواريخ. لكن ما يزال يتعين عليه معرفة فيما إذا كان هناك المزيد في مكان آخر. تعـــرّض السائق لضرب مبرّح قبل أن يكشف مكان المجموعة الثانية من الصواريخ. شـــكّ زامر بأنه قد يكون أحد الرجال الذين قدّموا الدعم لمجزرة ميونيخ. وانطلق كل من زامر، وهيستر وكولي بأقصى سرعة في الشاحنة، وبينهم الإرهابي الذي تعرّض لضرب شديد، إلى الشمال.

اكتشـــفوا شـــاحنة متوقفة على جانب الطريق. وكان يبرز من سقفها بشكل غير قـــابل للشك رؤوس ثلاثة صواريخ. من بعيد، ظهرت طائرة غولدا مائير البوينغ 747 التـــي كانـــت ستهبط في أي لحظة، والتي يستطيع الصاروخ إصابتها بشكل دقيق؛ اســـتخدم زامـــر الشاحنة التي كان يقودها لضرب جانب الشاحنة المتوقفة مما تسبب بانقلابها. وتعرّض الإرهابيان (وفقاً للوصف الإسرائيلي) في داخلها لإصابات خطيرة نتيجة سقوط الصواريخ عليهما.

توقـــف زامـــر فقـــط لإخراج السائق الفاقد للوعي إلى الطريق بجانب الشاحنة، وانطلـــق بســـيارته بعد أن أخبر DIGOS بأن هناك "حادثاً خطيراً يجب أن يعتنوا به". فكّـــر زامر للحظة بقتل الإرهابيين، لكنه شعر بأن موتهم سيشكل إحراجاً جدّياً لغولدا مائير أثناء لقائها البابا.

كـــان لدى مائير شعور بأن حمل العالم الثقيل الملقى على كتفي البابا الصغيرتين يهـــدّد جســـده الطاهـــر. فـــي نهاية اللقاء، وفي استجابة لطلبها، قال البابا إنه سيزور الأراضـــي المقدّسة، وتكلم عن رحلته على أنها حج، وعندما سألته عن الإمكانية بأن تقوم إسرائيل بإنشاء علاقات رسمية مع الحبر الأعظم، تنهّد وقال: "الوقت ليس مناسباً بعـــد". قدّمـــت له غولدا مائير كتاباً بغلاف جلدي يصور الأراضي المقدّسة؛ وقدّم لها نسخة من هويمانا فيتي، وهو منشور يحتوي على عظات القداديس.

فـــي طريق خروجها من الفاتيكان، أخبرت غولدا مائير زامر بأن الحبر الأعظم

لديه جدول مختلف عن بقية العالم.

تـم أخـذ إرهابيـي أيلـول الأسـود - الذيـن اشتركوا في مذبحة الرياضيين الإسرائيليين في الألعاب الأولمبية في ميونيخ - إلى المستشفى، وسمحت لهم السلطات بعـد تعافـيهم بالسفر إلى ليبيا. لكن في غضون شهور، كانوا جميعهم موتى - قتلتهم فرق كيدون الموساد.

قوبل عقاب "العين بالعين" المذكور في الكتاب المقدّس والذي أجازته غولدا مائير بالـنفور مـن قـبل البابا بولس، الذي كان يصر على الغفران والمسامحة. عزّز هذا العقـاب أيضاً من علاقات الفاتيكان مع منظمة التحرير الفلسطينية، التي استمر البابا يوحنا بولس الثاني في تنميتها بعد انتخابه سنة 1978.

مـنذ ذلك الوقت، استقبل البابا ياسر عرفات وكبار مساعديه في عدّة اجتماعات خاصة مطوّلة، وفي كل مرة كان يوحنا بولس يؤكد التزامه بإيجاد وطن للفلسطينيين. كان لمنظمة التحرير الفلسطينية، التي اتخذت من تونس مقراً لها آنذاك، ضابط ارتباط دائم في وزارة خارجية الفاتيكان، وكان لدى الحبر الأعظم مبعوثه الخاص، وهو الأب عادي عياد المعين لدى المنظمة.

بـرادئه الكهنوتـي الـذي يجره وراءه في غبار الصحراء، وقبعة الكاهن التي يضـعها فـوق رأسـه الصـغير، خدم عياد بإخلاص كلاً من البابا ومنظمة التحرير الفلسـطينية، حـتى أنه وضع على جدران غرفته صوراً لكل من يوحنا بولس وياسر عـرفات. ساعد عياد عرفات على كتابة رسالة سنة 1980 إلى البابا الذي ابتهج عند تلقّـيها: "اسـمح لـي أن أحلـم من فضلك. أراك تذهب إلى القدس محاطاً باللاجئين الفلسطينيين العائدين، وتحمل أغصان الزيتون وتوزّعها عند قدميك".

اقـترح عـياد أن يتبادل عرفات والبابا رسائل المجاملة في الأيام المقدّسة لكل مـنهما: يـبدأ عرفات بإرسال بطاقة في عيد الميلاد إلى يوحنا بولس، فيما يقوم البابا بإرسـال تحياته إلى عرفات بمناسبة مولد النبي محمد (صلعم). ورتّب الكاهن النشيط لقـاءً بيـن وزيـر خارجية منظمة التحرير الفلسطينية والكاردينال كاسارولي، وزير خارجية الحبر الأعظم. وعلى إثر الاجتماع، تم توسيع مكتب الشرق الأوسط والسفارة الـبابوية لدى المنظمة، وتم توجيه سفراء الحبر الأعظم بأن يحثّوا الحكومات الممثلين لديهـا علـى دعـم طموحات منظمة التحرير الفلسطينية في إنشاء دولة للفلسطينيين. أصابت كل هذه التحركات إسرائيل بالرعب. وكانت علاقاتها الرسمية مع الفاتيكان ما تـزال محدودة، والزيارات الحكومية قليلة، ولا يمثل مبعوثوها الرسميون سوى دقائق

قليلة في حضرة البابا.

تضرّرت العلاقة الباردة أصلاً بين الطرفين من حادثة غريبة تلت إنشاء إسرائيل سنة 1984. إذ أرسل وزير خارجية الفاتيكان عندها مبعوثاً إلى مدعي عام إسرائيل، حاييم كون، يحمل طلباً بأنه ينبغي على إسرائيل إعادة محاكمة "السيد المسيح" (عليه السلام)، وعكس الحكم الأصلي بالطبع. حالما تقوم إسرائيل بذلك، سيعترف الفاتيكان رسمياً بها. ولم تكن أهمية مثل هذه العلاقة الدبلوماسية غائبة عن كون. لكنه وجد أن تحقيقها بمثل تلك الطريقة أمر يعكس "نزوة خارج أي معتقد تقريباً. وستكون مثل هذه المحاكمة بلا طائل، ولدينا بكل الأحوال أمور أكثر أهمية لنتعامل معها - النجاة من هجمات جيراننا العرب. وكان نبش سيرة السيد المسيح (عليه السلام) في أدنى قائمة أولوياتي". وبعد أن استقبل كوهن المونسينور بفظاظة، أدار الفاتيكان ظهره تماماً لإسرائيل.

منذ ذلك الوقت، لم يكن هناك أي وميض أمل سوى عندما أشار سلف يوحنا بولس، ألبينو لوشيانو الضعيف خلال جلوسه على عرش القديس بطرس لمدة ثلاثة وثلاثين يوماً بأنه يفكّر في إنشاء علاقات دبلوماسية مع إسرائيل. قاد موته نتيجة جلطة قلبية - هناك مزاعم عن مسؤولية مكتبه عن ذلك - إلى انتخاب كارول وجتيلا. وبقي الباب البرونزي في القصر الرسولي طوال عهده مغلقاً أمام إسرائيل، فيما انخرطت البابوية في السياسات الدولية أكثر، وشجّعها على القيام بذلك علاقات الفاتيكان مع CIA.

في سنة 1981، أصبح وليام كيسي، المسيحي الورع، مديراً للـ CIA. وكان ضمن أوائل الأشخاص الذين استقبلهم البابا في خلوة خاصة بعد انتخابه. وركع كيسي أمام البابا البولندي المميز وقبّل الخاتم على إصبعه. كان مدير CIA شخصاً متضرعاً متواضعاً في كل كلمة قالها وإيماءة قام بها، بعكس أسلافه المغالين الصعبي المراس. لكن كيسي اشترك معهم ومع البابا في عدم الثقة والخوف العميق من الشيوعية.

ناقش الرجلان طوال ساعة مواضيع عزيزة عليهما. أين تتجه السياسة الحالية الآن؟ كيف سيستجيب النظام البولندي، وكامل الكتلة الشيوعية، للتغيير في مواقف الكنيسة؟ غادر كيسي حجرة الاستقبال متأكداً من شيء واحد: لم يكن يوحنا بولس رجلاً يسعى وراء تسويات سهلة. وهذا ما جعله شخصية مميزة للغاية. وكان كيسي يعتقد أن يوحنا بولس بابا سيثبت بأن الإيمان يمكن أن يكون أكثر تأثيراً من أي قوة أخرى.

عـــاد كيسي إلى واشنطن لتقديم تقرير إلى الرئيس ريغان، الذي طلب من مدير CIA أن يعود إلى روما ويخبر البابا بسرية كاملة أن الرئيس وافق على إطلاعه على كل خطوات الولايات المتحدة السياسية، والعسكرية، والاقتصادية.

فـــي أمســـية كـــل يـــوم جمعة، كان مدير محطة CIA في روما يزور القصر الرســـولي، ويـــنقل إلـــيه آخر الأسرار التي حصلت عليها الوكالة من رقابة الأقمار الصـــنعية، والتجسس الإلكتروني الذي يقوم به عملاؤها الميدانيون. لم يكن أي زعيم أجنبـــي آخر يستطيع الحصول على المعلومات الاستخباراتية التي يتلقّاها البابا. مكّنت تلك المعلومات البابا الأكثر اهتماماً بالسياسة من طبع أسلوبه الخاص وسلطته على كل مـــن الكنيســـة والعـــالم المدنـــي. أصبحت الدبلوماسية البابوية، وهي القلب السياسي لبيروقراطـــية الفاتيكان المركزية، منشغلة بالأحداث العالمية أكثر من أي وقت مضى مـــن تـــاريخ نشاطها الفعّال الذي يعود إلى خمسمئة سنة مضت. كادت هذه المشاركة الفعّالة تكلّف البابا، كقائد عالمي، حياته تقريباً عندما تعرض لمحاولة اغتيال في ساحة القديس بطرس في 13 أيار سنة 1981.

بعـــد مضي سنتين، وفي 15 تشرين الثاني سنة 1983، وخلال ليلة شتاء باردة فـــي رومـــا، كـــان يوحنا بولس على وشك معرفة جواب السؤال الذي كان ما يزال يؤرقه: من أمر بعملية الاغتيال؟ وكانت كل لحظة مما حدث تدور في مخيلته، وبقيت واضحة مثل آثار جروح الرصاصات التي تلقّاها.

كـــان هـــناك حوالـــى مئة ألف شخص في ساحة القديس بطرس في أمسية يوم الأربعـــاء الموافـــق 13 أيـــار سنة 1981. وكانوا محتشدين في ساحة تحيط بأعمدة بيرنينـــي – 284 عموداً و88 ركيزة والتي تحمل 162 تمثالاً للقديسين. كان مسار لا يفصـــله سياج يدلّ على الطريق الذي ستسلكه مركبة البابا إلى المنبر الذي سيُلقي منه خطابـــه الأســـبوعي. كان هناك جو احتفالي، فيما استغرق المنتظرون في التفكير بما يفعله البابا في مكان إقامته، فيما كانوا ينتظرون.

لـــم يكـــن أحد يعرف بما كان يجري في ذهن الشاب التركي الأسمر محمد علي آغـــا. كان قد وصل إلى الساحة بعد الظهر، وشقّ طريقه ليكون قريباً من الممر الذي ستســـير علـــيه مركبة البابا. كان آغا عضواً في مجموعة إرهابية تتمركز في تركيا وتطلـــق علـــى نفسها اسم *الذئاب الرمادية*. لكنه ترك صفوفها وانتقل عبر معسكرات تدريـــب الشـــرق الأوسط لأكثر الجماعات الإسلامية تشدداً. كان قد وصل إلى نهاية رحلته تقريباً. كان آغا في ساحة القديس بطرس ليس لتحية البابا وإنما لقتله.

عند الساعة الرابعة بعد الظهر، بدّل يوحنا بولس ملابسه، وارتدى قفطاناً حريرياً أبـيض. بناءً على نصيحة CIA، تم تعديل الثوب بشكل ملائم ليتمكن البابا من ارتداء سـترة واقـية من الرصاص لا يمكن رؤيتها تحته. خلال زيارته الأخيرة إلى القصر الرسولي، حذّر كيسي يوحنا بولس من أنه "في هذه الأوقات العصيبة، حتى البابا ليس بمـنأى عن الاعتداء. وأخبرته بأنه ليس لدينا دليل واضح بأنه معرّض للخطر. ولكن يوحنا بولس كان شخصية مثيرة للخلاف، وقد يحاول أحد المتعصبين قتله".

رفض يوحنا بولس ارتداء السترة الواقية. كانت الفكرة، كما قال لأمين سره الذي يتكلم الإنكليزية المونسينيور جون ماجي، ضد كل ما تمثّله البابوية.

نـزل يوحنا بولس إلى ساحة سان داماسو داخل القصر الرسولي عند الساعة 4:50 بعـد الظهـر. كان رئيس أمن الفاتيكان، كاميلو سيبن، يتفقد تنقلات البابا على نسـخته من جدول الأعمال الذي يحكم عمل البابا اليومي. وفي سترة سيبن المصنوعة من فولاذ خاص رمادي اللون، كان هناك هاتف خلوي يربطه بمقر قيادة شرطة روما. ولكـن الحماية الفورية للبابا كانت في أيدي الفيجلي الذي يرتدي البذلة الرزقاء. كانت قوة أمن الفاتيكان الصغيرة والمدربة تدريباً عالياً تمتلك نظرة ثاقبة من وراء "الحراسة السويسرية" الشكلية التي تمركزت آنذاك في ساحة القديس بطرس.

فـي الساحة، كانت هناك المركبة البابوية أو كامبغنولا بمقعدها الجلدي الأبيض، والحاجز الصغير الذي يمسكه البابا خلال تقدّمه عبر الميدان الواسع. كان أعضاء من موظفـيه البارزيـن يتجمعون حول المركبة. ويتذكّر ماجي بأن يوحنا بولس كان في "مزاج جيد على غير العادة".

عـند الساعة الخامسة بعد الظهر تماماً، سارت المركبة البابوية خارج الساحة، وبـدأ الـناس بتحيته ابتداءً من ساحة القديس بطرس، وعندما اقتربت الكامبغنولا من قـوس الأجراس، انضم رجال شرطة المدينة إلى أعضاء فيجلي، وساروا أمام وخلف المركـبة مباشرة. حالما دخلت المركبة البابوية إلى الميدان، ارتفع صوت الحشود إلى الذروة. ولوّح يوحنا بولس بيده وابتسم لهم؛ لقد منحته مهنته كممثل في شبابه حضوراً شخصياً قوياً.

بسرعة ميلين بالساعة، ومع انتقال البابا من جانب إلى آخر، تقدّمت المركبة نحو المسـلّة المصـرية فـي وسـط الميدان. وعند الساعة 5:15 بعد الظهر تماماً، بدأت الكامبغـنولا دورتهـا الثانـية في الميدان تحت ناظري سيبن؛ رئيس الأمن الذي كان يهـرول خلـف المركبة البابوية. ارتفعت أصوات الحشد أكثر مما مضى. قام يوحنا

بولس بعمل كان دائماً سبباً في إثارة عصبية سيين. ووصل البابا إلى الحشد وحمل طفلةً. احتضن وقبّل الفتاة الصغيرة، ثم أعادها إلى أمها المبتهجة. كان ذلك جزءاً من العمل الاعتيادي الذي يقوم به البابا. كان قلق سيين نابعاً من أن الطفل سيجعل البابا يُفلت قبضته عن الحاجز مما قد يتسبب بسقوطه، ووقوع حادث بشع. لكن يوحنا بولس تجاهل كل تلك الملاحظات.

عند الساعة 5:17 بعد الظهر، خرج البابا مرة أخرى ليلمس رأس فتاة صغيرة أخرى، ترتدي ملابس بيضاء. ثم استقام ونظر حوله، كما لو أنه يبحث عن شخص آخر ليباركه. كانت تلك طريقته في إضفاء لمسة شخصية على البابوية حتى في الحشود الكبيرة.

آخر ما كان يخطر بباله في تلك اللحظة المخاطر التي واجهها من قبل مع حشود أخرى. فقبل ثلاثة شهور فقط - في باكستان، وفي 16 شباط سنة 1983 - انفجرت قنبلة في الاستاد البلدي في كراتشي قبل وقت قصير من بداية رحلته بين المؤمنين. في كانون الثاني سنة 1980، حذّرت الاستخبارات الفرنسية من وجود مكيدة شيوعية لقتله. وكانت تلك إحدى التهديدات الكثيرة التي يتلقّاها الفاتيكان ضد حياة البابا. كان يتم التحقيق في كل تلك المزاعم بكل الأشكال الممكنة. قال ماجي لاحقاً: "في الحقيقة، لم نكن نستطيع سوى الجلوس والانتظار. لم يكن البابا يوافق أبداً على أن يوضع في قفص مضاد للرصاص كلما ظهر علانية، ولم يكن هناك ما نستطيع فعله".

عند الساعة 5:18 بعد الظهر، دوّت أول رصاصة في ساحة القديس بطرس. بقي يوحنا بولس واقفاً، ويداه تمسكان بالحاجز. ثم بدأ بالتمايل. واخترقت أولى رصاصات محمد علي آغا معدة البابا، وتسببت بعدّة جروح في أمعائه الدقيقة، والجزء السفلي من القولون، والأمعاء الغليظة، والأغشية المحيطة والنسيج الذي يغلّف الأمعاء إلى جدار البطن. ووضع يوحنا بولس يده غريزياً فوق الجرح النازف في محاولة لإيقاف الدم المتدفق. وامتلأ وجهه ألماً، وبدأ ينهار ببطء. ولم تمضِ حينها سوى ثوانٍ معدودة منذ تعرض للإصابة.

وضربت رصاصة آغا الثانية البابا في يده اليمنى، وسقطت إلى جانبه عديمة الجدوى. وتدفق الدم الأحمر القاني فوق قفطانه الأبيض. وأصابت الرصاصة الثالثة من عيار 9 مليمتر يوحنا بولس في ذراعه الأيمن.

تململ سائق كامبغنولا في مقعده، وفغر فاهه من الدهشة غير قادر على الكلام. وأخذ سيين يصرخ عليه ليتحرك. وقام أحد المعاونين بتوفير الحماية للبابا بجسده.

وبدأت المركبة تسير للأمام. وكان الحشد نفسه يترنح كما لو أن ريحاً عملاقة ضربته. وخرجت نفس كلمات عدم التصديق بعدّة لغات مختلفة: "تعرّض البابا لإطلاق نار".

شهر سيين وأفراد أمن الفاتيكان ورجال شرطة روما أسلحتهم، وأصدروا الأوامر والأوامر المضادة في بحثهم عن الرجل المسلح. واندفع آغا عبر الحشود، وهرب بسرعة كبيرة، كان يحمل سلاحه بيده اليمنى. استمر الحشد بالابتعاد عن طريق المسدس الذي يحمله. فجأة، رمى المسدس بعيداً. وفي نفس اللحظة، تم إلقاؤه أرضاً. لقد قام أحد ضباط شرطة روما بإلقاء القبض عليه. وفي اللحظة ذاتها، رمى رجال شرطة آخرون أنفسهم فوق الرجلين في مشهد يشبه التجمّع في لعبة الركبي. وقام عدّة رجال شرطة بضرب وركل آغا قبل أن يتم سحبه إلى سيارة شرطة.

استمرت المركبة البابوية في سيرها البطيء باتجاه أقرب سيارة إسعاف متمركزة بجانب باب الفاتيكان البرونزي. ولكن سيارة الإسعاف لم تكن مزوّدة بمعدّات أوكسجين، ولهذا تم نقل البابا إلى سيارة إسعاف أخرى قريبة. وتم إضاعة لحظات حيوية.

أشعلت سيارة الإسعاف أضواءها وأطلقت صفارات إنذارها، وسارعت إلى مستشفى جيملي في روما، الأقرب إلى الفاتيكان، في رحلة لم تستغرق سوى ثماني دقائق. لم ينطق البابا بأي كلمة يأس أو استياء خلال الرحلة، وإنما أخذ يتلو الصلاة.

في المستشفى، تم نقله على عجل إلى قسم الجراحة في الطابق التاسع الذي يتضمن غرفة انتظار، وغرفة عمليات، وجناح للنقاهة. لم يكن هناك، وفي قلب الأزمة، ذعر أو حركات بلا جدوى أو كلمات. كان الجميع هادئين ومنضبطين. ولا بد أن البابا المصاب شعر هناك ببصيص أمل.

تم تمزيق قفطانه الملطخ بالدم، وقميصه وملابسه الداخلية بخبرة. وتم وضع مناشف جراحية على جسده العاري. وحملت الأيادي التي ترتدي القفازات أولى الأدوات التي يحتاجها الفريق الجراحي في صراع يعرفونه جيداً.

بعد أن استعاد وعيه بعد ست ساعات من الجراحة، كان يوحنا بولس يعتقد أنه تم إنقاذه نتيجة التدخل المعجزة لواحدٍ من أكثر الأطياف تبجيلاً في العالم الكاثوليكي، ألا وهي "فاطمة العذراء"، التي صادف أن تكون محاولة اغتياله في يوم صومها.

خلال قضائه شهوراً طويلة لاستعادة عافيته، أصبح يوحنا بولس مشغولاً بمن أمر باغتياله. حاول قراءة كل دليل ممكن من ملفات الشرطة ووكالات الاستخبارات مثل CIA، واستخبارات ألمانيا الغربية BND، وأجهزة استخبارات تركيا والنمسا. كان

من المستحيل قراءة كل ذلك: كان هناك ملايين الكلمات في التقارير، والشهادات والتقييمات.

لم تُجب أي وثيقة على سؤال يوحنا بولس: من أراده ميتاً؟ كان ما يزال غير متأكد عندما وقف آغا أمام الهيئة القضائية في روما في آخر أسبوع من تموز سنة 1981. ولم تُلق جلسات الاستماع السريعة التي دامت ثلاثة أيام الضوء على دوافع الرجل المسلح. وتم الحكم على آغا بالسجن مدى الحياة؛ وإذا كان سلوكه حسناً، سيتم إطلاق سراحه في سنة 2009.

بعد سنتين من إدانة آغا، تلقّى يوحنا بولس وعداً بالإجابة على السؤال الذي كان ما يزال يدور في خاطره. وجاء الجواب من كاهن كان يثق به أكثر من الجميع. وكان رئيس الأساقفة لويجي بوغي الوريث الشرعي لعالم السياسات البابوية السرية، وكان يتولى مسؤولية خاصة في جمع المعلومات الاستخباراتية من أوروبا الشيوعية. وكان الناس في الفاتيكان يدعونه ببساطة جاسوس البابا.

انخرط بوغي، لشهور عديدة، في اتصالات بالغة السرية مع الموساد. وعندما تقدّموا في تحقيقاتهم، مؤخراً فقط، بما فيه الكفاية، أخبر البابا بما كان يفعله. وطلب منه يوحنا بولس الاستمرار في عمله. ومنذ ذلك الوقت كان هناك اجتماعات مع ضباط للموساد في فيينا، وباريس، ووارسو، وصوفيا في بلغاريا. وكان كل من الكاهن وكاستا الموساد يريدان أن يكونا متأكدين مما هو متاح ومتوقع. وبعد كل اتصال، كان الاثنان يفترقان للتفكير في الخطوة التالية.

قبل عدّة أيام، كان هناك اجتماع آخر في فيينا مجدداً، وهي مدينة يفضلها كل من بوغي والضابط كمكان للقاءاتهما السرية.

عاد بوغي من ذلك اللقاء إلى الفاتيكان في ليلة تشرين ثاني شديدة البرودة من سنة 1983. وكان معه الجواب على سؤال البابا: من أمر آغا بمحاولة قتله؟


صفحة فارغة

الفصل الثاني عشر

مدراء الاستخبارات المباركين

كانت إحدى بوابات قوس الأجراس الضخمة مغلقة في ذلك الوقت - مقدّمة للطقوس الليلية في إغلاق كل المداخل إلى الفاتيكان عند هبوط الليل - عندما اندفعت الليموزين الفيات الزرقاء عبر الشوارع المرصوفة بالحصى، ووقعت أضواؤها على حارسين سويسريين، والذين يقف خلفهما فيجلي. تقدّم أحد الحارسين للأمام، وارتفعت يده بالتحية وطلب التوقف في الوقت نفسه. كان الحرّاس يتوقعون وصول السيارة، وكان الرجل الذي يجلس خلف المقود أحد سائقي الفاتيكان المعروفين. ولكن بعد محاولة اغتيال البابا، لم يكن أحد يخاطر بأي شيء.

كان السائق قد انتظر ساعة في مطار روما لوصول الرحلة من فيينا، التي تأخرت نتيجة الأحوال الجوية السيئة. وتراجع الحارس بعد أن رفع يده لإلقاء التحية على المسافر في المقعد الخلفي. ولم يكن هناك تحية مماثلة.

سارت السيارة بجانب كنيسة القديس بطرس، وعلى الطريق المرصوف بالحصى لساحة سان دامسو قبل أن تتوقف خارج المدخل الرئيسي إلى القصر الرسولي. قفز السائق خارج السيارة وفتح الباب للمسافر. وبرز رئيس الأساقفة لويجي بوغي، الذي كان يرتدي ملابس سوداء، ويضع وشاحاً على ياقته الناصعة البياض. كانت ملامحه الجسدية تشبه رافي إيتان: نفس الكفتين وعضلات الأذرع القوية، نفس الهرولة، والعينين الباردتين مثل تلك الليلة.

وكما هي العادة، كان بوغي يسافر مع حقيبة جلدية صغيرة يضع فيها أغراضه الشخصية، وحقيبة يدوية مزودة بقفل له أرقام. وكان يمزح أحياناً بأنه ينام في مقاعد الطائرات أكثر مما ينام في سريره في الجناح الذي يشغله في الجزء الخلفي من القصر الرسولي.

لم يكن هناك سوى رحلات قليلة تضاهي من حيث الأهمية ما سمعه بوغي أخيراً في الاجتماع الذي عقده في الحي اليهودي القديم في فيينا. وهناك، في مبنى صغير

منحدر السطح على بعد عدّة مباني من مكاتب النازي سيمون فايزينثال، استمع رئيس الأساقفة إلى رجل اتفقا على مناداته باسمه الأول فقط - إيلي.

كـــان بوغـــي قد اعتاد آنذاك على مثل تلك الإجراءات الاحتياطية في تعامله مع الموســـاد. ولـــم يكن أحد حريصاً في المسائل الأمنية مثلما كان عملاؤه. وكان الشيء الشخصـــي الوحـــيد الذي يعرفه عن إيلي أنه يتكلم عدّة لغات، وأنه أجاب أخيراً على السؤال حول من نظّم محاولة اغتيال يوحنا بولس.

مـــن جانـــبه، كان عمل لويجي بوغي سرياً للغاية لدرجة أن أنواريو بونتيفشيو، وهـــو سجل الفاتيكان الذي يحمل أسماء وواجبات كل موظفيه، لم يكن يحمل أي دليل لمـــدة تزيد عن العشرين سنة على أن رئيس الأساقفة قد أقام علاقاته الخاصة السرية جـــداً، والتـــي كانت تصل إلى الكرملين، وواشنطن، وأروقة مراكز القوة في أوروبا. كـــان ضـــمن أول مـــن علموا أن الزعيم السوفياتي يوري أندربوف كان يحتضر من الـــتهاب الكبد العضال، وكان بوغي هو من جلس في البعثة الروسية في جنيف، وهو قصـــر ملكي يعود للقرن التاسع عشر، وتذوّق الفودكا وأفخر أنواع الكافيار، وعرف من المصدر مباشرة أن موسكو مستعدة لسحب رؤوسها النووية المتمركزة في أوروبا أخـــيراً إذا توقفت واشنطن عن المماطلة في محادثات نـــزع السلاح. لقد تم نقل تلك الأنـــباء إلـــى مديـــر محطة CIA في اجتماع يوم الجمعة التالي الذي ضمه مع البابا. وخـــلال عقدين من الزمن، زوّد بوغي البابا بتفاصيل مكّنته من تقييم المعلومات التي يحصـــل على من مصادر أخرى بشكل أفضل. كان لدى رئيس الأساقفة تلك الإمكانية - الـــنادرة حـــتى بين الدبلوماسيين - على تقديم تقييمات متوازنة وسريعة للمعلومات التي تأتي من عشرات المصادر وبعدّة لغات كان يجيد معظمها.

في اجتماعه التالي مع إيلي، تكلّم بوغي بصوت هادئ لطالما كان سمته المميزة، وعيناه البنيتان يقظتان، وشفتاه متحفزتان قبل أن يطرح سؤالاً جديداً، ولم يكن مظهره الرصين يتغيّر أبداً.

لكـــنه كان متعباً بلا شك في ليلة الشتاء الباردة تلك من كثرة السفر، وهذا ما قد يغفـــر له تثاقل خطواته. مشى بوغي في القصر الرسولي، وتجاوز الفيجلي والحراس السويسريين المناوبين والذين وقفوا بانتباه عندما مرّ بجانبهم، واستقل المصعد إلى مقر إقامة البابا.

قـــاد كبير خدم البابا بوغي إلى مكتب يوحنا بولس. كانت رفوف الغرفة المليئة بالكتـــب تقـــدّم دلائـــل علـــى اهتمامات البابا المتزايدة. وإلى جانب نسخ جلدية باللغة

البولــندية من الأعمال الكلاسيكية، ومؤلفات المشتغلين باللاهوت والفلاسفة، كان هناك أيضــاً نســخ عــن مجلــة الدفـــاع العالمية، وكتب تحمل عناوين مثيرة مثل **مشاكل الاســتعدادات العســكرية والتوازن العسكري والهجوم المفاجئ**. تعكس هذه المؤلفات اعــتقاد البابا الراسخ بأن العدو الأول الذي ما زال العالم يواجهه في سنة 1983 كان الشيوعية السوفياتية.

لــم يفوّت يوحنا بولس فرصة أبداً من قبل لإخبار موظفيه أنه قبل بزوغ شمس الألفــية الجديــدة، سوف يكتسح شيء *حاسم* العالم. وكان يرفض الإفصاح عن شيء مقــابل كل أسئلتهم حول ما سيكون عليه ذلك الحدث، وكان يهز رأسه الضخم ويقول إنه ينبغي عليهم جميعاً الصلاة حتى لا تفقد الكنيسة المزيد من نفوذها مقابل الشيوعية أو العلمانية التي تكتسح بلداناً مثل الولايات المتحدة، وألمانيا، وهولندا. كان يصر على أن حياته في ساحة القديس بطرس مكرّسة لقيادة الهجوم المعاكس.

كـــان بوغـــي يعرف أن هذا الاهتمام - أكثر من أي شيء آخر - يؤرق يوحنا بولــس ذهنــياً وجسدياً. وحالما انتهت التحيات بين الرجلين، لم يستطع بوغي إلا أن يلاحظ أن يوحنا بولس، وبعيداً عن النظرة العامة، قد أصبح أكثر تراجعاً. فرصاصات آغا لم تخترق العظام والأنسجة فقط، وإنما خلّفت آثاراً نفسية تركت البابا مستغرقاً في أفكاره وبعيداً عن محيطه أحياناً.

جلــس بوغي ويديه على ركبتيه، وهي الوضعية التي لطالما اتخذها عندما كان عليه نقل أنباء خطيرة. وبدأ رئيس الأساقفة بكشف القصة التي بدأت في تلك الأسابيع القليلة التي تلت محاولة آغا اغتيال يوحنا بولس.

عــندما وصلت أنباء ما حدث في ساحة القديس بطرس بعد ظهيرة يوم 13 أيار سنة 1981 إلى تل أبيب، كان رد الفعل المباشر لمدير عام الموساد إسحاق هوفي أن العملــية غريبة. ولم يكن ذلك الحادث المفجع في روما ضمن قائمة اهتمامات الموساد آنذاك.

كـــان العرب الإسرائيليون يصبحون أكثر تشدداً، وكذلك المتطرفين اليهود على حــدٍّ سواء - الذين يقودهم أعضاء من حزب كاهانا كاش - الذين أصبحوا أكثر عنفاً. تم اكتشاف مكيدة في الوقت المناسب لإيقافهم عن تفجير أقدس الأضرحة الإسلامية في القــدس - مسجد قبّة الصخرة. كانت النتائج في حال نجاحهم أسوأ من أن يتم التفكير بهـــا. كانت الحرب اللبنانية مستعرة رغم الدبلوماسية الأميركية المكوكية بين دمشق، وبــيروت، والقــدس. في مجلس الوزراء، كان رئيس الوزراء بيغن يقود حزباً متلهفاً

لشـنّ هجـوم /خـير واسع النطاق على منظمة التحرير الفلسطينية، وكان قتل ياسر عـرفات ما يزال أمراً منوطاً بالموساد؛ وخلال الشهر الذي تعرض فيه البابا لمحاولة اغتيال، كان هناك محاولتين فاشلتين لاغتيال رئيس منظمة التحرير الفلسطينية.

أثّـرت حقيقة أن كل جهاز استخبارات غربي كان يحقق في محاولة اغتيال البابا علـى قرار هوفي إبقاء الموساد بعيداً. على كل حال، كان يتوقع أن يعرف أخيراً من إحدى تلك الأجهزة حول خلفية ذلك الحادث.

كـان مـا يزال ينتظر المعلومات عندما تم استبداله بنعوم أدموني في أيلول سنة 1982. كان أدموني من خلفية بولندية - والداه من الطبقة الوسطى وهاجرا من مكان بالقـرب مـن غادنسـك - وكـان لديـه أكثر من مجرد فضول عابر حول الكنيسة الكاثوليكـية. خلال عمله متخفياً في الخارج في الولايات المتحدة وفرنسا، شاهد مدى قوة نفوذ الكنيسة. لقد ساعدت روما في وصول جون ف. كينيدي الكاثوليكي إلى البيت الأبيض، وفي فرنسا استمرت الكنيسة في لعب دور مهم في السياسة.

وحالمـا اسـتقر بـه المقام في منصبه الجديد، طلب أدموني ملف الموساد عن محاولـة اغتـيال البابا. كان فيه مقتطفات من المعلومات، وتقرير من كاستا يعمل في روما لم يخرج منها أبداً. وعلى غير العادة، فشلت أجهزة الاستخبارات الست التي قام كل منها ببحثه الخاص - بما فيه التحقيق مع آغا في زنـزانته التي تخضع لإجراءات أمنـية مشددة في سجن ريبيبا في روما - في الاشتراك بالمعلومات. هنا قرّر أدموني القيام بتحقيقه الخاص.

سـيقول ويليام كيسي، الذي كان عندها مديراً للاستخبارات المركزية، لاحقاً بأن السـبب الأقرب يبدو "أن الموساد شعر بأن تلك قد تكون الطريق إلى الفاتيكان. وربما كان أدموني يفكر بشيء يقايض به الحبر الأعظم".

عقـب محاولة غولدا مائير الفاشلة لإقامة علاقات دبلوماسية مع الفاتيكان، أنشأ زافي زامر محطة دائمة للموساد في روما في محاولة لاختراق الفاتيكان. كان الكاستا المسـؤول يعمل في مبنى قريب من السفارة الإسرائيلية، وفشل في تجنيد مخبرين بين الكهـنة. لـم يكن معظم ما يعرفه سوى إشاعات تنتشر في المشارب والمطاعم على لسـان موظفي الفاتيكان، ولم يحقق شيئاً سوى أن يراقب بحسد مدير محطة CIA في رومـا يدخـل إلى الفاتيكان ليعقد اجتماعاً كل يوم جمعة مع البابا؛ والتي تم استئنافها حالما تعافى يوحنا بولس من الجراحة التي خضع لها.

خـلال فـترة الـنقاهة، أدار وزيـر الخارجية الكاردينال أوغستينو كاسارولي

الفاتيكان. وسمع الكاستا أن كاسارولي قد عبّر عن آراء فظّة جداً حول إطلاق النار: لا بد أن CIA تعرف حول آغا وكامل المكيدة. أرسل الكاستا رأي الوزير إلى تل أبيب.

كان هناك رأي سائد ضمن مجتمع الاستخبارات الأميركي بأن آغا ليس سوى الزناد في خطة ترعاها KGB لقتل البابا. في وثيقة ممهورة بعبارة سري للغاية ومعنونة "محاولة آغا لقتل البابا: قضية التورّط السوفياتي"، كان هناك نقاش بأن موسكو خافت من أن يقوم البابا بإشعال شرارة الوطنية البولندية.

بحلول سنة 1981، كانت نقابة *التضامن*، وهي حركة العمال في البلاد بقيادة ليش فاليسا، تعرض عضلاتها بشكل متزايد، وكانت السلطات تتعرض لضغط متصاعد من موسكو لقمع نشاطات الاتحاد.

حثّ البابا فاليسا على عدم القيام بشيء يتسبب بتدخل سوفياتي عسكري مباشر. وحثّ يوحنا بولس كاردينال بولندا الذي كان يحتضر، ستيفان فيزنسكي، على التأكيد أيضاً لقادة البلاد الشيوعيين بأن البابا لن يسمح *للتضامن* بتجاوز الحدود، وعندما خطط الاتحاد للقيام بإضراب عام، انحنى الكاردينال فيزنسكي أمام فاليسا في مكتبه، وأمسك بقدم عامل حوض السفن، وقال إنه سيتشبث به حتى يموت. عندها ألغى فاليسا الإضراب.

في تل أبيب، توصل محللو الموساد إلى نتيجة مفادها أن البابا فهم أخيراً أهمية استرضاء السوفيات بشأن بولندا لتفادي خسارة المكانة المميزة التي حققتها *التضامن*. ولم يكن يبدو أن موسكو تريد قتل البابا. كان هناك احتمال بأن السوفيات عهدوا بعملية الاغتيال إلى بديل ما. في الماضي، نفّذت الاستخبارات السرية البلغارية مهام مماثلة لصالح KGB عندما كان ضرورياً إبقاء تورطها سراً. لكن المحللين اعتقدوا في ذلك الوقت أنه من غير المحتمل أن تقوم KGB بتفويض آخرين للقيام بمثل تلك المهمة الخطيرة. كما أن البلغار لم يكونوا لينفذوا عملية الاغتيال بمحض إرادتهم.

بدأ نعوم أدموني باستكشاف علاقة CIA آنذاك مع البابوية. وبين زيارات كيسي المنتظمة إلى البابا، كان كاردينال فيلادلفيا جون كارول لاعباً هاماً في العلاقة بين الفاتيكان وCIA، والذي قام برحلات مكوكية بين البيت الأبيض والقصر الرسولي. بالنسبة للمونسينور جون ماغي، أمين سر البابا للغة الإنكليزية، كان كارول: "صديق الأب الأقدس الحميم". جاء الاثنان من خلفية متشابهة، ويعرفان نفس الأغاني والقصص البولندية، ويستطيعان المزاح على طاولة عشاء البابا بلهجة بولندية محلية.

وكان بقيتنا يجلسون هناك ويبتسمون، ولا يفهمون كلمة مما يُقال".

كان كارول من اصطحب كيسي إلى اللقاء الأول الذي عقده مدير CIA مع يوحنا بولس بعد قضائه فترة النقاهة. فيما بعد، قدّم الكاردينال نائب كيسي، فيرنون والترز، إلى البابا. منذ ذلك الوقت، تراوحت قائمة المواضيع التي يناقشها ضابط CIA والبابا من الإرهاب في الشرق الأوسط إلى سياسات الكنيسة الداخلية وصحة قادة الكرملين. وبالنسبة لريتشارد ألان، الكاثوليكي، والذي كان أول مستشار لرونالد ريغان لشؤون الأمن القومي: "كانت العلاقة بين CIA والبابا إحدى أهم التحالفات في كل الأوقات. كان لدى ريغان ذلك الإيمان العميق بأن البابا سيساعده على تغيير العالم".

الشيء المؤكد أنه كان لدى الطرفين أهداف مشتركة. أعلن الرئيس والبابا معارضتهما الموحدة ضد الإجهاض. كما أوقفت الولايات المتحدة ملايين الدولارات من المساعدات لبلدان لديها برامج لتنظيم الأسرة. ودعم البابا، عبر *صمت هادف*، سياسات الولايات المتحدة العسكرية بما فيها تزويد الناتو بجيل جديد من صواريخ كروز. كانت CIA تتجسس بشكل دوري على هواتف الأساقفة والقساوسة في أميركا الوسطى الذين يدافعون عن لاهوت التحرير ويعارضون القوات التي تدعمها الولايات المتحدة في نيكاراغوا والسلفادور؛ وكانت التسجيلات الهاتفية تشكل جزءاً من تقرير الجمعة الذي يتلقاه البابا من رئيس محطة CIA في روما. أجاز ريغان شخصياً أيضاً للكولونيل أوليفر نورث، الذي كان يعمل عندها في مجلس الأمن القومي، بدفع مبالغ مالية منتظمة وكبيرة للكهنة الذين يعتبرهم الفاتيكان "موالون" في الأميركيتين الجنوبية والوسطى، وأفريقيا، وآسيا. كان يتم استخدام المال لدعم نمط حياتهم المترف والترويج لمعارضة البابا لكل من تحديد النسل والطلاق.

كانت إحدى مهام أمين سر البابا الشخصي، المونسينور إيمري كابونغو، تجديد قائمة الكهنة الموالين دورياً، وكانت إحدى مهامه الأخرى أرشفة الوثائق التي تقدّمها CIA والقيام بتسجيل محاضر اجتماعات مبعوثيها مع البابا.

التقى كابونغو بمدراء استخبارات واشنطن لأول مرة في 30 تشرين الثاني سنة 1981، بعد وقت قصير من عودة يوحنا بولس للعمل بعد تعرضه لإطلاق النار. بعد أن انضم كابونغو إلى يوحنا بولس لأداء أول صلاة في ذلك اليوم – الساعة 5:15 صباحاً في الرواق خارج المعبد الخاص في الشقة البابوية – ذهب الرجلان إلى المكتب الصغير لاستقبال نائب مدير CIA فيرنون والترز. ويتذكّر كابونغو اللقاء:

"جلست في مكاني المعتاد في زاوية الغرفة، أحمل دفتراً على ركبتي. ولم يكن

المـــترجم حاضـــراً. سأل الجنرال والترز عن اللغة التي ينبغي عليه استخدامها، وقال قداســـته بأنه سيكون مرتاحاً مع الإيطالية. بدأ والترز بالقول إنه يحمل تحيات الرئيس ريغـــان. وحمّله البابا تحياته بالمقابل. ثم تحولا إلى العمل مباشرة. قدّم والترز صوراً للأقمـــار الصـــنعية، وكـــان قداسته مفتوناً بمدى وضوحها. تكلم والترز ما يزيد عن الســـاعة حول رؤية CIA لآخر النوايا السوفياتية، وشكره قداسته. في نهاية الاجتماع، قـــدّم والـــترز عـــدداً من الصلوات وطلب من البابا أن يباركها، وشرح أنها للأقارب والأصدقاء، وقام قداسته بمباركتها".

لأنـــه كـــان حذراً من قدرة البابا على الانتقال من الأمور الدنيوية إلى الروحية، استخدم أدموني صداقته مع وزير الخارجية الأميركي ألكسندر هيغ - التقيا عندما كان أدمونـــي يعمـــل في السفارة الإسرائيلية في واشنطن - للحصول على نسخة من ملف CIA النفسي عن يوحنا بولس.

كـــان ذلك التقرير يقدم صورة لرجل يمكن لحماسته الدينية أن تكون متّقدة بحيث يبكـــي أثـــناء الصلاة، وغالباً ما كان يجلس على الأرضية الرخامية لمعبده الخاص، ووجهـــه للأســـفل، وذراعاه ممتدتان لتشكيل صليب، صامتاً مثل الميت. كان يستطيع قضـــاء ساعات في تلك الوضعية المائلة. ورغم ذلك، يمكن أن يثور غضباً، ثم ينفجر ويصـــرخ. وكان استيعابه للجغرافيا السياسية هائلاً، ويمكن أن يتشبث بمواقفه مثل أي ديكـــتاتور. لـــم يكن يوحنا بولس يخاف أيضاً من مواجهة المجمع الكنسي، أو جهاز الفاتيكان المدني، أو وزير خارجيته أوغستينو كاسارولي الذي أمضى فترة طويلة في الخدمة. خلُص التقرير إلى أن يوحنا بولس كان "يمتلك خبرة سياسية كبيرة من خلفيته البولندية، ويطيب له أن يكون لاعباً على الساحة الدولية".

كـــان هـــناك أمر واضح بالنسبة لنعوم أدموني: لعبت العلاقات المتينة والمتبادلة بين CIA والبابا دوراً حاسماً في قبول يوحنا بولس للرؤية الأميركية بأن الكرملين نظّم محاولة اغتياله".

رغـــم ذلـــك، وعلـــى افتراض أنه تمكّن من إثبات خطأ وجهة النظر تلك؟ كيف سيتصـــرف البابا؟ هل سيقلل ذلك من إيمانه بـــ CIA؟ هل سيجعله ذلك حذراً من كل أجهـــزة الاســـتخبارات؟ وهل سيسمح ذلك للموساد - إذا تبين وجود يد أخرى خلف محاولـــة الاغتيال - بإيجاد طريق أخيراً لتجاوز باب الفاتيكان البرونـــزي، هذا إذا لم يصـــبح مستشـــاراً دنيوياً سرياً للبابوية، أو على الأقل السماح بتبادل المعلومات معه، وبالمقابل أن يكون قادراً على تغيير موقف الحبر الأعظم من إسرائيل؟

بعـد سـتة شـهور، ظهرت الإجابة على أول أسئلة "أدموني، وهي: هل هناك شـخص آخـر خطط لمحاولة الاغتيال؟ لقد تم وضع الخطة في طهران، مع موافقة كاملـة من آية الله الخميني. وكان المقصود من قتل البابا أن يكون الخطوة الافتتاحية في الجهاد، أو الحرب المقدّسة، ضد الغرب وما كان الخميني يراه بالقيم المنحطّة التي تدعمها أكبر الكنائس المسيحية.

يقـول أحد التقارير التي تم تقديمها إلى أدموني: "يبقى الخميني المثال الكلاسيكي عـن التعصـب الديني. وقد منح لنفسه دور ولي شعبه. للحفاظ على ذلك الدور، كان يتصرف دائماً بأسلوب يشكل خطورة على الغرب والعالم بأسره".

ومـع الأخذ بالحسبان احتمال فشل آغا، تأكّد مشرفوه الإيرانيون بأن يبدو رجلاً متعصـباً يمـل وحـيداً وسرّبوا تفاصيل عن خلفيته. لقد ولد محمد علي آغا في قرية يستلتيب النائية في شرق تركيا، وترعرع في بيئة أصولية إسلامية. لدى بلوغه التاسعة عشرة، انضم إلى الذئاب الرمادية، وهي مجموعة إرهابية موالية لإيران ومسؤولة عن معظم العنف في تركيا التي تتأرجح باتجاه الديموقراطية. في شباط سنة 1979، اغتال آغا رئيس تحرير صحيفة إسطنبول المعروفة بدعمها للسياسات الغربية. وبعد اعتقاله، تمكـن آغـا من الفرار من سجنه بمساعدة الذئاب الرمادية. تلقت الصحيفة في اليوم التالي رسالة مرعبة حول زيارة البابا إلى تركيا، التي كانت مقررة بعد ثلاثة أيام:

"ترسـل الإمبريالية الغربية، الخائفة من تحول تركيا وشقيقاتها الدول الإسلامية إلـى قوة سياسية، وعسكرية واقتصادية في الشرق الأوسط، إلى تركيا في هذه اللحظة الحساسـة قـائد الصليبيين يوحنا بولس، الذي تقدّمه كقائد ديني. وإذا لم يتم إلغاء هذه الزيارة، سأقتل عامداً البابا القائد".

أصـبح أدمونـي مقتـنعاً بأن الرسالة كتبت في طهران: بأسلوب ومحتوى كانا بالتأكـيد فـوق مسـتوى مهارات كتابة آغا الأمي تقريباً. أظهر البحث الذي قامت به حواسب الموساد في خطب الخميني أنه أشار سابقاً إلى "قائد الصليبيين" و"البابا القائد" في وصفه ليوحنا بولس.

فـي الـنهاية، مـرّت زيارة البابا دون حوادث. وذهب اسم آغا وصورته إلى حواسـب عـدد من أجهزة الاستخبارات لم يكن بينها الموساد. وشعر أوتو كورميك، ضابط الاستخبارات السرية النمساوية الذي تولّى التحقيق في قضية إطلاق النار على البابا، بأنه "ليس ضرورياً إخبار الموساد. إسرائيل ستكون المكان الأخير الذي سيفكر آغا في الذهاب إليه".

اكتشف تحقيق الموساد أنه بعد هروب آغا من سجنه، ذهب إلى إيران حيث أمضى شهوراً في معسكرات تدريب مختلفة. استطاع الموساد، من خلال مصادره الخاصة في تلك المعسكرات، تجميع أجزاء صورة حياة آغا في ذلك الوقت.

كان ينهض قبل الفجر، وعيناه الصغيرتان المثقلتان بالنعاس تغوصان عميقاً في وجهه الطويل، فيما يشاهد المجندين الآخرين يستيقظون. كانت أضواء الفجر الأولى تضيء لوحات على جدار أكواخهم: صور لآية الله الخميني والشعارات الثورية، التي تم تصميم كل منها لإذكاء تعصبهم الديني. وكانت الأغاني التي تصدح من مكبّرات الأكواخ تعزّز من ذلك.

كان آغا، الذي يرتدي ملابس داخلية، شخصية غير جذابة؛ وكانت قدماه ويداه ضخمة غير متناسقة مع جسده، وصدره المقعّر، وكتفيه البارزان، وأطرافه النحيلة. كان أول شيء يفعله كل صباح، مثل كل المجندين الآخرين، نشر سجادة الصلاة والركوع ثلاث مرات، ووضع جبهته في كل مرة على الأرض، وتمتمة اسم الله (عزّ وجل)، سيد الكون، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين. ويبدأ بعد ذلك في تلاوة قائمة البغضاء الطويلة لديه، والتي شجّعه المشرفون عليه على كتابتها. كانت القائمة طويلة ومتنوعة، وتتضمن كل الإمبرياليين، والناتو وتلك البلاد العربية التي رفضت قطع النفط عن الغرب. كان يدعو الله (عزّ وجل) لتدمير الولايات المتحدة، أقوى البلاد على وجه الأرض، وشعبها؛ ويصلّي لزوال طريقتهم في الحياة، وقيمهم وعاداتهم، وأسباب وجودهم.

تلقّى محمد علي آغا وعداً بأنه عندما يحين الوقت، ستُتاح له فرصة قتل البابا. غرس المشرفون عليه في ذهنه أن انتخاب البابا في نفس الوقت تقريباً الذي حرّر في الخميني المحبوب إيران من نظام الشاه لم تكن مصادفة.

في كانون الثاني سنة 1981، سافر آغا إلى ليبيا. وكان الموساد مندهشاً في البداية من هذا الجزء من رحلته، حتى اكتشف مخبر في طرابلس أن أحد ضباط CIA الخائنين ويدعى فرانك تيربل كان موجوداً في البلد في نفس الوقت. أدانت هيئة محلفين كبرى في واشنطن تيربل لتزويده ليبيا بالسلاح، والتآمر على اغتيال أحد معارضي القذافي في القاهرة، وتجنيد طيارين عسكريين أميركيين سابقين للعمل على الطائرات الليبية، وتجنيد أفراد القوات الخاصة لإدارة معسكرات القذافي لتدريب الإرهابيين. كان يدرّب الإرهابيين في ليبيا على كيفية تفادي ملاحقة أجهزة الاستخبارات الغربية. وانتقل تيربل بعدها إلى بيروت – حيث اختفى. واعتقد الموساد

أنه قُتِل عندما أصبحت أساليبه عديمة الجدوى.

كـــان الموســـاد يعلم أن المشرفين على آغا في طهران رتّبوا له لقاءً مع تيربل، وســـرّبوا تلك المعلومة بعد محاولة اغتيال يوحنا بولس، مما سمح للروس بأن يدّعوا بـــأن CIA نظّمـــت المكيدة. ومثل الموساد، كان لدى KGB قسم فعّال للحرب النفسية. مـــلأت قصة تورط CIA آلاف الأعمدة الصحفية والكثير من ساعات البث التلفزيوني والإذاعـــي، ولـــزيادة التشـــويش، قام رجال الدين في طهران بوضع خطة لآغا بعد مغادرته ليبيا في شباط سنة 1981 سافر بموجبها إلى صوفيا في بلغاريا والتقى رجالاً أخـــبروه أنهـــم أعضـــاء في جهاز استخبارات البلد السري: لا دليل قاطع على ذلك. وردّت CIA بعدما أغضبتها محاولات KGB تلطيخ سمعة الوكالة أن البلغار استخدموا آغا نيابة عن الكرملين.

كان الوضع بالنسبة للموساد رائعاً لاستغلال القول المأثور: *فرّق تسد*. لن يكون الموســـاد قـــادراً علـــى إضعاف موقف CIA مع الفاتيكان وحسب، ولكن على المدى الطويـــل وبـــتقديم نسختهم عن المكيدة على أنها الصحيحة، سيجد طريقة لجعل البابا يستمع إليه. وسينتج عن ذلك أشياء كثيرة: قد يستطيع ضباطه الوصول إلى شبكة جمع المعلومات الهائلة الخاصة بوزارة خارجية الفاتيكان؛ وقد يستطيع الكاستا العمل معها، واســـتغلال الكهـــنة والرهـــبان إذا اقتضـــت الضرورة، ويمكن زرع أدوات التجسس الإلكترونية عندما تحين الفرصة في كل تلك الأماكن المقدّسة التي لاحظها زافي زامر في الفاتيكان.

عـــندما اتضـــحت رحلة محمد علي آغا بشكل كامل للموساد في تل أبيب، كان نعوم أدموني جاهزاً للإجابة على السؤال الذي سيجعل من كل ذلك ممكناً. ووجد بحث حاســـوبي الحل مرة أخرى. وصف أحد "الجواسيس الناجين" الذين جنّدهم رافي إيتان، وهـــو كاثوليكـــي يعـــيش في ميونيخ، الدور الاستثنائي الذي يلعبه لويجي بوغي في البابوية. وأرسل نعوم أدموني في طلب إيلي وأخبره بضرورة إقامة علاقة مع بوغي.

بعـــد سنتين كاملتين من قيام آغا بإطلاق النار على البابا، جلس رئيس الأساقفة مطولاً في الليل يشرح بالتفصيل ليوحنا بولس ما أخبره به إيلي.

بعـــد شـــهر مـــن ذلك، وفي 23 كانون الأول سنة 1983 وعند الساعة 4:30 صـــباحاً، أي قبل حوالى ثلاث ساعات من إضاءة أضواء شجرة عيد الميلاد في ساحة القديس بطرس لحلول النهار، أيقظ الخادم الخاص البابا.

كانـــت الغرفة صغيرة بشكل مدهش، وما تزال جدرانها مغطّاة بقطع الكتان التي

كـــان سلف البابا الحالي يحبها. كانت الأرضية الخشبية، التي تلمع من الصقل، مغطّاة جزئـــياً بسجادة حاكتها راهبات بولنديات. وكان هناك على الحائط فوق السرير، الذي اســتلقى علـــيه أربـــع من أسلاف يوحنا بولس ينتظرون حتفهم، تمثال للمسيح (عليه السلام) مصلوباً. وعلى جدار آخر رسم جميل للسيدة العذراء. وكانا كلاهما هدايا من بولندا. وإضافة إلى خدم البابا، كان أولئك الذين يرونه على مدار الساعة - عادة أحد كهنـــته الإداريـــين الذي يحمل أنباء لا يمكنها الانتظار - مرتاحين لرؤية يوحنا بولس يستعيد بعضاً من حيويته ونشاطه القديمين.

كمـــا كان دائماً، بدأ البابا يومه بالذهاب إلى المحراب للركوع في صلاة خاصة. بعـــد ذلـــك حلق ذقنه واستحم وارتدى ملابسه التي يضعها له خادمه: قفطان صوفي أبـــيض ثقـــيل مع قبعة حول الكتفين، وقميص كهنوتي أبيض، وجوارب بيضاء طويلة حتى الركبة، وحذاء بني وطاقية بيضاء. كان مستعداً للذهاب للقاء آغا في سجن ريبيبيا في روما.

تم تنظيم الاجتماع بناءً على رغبة البابا الذي كان القصد منه، كما قال، أن يكون "صـــك غفـــران". في الحقيقة، أراد يوحنا بولس اكتشاف فيما إذا كان ما قاله الموساد صـــحيحاً. قاده إلى السجن الرجل نفسه الذي كان خلف المقود في المركبة البابوية في ســـاحة القديـــس بطرس عندما أطلق عليه آغا النار. رافقته مواكبة من شرطة روما، وشقّت الليموزين طريقها باتجاه الشمال عبر المدينة إلى السجن. كانت هناك مجموعة صـــغيرة من الصحفيين في سيارة أخرى (من بينهم مؤلف هذا الكتاب)، وتمت دعوة هؤلاء الصحفيين ليشهدوا اللحظة التاريخية عندما يتقابل البابا والقاتل وجهاً لوجه.

بعد ساعتين، دخل البابا جناح سجن ريبيبيا الذي يخضع لإجراءات أمنية مشددة. وسار بمفرده نـــزولاً في الممر إلى باب الزنـــزانة ت 4 المفتوح حيث كان آغا يقف منـــتظراً في الداخل. انتظر المراسلون الصحفيون في أعلى الممر. كان معهم حرّاس السجن، الجاهزين للانقضاض على زنـــزانة آغا إذا قام بأي حركة تهدد زائره.

عندما مدّ البابا يده التي تحمل الخاتم، تحرّك آغا لمصافحته، وتردد قليلاً قبل أن ينحني ليقبّل خاتم الصياد. ثم أخذ يد البابا ووضعها لوقت قصير على جبينه.

طرح البابا السؤال بلطف وبالإيطالية: "هل أنت محمد علي آغا؟" وكان هناك من أخبره بأن آغا تعلّم الإيطالية في السجن.

"نعـــم". ورافقـــت ابتسامة سريعة الكلمة، كما لو أن آغا كان محرجاً للاعتراف بهويته.

"هــل أنــت مــرتاح هنا؟" نظر يوحنا بولس في الزنــزانة، مهتماً بالمكان الذي سيقضي به من حاول قتله بقية حياته على الأرجح.

"نعم".

جلــس يوحــنا بولس على مقعد تم وضعه داخل الباب مباشرة. وغاص آغا في سريره، يضم ويفتح يديه.

"كيف حالك؟" وكان سؤال البابا عن شعور آغا أبوياً تقريباً.

"جــيد، جيد". وفجأة كان آغا يتكلم بسرعة وطلاقة، وكانت الكلمات تأتي بصوت خافت لا يستطيع سوى البابا سماعه.

أصــبحت تعابــير يوحــنا بولــس أكثر تأملاً، وكان وجهه قريباً من وجه آغا، ويحجبه جزئياً عن الحرّاس والصحفيين.

همس آغا في أذن البابا اليسرى. وهزّ البابا رأسه بشكل لا إرادي تقريباً. توقف آغــا وظهــرت على وجهه علامات الشك. أشار يوحنا بولس، بحركة سريعة من يده اليمــنى، أن علــى آغا الاستمرار فيما يقوله. كان الرجلان قريبين جداً من بعضهما بحيث تلامس رأسيهما تقريباً، وبالكاد تحركت شفتا آغا. كان هناك نظرة ألم على وجه يوحنا بولس، وأغلق عينيه كما لو أن ذلك سيساعده على التركيز بشكل أفضل.

توقــف آغــا فجــأة في منتصف الجملة. ولم يفتح يوحنا بولس عينيه. وتحركت شفتاه فقط؛ لم يكن بمقدور أحد سوى آغا أن يسمع كلماته.

تابع آغا الحديث مرة أخرى. وبعد دقائق قليلة، قام البابا بتحريك يده قليلاً. توقف آغــا عن الكلام، ووضع يوحنا بولس يده اليسرى على جبينه، كما لو أنه يريد حجب عينيه عن آغا.

ثم ضغط يوحنا بولس على ذراع الشاب، كما لو أنه يشكره على ما قاله. استمر تــبادل الحديث إحدى وعشرين دقيقة، ثم وقف البابا ببطء على قدميه، ومدّ يده مشجعاً آغــا علــى القيام بالمثل. حدّق الرجلان في أعين بعضهما البعض، وأنهى البابا هذه اللحظة من الإثارة الكاملة بمد يده إلى جيب القفطان الذي يرتديه وأخرج صندوق من الورق المقوى يحمل الشارة البابوية. وأعطاه إلى آغا. واستلم آغا المذهول الصندوق بيده.

وانتظر البابا مع ألطف ابتسامة على وجهه. وفتح آغا العلبة. وفي الداخل، كان هناك مسبحة مصنوعة من الفضة واللؤلؤ.

شــكره آغا. وأجاب البابا بأن ذلك "لا شيء، لا شيء." ثم انحنى للأمام وهمس

مجدداً بكلمات سمعها الآغا فقط.

ثم، ودون أن يقول أي شيء آخر، خرج البابا من الزنــزانة.

قـــال المـــتحدث باسم الفاتيكان فيما بعد: "لا يعرف علي آغا سوى إلى مستوى معيــن. وهو لا يعرف شيئاً على المستوى الأعلى. وإذا كان هناك مؤامرة، فقد خطط لها محترفون، والمحترفون لا يتركون آثاراً. ولن يجد أحد شيئاً".

لـــم تكن تلك المرة الأولى التي يكون فيها الفاتيكان مقتصداً بعرض الحقيقة. أكد آغـــا ما قاله الموساد للويجي بوغي. لقد تم وضع خطة قتل البابا في طهران، وكانت معرفة ذلك ستصبغ موقف يوحنا بولس تجاه كل من الإسلام وإسرائيل. أخبر موظفيه بشكل متزايد أن النـــزاع الحقيقي القادم في العالم لن يكون بين الشرق والغرب، وبين الولايات المتحدة وروسيا، وإنما بين الأصولية الإسلامية والمسيحية. كان حريصاً في خطبه العلنية على فصل الإسلام المُعتقد عن الأصولية الإسلامية.

فـــي إسرائيل، اعتبر محللو الموساد أن موقف البابا الجديد أولى الإشارات على قـــبول الدليل الذي تم تقديمه إلى بوغي. لكن رغم عدم القيام بأي حركة مباشرة لدعوة الموســـاد للمشاركة في رسم صورة العالم أمام يوحنا بولس، أصبح البابا مقتنعاً بقيمة حـــوار بوغـــي مـــع إيلي. في تل أبيب، أخبر أدموني إيلي أن يبقى على اتصال مع بوغي، واستمرا بالاجتماع في مدن أوروبية مختلفة – أحياناً في السفارة الإسرائيلية – وفي أحيان أخرى في البعثات البابوية. كانت مناقشاتهما تتناول مواضيع شتّى، لكنهما ركّـــزا دائماً على قضيتين: الوضع في الشرق الأوسط، ورغبة البابا بزيارة الأراضي المقدّســـة. كـــان هناك موضوع متصل يتعلق بجهود يوحنا بولس الدائمة لإيجاد وطن لمنظمة التحرير الفلسطينية.

أوضح بوغي أن البابا يميل إلى ياسر عرفات ومفتون به، ولم يكن يوحنا بولس يشـــترك فـــي نفس وجهة النظر مع أشخاص مثل رافي إيتان، وديفيد كيمش ويوري ســـاغوي بـــأن قـــائد منظمة التحرير الفلسطينية كان – كما يقول إيتان – قاتلاً عديم الرحمة و"سفّاح نسائنا وأطفالنا، وشخصاً أرغب بقتله بيديّ العاريتين".

بالنسبة للبابا، الذي ترعرع في بيئة المقاومة البولندية البطولية ضد النازية، كان عرفات مظلوماً، ويمتلك شخصية جذابة لطالما كانت قادرة على الهروب من محاولات الموساد المختلفة لقتله. أعاد بوغي على مسامع إيلي كيف أن عرفات قال مرة ليوحنا بولـــس إنه طوّر الحاسة السادسة – "والحاسة السابعة بعض الشيء" – عندما يتعرض للخطر. وقال بوغي لإيلي: "رجل مثل هذا يستحق أن يعيش".

خــلال مثل تلك المقتطفات، حصل إيلي على رؤية واضحة حول توجهات البابا الذهنــية. لكن يوحنا بولس قام بما هو أكثر من مجرد خدمة كلامية للحقيقة التاريخية بعدم نسيان الجذور اليهودية للمسيحية، وأنه يجب استئصال معاداة السامية – المنتشرة في بولندا التي يحب.

في أيار سنة 1984، دعا بوغي إيلي إلى الفاتيكان، وتكلم الرجلان معاً لساعات فــي مكتب رئيس الأساقفة في القصر الرسولي، ولغاية يومنا هذا، لا يعرف أحد عما تكلما.

في إسرائيل، كان ذلك وقت ظهور فضيحة أخرى حول عمل مجتمع استخبارات البلاد. قبل شهر من ذلك، وفي 12 نيسان، اختطف أربع إرهابيين من منظمة التحرير الفلســطينية حافلة على متنها خمسة وثلاثين راكباً عندما كانت تتجه إلى قرية عسقلان الجنوبــية، وتقول النسخة الرسمية عن الحادث إن عملاء الشين بيت اقتحموا الحافلة، ونتيجة للاشتباك المسلّح الذي وقع، لقي إرهابيان مصرعهما فيما مات الاثنان الآخران متأثران بجراحهما في طريقهما إلى المستشفى.

تقول التقارير الصحفية أنه تم اقتيادهما من الحافلة دون أن تظهر عليهما أي آثار لجــروح خطيرة. وتبين فيما بعد أنهما تعرّضا لضرب مبرّح في سيارة الإسعاف من قــبل ضباط الشين بيت مما أدّى لوفاتهما. وتعرّض الموساد، رغم أنه لم يكن مشتركاً بشكل مباشر في العملية، لحملة إدانة عالمية نتيجة للحادث.

علــى خلفية ذلك الحادث، شرح بوغي لإيلي أنه من المستحيل على يوحنا بولس إقامــة علاقــات دبلوماســية مــع إسرائيل. وردّ إيلي أنه من المحال، حتى قيام تلك العلاقــات، أن يقــوم الــبابا بزيارة الأراضي المقدّسة. كان ذلك اختباراً لمحاولة كلا الرجلين بناء جسر بينهما، ووافقا في النهاية على أن القضية ليست منتهية.

فــي 13 نيســان سنة 1986، قام يوحنا بولس بما لم يقم به أي بابا آخر. ودخل كنيس روما في لونغوتفير دي سينسي حيث عانقه حاخام المدينة الأكبر. وكان الاثنان يــرتديان اللــباس الخــاص بكل منهما، وسارا جنباً إلى جنب عبر الكنيس الذي يلفّه الصمت وصولاً إلى تيفا، المنصة التي يقرأ منها الحاخام التوراة.

كــان يجلــس فــي مؤخرة الكنيس إيلي الذي لعب دوره في تحقيق تلك اللحظة التاريخــية. ورغــم ذلــك لم يكن قد حقّق ما تريده إسرائيل – الاعتراف الدبلوماسي البابوي.

ســوف يأتــي ذلك أخيراً في كانون الأول سنة 1993، عندما تم إقامة علاقات

دبلوماسية رغم معارضة متشددي وزارة الخارجية البابوية.

لكن نعوم أدموني لم يكن عندها مديراً للموساد. واستمر خلفه شابتي شافيت في تلك العملية المعقّدة لتقريب الموساد من الفاتيكان. كان جزء من تلك المناورة لإقناع البابا بأن كلاً من إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية لديهما اهتمام مشترك على المدى الطويل في التوصل إلى تسوية بينهما، ومواجهة التهديد المشترك المتمثّل في الأصولية الإسلامية. حمل البابا يوحنا بولس آثار جروح تلك الحقيقة.

أثناء ذلك، كان الموساد مشغولاً بقارة لطالما كان لدى الفاتيكان آمال كبيرة بمستقبلها - أفريقيا. وتوقّع الحبر الأعظم بأن ينبثق من هناك يوماً ما أول بابا أسود للكنيسة. لكن الموساد كان يقدّم نفسه هناك على أنه الخبير في الفن الأسود الذي يتضمن مواجهة جهاز استخبارات لجهاز آخر للمحافظة على موقعه.


صفحة فارغة

الفصل الثالث عشر

العلاقات الأفريقية

لطالمـا كان نادي الواحة الواقع على بعد عدّة مباني من فندق نورفولك المهيب فـي نيروبي المكان المفضّل لمجتمع رجال الأعمال في كينيا. كانوا يستطيعون تناول الشـراب طـوال الليـل في الداخل، واصطحاب فتاة من المشرب إلى إحدى الغرف الخلفية بعد تفقّد شهادتها الطبية الحالية التي تؤكد خلوها من الأمراض التناسلية.

مـنذ العام 1964، كان النادي يستقبل زوّاراً آخرين، مثل الصينيين في ملابس الصـيد، والروس المتّقدي الوجوه، ورجالاً قد تنتمي جنسياتهم إلى أي بلد في حوض المتوسـط. لـم يكونوا هناك لتناول الجعة الباردة أو ما يعلن عنه النادي "أكثر الفتيات إثـارة فـي كل أفريقيا". كان هؤلاء الرجال يعملون لصالح أجهزة استخبارات تتقاتل للحصول على موطئ قدم في أفريقيا الوسطى، التي لم يكن يعمل فيها آنذاك سراً سوى M16 البريطانـي. كـان الوافدون الجدد يمثّلون الاستخبارات السرية الصينية CSIS، والسـوفياتية KGB، والموساد. وكان لكل جهاز جدول أعماله الخاص به، ويعمل ضد الأجهزة الأخرى. لم يكن أي جهاز بارعاً في ذلك مثل الموساد.

كان هناك عشرات الكاستا المنتشرين على طول خط الاستواء، ويعملون من دار السـلام على المحيط الهندي إلى فريتاون على شواطئ الأطلسي. كان هؤلاء العملاء شباباً ولائقين جسدياً مثلما هو حال مهاراتهم العالية، يحملون عدداً كبيراً من جوازات السفر المزوّرة، واكتسبوا أساسيات المعالجة والجراحة الميدانية التي تمكّنهم من النجاة فـي الغابـات حيـث تـتجول الأسـود والنمور الضارية، إضافة إلى رجال القبائل العدوانيين.

بـدأت مغامرة الموساد الأفريقية بعد وقت قصير من وصول فيدل كاسترو إلى السـلطة فـي كوبا سنة 1959 والبدء بتصدير ثورته. بدأ أول نجاحاته عندما قام أحد مجندي كاسترو بانتزاع خليفته جون أوكيلو من الغابات، وإخضاعه لدورة قصيرة في حرب العصابات في هافانا، والطلب منه الاستيلاء على جزيرة زنجبار التي تقع قبالة

الســاحل الشــرقي لأفريقيا. وأفزع طوله الفارع وجسده الضخم - كان يزن ثلاثمئة رطــل - قــوة شــرطة الجزيرة الصغيرة مما دفعها للاستسلام. فرض جيش أوكيلو الأشــعث سلطته القاسية على سكانها الذين لم تكن لديهم أسلحة سوى الأدوات البدائية التــي يســتخدمونها لحصاد التوابل التي جعلت من زنجبار مشهورة عالمياً. أصبحت الجزيــرة قــاعدة كاسترو لاختراق البر الرئيسي الأفريقي. كان هناك سكان من أصل صيني في ميناء دار السلام، وأثارت تقاريرهم عمّا يجري انتباه حكومة بكين. ونتيجة إدراكهــا للفرصة التي قدّمتها الثورة الجنينية للصين لتحقيق المزيد من السيطرة على القــارة، صدرت الأوامر لــ CSIS لإنشاء قواعد في المنطقة وتقديم كل أشكال الدعم للثائرين.

أثــناء ذلــك، وضع كاسترو خطة متكاملة لتأخذ حركة التحرير السوداء الناشئة المــثال الكوبي. كان التركيز على ميناء الدار البيضاء على الساحل الغربي لأفريقيا. وصــلت حمــولات ســفن مــن الأسلحة الكوبية إلى أفريقيا، وبالمقابل كانت قوارب الــرحلات إلــى هافانــا مليــئة بمتدربين على حرب العصابات من كل أنحاء أفريقيا الوسطى، وسرعان ما كانت CSIS تساعد في انتقائهم.

كان احتمال وجود آلاف الثوار المدربين والمسلحين جيداً على بعد عدّة ساعات مــن إسرائيل مصدر قلق لساستها وأجهزة استخباراتها. لكنّ استفزاز جيش الثوار هذا في حين أنه لا يمثّل خطراً مباشراً قد يقود إلى مواجهة لا ترغب إسرائيل في دخولها، ومــع انشــغالها التام بمواجهة التهديد من الإرهابيين العرب، كان ينبغي عليها تفادي القــيام بــأي عمــل مباشر ضد الثوار السود. لقد أمر مير عميت الكاستا في أفريقيا بالمراقبة عن كثب، ولكن عدم التدخّل بشكل فعّال.

غيّر ظهور KGB على الساحة من كل ذلك. لقد قدّم الروس عرضاً لا يمكن أن يرفضــه الإرهابــيون المحــتملون: فرصــة التدريب في جامعة باتريس لومومبا في موســكو. ســيتلقّون هــناك خلاصــة خبرة أفضل مدربي KGB في تكتيكات حرب العصــابات، وكيفــية استغلال ذلك خفية في مساعدة المحرومين والضعفاء في الدول الديموقراطية. وللمساعدة في ترويج الفكرة، اصطحب KGB بعضاً من أفضل خريجي باتريس لومومبا: الإرهابيون العرب.

عزّز مير عميت الكاستا في أفريقيا بفرق كيدون. كانت أوامره الجديدة القيام بكل الوسائل الممكنة لتعطيل العلاقات بين الروس ومضيفيهم الأفارقة وبين KGB وCSIS، وقتل الناشطين العرب عندما تحين الفرصة، وإنشاء علاقات مع الثوار الأفارقة السود

ووعدهـــم بأن إسرائيل ستدعم حركاتهم للحصول على ما هو أكثر من تكتيكات حرب العصـــابات، والسماح لتنظيماتهم بتحقيق شرعية سياسية. كل ما كانت إسرائيل تريده بالمقابل هو ضمان عدم تعرّضها للهجوم من قبل تلك الحركات.

أصـــبح نـــادي الواحة جزءاً من المعركة لكسب قلوب وعقول الثوار الأفارقة. كانـــت الليالي تمتلئ بمناقشات مطولّة حول كيف أن الإرهاب، دون دعاية، ليس سوى سلاح دون هدف، وعن وجود حاجة للتركيز على الهدف النهائي: الحرية والاستقلال. ضـــمن جـــو الـــنادي الكظيم، كان يتم رسم المكائد، وعقد الصفقات، وتحديد أهداف الاغتـــيال والتدمير. كان بعض الضحايا يتعرضون لكمائن فيما يقودون مركباتهم على الطرق القذرة، فيما تم قتل آخرين في أسرّتهم. قد يكون القتيل عميل KGB في يوم ما، وجاســـوس CSIS في اليوم التالي، وكان كل طرف يلوم الطرف الآخر على ما يفعله الموساد.

بـــالعودة إلى الواحة، كانت الليالي تستمر كما هي العادة، مع وضع خطط جديدة حول طاولات الخيزران، مع تدفق الأمطار الغزيرة فوق التلال وسقوطها فوق السطح القصديري. لم تكن هناك حاجة للهمس، لكن العادات القديمة لا تتغير بسهولة.

زوّد مـــير عميـــت عمـــلاءه بكل ما كان يعرفه عن CSIS. كان للجهاز تاريخ بالجاسوســـية يعود إلى حوالى 2500 سنة مضت. وطوال قرون كان أداة الإمبراطور الحـــاكم في التجسس على رعيته. لكن مع وصول أول ماو وبعده دينغ كزاوبنغ، اتخذ جهـــاز الاستخبارات الصيني، مثل كل شيء آخر في البلاد، اتجاهاً جديداً. بدأ CSIS بتوسيع شبكته عبر المحيط الهادئ نحو الولايات المتحدة، وأوروبا، والشرق الأوسط، وأخيراً أفريقيا.

كـــان يـــتم اســـتخدم تلـــك الشـــبكات لأهداف تتجاوز التجسس: مسالك لتهريب الممـــنوعات وغسيل الأموال. ومع زراعة حوالى نصف أفيون العالم على مقربة من الجمهوريـــة الشـــعبية في المثلث الذهبي – تايلندا، ولاوس وميانمار – عمل CSIS مع عصابات المثلث لتهريب الممنوعات إلى الغرب. مع الأخذ بعين الاعتبار موقع هونغ كونـــغ كأحد أهم المراكز العالمية لغسيل الأموال، كان لدى CSIS غطاء ممتاز لإخفاء أربـــاح الصين من تهريب الممنوعات. ساعدت تلك الأموال على تمويل عملياتها في أفريقيا، والتي كانت منذ سنة 1964 تحت إشراف مدير عام CSIS، الجنرال كياو شي. كـــان كـــياو رجـــلاً طويل القامة منحني الظهر، ويحب المشروب الفرنسي والسيجار الكوبـــي، ورئيساً لمئات الجواسيس ولديه ميزانية للرشوة والابتزاز تضاهي تلك التي

تمتلكها KGB. كانت معسكرات العمل في وسط الصين مليئة بأولئك الذين تجرأوا على تحدّي كياو. يصف تقرير الموساد النفسي كياو شي بأنه رجل اعتمد طوال حياته المهنية على الدهاء والتحركات الخفية.

كان عملاء CSIS في أفريقيا تحت القيادة المحلية للعقيد كاو لينغ، والذي كان شخصية أسطورية في الجهاز، واكتسب سمعته في نيبال والهند بتكتيكاته المدمّرة. كان كاو لينغ يتخذ من جزيرة زنجبيل مقراً له ويعيش حياة مترفة، ولديه شابات أفريقيات يافعات كمحظيات. كان ينتقل عبر أفريقيا الوسطى مثل حيوان ضارٍ، ويختفي لأسابيع أحياناً. أصبحت زياراته لنيروبي مناسبات لإقامة حفلات ماجنة في الواحة. كان يملأ النادي دخان حزم عيدان البخور الزكية الرائحة، وكان يتم تقديم طعام شهي مستورد مباشرة من الصين. كانت البغايا الأفريقيات يرتدين اللباس الصيني التقليدي؛ ويتم إطلاق ألعاب نارية، واستحضار فرق فنية من هونغ كونغ.

كان الثوار العائدون من كوبا يحضرون مهرجانات الهواء الطلق قبل أن يختفوا في أدغال أفريقيا لشن الحرب. أقام أحدهم حفلة شرب فيها كأساً من الدماء البشرية التي حصل عليها من الأعداء الذين قتلهم.

أثناء ذلك، كان كاو لينغ يوسّع عملياته ليس فقط في عرض أفريقيا، ولكن أيضاً شمالاً باتجاه إثيوبيا، واليمن الجنوبي، ومصر. كان يزوّد إرهابييه بمبالغ كبيرة من المال لشن هجمات على إسرائيل. كان CSIS يعتبر إسرائيل مخلباً في أيدي واشنطن، وهدفاً شرعياً لما كان كاو لينغ يدعوه مقاتلي الحرية.

قرّر مير عميت أن يدخل الموساد في مواجهة جنباً إلى جنب مع CSIS. قام الجهاز أولاً بتدمير خطة صينية لقلب نظام حكم هاستنغز باندا الموالي للغرب في مالاوي. ثم أخبر السلطات الكينية حول البنية الكاملة للشبكة الصينية في وسط البلاد. وأظهرت حكومة نيروبي امتنانها لاحقاً عندما سمحت لطائرات سلاح الجو الإسرائيلي باستخدام أجوائها لتنفيذ مهمة عينتب. تم إغلاق نادي الواحة ووضع الزبائن الصينيين على الطائرات، وترحليهم إلى خارج البلاد؛ والذين احتجوا كثيراً على أنهم مجرد رجال أعمال. كان هؤلاء محظوظين لأن عملاء CSIS الذين بقوا في أفريقيا تعرّضوا للقتل من قبل كاستا الموساد الذين تركوهم في السافانا لتفترسهم الأسود والنمور.

كلما حاول الصينيون معاودة القتال في بلاد أفريقية أخرى، كلما كان الموساد يشتد قسوة. لقد رافقت فرق كيدون CSIS في كل عملية كانت تقوم بها. في غانا، تم قتل أحد عملاء CSIS حالما غادر أحد الملاهي مع صديقته. أما في مالي، فمات عميل

آخــر فــي انفجار سيارة. وفي جزيرة زنجبار، التي كانت ما تزال الجوهرة في تاج CSIS، أتــت النــيران على شقة سكنية يعيش فيها عملاء CSIS. خلال إحدى رحلاته الميدانــية، اســتطاع كاو لينغ نفسه النجاة بصعوبة من الموت عندما أخبره حدس ما بضرورة تغيير سيارته في برازافيل في الكونغو. انفجرت المركبة الأخرى بعد دقائق قلــيلة، مما أدى إلى مقتل سائقها، وفي زامبيا، تم ترك أحد عملاء CSIS مربوطاً إلى شجرة لتفترسه الأسود.

عــندما كــان كوامي نكروما، حاكم غانا الموالي للصينيين، في زيارة دولة إلى بكين، نظّم الموساد تمرداً قاد إلى خلع نكروما، وتدمير بنية CSIS التحتية في البلد.

شــنّ الموســاد حــربه القاتلة، طوال ثلاث سنوات، ضد CSIS في طول أفريقيا وعرضــها. ولــم يكن هناك رحمة من كلا الجانبين. وعندما أوقع فريق CSIS كاستا للموســاد في كمين في كونغو، قاموا بإطعامه للتماسيح، وصوّروا آخر لحظات حياته فــي المــاء، وأرســلوا الشريط إلى مدير محطة الموساد المحلية، والذي ثار شخصياً بــإطلاق صــاروخ على المبنى الذي تعمل منه CSIS. ومات على إثر الحادث ثلاثة صينيين.

أخــيراً، وعبر وسيط هو الرئيس الزائيري موبوتو، أخبر CSIS الموساد بأنه لم يعــد يملك رغبة بالقتال، وعوضاً عن ذلك ستكون لديهما رغبة مشتركة في الحدّ من الــنفوذ الروسي في القارة. كان العرض مناسباً تماماً لسياسة الموساد تجاه كل القوى العظمى، ويتضح ذلك في قول عميت المأثور: "تفرقتهم تساعد إسرائيل على الحياة".

فــيما كان CSIS والموساد يقاتلان بعضهما البعض، اتخذ KGB خطوات إضافية لدعــم خطــط كاســترو لنشر الثورة الكوبية في أفريقيا. التقى مدراء KGB وأعضاء المكتــب السياســي للحــزب الشيوعي في الكرملين، ووافقوا على قيام روسيا بتعهّد الاقتصــاد الكوبي. كانت الشروط كافية للتأكد من وقوع الشعب الكوبي الذي كان يبلغ تعــداده حيــنها سبعة ملايين نسمة رهينة للاتحاد السوفياتي. وبالمقابل، وافق كاسترو علــى أن أسلوب موسكو في الشيوعية وليس بكين هو الأصلح لأفريقيا. وافق كاسترو أيضــاً علــى استقبال خمسة آلاف مستشار سيعملون على توجيه قوات الأمن الكوبية DGI حول كيفية العمل بشكل صحيح في أفريقيا.

بــدأ KGB بــالعمل إلى جانب الكوبيين في أفريقيا السوداء. وخلال ستة شهور، كان الروس يسيطرون على كل الأعمال الاستخباراتية في أفريقيا. أحضر KGB، من معســكرات الشرق الأوسط التي أقامها لتدريب الإرهابيين، أفضل عملائه إلى أفريقيا

لشن حرب ضد نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا. وكان إرهابيون من أوروبا، وأمــيركا اللاتينــية وآســيا يقدّمون أيضاً خبراتهم في أنغولا، والموزامبيق وبلاد تحدّ جنوب أفريقيا.

وفقــاً لمــير عميت: "كانت الأمور تسخن فعلاً تحت خط الاستواء"، وأدرك أنها مسألة وقت فقط قبل أن يحوّل هؤلاء المرتزقة المدربون جيداً اهتمامهم نحو إسرائيل. تقــبّل مديــر الموساد العرض الذي تقدّم به CSIS للتعاون ضد العدو المشترك KGB وإرهابيــيه بامتنان. بدأ الصينيون بتقديم تفاصيل حول الحركات العربية داخل وخارج أفريقــيا. تــم قتل بعض أفرادها باستخدام أساليب الموساد العادية في تفجير سيارة أو زرع متفجرات في غرف الفنادق. في إحدى المناسبات، زرع الموساد قنبلة في حمام أحد المرتزقة الذي يعاني من *المعدة الكونغولية*، وهي شكل بغيض من مرض الزحار. فانفجــر النصــف السفلي من جسده إلى أجزاء عندما رفع غطاء المرحاض في أحد فنادق الخرطوم.

حــافظ الموســاد علــى جانبه من الصفقة، وأخبر CSIS بأن موسكو تنوي تقديم مســاعدة مالية ضخمة إلى أحد أفقر البلاد على وجه الأرض، الصومال. قدّمت بكين عرضــاً مضاعفاً فوراً. وتالياً، ساعد الموساد الصين في السودان حيث أقامت موسكو رأس جســر عــبر حكومــة الرئــيس النميري العسكرية. لكن عندما رفض النميري الانصــياع كلياً للروس، خطط KGB لانقلاب ضده. أخبر الموساد CSIS الذي أخبره بــدوره النمــيري، الذي طرد كل الدبلوماسيين الروس وأوقف برامج مساعدات الكتلة السوفياتية.

استطاع الموساد وضع معقلي الشيوعية في مواجهة بعضهما، وفي الوقت نفسه، وكما قال مير عميت: "تشق طريقنا عبر النسيج الأفريقي"، وحوّل الجهاز تركيزه إلى جهاز الاستخبارات الأفريقي الذي كان يبدو صديقاً: **مكتب أمن الدولة** BOSS، الذراع الأقــوى فــي أجهــزة أمن جنوب أفريقيا. كان BOSS يضاهي الموساد في الابتزاز، والقــيام بالأعمــال التخريبية، والتزوير، والاختطاف، واستجواب السجناء، والحرب النفســية وتنفــيذ الاغتــيالات. كانت يد BOSS، مثل الموساد، طليقة في التعامل مع خصــومه، وسرعان ما أصبح الجهازان شريكين. وغالباً ما كانا يعملان بالتنسيق فيما بيــنهما عبر أفريقيا بعد أن حصلا على *تفاهم* سري بين رئيس وزراء إسرائيل، غولدا مائير ونظام بريتوريا.

كانــت أولى النتائج تصدير اليورانيوم إلى ديمونا. كانت يتم نقل الشحنات على

متن رحلات شركة العال التجارية من جوهانسبورغ إلى تل أبيب، ويتم وضعها على القائمة كمعدّات زراعية. سافر علماء جنوب أفريقيا إلى ديمونا، وكانوا الغرباء الوحيدين الذين يعرفون طبيعة المنشأة الحقيقية. عندما اختبرت جنوب أفريقيا جهازاً نووياً أولياً في جزيرة بعيدة في المحيط الهندي، كان العلماء الإسرائيليون حاضرين لمراقبة الانفجار. في سنة 1972، التقى عيزر وايزمن، الذي كان حينها مسؤولاً كبيراً في وزارة الدفاع الإسرائيلية، رئيس الوزراء ب. دبليو. بوثا في بريتوريا للمصادقة على *تفاهم* آخر. إذا تعرّض أي بلد للهجوم وطلب مساعدة عسكرية، سيقدّمها له البلد الآخر. زوّدت إسرائيل جيش جنوب أفريقيا بكميات كبيرة من الأسلحة الأميركية الصنع، وبالمقابل استطاعت تجريب أولى القنابل النووية التي صنعتها في ديمونا في ذلك الموقع في المحيط الهندي.

بحلول ذلك الوقت، عمّق الموساد علاقته مع BOSS، ورغم عدم قدرة الموساد على جعل عملاء المكتب يغيّرون من أساليبهم الهمجية في الاستجواب، إلا أن مدرّبيه أطلعوهم على تشكيلة من الأساليب الأخرى التي كانت فعّالة في لبنان وأماكن أخرى: الحرمان من النوم، وتغطية الرأس، وإجبار المشتبه به على الوقوف بجانب جدار لفترة طويلة، والضغط على الأعضاء الحساسة، ومجموعة من أساليب التعذيب الذهني التي تتراوح ما بين التهديدات إلى الإعدام الصوري. سافر كاستا الموساد مع وحدات BOSS إلى البلاد الأفريقية السوداء المجاورة في مهمات تخريبية. علّم الكيدون أفراد استخبارات جنوب أفريقيا كيفية تنفيذ عمليات القتل التي لا تترك وراءها دليلاً محرجاً. عندما عرض الموساد تحديد مواقع قادة المؤتمر الوطني الأفريقي (ANC) الذين يعيشون في المنفى في بريطانيا وأوروبا ليقوم BOSS بقتلهم، رحّب المكتب بالفكرة. رفضت حكومة بريتوريا العرض أخيراً خوفاً من فقدان الدعم الذي تحظى به لدى السياسيين المحافظين المتشددين في لندن.

كان هناك هاجس يحرّك كلاً من الموساد وBOSS بأن أفريقيا تتجه يساراً نحو ثورة ستكتسح أخيراً كلا البلدين. كانت أي طريقة مباحة لتفادي حدوث ذلك. عمل الجهازان على تضخيم مخاوف الطرف الآخر، ولم يظهرا أي رحمة، واشتركا في مفهوم حفظ الذات وأنهما وحدهما يعرفان كيفية التعامل مع العدو، وأصبح كل من BOSS والموساد أكثر أجهزة الاستخبارات مهابة في أفريقيا.

لم يكن هذا التحالف مريحاً لواشنطن، وخافت CIA من أن يؤثّر على جهودها في الحفاظ على سيطرتها على القارة السوداء. أثار تحرير أفريقيا من الاستعمار في

بدايات ستينيات القرن العشرين اهتماماً جديداً بالقارة ضمن الوكالة؛ وتزايداً هائلاً في نشـــاطاتها السرية. تم إنشاء قسم أفريقي، وبحلول سنة 1963، تم إنشاء محطات CIA في كل بلد أفريقي.

كـــان مـــن بين أوائل من خدموا في أفريقيا بيل بوكلي، الذي اختطف وقُتل في بيروت. يتذكّر بوكلي قبل وقت قصير من اختطافه: "كان هناك أوقات جنون فعلية في أفريقــيا مـــع تحايل الجميع للحصول على مواقع لهم. كنا متأخرين عن الجميع، وكان الموساد ينظر إلينا كما لو أننا دخلاء".

في واشنطن، قامت وزارة الخارجية بجهود سرية، ولكن حثيثة للتقليل من النفوذ الإســـرائيلي في أفريقيا. سرّبت معلومات عن قيام بضع مئات من يهود جنوب أفريقيا بالســـفر شمالاً لمساعدة إسرائيل أثناء حرب السويس. قطع عشرون بلداً أفريقياً أسود علاقاتـــه الدبلوماســـية مـــع القـــدس، ومن بينهم نيجيريا. كانت تلك الخطوة حاسمة لإســـرائيل: نيجيريا تزوّد إسرائيل بأكثر من 60% من حاجاتها النفطية مقابل السلاح الـــذي تقوم الولايات المتحدة أصلاً بتزويده لإسرائيل. رغم الفجوة الدبلوماسية، وافق رئـــيس الوزراء إسحاق شامير على تزويد نيجيريا بالسلاح سراً مقابل استمرار تدفق الـــنفط. كان الأمر بالنسبة لبوكلي: "مثالاً رئيسياً عن السياسة الواقعية". ساعد الموساد أيضـــاً شريكه منذ وقت طويل BOSS في أمر آخر. بعد الغزو الإسرائيلي للبنان سنة 1982، وجـــد الموساد كمية كبيرة من الوثائق التي تكشف العلاقة الوثيقة بين منظمة التحرير الفلسطينية وANC، العدو اللدود لـــ BOSS. تم تحويل تلك المواد إلى المكتب، مما ساعد عملاءه على اعتقال وتعذيب المئات من أعضاء ANC.

كانـــت الثمانينـــيات عصـــراً ذهبياً لرحلات الموساد الأفريقية. وبالإضافة إلى التلاعب بالصينيين ضد الروس، قام الجهاز بأفعال عصية على CIA، وM16 وأجهزة الاســـتخبارات الأوروبية الأخرى التي تعمل في القارة. كان الموساد يكشف نشاطاته كلما تعرض الجهاز لتهديد يمس موقعه. في كينيا، تم تفجير عميل M16، وفي زائير، تـــم تفكيك شبكة فرنسية. أما في تنـــزانيا، فتم إجهاض عملية استخباراتية ألمانية على عجل بعد أن كشفها الموساد عبر تقرير لمخبر محلي.

عندما حاول قائد الإرهابيين أبو نضال - الذي خطط لاغتيال سفير إسرائيل لدى بريطانـــيا شلومو أرغوف في 3 حزيران سنة 1982، خارج فندق دوركستر في لندن - اللجـــوء إلى السودان، وعد الموساد النظام هناك بأن يدفع له مليون دولار أميركي مقابل إلقاء القبض عليه، حياً أو ميتاً. في النهاية، سافر أبو نضال إلى بغداد الآمنة.

في عشرات البلدان، استغل الموساد القومية الأفريقية الناشئة حديثاً. كان ياكوف كون ضمن العملاء الذين خدموا في عدد من تلك البلدان، ويتذكر ما كان يحدث: "منحناهم القدرة الاستخباراتية ليبقوا متفوقين على المعارضة. في بلاد مثل نيجيريا، كانت المنافسات القبلية تقود إلى الحرب الأهلية. كانت سياستنا ترتكز على العمل مع أي شخص يريد العمل معنا. ومكّننا ذلك من معرفة كل شيء يحدث في أي بلد. كان أي تغيير في المزاج العام الذي قد يؤثر على إسرائيل يصل إلينا عبر تقارير مباشرة".

قبل ذهابه إلى أفريقيا، بنى كون سمعة مميزة لنفسه في تنفيذه متخفياً مهاماً في مصر وأماكن أخرى، وكجزء من التمويه، غيّر الموساد مظهر كون الجسدي بإخضاعه لعملية جراحية لتعديل صفته العرقية المميزة؛ أنفه. وعندما عاد من المستشفى، لم تتعرف زوجته عليه بأنفه الجديد سوى بصعوبة بالغة.

في يوم رأس سنة 1984، كان تقرير الاستخبارات اليومي الذي يصل إلى نعوم أدموني يتضمن أنباءً عن حدوث انقلاب في نيجيريا. استولت جمعية عسكرية يقودها الجنرال محمد بوهاري على السلطة. كان أول سؤال لرئيس الوزراء شامير حول مدى تأثير ذلك على إمدادات النفط التي تحصل عليها إسرائيل. لم يكن أحد يعرف الجواب. خلال النهار، لم تنجح جهود عاجلة في إقامة أي اتصالات مع النظام الجديد.

في يومه التالي في السلطة، أصدر بوهاري قائمة بأعضاء سابقين في الحكومة متهمين بمجموعة من الجرائم. كان على رأس القائمة عمارو ديكو، وزير النقل المعزول، والذي تم اتهامه باختلاس عدّة ملايين من الدولارات الأميركية من أرباح النفط من الخزينة الحكومية. كان ديكو قد هرب من البلاد، واختفى رغم الجهود الحثيثة لإيجاده.

رأى أدموني في ذلك فرصة له. وسافر باستخدام جواز سفر كندي – وثائق السفر التي يستخدمها الموساد للقيام بمهمات سرية – إلى لاغوس، العاصمة النيجيرية. استقبله بوهاري في أواخر الليل. واستمع الجنرال إلى العرض الذي قدّمه أدموني بموافقة كاملة من رابين. في مقابل عدم قطع إمدادات النفط، سيجد الموساد ديكو ويعيده إلى نيجيريا. كان لدى بوهاري سؤال: هل يستطيع الموساد أيضاً تحديد المكان الذي يختبئ فيه ديكو الأموال المختلسة؟ وقال أدموني إن النقود على الأرجح في حسابات سرية في مصارف سويسرية، وسيكون من المستحيل نظرياً متابعتها ما لم يتطوّع ديكو لكشف مكانها. ابتسم بوهاري للمرة الأولى، فحالما يعود ديكو إلى نيجيريا، لن تكون هناك مشكلة في جعله يتكلم. كان لدى بوهاري سؤال أخير: هل

يوافق الموساد على العمل مع أجهزة الاستخبارات النيجيرية، وأن لا ينسب الفضل إليه حالمـــا يـــتم إلقاء القبض على ديكو؟ ووافق أدموني. لم يكن هناك مجد يحصل عليه الموساد في عملية يجب أن تكون بسيطة بما فيه الكفاية.

تمّــت الاســتعانة بالجواسيس الناجين الذين جنّدهم رافي إيتان عبر أوروبا. وتم إرســال الكاســتا في مهمات بحث من إسبانيا إلى السويد. وتم وضع السيانيم في عدّة بلدان أوروبية في حالة التأهب: تم إخبار الأطباء ليكونوا متيقظين في حال احتاج ديكو لعــناية طبــية أو حــتى استشار جرّاح تجميل لتغيير مظهره؛ وكان بوابو الفنادق في أماكــن تواجد ديكو القديمة في سانت موريتز ومونتي كارلو يترقبونه. تلقّى الموظفون فــي وكالات تأجير السيارات من مدريد إلى ميونيخ تعليمات بالتبليغ عنه إذا استأجر ســيارة؛ وتــم الطلــب من مكاتب الطيران الاتصال إذا اشترى تذكرة. كما تم توجيه الســيانيم العامليــن فــي كــل شركات بطاقات الائتمان لمعرفة ما إذا كان قد استخدم بطاقاتــه. حفــظ العاملون في المطاعم شكل ديكو، وحفظ الخياطون مقاسات ملابسه، وصانعو القمصان قياس ياقته. كما زود صنّاع الأحذية من روما إلى باريس بتفاصيل المقاس اثني عشر لأحذية ديكو. في لندن، طلب الموساد من روبرت مكسويل استخدام علاقاتــه العالية المستوى مع الدبلوماسيين الأفارقة في لندن للحصول على أي همسة عن مكان تواجد ديكو. ولم يستطع الحصول على أي دليل مثل أي شخص آخر.

رغــم ذلك، قرّر أدموني أن ديكو يختبئ في لندن – تحولت المدينة إلى فردوس للمعارضين النيجيريين للنظام الجديد – ونقل أبرع الكاستا لديه إلى المدينة. كان معهم عملاء من الاستخبارات النيجيرية بقيادة الرائد محمد يوسف. استأجروا شقة في شارع كرومويل في المدينة. واختار الكاستا فنادق يقصدها السيّاح من أفريقيا.

عملــت كلتا المجموعتين بشكل منفصل، وتحرّكتا عبر الجالية النيجيرية الكبيرة في لندن. قدّم رجال يوسف أنفسهم كلاجئين من النظام الجديد، فيما قدّم الكاستا أنفسهم كمتعاطفين مع طموحات الأفارقة السود لقلب النظام في جنوب أفريقيا. تدريجياً تمكنوا مــن تقليص مساحة بحثهم إلى الجانب الغربي من لندن فقط، وصولاً إلى منطقة هايد بارك حيث يعيش العديد من النيجيريين الأثرياء في المنفى. بدأوا بتمشيط قوائم السكّان المسجلين في قاعات بلدات المنطقة. ولم يجدوا شيئاً.

أخــيراً، بعد سبعة شهور من مغادرته لاغوس ظهر ديكو. في 30 حزيران سنة 1984، لاحــظ كاســتا يقود سيارته في كوينــزواي، وهو شارع مزدحم متفرع من شــارع بايزوتــر، رجلاً بنفس مواصفات عمارو ديكو. كان يبدو أكبر وأكثر نحولاً،

ولكن لم يكن هناك مجال للخطأ بالوجه العريض والعينين السوداوين بلون الفحم اللتين لم تنظرا إلى سيارة الكاسنا سوى مرة واحدة.

بعد أن ركن سيارته جانباً، لحق الكاستا بديكو سيراً على الأقدام إلى منزل بالقرب من منطقة دورشستر. وتم إبلاغ أدموني مباشرة. كانت أوامره بأن لا يقوم أحد بأي شيء عدا وضع المنزل تحت رقابة متواصلة. خلال الأيام الثلاثة الأولى من تموز سنة 1984، قام عميلان بمراقبة ديكو على مدار الساعة، وأثناء ذلك، استخدم النيجيريون سفارتهم كقاعدة للتحضير لعملية اختطاف تشبه إلى حدٍّ بعيد ما قام به رافي إيتان لإلقاء القبض على أدولف إيتشمان.

بخلاف ما هو معتاد، تم إسناد المهمة إلى شخص من خارج الجهاز هو الطبيب ليفي - آري شابيرو، الاستشاري في التخدير ومدير وحدة العناية الفائقة في مستشفى هشارون في تل أبيب. قام بتجنيده لتنفيذ المهمة ألكسندر باراك، وهو كاستا أثار فيه الروح الوطنية. وافق الطبيب على السفر إلى لندن وإنفاق مبلغ الألف دولار الذي حصل عليه من باراك لشراء تجهيزات طبية، والتي كانت تتضمن أدوات تخدير. كان سيتلقى المزيد من التعليمات في لندن. رفض شابيرو الحصول على أتعاب مقابل خدماته، وقال إنه فخور لأنه يخدم إسرائيل. ووصل كاستا آخر، هو فيلكس أبيثول، إلى لندن على متن رحلة من أمستردام في 2 تموز، ونزل في فندق سكوير رسل. كانت أولى تعليماته لرئيس الفريق النيجيري الرائد يوسف استئجار شاحنة نقل. اختار أحد رجال يوسف شاحنة بلون أصفر فاقع. وكانت تلك هي اللحظة التي بدأت بها الخطة بالتفكك.

في وقت متأخر من ليلة 3 تموز، حطّت طائرة شحن نيجيرية 707 في مطار ستانستيد، الواقع على بعد ثلاثين ميلاً إلى الشمال من لندن. كانت قد طارت من لاغوس فارغة. وأبلغ الطيار سلطات المطار بأنه جاء لشحن حقائب دبلوماسية من السفارة في لندن. كان مع طاقم الطائرة العديد من رجال الأمن النيجيريين الذين عرّفوا عن أنفسهم وقالوا إنهم موجودون لحماية الحقائب. تم إخطار الفرع الخاص في سكوتلنديارد بوجودهم. كان هناك عدّة ادعاءات في الشهور الماضية بأن النظام العسكري في لاغوس يهدد المنفيين في لندن. أخبرت السلطات الإنكليزية رجال الأمن النيجيريين بضرورة عدم مغادرة المطار، وبقوا على متن الطائرة ولم يغادروها سوى لاحتساء القهوة داخل حرم المطار.

في صبيحة اليوم التالي، خرجت الشاحنة الصفراء الفاقعة من مرآب في نوتنغ

هيل غيت والتي استأجرها أحد النيجيريين. كان يوسف وراء المقود، ويجلس خلفه د. شـــابيرو وإلـــى جانـــبه صندوق، وجلس إلى جانبه كل من باراك وأبيثول. في مطار ستانســـتيد عـــند الظهيرة، سجّل قائد الطائرة 707 وقت مغادرته إلى لاغوس الساعة الثالـــثة مـــن بعد الظهر. على سجل الرحلة، كان هناك صندوقان من الوثائق لوزارة الخارجية في لاغوس. كانت وثائق الصندوقين تحمل عبارة **حصانة دبلوماسية**.

قـــبل حلـــول الظهيرة بقليل، سارت الشاحنة عبر الشوارع المزدحمة، وتوقفت خـــارج المنـــزل في منطقة دورشستر. ظهر عمارو ديكو بعد فترة قصيرة في طريقه للقـــاء أحد أصدقائه لتناول الغداء في مطعم قريب. كانت أمينة سره الخاص إليزابيث هايـــز تراقـــب مـــن الـــنافذة. وحالما أدارت ظهرها، فُتح باب الشاحنة الخلفي على مصـــراعيه و"أمسك رجلان داكنا البشرة بالسيد ديكو وأجبراه على دخول الشاحنة. لم يستطع سوى أن يصرخ قليلاً قبل أن يقفزا خلفه، وتتحرك الشاحنة بسرعة كبيرة".

بعـــد أن أفاقت من الصدمة، اتصلت أمينة السر بالطوارئ؛ 999. كانت الشرطة فـــي مســـرح الحـــدث في غضون دقائق، ولحقها مباشرة ويليام هوكلسبي، قائد فرقة مكافحة الإرهاب في سكوتلنديارد، والذي شكّ بما حدث. وتم إخطار كل ميناء ومطار فـــي البلاد. كان الوضع بالنسبة لهوكلسبي ينطوي على صعوباته الخاصة به. إذا قام الـــنظام النيجـــيري باختطاف ديكو، فقد ينشأ عن ذلك وضع دبلوماسي يتطلب الحيطة والحـــذر. تم إخطار وزارة الخارجية إضافة إلى داونينغ ستريت (مقر رئاسة الوزراء البريطانية). وصدرت الأوامر لهوكلسبي باتخاذ الإجراءات التي يراها مناسبة.

قـــبل الساعة 3:00 من بعد الظهر، وصلت الشاحنة إلى ساحة الشحن في مطار ستانســـتيد. ولـــوّح يوسف بجواز سفر نيجيري دبلوماسي أمام ضباط هجرة المطار. شاهد هؤلاء تحميل الصندوقين على متن الطائرة. يتذكر أحد الضباط، تشارلز مورو، مـــا حـــدث: "كـــان هناك شيء ما يخص أحد الصندوقين يوحي بأنه ليس نظامياً. ثم سمعت صوتاً يخرج منه. وفكّرت بأن تلك مكيدة. وسواء كان يحمل حصانة دبلوماسية أو لا، يجب أن أرى ما بداخله".

تم إنـــزال الصندوقين من على متن الطائرة وإحضارهما إلى حظيرة الطائرات رغـــم احتجاج يوسف الغاضب بأنهما مشمولان بالحصانة الدبلوماسية. في الصندوق الأول، تم اكتشاف ديكو مربوطاً وفاقداً للوعي نتيجة للتخدير. كان يجلس إلى جانبه د. شابيرو وفي يده حقنة جاهزة لزيادة جرعة تخدير ديكو. كان هناك أنبوب جراحي في حـــنجرة ديكـــو لحمايـــته مـــن الاختناق نتيجة ابتلاع القيء، وكان باراك وأبيثول في

الصندوق الثاني.

لـــدى محاكمتهما، التزم كلا العميلين بالرواية التي تقول إنهما مرتزقان يعملان نيابة عن مجموعة من رجال الأعمال النيجيريين الذين يريدون إعادة ديكو لمحاكمته. تـــم توكـــيل أحد أبرز المحامين وأكثرهم كلفة جورج كارمن للدفاع عن الرجلين. في مرافعـــته الختامـــية، قـــال للمحكمـــة: "ربمـــا يكون التفسير الأكثر عقلانية أن جهاز الاستخبارات الإسرائيلي لم يكن بعيداً جداً عن العملية كلها".

لم يقدّم الادعاء أي دليل على تورّط الموساد. وترك الأمر للقاضي ليفعل ذلك في تلخيصه للدعوى، وأخبر هيئة المحلفين: "أصابع الاتهام تشير بكل تأكيد إلى الموساد".

حُكـــم على باراك بالسجن أربعة عشر عاماً، وعلى د. شابيرو وأبيثول بالسجن عشـــر ســـنوات لكل منهما. وحُكم على يوسف بالسجن لاثنتي عشرة سنة. تم إطلاق سراح الجميع بعد مدّة معينة لحسن السير والسلوك، وترحيلهم بهدوء إلى إسرائيل. كما حدث مع آخرين خدموا الموساد بإخلاص، اتخذ الجهاز إجراءات لضمان بقائهم بعيداً عـــن الأضواء ولعدم تعرّضهم لأسئلة محرجة مثل استمرار د. شابيرو - الذي خرق قسم أبوقراط بالجرم المشهود - في ممارسة الطب - ولصالح من.

أخـــبر M16 نعوم أدموني بأنه في حال وقوع أعمال أخرى من هذا النوع سيتم معاملـــة الموســـاد كجهـــاز استخبارات معاد. كان مدير الموساد يخطط عندها لعملية أخرى مصممة لتذكير البريطانيين بمن هم الأعداء الحقيقيون؛ وفي نفس الوقت كسب التعاطف مع إسرائيل.



الفصل الرابع عشر

قنبلة الخادمة

في صبيحة يوم صافٍ من شباط سنة 1986، انقضّت طائرتان من سلاح الجو الإسرائيلي على طائرة تجارية ليبية تقوم برحلة من طرابلس إلى دمشق. كانت الطائرة المدنية في الأجواء الدولية على ارتفاع ثلاثين ألف قدم فوق المتوسط وعلى وشك البدء بالنزول نحو الأجواء السورية. كان على متنها وفود فلسطينية وجماعات متشددة أخرى عائدة من مؤتمر عقده معمّر القذافي لمناقشة الخطوات الواجب اتخاذها لتحقيق رغبة الزعيم الليبي في رؤية إسرائيل تختفي عن وجه الأرض.

كان منظر الطائرتين الحربيتين تتخذان موقعيهما على جانبي الطائرة التجارية مرعباً لركابها الأربعة عشر، كان السبب جلياً. وقبل أربع شهور، ويوم الثلاثاء الموافق 1 تشرين الأول سنة 1985، دمّرت قاذفة مقاتلة إسرائيلية من طراز أف 15 مقر قيادة منظمة التحرير الفلسطينية في جنوب تونس، وحلّقت في رحلة ذهاب وعودة قطعت خلالها حوالى ثلاثة آلاف ميل، والتي تطلبت إعادة التزوّد بالوقود في الجو وعمليات استخباراتية دقيقة طالت كل أنحاء العالم العربي.

كانت الغارة رداً مباشراً على العملية التي قام بها أحد مسلحي منظمة التحرير الفلسطينية ضد ثلاثة سيّاح إسرائيليين متوسطي العمر كانوا يجلسون خارج يختهم في ميناء لارنكا القبرصي قبل أيام فقط، ويستمتعون بشمس الصيف. حصلت عملية القتل في يوم الغفران، وأثارت بالنسبة لكثير من الإسرائيليين ذكريات بداية الحرب التي وجدت إسرائيل نفسها غافلة عنها مثلما حدث مع السيّاح.

رغم أن إسرائيل تحمّلت أربعة عقود تقريباً عدم الاستقرار، إلا أن تلك الجريمة تسببت بإشاعة حالة من الرعب والخوف بين الإسرائيليين: تم احتجاز السيّاح لبعض الوقت على متن قاربهم، والسماح لهم بكتابة أفكارهم الأخيرة قبل أن يتم قتلهم. كان أول من مات امرأة، والتي تلقت رصاصة قاتلة في المعدة. وأجبر الرجلان اللذان كانا بصحبتها على رميها من فوق القارب. ثم تم إطلاق النار عليهما، واحداً تلو الآخر،

من مسافة قريبة على مؤخرة الرأس.

في حرب الدعاية السوداء التي ميّزت الحرب الاستخباراتية بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل، ادّعت الأولى بأن الضحايا الثلاث عملاء للموساد يقومون بمهمة، وقدّمت منظمة التحرير الفلسطينية قصة متماسكة، وقامت عدّة صحف أوروبية بتعريف المرأة على أنها إحدى العملاء الذين شاركوا في حادثة ليلهامر سنة 1973. لكن تلك المرأة كانت ما تزال على قيد الحياة، وقد تخلت عن القيام بأنشطة لصالح الموساد.

منذ ذلك الوقت، كانت وسائل الإعلام العربية تطلق تحذيرات رهيبة بأن إسرائيل سوف تنتقم. ووزّع قسم الحرب النفسية في الموساد العديد من القصص لإنهاك أعصاب ملايين العرب.

رأى الركاب على متن الطائرة الليبية، الذين كانوا يتغنّون قبل عدّة ساعات فقط بتدمير إسرائيل في المؤتمر الليبي، وجوه أعدائهم الصارمة تحدّق بهم. وهزّت إحدى الطائرتين الحربيتين أجنحتها، وهي إشارة عالمية يعرفها كل الطيارون والتي تعني اتبعني، ولتعزيز الرسالة، أشار أحد الإسرائيليين بيده التي يلبس بها قفازاً إلى الأمام مباشرة وبعد ذلك نحو الأسفل باتجاه الجليل. بدأت النساء على متن الطائرة النفاثة بالعويل؛ وبدأ بعض الرجال بالصلاة. حدّق آخرون أمامهم مباشرة ينتظرون قدرهم. كانوا يعرفون جميعاً بأن هناك دائماً احتمال بأن يتمكّن الكافرون الملحدون من الوصول إليهم واختطافهم في السماء.

أطلقت إحدى الطائرتين الإسرائيليتين رشقة تحذيرية صغيرة من مدافعها، منذرةً قائد الطائرة الليبية من استخدام اللاسلكي لطلب المساعدة من سلاح الجو السوري الذي لا يبعد سوى دقائق معدودة. ازداد خوف الركاب. هل كان عليهم أن يعانوا أيضاً من نفس المصير الذي واجه أحد الأبطال الحقيقيين في العالم العربي؟

فقبل شهر فقط من الغارة الجوية على تونس، أوقف قارب دورية بحرية إسرائيلي على متنه عملاء للموساد سفينة صغيرة تدعى فرصة أثناء رحلتها العادية بين بيروت ولارنكا. وسحبوا من قعرها "فيصل أبو شرع"، وهو إرهابي ملطخة يداه بالدماء (وفقاً للوصف الإسرائيلي). وتم إحكام وثاقه على متن قارب الدورية، وكان ذلك مقدّمة لاستجواب قاسٍ في إسرائيل، تبعه محاكمة سريعة قضت بسجنه لفترة طويلة. عزّزت سرعة وجرأة العملية من الصورة التي قدّمتها إسرائيل للعالم العربي عن البلد الذي لا يُقهر.

لــم تكن مثل تلك الحوادث نادرة. وبالتنسيق مع بحرية إسرائيل الصغيرة ولكن المدربــة تدريباً عالياً، اعترض الموساد منذ ذلك الوقت عدّة سفن، واعتقل ركاباً على متنها يشتبه بأن لهم نشاطات إرهابية. كان ساحل إسرائيل الطويل على البحر المتوسط يخضــع لمراقــبة مشــددة، فــيما كان ساحل البحر الأحمر يمثّل نقطة ضعف يمكن مهاجمــتها باســتمرار. نقل أحد عملاء الموساد في اليمن معلومات تم بموجبها إحباط عملــية لمنظمة التحرير الفلسطينية للإبحار في قارب صيد عبر البحر الأحمر وصولاً إلــى منــتجع إيلات الإسرائيلي، وتفجير حمولته من المتفجرات على الشاطئ المليء بالفــنادق. اعترضــت سفينة حربية إسرائيلية قارب الصيد، وتغلبت على الانتحاريين الموجودين على متنه قبل أن يتمكنوا من تفجير حمولته.

فــيما كانت الطائرة الليبية تنــزل باتجاه شمال إسرائيل، خاف الركاب أيضاً من أن يكون ذلك انتقاماً آخر لما حدث من قبل عندما قام أحد أبطالهم الآخرين ويدعى أبو العــبّاس، قــبل عدّة شهور فقط، وتحديداً في 2 تشرين الأول سنة 1985، بالاستيلاء علــى سفينة الرحلات الإيطالية أشيل لورو في ما كان أكثر أعمال القرصنة البحرية إذهالاً والتي سيتذكّرها العالم لوقت طويل. قتل العبّاس أحد الركاب، ليون كلينغهوفر، وهو يهودي أميركي على مقعد متحرك، برميه في البحر.

تحولت الجريمة إلى أزمة دبلوماسية عائمة اشترك بها كل من إسرائيل الغاضبة، والولايــات المــتحدة، ومصر، وإيطاليا، وسورية، وقبرص، وتونس ومنظمة التحرير الفلسطينية التي لا دولة لها. دارت الأزمة لأيام حول البحر المتوسط، وحشدت الدعاية للمختطفيــن، وكشــفت المصالح الذاتية التي تحكم المواقف تجاه الإرهاب في الشرق الأوســط. أثــار اخــتطاف ســفينة رحلات كانت تجلب سياحاً أجانب وعملة صعبة تحــتاجهما إسرائيل بشدة، وما تبعها من مقتل أحد الركاب، موجةً من الحيرة والتردد، فلقــد وقعــت الجــريمة تقنياً على أشيل لورو المسجّلة في جنوى؛ أي على الأراضي الإيطالــية. لكن إيطاليا كانت غير حصينة أمام الإرهاب، وترغب برؤية نهاية هادئة للحادثــة. كانت الولايات المتحدة تريد تحقيق العدالة لمقتل مواطنها. ظهرت ملصقات عبر البلاد تعلن: "لا تغضبوا، طالبوا بالعدل". أخيراً، استسلم الخاطفون، بعد أن شغلوا وســائل الإعــلام العالمية لعدّة أيام، إلى السلطات المصرية التي سمحت لهم بمغادرة البلاد؛ مما أثار غضب إسرائيل.

تســاءل معظم ركاب الطائرة الليبية فيما إذا كان سيتم اعتقالهم في أحد السجون الإســرائيلية انــتقاماً لما حدث. مع استمرار طيران المقاتلتين جنباً إلى جنب، حطّت

النفاثة التجارية في قاعدة عسكرية في الجليل الشمالي. كان فريق من محققي *أمان* في الانتظار بعد أن أخبرهم الموساد أن على متن الطائرة اثنين من الإرهابيين المطلوبين عالميـاً، الشـهير أبو نضال وأحمد جبريل الذي لا يقل شهرة عنه. عوضاً عن ذلك، وجد المحققون أنفسهم يستجوبون حفنة من العرب الخائفين كثيراً، والذين لم يظهر اسم أي منهم على حواسب إسرائيل. بعد ذلك سُمِح للطائرة بالمغادرة مع ركابها.

أصـرّت إسـرائيل لاحقـاً على أن احتمال القبض على الإرهابيين كان السبب الوحـيد لاعـتراض الطائـرة. ولكن ضمن الموساد كان هناك مزاج بعدم تفويت أي فرصة لنشر الخوف والذعر في أذهان العرب. كان محققو *أمان* راضين عندما عرفوا بأن الركاب سينشرون صورة إسرائيل الكاملة القوة.

كـان رئـيس أمان، إيهود باراك، يعتقد بأن العملية ليست سوى مثال آخر على تراجع قدرة الموساد، وقد أوضح شعوره جيداً لنعوم أدموني.

لم يعانِ أي شخص أبداً من قبل من مشكلة أو يتعرض للتوبيخ دون مبالاة، نشر مديـر الموساد إشاعة حول القيام بعملية مبتكرة لن تضع حدّاً للسخرية من الجهاز في محطات الإذاعة العربية لأنه نـزل إلى مستوى إجبار طائرة مدنية غير مسلحة على الهبوط وحسب، وإنما ستضع أيضاً نهايةً للجدل ضمن مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي بـأن على الجهاز أن يكون في المرة القادمة متأكداً تماماً قبل أن يجعلهم يبدون حمقى جميعاً.

هكذا بدأت العملية، والتي كانت ضمن أشياء أخرى، ستدمّر حياة خادمة أيرلندية حاملٍ، وترسل حبيبها العربي إلى السجن ليقضي واحدة من أطول فترات السجن التي حكمـت بها محكمة بريطانية، وتسبب إحراجاً كبيراً للمستشار الألماني هيلموت كول ورئـيس الوزراء الفرنسي جاك شيراك، وتكشف مرة أخرى دور روبرت مكسويل، وتتسـبّب بإقصاء سورية عن طاولة الدبلوماسية العالمية، وتجبر كل محطات الإذاعة العربية التي سخرت مرحاً من الموساد على تغيير نغمتها.

مثل كل العمليات، كان هناك لحظات توتر عالية وفترات انتظار صبورة. وكان لهـا حصتها من اليأس البشري، والغضب المفيد، والخيانة؛ ولكن بالنسبة لرجال مثل نعـوم أدمونـي كانـت مثل تلك الخطة الزاوية في حياته. واستمر يطرح على نفسه الأسئلة ذاتها مراراً وتكراراً. هل ستنجح؟ هل سيصدّق الآخرون حقاً أنها كانت كذلك؟ وبالطبع، هل ستبقى الحقيقة مدفونة للأبد؟

الشـيء المؤكد هو أن الموساد جنّد رجلين بمهارات مختلفة جداً للقيام بالعملية.

كـــان أحدهما توب ليفي الكاستا الذي يعمل في بريطانيا. وكان الآخر مخبراً فلسطينياً اســـمه المستعار أبو. وتم تجنيد الفلسطيني بعد أن اكتشفه الموساد يسرق أموال منظمة الـــتحرير الفلسطينية التي يتولى إدارتها في قرية على الحدود الإسرائيلية – الأردنية، وباللعـــب علـــى مخاوفـــه من أنه يمكن كشف الجريمة عبر ملاحظة صغيرة مجهولة المصـــدر لرئـــيس القرية، مما سيؤدي إلى موت أبو، أجبره الموساد على السفر إلى لـــندن، وتـــم تزويده بوثائق مزوّرة تقول إنه رجل أعمال وبنفقات معيشة تتناسب مع دوره كرجل مبذّر كبير. كان المشرف عليه توب ليفي.

كـــان أبـــو مناسباً، بكل طريقة ممكنة، للتعريف الكلاسيكي الذي وضعه عوزي مانيمـــي، وهـــو عضو سابق في مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي، لما يجب أن يكون علـــيه العمـــيل: "يجـــب أن تقضـــي ساعات معه، وأياماً حتى؛ وتعلّمه كل ما يحتاج لمعرفـــته، وتذهـــب إلـــى الدروس معه، وتساعده، وتتآلف معه اجتماعياً، وتنظر إلى صـــور عائلته، وتعرف أسماء وأعمار أطفاله. ولكن العميل ليس بشراً؛ ويجب أن لا تفكـــر به على أنه كذلك. العميل مجرد سلاح، ووسيلة في النهاية، مثل الكلاشينكوف؛ هذا كل ما في الأمر. وإذا كان عليك إرساله إلى المشنقة، لا تفكر بالأمر حتى. العميل نكرة دائماً، وليس شخصاً".

لعـــب أبو دوره إلى حدود الكمال، وأصبح شخصية مألوفة حول طاولات القمار في ميفير. ونظراً لنجاحه، تم التغاضي عن شهواته الجنسية وحبه للشراب. من خلال تجوالـــه بيـــن مجموعـــات مـــن تجار السلاح ومناصري منظمة التحرير الفلسطينية الأثـــرياء، حصل أبو على معلومات مكّنت الموساد من توجيه ضربات قاتلة لأعدائه. قـــتل الموســـاد خمسة عشر رجلاً من منظمة التحرير الفلسطينية خلال بضعة أسابيع نتيجة للمعلومات التي قدّمها أبو.

عقد بعض اجتماعاته مع توب ليفي في مشارب ومطاعم فندق هيلتون في بارك لين. كانت تعمل هناك امرأة أيرلندية من دبلن هي آن – ماري مورفي.

مـــثل الكثير من الأشخاص الآخرين، عبرت مورفي البحر الأيرلندي على أمل جنـــي بعـــض المال في لندن. كل ما استطاعت الحصول عليه هو وظيفة خادمة في فـــندق. كـــان الراتب قليلاً، وساعات العمل طويلة. كانت آن – ماري تقضي ساعات راحتها القليلة في مشارب في مقاطعة شيفردز بوش، وهي ملجأ للمغتربين الأيرلنديين مـــنذ زمن طويل. كانت تشترك في أغانٍ ثورية، وتتناول كأساً من الشراب. ثم تعود إلـــى غرفـــتها الوحـــيدة، وتستعد ليوم آخر طويل تقضيه في تغيير ملاءات الأسرّة،

وتنظيف الحمّامات، وجعل كل غرفة متألّقة بأسلوب هيلتون المعروف. ولم تكن حياتها المهنية تتحسن على الإطلاق.

قبل وقت قصير 25 كانون الأول سنة 1985، كانت آن – ماري على وشك البكاء من فكرة أنه ينبغي عليها قضاء العيد وحيدة في مدينة مختلفة جداً عن دبلن التي عاشت فيها طويلاً مرتاحة البال، والتقت عربياً أسمر البشرة كان وسيماً في عينيها. كان يرتدي بذلة حريرية، وربطة عنق جذّابة، وتفوح منه رائحة العطور أيضاً. عندما ابتسم لها، ابتسمت له أيضاً. كان اسمه نزار هنداوي، وكان قريباً بعيداً لأبو. كان هنداوي يبلغ من العمر خمساً وثلاثين سنة، رغم أنه كذب على آن – ماري حول ذلك، واقتطع ثلاث سنوات من عمره ليصبح بنفس عمرها البالغ اثنتان وثلاثين سنة. كان سيستمر بالكذب على امرأة ساذجة تصدّق كل شيء بسرعة.

التقيا في مشرب قريب من مسرح BBC في شيفردز بوش. ولم تكن قد جاءت إلى تلك الحانة من قبل، وأصابتها الدهشة عندما وجدت هنداوي بين عمّال البناء المتّقدي الوجوه الذين كانت لهجاتهم تأتي من كل مقاطعة في أيرلندا. لكن يبدو أن هنداوي كان يعرف الكثير من السكارى، وانضم إليهم في دعابتهم الصاخبة لتناول الشراب عندما حان دوره.

كان هنداوي يأتي إلى المشرب طوال أسابيع على أمل الاتصال مع IRA. كان أبو قد طلب منه ذلك، رغم أنه لم يشرح السبب. تم تجاهل محاولات هنداوي العديدة لمناقشة الوضع السياسي في أيرلندا من قبل رجال مهتمين أكثر بتناول الشراب. بقيت الخطة التي لفقّها أبو سرية بالنسبة للهنداوي. ومنحه وصول آن – ماري شيئاً آخر للتفكير به أيضاً.

سرعان ما وجدت آن – ماري نفسها مفتونة بطيب أخلاق وسحر هنداوي، وبدأت تضحك على القصص التي تتناول حياته في الشرق الأوسط. كان الأمر بالنسبة لامرأة لم تسافر أبعد من لندن يبدو مثل ألف ليلة وليلة. أوصلها هنداوي بسيارته في تلك الليلة إلى منزلها، وقبّلها على خدّيها، وغادر. تساءلت آن – ماري حول ما إذا كان الشعور الغريب الذي اختبرته يمثّل المرحلة الأولى من الوقوع في الحب. في اليوم التالي، اصطحبها لتناول الغداء في مطعم سوري وعرّفها على أطباق الطعام العربي اللذيذة. تناولا شراباً من... اللبناني الفاخر، ولم تمانع عندما اصطحبها إلى شقته، وتبادلا الحب في ظهيرة ذلك اليوم. كانت آن – ماري عذراء حتى ذلك الوقت، ونشأت في بيئة تحكمها العادات الأيرلندية الكاثوليكية التي تعارض منع الحمل، ولهذا

لم تأخذ حيطتها.

فـــي شباط سنة 1986، اكتشفت أنها حامل، وأخبرت هنداوي الذي ابتسم مطمئناً بأنه سيعتني بكل شيء. قالت آن – ماري إنها لن توافق أبداً على الإجهاض. وقال لها إن تلك الفكرة لم تخطر على باله إطلاقاً. في الحقيقة، كان خائفاً من فكرة الزواج من امرأة يعتبرها أقل مستوى من مكانته الاجتماعية. خاف أيضاً من ذهابها إلى السلطات والـــتقدّم بشكوى. مع جهله بعدم الاكتراث الذي سيقابل به الموظفون مثل هذه الأمور، كـــان يعـــتقد أنهـــم سيعملون على إلغاء إقامته في بريطانيا، مما سيؤدي إلى ترحيله كشـــخص غـــير مرغوب به. تحوّل هنداوي إلى مصدر المساعدة الوحيد الذي يعرفه قريبه أبو.

كان أبو يعاني من مشاكله الخاصة، وفقد قسماً كبيراً من أمواله في القمار. أجاب هـــنداوي بفظاظـــة بأنه لا يستطيع إقراضه المال الذي يطلبه لإعادة آن – ماري إلى دبلن، وولادة الطفل هناك وتركه للتبني. كانت قد أخبرته أن ذلك شائع في أيرلندا.

التقى أبو مع توب ليفي في اليوم التالي. على العشاء أخبر الكاستا أبو أنه سيقوم بشيء يدفع الحكومة البريطانية إلى إغلاق السفارة السورية في لندن وطرد موظفيها، المشتبه بهم منذ وقت طويل بممارسة نشاطات إرهابية. قال ليفي إنه يحتاج إلى صنارة لتحقـــيق ذلك. هل يستطيع إخباره حول أي شخص، أي شيء، يمكن أن يكون مفيداً؟ وذكر أبو أن له قريباً مع صديقة أيرلندية حامل في لندن.

بـــدأت عناصـــر الخطـــة تتجمع بعد الهزّات التي أصابت مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي نتيجة الأخطاء الفاضحة التي صدرت عن واشنطن حول صفقة السلاح – مقـــابل – الرهائن مع إيران، وأُصيبت صورة إسرائيل القوية في تعاملها مع الإرهاب بضربات متتالية. كان هناك غضب ضمن الموساد بأن إدارة ريغان سمحت بأن تزداد الأمور سوءاً ليطفو دور إسرائيل في إيران – غيت على السطح.

جعلت تلك التسريبات من الصعب المحافظة على دعم جيران ودودين مثل مصر والأردن في وقت كان فيه البلدان متعبين أخيراً من منظمة التحرير الفلسطينية وياسر عـــرفات المـــتكلّف. أصبح قائد منظمة التحرير الفلسطينية بشكل متزايد أسيراً سياسياً لآرائـــه المتطرفة. ورغم أنه لم يكن ماركسياً بنفسه، وجد عرفات نفسه يتبنّى المنهج نفسه، ويدعو إلى "التخلص من الهوية الصهيونية سياسياً، وثقافياً، وعسكرياً".

لم تُفلح محاولات تشويه سمعة الآخرين في تحسين موقعه ضمن فصائل منظمة التحرير الفلسطينية المختلفة. كان عرفات بالنسبة لهم الرجل الذي تم إجباره على القيام

بانسحاب مذل من بيروت تحت حماية الأمم المتحدة ورقابة الإسرائيليين. استقل حوالى خمسة عشر ألف مقاتل فلسطيني القوارب إلى تونس، وتخلّى آخرون عن عرفات مقابل وعد بالدعم من سورية، وأصبحوا مناهضين له ولإسرائيل على حدٍّ سواء من قواعدهم خارج دمشق.

رغم ذلك كان عرفات بالنسبة للموساد العقبة الأساسية أمام السلام. كان قتله ما يزال يمثّل أولوية؛ وفي حقل رماية الموساد كانت كل الأهداف على شكل عرفات. استمر حتى مماته يتحمل وزر كل أعمال العنف التي تقوم بها الجماعات الفلسطينية اليائسة في سورية.

ثم وقع حادثان حوّلا التركيز، مرحلياً على الأقل، عن عرفات ووضعا أخيراً الخطة التي أصبح فيها أبو شخصية محورية.

كانت إحدى المشاكل المتصاعدة التي واجهتها سورية مع فصائل منظمة التحرير الفلسطينية المنضوية تحت جناحها طلباتها المستمرة بفعل شيء ما. كانت سورية مستعدة لتمويل أي عملية لا تزيد صورتها الباهتة أصلاً سوءاً. كانت العديد من الخطط التي وضعتها فصائل منظمة التحرير الفلسطينية أمام الاستخبارات السورية تحمل الكثير من المخاطر التي لا يستطيع السوريون تحمّلها. كانت إحداها تتمحور حول تسميم مخزونات إسرائيل من المياه. وأخرى حول إرسال انتحاري عربي، يقدّم نفسه على أنه يهودي أرثوذكسي، لتفجير نفسه عند حائط المبكى في القدس. كانت كلتا الخطتين ستثيران أعمالاً انتقامية وحشية من قِبَل إسرائيل.

ثم ظهرت خطة جريئة لم تعتبرها الاستخبارات السورية فعّالة وحسب، وإنما سيكون لها تأثير شديد القوة على تفوق إسرائيل العسكري. كانت الخطوة الأولى شراء سفينة. بعد عدّة أسابيع من البحث في الموانئ حول البحر المتوسط، تم شراء سفينة تجارية تحمل علم بنما وتدعى أتافاريوس، والتي أبحرت إلى ميناء الجزائر.

بعد أسبوع من وصولها، وصلت مجموعة من الكوماندوس الفلسطينيين من دمشق على متن طائرة نقل تابعة لسلاح الجو السوري. وأحضروا معهم ترسانة صغيرة من الأسلحة: رشاشات، وأسلحة مضادة للدبابات، وصناديق من بنادق الكلاشينكوف المفضّلة لدى الإرهابيين(*). وفي تلك الليلة، وتحت جنح الظلام، انتقل الكوماندوس مع أسلحتهم إلى متن أتافاريوس.

(*) وفقاً للوصف الإسرائيلي للذين يشنّون عمليات عليها.

عند الفجر، أبحرت السفينة وأخبر قبطانها سلطات الميناء بأنه يتجه نحو اليونان لإصـــلاح المحرك. وكان الكوماندوس في عنابر السفينة، لكن وصولهم لفت الانتباه. وأصـــاب الشـــك مخـــبراً للموســـاد يعمل في مكتب مدير الميناء بحيث أخبر الكاستا المتمركز في المدينة، والذي أرسل رسالة إلى تل أبيب.

أثار وصول الرسالة حالة تأهب صفراء ضمن كل شبكة الموساد حول المتوسط. كانت الذكريات ما تزال ماثلة من المحاولة الفاشلة لتفجير الواجهة البحرية في إيلات، كـــان هـــناك اشـــتباه بأن تكون هذه محاولة مماثلة ضد حيفا هذه المرة. وكان الميناء المـــزدحم على ساحل المتوسط هدفاً واضحاً. تمركزت سفينتان حربيتان بحريتان قبالة الشـــاطئ استعداداً للتعامل مع أي محاولة تقوم بها أتافاريوس لدخول الميناء الذي كان بوابة إسرائيل الرئيسية للتجارة مع العالم.

كانت وجهة أتافاريوس نحو شمال تل أبيب. وفي خطة قد تكون مستقاة من فيلم هولـــيوودي، كان الكوماندوس على متن أتافاريوس سيركبون قوارب مطاطية وصولاً إلـــى الشـــاطئ. ثم سيشقون طريقهم قتالاً نحو تل أبيب حتى يصلوا إلى هدفهم كيريا، مقـــر قيادة قوات الدفاع الإسرائيلية الحصين، والذي يهيمن برجه على الأفق وسيكون مـــنارة للكوماندوس. كانت الخطة تعتمد على المفاجأة الكاملة والشجاعة الجريئة التي اعترف بها الإسرائيليون أنفسهم.

كـــان توقيـــت الهجـــوم يوافق احتفالات إسرائيل بيوم الاستقلال، وسيكون هناك مـــزاج احتفالـــي فـــي الـــبلد، ولن يوجد سوى بضعة رجال فقط يحرسون كيريا وفقاً للاســـتخبارات الســـورية. لم يكن الكوماندوس يتوقعون النجاة بحياتهم، وتم اختيارهم لتنفيذ المهمة لأنهم أظهروا جميعاً نفس عقلية انتحاريي بيروت.

أثـــناء ذلـــك، كان باستطاعتهم الاسترخاء والاستمتاع برحلتهم البحرية القصيرة التـــي تجاوزت بهم تونس إلى محطتهم التالية، جزيرة صقلية. وربما لم يلاحظ أحدهم ســـفينة الصيد التي كانت تندفع عبر الأمواج عندما تجاوزتها أتافاريوس. وكانت تلك الســـفينة تحـــتوي علـــى معـــدّات إلكترونية متطورة قادرة على اعتراض المحادثات اللاســـلكية علـــى متن السفينة التجارية. وأعلنت رسالة باللغة العربية أن السفينة تسير وفق الجدول. ونقل أحد أفراد طاقم سفينة الصيد، المكوّن من شخصين كلاهما سيانيم، الأنـــباء باللاســـلكي إلى تل أبيب. وخلال الأربع وعشرين ساعة التالية، تعقّبت سفن أخرى تعمل مع الموساد أتافاريوس عندما كانت تتجاوز كريت وبعدها جزيرة قبرص.

مـــرّ يخـــت سريع بالقرب من السفينة. وكان مزوداً أيضاً بمعدّات إلكترونية بما

فـيها آلة تصوير قوية مثبّتة إلى جانب مدير الدفة. وكان على متنه امرأتان تعرضان جسديهما للشمس. وكانتا قريبتي سايان مصري يمتلك اليخت، كانتا طعماً لجذب انتباه الـرجال علـى متـن أتافاريوس. وفيما كان اليخت يتجاوز السفينة، ظهر العديد من الكومـاندوس بجانب سياجه، يصرخون ويبتسمون للمرأتين. وفي حجرة مدير الدفة، شـغّل السـايان آلة التصوير لتسجيل صور للرجال الذين يشيرون للمرأتين. وحالما انـتهى دوره في المراقبة، عاد مالك اليخت مسرعاً إلى قبرص. وتم تظهير الفيلم في منـزله وإرسال الصور إلى تل أبيب. وتعرّفت حواسب الموساد على صور ثلاثة من الإرهابيين العرب المعروفين. وتحولت الحالة الصفراء إلى حمراء.

أصـدر رئـيس الوزراء شمعون بيريس أمراً بمهاجمة أتافاريوس. تمّت مناقشة خطـة لقصف السفينة إلا أنها رفضت. فقد تنظر مصر بشكل خاطئ إلى هجمة جوية كجـزء مـن ضـربة وقائية؛ ورغم أن العلاقات الدبلوماسية في إسرائيل وجارتها قد تجـاوزت عـدداً مـن الحوادث السابقة، إلا أن هناك توتراً وشبهة في القاهرة حول نشاطات تل أبيب. ووافق بيريس على القيام بالهجوم بحراً.

تـم تـزويد سـتة قوارب حربية إسرائيلية بالوقود والصواريخ. كان على متنها وحـدات مـن القوات الخاصة IDF وعملاء الموساد لاستجواب أيٍ من الكوماندوس الذيـن سـيبقون أحياء. أبحرت القوارب في ساعة مبكرة من حيفا، واتجهت غرباً في عـرض المتوسـط. وشقت طريقها عبر المياه بصمت لتفادي اكتشافها من قبل رادار أتافـاريوس. ووضـع الإسرائيليون توقيتاً لهجومهم يتزامن مع ارتفاع الشمس خلفهم تماماً.

بعـد السـاعة 6:30 صباحاً بقليل، أصبحت أتافاريوس في مرمى النظر. وفي مـناورة تقلـيدية، انتشـرت القـوارب الإسرائيلية وهاجمت السفينة التجارية من كلا الجانبيـن، وأمطرت بدنها وسطحها بالصواريخ. أطلق الكوماندوس على متن السفينة النار. ولكن أسلحتهم الثقيلة كانت ما تزال في الصناديق أسفل السفينة، ولم تكن بنادقهم الآلـية قـادرة علـى مجاراة القوة النارية المتفوقة للإسرائيليين. اشتعلت النيران في أتافـاريوس خـلال دقـائق، وبدأ طاقمها والكوماندوس على متنها بهجر السفينة، وتم إطلاق النار على بعضهم فيما كانوا يغطسون في البحر.

بالنتـيجة، لقـي عشـرون من الطاقم والكوماندوس حتفهم. وتم وضع اليد على جثـثهم جمـيعاً، فيما أسر الإسرائيليون ثمانية ناجين. قبل عودة القوارب الحربية إلى إسـرائيل، قامـت بإغراق أتافاريوس بالصواريخ التي كانت رؤوسها مليئة بمتفجرات

شديدة القوة.

دفنت جثث الموتى دون مراسم في صحراء النقب. وخضع الأسرى لمحاكمة سرية، وتلقوا أحكاماً طويلة بالسجن. خلال استجوابهم، أشاروا ضمناً إلى سورية على أنها القوة الموجهة خلف الحادثة. لكن عوضاً عن شنّ هجوم على جارتها، أبقت الحكومة الإسرائيلية الحادث سراً بناءً على نصيحة الموساد. فلقد توقع علماء نفس الموساد بأن اختفاء السفينة وطاقمها وركابها سيكون محط بحث معمّق ضمن جماعات منظمة التحرير الفلسطينية المتمركزة في سورية. حذّر الموساد أيضاً رئيس الوزراء بيريس بأنه يجب أن يكون متأكداً من أن الإرهابيين سيكونون متلهفين، بعد فشل عمليتهم، لاستعادة ماء وجههم مع رعاتهم السوريين.

أثناء ذلك، استمر الفلسطينيون بالاحتجاج ضد عرفات، واستحسان الحرب القاتلة التي شنّها ضده أبو نضال الذي كان رفيقه يوماً. واختلف أبو نضال الضالع في الإرهاب منذ وقت طويل - ويعتبر "سيد غير المتوقع" - مع عرفات على الأساليب التكتيكية.

كان عرفات يقترب ببطء من فكرة أن الحركة التي لا تملك شيئاً سوى الإرهاب ستفشل أخيراً؛ وأنها تحتاج إلى برنامج سياسي وشيء من الدبلوماسية. كان عرفات يحاول شرح ذلك في خطبه العلنية، وحصل على تشجيع من واشنطن للاستمرار في نهجه. في إسرائيل، كانوا ينظرون إلى كلمات عرفات على أنها خداع ورياء. وكانت بالنسبة لأبو نضال لا تعبّر عن شيء سوى خيانة كل ما يمثّله شخصياً؛ الإرهاب الخالص المكشوف.

طوال شهور، كان أبو نضال يتحيّن الفرصة المناسبة. عندما سمع بفشل مهمة أتافاريوس، والطريقة التي اختفت بها السفينة لاحقاً من على سطح البحر، قرّر بأن الوقت قد حان لتذكير إسرائيل بأنه ما يزال موجوداً، وبموافقة كاملة من حُماته الاستخبارات السورية، ضرب أبو نضال بشكل مرعب. في مطاري روما وفيينا، وفي كانون الأول سنة 1985، فتح مسلحوه النار على الركاب البائسين الذين يسافرون لقضاء عطل الميلاد. في غضون لحظات فقط، لقي تسعة عشر راكباً من بينهم خمسة أميركيين مصرعهم أمام مكاتب شركة العال في كلا المطارين. كيف كان هؤلاء الإرهابيون قادرين على الحركة دون تدخل الشرطة الإيطالية للوصول إلى أهدافهم؟ أين كان رجال أمن شركة العال؟

أثناء البحث عن أجوبة لهذه الأسئلة العاجلة، كان استراتيجيو الموساد يبحثون

أيضاً في مناطق أخرى. رغم أن بريطانيا انضمت إلى حملة الإدانة العالمية للهجمات، إلا أن البلد كان ما يزال يحافظ على علاقات دبلوماسية كاملة مع سورية؛ رغم قيام الموساد بتزويد M15 بدليل واضح على الدور الذي تقوم به دمشق في رعاية الإرهاب. لم يكن ذلك كافياً بالنسبة لرئيسة الوزراء مرغريت تاتشر لتشجب الإرهاب بقوة في البرلمان. كانت هناك حاجة لعمل مباشر. على كل حال، كانت M15 قد ذكّرت الموساد بأنه في الماضي حتى إسرائيل أظهرت اهتماماً بمصالحها الشخصية من وقت إلى آخر بنفس الطريقة، وقبلت الحاجة للتعاطي مع أعدائها اللدودين. كان هناك قرار بإطلاق سراح ما يزيد عن الألف محتجز فلسطيني - معظمهم إرهابيون مدانون - قبل شهور فقط من هجمات مطاري روما وفيينا مقابل جثث ثلاثة إسرائيليين محتجزة في لبنان.

لكن الموساد كان مصمماً آنذاك على القيام بعمل شديد التأثير لإجبار بريطانيا على قطع كل العلاقات الدبلوماسية مع دمشق بإغلاق سفارتها في لندن التي لطالما اعتبرها الموساد إحدى البعثات الأساسية في أوروبا لنسج المكائد ضد إسرائيل. وسيكون دور أبو وقريبه نزار هنداوي مركزياً في الخطة.

بعد تناول العشاء مع توب ليفي، بحث أبو عن هنداوي واعتذر له عن لامبالاته حول آن - ماري. وقال إنه سيساعده بالطبع، ولكنه يحتاج أولاً للحصول على بعض الإجابات. هل ستحتفظ بالطفل؟ هل تُلحّ عليه ليتزوجها؟ هل يحب نزار الفتاة فعلاً؟ كانا من بيئتين مختلفتين، وغالباً ما يفشل هذا النوع من الزواج.

أجاب هنداوي بأنه إذا سبق له وأحب آن - ماري من قبل فإن ذلك انتهى الآن. لقد أصبحت سليطة اللسان وكثيرة البكاء، وتسأل طوال الوقت عمّا سيحدث. ولم يكن يرغب بالزواج من خادمة بالتأكيد.

منح أبو قريبه عشرة آلاف دولار؛ أي مبلغ كافٍ كما قال ليتخلص هنداوي من آن - ماري ويستمر في حياة العزوبية في لندن. كان الموساد مصدر تلك الأموال. بالمقابل، سيكون على هنداوي القيام بشيء يخدم القضية التي يؤمن بها كلاهما: هزيمة إسرائيل.

في أمسية 12 نيسان سنة 1986، زار هنداوي آن - ماري في مأواها في منطقة كيلبورن في لندن. وأحضر لها الزهور وزجاجة من الشراب التي اشتراها من المال الذي حصل عليه من أبو. وأخبر آن - ماري بأنه يحبها ويريد الاحتفاظ بالطفل. فاضت عيناها بالدموع من تلك الأنباء، وبدا عالمها أفضل حالاً فجأة.

قــال هنداوي بأن هناك عقبة واحدة أخيرة ينبغي التغلب عليها. يجب أن تحصل آن – مــاري على مباركة والديه ليتمكنا من الزواج. كان ذلك تقليداً عربياً لا يستطيع أي ابـن بار الهروب منه. لذا يجب عليها السفر إلى القرية العربية في إسرائيل حيث تعـيش عائلــته. رسم لها صورة عن أسلوب حياتهم التي لم تتغير كثيراً منذ أن مشى السـيد المسـيح (عليه السلام) على الأرض. بالنسبة لفتاة نشأت لدى الراهبات ويمثّل القـدّاس جزءاً هاماً من حياتها، كانت تلك الصورة بمثابة التأكيد النهائي بأنها اتخذت القرار الصحيح بالزواج ممن تحب. رغم أنه وعائلته ليسوا مسيحيين، ولكن ذلك ليس مهمـاً؛ لأنهـم جاءوا من أرض مولاها. كانوا في نظرها شعباً يخاف الله. بالرغم من ذلــك، ترددت آن – ماري لأنها لم تكن تستطيع مغادرة عملها. من أين ستحصل على المــال اللازم لدفع ثمن تذكرة الطائرة؟ وستحتاج إلى ملابس جديدة من أجل لقاء مهم مــثل هذا. هدّأ هنداوي من مخاوفها بإخراج حزمة من النقود من جيبه. وقال لها إنها أكــثر من كافية لشراء فستان جديد لها. من جهة أخرى، قدّم لها هنداوي تذكرة العال لرحلة يوم 17 نيسان، أي بعد خمسة أيام. وكان قد اشتراها بعد ظهيرة نفس اليوم.

ضحكت آن – ماري وسألت: "هل أنت متأكد من أنك تريدني أن أذهب؟"

أجاب هنداوي: "مثلما أنا متأكد من حبي لكِ".

ووعدهــا بأنهمــا ســيتزوجان حالما تعود إلى لندن. مرّت الأيام القليلة المتبقية بسرعة على الخادمة الحامل. استقالت من عملها، وزارت السفارة الأيرلندية في لندن للحصــول علــى جواز سفر جديد. تسوّقت بعض الملابس الخاصة بالحوامل. كانت تتــبادل الحب مع هنداوي كل ليلة. في كل صباح، وعلى مائدة الإفطار، كانت تخطط لمستقبلهما معاً. كانا سيعيشان في أيرلندا، في منــزل ريفي صغير بالقرب من البحر. كانت ستعمّد طفلهما باسم شون إذا كان صبياً وسينيد إذا كانت بنتاً.

فــي يــوم مغــادرة آن – ماري، أخبرها هنداوي بأنه حضّر لها هدية ستأخذها لوالديه من صديق يعمل في التنظيف في المطار.

أصــرّ آري بن – ميناش، الذي ادّعى لاحقاً بأنه كان لديه معلومات مفصّلة عن الخطة، على أن: "هنداوي لم يكن يريد المخاطرة بإيقافها لأنها تحمل حقائب أكثر مما هو مسموح، وخطط ليقوم صديقه بتمرير الحقيبة لها عندما تدخل قاعة مغادرة شركة العال".

كانــت ســاذجة لدرجة أنها لم تطرح أي أسئلة حول الهدية، كانت تلك ردّة فعل امــرأة غارقة في الحب وتثق بحبيبها ثقة عمياء. لقد كانت أضحوكة مثالية في المكيدة

المتسارعة.

في سيارة الأجرة إلى المطار، كان هنداوي المحب والأب المنتظر الحنون. هل ستتأكد من القيام بتمارين التنفس خلال الرحلة الطويلة؟ يجب أن تشرب الكثير من الماء وتجلس في مقعد إلى جانب الممر لتفادي الإصابة بالتشنّجات التي بدأت تشتكي منها. طلبت منه آن – ماري الصمت وهي تضحك: "بالله عليك هل أنا مسافرة إلى القمر!"

تباطأت عند بوابة منطقة الرحلات المغادرة لا تتمنى الافتراق عنه، ووعدته بالاتصال به من تل أبيب، وقالت إنها ستحب والديه مثل والديها. وقبّلها للمرة الأخيرة، ثم دفعها برفق إلى خط الانتظار أمام مكتب مراقبة الهجرة.

راقبها هنداوي حتى غابت عن الأنظار، واستمر في التقيد بالتعليمات التي تلقّاها من أبو وصعد إلى حافلة تابعة للخطوط الجوية السورية في طريق عودتها إلى لندن. أثناء ذلك، عبرت آن – ماري، التي لم يخامرها أي شك، مكتب الهجرة والنقاط الأمنية البريطانية. اتجهت تالياً إلى منطقة مغادرة رحلة العال التي تخضع لإجراءات أمنية مشددة. واستجوبها عملاء الشين بيت المدربون جيداً بحذر وتفحّصوا حقيبتها اليدوية. وتم حجز مقعد لها، وتحركت نحو قاعة المغادرة النهائية للانضمام إلى الركاب الـ 355 الآخرين.

ووفقاً لبن – ميناش، سلّمها رجل يرتدي لباس عمّال تنظيفات المطار الأزرق الهدية لوالدي هنداوي. اختفى الرجل بنفس الطريقة الغامضة التي ظهر بها. سيكتب بن – ميناش لاحقاً: "في غضون ثوانٍ، تم استدعاء آن – ماري للتفتيش. ووجد رجال أمن العال متفجرات بلاستيكية في قعر سري أسفل الحقيبة".

كانت المتفجرات تتألف مما يزيد عن ثلاثة أرطال من السيمتكس. بكت آن – ماري وهي تروي قصتها لضباط الفرع الخاص وM15. كانت تلك حكاية امرأة غير محظوظة لم تُخدع في الحب وحسب وإنما خُدعت مرتين من قبل حبيبها. وركّز الضباط على كشف علاقات هنداوي مع سورية بعدما تبين لهم أن آن – ماري امرأة مخدوعة بريئة.

حالما دخلت حافلة الخطوط الجوية لندن، أمر هنداوي السائق بالتحول إلى السفارة السورية. وعندما اعترض السائق، قال له هنداوي بأن لديه السلطة للقيام بذلك. في السفارة، طلب من مسؤولي القنصلية منحه حق اللجوء السياسي. أخبرهم أنه يخشى من أن الشرطة البريطانية على وشك اعتقاله لأنه حاول تفجير طائرة شركة

العال من أجل القضية. وسلّم المسؤولون المذهولون هنداوي إلى رجلي الأمن في السفارة، وطلبا منه البقاء في شقة لكادر السفارة بعدما استجوباه. ربما كانا يشتبهان بأن تلك ليست سوى مكيدة لإحراج سورية. وإذا كان الأمر كذلك، فقد تعمقت تلك المخاوف عندما غادر هنداوي الشقة بعد ذلك بوقت قصير.

ذهب هنداوي للبحث عن أبو. وعندما فشل في إيجاده، نزل في فندق فيزيتورز اللندني في مقاطعة نوتنغ هيل، حيث جرى اعتقاله بعدها.

نشرت BBC أخباراً حول كيف تمكّنت الشرطة من إفشال المكيدة. كانت التفاصيل دقيقة على غير العادة: تم إخفاء السيمتكس في قعر حقيبة آن - ماري المزيّف، وكان جاهزاً للانفجار على ارتفاع ثلاثة وثلاثين ألف قدم.

بالنسبة لبن - ميناش، وصلت العملية بسرعة إلى نتيجة مرضية: "أغلقت مرغريت تاتشر السفارة السورية. وسُجن هنداوي خمس وأربعين سنة. وعادت آن - ماري إلى أيرلندا حيث وضعت بنتاً". وعاد أبو إلى إسرائيل لأن دوره انتهى.

بعد محاكمة هنداوي، أطلق روبرت مكسويل لصحيفة ديلي ميرور العنان: صرخ في افتتاحية رئيس التحرير "نال الوغد ما يستحقه". وعنونت افتتاحية في يوم إخراج سفير سورية إلى محكمة سانت جيمس: "سفير الموت". فيما صرخت افتتاحية أخرى: "اخرج، أيها السوري البغيض". كان بن - ميناش أول من ادّعى أن الموساد قام "بضربة رائعة وضعت سورية في مأزق سياسي".

لكن كان هناك أسئلة غامضة خلف ذلك المشهد الواضح. هل تسلّمت آن - ماري مورفي قنبلة تعمل، أم أنها كانت جزءاً من الحيلة المتقنة؟ هل كان الرجل الذي يرتدي الأزرق - صديق هنداوي المزعوم - ضابط أمن؟ هل كانت M15 على معرفة سابقة بالمكيدة؟ ألم يخطر ببال الموساد وقوات الأمن البريطانية أنه بالرغم من عدم السماح للسيمتكس بالصعود على متن الطائرة كان هناك احتمال بعيد بأن تنفجر على الأرض؟ ومثل هذا الانفجار سيدمّر بلا شك منطقة كبيرة من المطار الأكثر ازدحاماً في العالم في وقت سيكون فيه آلاف الناس موجودين. هل كان الجزء البارع من تلك الضربة بأن الموساد تسبّبت بقطيعة دبلوماسية لسورية دون خطورة على شركة العال ومطار هيثرو على الإطلاق باستخدام مواد سلمية تشبه السيمتكس؟ بالنسبة لكل هذه الأسئلة، قال رئيس الوزراء شمعون بيريس: "ما حدث معروف عادةً لأولئك الذين يجب أن يعرفوا، وأولئك الذين لا يعرفون يجب أن يبقوا كذلك".

من سجن وايتمور الخاضع لإجراءات أمنية مشددة، استمر هنداوي في الاحتجاج

بأنه ضحية عملية تقليدية للموساد. وقال بعد أن أصبح شعره أبيض ولم يعد نحيلاً كما كان أنه يتوقع أن يموت في السجن. أشار إلى آن – ماري بتلك المرأة فقط. وفي سنة 1998، كانت تعيش في دبلن تربّي ابنتهما التي، لحسن الحظ، لا تبدو مثل حبيبها. ولم تتكلم عن هنداوي إطلاقاً.

تبقى هناك ملاحظة غامضة واحدة. وبعد أسبوعين من الحكم على هنداوي بالسجن لفترة تصل به إلى القرن الحادي والعشرين، وضع أرنو دو بورشغراف، رئيس تحرير واشنطن تايمز المحترم، مسجلته على طاولة رئيس وزراء فرنسا جاك شيراك في باريس. وكان دو بورشغراف في أوروبا لحضور اجتماع وزراء خارجية الاتحاد الأوروبي في لندن، وكانت المقابلة مع شيراك لمعرفة الموقف الفرنسي. سارت المقابلة عبر محاور معروفة، وأوضح شيراك أن فرنسا وألمانيا اضطُرتا لإظهار الولاء للحكومة البريطانية التي كانت تُظهر تشدداً متزايداً حول سياسات السوق المشتركة. أثار دو بورشغراف السؤال حول علاقة فرنسا بمسألة أخرى. وكان رئيس التحرير يريد معرفة المرحلة التي وصلت إليها مفاوضات شيراك مع سورية لإنهاء موجة القنابل الإرهابية في باريس، وعن جهود فرنسا لتحرير الرهائن الأجانب المحتجزين في لبنان. وتوقف رئيس الوزراء عن الكلام، ونظر عبر طاولته، كما لو أنه نسي المسجلة. وقال بعدها إن المستشار الألماني هيلموت كول، ووزير خارجيته هانز ديتريش غينشر، أخبراه بأن الحكومة السورية ليست متورطة في خطة هنداوي لنسف طائرة العال؛ وأن تلك المكيدة: "خطط لها الموساد، جهاز الاستخبارات الإسرائيلي".

كادت الضجة الدبلوماسية التي نشأت عن ذلك أن تقضي على حياة شيراك المهنية. ووجد نفسه يتعرض للهجوم من قبل رئيسه فرانسوا ميتران من جانب، ويتلقى مكالمات هاتفية غاضبة من هيلموت كول يطالبه فيها بالتراجع عن تصريحاته من جانب آخر. قام شيراك بما يقوم به السياسيون عادةً. وقال إن كلماته أُسيء اقتباسها. في لندن، قالت سكوتلنديارد بأن المحاكم تعاملت مع القضية بشكل كامل ولا حاجة للمزيد من التعليقات، وفي باريس، قال مكتب جاك شيراك – الذي أصبح رئيساً لفرنسا سنة 1997 – بأنه لا يملك تسجيلاً للمقابلة مع واشنطن تايمز.

وسرعان ما ستُصيب عملية أخرى الموساد بوصمة في سمعته.

الفصل الخامس عشر

رسّام الكاريكاتير

بـدأت نهايـة نعـوم أدموني كمدير عام للموساد في ظهيرة يوم من تموز سنة 1986، وكـان ذلك نتيجة لحادثة في أحد المباني التي تم تشييدها بعد الحرب العالمية الثانية في أحد شوارع بون في ألمانيا. بعد أربعين سنة، أصبح ذلك الشارع جادة كاملة مـع أحياء تتميز بيوتها بحدائق أمامية صغيرة، ولكنها رائعة التصميم. كانت الأنظمة الأمنـية تختبـئ بسرية خلف البوابات المشغولة من الحديد، والنوافذ المزودة بأعمدة نتيجة استخدام زجاج القوارير.

لـم يرَ أحد الشخص الذي ترك حقيبة سفر بلاستيكية في كبين الهاتف في نهاية الشـارع. رأتهـا سيارة دورية للشرطة، وتوقفت لتفحّص الأمر. كانت الحقيبة مليئة بثمانية جوازات سفر بريطانية مصنوعة حديثاً وفارغة. كان ردّ الفعل المباشر لمكتب بوندسكريمنال آمت المحلي – اختصاراً BKA – المماثل لـ FBI، أن جوازات السفر تعـود لجماعـات إرهابـية أحضـرت الإرهـاب إلى شوارع أوروبا مع سلسلة من التفجيرات وعمليات الاختطاف العنيفة والوحشية.

كان هؤلاء الإرهابيون يمثّلون قضايا وأقليات من كل أصقاع العالم، ومصممون علـى شق طريقهم للعب دور في فرض جدول أعمالهم على السياسة العالمية. وجدوا دعماً مباشراً من السياسات الطلابية المتشددة التي اجتاحت بريطانيا والقارة الأوروبية. مـنذ سـنة 1968 عندما قامت ليلى خالد، الثائرة الفلسطينية الشابة، باختطاف طائرة نفاثـة إلـى لندن، وإطلاق سراحها مباشرة لأن الحكومة البريطانية خافت من وقوع هجمات أخرى، تغنّى الطلبة الساذجون بشعارات منظمة التحرير الفلسطينية. كان لدى هـؤلاء المتشـددين الشـباب الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى رؤية رومانسية حول مـنظمة الـتحرير الفلسطينية على أنها تضم "مقاتلين من أجل الحرية"، والذين عوضاً

عـن تـناول الممـنوعات، يقضون على حياة البرجوازيين؛ وعوضاً عن الاحتجاج، يحتجزون الرهائن.

افترض BKA بأن طالباً يعمل مراسلاً لإحدى الجماعات الإرهابية ترك جوازات السفر هناك. وكانت قائمة الجماعات طويلة جداً وتتراوح من IRA، إلى "فصيل الجيش الأحمـر" الألماني، إلى جماعات أجنبية مثل (INFS)، "الجبهة الإسلامية الوطنية" في السـودان؛ و(ELN) "جيش التحرير الوطني" في كولومبيا؛ و(MDRA) "حركة تحرير أنغـولا" إلى (LTTE) "نمور التاميل". كان لتلك الجماعات، والكثير غيرها، خلايا أو كـوادر في الجمهورية الاتحادية. كان باستطاعة أي منها التخطيط لاستخدام جوازات السـفر لمهاجمة إحدى القواعد العسكرية البريطانية في ألمانيا، أو السفر إلى بريطانيا والقيام بعمل ما هناك.

رغـم كونها قوة إمبراطورية رائدة سابقة في أوروبا الغربية، إلا أن بريطانيا لم تواجـه إرهاباً مستمراً سوى من قبل IRA. ولكن أجهزة استخباراتها حذّرت من أنها مسـألة وقت فقط قبل أن تضع جماعات أجنبية أخرى، مسموح لها بالعمل ضد بلدانها مـن لـندن، بريطانيا هدفاً لمكائدها. وقع إنذار لما قد يحدث عندما استولت مجموعة معارضـة لنظام طهران على السفارة الإيرانية سنة 1980. عندما فشلت المفاوضات، أرسلت حكومة تاتشر فريقاً من SAS أباد الإرهابيين. قاد ذلك العمل، الذي تم استغلاله إعلامياً بشكل جيد، إلى تراجع مفاجئ في خطط الشرق الأوسط التي تخرج من لندن. عوضـاً عـن ذلـك، أصبحت باريس أرض معركة النـزاعات الداخلية الدموية بين مختلف المنظمات الأجنبية، والتي كان أكثرها بروزاً منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسـر عرفات وأبو نضال ورجاله. وشارك الموساد أيضاً في قتل الأعداء العرب في شوارع العاصمة الفرنسية.

اعـتقد BKA أن جـوازات السفر التي وجدها في أحد أكشاك هاتف فرانكفورت كانـت مقدّمـة للمـزيد من المذابح. اتصلت الوكالة مع بوندس – ناشرشتن داينست، اختصـاراً (BND)، وهو جهاز الاستخبارات الخارجي الموازي للـ CIA، الذي أخبر بـدوره مكتب ارتباط M16 المجاور لمقر قيادة BND في بولاخ إلى جنوب ألمانيا. في لندن، أقرّ جهاز M16 بأن تزوير تلك الجوازات متقن للغاية. أقصى ذلك كلاً من IRA والمجموعات الإرهابية الأخرى التي لم يكن بمقدورها تزوير وثائق بتلك الدقة. تحوّل الشـك إلـى KGB؛ والذي كان مزوّروه ضمن الأفضل في هذا المجال. لكن الروس كـانوا معروفين بامتلاكهم لأكداس من جوازات السفر، ولم يكن استخدام كشك هاتف

كنقطة تسليم أسلوبهم بالتأكيد. تم إقصاء جهاز استخبارات جنوب أفريقيا، BOSS، من القائمة أيضاً، الذي توقف نظرياً عن العمل في أوروبا، ولم يكن بحاجة لجوازات سفر بريطانيـة مـزيفة في البلاد الأفريقية النامية حيث كان BOSS يركز نشاطاته. تحوّل M16 إلى جهاز الاستخبارات الوحيد الذي قد يستفيد من تلك الجوازات؛ الموساد.

تمـت دعـوة آري رجـب، الملحق في السفارة الإسرائيلية في لندن والذي كان كاسـتا مقيماً أيضاً، للقاء أحد ضباط M16 البارزين لمناقشة المسألة. قال رجب إنه لا يعرف شيئاً حول جوازات السفر، ولكنه وافق على إثارة الموضوع مع تل أبيب. جاء الجواب سريعاً من نعوم أدموني: ليس للموساد أي علاقة بجوازات السفر. ادّعى أنها ربما تكون من صنع ألمانيا الشرقية؛ وكان الموساد قد اكتشف آنذاك أن ستاسي، جهاز اسـتخبارات ألمانيا الشرقية، كان يبيع جوازات سفر مزورة ليهود يحاولون السفر إلى إسـرائيل بشتّى الوسائل، مقابل العملة الصعبة. كان أدموني يعلم أن مزوّري الموساد قاموا بتجهيز تلك الجوازات؛ وكان القصد منها أن يستخدمها الكاستا العاملون خفية في أوروبا ليتمكنوا من دخول بريطانيا والخروج منها بسهولة أكبر.

رغـم الـتفاهم الـذي ساهم رافي إيتان في التوصل إليه مع M15، والذي وافق الموسـاد بموجـبه علـى إخـبار جهاز الأمن البريطاني الداخلي بكل عملياته داخل بريطانيا، كان للموساد عميل سري في بريطانيا على أمل أن يحقق ذلك هدفاً مزدوجاً: قـتل قائد قوات نخبة منظمة التحرير الفلسطينية الخاصة - القوة 17 - وإنهاء نجاح ياسر عرفات المتزايد في إقامة علاقة مع حكومة تاتشر.

فـي لـندن، لم يعد اسم عرفات مرادفاً للإرهاب. وأصبحت السيدة تاتشر ببطء مقتـنعة أن بمقـدوره إحـلال سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط يعترف بالحقوق المشـروعة للشعب الفلسطيني ويضمن أمن إسرائيل. كان القادة اليهود أكثر نـزوعاً إلـى الشـك. وجـادلوا بأن الإرهاب كان الشيء الوحيد الذي أوصل منظمة التحرير الفلسـطينية إلـى المكانة التي أصبحت عليها آنذاك، وأن المنظمة ستهدد بالمزيد من الأعمال الإرهابية ما لم تتم تلبية كل مطالبها. لم تكن تلك المرة الأولى التي لم تكترث بهـا لندن لاحتجاجات تل أبيب، واستمر الموساد في اعتبار بريطانيا بلداً مستعداً لدعم القضـية الفلسـطينية رغم ما نتج عن حصار السفارة الإيرانية. كان هناك قلق ضمن الموساد حول الطريقة التي استطاعت بها منظمة التحرير الفلسطينية التعامل براحة مع CIA.

أجـاب وزيـر الخارجـية الأسبق هنري كيسنجر لاحقاً عن التاريخ الدقيق لبدء

العلاقـات بيـن الولايـات المتحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية. وكشف في مذكّراته **سـنوات من التقلبات** بأنه بعد ستة أسابيع من قيام أحد مسلحي مجموعة **أيلول الأسود** بقـتل سفير الولايات المتحدة إلى السودان في الخرطوم، تم عقد اجتماع في 3 تشرين الثانـي سنة 1973 بين نائب مدير CIA فيرنون والترز وياسر عرفات. كانت النتيجة *اتفاقـية عـدم اعتداء* بين الولايات المتحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية. كتب كيسنجر لاحقاً: "توقفت الهجمات على الأميركيين، على الأقل من قبل فصيل عرفات في منظمة التحرير الفلسطينية".

عندما علم إسحاق هوفي بالاتفاقية، قال إنه خلال تاريخ التحايل الطويل، لم يكن هناك مثال أسوأ من ذلك. حاول هوفي، باستخدام قناة الاتصال الخلفية مع CIA، حثّ والترز على إلغاء الاتفاقية. قال نائب مدير CIA بأن ذلك غير ممكن وحذّر هوفي بأن واشنطن ستعتبر نشر أنباء الاتفاقية علناً بمثابة "عمل عدائي". كان ذلك بمثابة التحذير لعدم إطلاق يد قسم الحرب النفسية في الموساد مع الصحفيين الأصدقاء.

تصـاعد غضـب هوفي عندما اكتشف الشخص الذي عيّنه عرفات لتنفيذ الشق المـتعلق بمنظمة التحرير الفلسطينية في الاتفاقية: علي حسن سلامة، الأمير الأحمر، وقائد مجموعة **أيلول الأسود** الذي خطط لمذبحة الرياضيين الأولمبيين الإسرائيليين في ميونيخ، وقاتل السفير الأميركي في الخرطوم؛ سلامة الرجل الذي ستنتهي حياته أخيراً بـنفس الطريقة التي عاش بها، في انفجار قوي أعدّه رافي إيتان. ولكن ذلك كان بعيداً بضـع سـنين. فـي سنة 1973، كان سلامة شخصية موقّرة ضمن منظمة التحرير الفلسطينية، ولم يكن عرفات متردداً عندما عيّنه للتنسيق مع CIA. وما أصاب الموساد بالذعر كان قبول CIA للأمير الأحمر بعد سنة بالكاد من عملية ميونيخ ومقتل المبعوث الأميركي في الخرطوم.

سـرعان ما أصبح سلامة زائراً منتظماً لمقر قيادة CIA في لانغلي. كان الأمير الأحمـر، الذي يصحبه عادةً فيرنون والترز، يمشي عبر بوابة الوكالة ذات الأرضية الرخامية، ويتجاوز الحراس ويستخدم المصعد للوصول إلى الطابق السابع حيث يوجد مكتـب والترز الرحيب. كانا يقطعان اجتماعاتهما للانضمام إلى ضباط CIA البارزين فـي غرفة الطعام الخاصة بهم. كان والترز يدفع باستمرار ثمن وجبة الأمير الأحمر؛ ولم يكن هناك شيء اسمه غداء مجاني في لانغلي.

ما دار بين سلامة وCIA بقي سراً. ادّعى بيل بوكلي، الذي قتل لاحقاً في بيروت عـندما كـان مديـراً لمحطة CIA هناك أن "سلامة لعب دوراً كبيراً في فوز منظمة

التحرير الفلسطينية بقلب وعقل الولايات المتحدة. كان ذا شخصية جذابة ومقنعاً، ويعرف متى يجادل ومتى يستمع. كان، بالمفهوم الاستخباراتي، مخبراً خارقاً".

جاء مثال مبكّر عن التنسيق عندما حذّر سلامة CIA من خطة وضعتها إيران لإسقاط طائرة كيسنجر في طيرانها التالي إلى بيروت خلال رحلاته المكوكية لتحقيق السلام. تالياً، عقد سلامة صفقة رافقت بموجبها منظمة التحرير الفلسطينية 263 غربياً في بيروت الغربية إلى برّ الأمان في ذروة الحرب الأهلية اللبنانية. بعد ذلك بوقت قصير، حذّر الأمير الأحمر CIA من محاولة لاغتيال السفير الأميركي في لبنان. في اجتماع آخر مع CIA، كتب الأمير الأحمر ووقع على "ضمان بعدم الاغتيال" لكل دبلوماسيي الولايات المتحدة في لبنان. وفي بيروت، كانت النكتة التي يردّدها دائماً: "إن تكلفة العيش في نفس المبنى مع الدبلوماسيين الأميركيين مرتفعة لأن أمن منظمة التحرير الفلسطينية جيد جداً".

طالب إسحاق هوفي، الذي كان مديراً للموساد عندها، أن تقوم CIA بقطع كل العلاقات مع الأمير الأحمر، وقوبل الطلب بالتجاهل. في مقر قيادة CIA في لانغلي، كان سلامة معروفاً على نطاق واسع بأنه "الرجل الشرير الذي تحوّل إلى صالح لنا". استمر بتقديم المعلومات الاستخباراتية والعملياتية التي جعلت CIA مطّلعة بشكل كامل على الشرق الأوسط، وأصبحت أهم مصادر قوتها في المنطقة. عندما تم قتله أخيراً، ثارت CIA غضباً، وأصبحت علاقاتها مع الموساد باردة لبعض الوقت.

قال هيرمان إيلتس، أحد سفراء الولايات المتحدة إلى لبنان، لاحقاً بعد اغتيال سلامة: أعرف أنه كان في مناسبات عديدة، وبشكل غير علني، مفيداً بشكل استثنائي، وساعد في حفظ أمن المواطنين والمسؤولين الأميركيين، واعتبر اغتياله خسارة لنا".

بعد انقضاء ست سنوات، كانت منظمة التحرير الفلسطينية، مرة أخرى، تخدع حكومة مرغريت تاتشر فيما كانت القوة 17، بإمرة قائد جديد، تستمر في قتل الإسرائيليين. قرّر نعوم أدموني بأنه سينجح في ما أخفق فيه أسلافه. سوف يمزّق علاقة منظمة التحرير الفلسطينية مع بريطانيا، وفي نفس الوقت يقتل قائد القوة 17. كان نجاح العملية يعتمد على شاب عربي، الذي صلّى عندما كان صبياً صغيراً في مسجد قريته إلى الله ليمنحه القوة لقتل أكبر عدد ممكن من الإسرائيليين.

تم رصد احتمال العمل مع إسماعيل صوان قبل عشر سنوات. في سنة 1977، وعندما كان صوان ما يزال مراهقاً يعيش في إحدى قرى الضفة الغربية، قام أحد ضباط الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية بمقابلته كجزء من إجراء روتيني لتحديث

بيانات IDF في المنطقة.

كانـــت عائلة صوان قد استقرت هناك في ثلاثينيات القرن العشرين، في الوقت الذي كانت فيه الثورة ضد الانتداب البريطاني واليهود تغلي في دماء كل العرب. كان هـــناك عـــنف فـــي كل مكان؛ وأدّت إراقة الدماء إلى إراقة دماء بالمقابل. انضم والد إســـماعيل إلى الحزب العربي الفلسطيني الذي نظّم الاحتجاجات وأثار الشعور القومي في مجتمعه. كان غضبه في البداية ضد البريطانيين، ولكن عندما انسحبوا من فلسطين ســـنة 1984، أصبحت الدولة العبرية هدفاً رئيسياً. كانت أول كلمات يحفظها إسماعيل أغنية كراهية لليهود.

خـــلال طفولته، كانت الكلمة التي تتردد غالباً "ظلم"، والتي كانت قوة محركة له فـــي المدرســـة؛ ومـــلأت الأحاديث حول طاولة طعام العائلة: الظلم الفظيع الذي حلّ بشعبه، وعائلته وبنفسه.

ثـــم، بعـــد وقت قصير من عيد ميلاده الخامس عشر، شهد هجوماً وحشياً على حافلـــة مليـــئة بالحجـــيج اليهود في طريقهم إلى القدس، والتي ذبح فيها العرب النساء والأطفـــال. طرح إسماعيل سؤالاً في تلك الليلة سيغير تفكيره للأبد: هل لليهود الحق في الدفاع عمّا يملكونه؟ وانبثق كل شيء آخر من هذا السؤال: نفوره الدائم من عنف زملائـــه، واعتقاده بأن اليهود والعرب *يستطيعون* العيش معاً، *ويجب* أن يعيشوا معاً. وجاء مع هذا إيمانه بأنه إذا كان يستطيع فعل شيء لتحقيق ذلك، سيفعله.

بعد سنتين، وحينما كان بالكاد في السابعة عشرة من عمره، جلس وأخبر ضابط اســـتخبارات IDF بالشـــعور الذي ما زال يراوده. واستمع الضابط أولاً، ثم استجوب إسماعيل بشكل مكثّف. واستطاع جعله ينقلب على كل معتقدات شعبه، التي كانت مثل ناقوس خطر ليس لديه سوى نغمة واحدة: *العرب* هم المظلومون، ويجب *عليهم* القتال حـــتى المـــوت فـــي سبيل ما يؤمنون بأنه حق. وكانت أسئلة الضابط كثيرة، وأجوبة إسماعيل طويلة.

لاحـــظ الضـــابط أنـــه كان لدى صوان، بخلاف الشباب العرب الآخرين الذين يعيشـــون فـــي ظل الحكم الإسرائيلي، اعتراضات قليلة على الإجراءات الأمنية التي يفرضـــها الجيش، وبدا أن الشاب النحيل صاحب الابتسامة الجذّابة يفهم الأسباب التي تقود إسرائيل للقيام بذلك. كل ما كان يهمه أن إجراءات الإغلاق العسكري تعني عدم قدرتـــه علـــى الذهـــاب إلى المدرسة في القدس الشرقية لدراسة موضوعه المفضّل، العلوم.

انـتقل ملـف صــوان عبر مجتمع استخبارات IDF، مع إشارة إلى أنه يستحق المزيد من التدقيق، ووصل أخيراً إلى مكتب أحد ضباط الموساد: مرّره لقسم التجنيد.

دُعــي إســماعيل صوان للسفر إلى تل أبيب، ظاهرياً لمناقشة تعليمه المستقبلي، وكــان قد تقدّم مؤخراً بطلب للذهاب إلى القدس للدراسة. تم استجواب إسماعيل طوال فــترة بعد الظهر، واستكشف المحقق أولاً معرفة إسماعيل العلمية، وكان راضياً عن الأجوبــة. تــم وضــع كــامل تاريخ عائلة صوان تحت المجهر، والتحقق من أجوبة إســماعيل ومقارنــتها بــتلك التي أدلى بها لضابط استخبارات IDF. أخيراً، تم إخبار إســماعيل بالعــرض المقــدّم إليه. كان الموساد سيدفع تكاليف تعليمه إذا وافق على الخضــوع لدورة تدريبية لديه. كان عليه أن يفهم أيضاً أنه إذا نطق بكلمة واحدة عما حدث لأي شخص؛ ستكون حياته في خطر.

كان ذلك تحذيراً اعتيادياً يتم توجيهه إلى كل العرب الذين يجنّدهم الموساد. لكن بالنســبة لإســماعيل صوان المثالي، كانت تلك الفرصة التي ينتظرها: *لم شمل اليهود والعرب*.

نجــح صــوان فــي كل أنواع المقابلات في منازل آمنة قبل أن يتم إرساله إلى مدرسة التدريب في ضواحي تل أبيب. تفوق في عدد من المواضيع، وأظهر استعداداً طبيعياً لتعلم مهارات الحاسب والتخلّص من الرقابة. ولم يكن مفاجئاً أن علاماته كانت عالــية فــي المواضــيع الخاصــة بالإسلام، كانت ورقته حول دور منظمة التحرير الفلســطينية فــي نــزاع الشرق الأوسط مثيرة بما فيه الكفاية ليراها رئيس الموساد عندها إسحاق هوفي.

لــدى الانــتهاء من التدريب، تحول صوان إلى بودل، أو مراسل بين مقر قيادة الموساد والسفارات التي يعمل فيها الكاستا تحت غطاء دبلوماسي. بدأ رحلات مكوكية حــول المتوســط، وزار بانتظام كلاً من أثينا، ومدريد وروما يحمل وثائق في حقائب دبلوماســية. سافر أحياناً إلى بون، وباريس، ولندن. وكانت فرصة رؤية العالم وتلقّي أموال مقابل ذلك – كان يحصل على خمسمئة دولار أميركي شهرياً – تمنحه شعوراً مثيراً وهو بالكاد شخص تجاوز مرحلة المراهقة.

ما لم يدركه صوان أنه لم يكن لتلك الوثائق أي أهمية. لقد كانت جزءاً آخر من اختباره؛ لرؤية ما إذا كان سيحاول عرضها على عربي قد يكون على علاقة معه في أي مــن المــدن التــي زارها. كان يتبع صوان في كل رحلة يقوم بها ضباط موساد مؤهلــون حديثاً ومولودون في إسرائيل، والذين كانوا يختبرون مهاراتهم في المراقبة.

ولم يكن الشخص الذي يسلّمه إسماعيل الوثائق في اجتماع معدّ سلفاً في مقهى أو بهو فندق دبلوماسياً إسرائيلياً كما كان يتخيل، وإنما ضابط موساد.

بعد أسابيع من قضائه وقت فراغه في الخارج يتجول حول معبد البانثيون في روما، ويزور كنيسة ستسين، ويستكشف شارع أوكسفورد في لندن، صدرت إليه الأوامر بالذهاب إلى بيروت والانضمام إلى منظمة التحرير الفلسطينية.

كان التطوّع سهلاً، فقد دخل ببساطة مكتب تجنيد منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت الغربية. وكان المسؤول عن التجنيد ذكياً ومطّلعاً جيداً على المسائل السياسية. قضى وقتاً يستكشف موقف إسماعيل نحو الحاجة للعنف، وفيما إذا كان صوان مستعداً لتجنب كل العلاقات السابقة - العائلة والأصدقاء - مقابل الاعتماد على منظمة التحرير الفلسطينية للحصول على الدعم العاطفي. أخبره المسؤول بأنه في حال قبوله سيعني ذلك تغييراً كبيراً في حياته: ستكون المنظمة ضمانته الوحيدة ضد العالم العدواني. وبالمقابل، ستنتظر منه المنظمة ولاءً غير محدود.

كان المشرفون عليه من الموساد قد أعدّوا صوان لإعطاء الأجوبة الصحيحة. أرسلته منظمة التحرير الفلسطينية إلى معسكر تدريب في ليبيا، واستمرت في تلقينه ما تريد هناك. زرعت بعشرات الطرق المختلفة فكرة أن إسرائيل تريد تدمير منظمة التحرير الفلسطينية، ولهذا يجب تدميرها أولاً. كان مدربوه يشحنونه بعدوانية قاسية لأي شيء وأي شخص خارج منظمة التحرير الفلسطينية. تذكر صوان الدروس التي تلقّاها في مدرسة تدريب الموساد حول أداء الدور، وقضى ساعات عديدة يستوعب من مدربي الموساد آليات حركة المجموعات الإرهابية (حسب الوصف الإسرائيلي)، وتصرفاتها وتكتيكاتها المحتملة، وفي ليبيا، استمع إلى خطب رنّانة بأن الجريمة ليست سوى وسيلة لتحقيق التحرير؛ وأن تفجير سيارة يمثّل خطوة أخرى نحو الحرية؛ وأن الاختطاف طريقة لتحقيق العدالة. واستمر إسماعيل في استعمال المهارات التي غرسها فيه الموساد، وتقبّل كل تدريبات منظمة التحرير الفلسطينية، ولكنه لم يسمح لها أبداً بأن تؤثر على معتقداته الراسخة، وأظهر أيضاً عزيمة كافية، وسعة حيلة ولياقة جسدية ليتم تعيينه أكثر من مجرد جندي مشاة. وعندما غادر معسكر التدريب، وجد له مكاناً ضمن إدارة عمليات منظمة التحرير الفلسطينية. وارتقى في سلم القيادة شيئاً فشيئاً.

التقى قادة المنظمة بمن فيهم ياسر عرفات؛ وسافر إلى معسكرات تدريب منظمة التحرير الفلسطينية في الشرق الأوسط. ولدى عودته إلى بيروت، تعلّم التعايش مع

غـــارات ســـلاح الجو الإسرائيلي، وتفادي الاختباء تحت الأرض مخافة أن يتعرض المبـــنى للقصـــف وينهار على رأسه. لكنه تدبّر بطريقة ما عدم تفويت أي موعد مع ضـــباط الموســـاد المشرفين عليه، والذين انسلّوا بانتظام إلى لبنان للحصول على آخر المعلومات من صوان.

كـــان يحـــافظ دائماً على الغطاء الذي يعمل بموجبه. وعندما تم قتل علي حسن ســـلامة، قـــاد إســـماعيل الأناشيد ضد الإسرائيليين البغيضين. وفي كل مرة كان أحد قنّاصي منظمة التحرير الفلسطينية يقتل جندي IDF، كان ضمن المحتفلين بذلك. وكان يبدو، في كل ما يقوله ويفعله، مناضلاً ملتزماً بشدة.

فـــي ســـنة 1984، وبعـــد إخراج عرفات من لبنان وإعادة التمركز في تونس، أرســـلت مـــنظمة الـــتحرير الفلسطينية صوان إلى باريس لتعلّم الفرنسية. ورأى نعوم أدمونـــي - الـــذي حلّ مكان هوفي - في انتقال صوان فرصة ذهبية للحصول على عميل داخل نشاطات منظمة التحرير الفلسطينية الناشئة في أوروبا.

أصبحت الأحياء العربية في المنطقتين الثامنة عشرة والعشرين في باريس ملاذاً للإرهابييـــن(*)؛ وكـــان الناس يعيشون في الشوارع الضيقة على حافة القانون، وكان هـــناك مخـــبأ جاهـــز للمســـلحين وصانعي القنابل. من هناك، انطلقت الهجمات على المطـــاعم، والمحال، والكُنس اليهودية. في باريس، تم التوقيع على أول بيان مشترك مـــن قبل منظمات إرهابية مختلفة تتعهد فيه بتوحيد جهودها لمهاجمة أهداف إسرائيلية في كل أنحاء أوروبا.

ردّ الموســـاد علـــى ذلك بقسوته المعروفة، ودخلت فرق كيدون الجيوب العربية وقتلـــت الإرهابييـــن المشتبه بهم في أسرّتهم. وتم ذبح أحدهم من الوريد إلى الوريد، وكســـر رقـــبة آخر مثل الدجاجة. ولكن تلك لم تكن سوى انتصارات صغيرة. وكان الموســـاد يعلـــم بأن الإرهابيين يمتلكون اليد العليا، ويعود ذلك بشكل كبير إلى منظمة التحرير الفلسطينية التي تعرف كيف توجههم. وكانت فكرة زرع أحد رجاله داخل مقر قيادة عمليات المنظمة في باريس مثيرة بالنسبة لأدموني.

فـــي غضـــون أيام من وصوله إلى العاصمة الفرنسية، اتصل صوان بالضابط المســـؤول عنه، والذي يعمل في السفارة الإسرائيلية في 3 شارع ريبليه. وكان يعرفه باســـم آدم فقـــط. واتفقـــا على أماكن لقاء منتظمة في المقاهي ومحطات المترو. كان

(*) وفقاً للوصف الإسرائيلي.

صـــوان عـــادة يحمل نسخة من صحيفة ذلك اليوم التي يكون قد وضع فيها معلوماته. وســيكون مــع آدم نسخة مشابهة تحمل تعليمات لصوان وراتبه الشهري، الذي ارتفع آنــذاك إلى ألف دولار. بأسلوب أتقنه كلاهما في مدرسة تدريب الموساد، كان أحدهما سيصـــطدم بالآخر ويعتذر منه بشدة، وسيذهب كل منهما في طريقه، بعد أن يكونا قد تبادلا الصحف.

باستخدام تلك الطريقة البسيطة، حاول الموساد أن تكون له اليد العليا في المدينة التــي كسبت سمعتها في تقديم الملجأ للمتشددين السياسيين؛ مقابل ترك فرنسا وشأنها. وحــده الموساد اختار خرق ذلك التفاهم بشن عملية مخصصة لتوجيه ضربة لكبرياء فرنســا والتــي لــم تستطع لغاية الآن، وبعد مرور أكثر من عشرين سنة، نسيانها أو غفرانها. بدأ الفصل على بعد ثلاثة آلاف ميل، عند مدخل المتوسط إلى قناة السويس، التي صممّها فيرديناند دو ليسيب، الحالم الفرنسي.

فــي غضـــون لحظـــات قليلة مذهلة من ظهيرة 21 تشرين الأول سنة 1967، اكتشـــفت إســـرائيل أنها غير حصينة ضد الحرب الحديثة. فقد تعرّضت إحدى سفنها، والتـــي كانـــت مدمّرة بريطانية خلال الحرب العالمية الثانية وأعيدت تسميتها إيلات، خلال دورية قبالة الشواطئ المصرية، إلى الإصابة بثلاث صواريخ روسية من طراز ســـتايكس تـــم إطلاقهـــا مـــن بور سعيد. ولقي سبعة وأربعون جندياً إسرائيلياً حتفهم وتعـــرض واحد وأربعون آخرون لإصابات بالغة من ضمن 197 ضابط وبحار كانوا علـــى متـــنها. غرقـــت إيلات. ولم تكن تلك أكبر كارثة بحرية تتعرّض لها إسرائيل وحســـب، وإنمـــا المرة الأولى في تاريخ الحرب البحرية الطويل يتم فيها تدمير سفينة بهجوم بالصواريخ بعيدة المدى.

عندما زالت آثار الفاجعة، أمرت حكومة ليفي أشكول بتبني برنامج سريع لتزويد بحريـــتها بـــنوع جديـــد مـــن الســـفن يحل مكان إيلات القديمة. خلال أسابيع، ابتكر المصـــممون قاربـــاً بحرياً سريعاً، يمتلك قدرة عالية على المناورة، ومزوّداً بمعدّات إلكترونـــية لتوفير ثوانٍ ثمينة للقيام بمناورة ضد أي هجوم صاروخي في المستقبل. تم توقيع اتفاقية لبناء سبعة من تلك القوارب مع حوض سفن في شيربورغ، فرنسا يدعى شـــانتيه دو كونستركســـيون ميكانـــيك دو نورمـــاندي (Chantiers de Construction Mecanique de Normandie) – (CCM).

فيما كانت تجري أعمال البناء، كان العلماء في ديمونا يصنّعون الصواريخ التي ستحملها القوارب، إضافة إلى المعدّات المتطورة التي سيتم تركيبها عليها حالما تصل

إسرائيل.

تقدّمت الأعمال دون مشاكل في شيربورغ حتى تطبيق الرئيس ديغول حظراً كاملاً على مبيعات الأسلحة الفرنسية بعد أن هاجم الكوماندوس الإسرائيلي مطار بيروت في 26 تشرين الأول سنة 1968، ودمّر ثلاث عشرة طائرة لبنانية رابضة على أرضه؛ انتقاماً لهجوم فلسطيني على طائرة العال من طراز بوينغ 707 في مطار أثينا قبل يومين. كان الحظر يعني أنه لن يتم تسليم القوارب إلى إسرائيل.

أنهى رد الفعل الفرنسي تحالفاً امتد لقرن مع إسرائيل. وبدأ ذلك التحالف خلال الثورة الجزائرية، والتي قادت أخيراً إلى استقلال المستعمرة عن فرنسا سنة 1962، والذي تعود جذوره جزئياً إلى العدوان المشترك ضد مصر التي كان يقودها جمال عبد الناصر. كان الموساد، خلال ذلك الوقت، يقدّم معلومات حول منظمة FLN المناهضة لفرنسا، وكانت فرنسا تبيع إسرائيل السلاح وطائرات ميراج المقاتلة.

مع خسارة الجزائر، استعاد ديغول بسرعة علاقات فرنسا التقليدية مع بلدان عربية أخرى، وسمح لمنظمة التحرير الفلسطينية بأن تفتح مكتباً لها في باريس. رأى ديغول الغارة على مطار بيروت على أنها تجاهل علني واضح لمطلبه بأن لا تقوم إسرائيل بما كان الرئيس يدعوه "هجمات انتقامية ضد جيرانها العرب".

كان حظر بيع السلاح الفرنسي يعني أن إسرائيل لن تستطيع الحصول بعد ذلك على كفايتها من طائرات الميراج للهيمنة على أجواء الشرق الأوسط، أو لتكون قادرة على الدفاع عن نفسها بفاعلية من هجمات بحرية. جاء الحظر في وقت كانت فيه إسرائيل تمسك بثمن انتصارها المذهل في حرب الأيام الستة. في تلك الأيام من سنة 1967، أخضعت كلاً من الضفة الغربية، والقدس الشرقية وقطاع غزة لسيطرتها. وجاء مع الأرض حوالى مليون عربي، الأغلبية العظمى منهم مشبعون بالكراهية لغزاتهم.

كانت المشكلة التي تواجه إسرائيل بالنسبة لمير عميت: "لا يمكن المبالغة بها. ويوجد حول حدودنا آلاف "ميهابلم" (mehableim) – كلمة إرهابي بالعبرية – ولديهم دعم من عامّة الشعب العربي الذي سيمنحهم، على الأقل، المساعدة والملجأ: وكانت أولى مهامي توسيع نطاق أهداف الموساد واختراقه لكل المنظمات الفلسطينية".

طلبت رئيسة الوزراء الجديدة غولدا مائير من مير عميت استنباط خطة لإخراج القوارب المبنية بالكامل من فرنسا. ويتذكر ذلك بالقول: "كان الاقتراح الأول بأنه ينبغي علينا الإبحار إلى شيربورغ مع بحّارة مسلحين بما فيه الكفاية، والاستيلاء على

القوارب والعودة إلى إسرائيل. اعترض موشيه دايان، الذي كان حينها وزيراً للدفاع، علـــى ذلـــك بشدة. وأوضح، بشكل صحيح، أن رد الفعل الدولي سيتسبّب بآثار سلبية هائلـــة، وستوصم إسرائيل باللصوصية. يجب أن يكون كل ما نقوم به قانونياً، ويجب أن نأتـــي بفكـــرة مناسبة للإبحار خارج الأراضي الفرنسية. وحالما نصبح في عرض البحر، ستكون المسألة مختلفة".

ســـتكون قانونـــية ما سيحدث لاحقاً في محط اهتمام شاهد العيان. ورغم إصرار دايان على التقيد بالقوانين، إلا أن ما حدث كان ببساطة خداعاً محضاً.

بحلول تشرين الثاني سنة 1969، كان مير عميت قد جهّز أول مرحلة من عملية **ســفينة نوح**. وتم إبلاغ شركة محامين تتخذ من لندن مقراً لها بأن أكبر شركة شحن إســـرائيلية وتدعـــى **فاكهة الساحل** - التي تقدّم خدماتها حول العالم - ستسجل شركة جديـــدة تدعى **قوارب النجمة** تيمناً بنجمة داوود. وكانت ميلا بريتر المساهمة الرئيسية فيها، وهي مديرة فاكهة الساحل. كان المساهمون الآخرون مفوضين عن مير عميت. تـــم الجـــزء الثاني من العملية بسلاسة مماثلة. وطوال شهور، كان الأميرال مردخاي لايمـــون، ضـــابط ارتباط البحرية الإسرائيلية في شيربورغ لصالح مشروع القوارب العســـكرية، يطالب بتعويض من حوض السفن لخرق الاتفاقية؛ وكلما كان الفرنسيون يقتربون من التوصل إلى تسوية، كان لايمون يجد نقطة جديدة يجادل حولها. وفي 10 تشرين الثاني، أبلغ حوض السفن بأن إسرائيل مستعدة مرة أخرى لمناقشة المسألة.

في تل أبيب، اتصلت ميلا بريتر مع أولي مارتن سيم الذي كان أحد أكبر أقطاب الشحن في العالم، والذي وافق على المساهمة في قوارب النجمة لأداء مهمة محددة في شراء القوارب العسكرية.

قـــام لايمـــون، الـــذي كان يتمتع بخفة يد تليق بلاعب ورق، بحركته. وفي 11 تشـــرين الثانـــي، التقى مع مسؤولي حوض السفن، واستمع إلى عرضهم المنقّح حول التعويض، وقال إنه ما زال غير راضٍ. أصاب الذهول المسؤولين؛ فقد كان عرضهم الجديـــد ســـخياً بـــالفعل. وفيما كانوا يتداولون فيما سيفعلونه تالياً، أسرع لايمون إلى باريس، حيث كان في انتظاره هناك أولي سيم. بعد أن التقى الرجلان، اتصل لايمون هاتفـــياً مع مسؤولي حوض السفن ليقول لهم إنه سيوافيهم بردّه "في غضون أيام". في تلـــك الســـاعة، كان سيم يجلس في مكتب الجنرال لويس بونت، المسؤول عن مبيعات الســـلاح في الحكومة الفرنسية. وقال سيم إنه سمع بأن هناك "بعض القوارب الحربية المعروضة للبيع والتي يمكن تحويلها إلى حفّارات نفط".

كان توقيت تدخله رائعاً، واتصل لايمون مع بونت ليقول إنه في باريس ومستعد لقبول عرض أخير بالتعويض. كان الرقم الذي اقترحه مساوياً للعرض الذي قدّمه مسؤولي حوض سفن شيربورغ. وأخبر بونت لايمون بأنه "يقوم بمفاوضات"، وسيتصل به لاحقاً. وتحوّل الجنرال عندها إلى سيم وكشف له عن العرض الذي وافق لايمون عليه، لكنه قال إنه كان مرتفعاً جداً وأن الحكومة لا تستطيع دفعه. وزاد سيم على عرض لايمون 5% مباشرة. اتصل بونت مع لايمون وقال إن عرضه مقبول، وكان يعتقد أنه عقد صفقة جيدة ستخلّص فرنسا من مشكلة شائكة. وستحصل إسرائيل على تعويضها، وستحصل فرنسا على 5% كأرباح صافية.

كان لديه سؤالان فقط لأولي سيم. هل ستذهب القوارب إلى النرويج؟ هل يستطيع سيم ضمان عدم إعادة تصديرها بعد الانتهاء من مهمة التنقيب عن النفط؟ ولم يعطِ سيم ضمانة واضحة لكلتا المسألتين. وافق بونت أنه لتفادي تساؤلات الصحافة حول موقع حقول النفط - مسألة تجارية حساسة في صناعة معروفة بسريتها - سيتم نقل القوارب من شيربورغ بسرية تامة. وتم وضع تاريخ الإبحار ليكون عشية 25 كانون الأول من سنة 1969 عندما تكون شيربورغ تحتفل ببداية فصل الأعياد.

كان لا يزال هناك شهر؛ وأصبح مير عميت قلقاً للغاية لأن هناك وقتاً أكثر مما يلزم لتسوء الأمور. ستكون هناك حاجة لوجود 120 بحاراً إسرائيلياً لقيادة القوارب في رحلتها التي تقطع فيها ثلاثة آلاف ميل من شيربورغ إلى حيفا. كان إرسال ذلك العدد الكبير من الرجال معاً سيلفت بالتأكيد انتباه أجهزة الأمن الفرنسية. كان لدى مير عميت المبدع الجواب مجدداً.

قرّر أن يقوم بحاران في كل مرة بالسفر معاً إلى مدن في كل أرجاء أوروبا قبل الذهاب إلى شيربورغ. وتم توجيه البحارة بعدم النزول في فنادق الميناء سوى في الليلة التي تسبق التحرك إلى إسرائيل. سافروا جميعاً بجوازات سفر إسرائيلية، بحيث إذا تم إلقاء القبض عليهم لا يخضعون للمحاكمة بسبب امتلاك وثائق سفر مزوّرة. ورغم ذلك، كان مير عميت يعرف أن المخاطر عالية: "لا يتطلب الأمر سوى قيام أحد رجال الشرطة الفرنسية بالتساؤل حول قدوم هذا العدد الكبير من اليهود إلى شيربورغ في عيد الميلاد، وقد تنهار العملية بأسرها".

في 23 كانون الأول، كان كل البحارة قد وصلوا إلى شيربورغ. وانتشروا في أنحاء المدينة، واستمعوا إلى الأغاني الدينية المتواصلة؛ وانضم بعض من الذين ولدوا وترعرعوا في القدس إلى الغناء".

في تل أبيب، راقب مير عميت المرتاح مشاكل أخرى تجيء وتذهب. وزار ضابط تمويل العملية كل محل في شيربورغ لحل مسألة توفير إمدادات كافية لثمانية أيام في البحر. كان يرفض بأدب كلما كان أصحاب المحال يضغطون عليه لتناول شراب عيد الميلاد. وتم تهريب ربع مليون ليتر من الوقود إلى القوارب في براميل وإخفائها تحت السطح. كان الطقس الشيء الوحيد الذي لا يمكن التحكم به لأن القوارب كانت ستبحر عبر خليج بيسكي في ظروف قاسية قد تتسبب بإغراقها. يتذكر مير عميت ذلك في تل أبيب: "كنا نصلي للحصول على طقس صافٍ. وأرسلنا عالم أرصاد جوية إلى شيربورغ وراقب كل توقعات الطقس في إنكلترا، وفرنسا، وشيربورغ وإسبانيا".

مرّت الساعات بطيئة وصولاً أخيراً إلى عشية 25 كانون الأول. كانت توقعات الطقس في شيربورغ تشير إلى أمطار عاصفة من الجنوب الغربي. ورغم ذلك، صدر الأمر بالإبحار عند الساعة 8:30 من تلك الليلة. عند الساعة 7:30 مساءً، كانت الطواقم كلها على متن القوارب. ولكن الطقس ازداد سوءاً، وتم وضع توقيت جديد للمغادرة عند الساعة 10:30 مساءً. وحل التوقيت وانقضى، وتم تأجيل العملية مرة أخرى بسبب الطقس. وجاءت رسالة مشفّرة عاجلة من تل أبيب: "أبحروا بغض النظر عن الطقس".

في شيربورغ، تجاهل ضابط البحرية الإسرائيلية الأقدم الضغوط؛ وكانت حياة رجاله بالنسبة له أكثر أهمية في تلك اللحظة. في قارب القيادة، جلس صامتاً يراقب عالم الأرصاد الجوية يدرس بانفعال شديد خرائط الطقس. أعلن الراصد الجوي في منتصف الليل: "ستهدأ الرياح وتغيّر اتجاهها نحو الشمال في غضون ساعتين. لن تكون قوية وستأتي من خلفنا. نستطيع الإبحار".

عند الساعة 2:30 تماماً من صبيحة يوم 25 كانون الأول، بدأت المحركات بالعمل، وتوجهت القوارب ببطء نحو البحر. بعد سبعة أيام، وعشية رأس السنة الميلادية، رست في ميناء حيفا.

كان مير عميت ضمن أولئك الذين استقبلوها على رصيف المرسى. ولم يكن من الممكن أن تكون بداية السنة بالنسبة له أفضل من ذلك. لكنه كان يعرف أن الرئيس شارل ديغول لن يغفر لإسرائيل ما حدث أبداً.

عندما لاحق الموساد إرهابيي الشرق الأوسط في باريس والمدن الأوروبية الأخرى، كانت أجهزة الأمن الفرنسية تراقب الكاستا عن كثب مثل أي إرهابي.

والأســوأ، أن الضباط المناصرين للعرب في SDECE غالباً ما كانوا يخبرون منظمة الــتحرير الفلســطينية بأن الموساد على وشك القيام بهجوم مضاد. وكان الإرهابيون قادرين على الهروب في غالب الأحيان.

كان أسوأ هؤلاء سمعةً المدعو إلش راميريز سانشيز، والذي منحته نشاطاته لقب كــارلوس ابــن آوى. في باريس، كان مضرب المثل عن القاتل المأجور الذي وضع نفســه بخدمـــة إحدى فصائل منظمة التحرير الفلسطينية المتمركزة في سورية. جعلت منه أعماله البطولية شخصية مرموقة في وسائل الإعلام الماركسية التي ازدهرت في أوروبـــا. ووجـــدت النساء مغامراته مثيرة؛ فلقد تجلّى معظمها في قدرته على تفادي المكائد التي وضعها الموساد لقتله. فهو يكون في يوم ما في الريفييرا يستمتع بالشمس مع إحدى الفتيات، ثم يشاهده أحدهم في اليوم التالي في لندن مع مجموعة من إرهابيي الشرق الأوسط، يساعدهم في وضع خططهم ضد المجموعات العربية الأخرى، وضد إســرائيل بالطبع. كان كارلوس يعمل معهم دون تدخل الشرطة وأجهزة الاستخبارات البريطانــية نظــراً للــتفاهم معهم بأنهم لن يسببوا أي أذى للمواطنين البريطانيين. في الوقــت الــذي كان فيه الموساد في موقع يؤهله لقتل كارلوس، كان الأخير يعود إلى القــارة الأوروبية، أو يسافر إلى دمشق، وبغداد والبلاد العربية الأخرى للتشجيع على إحداث المزيد من الضرر.

تم إسناد مهمة تعقّب كارلوس لإسماعيل صوان فترة طويلة ليكون الموساد قادراً علــى اغتــياله خــلال عمله في باريس. كانت مساهمته الكلية في الحرب التي شنّها الموســاد فـــي فرنسا مميزة، وسمحت للكاستا وفرق كيدون بتحقيق انتصارات مذهلة: حــرق مصنع تزوير لمنظمة التحرير الفلسطينية لإنتاج وثائق مزوّرة؛ وتدمير مخابئ أسلحة، واعتراض مراسلين وقتلهم، وتفجير متفجرات يتم تهريبها من أوروبا الشرقية، وعشرات الأمور الأخرى، وكان الموساد يرد على النار بالنار نتيجة المعلومات التي يقدمها صوان.

في كانون الثاني سنة 1984، تلقّى صوان تعليمات من آدم، ضابط الموساد الذي يشــرف علــيه، بأن عليه السفر إلى إنكلترا، وتقديم نفسه هناك على أنه طالب خريج يحضّــر لدرجــته العلمية في العلوم. وستكون مهمته الجديدة اختراق منظمة التحرير الفلسطينية في لندن، واكتشاف كل ما يمكنه حول نشاطات وحدتها الخاصة، القوة 17. كــان يقود تلك القوة آنذاك عبد الرشيد مصطفى الذي كان يستخدم بريطانيا قاعدة له. كان مصطفى على قائمة الاغتيالات الخاصة بالموساد.

أخبر إسماعيل صوان مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في باريس بأنه أنهى دراسته للغة الفرنسية - زوّده سايان فرنسي بشهادة مزورة لتأكيد ذلك في حال طُلب منه تقديم إثبات، رغم أن أحداً لم يفعل ذلك - وأنه يرغب بالذهاب إلى إنكلترا سعياً للحصول على درجة علمية في العلوم. واستطاع تمرير ملاحظة أن ذلك التأهيل سيجعله "مفيداً أكثر في مجال صنع القنابل".

كان احتمال إضافة صانع قنابل آخر يمتلك مثل تلك المهارات إلى فريق منظمة التحرير الفلسطينية موضع ترحيب دائم، وهو ما كانت المنظمة تحتاجه بشدة سنة 1984. كانت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بحاجة لإعلام الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة بأنهم ليسوا منسيين أبداً. كان عشرات الآلاف يعانون من مصاعب متزايدة تحت الاحتلال الإسرائيلي، ولم يكونوا يستطيعون معرفة السبب الذي يدفع بياسر عرفات إلى عدم تقديم المزيد من المساعدة لهم بطريقة سياسية: كانت النظرية شيء، والفعل شيء آخر.

كان الموساد يعرف أن عرفات يخضع لضغط متزايد لدعم مفاوضات السلام التي بدأها الرئيس المصري حسني مبارك تجاه إسرائيل. وفي سورية، قرّر النظام المحنّك التخفيف من علاقته مع مختلف الفصائل الفلسطينية، واحتجز المئات من مقاتليها. وأراد الرئيس الأسد أن يُظهر للأميركيين بأنه ليس مثير المشاكل كما يعتقد العالم.

زاد ذلك من شعور أفراد وضباط صف منظمة التحرير الفلسطينية في معسكرات تدريبهم أن العالم العربي يتخلّى عنهم، وأن الصرخات تتعالى من مكان إلى آخر لتركهم يدافعون عن أنفسهم. كان هناك كلام بغيض حول خيانة قياداتهم لهم. استمر الإسرائيليون في استغلال ذلك، وأعلنوا عبر الأراضي المحتلة بأن منظمة التحرير الفلسطينية تمتلك موجودات ثابتة بقيمة 5 مليارات دولار أميركي موزّعة في كل أنحاء العالم. وأصبح عرفات أيضاً ضحية حملة تشويه سمعة منفصلة، والتي ابتكرها خبراء الموساد في الحرب النفسية، وتدّعي بأنه استخدم جزءاً من الأموال لإرضاء نزواته نحو الصبية الصغار. انتشرت الشائعة في معسكرات اللاجئين، ورغم أنها لم تلقَ تصديقاً واسعاً، إلا أنه كان لها بعض التأثير. وأصدر عرفات، في حركة عنيفة، أوامره لمكاتب منظمة التحرير الفلسطينية السبعة عشر بتسريب قصة مفادها أن لديه شهوة طبيعية للنساء؛ وهو ما كان صحيحاً.

بالنسبة لمدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في باريس، كانت فكرة صوان

باستخدام درجته العلمية المأمولة ليتحول إلى صانع قنابل موضع ترحيب فعلاً، وكانت سبباً كافياً لتقديم أجرة السفر بالقطار إلى إنكلترا وتكاليف الإقامة لمدة أسبوع له. أعطى آدم أيضاً صوان خمسمئة جنيه إسترليني، وأخبره بوجوب إيجاد عمل لتغطية تكاليف دراسته في بريطانيا وتفادي أي شبهة.

وصل إسماعيل إلى لندن في يوم عاصف من شباط سنة 1984، وكان يستخدم جواز سفر أردني زوّده به الموساد. كان لديه جواز سفر كندي ثانٍ مخفي في قعر سري في حقيبته، وتلقّى تعليمات باستخدامه فقط إذا كان عليه مغادرة بريطانيا على عجل. كان مخفياً مع جواز السفر تقرير الموساد حول عبد الرشيد مصطفى والقوة 17 التي يقودها.

تم إنشاء تلك القوة لتعمل أصلاً على تقديم الحماية الشخصية لياسر عرفات. جاء اسمها من رقم عرفات الداخلي في مقر قيادة منظمة التحرير الفلسطينية القديم في بيروت. في إحدى المراحل في لبنان، نمت القوة 17 إلى جيش صغير يضم ما يزيد عن الألف مقاتل؛ وكانت إحدى وحداتها مجموعة **أيلول الأسود** الذائعة الصيت التي نفّذت مذبحة الرياضيين الإسرائيليين في الألعاب الأولمبية في ميونيخ. وقبل وقت قصير من إجبار منظمة التحرير الفلسطينية على مغادرة لبنان، وإعادة التمركز في تونس، لقي قائد القوة 17 الأول علي حسن سلامة حتفه بانفجار سيارة مفخخة أعدّها رافي إيتان. في تونس، واجه عرفات حقائق مرّة. ولم يكن مطارداً من قبل الموساد وحسب، وإنما أصبح مهدداً بشكل متزايد من قبل المتشددين العرب الآخرين. قال أبو نضال، الذي ادّعى أنه الصوت الأصلي للنضال المسلح، بأن النصر لن يتحقق ما لم يتم التخلص من عرفات. كان رد فعل عرفات بإعادة هيكلة القوة 17 إلى وحدة شديدة التماسك بهدف مزدوج: الاستمرار في حمايته، وشن هجمات منسقة ضد أعدائها، وبداية مع إسرائيل. عيّن مصطفى كقائد للقوة 17. في تونس، كان رجاله يتلقون التدريبات على أيدي كل من القوات الخاصة الصينية والروسية المتمرسة بحرب العصابات. في سنة 1983، بدأ مصطفى بالسفر إلى بريطانيا لتجنيد المرتزقة.

كانت لندن مليئة برجال SAS ومحاربي الجيش النظامي السابقين الذين خدموا في أيرلندا الشمالية وكانوا يبحثون عن فرصة جديدة لإبراز مهاراتهم القتالية. كانت رواتب مدرّبي منظمة التحرير الفلسطينية جيدة، ولدى العديد من المرتزقة موقف قوي معادٍ للسامية. وقع عدد منهم عقوداً مع مصطفى وسافروا إلى تونس للعمل في معسكرات تدريب منظمة التحرير الفلسطينية. وجيء بمدربين آخرين من صفوف

الفـيالق الأجنبـية السابقة في الجيش الفرنسي، كان هناك، في إحدى المراحل، ضابط ســابق فــي CIA هو فرانك تيربل الذي سيتورط لاحقاً مع محمد علي آغا المتعصب الذي أطلق النار على البابا يوحنا بولس الثاني.

تســلل مصــطفى، طوال سنة كاملة من وإلى بريطانيا دون أن يعرف M15 أو الفــرع الخــاص حقيقة هويته. عندما أخبرهم الموساد، كان الإجراء الوحيد الذي تم اتخــاذه هــو قيام أحد ضباط M15 بتذكير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في لندن بــأنهم سيقومون بإغلاقه وطرد موظفيه عند أول دليل على تورطهم في نشاط إرهابي ضد بريطانيا. لكنهم يستطيعون الاستمرار بالاحتجاج ضد إسرائيل.

تــم إلقــاء ضوء جانبي على الحرب الدعائية عندما تلقّى بسام أبو شريف، الذي كــان حيــنها رئيس الدائرة الإعلامية لعرفات، دعوة لزيارة الروائي جيفري آرشر. يــتذكّر رجل منظمة التحرير الفلسطينية أن آرشر شرح "كيفية تطوير وإدارة علاقتنا الإعلامــية، وتنظــيم نشــاطنا السياســي، وإنشاء علاقات مع السياسيين البريطانيين والاســتفادة مــن الرأي العام. وكنت متأثراً للغاية". تكفّل ذلك الاجتماع بأن يجد اسم آرشر طريقه إلى حواسب الموساد.

بالنســبة للإســرائيليين الغاضبين، كان يبدو أن مصطفى يتمتع بحماية السلطات البريطانــية، وأن أي محاولــة للتعامل معه في بريطانيا قد يكون لها آثار سلبية على الموساد.

كانــت مهمة إسماعيل صوان أن يحاول استدراج مصطفى إلى فخ خارج البلد، ويفضل أن يكون ذلك في الشرق الأوسط، حيث يستطيع كيدون الموساد اغتياله. تلقّى صــوان تعلــيمات من آدم في باريس بأنه سيعمل بتوجيهات من رجال الموساد الذين يــتخذون مــن السفارة الإسرائيلية في لندن مقراً لهم. كان أولهم آري رجب، والآخر يعقوب براد، الذي يتولّى الإشراف على نشاطات إسرائيل التجارية. كان بشار سمارا الكاســتا الثالث الذي يعيش في لندن، ولا يعمل تحت غطاء دبلوماسي، والذي سيكون على علاقة مباشرة مع صوان. طلب سمارا من سايان يعمل في إحدى وكالات تأجير المباني استئجار شقة لصوان في مقاطعة "ميدا فيل" في المدينة.

بعــد أيــام مــن وصوله إلى لندن، أقام صوان أول اتصال له مع سمارا. التقى الاثنان تحت تمثال إيروس في ميدان البيكادلي. وكان كل منهما يحمل نسخة من ديلي مــيرور، التــي اشــتراها روبرت مكسويل حديثاً. باستخدام تقنية تبادل الصحف التي أثبتــت نجاعتها في باريس، حصل صوان على ستمئة جنيه إسترليني كأول راتب له،

بالإضــافة إلـــى تعلـيمات حـــول كيفية إيجاد عمل مكتبي في مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في لندن.

كـــان مطلوباً من معظم العاملين في ذلك المكتب أن يشتركوا في الأحداث، مثل نقــل رســـائل إلى عدّة خلايا منظمة التحرير الفلسطينية في أوروبا، والسفر إلى مقر قــيادة المنظمة في تونس لإيصال معلومات بالغة الأهمية، والانتظار بعد ذلك ساعات للحصـــول على فرصة إلقاء نظرة خاطفة على عرفات. لم يكن هؤلاء الثوار اليافعون الملــتزمون مهتمّيــن بـــالعمل المكتبـــي، مثل المحاسبة أو الأرشفة، وقراءة الصحف والرد على الهواتف. وعندما تطوّع صوان للقيام بهذا العمل، تم تعيينه فوراً في مكتب لندن.

التقى صوان بمصطفى في غضون بضعة أيام، وسرعان ما نشأت بينهما علاقة أثناء تناول أكواب صغيرة من الشاي بالنعناع. كانا من خلفية مشتركة عاشا فيها أثناء القصف الإسرائيلي لبيروت. وسارا في نفس الشوارع ينظران ويفكران بسرعة، ومرّا أمام نفس المباني المدمّرة المليئة بالكثير من الثقوب التي تبدو مثل الشعرية. وناما في ســرير مخــتلف في كل ليلة، وانتظرا بزوغ الفجر حتى ينادي المؤذن عبر مكبّرات الصـــوت العالـــية المؤمنين إلى الصلاة. كان كل منهما قد أخذ دوره على نقاط تفتيش منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت، ولوّحا لسيارات الإسعاف الفلسطينية التي سمحا لهـــا بالمـــرور، وأوقفا كل شخص آخر، وكانا يهرعان إلى الملاجئ فقط عندما يملأ أزيـــر الطائرات الإسرائيلية آذانهما. وضحكا عندما تذكّرا المقولة القديمة في بيروت: "إذا ســمعت صـــوت الانفجار، تكون ما تزال على قيد الحياة". كان هناك الكثير من الذكـــريات؛ وصرخات الموتى والذين يحتضرون، ونحيب النساء، ونظرات الكراهية اليائسة التي كن يرفعنها نحو السماء.

أمضـــى صوان ومصطفى يوماً بكامله في تذكر ماضيهما. أخيراً، سأل مصطفى عمّا يفعله صوان في لندن. أجاب إسماعيل بأن ذلك للاستزادة من العلم وخدمة منظمة الـــتحرير الفلســـطينية بشـــكل أفضـــل. وسأل صوان بالمقابل عن السبب الذي جاء بمصطفى إلى إنكلترا.

أثـــار السؤال جملة من الاكتشافات، ووصف مصطفى مهام القوة 17: كيف كان أفرادها على وشك اختطاف طائرة إسرائيلية مليئة بالسياح الألمان عندما ألغى عرفات المهمـــة خوفاً من فقدان الرأي العام الألماني. لكن مصطفى نقل الحرب ضد إسرائيل إلـــى قـــبرص وإسبانيا. كان إسماعيل يعرف أن كل ما يكشفه زميله سيجعل الموساد

أكثر تصميماً على قتله.

اتفقا على اللقاء بعد بضعة أيام في ركن الخطابة في هايد بارك، وهو المكان التقليدي في لندن للتعبير عن كل أنواع الآراء بحرية. اتصل إسماعيل صوان بالرقم الخاص الذي يتوجب عليه طلبه في حال كان لديه أنباء عاجلة. أجاب بشار سمارا. اتفقا على اللقاء في شارع ريجنت. وفيما كانا يمشيان بين موظفي المكاتب أثناء استراحة الغداء، تكلم صوان عما أخبره إياه مصطفى. وقال سمارا إنه سيكون في ركن الخطابة لتصوير مصطفى ثم تعقّبه أينما يذهب.

لم يأتِ مصطفى إلى الموعد. ومضت أيام قبل أن يراه صوان مجدداً. خلال ذلك الوقت، تم قبول طلب انتساب إسماعيل إلى كلية قرب باث، وهي منتجع للمياه المعدنية. كان يسافر مرتين أسبوعياً إلى لندن لزيارة مكتب منظمة التحرير الفلسطينية للقيام بأعماله المكتبية. كان مصطفى موجوداً هناك خلال إحدى الزيارات.

تحدّث الرجلان مرة أخرى وهما يحتسيان عدداً لا يُحصى من أكواب الشاي بالنعناع. أخرج مصطفى من حقيبته كتاباً مصوراً يسجل تاريخ القوة 17. وتفاخر بأن ما يزيد عن مئة ألف نسخة سيتم توزيعها على الفلسطينيين. شاهد إسماعيل، فيما كان يتصفح الكتاب، صورة لمصطفى مأخوذة في لبنان. في نشوة الافتخار، وقّع مصطفى الصورة وقدّم الكتاب إلى إسماعيل، واتفقا على اللقاء مرة أخرى، ولكن مصطفى لم يظهر أيضاً.

أثناء ذلك، سلّم مصطفى الكتاب إلى سمارا فيما أصبح مكان لقاء منتظم في محطة السكك الحديدية في باث. كان الكاستا يسافر على متن أحد القطارات ويعود إلى لندن على متن آخر، ويحمل معه كل ما يعرفه صوان في مكتب منظمة التحرير الفلسطينية ويسلّمه راتبه الشهري البالغ ستمئة جنيه إسترليني.

استمرت علاقتهما على تلك الحالة حوالى السنة. التقى صوان في تلك الفترة بفتاة إنكليزية تدعى كارمل غرينسميث، والتي وافقت على الزواج منه. لكن في أمسية الاحتفال، لم يكن صوان قد اختار شاهد على عقد زواجه بعد.

عندما قام بزيارة أخرى إلى مكتب منظمة التحرير الفلسطينية، التقى مجدداً مع مصطفى الذي لم يشرح، كما هي العادة، أين كان. كان مع مصطفى حزمة من أوراق صحيفة القدس العربية التي تصدر في لندن. كانت كل صفحة تحتوي على رسم كاريكاتوري لاذع يسخر من ياسر عرفات. كانت الصحيفة تتلقى الدعم المالي من العائلة الكويتية الحاكمة.

كانت الرسوم الكاريكاتيرية من أعمال الفنان العربي الشهير عالمياً ناجي العلي. كان قد أطلق من مقره في لندن حملة رجل - واحد ضد عرفات، وصوّر قائد منظمة التحرير الفلسطينية كمرتشٍ، لا يخدم إلا نفسه وسياسي أحمق. وحولت الرسوم الكاريكاتيرية القدس إلى صوت المعارضة ضد عرفات. رمى مصطفى بالأوراق الممزقة على الطاولة وقال إن العلي يستحق الموت وأن مموليه الكويتيين يجب أن يتلقوا درساً قاسياً.

ابتسم صوان دون تعليق، وكان الموساد يرحّب بكل ما من شأنه تقويض موقف عرفات. استطاع أيضاً الوصول إلى حل يخصه شخصياً وذلك بإيجاد شاهد على عقد زواجه. ووافق مصطفى مباشرة على القيام بذلك الدور. عانقا بعضهما البعض على الطريقة العربية. وربما تكون تلك اللحظة التي تمنّى فيها إسماعيل صوان تخليص نفسه من براثن الموساد.

في تل أبيب، بدأ نعوم أدموني يتساءل عن المدة التي ستنقضي قبل أن يكتشف M15 الحقيقة حول جوازات السفر البريطانية المزورة الثمانية التي تم إيجادها في كبينة الهاتف في ألمانيا في تموز سنة 1986. كان شمعون بيريس، الذي لم يكن أحد المعجبين بالموساد، يقضي الشهور الأخيرة في حكومته الائتلافية، ويطرح أسئلة محددة. كان رئيس الوزراء يقول إن تلك الكارثة ستقوّض علاقة إسرائيل مع حكومة تاتشر؛ وأنه من الأفضل مواجهة المسألة بما يتوافق مع رأي بيريس المعروف جيداً: "كلما أسرعنا بالاعتراف، كلما كان الإصلاح أسرع".

عارض أدموني الفكرة، لأنها قد تقود إلى قيام M15 والفرع الخاص بفتح تحقيق بكل ما يفعله الموساد في بريطانيا، وقد ينتج عن ذلك طرد إسماعيل صوان؛ والذي أثبت أنه منجم للمعلومات المفيدة. إضافة إلى ذلك، كان الاعتراف بالحقيقة حول جوازات السفر يعني كشف جزء من فشل الموساد.

كانت جوازات السفر معدّة للسفارة الإسرائيلية في بون. وتم إسناد مهمة إيصالها من تل أبيب إلى بودل جديد على هذه المهنة لم يكن قد زار بون من قبل أبداً. تجوّل ذلك الشخص في المدينة لبعض الوقت، ولم يرغب بأن يسأل عن المكان الذي يقصده خوفاً من لفت الانتباه إلى نفسه. وأخيراً، استخدم الهاتف المأجور ليتصل بالسفارة. ووبّخه أحد المسؤولين فيها على تأخره. وسواء بسبب خوفه أو لا مبالاته المطلقة، ترك البودل حقيبة المراسل في كابينة الهاتف. أدرك خطأه بعد أن وصل إلى السفارة، ولكنه لم يستطع، بسبب خوفه الشديد، أن يتذكر بالضبط الموقع الذي أجرى منه

المكالمـــة فـــي الشارع. أخيراً وُجد بصحبة رئيس جهاز أمن السفارة الغاضب، كابينة الهـــاتف، ولكـــن الحقيبة كانت قد اختفت. تم إرسال البودل إلى صحراء النقب، ولكن مشـــكلة جـــوازات السفر استمرت في إزعاج أدموني. أثارت وزارة الخارجية، عبر السفير البريطاني في تل أبيب، المسألة مع الحكومة الإسرائيلية.

كان أحد الجوازات معداً للاستخدام من قبل صوان مما سيمكّنه من السفر بسهولة أكـــبر بين لندن وتل أبيب؛ وكان جواز السفر البريطاني يعني أنه لن يتعرض للتفتيش من قبل أفراد الهجرة في هيثرو كما يحصل مع حامل جواز السفر الكندي.

فـــي الوقـــت الـــذي كان فيه صوان في لندن، قام برحلات منتظمة إلى إسرائيل لـــزيارة عائلته؛ وكان ذلك جزءاً من غطاء عمله. كان ما يزال بالنسبة لهم الناشط في مـــنظمة الـــتحرير الفلســـطينية. ولعب دوره بشكل مقنع جداً لدرجة أن شقيقه الأكبر إبراهـــيم حـــذّره أخيراً بأن الإسرائيليين سيعتقلونه. واقترح مازحاً أن يقوم إسماعيل بـــتقديم عرض للعمل مع المنظمة مباشرة. تظاهر إسماعيل بالخوف من الفكرة، وعاد إلى لندن للاستمرار في عمله.

ســـرعان ما بدأت الأمور تأخذ منحى غير متوقع. ودفعت زوجة صوان الجديدة زوجهـــا لقبول وظيفة كباحث في كلية هامبرسايد في هل. وكان ذلك يعني بالنسبة لها أمـــوالاً أكـــثر مما يتقاضاه من عمله المكتبي مع منظمة التحرير الفلسطينية. لم تكن زوجـــته تعلم شيئاً عن علاقة زوجها بالموساد، أو الستمئة جنيه إسترليني التي يدفعها الجهـــاز له كل شهر. كان الانتقال إلى هل بالنسبة لإسماعيل يمثّل فرصة للهروب من المطالب المتزايدة باستمرار لمشرفيه في الموساد.

مـــثل الكثير من المخبرين الذين يتقاضون رواتب من الموساد، أصبح إسماعيل صـــوان خائفـــاً للغاية من المخاطر التي تواجهه. تحول مصطفى، بعدما أصبح شاهداً علـــى عقـــد زواجه، إلى صديق لـــه. كان يمرّ باستمرار لزيارة إسماعيل وزوجته، ويحضر لهما الهدايا من الشرق الأوسط. على العشاء، كان مصطفى يخبرهما قصصاً حـــول كيفـــية تعامله مع آخر أعداء منظمة التحرير الفلسطينية. وعبر الشهور، تفاخر بأنـــه قـــتل عدّة "خائنين للقضية". كان صوان يجلس متسمراً، ويأمل كما قال: "أن لا تخفـــق دقات قلبي بصوت عالٍ كثيراً"، وأصبح خائفاً بنفس القدر بعد لقائه مع سمارا؛ كـــان الكاستا يطلب منه الدخول إلى حاسب مكتب منظمة التحرير الفلسطينية وتصوير وثائق حساسة، وكان عليه أيضاً أن يحاول الترتيب للذهاب في *عطلة* مع مصطفى إلى قبرص، حيث سيكون بانتظاره فريق كيدون.

كــان صوان قد تدبّر لغاية ذلك الوقت اختلاق الأعذار - لم يكن قادراً أبداً على التواجد لوحده في غرفة الحاسب، أو أن ضغط دراسته يعني أنه لا يستطيع الذهاب في عطــلات - ولكــنه شعر بتهديد متصاعد خلف طلبات سمارا. في هل، كان يأمل بأن يخفــف علاقته مع كل من مصطفى وسمارا، وأن تكون له حياته الجامعية الخالية من أي ضغوطات أخرى. ولكن الموساد كانت لديه خطط مختلفة تماماً له.

يــوم الجمعة الموافق في 13 آذار سنة 1987، امتلأ مقر قيادة الموساد في جادة الملــك ســول بشــائعة تقول إن أدموني يتوقع زائراً مهماً. وقبل الظهيرة بقليل، كان ضــابط ارتــباط M16 يدخــل إلى مكتب المدير العام في الطابق التاسع، ويعقد معه اجــتماعاً قصــيراً، وأخبر الضابط البريطاني أدموني بأن M16 مقتنعة بأن جوازات الســفر التــي تم إيجادها في ألمانيا كانت من عمل الموساد. ويتذكر أحد ضباط الفرع الخاص الذين كانوا مشتركين في العملية في حزيران سنة 1997 كيف أن "الرجل من M16 دخــل وقال ببساطة: "صباح الخير"، وطلب فنجاناً من الشاي أو القهوة، وشرح الأمــر بالتفصــيل. ثم هزّ برأسه وخرج ثانية. وربما لم يستغرق الأمر منه أكثر من دقيقة واحدة لإيصال الرسالة".

فــي لــندن، استدعت وزارة الخارجية السفير الإسرائيلي وقدّمت لــه احتجاجاً شــديد اللهجــة مصحوباً بطلب أن لا تتكرّر مثل تلك التصرفات مجدداً. وكان مبعث الراحة الوحيد لأدموني أن أحداً لم يذكر إسماعيل صوان.

فــي بدايــة أمســية 22 تموز سنة 1987، جلس إسماعيل صوان يشاهد أخبار المساء من BBC في شقته في هل. لم يكن قد سمع شيئاً من الموساد منذ نيسان، عندما ســافر بشــار سمارا إلى هل لعقد اجتماع معه في محطة السكك الحديدية في المدينة، وطلب منه إيقاف نشاطه حتى إشعار آخر؛ ما لم يتصل به مصطفى.

مــلأ وجــه الرجل الذي قال مصطفى إنه يستحق الموت الشاشة: ناجي العلي، رسام الكاريكاتير، الذي تم إطلاق النار عليه عندما كان يغادر مكاتب القدس في لندن. أطلــق المســلح الــنار علــيه مرة واحدة واختفى. دخلت الرصاصة عبر خد الرسام وانغرست في دماغه. كان رد فعل صوان الأول بأن المهاجم ليس من الموساد أو القوة 17. كان كلا الجهازين يستخدم نفس الطريقة المحترفة في القتل: عدّة رصاصات في الــرأس والجزء الأعلى من الجسم. وكان ذلك يبدو عمل هواة. قال التقرير التلفزيوني إن الشــرطة تقوم بمطاردة ضخمة، وأن زملاء الرسّام يعتقدون أن الهجوم كان بسبب "الأعداء الأقوياء" المجهولين لناجي.

تذكّر صوان محادثة سابقة مع مصطفى، وأصبح متأكداً بأن ياسر عرفات أمر بإطلاق النار. تساءل فجأة فيما إذا كان الشخص الوحيد الذي استودعه مصطفى على السر بضرورة موت رسام الكاريكاتير. قرّر صوان أن من الأفضل له ولزوجته السفر إلى تل أبيب. ولكن فيما كانا يحزمان حقائبهما، كان هناك طرق على الباب الأمامي. ويتذكّر صوان:

"كان مع الرجل حقيبتان. وقال إن مصطفى بحاجة لإخفائهما بشكل عاجل. وعندما قلت إنني أريد معرفة ما بداخلهما، ابتسم وأخبرني أن لا أقلق. وكان كل ما قاله: (من لا يطرح أسئلة، لا يقول الأكاذيب). وعندما ذهب، نظرت داخل الحقيبتين. كانتا مليئتين بالأسلحة والمتفجرات: ما يكفي من السيمتكس لتفجير برج لندن؛ وبنادق كلاشينكوف، ومسدسات وصواعق".

اتصل إسماعيل برقم الموساد الخاص في لندن، ولم يجب أحد. واتصل بعدها بالسفارة الإسرائيلية، التي أخبره أحد موظفيها أن آري رجب ويعقوب براد ليسا موجودين. طلب التحدّث إلى بشار سمارا، وطلب منه الصوت على الطرف الآخر من الهاتف الانتظار. جاء صوت جديد على الخط. وعندما أعطى إسماعيل اسمه، قال الصوت: "هذا وقت جيد لقضاء عطلة في الشمس". كانت الكلمات بمثابة الإشارة ليسافر صوان إلى تل أبيب.

التقى هناك في فندق شيراتون يعقوب براد وبشار سمارا. وشرح ما فعله بعد اكتشاف محتويات الحقيبتين. وطلبا منه الانتظار فيما يقدّمان تقريراً إلى قادتهما. عاد سمارا في وقت متأخر من تلك الليلة وأخبر صوان بأن عليه السفر إلى لندن على متن الطائرة التالية. وعندما يصل سيجد أن كل شيء كما يريد.

لم يشك صوان بما ينتظره وسافر إلى لندن يوم 4 آب سنة 1987. اعتقله ضباط الفرع الخاص المسلحون في هيثرو، واتهم بقتل ناجي العلي. وعندما احتج بأنه عميل للموساد، ضحك الضباط عليه. أصبح صوان مستهلكاً مثل رسام الكاريكاتير الذي مات بعد أسبوعين من صراعه مع الموت في المستشفى. كان صوان ضحية لمحاولة استعادة تعاطف حكومة تاتشر. كان وجود مخبأ الأسلحة في شقة صوان سيدمّر أي جهود يقوم بها للادعاء بأنه عميل للموساد، والتي وضعها أحد سايان الموساد هناك.

في لندن، سلم آري رجب كل الأدلّة التي *جمعها* الموساد حول *تورط صوان* بالإرهاب إلى M15، والذي سلّمها بدوره إلى سكوتلنديارد، وكان الملف مليئاً بتفاصيل حول تعقّب الموساد لصوان عبر الشرق الأوسط، وأوروبا وبريطانيا، وأنه لم يكن

قــادراً أبــداً على إمساك دليل ملموس عليه لغاية ذلك الوقت. في الوقت الذي تم فيه اكتشاف مخبأ الأسلحة، قرّر الموساد *بدافع الأمن المشترك* الإبلاغ عن صوان.

كان قرار القيام بذلك تذكيراً قوياً بقانون الموساد غير المكتوب حول انتهاء دور العميل. كان الجهاز قد استثمر مقداراً كبيراً من الوقت والمال في تدريب ودعم صوان فــي المــيدان، ولكــن عندما حان الوقت، لم يكن لكل ذلك معنى عند مقارنته بحاجة الموســاد الكــبرى لحمايــة الكاستا في بريطانيا. كان صوان الضحية التي تم تقديمها للبريطانيــن علــى أنها مثال عن الإرهاب الذي لطالما حذّر الموساد منه. كان هناك خســارة بالطبع: قام صوان بعمل جيد للغاية؛ حتى إذا فشل في تنفيذ كل ما طُلب منه. ولكــن مخبأ الأسلحة كان فرصة لا يمكن تعويضها. وكان ذلك سيدمّر علاقة منظمة الــتحرير الفلسطينية مع حكومة تاتشر ويسمح لإسرائيل بتقديم ياسر عرفات كإرهابي مــنافق كما يراه الموساد. وسيكون هناك دائماً إسماعيل صوان آخر مستعد للخضوع لإغراءات رجال في إسرائيل لا يلتزمون بوعودهم.

استراح الموساد لأسبوع كامل، مقتنعاً بأن المحققين البريطانيين سيهزأون بكل ما يقوله لهم صوان. ولكن أدموني لم يكن مرتاحاً لمحاولات صوان اليائسة للخروج من الســجن، وأعطى صوان محققي الفرع الخاص وصفاً تفصيلياً للمشرفين عليه إضافة إلــى كــل مــا علّمه إياه الموساد. أدركت الشرطة تدريجياً أن صوان قد يكون يقول الحقيقة. تم استدعاء ضابط ارتباط M16 في تل أبيب، والذي استجوب صوان. كان كل مــا قالــه حــول مقر قيادة الموساد وأساليبه تتناسب مع ما يعرفه الضابط. وبدأ دور الموساد ينكشف.

تــم طــرد كــل مــن رجب، وبراد، وسمارا من بريطانيا. وأصدرت السفارة الإســرائيلية فــي لندن بيان تحدي: "تأسف بأن ترى حكومة جلالتها بأنه من المناسب اتخــاذ إجراءات من ذلك النوع. ولم تقم إسرائيل بأي عمل ضد المصالح البريطانية. كان الصراع ضد الإرهاب دافعها الأول والوحيد".

لــم تــنقذ الحقيقة إسماعيل صوان. وفي حزيران سنة 1988، صدر بحقه حكم بالسجن إحدى عشرة سنة لحيازته أسلحة نارية لصالح منظمة إرهابية.

وبعد ثلاث سنوات من طرد الكاستا الثلاثة، والذي أغلق فعلياً محطة الموساد في بريطانيا، عاد الجهاز للعمل. وفي سنة 1998، نسّق خمسة كاستا يعملون في السفارة الإســرائيلية في كينسنغتون مع M15 والفرع الخاص في استهداف فصائل إيرانية في بريطانيا.

فـــي كانون الأول سنة 1994، تم إطلاق سراح إسماعيل صوان من سجن فول ســـوتون، واستعاد جواز سفره الأردني وغادر على متن طائرة إلى عمّان. كانت آخر مرة رآه أحد فيها عندما خرج من المطار يحمل الحقيبة التي حصل عليها من الموساد عندما سافر إلى لندن، ولكن بعد إزالة قاعدتها المزيفة.

كـــان يجلس في مقعده في مملكة الصحراء يراقب العاصفة التي بدأت تتجمع في الخلـــيج العربي، والتي سبقها تغيير في قيادة الموساد. انتهت ثماني سنوات من إدارة نعـــوم أدمونـــي أخيراً عشية رأس السنة العبرية "روش هاشانا". وتولّى منصبه شابتي شافيت، الذي ورث سلسلة من الإخفاقات: مسألة بولارد، وإيران - غيت، وبالطبع تلك الجوازات البريطانية المزوّرة التي تم إيجادها في كابينة هاتف في فرانكفورت، والتي أعلنـــت نهايـــة حياة أدموني المهنية. ولكن بالنسبة لخلفه، كانت العاصفة الرملية تهب بعيداً جداً عن الأردن. وقرّر صدام حسين أخيراً بأن الوقت قد حان للتحكم بالعالم.

الفصل السادس عشر

جواسيس في الرمال

في 2 كانون الأول سنة 1990، إلى الجنوب من بغداد، استلقى شخص يرتدي ملابس البدو التي يعلوها الغبار دون حراك أسفل أحد الوديان. كان الوقت فجراً والرمال ببرودة الثلج؛ بعد أن انخفضت الحرارة خلال الليل إلى ما دون درجة الصفر المئوية. كان رأس الرجل مغطّى بقبعة من صوف الغنم والتي لطالما ميّزت أفراد قبيلة السارامي، وهي أقدم المجموعات الإسلامية الصوفية التي تطوف الصحراء العراقية الشاسعة، والتي كان تعصّبها موازياً للشرف الذي لا تضاهيه أي قبيلة أخرى. لكن ولاء الرجل كان على بعد ستمئة ميل إلى الغرب، وتحديداً لإسرائيل فقد كان كاستا.

جاءت ثيابه من مخازن الموساد التي يحتفظ فيها بملابس من كل أنحاء العالم ويتم تحديثها بانتظام. كان معظمها يأتي عن طريق السيانيم الذين يقومون بتسليمها إلى السفارات الإسرائيلية المحلية، والتي تقوم بدورها بإرسالها إلى تل أبيب في حقائب دبلوماسية. ويتم إحضار ملابس أخرى من بلدان عربية معادية من قبل زوّار مناصرين لإسرائيل. كانت السيدة المشرفة على مخازن الملابس تصنع بعضاً منها. وعبر السنين، اكتسبت مع فريقها الصغير من الخياطات سمعة طيبة لاهتمامهن بالتفاصيل وحتى استخدام الخيوط الصحيحة لإجراء التعديلات على الملابس.

جاء اسم الكاستا المستعار - شالوم - من قائمة محفوظة في ملف خاص في قسم العمليات؛ وكان رافي إيتان قد اقترح وضع القائمة بعد عملية إيتشمان. وكان شالوم فايس واحداً من أفضل مزوّري الموساد قبل أن ينضم إلى الفريق للمساعدة في القبض على أدولف إيتشمان. مات شالوم فايس نتيجة إصابته بالسرطان سنة 1963، لكن اسمه عاش واستخدمه الكاستا في مناسبات عديدة. لم يكن سوى بضعة ضباط IDF بارزين، منهم شابتي شافيت ورئيس قسم شالوم، يعرفون سبب وجوده في الصحراء.

في آب سنة 1990، غزا صدام حسين الكويت، وهو الفعل الذي قاد أخيراً إلى

حرب الخليج، ومثّلت حركة العراق ضد الكويت فشلاً استخباراتياً ذريعاً لكل الأجهزة الغربـية؛ والتي لم يتوقع أي منها ما سيحدث. حاول الموساد التحقق من تقارير تقول إن صـدام خـزّن فعلاً أسلحة كيميائية في مواقع سرية جنوب بغداد، والتي يمكنها أن تطال ليس مدينة الكويت وحسب وإنما المدن في إسرائيل أيضاً.

كان هناك شك ضمن الموساد فيما إذا كان العراق يمتلك فعلاً الصواريخ اللازمة لحمـل الـرؤوس الحربـية. وتمـت إزاحة جيرالد بول عن مسرح الأحداث ومدفعه العمـلاق بعـد اختباره الأولي، والذي أصبح وفقاً لصور الأقمار الصنعية الأميركية أجزاءً مبعثرة آنذاك. قال محللو شافيت بأنه حتى إذا كان لدى صدام الرؤوس الحربية، فليس هناك تأكيد بأنها تحمل مواد كيميائية، رغم قيامه بفعل مشابه من قبل.

قال شابتي شافيت، الرجل الحذر في منصبه الجديد، بأن ما لديه من معلومات لا يكفـي لـرفع حالة التأهب التي سوف تتسبب بحالة من الذعر. تم إسناد مهمة كشف الحقـيقة لشالوم، وكان الرجل قد نفّذ عدّة عمليات سابقة في العراق، وحالما يصبح في بغداد سيقدّم نفسه على أنه رجل أعمال أردني. في بغداد يوجد سيانيم يمكنهم مساعدته. لكـن كان عليه هناك، في الصحراء الفارغة الشاسعة، الاعتماد على مصادره الذاتية، والمهارات التي اختبرها المشرفون عليه مراراً وتكراراً.

خضـع شـالوم لتمرين التعايش مع الطبيعة في صحراء النقب، وأتقن *التدريب الذهنـي* وكيفـية الـتعرّف على الهدف حتى في عاصفة رملية، و"حماية الصورة - الذاتـية" وكيفية الاندماج في محيطه. ارتدى ملابسه ليلاً ونهاراً ليعطيها مظهراً بالياً، وأمضى يوماً كاملاً في حقل الرماية يتدرب على إطلاق النار السريع والغريزي الذي يمكـن اسـتعماله في القتال القريب، وأمضى ساعة واحدة مع الصيدلاني ليتعلم كيفية استخدام طب الطوارئ في الصحراء، وتم تخصيص صبيحة أحد الأيام لحفظ الخرائط التي ستقوده عبر الرمال.

كـان معـروفاً بالنسبة لكل مدربيه برقم فقط، ولم يقللوا من شأنه أو يزيدوا في مديحـه. ولـم يحصـل منهم شالوم على أي دليل عن أدائه، وكانوا معه مثل الرجال الآليين، وتـم تخصيص جزء من كل يوم لاختبار قدرته الجسدية على تحمل السير الشـاق فـي قـيظ الظهيرة القاسي وهو يحمل على ظهره حقيبة مليئة بالحجارة. كان منـتظماً في مواعيده دائماً، ولكنّ أحداً لم يقل له إنه يقوم بما هو مطلوب منه. خضع شـالوم لاختبار آخر أثناء قيامه بتمارين مستمرة للحصول على ردة فعله حول أسئلة مـثل: "شـاهدتك طفلة بدوية: هل تقتلها لحماية مهمتك؟"، "أنت على وشك الوقوع في

الأسر: هل تستسلم أم تقتل نفسك؟"، "تلتقي بجندي إسرائيلي جريح يؤدّي مهمة أخرى: هــل تتوقف لمساعدته أو تتركه وأنت تعرف أنه سيموت بالتأكيد؟" ولم يكن المقصود أن تكــون أجوبة شالوم حاسمة: تم وضع الأسئلة كطريقة أخرى لاختبار قدرته على اتخــاذ القــرارات تحت الضغط. وكم يستغرق من الوقت ليجيب؟ هل كان مرتبكاً أم واثقاً في اتخاذ القرار؟

لــم يتناول سوى الطعام الذي سيعيش عليه في الصحراء: معلبات يمزجها بالماء المــز الذي يتوقع أن يجده في الرمال، وحضر صفاً مع أحد علماء نفس الموساد حول الــتعامل مــع الضغط وكيفية الاسترخاء. أراد الطبيب أيضاً التأكد من أن شالوم يفكر بنفسه أيضاً، وهكذا يستطيع استخدام سعة الحيلة والقسوة في التعامل مع المواقف غير المــتوقعة التــي سيواجهها في الميدان، وأظهرت اختبارات الجاهزية توازنه العاطفي الحالــي وثقته بنفسه. وتم تقييم ما إذا كان لديه ميل للتحول إلى ذئب وحيد، وهي ميزة مقلقة أنهت الحياة المهنية لكاستا آخرين.

جلــس مــدرب لهجات معه لساعات، واستمع إليه يكرر لهجة الصوفيين العامية المحلــية. كان شالوم يتقن الفارسية والعربية، وسرعان ما اكتسب لهجة رجال القبائل. كــان يتم نقله في كل ليلة إلى جزء مختلف من صحراء النقب لينام فيه. وكان يفترش الأرض ويرتاح لفترة قصيرة لا تزيد أبداً عن غفوة، ثم يتحرك إلى مكان آخر لتفادي المدربين الذين كان يعرف أنهم يطاردونه. كان اكتشافه يعني بالتأكيد إما تأجيل مهمته لإجراء تمارين إضافية، أو تحويلها إلى كاستا آخر.

استطاع شالوم الهروب من المراقبة. وفي أمسية 25 تشرين الثاني سنة 1990، صعد على متن مروحية "سيكورسكي سي. إتش - 536" تابعة لقيادة المنطقة الوسطى في قوات الدفاع الإسرائيلية.

كــان أفراد طاقمها قد تلقّوا تدريبات بشكل منفصل لتنفيذ هذه المهمة. في منطقة أخرى من قاعدة النقب، كانوا قد تدربوا على الطيران على ارتفاع منخفض عبر مسلك جوي مليء بالعقبات في الظلام. كانت المحركات القوية تثير عاصفة من الرمال على المروحــية بحيث يستطيع طاقمها تحسين تقنياتهم للطيران عبر التيارات الهوائية غير المســتقرة للصــحراء العراقية. وبقي الطيار باستمرار قريباً من الأرض قدر الإمكان بحيــث لا تــتحطم الطائــرة. وفي تمارين أخرى، تم تدريب أفراد الطاقم على كيفية الإنــزال وإطلاق النار من أسلحتهم على مجموعة من الأهداف، فيما يحافظ الطيار على طائرته ثابتة في مكانها. وما بين هذا وذاك، كان الطاقم يدرس مسلك الطيران.

لـم يكن سوى قائدهم اللواء داني ياتوم يعرف المسلك الذي سيطيرون فوقه إلى الحـدود مـع العـراق. وكان ياتوم عضواً في *سرية متكال*، وحدة النخبة الإسرائيلية المكافئة للقبعات الخضراء التي اجتاحت بنجاح سنة 1972 طائرة بلجيكية مختطفة في مطـار تـل أبيب. كان بنيامين نتنياهو أحد أعضاء الفريق الآخرين. لقد قادت صداقة يـاتوم مع رئيس وزراء إسرائيل المستقبلي إلى تعيينه لاحقاً على رأس الموساد، وهو المنصب الذي سينهي أيضاً صداقته مع نتنياهو. لكن ذلك سيحصل في المستقبل.

فـي صبيحة ذلك اليوم من كانون الأول، وفيما كان شالوم يحدّق في الوادي، لم تكن لديه أدنى معرفة بأن الرحلة الطويلة والخطيرة التي جاءت به إلى عمق أراضي العـدو قد تم وضعها في قاعة اجتماعات كيريا، مقر قيادة قوات الدفاع الإسرائيلية في تل أبيب.

إضـافة إلـى يـاتوم، كان آمنون شاحاك رئيس الاستخبارات العسكرية *أمان*، وشـابتي شـافيت حاضرين. اجتمع الثلاثة لمناقشة آخر المعلومات الواردة من مخبر داخل شبكة إرهابية إيرانية في أوروبا. كان الشخص - وحده شافيت يعلم فيما إذا كان رجـلاً أم امرأة - معروفاً بالحرف "آ". كل ما استنتجه شاحاك وياتوم كان أن المخبر اسـتطاع الوصـول إلى الجناح المحصّن في الطابق الثالث من السفارة الإيرانية في بـون، ألمانـيا. كان الجناح يحتوي على ستة مكاتب وغرفة اتصالات. وتم تحصين المـنطقة بأكملها لتتحمل انفجار قنبلة، وكان يحرسها بشكل دائم عشرون من الحرس الـثوري، وكانت مهمتها تنسيق نشاطات إيران في أوروبا الغربية. كان الإيرانيون قد حاولوا شحن طن من السيمتكس والصواعق الإلكترونية من لبنان إلى إسبانيا، وكانت الشـحنة مخصصة لعدد من الجماعات المناصرة لإيران في البلدان الأوروبية. وبناءً علـى رسالة من الموساد، اقتحم رجال الجمارك الإسبان السفينة فيما كانت تبحر في المياه الإقليمية.

لكـن بحلـول صيف سنة 1990، كانت إيران تقدّم أيضاً عبر سفارتها في بون مـبالغ مالية ضخمة لزيادة تأثير الأصولية الإسلامية في أوروبا. كانت المبالغ مثيرة للدهشة نظراً للعجز الاقتصادي الإيراني بعد ثماني سنوات من الحرب مع العراق التي انتهت بوقف إطلاق النار سنة 1988.

لكن في ذلك اليوم التشريني في قاعة اجتماعات كيريا المحمية، لم يكن ما اكتشفه العمـيل المزدوج تهديداً جديداً من إيران، وإنما كان مصدره العراق. وحصل "آ" على نسـخة من خطة قتالية عراقية مفصّلة سرقتها الاستخبارات السرية الإيرانية من مقر

قيادة الجيش العراقي في بغداد، وتبيّن كيفية استخدام صواريخ سكود لشن هجمات كيميائية وبيولوجية ضد إيران، والكويت وإسرائيل.

كان هناك سؤال واحد فقط يجول في ذهن كل شخص في غرفة الاجتماعات: هل هذه المعلومات أكيدة؟ لقد أثبت "آ" أن كل ما يقوله صحيح في تقاريره السابقة. لكن رغم أن المعلومات التي لديهم مهمة، إلا أنها تصبح باهتة أمام ما أرسله "آ". ورغم ذلك، هل كانت خطة المعركة جزءاً من مكيدة حاكتها الاستخبارات الإيرانية لتدفع إسرائيل نحو شنّ هجوم استباقي ضد العراق؟ هل اكتشفت إيران "آ"، وتستخدمه لصالحها الآن؟

كانت محاولة الإجابة عن ذلك السؤال مليئة بالمخاطر أيضاً. وسيحتاج الأمر إلى بعض الوقت ليتمكّن أحد الكاستا من الاتصال مع "آ". قد تمضي أسابيع قبل أن يكون ذلك ممكناً؛ وكانت عملية إخراج مخبر يعمل تحت غطاء بذلك الشكل بطيئة ومعقّدة. وإذا ثبت أن "آ" ما زال وفياً، يمكن لمثل تلك العملية أن تعرّض أمنه للخطر. رغم ذلك، ستكون نتائج العمل بناءً على الوثيقة العراقية دون التأكد من صحتها كارثية على إسرائيل. ستقود الضربة الاستباقية إلى أفعال انتقامية عراقية، وقد تدمّر التحالف الذي تم بناؤه بصعوبة في واشنطن لإخراج صدام من الكويت. كان العديد من أعضاء التحالف العرب سيدعمون العراق ضد إسرائيل.

كان إرسال شالوم إلى العراق الطريقة الوحيدة لاكتشاف الحقيقة حول الخطة الحربية المسروقة. حلّقت المروحية التي تقلّه بسرعة فوق الصحراء وعبرت شريطاً من الأراضي الأردنية في ليلة ظلماء. وكانت سيكوريسكي، المطلية بطبقة خاصة والمزوّد محركها بكاتم للصوت، غير قابلة للرصد حتى من أكثر الرادارات الأردنية تطوراً. حلّقت المروحية في الوضع الصامت مما جعل شفراتها الدوّارة لا تصدر صوتاً تقريباً، ووصلت إلى منطقة إنزالها على الحدود العراقية.

اختفى شالوم في ظلام الليل. ورغم كل التدريب، لم يكن هناك شيء يجعله جاهزاً تماماً لتلك اللحظة: كان لوحده؛ وعليه احترام البيئة المحيطة به للنجاة. لم تكن الصحراء تشبه أي مكان آخر على الأرض في مفاجآتها. يمكن أن تظهر عاصفة رملية في غضون لحظات، وتغيّر الطبيعة المحيطة وتدفنه حياً. كانت حالة الجو تعني شيئاً، والحالة الأخرى تعني شيئاً آخر مختلفاً تماماً. كان عليه توقّع حالة الطقس بنفسه؛ والقيام بكل شيء لوحده وأن يتعلّم الإصغاء إلى الصمت، ويتذكر أن صمت الصحراء ليس له مثيل. ويجب عليه أن يتذكر دائماً أن غلطته الأولى ستكون الأخيرة.

بعد ثلاثة أيام من مغادرته المروحية، وعند ذلك الفجر البارد التشريني، استلقى شالوم في الوادي منهك القوى. كان يضع إلى الأسفل من قبعته الصوفية نظارات كبيرة تعطي عدساتها للطبيعة الحالكة لوناً أحمر. كان السلاح الوحيد الذي يحمله شالوم هو ما يتوقع المرء أن يجده مع أحد أفراد السارامي: سكين صيد. تعلّم أن يقتل باستخدام تلك السكين بطرق عديدة. ولم يكن يعلم ما إذا كان عليه استخدامها ضد قوة متفوقة، أو ربما ضد نفسه إذا اقتضى الأمر. أو ينتحر ببساطة بتناول حبة الدواء القاتلة التي يحملها معه. منذ تعرّض إيلي كوهن للتعذيب والموت، كان باستطاعة أي كاستا في إيران، العراق، اليمن أو سورية قتل نفسه عوضاً عن الوقوع في أيدي المحققين القساة. أثناء ذلك، استمر شالوم بالمراقبة والانتظار.

بدأ البدو في مضاربهم على بعد نصف ميل خلف الوادي بممارسة شعائر صلاة اليوم الأولى. كان نباح كلابهم يبدو ضعيفاً نتيجة الرياح، ولكنّ الحيوانات لم تكن تغامر بمغادرة المخيم حتى ترتفع الشمس عن الأفق: نوع من السلوك الذي تعلّمه شالوم ضمن أول درس له عن التعايش مع الصحراء.

وفقاً للمعلومات التي تلقّاها ضمن تعليماته، كانت القافلة العراقية ستظهر بين المعسكر والتلال إلى يساره. وكانت الشاحنة التي سيستقلونها غير مرئية للعين غير الخبيرة.

كانت الشمس عالية عندما ظهرت القافلة أخيراً: منصة إطلاق صواريخ سكود ومركبة دعم. كانت لا تزال على بعد حوالى النصف ميل عندما توقفت. بدأ شالوم بتصوير وتسجيل ما يراه.

استغرق الأمر من الطاقم العراقي خمس عشرة دقيقة لإطلاق سكود. وارتفع على مسار منحنٍ واختفى خلف الأفق. بعد عدّة دقائق، كانت القافلة تتحرك بسرعة نحو التلال. ويمكن لصاروخ سكود ذاك أن يكون قد ضرب تل أبيب أو أي مدينة إسرائيلية أخرى في غضون دقائق إذا لم يكن إطلاقه مجرد تدريب. بدأ شالوم بعدها رحلته الطويلة عائداً إلى تل أبيب.

بعد ستة أسابيع، وفي 12 كانون الثاني سنة 1991، كان شالوم ضمن فريق مشترك من ضباط الموساد والاستخبارات العسكرية *أمان* الذين جلسوا حول طاولة الاجتماعات في قيادة العمليات الخاصة المشتركة للولايات المتحدة (JSOC) – يدعوها أفرادها جايسوك – في قاعدة بوب الجوية في جورجيا. كانت JSOC تقود القبعات الخضر، وتحافظ على علاقة عمل وثيقة مع الموساد.

بعد عودة شالوم من العراق، أخبر شافيت الجنرال إيرل ستاينر، قائد عمليات JSOC، بأن صدام يقوم بما هو أكثر من الاستعراض. كان الجنرال الصعب المراس متواضعاً ويستخدم لغة لاذعة يحبها الإسرائيليون. ولكن في زمن الحرب، كانت طريقته في الكلام التي اكتسبها من ولاية تينيسي تختفي لاتخاذ قرارات عنيفة. كان يعرف - كقائد لوحدة مغاوير الأمة - قيمة الاستخبارات الجيدة، وقد أقنعته خبرته في الشرق الأوسط بأن الموساد يستطيع تقديم الأفضل في هذا المجال.

منذ غزو صدام للكويت، كان ستاينر على اتصال مستمر مع الإسرائيليين، والتي يعود بعضها إلى سنة 1983، عندما أرسله البنتاغون بعد وقت قصير من ترقيته إلى جنرال إلى بيروت ليقدّم تقريراً مباشراً إلى رئيس هيئة الأركان المشتركة حول المدى الذي يجب أن نتورط به الولايات المتحدة في حرب لبنان.

عمل لاحقاً بالتنسيق مع الموساد خلال اختطاف أشيل لورو، وانتقل مع قوة مغاوير دلتا إلى القاعدة الإيطالية الجوية في صقلية حيث توقف المختطفون ليستقلوا بعد ذلك طائرة إلى مصر. منعت القوات الإيطالية ستاينر من إلقاء القبض على الخاطفين، مما تسبب بخلاف كبير بينهم. اعترض ستاينر، ولحق بالطائرة المدنية على متن طائرة النقل العسكرية، ولم يكف عن المطاردة سوى عندما دخلت الطائرتان المجال الجوي لروما وهدّد مراقبو الحركة الجوية بإسقاط طائرة قوة مغاوير دلتا لقيامها بعملية *قرصنة جوية*. في سنة 1989، كان ستاينر القائد البري لغزو بنما، وكان مسؤولاً عن القبض على مانويل نورييغا بسرعة.

لم يكن سوى رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال كولن باول وقائد قوات التحالف الجنرال نورمان شوارزكوف يعرفان بعلاقة ستاينر مع الموساد. فيما كان شوارزكوف يكافح لإنشاء خط دفاع على طول الحدود السعودية للتعامل مع أي هجوم تقوم به القوات العراقية انطلاقاً من الكويت، كان ضباط استخبارات ستاينر يعملون بالتنسيق مع الموساد لتشكيل حركات مقاومة داخل العراق في محاولة لإسقاط صدام.

عندما طلب الجنرال واين داونينغ، قائد JSOC، من ضباطه الحضور إلى غرفة الاجتماعات، كان الجميع يعلم أنه فيما تمر الساعات نحو الموعد النهائي الذي حدّدته الأمم المتحدة يوم الثلاثاء 15 كانون الثاني سنة 1991، كان العالم يحاول الحوار مع الأصم في بغداد. استمر صدام بالترحيب فيما توقع بأنها ستكون أم المعارك.

بدأ داونينغ بتذكير مستمعيه بأن واشنطن ما تزال تطلب من إسرائيل البقاء خارج الحرب. وبالمقابل، ستحصل على فوائد سياسية واقتصادية طويلة المدى.

كـــان رد الفعل المباشر من الإسرائيليين تقديم مجموعة من الصور التي التقطها شـــالوم لمنصات إطلاق سكود. ثم جاءت أسئلتهم: ماذا سيحدث إذا وضع صدام رأساً نووياً فـــي صاروخ سكود؟ كان الموساد مقتنعاً بأن العراق لديه التجهيزات اللازمة لتصـــنيع قنـــبلة بدائية. كانت لديه القدرة أيضاً على وضع رؤوس حربية كيميائية أو بيولوجـــية فـــي صواريخ سكود. هل كان يُفترض بإسرائيل أن تنتظر حدوث ذلك؟ ما هي خطة قوات التحالف للتعامل مع صواريخ سكود قبل إطلاقها؟ هل لدى الأميركيين أي فكرة عن عدد صواريخ سكود التي يملكها صدام؟

قـــال أحـــد ضـــباط اســـتخبارات داونينغ إن "أفضل تقديراتهم" تدل على حوالى خمســـين. وردّ شابتي شافيت: "نعتقد بأن صدام لديه خمسة أضعاف ذلك الرقم، وربما يصـــل إلى خمسمئة". حطّم سؤال داونينغ الصمت المطبق في الغرفة: هل يمكن تحديد مكانهـــا بدقـــة؟ كـــان شـــافيت دقيقاً جداً عندما أعلن أن صواريخ سكود موجودة في صـــحراء العـــراق الغربـــية وفي شرق البلاد. وافق الأميركيون مع داونينغ على أن "الصحراء كبيرة بما يكفي لإخفاء الكثير فيها".

قـــال شـــافيت: "كلمـــا بكّـــرتم، كلمـــا كان ذلك أفضل"، دون أن يُخفي إحباطه وانـــزعاجه. ووعـــد داونيـــنغ بمتابعة المسألة بجدية، وانتهى الاجتماع مع التذكير المـــتكرر بـــأن علـــى إســـرائيل الـــبقاء خـــارج النـــزاع القادم؛ لكن كل المعلومات الاســـتخباراتية التي يستطيع الموساد وأمان جمعها ستكون موضع ترحيب. أثناء ذلك، يمكن أن يطمئنوا إلى أن الولايات المتحدة وشركاءها سيتعاملون مع صواريخ سكود. عـــاد الفـــريق الإســـرائيلي إلـــى الوطن ينتابه شعور بأنه قد حصل على أسوأ ما في الصفقة.

في حوالى الساعة 3:00 من صبيحة 17 كانون الأول سنة 1991 - بعد ساعات مـــن بـــدء معركة **عاصفة الصحراء** - ضربت سبعة صواريخ سكود تل أبيب وحيفا. ودمّرت 1587 مبنىً سكنياً وجرحت سبعة وأربعين مدنياً.

فـــي وقـــت مـــتأخر من صبيحة ذلك اليوم، سأل رئيس الوزراء إسحاق شامير بـــبرودة علـــى الخط الساخن مع واشنطن عن عدد الإسرائيليين الذين يجب أن يموتوا قبل أن يفعل الرئيس بوش شيئاً. انتهت المكالمة القصيرة مع طلب بوش ضبط النفس، وقول شامير محذراً بأن إسرائيل لن تقف لوقت طويل على الحياد.

أصدر شامير أوامره بأن تقوم المقاتلات الإسرائيلية بدوريات فوق منطقة الحظر الجـــوي شـــمال العراق، ووعد بوش مباشرة بأنه في حال تكرّرت الهجمات سيرسل

"علـــى وجه السرعة" بطاريتي صواريخ باتريوت مضادة للصواريخ "للدفاع أكثر عن مدنكم"، وأن قوات التحالف "ستدمر صواريخ سكود المتبقية في غضون أيام".

اســتمرت الصـــواريخ بالسقوط على إسرائيل. وفي 22 كانون الثاني، سقط أحد الصـــواريخ فـــي ضـــاحية رامـــات غان قرب تل أبيب. وتعرّض ستة وتسعين مدنياً للإصـــابة، كانـــت جـــروح بعضهم خطيرة؛ ومات ثلاثة نتيجة أزمات قلبية، ووصل صـــوت الانفجارات إلى مقر قيادة الموساد. في كيريا، اتصل أمنون شاحاك عبر خط مباشـــر مـــع "مركز القيادة العسكرية القومي" في الطابق الثاني من البنتاغون. كانت مكالمـــته أقصـــر مـــن تلك التي قام بها شامير؛ وكانت كلماته: "افعلوا شيئاً وإلا فإن إسرائيل ستفعل".

بعـــد ســـاعات، كـــان داونينغ ومغاويره في طريقهم إلى العربية السعودية. كان شـــالوم فـــي انتظارهم في قرية عرعر الحدودية مع العراق. كان يرتدي لباس أفراد الخدمـــة فـــي الجيش البريطاني. لم يشرح إطلاقاً، كما أن أحداً لم يطلب منه، توضيح كيفـــية الحصـــول عليها. كانت الأنباء التي بحوزته مرعبة. كان يستطيع تأكيد وجود أربع منصات لإطلاق صواريخ سكود لا تبعد أكثر من نصف ساعة طيران.

قـــال داونينغ: "لنذهب! سنذهب لقلي بعض المؤخرات!" حملت مروحيات شينوك الفريق إلى الصحراء العراقية، إضافة إلى سيارتهم من طراز لاندروفر المعدّلة للعمل فـــي تضاريس تشبه ما هو موجود على سطح القمر. في غضون ساعة، حدّدوا مواقع منصـــات إطـــلاق صـــواريخ سكود. استدعى قائد المغاوير عبر موجة لاسلكي آمنة المقـــاتلات – القاذفات الأميركية المحمّلة بعتاد عنقودي وقنابل زنة الواحدة منها ألف رطل. صوّرت مروحيات بلاك هوك العملية. كان شامير يشاهد نسخة من الشريط بعد عدّة ساعات في مكتبه في تل أبيب.

فـــي مكالمـــة هاتفـــية أخرى من بوش، أقرّ رئيس الوزراء بأن ذلك كافٍ لتبقى إسرائيل خارج الحرب. ولم يذكر أي من الرجلين الدور الذي لعبه الموساد.

فـــي الأيـــام المتبقية من حرب الخليج، قتلت صواريخ سكود أو جرحت حوالى 500 شخص ومن ضمنهم 128 أميركياً لقوا حتفهم أو تعرضوا للإصابة نتيجة سقوط صاروخ في المملكة العربية السعودية؛ وغادر ما يزيد عن 4000 إسرائيلي منازلهم.

نتيجة لحرب الخليج، تعرّض كل من الموساد وأمان لهجوم شرس خلال جلسات سرية في اللجنة الفرعية للشؤون الخارجية والدفاع في الكنيست. تعرّض كلا الجهازين للإدانـــة لفشـــلهما في توقع غزو الكويت أو توفير "تحذير كافٍ" عن التهديد العراقي.

تحدثــت تســريبات من غرفة اللجنة عن تبادل للشتائم بين أمنون شاحاك رئيس أمان وشـــابتي شـــافيت من جهة، وأعضاء اللجنة من جهة أخرى. كان مدير الموساد على وشك الاستقالة بعد إحدى المناقشات. لكن شافيت المستعد للمعارك لم يفقد كل ما حقّقه.

كـــان قسم الحرب النفسية في الموساد (LAP) ينشر معلومات ملفقة ويلطخ سمعة أعــداء إسرائيل مع الصحفيين الأجانب، ويركّز مهاراته على وسائل الإعلام المحلية. كـــان يحضّر تقارير تأييد، ويقول إنها لم تكن مسألة شح في المعلومات الاستخباراتية وإنمـــا هـــي طبـــيعة الـــرأي العام الإسرائيلي الذي نشأ معتاداً على الاختيار في تلك المنطقة.

نشـــرت LAP حقائق مشابهة: لا يوجد بلد بمثل حجم وعدد سكان إسرائيل يحلل أو يستفيد من المعلومات الاستخباراتية كما تفعل هي؛ ولا يوجد جهاز يستطيع مجاراة الموســـاد فـــي فهم أفكار ونوايا أعداء البلد، أو يضاهي سجله في إحباط خطط أولئك الذيـــن تسببوا بكوارث لإسرائيل طوال خمسين سنة تقريباً. كانت تلك مواد مثيرة تجد لها مكاناً جاهزاً في وسائل إعلام ممتنة لحصولها على معلومات *داخلية*.

ظهـــرت مجموعة من المقالات تذكّر القراء بأنه رغم تخفيض الميزانية الدفاعية قـــبل وقت قصير من حرب الخليج، إلا أن الموساد استمر في القتال بجرأة في لبنان، والأردن، وســـورية، والعراق، وكان الشعب قادراً على القراءة بين السطور: تم كبح الموســـاد بســـبب السياســـيين وتخفيضـــات الميزانية الدفاعية. كان ذلك أسلوباً مألوفاً ومضـــمون النجاح دائماً، وبالنسبة للسكان الذين ما زالوا خائفين ويتعافون من هجمات صـــواريخ ســـكود، وجـــدت ادعاءات نقص التمويل أصداء لها في قلوب أولئك الذين عـــانوا الأمرّين، وحولّت الانتقادات بعيداً عن الموساد إلى السياسيين. أصبحت النقود مـــتوفرة فجـــأة، ووضـــعت إسرائيل، التي اعتمدت لوقت طويل على بيانات الأقمار الصنعية الأميركية، برنامج التجسس الفضائي الخاص بها على السكة، وكانت الأولوية القصـــوى لإطـــلاق قمـــر صنعي عسكري لمراقبة العراق تحديداً. وتم وضع برنامج صاروخ مضاد للصواريخ في مرحلة الإنتاج المكثّف. تم طلب عدّة بطاريات باتريوت من الولايات المتحدة.

تراجعت لجنة الاستخبارات الفرعية في وجه الدعاية المناصرة للموساد، وخرج شـــافيت منتصـــراً، وأعاد التأكيد على مكانة الموساد، وصدرت الأوامر للكاستا الذين يعملـــون تحـــت غطاء جيد في العراق أن يحاولوا اكتشاف ترسانة صدام من الأسلحة الكيميائية والبيولوجية التي نجت من قصف التحالف.

اكتشفوا أن العراق ما يزال يمتلك كميات من الجمرة الخبيثة، والجدري، وفيروس إيبولا، وغاز الأعصاب القادر على قتل ليس كل رجل وامرأة وطفل في إسرائيل فقط، وإنما قسماً كبيراً من كامل سكان الأرض.

السؤال الذي واجه شابتي، ورؤساء الأجهزة الأمنية الإسرائيلية الأخرى، والسياسيين الإسرائيليين فيما إذا كان ينبغي نشر هذه المعلومات علناً. كان القيام بذلك سيعني بالتأكيد إحداث حالة من الخوف والذعر في إسرائيل، وقد ينتج عنها تأثيرات سلبية أخرى واسعة النطاق. كانت صناعة السياحة قد انقرضت في البلد نظرياً بسبب حرب الخليج؛ واقترب الاقتصاد الإسرائيلي من الانهيار تقريباً فيما لم تستقبل البلاد أي استثمارات خارجية. كان الكشف عن تلك المعلومات يعني أن إسرائيل ما تزال في مدى الأسلحة القاتلة، وهو ما سيجعل من جذب السياح أو الأموال إلى البلاد صعباً.

إضافة إلى ذلك، نتج عن انفراط عقد تحالف حرب الخليج، الذي لم يكن أعضاؤه العرب متحمسين أبداً لشن حرب ضد إخوانهم العرب، بروز تعاطف متزايد مع معاناة العراقيين التي لا شك فيها. أثارت مشاهد الدمار الشامل الذي تسبب به قصف التحالف واستمرار معاناة المدنيين الأبرياء مشاعر قوية في أماكن أخرى من الشرق الأوسط، وجددت عداوة العرب ضد إسرائيل. والأنكى من ذلك، إذا قامت إسرائيل بنشر تفاصيل حول الأسلحة الكيميائية والبيولوجية التي ما تزال بحوزة العراق، ستراها البلدان الغربية المناصرة للعرب على أنها محاولة لحثّ الولايات المتحدة وبريطانيا على شن هجوم جديد على العراق.

كانت مسألة نشر المعلومات حول ترسانة صدام متعلقة أيضاً بنتائج المحادثات السرية البالغة التعقيد لوضع حدّ لحالة العداء بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل. في سنة 1992، انتقلت تلك المحادثات إلى النرويج، وكانت تتقدم بشكل جيد، رغم أن الأمر سيستغرق سنة كاملة قبل التوصل إلى اتفاق وإقراره علناً في تشرين الأول سنة 1993 عندما صافح ياسر عرفات رئيس الوزراء رابين في حديقة البيت الأبيض برعاية من الرئيس كلينتون. كان ذلك الاتفاق انتصاراً دبلوماسياً لكل منهم.

بكل الأحوال، لم يكن جميع من في الموساد يأملون بأن صيغة "أرض السلام" - دولة فلسطينية مقابل وقف القتال - ستنجح. كانت الأصولية الإسلامية تتصاعد، والقوى الإيرانية المتشددة تضغط على جيران إسرائيل: الأردن، ومصر، وسورية. كانت إسرائيل بالنسبة لرجال الدين في طهران عبارة عن دولة منبوذة. وبالنسبة للموساد، كما هو الحال بالنسبة للكثير من الإسرائيليين، كان مفهوم السلام الدائم مع

منظمة التحرير الفلسطينية حلماً غير واقعي. لم يكن لدى إسرائيل الصهيونية رغبة بالتعايش مع العرب: كان الصهاينة يرون كل ما يتعلق بدين وثقافة العرب على أنه أدنى من معتقداتهم وتاريخهم؛ ولم يستطيعوا تقبّل أن اتفاقية أوسلو ستضمن مستقبل أرض الميعاد، وأن كلا العرقين سيعيشان معاً، وإذا لم يكونا سعداء دائماً، فسيحترمان بعضهما البعض على الأقل.

قيّم شابتي شافيت كل ذلك بحرص عندما كان يدرس مسألة نشر المعلومات حول ترسانة العراق. في النهاية، قرّر إبقاء المعلومات سراً حتى لا يعكّر صفو التفاؤل خارج إسرائيل الناتج عما حققته واشنطن. إضافة إلى ذلك، إذا ساءت الأمور، يمكن نشر المعلومات حول مخازن العراق من السموم القاتلة في أي وقت. درس خبراء الموساد في الحرب النفسية بدقة سيناريوهات متعددة حول قيام صدام القاسي بدفع أحد عملائه لوضع علبة من الجمرة الخبيثة في أنفاق نيويورك، أو إرهابي لنشر فيروس إيبولا في نظام تكييف طائرة بوينغ 707 مليئة بالركاب بحيث يصبح كل منهم قنبلة بيولوجية موقوتة ستنشر الفيروس لآلاف الناس قبل اكتشاف الحقيقة، لاستغلال الرأي العام ضد العراق عندما يحين الوقت.

عمل الموساد على إخفاء حقيقة حادثتين أخرتين كان يمكن أن تسببا أيضاً ضرراً وإحراجاً كبيرين للولايات المتحدة.

في إحدى أمسيات كانون الأول سنة 1988، انفجرت رحلة بان أميركان رقم 103 من لندن إلى نيويورك فوق لوكربي في اسكوتلندا. وفي غضون ساعات، كان طاقم LAP يتصلون مع أصدقائهم في وسائل الإعلام، ويحثّونهم على نشر خبر أن هناك "دليلاً لا يمكن دحضه" على أن ليبيا، وعبر جهاز استخباراتها *الجماهيرية*، تتحمل المسؤولية. (تلقى مؤلف هذا الكتاب مكالمة تحمل مثل هذا الادعاء من مصدر في LAP بعد ساعات من الكارثة). فرض الغرب عقوبات بسرعة على نظام القذافي. ووجهت الولايات المتحدة وبريطانيا أصابع الاتهام ضد ليبيين اثنين تحمّلهما مسؤولية تدمير رحلة بان أميركان. ورفض القذافي تسليم الرجلين للمحاكمة.

اتهم LAP لاحقاً سورية وإيران بالتآمر في كارثة لوكربي. تحولت القضية ضد نظام دمشق إلى اتهام بدعمها المعروف لما يدعى بإرهاب الدولة. كان الاتهام مع إيران أكثر تحديداً: تم تدمير بان آم 103 كعمل انتقامي رداً على قيام البارجة البحرية يو إس إس فينسنز بتدمير طائرة ركاب إيرانية فوق خليج العرب في 3 تموز سنة 1988، مما أدى لمقتل 290 شخصاً. وكان ذلك خطأً فادحاً اعتذرت عنه الولايات

المتحدة.

تحـــول LAP بعدها إلى تسمية "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" على أنها إحدى المتآمرين لتدمير الطائرة. ولم يتوقف أي من الصحفيين الذين نشروا هذه القصة على نطـــاق واسع ليفكّر لماذا تحتاج ليبيا، التي تم اتهامها بالعملية أصلاً، إلى مساعدة من سورية أو إيران، هذا إذا نحّينا جانباً المجموعة الفلسطينية.

وفقـــاً لمصدر في الاستخبارات البريطانية: "كانت LAP تستغل الوضع. وكانت لوكربـــي فرصـــة ممـــتازة لتذكير العالم بأن شبكة الإرهاب التي لطالما أرادت LAP التحذير منها ما تزال موجودة. لم تكن لوكربي بحاجة لذلك. في الحقيقة، تسبب وضع الكثـــير مـــن الأســـماء فـــي القضـــية بنتائج مضادة. كنا نعرف أن الليبيين هم فقط المسؤولون". وبكل الأحوال، كان هناك حقائق لم تجعل بان آم 103 قضية مفتوحة.

جـــاءت خسارة الطائرة في وقت كان فيه الرئيس المنتخب جورج بوش وفريقه الانتقالـــي فـــي واشـــنطن يتزوّد بالمعلومات حول الوضع في الشرق الأوسط بحيث يستطيع بوش "القيام بشيء ما" عندما يدخل المكتب الأبيض.

كـــان بوش مديراً للـــ CIA بين سنتي 1976 - 77، وهي الفترة التي جعل فيها وزير الخارجية الأسبق هنري كيسنجر سياسة واشنطن موالية تماماً لإسرائيل. ورغم أن بـــوش حـــافظ علانية على علاقة سلفه ريغان الطيبة مع إسرائيل، إلا أن سنوات خدمـــته فـــي CIA أقنعـــته بأن ريغان كان "متساهلاً كثيراً مع إسرائيل". أثناء انتظاره ليصبح رئيساً، لم يكن بوش بحاجة لمن يذكّره بأن اللوبي اليهودي في الكونغرس أجبر الإدارة الأميركية سنة 1986 على إلغاء صفقة سلاح تبلغ قيمتها 1.9 مليار دولار مع الأردن. أخبر بوش فريقه الانتقالي بأنه سيكون رئيساً لن يتسامح مع حق "الأميركيين الذيـــن يخافون في عقد صفقات مع من يشاؤون ومتى يشاؤون". وسيلعب هذا الموقف دوره في تدمير بان آم 103.

كـــان علـــى متن تلك الطائرة لدى مغادرتها لندن في تلك الليلة من كانون الأول ســـنة 1988 ثمانية أعضاء من مجتمع الاستخبارات الأميركي العائدين من عملهم في الشـــرق الأوسط. وكان أربعة منهم ضباطاً ميدانيين في CIA، ويقودهم ماثيو غانون. وكان على متن الطائرة أيضاً تشارلز مكي الرائد في الجيش الأميركي وفريقه الصغير مـــن الخـــبراء في إنقاذ الرهائن. وكان هؤلاء في الشرق الأوسط لاستكشاف إمكانية تحرير الرهائن الغربيين المحتجزين في بيروت. رغم أن التحقيق بكارثة لوكربي كان بإشـــراف فـــريق اسكوتلندي، إلا أن عملاء CIA كانوا في مسرح الحادث عند إيجاد

حقيبة مكي التي كانت ما تزال مغلقة ولم يصبها أذى. أبعدها رجل يُعتقد أنه ضابط في الـ CIA، رغم أن ذلك غير مؤكد، عن مكان الحادث لبعض الوقت. عادت الحقيبة إلى فريق التحقيق الاسكتلندي الذي سجل محتوياتها بأنها *فارغة*.

لم يطرح أحد أسئلة حول ما حدث لمقتنيات مكي، بغض النظر عن السفر مع حقيبة فارغة. ولكن في نفس الوقت، لم يشك أحد بأن ضابط استخبارات CIA ربما يكون قد أخذ بيانات من الحقيبة تشرح سبب تدمير بان آم 103. ولم يتم العثور على أمتعة غانون أبداً، مما يثير تساؤلاً بأن القنبلة الحقيقية كانت في حقيبته. ولم يكن هناك أي تفسير مرضٍ حول كيفية أو سبب حمل ضابط CIA لقنبلة في حقيبته.

ادّعى برنامج تحقيقات **خط الجبهة** في تلفزيون PBS في وقت لاحق أنه تمكّن من معرفة سبب الكارثة. بدأت بان آم 103 رحلتها في فرانكفورت، حيث ينتقل إليها المسافرون الأميركيون من الشرق الأوسط. كان بينهم غانون وفريقه، الذين سافروا على متن رحلة للخطوط المالطية للوصول إلى فرانكفورت. كانت أمتعتهم شبيهة بآلاف الحقائب التي تمر أمام موظفي مطار فرانكفورت كل يوم. كان أحد هؤلاء الموظفين يعمل لحساب الإرهابيين. في مكان مخصص للأمتعة في المطار، قام ذلك الشخص بإخفاء حقيبة تحمل القنبلة الأصلية. كانت تعليماته تقضي بأن يجد حقيبة مشابهة تأتي على متن إحدى الرحلات، وأن يستبدلها بالحقيبة الموجودة معه، ثم يدعها تكمل طريقها إلى طائرة بان آم 103. وكانت تلك نظرية معقولة؛ لكنها واحدة من ضمن نظريات عديدة لتفسير الانفجار.

استخدمت شركات التأمين على الطائرة - التي كانت بأمسّ الحاجة لإظهار أن تدمير بان آم 103 كان نتيجة عمل إرهابي لا يمكنها أن تتحمل عواقبه - شركة تحقيق خاصة تدعى إنترفور. أسسها سنة 1979 إسرائيلي يدعى يوفال أبيب هاجر إلى الولايات المتحدة قبل ذلك بسنة. ادّعى أبيب بأنه ضابط سابق في الموساد؛ وهو ادعاء أنكره الجهاز. ورغم ذلك، أقنع أبيب شركات التأمين بأن لديه علاقات ستمكّنه من كشف الحقيقة.

كانت الشركات مذهولة عندما استلمت تقريره. توصل أبيب إلى خلاصة مفادها أن تخطيط وتنفيذ الهجوم تم من قبل "مجموعة CIA مستقلة تتمركز في ألمانيا، والتي كانت توفر الحماية لعمليات نقل الممنوعات من الشرق الأوسط إلى الولايات المتحدة عبر فرانكفورت. لم تفعل CIA شيئاً لإنهاء العملية لأن تلك المجموعة كانت تساعد أيضاً في إرسال الأسلحة إلى إيران كجزء من مفاوضات السلاح - مقابل - الرهائن.

كانت طريقة تهريب الممنوعات بسيطة للغاية. إذ يصعد أحد الأشخاص مع حقيبة على متن إحدى الرحلات، ويقوم شريك في منطقة الحقائب بتبديلها مع قطعة مطابقة لها تحتوي على المخدرات. في الليلة القاتلة، بدّل إرهابي سوري يعرف آلية عمل تلك المجموعة الحقيبة بأخرى تحتوي على القنبلة. كان يقصد قتل عملاء الاستخبارات الأميركيين الذين اكتشفت سورية أنهم سيلتحقون بالرحلة".

ادّعى تقرير أبيب أن مكي كان يعلم بأمر *فريق CIA المستقل*، والذي كان يعمل تحت الاسم المستعار كوريا، وكان لأفراده علاقات وثيقة أيضاً مع إحدى تلك الشخصيات الغامضة التي وجدت لها عملاً على هامش عالم الاستخبارات. اكتسب منذر القصار سمعة كتاجر سلاح في أوروبا، عندما قام بعمليات عدة منها تزويد العقيد أوليفر نورث بالأسلحة ليقوم بتمريرها بدوره إلى الكونترا في نيكاراغوا بين سنتي 1985 - 86. كان للقصار علاقات أيضاً مع منظمة أبو نضال، كما أن علاقاته العائلية مشكوك فيها كذلك. كان علي عيسى دوبا، رئيس الاستخبارات السورية، صهره؛ كما أن زوجة القصار قريبة للرئيس السوري. ادّعى تقرير أبيب أن القصار وجد فريق *كوريا* شريكاً مستعداً للقيام بعملية تهريب الممنوعات. استمرت العملية بضعة شهور قبل تحطّم بان آم 103. ادّعى التقرير أيضاً أن مكي اكتشف ما يجري فيما كان يتابع اتصالاته الخاصة في عالم الشرق الأوسط السري في محاولة لإيجاد طريقة لإنقاذ رهائن بيروت. وقال أبيب في تقريره إن "مكي خطط لإعادة الدليل الذي يدل على علاقة فريق الاستخبارات المستقل مع قصار إلى الولايات المتحدة".

في العام 1994، كتبت جويل بينرمان، التي نشرت تقريراً حول الاستخبارات الإسرائيلية، وظهرت تحليلاتها في وول ستريت جورنال، وكريستيان ساينس مونيتور، وفايننشال تايمز البريطانية: "قبل أربع وعشرين ساعة من الرحلة، أخبر الموساد جهاز BKA الألماني بأنه ربما توجد خطة لزرع قنبلة على الرحلة 103. مرّر BKA المعلومة إلى فريق CIA -*كوريا*، المتمركز في فرانكفورت والذي قال إنه سيتكفّل بكل شيء".

طلب غريغوري بولر، محامي شركة بان آم، من FBI، وCIA، وFAA، وDEA، وNSC، وNSA كشف ما يعرفونه، لكنه ادّعى لاحقاً: "ألغت الحكومة الاستماع لأجهزة الاستخبارات لأسباب تتعلق بالأمن القومي".

لم يكن كل من معدّي برنامج خط الجبهة، أو يوفال أبيب أو جويل بينرمان قادرين على تقديم أجوبة مقنعة لأسئلة مثيرة للقلق. إذا كان هناك تغطية لنشاطات

كوريــا، كــيف توسّــعت ضــمن CIA؟ من أجاز ذلك؟ هل أصدر ذلك الشخص أو الأشــخاص أوامــر بإزالة بيانات محرجة من حقيبة مكي؟ لماذا لم ينسق جهاز BKA الألماني مع وحدة كوريا؟ هل كان ذلك محض صدفة؟ أم كان هناك قرار بأن نشاطات كوريــا أصــبحت خطيرة بشكل غير مقبول على البعض في CIA؟ وما هي بالضبط "الأســباب التي تتعلق بالأمن القومي" التي أدّت إلى رفض مطالب محامي شركة بان أم؟

خــلال الســنين، طفــت هــذه الأسئلة على السطح أمام الدوائر المغلقة لأجهزة اســتخبارات مختلفة، وبقيت الإجابات طي الكتمان الشديد؛ ليس أقلها الحقيقة حول سر أخير. لماذا أرسل الموساد كاستا يعمل في لندن شمالاً إلى لوكربي في غضون ساعات من سقوط بان آم 103؟

لــم يفصــح الجهــاز لغاية الآن عما يعرفه عن تحطّم الطائرة، وهناك مصادر، طلبــت عــدم الكشف عن اسمها لأن ذلك سيعرّض حياتها للخطر، تدّعي بأن الموساد يحــتفظ بالمعلومــات كبطاقة رابحة في حال زادت واشنطن من ضغطها على الجهاز لإيقاف نشاطاته الاستخباراتية في الولايات المتحدة.

الشــيء المؤكــد هــو أن هــناك حلقــة أخرى قد تتسبب بإحراج كبير لمجتمع الاســتخبارات الأميركــي، وتــتعلق بموت عميرام نير، الرجل الذي يحب مغامرات جيمس بوند والذي حلّ مكان ديفيد كيمش كضابط اتصال إسرائيل في فضيحة إيران – غيت.

كــان عمــيرام نير مناسباً تماماً ليكون مستشار رئيس الوزراء شمعون بيريس لشــؤون الإرهاب. وكان نير مغامراً، وفضولياً، ومحباً لاكتساب المهارات، ومتلاعباً وقاســياً؛ ويمــتلك سحراً خاصاً، ويفتقد للانضباط الذاتي، ولديه قدرة على السخرية، والقــيام بقفزات خيالية، وخرق القوانين للعمل في بيئة تمزج الواقع بالخيال. وقد كان صحفياً.

انبثقت معرفته السابقة بالاستخبارات من عمله كمراسل للتلفاز الإسرائيلي، ومن ثــم عمله لصالح أكبر صحيفة يومية في البلاد يديعوت أحرنوت؛ والتي كانت تملكها ســيدة من سلالة موسى (عليه السلام)، والتي تزوجها لاحقاً. كانت إمبراطورية النشر تمــثّل كــل ما لم يستطع روبرت مكسويل أن يكونه يوماً: الاحترام، والتمويل الآمن؛ وكانت السيدة تعامل موظفيها وفق القول المأثور: "راتب كافٍ لعمل يوم شاق". وزواج نــير لــم يجعله زوجاً لواحدة من أثرى السيدات في إسرائيل وحسب، وإنما قدّم لــه

علاقات جاهزة مع الدوائر العليا في هرم السلطة السياسية.

رغم ذلك، كان هناك دهشة عندما أصبح واحداً من أهم أعضاء مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي سنة 1984 عندما عيّنه بيريس مستشاراً له لمحاربة الإرهاب وهو موقع شديد الحساسية.

كان نير يبلغ من العمر أربع وثلاثين سنة، وكان التحاقه بدورة IDF قصيرة يمثّل الخبرة الوحيدة المتوفرة لديه عن عمل الاستخبارات. وحتى ضمن أصدقائه، كان الرأي الغالب أنه يحتاج إلى ما هو أكثر من الحظ الجيد للنجاح في عمله الجديد.

كان نعوم أدموني رئيس الموساد أول من علّق على تعيين نير: "تم تغيير بنية لجنة رؤوساء الأجهزة لإقصاء نير عن مناقشاتها". أمضى نير الأسابيع الأولى من عمله يقرأ برباطة جأش كل ما تقع عليه يداه، وسرعان ما ركّز على عملية السلاح - إلى - إيران التي كانت ما تزال مستمرة. لدى شعوره بأن هناك فرصة لإثبات نفسه، حثّ نير بيريس على أن يتولى الدور الذي تخلى عنه ديفيد كيمش. ومع تعيين آري بن - ميناش الذي لا يكل ولا يمل مستشاراً خاصاً له، وجد نير نفسه يعمل أيضاً مع أوليفر نورث.

سرعان ما أصبح التعاون بين الرجلين وثيقاً، ويعقدان الصفقات عبر الكرة الأرضية، ووضعا، خلال رحلاتهما معاً، خطة لوضع نهاية ناجحة بشكل مذهل لصفقة السلاح - مقابل - الرهائن. وكانا سيذهبان إلى طهران ويجتمعا بالقيادة الإيرانية ويتفاوضا لإطلاق سراح الرهائن.

في 25 أيار سنة 1986، سافر نير ونورث بصفة تقنيين يعملان لصالح شركة الطيران الأيرلندية الوطنية من تل أبيب إلى طهران على متن طائرة إسرائيلية عليها رسم نبات النّفل (نوع من البرسيم مثلث الورقة)، وهو الشعار الخاص بأيرلندا. وعلى متن الطائرة كان هناك سبعة وتسعون صاروخاً موجهاً من طراز تو، وصندوق من قطع غيار صواريخ هووك. كان نير يسافر باستخدام جواز سفر أميركي مزيف قدّمه له نورث.

حثّ نورث، الذي لطالما كان مسيحياً تبشيرياً، الرئيس ريغان على توقيع نسخة من الإنجيل لتقديمه هدية لآية الله رفسنجاني، المسلم الورع. كما أحضر معه أيضاً كعكة شوكولاته ومجموعة من مسدسات كولت لمضيفهما. كان ذلك كله تذكيراً بالأيام التي اشترى بها التجار الأرض من الهنود في مانهاتن. ولم يعرف الموساد بالمهمة سوى عندما دخلت الطائرة الأجواء الجوية الإيرانية. وتم وصف رد فعل نعوم أدموني

بأنه "غضب ثائر".

لحسن الحظ، طلب الإيرانيون من زوارهم الخروج ببساطة، واستخدموا المهمة لتحقيق نصر إعلامي كبير ضد الولايات المتحدة. وانتاب ريغان الغضب. في تل أبيب، اتهم أدموني نير بأنه مجرد "راعي بقر". ورغم ذلك، استطاع نير البقاء في منصبه الحكومي لعشرة شهور أخرى، حتى وصلت الدعوات ضمن مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي لإقالته إلى مرحلة قاسية. وخلال تلك الشهور، مرت قضايا هنداوي، وفعنونو وصوان على مكتبه، ولكن الموساد رفض ببرودة أي اقتراحات قدّمها حول كيفية التعامل مع تلك المسائل.

استقال عميرام نير، بعدما أصبح شخصاً غير مرغوب به في واشنطن ومعزولاً في تل أبيب، من منصبه كمستشار لرئيس الوزراء لشؤون مكافحة الإرهاب في آذار سنة 1987. ولكن زواجه أيضاً كان يواجه المتاعب عندها، وتقلصت دائرة أصدقائه. وبقي آري بن – ميناش أحد صلات نير القليلة مع الماضي. وفي وقت مبكر من سنة 1988، غادر نير إسرائيل للعيش في لندن.

أقام هناك في منزل مع كندية جميلة سوداء الشعر تدعى أدريانا ستانتون، والتي تبلغ من العمر خمس وعشرين سنة، وادّعت بأنها أمينة سر من تورنتو، وكان نير قد التقاها خلال سفره. كان العديد من ضباط الموساد يعتقدون أنها مرتبطة مع CIA، وأنها إحدى النساء اللواتي تستخدمهن الوكالة لنصب المكائد. في لندن، عمل نير كممثل أوروبي لشركة مكسيكية تبيع الأفوكادو، وتدعى "نوكال دو مكسيكو"، ومقرها في أوروبان. كانت الشركة تسيطر على ثلث سوق صادرات البلاد من الأفوكادو.

لكن الأفوكادو لم يكن السبب الذي جاء بآري بن – ميناش إلى باب نير في ليلة ماطرة من تشرين الثاني سنة 1988، وإنما أراد أن يعرف ما الذي ينوي نير كشفه بالضبط عندما سيمثل كشاهد رئيسي في محاكمة أوليفر نورث القادمة حول دوره في فضيحة إيران – كونترا. وأوضح نير بأن شهادته ستكون محرجة جداً ليس فقط لإدارة ريغان، وإنما لإسرائيل أيضاً. كان ينوي كشف السهولة التي تمّت بها تنحية كل الحسابات والتوازنات للقيام بعملية غير قانونية اشتركت بها أيضاً عدّة بلدان، منها جنوب أفريقيا وتشيلي. أضاف بأنه يخطط لنشر كتاب يعتقد بأنه سيجعل منه أعظم كاشف للأسرار في تاريخ دولة إسرائيل. اتخذ بن – ميناش الترتيبات اللازمة للقاء نير بعد قيامه بزيارة أخرى إلى نوكال في المكسيك. أثناء ذلك، نبّه الضيف نير ليكون "حذراً من تلك المرأة!" بعد أن تركتهما أدريانا ستانتون لوحدهما. رفض بن – ميناش

الكشف عن سبب ذلك التحذير ما عدا القول، بأسلوبه الغامض غالباً: "أعرفها من قبل، ورغم أن نير لا يعلم ذلك، إلا أن أدريانا ستانتون ليس اسمها الحقيقي".

في 27 تشرين الثاني سنة 1988، سافر نير وستانتون معاً إلى مدريد باسمين مستعارين. وسمّى نفسه باتريك ويبر، وهو الاسم الذي استخدمه في رحلته غير الموفقة إلى طهران. تم تسجيل ستانتون على قوائم شركة الطيران الإسبانية أيبيرا باسم إستر أريا. ولا تفسير إطلاقاً لاستخدامهما اسمين مستعارين على تذاكر الطيران رغم أنهما كانا يسافران بجوازي سفرهما الحقيقيين؛ إسرائيلي وكندي. كان السر الآخر هو سبب ذهابهما إلى مدريد أولاً رغم وجود عدة رحلات مباشرة إلى مدينة المكسيك. هل كان نير يحاول إثارة إعجاب حبيبته بسهولة خداع معظم الناس معظم الوقت؟ أو هل كان هناك خوف متأصل في باطن ذهنه بعد زيارة بن – ميناش؟ وكما هو حال معظم ما حدث لاحقاً، تبقى هذه الأسئلة دون أجوبة.

وصلا إلى مدينة مكسيكو في 28 تشرين الثاني. كان ينتظرهما في المطار رجل لم يتم التعرف على هويته أبداً. سافر ثلاثتهم إلى أورابان، ووصلوا إلى هناك بعد الظهر. واستقلوا من هناك طائرة "سيسنا تي 210" استأجروها من شركة صغيرة في أورابان.

مرة أخرى، يتصرف نير بشكل غريب، فقد استأجر الطائرة باسم باتريك ويبر، واستخدم بطاقة ائتمان تحمل ذلك الاسم لدفع النفقات، واتفق مع الطيار على السفر إلى مزارع شركة نوكال والبقاء معهم ليومين. سجل نير نفسه في الفندق المحلي باسمه الحقيقي. واختفى الرجل الذي اصطحبهم من مدينة المكسيك بنفس الطريقة الغامضة التي ظهر بها.

في 30 تشرين الثاني، ظهر نير وستانتون في مطار أورابان الصغير، مع رجل آخر هذه المرة، والذي كان مدرجاً على قائمة الركاب باسم بيدرو إسبونزا هونتادو. ستبقى الجهة التي يعمل لصالحها هونتادو سراً غامضاً آخر. هناك سر آخر هو سبب استخدام نير وستانتون، عند تسجيل نفسيهما على قائمة الركاب، لهوياتهما الحقيقية. وحتى في حال لاحظ الطيار اختلاف الاسم الذي سافر به نير على متن "سيسنا"، إلا أن الأمر مرّ دون تعليقات.

أقلعت الطائرة في أجواء جيدة، وعلى متنها الطيار، ومساعده والركاب الثلاثة. وبعد أن قطعت الطائرة مئة ميل من رحلتها، تعرّض محرك "سيسنا" فجأة للمشاكل وتحطّمت بعد دقائق قليلة، مما أدى لمقتل نير والطيار. وتعرّضت ستانتون لإصابات

بالغة، فيما كانت إصابة كل من مساعد الطيار وهونتادو أقل. وفي الوقت الذي وصل فيه أول رجال الإنقاذ بيدرو كروشيت إلى موقع الحادثة، كان هونتادو قد اختفى؛ لم يرَ أحـد أيـاً من هؤلاء الأشخاص ثانية. ستبقى الطريقة التي تمكّن بها كروشيت من أن يكون أول الواصلين إلى موقع الحادث سراً آخر. لقد ادّعى كروشيت أنه يعمل لصالح نوكال؛ لكن مصنع الشركة كان بعيداً جداً. ولم يستطع أن يشرح سبب وجوده بالقرب مـن موقـع الحطـام. عندما طلبت منه الشرطة إثبات هويته، تظاهر بأنه فقد بطاقته الشخصـية فـي مصـارعة للثيران. وتبين فيما بعد أن كروشيت أرجنتيني يعيش في المكسيك بشكل غير قانوني. في الوقت الذي تم فيه التوصل إلى تلك الحقيقة، كان هو الآخـر قـد اختفى أيضاً. في موقع الحطام، انتشل كروشيت جثة نير وتعرّف عليها، ورافـق ستانتون إلى المستشفى. وكان معها عندما ظهر مراسل محلي يطلب تفاصيل أكثر.

تدّعي جويل بينرمان، التي نشرت تقريراً عن الاستخبارات السياسية الإسرائيلية: "قالت إحدى الشابات إن كروشيت كان موجوداً. وعندما ذهبت لإبلاغه، ظهرت امرأة أخرى عند الباب وقالت للصحيفة إن كروشيت ليس موجوداً وأنها لم تسمع به إطلاقاً. أكّـدت المرأة أن وجود ستانتون على متن "سيسنا" كان محض مصادفة وأن لا علاقة لها بالإسرائيلي. ورفضت التعريف عن نفسها باستثناء القول إنها جاءت إلى المكسيك في رحلة سياحية من الأرجنتين".

زادت سـتانتون من الغموض عندما أخبرت المحققين وفقاً للصحفي الإسرائيلي ران إيدلسـت سـنة 1997: "رغـم أنها كانت مصابة وتحت تأثير الصدمة، إلا أنها شاهدت عميرام نير على بعد عدّة أمتار، يلوح لها ويواسيها بصوته المعتاد. "كل شيء سيكون على ما يرام. النجدة في الطريق!" وأكّدت مرتين في الأيام التالية أن نير على قيد الحياة".

تم إرسال جثة نير إلى إسرائيل لدفنها. وحضر ما يزيد عن ألف شخص جنازته، وتحـدث وزير الدفاع إسحاق رابين في مراسم تأبينه عن "المهام السرية التي قام بها نير في مواقع لم يتم كشفها بعد، والأسرار التي حافظ عليها في قلبه".

هـل تم اغتيال عميرام نير للتأكد من عدم كشفه إطلاقاً لتلك الأسرار؟ هل كانت جثة نير في الكفن؟ أم تم قتله قبل تحطم الطائرة؟ وفي هذه الحالة، من قام بذلك؟ وفي تل أبيب وواشنطن، استمر غطاء من السرية في إخفاء كل تلك الأسئلة.

بعـد يوميـن مـن تحطم الطائرة، خرج آري بن – ميناش من مكتب بريد في

سانتياغو، تشيلي، وبرفقته حارسان شخصيان كان يعتقد أن وجودهما مهم لحمايته. وفجأة: "تبعثر زجاج النافذة التي كنت أمشي بجانبها. ثم ضرب شيء بالحقيبة المعدنية التي كنت أحملها. واستلقيت مع الحارسين الشخصيين على الأرض، بعدما أدركنا أن أحداً يطلق النار علينا".

كانت ستانتون تعتقد أيضاً أن حياتها في خطر. ووفقاً لإيدلست، أخبرته مصادره في الاستخبارات بأنها "أصبحت منعزلة، وخضعت لجراحة تجميلية؛ وغيّرت مظهرها".

اعتقد الموساد بشكل متزايد أن CIA اغتالت نير. ووفقاً لآري بن – ميناش: "لطالما اعتقدت الاستخبارات الإسرائيلية بأنها كانت عملية CIA منفّذة بدقة. كان موت نير يضمن عدم إحراج ريغان وبوش في محاكمة أوليفر".

جاء الدعم لنظريته من قائد في البحرية الأميركية رافق نير إلى طهران في مهمة تحرير رهائن بيروت. لقد تمحورت قصة القائد حول ادعائه بأن نير التقى جورج بوش، الذي كان حينها نائباً للرئيس، في 29 تموز 1986، في فندق الملك ديفيد في القدس ليطلعه على مبيعات الأسلحة الأميركية المستمرة إلى إيران عبر إسرائيل. ووفقاً للكاتبة جويل بينرمان: "كان نير يسجل سراً المحادثة بأكملها. وزوّده الشريط بدليل يظهر علاقة بوش بصفقة السلاح – مقابل – الرهائن. وحضر اللقاء كل من مكي وغانون، اللذين ماتا في تحطم رحلة بان آم فوق لوكربي".

تصف بينرمان زيارةً قام بها ذلك القائد إلى مقر قيادة CIA في لانغلي حيث التقى أوليفر نورث قبل بضعة شهور من مواجهة العقيد للمحاكمة. وبكلمات الكاتبة، سأل القائد نورث: "ما الذي حدث لنير. أخبره نورث "أن نير لقي حتفه لأنه هدّد بنشر تسجيل اجتماع القدس".

تجاهل نورث الصحفيين الذين حاولوا مقابلته لاستيضاح تلك المسألة. وحافظ مساعدو بوش على موقف مشابه بمرور السنين: أعلن الرئيس السابق للولايات المتحدة كل ما ينبغي قوله حول إيران – غيت.

في أواخر تموز سنة 1991، تعرّض منزل جودي، أرملة نير للسرقة. ولم يؤخذ شيء سوى تسجيلات ووثائق نير. قالت الشرطة إن اقتحام المنزل كان من صنع "محترفين بارعين". قالت جودي نير إنها متأكدة من أن المواد المسروقة تحتوي على "معلومات تهم أشخاصاً معينين". ورفضت المضي أبعد من ذلك. ولم تتم استعادة تلك الوثائق أبداً. وبقيت إجابة السؤال حول هوية السارقين غير معروفة.

خلال السنوات الأربع التالية، استمر شابتي شافيت في إدارة الموساد، وبذل كل جهـد ممكن لإبقاء الجهاز بعيداً عن العناوين الصحفية وحراً من تأثير الخرافات أثناء جمعه للمعلومات.

بعيداً عن النظرة العامة، لم يفقد السباق القديم للوصول إلى السلطة ضمن مجتمع الاسـتخبارات الإسـرائيلي أيـاً من طاقته. كان السياسيون الذين يشرفون على لجنة الاسـتخبارات الفرعية ما زالوا يتذكرون كيف تغلب عليهم شافيت بعد حرب الخليج. تـبقى الذكريات عالقة في إسرائيل كما في أي مكان آخر، واستمرت الحملة الواسعة ضـد شافيت: كان نشاطه ضيقاً للغاية، وكانت القناة الخلفية مع CIA بالكاد تعمل، ولم يكـن جـيداً فـي اختيار الأشخاص، وكان منعزلاً عن الضباط والأفراد الذين هبطت معنوياتهم.

اخـتار شـابتي شـافيت تجاهل إشارات التحذير. وفجأة، وفي صبيحة أحد أيام الربـيع سـنة 1996، تم استدعاؤه إلى مكتب رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو وإخباره باسـتبداله. ولم يحاول شافيت الاحتجاج؛ فقد كان قد رأى ما يكفي من نتنياهو ليعرف بأن ذلك دون جدوى. وطرح سؤالاً واحداً فقط: من هو الخَلَف؟

أجاب نتنياهو: داني ياتوم. وكان يوم البروسي في الموساد قد حان.

الفصل السابع عشر

عمل غير متقن

كـان الفجـر ينبـثق يـوم الخميس 16 كانون الثاني سنة 1998 عندما اندفعت السـيارة الحكومـية خارج البيت المطلي باللون الأبيض في ضاحية أنيقة بالقرب من السـور المشـحون بالكهـرباء الذي يشكل الحدود بين إسرائيل والأردن. في إحدى اللحظـات الفاصـلة مـن تاريخ إسرائيل، اعتمدت البلاد بشكل كامل على جواسيس جدعون، المحارب اليهودي العظيم، والذين قاموا بمهام لجمع المعلومات الاستخباراتية لتمكين الإسرائيليين من هزيمة قوى متفوقة بشكل مطلق. كان داني ياتوم آنذاك يضع اللمسات الأخيرة على عملية ربما تنقذ حياته المهنية.

منذ الكارثة في شوارع عمّان في تموز سنة 1997، عندما فشل فريق كيدون في اغتـيال قـائد حمـاس خـالد مشـعل، كانت الشهور السبعة الأخيرة كما أخبر ياتوم أصدقاءه: "مثل العيش على حافة مبنى ينتظر سقوط المعول عليه".

كان رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو ينتظر أي هفوة منه لإبعاده. وساءت العلاقة التي كانت جيدة في وقت ما بينهما إلى درجة لم يعد يمر يوم دون ظهور تعليقات في مكتب رئيس الوزراء تستهدف مدير الموساد بنفس الطريقة: إنها مسألة وقت فقط قبل تنحيـته. كـان رجال آخرون سيقدّمون استقالاتهم، ولكن ليس ياتوم، الذي كان فخوراً بنفسـه ومهـاب الجانب ومستعداً للدفاع عن إنجازاته. كان هناك الكثير من العمليات الـناجحة التـي أمـر بهـا، والتي لم يكن أحد خارج الجهاز يعرف عنها شيئاً. أخبر أصدقاءه بمرارة: "وحدها الأعمال الفاشلة يتم إلقاؤها على عتبة بابي".

لاحـظ أصـدقاؤه، إضافة إلى عائلته، التوتر الذي أصابه: عدم النوم في الليل، نوبـات الغضـب المفاجـئة وغير المتوقعة، والتي تهدأ بسرعة؛ والسير المستمر في المكان جيئة وذهاباً؛ فترات الصمت الطويلة؛ وهي جميعها علامات واضحة عن رجل يتعرض لضغط هائل.

كـان ما يزال يعاني - بعد سنتين قضاهما في منصبه - من ضغوط لم يتعرض

لهـــا أي مدير سابق للموساد سابق. نتيجة لذلك، كان يفقد الثقة بموظفيه بشكل متزايد، ولـــم يعـــد يســـتطيع الاعـــتماد على ولائهم. كانت وسائل الإعلام تحوم حوله بعد أن استشـــعرت أن وضـــعه لـــيس على ما يرام، ولكنها كتمت الخبر في انتظار أن يقوم الـــرجل الـــذي وثـــق به ياتوم يوماً - ولم يعد كذلك - باستخدام المعول أخيراً. كان بنيامين نتنياهو يحافظ على مسافة بعيدة عنه لغاية ذلك الوقت.

لكـــن في أحد أيام شباط الباردة، كان ياتوم يعرف بأن الوقت ينفد منه. لهذا كان بحاجـــة لتنفيذ العملية التي خطط لها خلال الأسابيع الماضية، والتي كانت تهدف إلى إقـــناع رئيس الوزراء أن مدير استخباراته لم يفقد مهاراته. لكنّ أياً من ذلك لم يظهر على وجه ياتوم، ورغم كل ما تحمّله، أبقى مشاعره حبيسة نفسه. فيما كان يجلس في زاويـــة المقعـــد الخلفي من سيارة البيجو، كان ياتوم مسترخياً ويبدو مهيباً في سترته القصيرة من الجلد الأسود، وقميصه المفتوح عند العنق، وبنطاله الرمادي اللون. كان ذلك ما يرتديه عادة أثناء العمل لأن الملابس لم تكن تثير اهتمامه إطلاقاً.

كان شعره الذي يرفعه للخلف، ونظاراته ذات الإطار الفولاذي، وشفتاه الرقيقتان تتناســـب مع اسمه المستعار - البروسي. كان يعلم بأنه ما زال قائداً بشيء قريب من الخـــوف. كانت صحف الصباح إلى جانبه على المقعد: لمرة واحدة لم يكن هناك توقع حول مستقبله.

شـــقت البيجو طريقها نـــزولاً عن التلال باتجاه تل أبيب، وكانت الشمس تنعكس عـــن هيكلها المصقول، والذي يقوم سائقها بتلميعه صباحاً ومساءً لتصبح السيارة مثل المرآة. كان للبيجو نوافذ مضادة للرصاص، وهيكل مصفح وأرضية مضادة للألغام. لم تكن سوى سيارة رئيس الوزراء الرسمية تتمتع بمثل تلك المواصفات.

عيّـــن بنيامين نتنياهو ياتوم في منصب مدير عام الموساد بعد دقائق من مغادرة شـــابتي شافيت. خلال أسابيع ياتوم الأولى في منصبه، كان يقضي أمسية واحدة على الأقل كل أسبوع مع رئيس الوزراء. كانا يلتقيان حول كؤوس الشراب الباردة وأطباق الزيتون ويناقشان المسائل العالمية، ويتذكران الأوقات التي كان فيها ياتوم قائداً لبيبـــي فـــي وحـــدة مغاويـــر IDF. ارتقـــى نتنياهو فيما بعد ليصبح سفير إسرائيل في الأمم المـــتحدة، وتحـــول خـــلال حرب الخليج إلى خبير في الإرهاب الدولي يمتلك أسلوبه الخـــاص، وكـــان يظهـــر في وسائل الإعلام مع قناع غاز على وجهه تحسباً لسقوط صواريخ سكود بالقرب منه. قال ياتوم، من جهته، إنه استساغ كثيراً دور الدخيل الذي تـــم تعييـــنه في أهم مناصب مجتمع الاستخبارات في البلاد: الجندي المحترف المثالي

الذي خدم كملحق عسكري لرئيس الوزراء إسحاق رابين.

كان نتنياهو وياتوم يبدوان متلازمين حتى وقوع حادثتين محرجتين تسببتا بفجوة واسعة بين الرجلين لا يمكن جسرها. كان هناك مسألة الفشل في عمّان للعملية التي أمر بها نتنياهو شخصياً. عندما فشل الهجوم، وتم إلقاء القبض على كاستا الموساد بالجرم المشهود أمام أجهزة الإعلام العالمية، وجّه رئيس الوزراء اللوم لياتوم على ذلك الإخفاق، وتقبّل الانتقاد دون جدال؛ وأخبر أصدقاءه في اجتماعات خاصة أن نتنياهو يمتلك "شجاعة إلقاء اللوم على أشخاص آخرين".

طفت حادثة أخرى، أكثر إحراجاً بطرق عديدة، على السطح. في تشرين الأول سنة 1997، اكتشف الموساد أن أحد ضباطه البارزين ويدعى يهودا جل كان يلفّق، على مدار العشرين سنة الماضية، تقارير سرية للغاية من عميل غير موجود في دمشق. اقتطع جل مبالغ كبيرة من أموال الموساد ليدفع لذلك الرجل، ولكنه عوضاً عن ذلك اختلسها لنفسه. تم اكتشاف الحيلة عندما قام أحد محللي الموساد بدراسة آخر تقارير العميل التي تقول إن سورية على وشك مهاجمة إسرائيل، وشك في محتواه. واجه ياتوم جل الذي أدلى باعتراف كامل.

ثار نتنياهو غضباً. وفي اجتماع عاصف في مكتب رئيس الوزراء، تم استجواب ياتوم بقسوة حول طريقته في إدارة الموساد. دافع ياتوم بأن جل استمر في عملية الخداع تحت قيادة أربع مدراء سابقين. صرخ نتنياهو أنه ينبغي على ياتوم أن يعرف ذلك. كانت تلك مرحلة أخرى من القطيعة. لم يستطع الموظفون في مكتب رئيس الوزراء أن يتذكروا مثل ذلك التوبيخ. وتم تسريب التفاصيل إلى وسائل الإعلام، مما سبب المزيد من الإحراج لياتوم.

كان الأمر مختلفاً تماماً عندما يأتي إلى مكتبه واسمه منتشر في وسائل الإعلام العالمية. كان المراسلون يدعونه بالأيدي الأمينة، وكان هناك توقع بأنه سيتظاهر بأنه واحد من مدراء الاستخبارات الناجحين السابقين - عميت، وهوفي وأدموني - بأنه يضرم من جديد النار التي عمل على إخمادها شابتي شافيت.

لم يكن الدليل بعيداً. وبالرغم من أن اتفاقية أوسلو منحت منظمة التحرير الفلسطينية دولة - قطاع غزة والضفة الغربية - زاد ياتوم من عدد العملاء العرب للتجسس على ياسر عرفات. وأمر مبرمجي الموساد لتطوير برامج جديدة لاختراق حواسب منظمة التحرير الفلسطينية، وابتكار فيروسات إلكترونية لتدمير أنظمة اتصالاتها إذا اقتضت الضرورة. طلب ياتوم من العملاء في قسم البحث والتطوير

التركيز على الأسلحة الذكية التي يمكنها إقحام دعاية سوداء في أنظمة بث العدو. أراد أن يصـــبح الموســـاد جزءاً من العالم الجديد الرائع الذي ستكون أسلحته في المستقبل لوحات المفاتيح التي تشل قدرة العدو على الاستفادة من قواته العسكرية.

عاد ياتوم إلى أرضية عمليات الموساد القديمة في أفريقيا. في شباط سنة 1997، قـدّم الجهـاز معلومات مهمة جداً ساعدت قوات التمرد على إسقاط الرئيس الزائيري موبوتـو، والذي هيمن لوقت طويل جداً على أفريقيا الوسطى. ووثّق الموساد علاقاته أيضاً مع جهاز أمن نلسون مانديلا، وساعده في استهداف المتشددين البيض الذين عمل مـع الكثيريـن مـنهم فيما مضى. وزاد ياتوم أيضاً من ميزانية وقوة وحدة الموساد الخاصة "آل" المسؤولة عن سرقة آخر الأبحاث العلمية الأميركية.

فـي عمـر الواحـدة والخمسين، كان هناك شيء لا يمكن وقفه في داني ياتوم؛ الرجل الذي لا يتعب، والذي يمتلك جرأة مقاتل الشوارع. لقد طبع ذلك ردة فعله على اكتشـاف FBI، في كانون الثاني سنة 1997، لميغا – عميل الموساد العالي المستوى والشـديد التغلغل في إدارة كلينتون. أخبر "لجنة رؤساء الأجهزة"، التي يتضمن دورها اعتماد خطة بديلة في حالة الفشل العملياتي، أن كل ما يتطلبه الموقف أن تتأكد اللجنة من مواجهة اللوبي اليهودي القوي في الولايات المتحدة لمطالب من المنظمات العربية بـأن يتم الكشف عن ميغا بنفس الطريقة التي تتعامل بها FBI مع جواسيس من بلدان أخـرى. لـم يفـوّت ضيوف العشاء اليهود على طاولة طعام البيت الأبيض – نجوم هولـيوود، ومحـامون، ورؤساء تحرير صحف – أي فرصة لتذكير الرئيس بالضرر الـذي ستسـبّبه مـثل تلـك المطاردة الوهمية؛ والضرر الأكبر في حال اعتقال أحد موظفـيه. في فترة رئاسية محاصرة بفضيحة سابقة، قد يفتح ذلك المجال أخيراً لتدمير كلينـتون. بعد ستة شهور، وفي 4 تموز سنة 1997، وهو عيد الاستقلال في الولايات المتحدة، علم ياتوم بأن FBI كف بهدوء عن ملاحقة ميغا.

جاءت كارثة شوارع عمّان بعد شهرين، وتبعتها بسرعة فضيحة العميل الذي لم يكـن موجوداً أبداً. وبدأ داني ياتوم يبحث عن عملية جديدة ستعيد له جزءاً من هيبته. فـي صبيحة ذلك اليوم من كانون الثاني سنة 1998، كان في طريقه لوضع اللمسات الأخيرة على الخطة.

بـدأ التخطـيط للعملـية قـبل شهر، بعدما التقى مخبر عربي في جنوب لبنان بالمشـرف علـيه في الموساد وأخبره أن... قام بزيارة قصيرة إلى بيروت للقاء قادة حـزب الله فـي المديـنة. وانتقل... بعدها إلى الجنوب لرؤية والديه في قرية رمّان

الصغيرة. وكانت تلك مناسبة للاحتفال: لم يأتِ زين للمنـــزل منذ حوالى السنة. وأطلع أقاربه على صور لزوجته الإيطالية الشابة وشقتهما في أوروبا.

حـــثّ المشرف نفسه على عدم الضغط على المخبر؛ وانتظر أن يخبره بما لديه من معلومات بكامل تفاصيلها على الطريقة العربية: كيف غادر... منــزل والديه في الــيوم التالــي محمّلاً بالهدايا والطعام العربي الشهي لزوجته، وكيف رافقه حزب الله طوال الطريق إلى مطار بيروت ليحلق بطائرته إلى سويسرا.

سأل المشرف أخيراً: هل كانت تلك وجهة زين النهائية؟ نعم، بيرن في سويسرا. وهل يعيش زين هناك؟ وكان المخبر يعتقد ذلك، ولكنه ليس متأكداً.

رغــم ذلــك، كانــت تلك أول أنباء إيجابية يحصل عليها الموساد عن زين منذ مغادرته لبنان لتنظيم نشاطات جمع الأموال لحزب الله ضمن المسلمين الشيعة الأثرياء فــي أوروبــا. كانــت تتجمع أموالهم، إلى جانب تلك التي تأتي من إيران، في سفارة الأخيرة في بون وكان يتم دفع الأموال لحزب الله ليشنّ حربه ضد إسرائيل. في السنة الماضــية، كان هناك تقارير بأن زين يعمل انطلاقاً من باريس، ومدريد، وبرلين. لكن في كل مرة كان ياتوم يرسل فيها أحداً للتحقق من صحة المعلومات، لم يكن هناك أثر لذلــك الرجل النحيل البالغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة، والذي يحب ارتداء الملابس والأحذية الإيطالية الأنيقة التي تماشي الموضة.

أرســل ياتوم كاستا إلى بيرن من بروكسل التي نقل إليها الموساد مؤخراً مركز قــيادة العملــيات الأوروبــية من باريس. أمضى الكاستا يومين في بيرن يبحث دون جدوى عن زين، وقرّر أن يوسع من نطاق بحثه، وانطلق جنوباً إلى ليبفيلد، وهي بلدة جمــيلة. كــان الكاســتا قد سار في شوارعها آخر مرة منذ خمس سنوات، في طريق مغادرته سويسرا عندما كان جزءاً من فريق دمّر مستودعات سوائل معدنية في شركة هندسة حيوية قرب زيوريخ؛ والتي كانت مخصصة لتصنيع بكتيريا طلبتها إيران. دمّر الفريق المستوعبات باستخدام أجهزة تفجير، وألغت الشركة عقودها مع إيران.

فــي ليبفــيلد، أظهر الكاستا أن عمل الاستخبارات الجيد غالباً ما يعتمد على المتابعة الصــبورة. ســار في الشوارع، يبحث عن أي شخص قد يكون من الشرق الأوسط، وتفقّد دليل الهاتف بحثاً عن اسم... واتصل بالمكاتب العقارية ليكتشف ما إذا قاموا بتأجير أو بيع عقــار لأي شخص بذلك الاسم. اتصل بالمستشفيات والعيادات المحلية ليسأل عن مريض بذلك الاسم. كان يقول في كل مرة إنه قريب له. مع نتيجة سلبية في نهاية يوم عمل شاق، قرّر الكاستا القيام بجولة أخرى في البلدة، وبسيارته هذه المرة.

قـــاد ســـيارته لبعض الوقت عبر الشوارع قبل أن يرى رجلاً داكن البشرة، مرتدياً ملابـــس ثقـــيلة نتيجة البرد القارص، ويقود فولفو في الاتجاه المعاكس. لم يكن هناك سوى لمحـــة خاطفة، ولكنّ الكاستا كان مقتنعاً بأن السائق هو... في الوقت الذي وجد فيه الكاستا تقاطعاً للدوران بسيارته، كانت الفولفو قد اختفت. في مساء اليوم التالي، عاد الكاستا وركن ســـيارته فـــي موقع يمكّنه من ملاحقة الفولفو، والتي ظهرت بعد وقت قصير. سار الكاستا خلفها، وتوقفت الفولفو بعد ميل خارج مبنى سكني، وخرج السائق ودخل إلى المنـــزل في 27 وبرساكرستراس. لم يكن لدى الكاستا أي شك بأن الرجل هو...

تبع الكاستا... إلى المبنى السكني، وكان هناك بهو صغير يحتوي على صناديق بـــريد خلف الباب المصنوع من الزجاج السميك. كان أحدها يعرّف مالك إحدى الشقق فـــي الطـــابق الثالث على أنه... كان باب آخر في البهو يقود إلى منطقة الخدمات في القبو. فتح الكاستا الباب ونـــزل إلى القبو الذي كان على أحد جدرانه علبة هاتف لكل الشقق في المبنى، بعد ذلك بدقائق قليلة عاد إلى سيارته.

استأجر الكاستا منـــزلاً آمناً في اليوم التالي على بعد ميل من وبرساكرستراس، وأخبر شركة التأجير بأنه ينتظر وصول أصدقائه لقضاء عطلة تزلج.

استمر داني ياتوم في التخطيط، وأرسل خبيراً في الاتصالات إلى ليبفيلد لفحص علبة الهاتف. عاد التقني إلى تل أبيب مع مجموعة من الصور التي التقطها من داخل العلبة. درس قسم الأبحاث والتطوير الصور، وتم تعديل الأدوات التي سبق تحضيرها. كـــان أحدها جهاز تنصت متطور قادر على مراقبة كل الاتصالات الواردة والصادرة مـــن شقة زين. سيتم وصل الجهاز إلى مسجلة صغيرة قادرة على تسجيل ساعات من المكالمـــات الهاتفـــية. يمكـــن إفراغ المسجلة إلكترونياً بإرسال إشارة معدّة مسبقاً من المنـــزل الآمن، وسيتم نسخ التسجيلات هناك وإرسالها عبر فاكس آمن إلى تل أبيب.

فـــي الأســـبوع الأول من شباط سنة 1998، تم الانتهاء من كل الخطط التقنية، وانتقل ياتوم إلى الجزء الحاسم من العملية: اختيار الفريق الذي سينفذها. كانت العملية مؤلفة من مرحلتين. الأولى تتعلق بالحصول على دليل كافٍ عن أن زين ما زال لاعباً رئيســـياً فـــي نشـــاطات حزب الله، فيما المرحلة التالية تستهدف قتله. وكان كل شيء جاهزاً في منتصف شباط سنة 1998.

قـــبل الســـاعة 6:30 صـــباحاً بقلـــيل، يوم الاثنين 16 شباط، دخلت بيجو ياتوم المرآب في قبو مقر قيادة الموساد في تل أبيب، واستقل المصعد إلى قاعة الاجتماعات فـــي الطـــابق الرابع. وكان في انتظاره هناك رجلان وامرأتان يجلسون حول طاولة،

وكـــان كـــل اثنين منهم يؤلفان ثنائياً، وهو الدور الذي سيؤدونه في سويسرا. كان كل مـــنهم فـــي أواخــر العشرين من عمره، وأسمر البشرة من التعرض للشمس وجميل المظهر. كانوا خلال الأيام القليلة الماضية في المناطق الثلجية شمال إسرائيل يتدربون على التزلج.

فـــي اللـــيلة السابقة، تم إخبارهم بتفاصيل المهمة واختاروا طريقة التخفي. كان الرجلان سيتظاهران بأنهما تاجرا أسهم ناجحان، يأخذان استراحة قصيرة من عملهما بصـــحبة صـــديقتيهما، لكـــنهما لا يســـتطيعان وضع العمل خلف ظهريهما بالكامل: وسيشـــرح ذلـــك ســـبب حمل أحدهما لحاسب محمول، والذي تم تجهيزه ليكون صلة الوصـــل بيـــن المسجلة المخفية التي سيتم زرعها في قبو البناء وبين المنـــزل الآمن. كان أحد الثنائيين سيراقب المسجلة على مدار الساعة حالما تعمل. وكان الثنائي الآخر مـــن وحدة كيدون، ومهمتهما إيجاد أفضل طريقة لقتل... وسيسافر الجميع دون سلاح إلى سويسرا؛ وسيزودهم مكتب بروكسل بمسدسات هناك.

كـــان جهـــاز التنصت والمسجلة على طاولة غرفة الاجتماعات. تفحّصهما ياتوم وقال إن المعدّات أكثر تطوراً من أي شيء سبق ورآه. كانت تعليماته الأخيرة قصيرة، وســـأل كـــلاً مـــنهم عـــن الاسم المستعار الذي اختاره من القائمة المحفوظة في قسم العملـــيات. اختار الرجلان اسمي سولي غولدبيرغ وماتي فنكلشتاين؛ والمرأتان اسمي لـــيا كوهـــن وريتشـــل جاكوبســـون. كانوا سيسافرون جميعاً باستخدام جوازات سفر إســـرائيلية لأنهـــم سيســـتقلون رحلة العال مباشرة من تل أبيب. وكانوا سيستخدمون أسماءهم المستعارة في سويسرا، حيث ستكون جوازات السفر المزورة في انتظارهم.

وفقـــاً لمصـــدر في الاستخبارات الإسرائيلية، كان الأربعة "حاصلين على درجة التخرج". ولكن الحقيقة، أنه منذ الإخفاق في الأردن، كانت قائمة اختيار العملاء لمثل تلـــك المهمة محدودة. كان فريق عمّان الأفضل في الموساد وقادراً على تنفيذ مهمات ميدانـــية، وكـــان أفراده قادرين على تقديم أنفسهم كمواطنين كنديين؛ ويتمتعون جميعاً بخبرة كبيرة في العمل على الساحة الدولية. ولم يعمل الأربعة الذين تم اختيارهم لتنفيذ مهمـــة سويسرا سوى في القاهرة – كانت بيئة آمنة نسبياً للموساد – ولم يكن أي منهم يتمتع بخبرة عملية في العمل السري في سويسرا.

قـــد يكون هذا هو السبب الذي أنهى ياتوم لأجله الاجتماع – وفقاً لصحيفة *لندن تايمز* اللندنية – بتذكير الفريق أن السويسريين الذي يعيشون في ولايات تتكلم الألمانية حيث توجد ليبفيلد لديهم "ميل لاستدعاء الشرطة إذا شاهدوا أي شيء غير عادي".

صافحهم ياتوم وتمنّى لهم حظاً سعيداً، وهو الإجراء المعتاد مع أي فريق يغادر

لتنفيذ مهمة ما. حصل الفريق على تذاكر السفر وقضوا الساعات الأربع والعشرين التالية في أحد منازل الموساد الآمنة في المدينة.

في صبيحة يوم الثلاثاء التالي الموافق 20 شباط، صعدوا على متن رحلة العال رقم 347 المغادرة إلى زيوريخ، وكانوا قد وصلوا إلى مطار بن غوريون، بناءً على تعليمات شركة الطيران، قبل ساعتين من الإقلاع. وانضموا إلى طابور المسافرين الذين كان معظمهم سويسريين أو إسرائيليين، وعبروا نقاط التفتيش. عند الساعة 9:00 صباحاً كان الثنائيان في مقاعدهم في درجة رجال الأعمال يرتشفون الشراب ويتكلمون عن عطلتهم المنتظرة. كانت أدوات تزلجهم في عنبر الطائرة.

كان كاستا من محطة بروكسل ينتظرهم في مطار كلوتن في زيوريخ مع حافلة صغيرة. وادّعى أنه دليلهم السياحي واتخذ لنفسه اسماً مستعاراً هو إفرايم روبنشتاين.

استقر الجميع في وقت متأخر من ظهيرة ذلك اليوم في المنزل الآمن في ليبفيلد. وطهت المرأتان العشاء، وجلسوا جميعاً يشاهدون التلفاز. ووصلت سيارتان مستأجرتان من زيوريخ في وقت مبكر من المساء، يقود كل منهما سيانيم. وغادر السائقان في الحافلة الصغيرة، وكان دورهما قد انتهى. في حوالى الساعة 1:00 من بعد منتصف الليل من يوم الأربعاء 21 شباط، غادر الفريق المنزل الآمن، واستقل كل ثنائي سيارة منفصلة. كان روبنشتاين في السيارة الأولى، ويقود الفريق إلى وبرساكرستراس. وحالما وصلوا إلى هناك، ركنوا المركبتين في مواجهة المبنى السكني تقريباً. ولم يكن هناك ضوء في شقة زين. سار الأشخاص المدعوون سولي غولدبيرغ، وريتشل جاكوبسون وإفرايم روبنشتاين بسرعة نحو باب المبنى الزجاجي. كان روبنشتاين يحمل لفّة من البلاستيك، وغولدبيرغ الحاسب المحمول وجاكوبسون حقيبة تحتوي على جهاز التنصت. وأثناء ذلك، بدأ كل من ليا كوهن وماتي فنكلشتاين بتأدية دورهما في المراقبة، وتظاهرا بأنهما حبيبان.

كانت إحدى السيدات المتقدمات في السن التي تسكن في الجهة المقابلة من الشارع تعاني من الأرق - أصرّت الشرطة السويسرية على الإشارة إليها بالسيدة إكس - وغير قادرة على النوم. حدّقت من نافذة غرفة نومها على منظر غريب. رجل - روبنشتاين - يضع بلاستيكاً على الباب الزجاجي لمنع أي شخص من النظر، داخل المبنى السكني الذي يقع قبالة شقتها. كانت تستطيع رؤية شخصين آخرين خلف الغطاء. وهناك سيارة في الخارج يوجد فيها ثنائي آخر. كما حذّر داني ياتوم، كان ما رأته المرأة غير عادي، واتصلت بالشرطة.

بعد الساعة 2:00 بقليل، وصلت سيارة دورية من طراز "ب. م. ف." إلى

الشـــارع، وشـــاهدت كوهـــن وفنكلشتاين يتبادلان القبل. وأمرتهما الدورية بالبقاء في السـيارة. في هذه الأثناء، وصل دعم من الشرطة الذين سألوا الثلاثي داخل البهو عمّا يفعلونـــه هـــناك. قـــال غولدبـــيرغ وجاكوبســـون إنهما أخطآ المبنى الذي يعيش فيه أصدقاؤهم، وأصرّ روبنشتاين على أنه ينـــزع ولا يضع البلاستيك.

أصـــبحت الأمور سخيفة بعدها. طلب غولدبيرغ وجاكوبسون الإذن للذهاب إلى سـيارتهما وتفقّـد عـنوان أصدقائهما. ولم يخرج معهما أي رجل شرطة. وفي نفس الوقـت، وقـع روبنشتاين على الأرض متظاهراً بأنه يعاني من أزمة قلبية. تجمع كل رجـال الشرطة حوله وطلبوا له الإسعاف. لم يتحرّك أحد منهم لإيقاف السيارتين فيما كانـتا تهـربان خارج وبرساكرستراس نحو ظلمة الليل البارد. توقفت السيارتان بعد وقـت قصير لنقل أحد الثنائيين إلى السيارة الأخرى. وعبر الأربعة الحدود إلى فرنسا خـلال سـاعات الصـباح الأولى. وأثناء ذلك، تم نقل روبنشتاين إلى المستشفى، قال الأطباء إنه لا يعاني من أزمة قلبية. وتم وضعه رهن الاعتقال.

عـند الساعة 4:30 صباحاً بتوقيت تل أبيب، أيقظ ضابط المناوبة الليلة في مقر قيادة الموساد ياتوم في منـزله وأخبره بما حدث. لم ينتظر ياتوم للاتصال بسائقه، بل قاد السيارة بنفسه إلى مكتبه.

وضـع الموساد خطة، بعدما حدث في عمّان، للتعامل مع كوارث أخرى من هذا الـنوع. كانـت الخطـوة الأولى التي قام بها ياتوم الاتصال بموظف بارز في وزارة الخارجـية، والـذي اتصـل بدوره بمدير مكتب رئيس الوزراء، والذي أخبر بنيامين نتنياهو. اتصل هذا الأخير بسفير إسرائيل إلى المفوضية الأوروبية في بروكسل إفرايم هالفي. قضى الدبلوماسي المولود في إنكلترا حوالى ثلاثين سنة كضابط موساد مسؤول عـن المحافظـة علـى علاقات جيدة مع الأجهزة الأمنية في الدول الأجنبية التي لها علاقـات دبلوماسـية مع إسرائيل. كما لعب أيضاً دوراً مهماً في ترميم العلاقات مع الأردن بعـد فشـل العملية في عمّان. نُقل عن نتنياهو لاحقاً قوله لهالفي: "أصلح هذا، وستكون صديقي مدى الحياة".

تفقّـد السفير دفتر مذكراته الذي يحمله معه دائماً قبل أن يقرّر بمن يتصل أولاً: جـاكوب كيلبـيرغر، الموظـف البارز في وزارة الخارجية السويسرية. وكان هالفي بأفضـل حالاتــه الدبلوماسـية عندما قال: "هناك حادثة مؤسفة تخص الموساد". سأله كيلبيرغر: "كم هي مؤسفة؟"، وأجاب هالفي: "مؤسفة للغاية". كانت نبرة الصوت تشي بما وراءها، وهناك تفهم لذلك، أو هذا ما اعتقده هالفي حتى اتصل كيلبيرغر بالمدعي

العام السويسري كارلا دل بونت.

كانت دل بونت، بشفتها السفلى البارزة ونظاراتها ذات الإطار المعدني التي تشبه ما يضعه داني ياتوم، شخصية بارزة ومرعبة في النظام القضائي السويسري مثلما كان ياتوم في مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي. وكان أول سؤال لها بنبرة صوتها المميزة: لماذا لم تعتقل شرطة ليبفيلد كل عملاء الموساد؟ لم يكن كيلبيرغر يعرف الجواب. أثار سؤال دل بونت التالي مخاوف كان يعرفها جيداً: هل لعملية الموساد علاقة بطهران؟ وادّعت إسرائيل منذ حرب الخليج أن عدّة شركات سويسرية تزوّد إيران بتكنولوجيا لإنتاج الصواريخ. هل للعملية علاقة ما باهتمامات إسرائيل الأخرى بما يعرف بفضيحة الذهب اليهودية؟ كانت المصارف السويسرية قد أخفت مبالغ مالية ضخمة تم إيداعها لديها قبل الحرب العالمية الثانية من قبل يهود ألمان تحولوا فيما بعد إلى ضحايا للنازيين.

استمرت أسئلتها طوال عطلة نهاية الأسبوع في 21 – 22 شباط، فيما كان هالفي يحاول جاهداً إبقاء الأمور هادئة. لم يكن يعتمد على القوى التي ثارت ضد ياتوم في إسرائيل، وتراجعت المعنويات حالما تسرّبت أنباء الحادثة ضمن الموساد. لم يكن ياتوم يستطيع إلقاء اللوم على نتنياهو لما حدث في ليبفيلد هذه المرة. لم يكن رئيس الوزراء يعلم شيئاً مسبقاً عن العملية. بدأت الشائعات من داخل مكتب رئيس الوزراء تصل إلى وسائل الإعلام الإسرائيلية بأن دور ياتوم قد انتهى. استمر هالفي، خلال الأيام الثلاثة التالية، في التماس ورجاء كيلبيرغر لإبقاء الحادثة سراً، ولكن كارلا دل بونت لم تقتنع بذلك. ودعت، يوم الأربعاء 25 شباط، إلى مؤتمر صحفي لانتقاد الموساد علانية: "ما حدث غير مقبول ويُفسد ما بين أمتين صديقتين".

استقال داني ياتوم في غضون ساعات من ذلك المؤتمر، وانتهت حياته المهنية، وتعرّضت سمعة الموساد للتشويه. في لحظاته الأخيرة كمدير عام، فاجأ الموظفين الذين كانوا مجتمعين في المطعم بحضوره. وتبدلت صورة البروسي البارد إلى أخرى عاطفية وقال إنه آسف لأنه سيتركهم في مثل ذلك الوقت، ولكنه حاول جاهداً منحهم أفضل قيادة ممكنة. يجب أن يتذكروا دائماً أن الموساد أكبر من أي شخص. واختتم حديثه بأن تمنّى لمن يخلفه أفضل حظ ممكن؛ لأنه سيحتاج إليه. كان ذلك أقرب ما استطاع ياتوم قوله حول اعتقاد رئيس الوزراء بأنه يستطيع إدارة الموساد من مكتبه. خرج ياتوم من المطعم الذي خيّم عليه الصمت، وبدأ التصفيق فقط عندما وصل إلى الممر، وانتهى بنفس السرعة التي بدأ بها.

بعد أسبوع من ذلك، وافق إفرايم هالفي على تولّي إدارة الجهاز بعدما اعترف

بنياميـــن نتنـــياهو علناً، وهو شيء يقوم به رئيس وزراء إسرائيلي لأول مرة، أنه "لا يستطيع إنكار أن صورة الموساد قد تضررت نتيجة بعض المهام الميدانية الفاشلة". لم يذكر نتنياهو، السياسي البارع، الدور الذي لعبه في تلك المرحلة.

أصبح إفرايم هالفي المدير العام التاسع للموساد يوم الخميس 5 آذار سنة 1998. وخـــرق التقلـــيد ولـــم يجتمع مع كبار موظفيه لسماع آرائهم حول كيفية إدارة الجهاز خلال السنتين المقبلتين. أعلن نتنياهو، بعد تعيين هالفي، بأن عميرام ليفني، الذي كان حيـــنها نائباً للمدير، سيتولى في 3 آذار سنة 2000 إدارة الموساد. وكانت تلك الأنباء مفاجئة بعض الشيء، لأنه لم يتم من قبل تحديد مدة لبقاء أحد المدراء العامين للجهاز؛ ولم يحصل أي نائب سابق للمدير على تأكيد بأنه سيتولى الإدارة في المستقبل.

في سنة 1999، وجد ياتوم لنفسه مكاناً في صناعة السلاح الإسرائيلية المزدهرة. وأصـــبح بائعـــاً لإحـــدى أكبر شركات البلد في تصنيع الأسلحة؛ والتي لا تقدّم أنواعاً مختلفة من السلاح للاستخدام الداخلي وحسب، وإنما لديها صادرات مزدهرة إلى بلاد العـــالم الثالـــث. قام ياتوم بزيارات منتظمة إلى بلاد أفريقية وأميركية جنوبية، وكان يذهب إلى واشنطن بين الحين والآخر.

لـــم يكن ليفني يتمتع بأي خبرة في مجال الاستخبارات مثل مير عميت، لكنه قاد بامتـــياز الجـــيش الإسرائيلي في شمال إسرائيل وجنوب لبنان. كانت أولى مهام ليفني تخفـــيض التوتر والاستياء الكبيرين داخل الموساد اللذين أضرا كثيراً بصورته داخل إســـرائيل وخارجها. في مكالمات تهنئة اعتيادية من CIA وM16، أخبر القائمون على هذيـــن الجهازيـــن المدير الجديد أنهم يفضلون الانتظار لرؤية كيفية تعامله مع الأزمة داخـــل الموساد قبل أن يضعا بمحبة صادقة قدراتهما في خدمة التعاون المشترك. كان أحـــد العوامـــل يـــتعلق بكيفـــية تعامل هالفي مع المتشددين في الحكومة الإسرائيلية، خصوصاً رئيس الوزراء.

هل سيكون هالفي المؤدب، الذي لا يفصله عن التقاعد سوى سنة واحدة، وأكبر مـــن تولّى مسؤولية إدارة الموساد سناً، قادراً على إبعاد نتنياهو مسافة كافية؟ رغم كل مهارات هالفي الدبلوماسية التي لا يشك أحد بها - لعب دوراً محورياً في المفاوضات التـــي قـــادت إلى توقيع اتفاقية السلام مع الأردن سنة 1994 - إلا أنه كان بعيداً عن عمل الاستخبارات لسنوات طويلة. منذ كان يعمل مع الموساد، أظهر الجهاز إشارات مـــتزايدة لخـــروجه عـــن نطـــاق السيطرة عندما كان ضباط بارزون يحاولون تأكيد مـــزاعمهم طلباً للشهرة. بقي معظم هؤلاء الرجال المتوسطي العمر في مناصبهم. هل

يستطيع هالفي التعامل معهم؟ وهل يمتلك المدير الجديد المهارات الضرورية اللازمة لرفع معنويات موظفيه؟ ولا يمكن اعتبار الاشتراك في حفلات الكوكتيل في بروكسل أفضل إعداد لمهمة قيادة العملاء بعيداً عن حافة الاستقالة. لم يكن هالفي لسوء الحظ يمتلك خبرة شخصية في العمليات الميدانية، ولطالما كان رجل مكتب في عمله السابق مع الموساد. وما الذي يستطيع تحقيقه في سنتين؟ أم أنه موجود هناك حقاً لإقرار ما يريد نتنياهو القيام به، أو - في تلك الحالة - ما تريد سارا زوجة نتنياهو القيام به؟ واستمرت التوقعات ضمن مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي حول الدور الذي لعبته سارا في إزاحة ياتوم، وهو الرجل الذي لم ترحب به إطلاقاً.

وجد هالفي طريقة لإثارة إعجابها، وأهداها رقاقة طوّرها علماء أبحاث الموساد. كان يمكن زرعها تحت الجلد مما يسمح بإنقاذها في حال وقعت بين أيدي إرهابيين. باستخدام طاقة الجسم الطبيعية، تستطيع الرقاقة الاتصال مع أحد الأقمار الصنعية الإسرائيلية، مما يسمح بكشف موقع الشخص الذي يضعها بسرعة. لم يعلم أحد فيما إذا زرعت سارا تلك الرقاقة في جسدها.

لكن سرعان ما كان هناك أمور أكثر إلحاحاً من إثارة إعجاب زوجة رئيس الوزراء. كانت أول عملية أقرّها هالفي بحماس هي محاولة إنشاء قاعدة تجسس في قبرص، والتي كانت نتيجتها كارثية. كشف جهاز الأمن القبرصي الصغير والماهر عميلين للموساد متخفيين بصفة مدرسين يقضيان عطلتهما، وأغار الجهاز على الشقة التي استأجرها العميلان، واكتشف أنها مليئة بمعدّات عالية التقنية قادرة على كشف خطط قبرص لتعزيز دفاعاتها ضد تركيا المجاورة.

أرسل هالفي نائبه إلى قبرص للتفاوض على إطلاق سراح الرجلين، وربما كان يأمل بأن يستطيع الذهاب بنفسه. كان الرئيس الإسرائيلي عيزر وايزمن صديقاً شخصياً مقرباً للرئيس القبرصي بيافكوس كليريدس (خدم الرجلان في شبابهما في سلاح الجو الملكي). أوفد وايزمن رئيس أركانه "لتقديم اعتذار قاطع في قبرص"، ثم وبّخ هالفي بطريقة حتى نتنياهو كان سيتردد في استخدامها ضد ياتوم.

تبع ذلك حادثة علنية محرجة أخرى، إذ أقرّ هالفي خطة لاغتيال صدام حسين أثناء زيارته لعشيقته، وتم إلغاء الخطة بعدما تسربت تفاصيلها إلى أحد الصحفيين الإسرائيليين. علم نتنياهو بما حدث عندما اتصل المراسل بمكتبه للتعليق على المعلومات. وجد هالفي اليائس نفسه مرة أخرى يواجه انتقاداً شديداً.

تفادى رئيس الوزراء المتقلب لأسابيع إجراء أي اتصال مع مدير الموساد إلا في

حالـــة الضـــرورة القصـــوى لغاية أواخر تشرين الثاني سنة 1998. ثم اتصل رئيس الـــوزراء التركـــي بولنـــت أجـــاويد بنتنياهو وسأله فيما إذا كان الموساد قادراً على المســـاعدة في إلقاء القبض على عبد الله أوجلان، القائد الكردي والذي لطالما أشارت إلـــيه الـــبلدان الأخـــرى على أنه إرهابي. كانت تركيا تحمله مسؤولية مقتل 30.000 شـــخص علـــى أراضـــيها، وطوال عشرين سنة، شن حزب العمال الكردستاني الذي يـــتزعمه أوجـــلان - PKK - حرب عصابات للحصول على حكم ذاتي لاثني عشر مليون كردي في تركيا ليس لهم أي حقوق أقلية مثل التعليم أو السماح بإنشاء محطات تلفزة وإذاعة ناطقة بلغتهم الخاصة.

اســـتطاع أوجـــلان الهروب باستمرار من أجهزة الاستخبارات التركية بسهولة متناهية. كان قائداً يثير حماسة كبيرة في شعبه. كان كل رجل وامرأة وطفل مستعدين للمـــوت مـــن أجلـــه. كان بالنسبة للكثيرين منهم مثالاً للمسكيّة القرمزية، كانت أفعاله الجريـــئة موضع نقاش أي كرديين يلتقيان مع بعضهما. كان هناك شغف لسماع خطبه والمشاركة في تمرده المرعب ضد تركيا.

فـــي شهر تشرين الثاني، انتقل أوجلان إلى روما بعد خروجه سراً من موسكو. رفضـــت الحكومـــة الإيطالـــية تســـليمه إلى تركيا؛ لكنها رفضت أيضاً طلبه باللجوء السياســـي. تم إلقاء القبض على أوجلان بناءً على مذكرة ألمانية لاستخدامه جواز سفر مـــزوّر. وتم إطلاق سراحه بعدما سحبت بون طلبها بتسليمه خوفاً من إشعال غضب الجالـــية الكـــردية فيها. كانت تلك هي اللحظة التي اتصل بها رئيس الوزراء التركي بولنت أجاويد بنتنياهو.

كانـــت علاقـــة عمل وثيقة مع تركيا بالنسبة لإسرائيل عنصراً هاماً في عقيدتها الاســـتراتيجية والدبلوماســـية في المنطقة. ووافق نتنياهو وأمر هالفي بإيجاد أوجلان. وســـتكون تلـــك عملـــية "سوداء"؛ لن يظهر اشتراك الموساد علانية أبداً. وإذا نجحت العملية، سيعود كل الفضل إلى الاستخبارات التركية.

تـــم إطلاق اسم *الراصد* على الخطة، وكانت تعكس اهتمام هالفي الخاص بأن لا يفعـــل شـــيئاً يتسبب بضرر لعمليته الجارية داخل العراق. كان كاستا الموساد يعملون هناك إلى جانب الثوار الأكراد لزعزعة نظام صدام.

تـــم إيفاد ستة كاستا موساد إلى روما. وكان بينهم بات ليفيا، وامرأة وتقنيون من ياهالومين الموساد، أو وحدة الاتصالات. عمل الفريق في منـــزل آمن قرب البانثيون، وراقب شقة أوجلان القريبة من الفاتيكان. صدرت الأوامر للمرأة بأن تحاول الاتصال

بـــأوجلان. وتبعت الإرشادات التي تم وضعها بدقة، والتي استخدمتها أنثى أخرى في الموســـاد لإغراء مردخاي فعنونو بالتوجه إلى قدره في نفس هذه المدينة قبل عقد من الزمـــن. ولكـــن خطة فعل الشيء نفسه مع أوجلان فشلت عندما غادر القائد الكردي إيطاليا فجأة.

بدأ فريق الموساد يجوب حوض المتوسط بحثاً عنه: إسبانيا، والبرتغال، وتونس، والمغرب، وسورية. توجّه أوجلان إلى كل تلك البلاد؛ فقط ليخرج منها بعدما رفضت أي مـــنها مـــنحه اللجوء السياسي. في 2 شباط 1999، تم اكتشاف القائد الكردي وهو يحـــاول دخول هولندا، ورفضت الحكومة الهولندية السماح له بذلك. أخبر أحد ضباط الأمـــن الهولنديـــين فـــي مطار شيبول القريب من أمستردام مدير محطة الموساد بأن أوجلان صعد على متن طائرة KLM (الخطوط الجوية الهولندية) المتجهة إلى نيروبي. وسافر فريق الموساد إلى العاصمة الكينية، ووصل صباح يوم الخميس 5 شباط.

طـــوّرت كـــل مـــن كينـــيا وإسرائيل عبر السنين *تفاهماً* مشتركاً حول الأمور الاستخبارانية. وكجزء من *سفاري* الموساد في أفريقيا الوسطى، كشف الجهاز للكينيين نشاطات شبكات التجسس الأجنبية الأخرى. وبالمقابل، استمرت كينيا في منح الموساد "وضعاً خاصاً"، وسمحت له بالاحتفاظ بمنـــزل آمن في المدينة والتواصل المباشر مع جهاز الاستخبارات الكيني الصغير، ولكن الفعّال.

ســـرعان مـــا حـــدد فريق الموساد موقع أوجلان في مبنى السفارة اليونانية في نيروبـــي. كـــان الأكراد – الذين افترض الموساد أنهم حراسه الشخصيون – يدخلون ويخرجون من المبنى بين الحين والآخر. كان رئيس فريق الموساد يرسل تقريراً مساء كـــل يوم إلى تل أبيب. وكانت الأوامر نفسها: راقب؛ لا تفعل شيئاً. ثم تغيّرت الأوامر بشـــكل مثـــير إلـــى أنه يجب إخراج عبد الله أوجلان من مبنى السفارة اليونانية "بكل الطرق الممكنة" وترحيله إلى تركيا. وجاءت الأوامر من هالفي مباشرة.

لعـــب الحظ دوره إلى جانب الفريق. وخرج أحد الأكراد من السفارة وتوجه إلى مشرب بالقرب من فندق نورفولك المهيب. في ما يمكن اعتباره تكتيكاً تقليدياً للموساد، تحـــرك أحد أفراد الفريق *إلى جانب* الكردي. وقدّم العميل نفسه، ببشرته الداكنة ولغته الكـــردية العامـــية، على أنه كردي يعمل في نيروبي. وعلم العميل أن أوجلان أصبح قلقـــاً، وأنه لم يتلقَ رداً على آخر طلباته في اللجوء السياسي من جنوب أفريقيا. كانت بلاد أفريقية أخرى لا تفكر أبداً في منح القائد الكردي تأشيرة دخول.

كـــان فـــريق الموساد للتنصت يستخدم معدّاته المتطورة لمراقبة كل الاتصالات

الـــواردة والصادرة عن المبنى. كان واضحاً أن اليونان سترفض منح أوجلان اللجوء السياسي.

قـــام كاســـتا الموساد الذي التقى بالكردي في المشرب بحركته، واتصل به في مبنى الســـفارة، وطلـــب منه عقد "اجتماع عاجل". والتقيا مرة أخرى في المشرب، حيث أخبره العمـــيل الكـــردي أن حـــياة أوجلان في خطر إذا بقي في المبنى. كان أمله الوحيد يتمثّل بـــالعودة إلى زملائه الأكراد في شمال العراق وليس في تركيا. سيكون أوجلان آمناً هناك، ويســـتطيع اســـتعادة قوته ليوم آخر. كان أوجلان قد بدأ فعلاً بالتفكير بتلك الخطة، وسمعه فـــريق اتصـــالات الموساد يقول إنه سيفعل ذلك، وحثّ عميل الموساد الكردي على العودة إلى السفارة ومحاولة إقناع أوجلان بالخروج ومناقشة العرض. كانت المكيدة بسيطة وقاتلة في نفس الوقت. كانت مسألة وقت فقط قبل رؤية أوجلان يقع في الشرك.

علـــم فـــريق الموســـاد من اعتراضه للاتصالات اللاسلكية من وزارة الخارجية اليونانية إلى مبنى السفارة بأنها مسألة أيام فقط قبل أن يقوم مضيفو أوجلان المترددون أصـــلاً بإيصـــاله إلـــى الباب. وفي رسالة موجهة "للسفير فقط"، قال رئيس الوزراء اليونانـــي كوســـتاس ســـيميتس بأن وجود أوجلان المستمر في مبنى السفارة سيفجّر "مواجهة سياسية وربما عسكرية" في اليونان.

في صبيحة اليوم التالي، حطّت طائرة نفاثة صغيرة من طراز "فالكون 900" في مطـــار ويلســـون في نيروبي. وقال الطيار إنه جاء لنقل مجموعة من رجال الأعمال المسافرين لحضور مؤتمر في أثينا.

يبقى ما حدث بعد ذلك موضع خلاف شديد. ادّعى محامي أوجلان الألماني لاحقاً بأنـــه "نظراً لإساءة تقدير الموقف من قبل السلطات الكينية، تم سحب أوجلان فعلياً من المبـــنى". لكن الحكومة الكينية والسفارة اليونانية في نيروبي أنكرتا بشدة تلك التهمة. أصرّ اليونانيون على أن القائد الكردي غادر المبنى بناءً على نصيحة مضيفيه.

لكـــن هناك شيء واحد مؤكد. أقلعت الطائرة النفاثة الصغيرة من نيروبي وعلى متـــنها أوجـــلان. وبدأت الأسئلة حالما خرجت الطائرة من المجال الجوي الكيني: هل الـــتزم الموساد بتدريباته المعتادة وحقن أوجلان بعقار جعله ضعيفاً حالما وضع قدمه خـــارج المبنى؟ هل اختطفوه في الشارع، كما فعل فريق آخر مع أدولف إيتشمان قبل كـــل تلـــك السنوات في بيونس آيرس؟ هل غضت كينيا الطرف عن حادثة تخرق كل القوانين الدولية؟

بعـــد ساعات من احتجاز أوجلان في سجن تركي، ظهر رئيس الوزراء المتهلل

بولنــت أجاويد على شاشة التلفاز للحديث عن "انتصار استخباراتي... عملية مطاردة رائعــة دامــت في نيروبي ما يزيد عن اثني عشر يوماً". ولم يأتِ على ذكر الموساد، والتزم بالقواعد في ذلك.

كــان نجــاح العملــية بالنسبة لإفرايم هالفي يتمثّل بعدم فقدان شبكة تجسس في العراق اعتمدت بشكل كبير على دعم الأكراد. لم يكن أول رئيس للموساد يتساءل فيما إذا كان استعداد رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو لعرض خدمات الجهاز *للايجار* سيكون له آثار طويلة المدى على عمليات جمع المعلومات الاستخباراتية.

طغــى إخفــاق آخــر ورثه هالفي على نجاح العملية. في 5 تشرين الثاني سنة 1992، تحطّمــت طائــرة شــركة العــال فــوق مبنى سكني قرب مطار شيبول في أمســتردام، وقتلــت ثلاثــة وأربعين شخصاً وجرحت العشرات. تعرض المئات من الســكان الذيــن يعيشــون فــي المنطقة لأمراض شتّى منذ ذلك الحين. ورغم الحملة المســتمرة لإخفاء أن تلك الطائرة كانت تحمل مواد كيميائية قاتلة – بما فيها المكوّنات اللازمــة لإنــتاج السارين، غاز الأعصاب القاتل - إلا أن الحقائق انبثقت، وركّزت الاهتمام على مركز أبحاث صغير في ضواحي تل أبيب حيث قام العلماء بإنتاج أسلحة بيولوجية وكيميائية، ضمن أشياء أخرى، لوحدة كيدون الموساد.

يقع معهد *الأبحاث البيولوجية* على بعد اثني عشر ميلاً إلى الجنوب من تل أبيب، وهــو مــزوّد بــأحدث أنظمــة الحماية الإسرائيلية المتعددة المستويات. ويتم تصنيع مجموعــة واسعة من الأسلحة الكيميائية والبيولوجية ضمن مختبراته وورشاته. ابتكر كيميائيو المعهد – بعضهم عمل سابقاً مع KGB السوفياتي أو جهاز استخبارات ألمانيا الشرقية ستاسي – السم الذي تم استخدامه في محاولة اغتيال خالد مشعل، قائد حماس؛ المجموعة الإسلامية المتشددة.

تتضــمن بــرامج المعهد الحالية تطوير مجموعة من الجراثيم تحمل "مواصفات عرقية" وفقاً لتقرير CIA تلقّاه وزير الدفاع الأميركي وليام كوهين. وادّعى تقرير CIA أن العلمــاء الإسرائيليين "يحاولون استغلال التقدم الطبي بتحديد جينات مميزة يحملها العرب لابتكار بكتيريا أو فيروس معدّل وراثياً".

خلــص الــتقرير إلى أن البرنامج "ما زال في مراحله المبكّرة، وتتجه النية نحو اســتغلال الطريقة التي تستطيع بها الفيروسات وبكتيريا معينة تعديل الحمض النووي الوراثــي DNA داخل الخلايا الحية للمضيف". تحاول أبحاث المعهد تقليد عمل علماء جــنوب أفريقــيا خلال عهد الفصل العنصري لابتكار "سلاح صبغي يستهدف الشعب

الأســود فقــط". تم التخلي عن تلك الأبحاث بعدما وصل نلسون مانديلا إلى السلطة، ولكنّ عالمين على الأقل من الذين عملوا في برنامج جنوب أفريقيا انتقلا إلى إسرائيل.

كانــت فكرة قيام الدولة العبرية بمثل تلك الأبحاث قد ضغطت على زر الإنذار؛ لــيس أقلــه بسبب تطابق البرنامج مع التجارب الجينية التي قام بها النازيون. وسجّل ديــدي زوكــر، عضو البرلمان الإسرائيلي - الكنيست - ما قاله: "ليس مسموحاً لنا ابتكار مثل هذا السلاح".

كانــت طائــرة العــال تحمل المواد الأولية لمثل تلك الأسلحة في تلك الليلة من تشــرين الثاني سنة 1992 ضمن شحنتها التي تبلغ 114 طناً، وكان على متنها أيضاً صــواريخ ســايدويندر ومعدّات إلكترونية أخرى. كان أكثرها فتكاً على الإطلاق اثنا عشر برميلاً من مادة DMMP التي تعتبر عنصراً من غاز الأعصاب. تم شراء المواد الكيميائــية مــن شــركة سولكاترونيك التي تتخذ من نيوجيرسي مقراً لها. وأصرّت الشــركة بثبات على أن إسرائيل أخبرتها بأنها "سوف تستخدم المواد الكيميائية لاختبار أقــنعة الغــاز". ولــم يكن هناك وجود لمثل هذا الاختبار في معهد *الأبحاث الكيميائية والبيولوجية*.

تــم إنشاء المعهد سنة 1952 في مستودع خرساني صغير، وهو يمتد اليوم على مــا يــزيد عن عشرة هكتارات. وذبلت أشجار الفاكهة منذ وقت طويل، وحل مكانها جدار خرساني عالٍ تعلوه أجهزة الإنذار، ويقوم حرّاس مسلحون بدوريات في محيطه. اخــتفى المعهد عن نظر العامة منذ وقت طويل. ولا وجود لعنوانه الدقيق في ضاحية نــيس زيونا في دليل هاتف تل أبيب. وتم رفع موقعه عن كل خرائط المنطقة، وليس مسموحاً لأي طائرة بالتحليق فوقه.

وحده ديمونا في صحراء النقب محاط بمثل تلك السرية. وفي دليل قوات الدفاع الإســرائيلية، يــتم الإشارة إلى المعهد بأنه "يقدّم خدمات لوزارة الدفاع". مثل ديمونا، الكثير من مخابر الأبحاث والتطوير مخفية تحت الأرض. ويعمل هناك خبراء الكيمياء الحــيوية وعلماء الجينات مع أدوات الموت الموجودة في قوارير: توكسين الذي يسمم الطعام ويؤدي إلى الموت؛ والجمرة الخبيثة.

يعمل العلماء في مخابر أخرى، لا يمكن الوصول إليها سوى عبر فتحات تهوية، مع مجموعة من غازات الأعصاب التي تتسبب بالاختناق، أو انحلال الدم أو الإصابة بــالجدري. تتضمن تلك التابون وهو غاز لا لون له ولا رائحة عندما يكون في حالته الغازيــة أو على شكل بخار. وسومان، آخر ما تم الكشف عنه من غازات الأعصاب

التــي عمــل عليها النازيون، وهو أيضاً غير مرئي في شكله الغازي ولكن له رائحة الفاكهــة. وهــناك عوامــل أخرى مثل غاز الأعصاب، والفسجين والديفسجين (غاز يخرب الرئة ويسبب الموت اختناقاً) برائحة العشب المحصود حديثاً. تتضمن الغازات التــي تــنحل بالدم السيانيد. وتم تطوير عوامل الجمرة الخبيثة انطلاقاً من تلك التي تم استخدامها أول مرة في الحرب العالمية الأولى.

يخلو مبنى المعهد من أي معالم خارجية، ولا يوجد سوى عدد محدود من النوافذ فــي جدرانــه الخرسانية ذات اللون البني الباهت، وتخضع غرفه الداخلية لحراسة لا مثــيل لها، وتتحكم كلمات سر ونظام تعريف بصري بالدخول إلى كل منطقة، ويجول الحرّاس الممرات في دوريات دائمة، ولا يمكن فتح الأبواب المنــزلقة المضادة للقنابل سوى باستخدام بطاقات خاصة يتم تغيير شفرتها كل يوم.

يخضــع كــل الموظفيــن لفحوصــات طبية كل شهر، وتتم مراقبتهم على مدار الســاعة، وتخضع عائلاتهم أيضاً لفحوصات مشابهة. ويوجد ضمن المعهد قسم خاص ينتج أسلحة التوكسين القاتلة التي يستخدمها الموساد لتنفيذ التفويض الحكومي الرسمي بقــتل أعداء إسرائيل دون محاكمة، وعبر السنين، مات ستة عاملين في المصنع على الأقل، ولكن سبب وفاتهم بقي مخفياً بموجب الرقابة العسكرية الإسرائيلية الصارمة.

جاء أول اختراق في حجاب السرية ذاك من فكتور أوستروفسكي الضابط السابق في الموساد، والذي ادّعى: "نعرف جميعاً بأن السجين الذي يتم إحضاره إلى المعهد لن يخــرج مــنه حياً على الإطلاق. كان يتم استخدام السجناء كحيوانات تجارب، وكانوا يضــمنون أن الأســلحة التي يطوّرها العلماء ستعمل بشكل مناسب، ويجعلونها أكثر كفاءة حتى". لم تنشر إسرائيل لغاية الآن أي إنكار لهذه الادعاءات.

مــنح هجوم قوات الناتو ضد صربيا في ربيع سنة 1999 هالفي الفرصة ليقوم الموســاد بتقديم المعلومات الاستخباراتية للبلاد التسعة عشر التي شكّلت الاتحاد. كان للموســاد علاقــات طويلــة الأمد في المنطقة؛ نابعة من اهتمامه الرئيسي بأن البلقان سيصبح أخيراً جيباً مسلماً، ويمكنه توفير باب خلفي يستطيع الإرهابيون(*) انطلاقاً منه شــن هجمــات ضــد إســرائيل. منح ذلك هالفي الفرصة لزيارة مقر قيادة الناتو في بروكســل ولقاء نظرائه، وسافر إلى واشنطن لمقابلة CIA، ولدى عودته، عمل لوقت طويــل ولم يأخذ يوم استراحة قط من أسبوع إلى آخر، كان يذكّر الناس بمير عميت بطريقة عمله تلك.

(*) وفقاً للوصف الإسرائيلي.

في ربيع سنة 1999، كان المحارب القديم في الموساد فكتور أوستروفسكي يثير غضــب الجهــاز. قــام أوستروفسكي بتسريب تقارير إلى الفريق الذي يعمل لصالح الليبييــن المتهمين بقضية لوكربي، وقال إنه سيقدّم دليلاً لصالح الدفاع. مع الأخذ بعين الاعتــبار أن الكاســتا غادر الجهاز قبل وقت طويل من الحادثة، فقد كان من الصعب توقع ما سيقدّمه. رغم ذلك، كانت رؤية أوستروفسكي على منصة الشهود في المحكمة المجــتمعة خصيصــاً فــي لاهاي قد أثارت غضب هالفي وفقاً لأحد ضباط الموساد البارزين. كان يعتقد أن هناك *تفاهماً* بين أوستروفسكي وصاحب عمله السابق بأنه لن يقــوم بأي شيء لإحراج الجهاز مقابل السماح له بعيش حياة غير مقيدة. درس هالفي لفــترة مــن الوقــت فــيما إذا كانت هناك إجراءات قانونية يستطيع اتخاذها لإيقاف أوستروفســكي؛ وأخبره مستشاروه في النهاية بأن ذلك غير ممكن. وفي كل الأحوال، كان هالفي سيستقيل من منصبه إذا ظهر أوستروفسكي في المحكمة.

تحقــيق كل ما ينبغي عليه القيام به قبل أن يغادر الجهاز سيكون اختباراً كبيراً لقدرة تحمــل هالفــي الجســدية والذهنية. استغلت أمان والشين بيت المشاكل التي يتعرض لها الموساد لتعزيز مكانتهما وصولاً إلى المركز الأول بين الأنداد. رغم ذلك لم يقترح أحد أن لا يســتعيد الموســاد دوره في أن يكون عين إسرائيل على العالم. قد تجد إسرائيل نفسها، دون مهــارات الجهــاز، تتعرض للهزيمة من قبل أعدائها في القرن القادم. كانت كل من إيران، والعراق، وسورية تطور تكنولوجيا ينبغي مراقبتها عن كثب.

فــي البداية، كان الأسلوب العملياتي للموساد أن يقوم بما ينبغي القيام به، ولكن ســراً. قــال هالفــي فــي اجــتماع له مــع أحد الموظفين بأنه يرغب برؤية مجتمع الاســتخبارات الإســرائيلي يصبح عائلة موحّدة مرة أخرى، وأن يكون "الموساد العم الذي لا يتكلم عنه أحد".

وحــده الوقت كفيل بأن يوضح فيما إذا كان ذلك حلماً غير قابل للتحقق، أو أنه سيكون كما يخشى الكثير من المراقبين إنذاراً للموساد بأنه كلما تعرّض الجهاز لإخفاق علني كلما عزّز من موقع جهاز آخر.

أصبح ذلك أقرب درجة عندما علم الموساد في حزيران سنة 1999 أنه قد يكون مضطراً لنقل مقر عملياته الأوروبية من هولندا نتيجة الادعاءات المحرجة للغاية التي تقــول بأنه يشتري سراً البلوتونيوم والمواد النووية الأخرى من المافيا الروسية. جاء هذا الزعم من إنتل، وهو فرع صغير ولكن بارع من الاستخبارات الهولندية.

تقع إدارة إنتل في ملجأ عميق بُني أصلاً لحماية العائلة المالكة الهولندية في حال

شــن الســوفيات هجمــة نوويــة ضد أمستردام. يقع الملجأ قرب محطة سكك الحديد المركــزية فــي المديــنة. وقالت إنتل إن إسرائيل هي المقصد النهائي لبعض المواد الــنووية المســروقة من مختبرات الأسلحة الروسية مثل شيلايبنسك – 70 في جبال الأورال وأرزاماس – 16 في نيزني نوفغورد، أو غوركي سابقاً.

أصــرّ ضباط موساد بارزون في أحاديثهم مع إنتل أن عملاءهم يشترون المواد الــنووية المســروقة من المافيا الروسية لأنها الطريقة الوحيدة لمنع بيعها للإسلاميين والجماعات الإرهابية.

رغــم أن ادعــاءات الموســاد كانت تبدو صحيحة، إلا أن محققي إنتل أصبحوا مقتنعيــن بأنــه يــتم شحن المواد النووية سراً خارج مطار شيبول في أمستردام إلى إســرائيل لتعزيز معمل البلاد لإنتاج الأسلحة النووية في ديمونا. وكان هناك ما يزيد عن 200 رأس نووي بحلول سنة 1999.

أثار اشتراك الموساد مع المافيا الروسية في تلك التجارة غير المشروعة كابوساً نوويــاً لم يتلاشَ خطره أبداً. وفيما اختفت عقيدة الحرب الباردة المجنونة بضمان فناء الطرفيــن، ظهر مكانها سيناريو أكثر خطورة يتم فيه عرض طريقة التصنيع والمواد الأولــية اللازمــة للبــيع. وفي النظام الرأسمالي بالأسلوب الشرقي، تتحالف منظمات الجــريمة المــنظمة والمســؤولون الحكوميون الفاسدون لإنشاء أسواق جديدة للمواد النووية؛ أي سوق تعرض أكثر الأسلحة خطورة في العالم.

يقوم "المعهد الأوروبي لمراقبة اليورانيوم" (ETUI) في كارلسروه، ألمانيا بمعظم أعمال اقتفاء أثر أصول المواد النووية المسروقة. ويستخدم العلماء هناك أجهزة بالغة التطور لتحديد ما إذا كانت المواد المسروقة قد جاءت من مصادر عسكرية أو مدنية. ولكنهم يعترفون "إنها مثل محاولة اعتقال سارق ليس لديه بصمات أصابع".

ســتثير القضــية دون شك أسئلة في حال وجود أصابع للموساد فيها. قام هالفي بــزيارة ســرية إلــى هولندا في بداية حزيران ليشرح لإنتل دور الموساد، ولم تقتنع الاستخبارات الهولندية بما قدّمه. عاد هالفي إلى إسرائيل ليخبر رئيس وزرائها الجديد إيهــود باراك بأن على الموساد الاستعداد لنقل مقر عملياته الأوروبية الواقع في مبنى العــال فــي مطار شيبول. كان الموساد متمركزاً هناك منذ ست سنوات، وأدار ثمانية عشر ضابط موساد العمليات الأوروبية من مكاتب الطابق الثاني في المبنى المعروف فــي شيبول باسم "إسرائيل الصغيرة"، ووفقاً لأحد مصادر الموساد، كان موقف هالفي واضــحاً: انتقال الموساد أفضل من طرده من هولندا، وهو نفس المصير الذي واجهه

في بريطانيا خلال عهد حكومة تاتشر.

كـــان قرار الموساد بإدارة عملياته ضمن البلد دون إعلام السلطات البريطانية قد قـــاد إلـــى إفســـاد العلاقـــات مع لندن. ولسخرية القدر، إذا كان على الموساد مغادرة شيبول، فقد يعود إلى بريطانيا. وبموافقة غير مشروطة من رئيس الوزراء طوني بلير - يُقـــال إن هالفـــي أخـــبر بـــاراك بذلك؛ سيجد الموساد ترحيباً حاراً. يعتقد بلير أن حضوراً قوياً للموساد سيسهم في جهود M15 في ملاحقة الجماعات العديدة من الشرق الأوسط التي تتخذ من لندن قاعدة لها.

ســـيكون انتقال العال، وهي شركة الطيران الوطنية الإسرائيلية، من شيبول إلى هيـــثرو عـــاملاً حاسماً في الانتقال إلى بريطانيا. ونظراً لازدهار أعمال شحن العال، سيكون الانتقال إلى هيثرو ذا أهمية خاصة.

تعـــتقد إنتل أن الصلة بين الموساد وشركة الطيران جزء أساسي في نقل المواد الـــنووية، وأصرّت الوكالة الهولندية بأن الموساد ما كان ليبدأ ذلك العمل الخطير في شراء المواد النووية ما لم يكن متأكداً من أنه يستطيع نقلها بأمان وسرية إلى إسرائيل.

قـــال غراهام أليسون المساعد السابق لوزير الدفاع الأميركي، والذي يشغل الآن منصـــب مدير مركز هارفارد للعلوم والعلاقات الدولية: "تستطيع مجموعة إجرامية أو إرهابية شحن سلاح حتى إلى داخل الولايات المتحدة في علب صغيرة وخفيفة بما فيه الكفايـــة ليتم إرسالها عبر البريد". تشير تلك الكلمات إلى حقيقة أن منظمة محترفة جداً مثل الموساد لن تواجه صعوبة في تهريب المواد النووية خارج مطار شيبول.

ثـــارت شكوك إنتل حول عمليات التهريب تلك أولاً عندما تبين أن طائرة شحن العال التي تحطّمت بعد إقلاعها بوقت قصير من مطار شيبول سنة 1992 كانت تحمل مـــواداً كيميائية. حصلت الوكالة منذ ذلك الوقت على ما وصفه أحد المصادر في إنتل بأنـــه "دلـــيل ظرفي على الأقل" على أن الموساد شحن أيضاً مواداً نووية بانتظام من مطار شيبول.

حصلت "أنثى" - مراسلة - على ضمانة بعدم محاكمتها مقابل تعاونها، وأخبرت إنـــتل أنهـــا هرّبـــت مواداً نووية من أوكرانيا عبر ألمانيا وأخيراً إلى هولندا. ادّعت المراسلة أمام إنتل بأنها كانت تسلّم المواد في محطة أمستردام الرئيسية. ولدى عرض صـــور مخـــتلفة عليها، أشارت المراسلة إلى أحد الأشخاص الذي كان ضابط موساد تعرف إنتل بأنه يعمل في شيبول.

في "سالف الزمان" - والكلمات لمير عميت - لم يكن عميل الموساد ليسمح بأن

يتم التعرّف عليه بسهولة، ويعتقد الكثيرون في مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي أن مثل تلك الإخفاقات الكبيرة لا تنبئ بحسن الطالع للموساد فيما يدخل الألفية الجديدة.

هناك تغيّر في الموقف ضمن إسرائيل قاد إلى إثارة الغضب وخيبة الأمل من إخفاقات الموساد العملياتية. وفي "سالف الزمان"، يتذكر القليل من الإسرائيليين بأن نجاحات الموساد غالباً ما كانت تعتمد على التدمير، والترصد، والقتل. المهم هو نجاة إسرائيل.

لكن وقت السلم نوعاً ما، وهدوء حدود إسرائيل مع جيرانها العرب، ظهرت أسئلة كثيرة حول الأساليب التي يجب أن يستخدمها الموساد ليستمر دوره كدرع وسيف. هناك شعور عنيد ضمن الموساد نفسه بأن أي جهاز عظيم لا يستطيع العيش سوى، كما قال رافي إيتان: "بعدم الاستسلام لكل كلمة في رأي جديد". هناك شعور آخر أيضاً، عبّر عنه آري بن – ميناش، بأنه إذا استمر الموساد بحصر نفسه في أهداف الماضي، "سيكون معرضاً لخطر الهزيمة مثل فارس من العصور الوسطى ما زال يضع درعه إلا أنه فقد حصانه وتم نسيانه في أرض المعركة".

تقع وراء مثل كلمات الاستغاثة هذه حقيقة صعبة. وبعد خمسين سنة من العمل، لم يعد أحد ينظر إلى الموساد على أنه وكالة جريئة، وظهرت أفعاله واضحة في أذهان الإسرائيليين. ولد الموساد في تلك السنوات القليلة التي لا يمكن نسيانها والتي بنت فيها إسرائيل عالماً جديداً لنفسها، وكان أحد الكفلاء بأن ذلك العالم سيعيش. ولم يعد ذلك الكفيل مطلوباً بعد الآن.

أوضح آري بن – ميناش ذلك مثل أي شخص آخر: "يجب أن تفكر إسرائيل، والعالم، بالموساد على أنه جرعة من دواء وقائي يحمي من كل الأمراض التي قد تكون قاتلة. ولا يتم تناول الدواء سوى عندما يكون هناك تهديد من المرض، وليس طوال الوقت".

ما يزال هناك سؤال بحاجة للإجابة، ويتعلق بقدرة الموساد على لعب دور حيث يجب أن يحل الاعتدال مكان سياسة القيام بأعمال قاسية لأسباب قاسية.

الفصل الثامن عشر

بدايات جديدة

في 11 أيلول سنة 2002، سار كل رجل وامرأة في الموساد – عدا أولئك الذين يعملـون وراء البحار – عبر الأروقة الخالية المعالم لمقر قيادتهم في وسط تل أبيب. فـي الخارج، كان يسود جو آخر أيام الصيف، والسماء صافية والحرارة في منتصف العشـرينيات مـئوية. كانـت نفس حالة الطقس سائدة قبل سنة من هذا التاريخ على السـاحل الشمالي الشرقي للولايات المتحدة عندما ارتطمت طائرات القاعدة بالبرجين الـتوأم فـي نيويورك والبنتاغون. غيّر الهجوم الذي لم يسبق له مثيل، وللأبد تعريف الإرهـاب لدى الموساد وأجهزة الاستخبارات العالمية الأخرى التي عملت سنة 2002 فـي صناعة تدير أموالاً بقيمة 100 مليار دولار أميركي وتوظّف مليون شخص. كان كـادر الموسـاد بكامله آنذاك يبلغ 1500 شخص، وهو ما يزيد بـ 300 شخص عن العقد الأخير.

لـم تكـن تلك الذكرى السنوية الأولى لما أصبح معروفاً بـ 9/11 والتي كانت تشغل العاملين في مقر قيادة الموساد أثناء توجههم إلى المطعم الداخلي. وجاء الهاجس المخيف لدى بعضهم المترافق مع الانفعال الشديد لدى البعض الآخر من مزيج الأمل والتوقعات والخيبة.

كـان السـؤال الذي دار في أذهانهم بسيطاً: هل سيستمر رئيس الموساد الجديد الـذي سيلتقون به في مطعم مقر القيادة في إدارة الجهاز كما كان يفعل إفرايم هالفي؟ وستنخفض المعنويات أكثر وسيكون هناك المزيد من الاستقالات إذا كان الأمر كذلك.

أزاح رئـيس الـوزراء أرييل شارون أخيراً هالفي عن منصب *ميمون*؛ وتعني بالعـبرية "الأول ضـمن المتساوين". وخلال الأربع سنوات التي قضاها كمدير عام، ازداد التوتر الذي ورثه، والذي نشأ أصلاً عن المنافسة بين الأجهزة الأمنية والطعنات مـن الخلـف التـي وضعت العملاء الميدانيين ضد المحللين وحوّلت المخططين إلى متآمرين، وازداد التمزق ضمن الموساد الذي افتخر يوماً بأنه عامل توحيد.

هــل يستطع الرجل الجديد مداواة الجراح؟ وهل يستطيع القيام بما فشل به هالفي بشــكل ذريــع: قــيادة الموساد إلى الألفية الجديدة وتحويله إلى قوة معترف بها؟ اتفق الرجال والنساء الذين ساروا إلى المطعم في ذلك اليوم من أيلول بأن أي شخص يتولى إدارة الدفّة سيكون أفضل من هالفي.

ظهــرت تغييرات فارقة على هالفي خلال أربع سنوات من توليه للمنصب. كان هــناك شحوب في جلده، وعيناه دائمتي الاحمرار نتيجة عدم النوم من مكالمات ضابط المناوبة الليلية في الموساد. كانت الخطوط حول فم هالفي غائرة أكثر، واختفت المشية الواســعة المفعمة بالنشاط التي كانت تميّز مروره في أروقة الموساد، وأصبحت أكثر صــلابة الآن. لــم يعــد الرجل نفسه أيضاً من الناحية الجسدية: خسر بعض الوزن، وأصــبحت ملابســه واســعة عليه. لم يعد صوته حازماً كما كان من قبل، وأصبحت أســئلته أقل حدّة. وأصبح هالفي يبدو مثل رجل يقترب من التقاعد. في ذلك اليوم من أيلــول، وبعــد أن تجــاوز السادسة والستين من العمر، كان الأكبر سناً بين المدراء العامين الذين قادوا الموساد.

بطرق عديدة، أصبح الجهاز مثل هالفي. تراجعت مساهمته على الساحة الدولية إلــى مجــرد القيام بعمليات في محرقة الشرق الأوسط. رافق ضباط موساد بارزون هالفــي فــي زياراتــه المنــتظمة إلى CIA في لانغلي، وM16 في مقرها الجديد في فوكســهول كروس في لندن، وبولاخ في بافاريا وهو مقر جهاز BND الألماني. كانت الــزيارات إلى مدراء أجهزة أخرى أقل انتظاماً، ولكن الفائدة من مثل هذه الاتصالات كانت قليلة للغاية.

أصــبح العالم في القرن الحادي والعشرين أكثر خطورة وأكثر اضطراباً من ذي قــبل. رغــم أن الموساد ساهم في تقييم الإرهابيين الذين أصبحوا يمتلكون تكنولوجيا مــتطورة جــداً، إلا أنــه لــم يلعــب دوراً حاســماً في تعريف المهام الجديدة لعالم الاســتخبارات العالمــي حول كيفية مواجهة الممنوعات والتجسس الاقتصادي. تجلّت مساهمة الموساد في مناقشة أهمية الحاجة لاستعادة دور الجاسوس التقليدي الذي يكمل عمل الأقمار الصنعية والأنظمة المتطورة الأخرى. وغالباً ما تم استقبال وجهة النظر هذه ببرود كبير.

في 11 أيلول سنة 2001، صُدم العالم ومجتمع الاستخبارات بحقيقة جديدة نتيجةً لهجوم إرهابي قاتل لم يكن معروفاً من قبل. كانت أحداث ذلك اليوم مذهلة واستغرقت وقــتاً طويلاً في التحضير لها: كان الهجوم ذروة عملية بالغة التعقيد أعدّ لها أسامة بن

لادن وجماعة القاعدة الجهادية.

فـــي ملاييـــن الكلمات التي كُتبت في الصحف، والأعداد الهائلة من الكتب حول الموضـــوع لغايـــة الآن، لا يزال هناك سؤال عالق دون إجابة: **ما الذي كان الموساد يعـرفه سـلفاً عـن الأحـداث التي قادت إلى تدمير البرجين التوأم والدمار الجزئي للبنتاغون؟**

بعـد سنة من الهجمات، لا يعرف الإجابة سوى عدد محدود من ضباط الموساد البارزين في طابق العمليات في مبنى قيادة الجهاز؛ لا يعرفونه كاملاً جميعهم.

منذ اليوم الذي دمّر فيه استشهاديو بن لادن جزءاً من مركز التجارة العالمي سنة 1993، وضـعه الموسـاد علـى رأس قائمة الإرهابيين المطلوبين. يقول أحد تقارير الموســاد إن عملاءه المتخفين في اليمن، وأفغانستان التقطوا "همسات في الرياح" بأن بـن لادن يخطــط لشيء كبير. تحدّث تقرير آخر بأن هناك "شائعة قوية بأن بن لادن يخطط لهجوم بأسلوب هيروشيما"، وكشف تقرير آخر عن استخدام محاكي لطائرة في معسكر تدريب القاعدة في كابول. ثم جاءت الأنباء الأكثر خطورة بأن بن لادن يحاول الحصول على أسلحة كيميائية ونووية.

حاول محللو الموساد، وكما قال أحدهم (لمؤلف هذا الكتاب) بأن "يجمعوا النقاط"، وتم إرسال التقارير أيضاً عبر القناة الخلفية التي تم إنشاؤها منذ زمن طويل إلى CIA. كـان مـنوطاً بالبنتاغون تقييم تهديد هجمة جوية. كتب أحد محلليه، مارفن سيترون: "نـــزولاً من بوتوماك، تستطيع الطائرة الالتفاف يساراً عند صرح واشنطن والهجوم على البيت الأبيض".

قبل ثلاث سنوات كاملة من هجمات أيلول، قدّمت لجنة يرأسها نائب الرئيس آل غــور اقتراحاً يقضي بزيادة مخصصات أمن المطارات. تبع ذلك تقارير أخرى تستند إلى المعلومات التي قدّمها الموساد. تجاهل البيت الأبيض في عهد كلينتون، ومن بعده خلفــه جــورج دبلــيو بوش، تلك التقارير. وعندما احتج مارفن سيترون، أخبره أحد موظفي البنتاغون: "اسمع، لا نستطيع التعامل مع أزمة حتى تصبح حقيقة واقعة". كان هــناك شــعور فــي واشنطن بأن الموساد يروّج لمعلومات كاذبة مرة أخرى، وأن له مصــلحة خاصـــة في تصوير الأصولية... كمصدر تهديد لأنه يخاف إرهابييها ويريد إقناع الولايات المتحدة بأنها تواجه أيضاً نفس التهديد.

بعـد تعييـن إفــرايم هالفي في منصبه، قرأ من ضمن واجباته ملفات التهديدات الإرهابــية، وقــيّم ردود الأفعــال علــى تحذيرات الموساد، وقال وفقاً لأحد ضباطه

البارزين: "ليس هناك فائدة من دفع باب مغلق".

في واشنطن، قاد تجاهل الاستخبارات لحدوث كارثة وشيكة، والتي لم تكن المرة الأولى، إلى توتر العلاقات بين FBI وCIA. كان لدى كلتا الوكالتين دليل ملموس على أن القــاعدة تشكل تهديداً متزايداً: تم إيقاف أحد أعضائها في اللحظة الأخيرة قبل قيادة طائرة مختطفة نحو برج إيفل في باريس، ووصلت معلومات استخباراتية موثوقة إلى لانغلــي أن بــن لادن يخطط لشن ضربة جوية ضد القمة الاقتصادية في إيطاليا بداية سنة 2001. لكنّ شعور العجز والإنكار المترافق مــع تصاعد حرب الفرقاء بين FBI وCIA اســتمر ليتسبّب بشلل مجتمع الاستخبارات الأميركي، وجاءت أحداث 11 أيلول لتكسر تلك الحلقة.

نتــيجة لتلك الكارثة، هوجم ضباط بارزون من كلتا الوكالتين علناً لعجزهم عن تبنــي سياسات حاسمة لمكافحة الإرهاب وفشلهم في التنسيق والتعاون. ظهرت صورة موظفي الاستخبارات البيروقراطيين العنيدين المشغولين بقضايا سياسية، وفشلت CIA، علــى وجه الخصوص، في استيعاب أهمية صعود الأصولية الإسلامية والدور الحاسم الــذي لعــبه أسامة بن لادن والقاعدة. تخرّج آلاف الإرهابيين من معسكرات تدريب القــاعدة ليضعوا بصماتهم الخاصة على الساحة الدولية، وجاء أولاً سنة 1998 تدمير الســفارة الأميركــية فــي نيروبي - كينيا، ودار السلام في تنــزانيا حيث لقي 213 شخصــاً مصـــرعهم. ثم تبع ذلك الهجوم على المدمّرة الأميركية يو إس إس كول في مــيناء عدن في 12 تشرين الثاني سنة 2000. وكان كلا الحادثين مقدمة لهجمات 11 أيلول.

بعــد 11 أيلــول، كان هناك سؤال ضمن مئات الأسئلة التي تهيمن على الروح الجماعــية في واشنطن حول سبب عدم وجود المزيد من جواسيس CIA الميدانيين في أفريقــيا والشرق الأوسط؟ ولماذا كانت تعتمد كثيراً على الرقابة الإلكترونية؟ ولماذا لم تعتمد على ما دعاه بول بريمر، مستشار مكافحة الإرهاب للرئيس ريغان، "استخبارات بلد ثالث؟" وكان الجميع يعرفون أنه يعني الموساد.

مــنذ ذلك الحين، تلقّى هالفي سيلاً من المكالمات الهاتفية من مدير CIA جورج تينــت، الذي كان يواجه بنفسه انتقادات لاذعة. أراد تينت أن يعرف مقدار المعلومات التي كانت لدى الموساد حول الهجوم الوشيك على البرجين التوأم والبنتاغون.

شرح هالفي بطريقته الحذرة والدبلوماسية لتينت أن الموساد أرسل عدّة إشارات تحذير في الأسابيع التي سبقت أيلول تحذر من وقوع هجوم وشيك. أورد هالفي بعدها

أن عمـــلاء الموســـاد جمعـــوا "معلومـــات موثوقة" عن ذلك في أفغانستان، وباكستان واليمن. لكن تينت، الذي كان يتعرض لضغط متصاعد من الكونغرس والبيت الأبيض، أصرّ على تحدّي هالفي. *ماذا كان الموساد يعرف؟*

وصــف أحــد ضباط الموساد العاملين لاحقاً بأن "الخط الساخن من لانغلي" أخذ يغلــي. كان هناك أحياناً عشرة اتصالات من تينت يومياً. ثم كان هناك حركة بيانات بســرعة عالية عبر الخط الآمن. لم يحدث شيء من هذا القبيل سابقاً. كانت واشنطن مصــدومة بــأن رجلاً ملتحياً يعمل انطلاقاً من كهف في مكان ما من الشرق الأوسط تسبّب "بضرر لهيبة أميركا أكثر مما تسببت به بيرل هاربور".

ردّ هالفي في إحدى المكالمات الهاتفية المتوترة بحدّة على تينت، وكان ذلك أحد أسباب تنحيته رغم أنه لم يعرف ذلك، قائلاً: "أين كانت رقابتكم الإلكترونية؟"

تُعــدّ وكالــة الأمــن القومي الأميركي (NSA) أقوى جهاز من نوعه في العالم وأكــثرها سرية. تتجسس إلكترونياً على العالم من مقرها في قاعدة جورج ج. ميد في مــيريلاند، وتعمــل حواسبها الخارقة على مدار الساعة على أمل اعتراض أو تحديد الاتصالات بين الإرهابيين، وتراقب أقمار NSA الصنعية - التي إما تدور حول العالم أو تــتمركز في نقاط محددة - المشتبه بهم، وتعترض كلمات أساسية في المحادثات، وأرقام هواتف وعناوين بريد إلكتروني وتخزّنها في الحواسب، ويتم تشفير البيانات في تلــك الحواسب إلى *قوائم مراقبة*، ثم إدخالها إلى النظام الذي ينشرها عبر خطوط آمنة إلى مجتمع الاستخبارات الأميركي.

يمكــن نظرياً لأي شخص في موقع المسؤولية أن يعرف ما يشكل خطراً حقيقياً وآنياً على الولايات المتحدة، ولكن الحقيقة تبقى شيئاً مختلفاً.

لا يعــرف ســوى القليل من الأشخاص ميزانية NSA، ولكن هناك تقارير على نطــاق واســع تقول إنها تحصل على ما يزيد عن بضعة مليارات من الدولارات في السنة، وتعتبر معالجات البيانات الهائلة والقوية جزءاً من نظام مراقبة إيشلون، والذي يعالج مليارات المعلومات يومياً.

المشــكلة الوحيدة التي يعاني منها ذلك النظام هي الصعوبات اللغوية: لا يستطيع الــتعرّف على لهجات بعض اللغات الثماني عشرة في الشرق الأوسط، والعدد الأكبر منها في الهند وباكستان، ويجب معالجة بعض المواد الواردة من هناك بالطرق القديمة الطــراز؛ يتم تدريب اللغويين على ترجمة ما يُقال، وبنفس الأهمية ما قد يُسكت عنه. وفي النهاية، تعتمد القوائم على كونها صحيحة.

كـان إفـرايم هالفي يعرف أن هناك ضعفاً في النظام الأميركي: كانت أي قائمة بنفس مهارة المحلل الذي يضع اسم الشخص عليها. وهذا ما فشل فيه الأميركيون كما قال بأدب لتينت في تلك المكالمة الهاتفية.

ثـار تينـت غضباً، ودافع عن عجائب الرقابة الإلكترونية. كانت بالنسبة له أداة التجسس الخارقة التي كلّفت مليار دولار. كانت واشنطن - وبطرق عديدة تينت نفسه كرئـيس لمجـتمع استخباراتها - تستعمل حرّاس الفضاء أو أقمار التجسس الصنعية العالـية التقانة التي تحمل أسماءً برّاقة مثل آرغوس وماغنوم وكيهول في مراقبة باقي العـالم. خلال زياراته إلى إسرائيل، أظهر تينت لهالفي صوراً - التقطها قمر صنعي يـدور فـي ظلمة الفضاء الخارجي البارد - لياسر عرفات يتحدث في مقر قيادته في الضفة الغربية. ابتسم هالفي بأدب فيما كان تينت يروي القصة، وسأله فيما إذا كان ما يقوله عرفات يبرّر تكلفة كل تلك المراقبة؟ وهزّ تينت رأسه غير مبالٍ.

درس هالفـي صورة القمر الصنعي للحظة أخرى ولاحظ تاريخها، ثم طلب من أحد محلليه إحضار تقرير اليوم نفسه، والذي كان يحتوي على شرح مفصّل من كاستا للموسـاد علـى ما قاله عرفات عندما مرّ القمر الصنعي فوقه. تمتم هالفي بأن هناك جدوى من الاستخبارات البشرية، ويستطيع جاسوس على الأرض الحكم على محادثة فـي وقتها، والحصول على التفاصيل الدقيقة التي لا تلحظها أكثر المعدّات الإلكترونية تطوراً.

في لقائه التالي مع الرئيس جورج دبليو بوش، اشتكى رئيس CIA من أنه "يجب تغيير الرجل العجوز في تل أبيب". وناقش بوش الأمر مع مستشارته المقرّبة كونداليزا رايـس، والتـي قالت إنها ستتكلم مع ديك كلارك والذي كان قيصر مكافحة الإرهاب لدى إدارة الرئيس كلينتون. ولا يوجد أشخاص في واشنطن عملوا لوقت أطول منه في هذا المجال.

يعـدّ كـلارك، ابـن العامل في مصنع الشوكولاته في بوسطن، نتاج المؤسسة السياسـية - العسـكرية الأميركـية. وتحوّل إلى مستشار دائم للإدارات المتعاقبة منذ الرئيس ريغان، وكان يرى نفسه كمدافع عن القيم الأميركية.

كـان الـناس، ومـن ضمنهم أعداؤه، يستمعون إليه. وربما كانوا يسخرون في جلسـاتهم الخاصة من الطريقة التي يحاول بها كلارك أن يبدو مثل آخر رؤساء البيت الأبيض - صبغ شعره باللون الفضي عندما كان كلينتون في منصبه، أو هكذا قالوا - ولكـنه كان الرجل الذي يعرف موقف كل رئيس استخبارات في الغرب، والكثير في

الصين والبلاد العربية. أخبر رايس أن "هالفي تخطّاه الزمن"، وقامت بدورها بنقل ذلك إلــى بــوش الــذي اتصل بشارون. كانت مسألة وقت فقط قبل أن يجد رئيس وزراء إسرائيل سبباً لإحالة هالفي إلى التقاعد.

كان الرجال الذين يسيرون في أروقة الموساد يعرفون جزءاً من هذا إن لم يكن كله. كان بعض زملائهم قد غادروا الموساد للتو إما بسبب الاستقالة أو لشعورهم بأنه لا يوجد مستقبل حقيقي في المنظمة. لم يعد كافياً بالنسبة لهم ابتكار مواقف يستطيعون من خلالها توقع الحقائق من الحدس، وأن يقضوا أيامهم يمارسون فن التخمين المعرفي ويــتعاملون مع نظرية الاحتمالات. بقي آخرون في الجهاز على أمل أن تتغير الأمور يومــاً ما؛ أي أن لا يكون هناك، على سبيل المثال، تكرار لعملية تذكّر بإفرايم هالفي في تلك الأروقة.

في 9 أيار سنة 2001، سار شابان نحو نقطة حراسة فولك فيلد في ويسكونسن، وهي إحدى القواعد الجوية الكثيرة التي يحتفظ بها الحرس الوطني الجوي عبر البلاد. وكانــت فولك فيلد محط اهتمام لسبب آخر إذ يوجد فيها متحف طيران صغير. يتدفق سيل من الزوّار سنوياً من الربيع ولغاية أيلول لمشاهدة عرض الطائرات.

طلــب الحــارس البطاقات الشخصية من الشابين، وأصابته الدهشة عندما قدّما جوازي سفر إسرائيليين. لم يستطع أن يتذكر زواراً قدموا من مكان بعيد جداً، وشرحا له أنهما طالبا فنون في جامعة القدس.

سجل الحارس، كما يفعل مع كل الزوّار، اسميهما - غال كانتور وتسفي وترمان - ثــم أرشدهما إلى المتحف. وألقت دورية شرطة عسكرية القبض عليهما بعد عشر دقــائق يلــتقطان صوراً للطائرات المقاتلة الجاثمة على الأرض. تم اعتقال الرجلين، ولكنهما ادّعيا أنهما لا يعرفان أن ذلك ممنوع. أطلق ضابط الأمن المناوب في القاعدة سراحهما بعد أن حذّرهما. وانتقل تقريره عن الحادث عبر هيكلية القيادة العسكرية في ويسكونسن وصولاً إلى البنتاغون.

أرســل البنــتاغون التقرير إلى FBI، وتلقّى المكتب في ذلك اليوم من أيار سبعة وعشــرين تقريــراً آخــر عن إسرائيليين يقدّمون أنفسهم بصفة "طلاب فنون". جاءت الــتقارير مــن مناطق مختلفة مثل لوس أنجلوس، وميامي، ودنيفر، ودالاس، وسياتل، ونيوأورليانــز.

كانــت التفاصــيل جديــرة بالملاحظة، فقد تم إلقاء القبض على طالبي فنون في سانت لويس "يرسمان مخططات مبنى وكالة مكافحة الممنوعات". في بناء اتحادي آخر

في دالاس، تم إيقاف ثنائي آخر يفعلان الشيء نفسه. في مدن عديدة، ظهر طلاب فنون آخرون أمام منازل ضباط اتحاديين بارزين؛ رجال مجهولة عناوينهم معروفون بالثياب السوداء في مجتمع الاستخبارات الأميركي. في مدن أخرى - بينها فونيكس وسان دييغو - كان هؤلاء الطلاب يمتلكون صوراً لعملاء اتحاديين وسياراتهم التي لا تحمل علامات مميزة. قالت كل التقارير إن الطلاب قدّموا عناوينهم على أنها "جامعة القدس" أو "أكاديمية بيزالي للفنون" في المدينة.

طلبت FBI من وزارة الخارجية أن تقوم سفارة الولايات المتحدة في إسرائيل بالتدقيق في ذلك، وأرسلت السفارة تقريراً يقول إن جامعة القدس غير موجودة. ولم يكن هناك سوى الجامعة العبرية في المدينة، والتي لم يكن لديها أي علاقة مع هؤلاء الطلاب. كانت أكاديمية بيزالي حقيقية، ولكن تواريخ الولادة، وأرقام جوازات السفر، وأرقام التسجيل العسكرية في بعض الحالات لطلاب الفن هؤلاء لم تكن مدرجة على قائمة تسجيل الأكاديمية، أو قوائم أولئك الذين التحقوا بها خلال العشر سنوات الماضية. لدى الحصول على تلك المعلومات، اقتفى عملاء FBI في واشنطن الهواتف الخلوية التي كان يحملها هؤلاء الطلاب الغامضون. وتبيّن أن دبلوماسياً إسرائيلياً في واشنطن، كان عاد عندها إلى إسرائيل، قد اشتراها كلها.

تسبّبت تلك الأنباء بذهول في مقر قيادة FBI. عقد روبرت مولر الذي كان حينها مديراً للمكتب، اجتماعاً مع جورج تينت. كل ما كان يدور في ذهنهما هو فيما إذا كانت الولايات المتحدة تواجه عملية تجسس أخرى يقوم بها الموساد. لكن هل ستلجأ وكالة اشتهرت بالتخطيط المتقن والسرية الكاملة في عملها، كما يبدو على الأقل، إلى طريقة الهواة تلك؟ اتصل تينت بهالفي الذي أنكر وجود أي عملية.

كان يكذب، لأن العملية كانت وليدة أفكاره. قرّر هالفي، الذي صدمه عدم الاهتمام بتحذيرات الموساد من أن القاعدة تشكل تهديداً متزايداً ضمن الولايات المتحدة - كان ذلك قبل شهور من هجمات 11 أيلول - باختبار يقظة الدفاعات الأميركية. تم اختيار عدد من طلاب السنة الأخيرة في مدرسة تدريب الموساد في ضواحي تل أبيب للذهاب إلى أميركا، ولن تكون تلك المرة الأولى التي يستخدم فيها الموساد طلابه لهذا الهدف؛ وسيمنحهم ذلك خبرة ميدانية قيّمة، وأي شيء يحصلون عليه سيكون مفيداً للموساد.

اختار هالفي إدارة العملية بأقل عدد ممكن من كادر الموساد. مجدداً، لم يكن ذلك غير عادي بالنسبة للمدير العام، ولكن ما جعله غير عادي أن التخطيط المسبق

وقصص التغطية كانت كارثة على وشك الحدوث. كما هو الحال في ليلهامر وشوارع عمّان - كلّفت تلك الإخفاقات المديرين العامين اللذين سبقا هالفي منصبهما - كان هناك عنصر طيش في التعليمات التي تلقّاها طلاب الفنون والتي أربكت FBI. بالتأكيد، لم يكن الموساد لينـزلق بعيداً في تنفيذ شيء مثل هذا؟

حالما بدأ FBI تحقيقه، حدث ما هو محتوم: تسرّبت الأنباء، وسرعان ما كان عدد من المراسلين يحاولون ملاحقة القصة، وكانت تقاريرهم الأولية بعيدة عن الهدف، ووصفوا طلاب الفنون بأنهم من *الشرق الأوسط ويتكلمون العربية*، وأعضاء في جماعة إرهابية غير معروفة.

دخلت قناة فوكس للأنباء حلبة المنافسة، وعيّنت مراسلاً مجتهداً هو كارل كاميرون لمتابعة القصة، والذي حصل على أول دليل على أنها عملية للموساد.

أثار ذلك رد فعل فوري من اللوبي اليهودي الكبير والقوي في واشنطن، والذي تمتد مجسّاته عبر أميركا. تعدّ لجنة العلاقات العامة الأميركية - الإسرائيلية (AIPAC) لوبياً سياسياً رائداً قادراً على اختراق الكونغرس، ومجتمع الاستخبارات، والبيت الأبيض. يتمتّع المعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي (JINSA) بعلاقات قوية مماثلة، وتعتبر رابطة مكافحة تشويه السمعة (ADL) ولجنة إظهار حقيقة الشرق الأوسط في أميركا (CAMERA) تنظيمات مراقبة قوية حول ما تنشره وسائل الإعلام حول الشؤون الإسرائيلية.

في اللحظة التي ظهر بها كاميرون على شبكة فوكس ليعلن أنه كشف "عملية تجسس ومراقبة محتملة يقوم بها الإسرائيليون ضد عملاء القاعدة في الولايات المتحدة"، حولّت مصادر اللوبي اليهودي المتضامنة نيرانها ضده.

لكن حتى بعد أن أطلقوا هجومهم الأول ضده، قال كاميرون في تقريره الثاني إن "العديد من الإسرائيليين فشلوا في اختبارات كشف الكذب لدى سؤالهم عن نشاطاتهم التجسسية المزعومة في الولايات المتحدة".

في باريس، قالت صحيفة لو موند الفرنسية إنه تم "تفكيك شبكة تجسس إسرائيلية كبيرة في الولايات المتحدة، وهي أكبر عملية من نوعها منذ سنة 1985 عندما تم إلقاء القبض على جوناثان بولارد يبيع معلومات بالغة السرية للموساد".

انطلق اللوبي اليهودي للعمل بضراوة أكبر، وأكّدت السفارة الإسرائيلية ما كانت قد قالته حول كل تلك المزاعم: "لم يتقدم أي مسؤول أو وكالة استخبارات أميركية بشكوى إلينا حول ذلك. القصة عبارة عن هراء. إسرائيل لا تتجسس على الولايات

المتحدة".

شجب اللوبي الإسرائيلي ما قام به كارل كاميرون. وقال ممثلون عن JINSA، و ADL، وCAMERA بأن شبكة فوكس: "نقلت النبأ عن مصادر مجهولة، ولم تقدّم دليلاً مباشراً"، وقال مدير CAMERA ألكس سافيان بأن المنظمة كانت: "تُجري محادثات مع ممثلين عن شبكة فوكس تتعلق بتقارير كاميرون". تساءل سافيان أيضاً عن "دوافع كاميرون" في إثارة القصة. "أعتقد أن فوكس كانت عادلة مع إسرائيل في تقاريرها دائماً. أعتقد أن كاميرون فقط يمتلك شيئاً شخصياً ضد إسرائيل. لقد ترعرع في الشرق الأوسط، وربما كان لذلك تأثير عليه. ربما يكون متعاطفاً جداً مع الجانب العربي. لا بد للمرء أن يتساءل". مغزى ذلك الكلام أن كاميرون متعصب؛ وهو ما سيدّعيه سافيان لاحقاً حول كامل كادر التحرير في صحيفة لو موند.

قال كاميرون عندما سمع بتصريح سافيان: "لا أستطيع الكلام. قضيت بضع سنين من نشأتي في إيران لأن والدي كان عالم آثار هناك. هل يجعلني ذلك مناهضاً لإسرائيل؟ ولم يتعرّض كاميرون، كبير مراسلي شبكة فوكس في واشنطن، من قبل إلى هجوم بسبب تغطيته "المتحيزة".

قال مايكل لند، العضو البارز في "مؤسسة أميركا الجديدة" الفكرية، ورئيس تحرير سابق لصحيفة ناشونال إنترست: "من بين أجهزة الاستخبارات الأجنبية، والمؤسسات القانونية والجيش، هناك انطباع بأنك لا تستطيع العبث مع إسرائيل دون أن تعاني من إصابات مباشرة وغير مباشرة، مثل اعتبارك مناصراً للعرب".

فيما استمرت الهجمات على كاميرون ولو موند بأقصى قوة، تم ترحيل طلاب الفنون إلى إسرائيل لما اعتبرته *إدارة الهجرة والجنسية الأميركية*: "انتهاكات روتينية لتأشيرة الدخول".

لم يسأل أي من التقارير الإعلامية الكثيرة عن سبب اشتراك CIA، عبر قسم مكافحة التجسس القومي، في القضية. أو عن السبب الذي دفع FBI للقول إن الطلاب زاروا حوالى ستة وثلاثين موقعاً لوزارة الدفاع.

أخيراً، فيما كان الطلاب يصعدون على متن طائرة العال في طريق عودتهم إلى تل أبيب، اختفت كل آثار تقارير كاميرون من موقع الإنترنت التابع لشبكة فوكس. قال متحدث باسم CIA: "لم تعد هذه القضية قائمة بعد الآن. لقد أغلقنا الملف". انتهت حياة هالفي المهنية في الموساد بعد ذلك بوقت قصير.

كان هناك قضية أخرى سيحملها هالفي معه إلى التقاعد: قراره بإعادة التحقيق

فـــي مقتل الأميرة ديانا ودودي الفايد. بعد قراءة ملف الموساد حول الحادثة، طلب من موريس، العميل الذي اشترك في محاولة تجنيد هنري بول - سائق السيارة التي مات فيها كلا الحبيبين - تحضير ملف جديد عن آخر يوم للثنائي معاً.

هل كان ذلك بدافع الفضول من جانب هالفي؟ فلقد كانت هناك شائعات بأنه التقى ديانا خلال عمله كسفير لإسرائيل لدى المجموعة الأوروبية. إذا كان ذلك صحيحاً، لن يكـــون أول دبلوماســـي يتأثر بسحرها، ولكن هالفي أراد على الأرجح التأكد من عدم وجود دليل جديد يدعم الادعاءات بأن الموساد كان متورطاً مباشرة في موتهما.

أعــدّ موريس، الذي تحول إلى العمل المكتبي آنذاك في مقر القيادة، ملفاً تفصيلياً عن اليوم الأخير في حياة ديانا ودودي. قال أولئك الذين قرأوا الملف بأنه يُلقي الضوء علـــى تقرير الموساد الأصلي، ويصف التقرير محمد الفايد، والد دودي، برجل يتملكه هـــاجس بـــأن ديانـــا كانت حاملاً، وأنها كانت تحت رقابة CIA وM16 والاستخبارات الفرنســـية مـــنذ اللحظة التي سافرت فيها مع دودي إلى باريس. كان هناك تسجيلات لمكالمـــات هاتفية متنوعة، بما فيها تلك التي تلقتها ديانا من حارسها الشخصي السابق الـــذي يعمل في سكوتلنديارد، تحذّرها بأن "عليها الاحتراس". هناك شرح دقيق لأمسية 30 آب سنة 1997 التي قضاها الثنائي في باريس. بعد ذلك، يأتي وصف مشابه حول كـــيف اندفـــع الثنائـــي فـــي اللحظـــات الأولى من الأحد 31 آب خارج فندق ريتز ومحاولـــتهما الوصـــول إلـــى شـــقة دودي التي لا تبعد سوى مسافة قصيرة. ثم ركّز موريـــس على الأونو البيضاء، والتي كانت متوقفة بالقرب من ريتز. وقال مصورون آخـــرون إنهـــا تعود للباباراتزي جيمس أندرسون، والذي جعل من التقاط صور لديانا اختصاصاً له، مما أكسبه ثروة لا بأس بها. ولكن أندرسون، كما قيل، لم يكن موجوداً في تلك الليلة مما أثار التساؤلات.

وصـــف موريـــس الأونو البيضاء في مطاردتها الساخنة للمرسيدس، التي كان هـــنري بـــول يجلس وراء مقودها وديانا ودودي في الخلف، وكيف تسابقت السيارتان جنباً إلى جنب إلى مدخل نفق "لا ألما" حيث لقي ديانا ودودي مصرعهما.

وجـــد المحققون لاحقاً سيارة من نفس النوع مطلية حديثاً بلون أزرق في مرآب فـــي باريس. وعندما كشطوا الطلاء، اكتشفوا أن لون السيارة الأصلي هو الأبيض. لم تتابع الشرطة تحقيقها في تلك المسألة. هل كانت تشتبه بأنها ليست المركبة التي كانوا يبحـــثون عـــنها؟ وإذا كـــان الأمر كذلك، لماذا لم يزوروا معمل سحق السيارات في ضـــاحية بـــاريس حيـــث تم تحويل سيارة فيات أونو بيضاء أخرى، بعد ساعات من

الحادث القاتل، إلى قطعة معدنية خالية المعالم؟ هل أدركوا أيضاً أن ذلك سيكون مضيعة للوقت؟

لاحظ موريس في تقريره: "بعد أربع ساعات تقريباً من الحادث، سافر جيمس أندرسون فجأة إلى كورسيكا. ولم يكن هناك سبب معروف لقيامه بذلك. ولم يكن هناك أحد مشهور في كورسيكا ليقوم بتصويره في ذلك الوقت. في أيار سنة 2000، تم إيجاد سيارة محروقة في غابة قرب نانت في فرنسا، وكان السائق ما يزال داخلها. أظهرت اختبارات الحمض النووي أنها جثة جيمس أندرسون".

هنا يقع السر الأخير الذي ربما لن يتم الكشف عنه أبداً الآن. هل ذهب أندرسون إلى كورسيكا للحصول على أجرة كبيرة لقاء تأجير سيارته الفيات الأونو؟ لكن لمن؟ ولم يكن الموساد بالتأكيد مهتماً بملاحقة ديانا ودودي. هل كان ذلك لصالح جهاز استخبارات آخر؟ وكان هناك تقارير تقول إن أندرسون على علاقة بكل من الاستخبارات الفرنسية والبريطانية، وحتى إذا كان ذلك صحيحاً، إلا أنه يبقى من غير المقبول القول – كما فعل محمد الفايد – بأنه تم: "استئجار واستخدام سيارة أندرسون لجعل هنري بول يفقد السيطرة على المرسيدس".

لكن الأسئلة لا تتوقف. لماذا كان تحقيق الشرطة حول موت أندرسون باهتاً تنقصه الحماسة. ولماذا لم تحاول الشرطة التحقيق في السبب الذي دفعه للذهاب إلى كورسيكا، أو تتأكد من حساباته المصرفية؟ كان أندرسون يحتفظ بعدّة حسابات مصرفية في أوروبا مثل كل الرجال الأثرياء. لكن لم يتم التحقق من كل ذلك لاكتشاف ما إذا كان قد تلقّى مبلغاً كبيراً من المال بعد رحلته إلى كورسيكا.

الأكثر غرابة هو سبب اهتمام هالفي بموت أندرسون. هل حاول في الماضي تجنيده لصالح الموساد؟ ورغم عدم وجود شيء في ملفات الموساد، إلا أن هناك احتمالاً بأن يكون كاستا قد التقى المصوّر خلال إحدى العمليات وحاول استخدامه.

في حال كان إفرايم هالفي قد فكّر بكل ذلك، فقد أبقاه لنفسه. لقد كان من تلك النوعية من الرجال، وربما تكون عدم قدرته على الاشتراك في الأسرار مع الآخرين قد ساهمت في سقوطه. لقد وصل بصمت إلى الموساد، وغادر بنفس الطريقة.

في ذلك اليوم الحادي عشر من أيلول سنة 2002، انتظر كادر الموساد وصول خلفه إلى المطعم الداخلي ليوجه لهم خطاباً. لم يكن أحد منهم يتوقع شيئاً، وكان التوتر، كما قال أحد الرجال، "شيئاً حياً".

انتظر مائير داغان في الممر حتى تأكد من وجود صمت مطبق في المطعم. كان

قـــد تعلـــم قـــبل وقت طويل، عندما كان قائداً عسكرياً، يزوّد قواته بالتعليمات، أهمية طريقة الدخول. وبالنظر إلى كونه الميمون العاشر الذي يتولى إدارة الموساد، فلقد كان عـــاقد العزم على بسط سيطرته منذ البداية. لقد قام بدراسة ملفات موظفيه فور تعيينه فـــي المنصـــب. لقد كان يتمتع بذاكرة استثنائية، ووجهاً لا يمكن نسيانه حالما يشاهده المرء لمرة واحدة.

كـــان داغـــان في السابعة والخمسين من عمره، ويحمل وجهه علامات عن كل الحروب الأخيرة التي خاضتها إسرائيل. كان قد قمع بنفسه الانتفاضة الأولى في غزة سنة 1991. كما شارك أيضاً في قيادة رجاله في حرب يوم الغفران (أكتوبر). كما أنه قاتل في لبنان بشكل ممتاز. في كل تلك الأماكن، التزم بنفس النظام الذي وضعه لنفسه فـــي الاســـتيقاظ باكراً مثل أي محارب محنّك، والاستحمام بماء بارد، وتناول إفطار يومـــي مـــن اللبن الطبيعي، والخبز المدهون بالعسل والقهوة القوية. إنه رجل خشن، وفخور بنفسه ووقور، ولديه استعداد للدفاع عن إنجازاته.

اكتســـب بطل الحروب السابقة الذي صقلته المعارك سمعته في العواصم العربية كرجل مهاب الجانب، ولا يتردد في القيام بمغامرات في الأماكن التي لا تحمل أسماء عادةً، ولا يكون معه عادةً سوى بندقية. تعرّض للإصابة مرتين أثناء العمل، واضطر فـــي بعض الأيام عندما كان يعاني من ألم شديد في ركبته للمشي باستعمال عكّاز. لم يكـــن يحب ذلك، وكان يكره أي علامة على الضعف سواء كانت فيه أو في الآخرين. لذلك فهو لم يكن يحمل العكاز في ذلك اليوم الأيلولي.

فـــي أوقات فراغه، كان يدرس التاريخ العسكري ودروس الاستخبارات المستقاة مـــن المعارك الرابحة والخاسرة. لم يكن سوى القليلين يعرفون أنه رسّام طبيعة بارع (كان لديه ركن في مكتبه يضع فيه الحامل لرسم إحدى لوحات الألوان المائية). وبقيت هـــذه الحقيقة جزءاً من عالمه الخاص مثل أي شيء آخر يتعلق به. إنه رجل لا يملك ســـوى بعـــض الأصدقاء ويعيش حياة عائلية سعيدة، لقد جاء إلى الموساد لهدف واحد فقط: إعادة جهاز الاستخبارات إلى سابق عهده.

نقلـــه رئيس الوزراء أرييل شارون من القيادة العسكرية للقيام بتلك المهمة. كان الـــرجلان صديقين منذ كانا يقاتلان منظمة التحرير الفلسطينية معاً في لبنان. لقد أثبت داغـــان نفسه في ذلك المستنقع السياسي بقدرته على بناء المعنويات، والتي كانت، كما قـــال شـــارون، أولوية قصوى للموساد. لقد اختاره شارون لأنه، بطرق عديدة، يتمتع بنفس الهيئة الفولاذية التي كانت لمير عميت، أعظم قائد للموساد على الإطلاق.

دخل داغان المطعم عندما تأكّد أن الانتباه وصل إلى مستوى مرضٍ. سار بسرعة متجاوزاً الموظفين الصامتين إلى وسط الغرفة، واستخدم كرسياً للصعود إلى طاولة. حدّق للحظة طويلة في الوجوه التي تنظر للأعلى نحوه، ثم تكلم.

توقف ليفسح مجالاً لكلماته لتأخذ تأثيرها الكامل، وشدّد على قصده بدفع قبضة إحدى يديه في راحة الأخرى وقال: "لا أريد أن يتم تناول دماغ أي منكم. يجب أن تأكلوا أدمغتهم".

كانت كلماته كافية لإخافة مستمعيه، وربما تكون قد أثارت رجفة في بعضهم. كان من بين الحاضرين من قام بقتل أعداء إسرائيل الذين لم يكن ممكناً إحضارهم للمحاكمة لأنهم يتمتعون بحماية مشددة خلف الحدود مع الجيران العرب.

كان هناك ضمانة واضحة خلف كلمات داغان أنه سيجيز من الآن فصاعداً أي عملية ضد أولئك الذين "يأكلون أدمغتهم". بالمقابل، سيعمل على حماية الموساد بكل الطرق الممكنة؛ القانونية أو غير القانونية. كان ذلك يعني أنه سيسمح لعملائه باستخدام غاز التوكسين، ورصاص الدمدم وأساليب القتل التي نادراً ما تستخدمها المافيا، أو KGB سابقاً أو حتى الاستخبارات الصينية السرية. لكنه ذكّرهم ضمنياً أيضاً بأنه لن يتردد في تعريضهم للتعذيب وطرق معينة في الموت على أيدي أعدائهم، ولا عجب أن ذلك كان كفيلاً بإخافتهم.

قد يتذكّر جيداً بعض أولئك الذين تخرجوا حديثاً من مدرسة تدريب الموساد الكلمات التي قالها قبل وقت طويل مير عميت، والتي شكّلت جزءاً من محاضرات المدرسة حول الاغتيال: "الموساد مثل جلاد رسمي أو طبيب يعطي الحقنة القاتلة في طابور الموت. كل أعمالكم ستكون لصالح *دولة إسرائيل*. وأنتم لا تخرقون القانون عندما تقتلون، وإنما تنفذون حكماً أجازه رئيس الوزراء الحالي".

تكلم داغان مرة أخرى: "أنا هنا لأخبركم بأن مجدكم الغابر عائد، وأن حجر النرد سيدور مجدداً". ثم أخبرهم عن نفسه، وكيف ولد على متن قطار بين روسيا وبولندا، وأنه يتكلم عدّة لغات، وأنه ملتزم بعقيدة تقول إن الفعل لا يستطيع الانتظار حتى يصبح يقيناً. وأنهى كلامه بضربة من قبضته على راحة اليد الأخرى.

لقد كان ذلك أداءً رائعاً. وحالما قفز نزولاً عن الطاولة ومشى عبر المطعم، لحقه التصفيق طوال الطريق إلى الباب.

سرعان ما جاء الوقت الذي أظهر فيه داغان ما كان يعنيه "بتناول أدمغة الأعداء". في مومباسا شرق أفريقيا، اقتحمت لاند كروزر محمّلة بالمتفجرات منطقة

الاستقبال في فندق برادايس الذي يملكه إسرائيليون على الجزيرة في تشرين الأول سنة 2002. لقي خمسة عشر شخصاً مصرعهم وجُرح ثمانون آخرون. في نفس الوقت تقريباً، كاد صاروخان محمولان على الكتف أن يتسببا بإسقاط طائرة ركاب إسرائيلية تحمل إرهابيين من كينيا إلى تل أبيب. ونجا 275 راكباً كانوا على متنها من الموت بأسلوب لوكربي.

قرّر مائير داغان فوراً بأن الهجومين من تدبير القاعدة، وأن الصواريخ جاءت من ترسانة العراق. جاء التأكيد من عملائه المتخفين في بغداد ومن CIA وM16.

في غضون ساعات، شكّل داغان فريقاً للذهاب إلى مومباسا، وكان جميع أفراده يتكلمون اللغة المحلية. وكانوا يستطيعون دخول الجزيرة بصفة تجار عرب أو آسيويين. كان لباس ومظهر رجاله مناسباً تماماً، كانت مهمتهم الأساسية في مومباسا إيجاد وقتل الرجال الذين يقفون خلف الاستشهاديين الثلاثة الذين ذهبوا إلى حتفهم وهم يضحكون فيما كانوا يخترقون بمركبتهم الفندق.

كان الفريق سيحمل مختبراً صغيراً من السموم في قوارير مختومة بعناية سيستعملها عندما تحين لحظة الهجوم. كانوا مزوّدين بسكاكين طويلة حادّة، وأسلاك قوية للشنق، ومتفجرات ليست أكبر من قرص صغير يكفي لنسف رأس شخص. كانوا سيأخذون ترسانة من الأسلحة: مسدسات صغيرة، وبنادق قنص يصل مداها القاتل إلى ميل. وحمل كل عميل عدّة جوازات سفر ليستطيع عبور الحدود بهويات مختلفة.

هكذا سافر الفريق في طائرته الخاصة إلى مومباسا، وانضم إليه عملاء الموساد من لاغوس في نيجيريا – التي تحصل منها إسرائيل على النفط الخام – لدعمه. أسرع كاستا آخرون من جنوب أفريقيا، وروما، ومالطا، وقبرص عبر أفريقيا إلى مومباسا الشديدة الحرارة.

كان رجال داغان مهذبين مع ضباط من CIA وM16 والأجهزة الأوروبية الأخرى، ولم يتفوهوا بكلمة عن العمل الوحشي الذي كان من اختصاص السلطات القضائية الكينية. لكن بالنسبة للفريق، كان كل القتلى والجرحى إسرائيليين، ولهذا كانت المسألة من اختصاصهم. في تل أبيب، انتظر داغان، وكان يعرف بأن رجاله اندمجوا بين سكان المنطقة المتعددة الأعراق.

لغاية يومنا هذا، لا يعرف أحد على وجه الدقة مدى النجاح الذي حقّقه فريق الموساد، ولكنّ مصادر في عدد من أجهزة الاستخبارات الأخرى قالت إنه قتل عدّة إرهابيين مشتبه بهم ورمى بجثثهم في المستنقعات المليئة بالتماسيح. إذا كان الأمر

صــحيحاً، سيكون ذلك متناسباً مع طريقة الموساد في تنفيذ أعماله، وحقيقة أن عالمهم مختلف عن الآخرين.

وفيما كان عملاؤه يقومون بمهمة السفاري القاسية ضد القاعدة، كان مائير داغان يدخــل في صراع مع عدو آخر مخيف بنفس القدر: الاستشهاديون الذين استمروا في ترويع إسرائيل في الأسابيع الأخيرة من سنة 2002.

ضــربت أول هجمة استشهادية في إسرائيل في يوم ربيعي دافئ من نيسان سنة 1993. وســرعان مـــا لحق بها هجمات أخرى قتلت المئات وجرحت الآلاف. مات رجال، ونساء وأطفال في الحافلات، والأسواق والمقاهي، وفي طريقهم إلى المدرسة. كانــت كــل عملــية قتل تهدف إلى شيء واحد فقط: تدمير الأمل بإحلال السلام في المــنطقة. جــاء معظم الاستشهاديين من مجموعة إرهابية (وفقاً للوصف الإسرائيلي) تدعى *شهداء الأقصى*، والتي كانت تخيف الإسرائيليين أكثر من حزب الله وحماس.

كــان كــل استشهادي محتمل يمثل أمام لجنة شهداء الجهاد. لقد فشلت مصادر مجــتمع الاســتخبارات الإســرائيلي مجتمعة من تحديد أماكن أعضائها. كل ما كان معروفاً هو أنهم يتخذون القرارات الهامة عبر ملاحظات مكتوبة.

كانــت اللجنة تتحرّى جيداً في خلفية عائلة المرشح قبل إجراء أي اتصال معه. كــان الموقــف الديني لأي استشهادي جزءاً حاسماً في عملية الاختيار. كانت اللجنة تستشــير إمــام الجــامع الذي يصلي فيه المرشح حول معرفته بالقرآن الكريم، ومدى محافظته على صلاة الجمعة. كان هناك شروط مسبقة أخرى قبل أن يتم قبول شخص للاستشــهاد. ولم يكن يتم اختيار استشهادي إذا كان المعيل الوحيد لعائلته؛ وإذا تطوّع شقيقان، كان الاختيار يقع على أحدهما فقط.

بعــد اجتياز تلك المتطلبات الأساسية، كانت تتم دعوة المرشح للقاء لجنة شهداء الجهــاد. تلك الاجتماعات كانت تتم في الغالب في أماكن عامة مثل المقاهي المزدحمة للتقليل من مخاطر المراقبة الإلكترونية.

يركــز الاجــتماع الأول علــى ثقافة المرشح الدينية، ويتم استجوابه لاحقاً حول الــتزامه السياســي. وإذا كانت إجاباته مرضية، يتم وضعه على لائحة الاستشهاديين، والتي لم يعرف أحد حجمها أبداً، ولكن قد يصل عدد المسجلين على كشوفها إلى عدّة مئات.

وجــد مائــير داغــان التفاصيل في ملفات الموساد، ولكنه أراد معرفة المزيد. وهكــذا، تعمّــق في كل لحظة فراغ لديه بالعالم المغلق للاستشهاديين والرجال الذين

يقفون وراءهم.

كانـــت تحضيرات الاستشهاد تتم في مسجد، وعادة في الغرفة الخلفية البعيدة عن أعيـــن المصـــلين. كـــان عدد من أعضاء لجنة شهداء الجهاد يساعدون الإمام. كانوا يقضـــون حوالـــى ثماني ساعات مع المرشح في اليوم، ويوزعون الوقت بين الصلاة الصامتة وقراءة سور من القرآن الكريم بصوت عالٍ.

كـــان جـــزءاً هاماً من هذه المرحلة منح ضمانات متكررة للمرشح بأنه في يوم القـــيامة سيكون – أو ستكون لأنه يمكن للنساء أن يصبحن استشهاديات – مسموحاً له عـــند دخوله الجنة اصطحاب سبعين من أقربائه معه؛ وأن الرجل الاستشهادي سيكون بانتظاره اثنان وسبعون حورية بكر واللواتي يعشن هناك وفقاً للتعاليم الإسلامية.

كانـــت هذه الوعود تترافق مع اختبارات للتأكد من عدم تردد الاستشهادي الذي يؤمن بالشهادة. ويحضّه الإمام ومساعده مراراً وتكراراً على أنه "يموت في سبيل الله (عزّ وجل). وقد اختارك الله (عزّ وجل) لأنه رأى فيك كل الخير".

تأتـــي أول إشـــارة للاستشـــهادي بأنه على وشك ملاقاة حتفه عندما ينضم إليه "مستشـــاران" مكـــان مســـاعد الإمام. ويكونان شيخين متعمقين بالمعتقدات الإسلامية، ومهمتهما التأكد من عدم تردد المرشح في استعداده للموت. يقوم المستشاران بالتركيز علـــى المجد الذي ينتظره في الجنة وأنه سيتمكن أخيراً من الوقوف بين يدي الله (عزّ وجل)، وسيقابل النبي محمد (صلعم).

عـــندما يقترب موعد تنفيذ المهمة، يتم نقل الاستشهادي إلى غرفة معدّة خصيصاً لهذه الغاية، ومنقوش على جدرانها آيات من القرآن الكريم. هناك طيور خضراء تحلق بيـــن الآيـــات في سماء وردية، وهي تذكير بأنها تحمل أرواح شهداء الله (عزّ وجل). عندها يصبح التلقين أكثر تركيزاً، ويتم إخبار الاستشهادي أن الجنة قريبة جداً. وعندما يحيـــن الوقـــت، كـــل ما يكون عليه فعله هو الضغط على زر الصاعق لدخول العالم الموعود.

يستمر المستشاران والاستشهادي في الصلاة طوال ساعات ويصومون معاً. بين هـــذا وذاك، يـــتم الاعتناء بالجانب العملي في طريقه إلى الجنة. ويتم تسوية كل ديون الاستشهادي الدنيوية من قبل "لجنة شهداء الجهاد". ويقال له إن عائلته ستصبح موضع تكـــريم في مجتمعها. ويكون هناك اختبارات مستمرة للتأكد من أن أي علامات خوف لا تظهر على الاستشهادي. ثم ينعم عليه المستشاران بلقب *الشهيد الحي*.

في المراحل الأخيرة، يضع الاستشهادي نسخة من القرآن الكريم داخل ملابسه.

ويضع فوقها بذلة المتفجرات، ويكون هناك سلك يصل الصاعق إلى زر في راحة يده اليمنى. يرافق المستشاران الاستشهادي إلى منطقة قريبة من الهدف، ويودّعانه مع الوعد لكل الأشخاص الاستشهاديين: "الله (عزّ وجل) معك. ليوفقك الله (عزّ وجل)، ويسكنك فسيح جنانه". يصرخ الاستشهادي لاحقاً عندما يضغط على زر الصاعق: "الله أكبر". كانت تلك بالتأكيد آخر كلمات دنيوية تقولها وفاء علي إدريس.

أجرى مائير داغان دراسة معمقة عن الشابة التي تم اختيارها لتنفيذ عملية استشهادية، والتي تلقت تأكيدات بضمان مكان لها في ساحة الشهادة الإسلامية. كانت أول امرأة استشهادية تفجّر نفسها ضد إسرائيليين غافلين، يستمتعون بصبيحة يوم ربيعي دافئ في سنة 2002؛ ذلك الصباح الذي يحب فيه الإسرائيليون أن يُذكّروا أنفسهم لماذا يدعون هذه الأرض المضطربة "أرض الميعاد".

في صبيحة يوم الأحد ذاك، كانت وفاء قريبة من عيد ميلادها الثاني والثلاثين. كانت أغلى الهدايا على قلبها صورة موقعة لياسر عرفات والذي منحها إياها شخصياً رئيس منظمة التحرير الفلسطينية. وكانت عضوة في منظمة فتح التي يرأسها عرفات، وقامت برشق الحجارة على الجنود الإسرائيليين في الضفة الغربية منذ كانت مراهقة.

تزوجت عندما بلغت الثامنة عشرة قريباً بعيداً لها كان يعمل حداداً. أجبرته أمه بعد عشر سنوات على تطليقها لأن وفاء لم تكن قادرة على إنجاب الأولاد. التحقت بعد طلاقها بجمعية الهلال الأحمر، وعملت كمساعدة طبية في المنظمة الإسلامية المكافئة للصليب الأحمر.

قالت والدتها لاحقاً بفخر: "كانت في قلب القتال، وتساعد المصابين، وغالباً ما كانت تحمل الجرحى والأطفال الميتين. في نهاية يوم عمل طويل على خط الجبهة، كانت ابنتي تبكي بين ذراعيّ عندما تتذكر الأشياء المروّعة التي شاهدتها".

بدأت دائرة أصدقاء وفاء تتغير. كانت ترتشف القهوة في مقاهي الشوارع الخلفية مع أعضاء من حماس التي تأسست سنة 1987 خلال الانتفاضة الأولى، والتي اشتركت بها. كانت تستمع إلى خططهم الرامية إلى بناء دولة إسلامية.

قال الشين بيت في إسرائيل - جهاز الأمن الداخلي - إنها قد أصبحت أخيراً عضوة في حركة الجهاد الإسلامي الفلسطينية. كانت تلك خطوة نحو عالم الكفاح المسلح الذي أحاط بحياتها آنذاك، وفي شهر رمضان سنة 2001 التقت مسؤولاً عن التجنيد في خلايا شهداء الأقصى.

قالت أمها: "وجدت وفاء أخيراً ما كانت تريده. الفرصة لإظهار أنها ابنة فلسطين

الحقيقية". كانت مستعدة في يوم الأحد ذاك، وبعد خمسة شهور من قبولها في خلايا شهداء الأقصى، للموت في سبيلهم.

في الليلة السابقة، وفيما كانت شوارع رام الله مليئة بالشباب، سلّمت امرأة عجوز طرداً إلى المنزل الذي تسكن فيه وفاء مع أمها الأرملة. كان الطرد يحتوي على ملابس داخلية نسائية جديدة مع بذلة مفصلة على مقاس وفاء ومصممة لإخفاء ما يصل إلى ثلاثة كيلوغرامات من المتفجرات الشديدة والمسامير الحادّة وشظايا الشفرات. كانت البذلة مفصّلة لتلبسها وفاء تحت ملابسها العادية، وكان فيها عدّة جيوب يمكن إخفاء المتفجرات فيها بسهولة، والتي ستتوزع حول أعلى جذعها. كانت جيوب أخرى حول خصرها مصممة للمسامير والشفرات. كان هناك جيب منفصل يمتد فوق المنطقة الحساسة. وقال د. أريل ميراري لاحقاً، وهو خبير بارز في جامعة تل أبيب في تقنيات الاستشهاديين، أنه تم تفصيل الجيب "لأن قوات الأمن الإسرائيلية لم تفتش امرأة عربية في تلك المنطقة من جسدها من قبل".

لم تقابل وفاء الشخص الذي خاط البذلة. ويقال إنه جاء من جنين، المدينة العربية التي ستدمّرها القوات الإسرائيلية فيما بعد. كان الرجل معروفاً باسم **خياط الموت** بالنسبة للموساد. استنتجت أجهزة الاستخبارات أخيراً أنه كان حرفياً ماهراً جداً والذي استخدم غرزة ثلاثية لخياطة البذلة، وقماشاً تبيعه المحلات العربية لصنع القمصان الداخلية. جاء الخيط من مصدر مشابه، واستنتج تقنيو الموساد أن الخيّاط ربما استخدم آلة خياطة قديمة الطراز تعمل يدوياً من طراز سنجر. وتبين لاحقاً أن بذلة وفاء، مثل ملابس كل الاستشهاديين الذكور، مصممة لتوزيع المتفجرات بشكل متوازن جداً، بحيث ينتشر تأثيرها على أوسع منطقة ممكنة.

ربما تكون وفاء قد تلقّت نصيحة أيضاً حول كيفية اختيار الملابس الخارجية. قال د. ميراري: "تعرف أن بعض الاستشهاديين الذكور كانوا يضعون شعراً مستعاراً ويبدون في غاية الأناقة. ساعدهم ذلك في الوصول إلى المطاعم والمقاهي الفخمة، والتي كانت من ضمن أهدافهم". تذكرت والدة وفاء لاحقاً بأن ابنتها وضعت بذلتها وملابسها الداخلية النظيفة على سريرها في وقت مبكر من صبيحة يوم الأحد. ثم اختارت أفضل بناطيل الجينز لديها وقميصاً فضفاضاً لإخفاء بذلتها تحته.

انضم إليها مستشارها الروحي؛ رجل من *شهداء الأقصى*، وصليا معاً، ثم قرأ سوراً من القرآن الكريم. وسلّمها نسخة من القرآن.

كان المرشح الذي يستعد للموت يخفف اتصالاته مع عائلته إلى أدنى حدّ، وذلك

للتقليل من أي تردد ناجم عن العلاقات الدنيوية. كان يتم تذكيره - أو تذكيرها - بحياته الجديدة التي تنتظره. لم يكن مسموحاً للمرشح الاختلاط مع عائلته أو عائلتها سوى عشية يوم الاستشهاد. وكان ذلك في جزء منه اختباراً لمعرفة ما إذا كانت عزيمته ستضعف.

أمضت وفاء، على سبيل المثال، اليومين الآخرين لها مع والدتها، ولم تخبرها بما سيحدث سوى عندما استلمت ملابسها الداخلية وبذلتها الخاصة. تتذكر والدة وفاء علي إدريس: "صلينا معاً من أجل فلسطين، ومن أجل رحلة آمنة لابنتي إلى عالم أفضل".

كانت وصفية نفسها امرأة ترى الحياة في نشر معتقداتها. كما أنها لم تكن تقرأ سوى القرآن الكريم، وكان ياسر عرفات بطلاً بالنسبة لها. كانت تحلم بأن ابنتها ذاهبة إلى حتفها للمساعدة في إنشاء وطن للفلسطينيين.

لم تكن بعض مواصفات وفاء تتناسب تماماً مع ما يجب أن يكون عليه الشهيد. لم يظهر عليها أي مشاعر دينية قوية حتى تم تسجيلها على قائمة شهداء الأقصى. وتقول وصفية: "أصبحت تقية تتبع كل ما علّمتها إياه عندما كانت طفلة بعد قضاء بعض الوقت مع *شهداء الأقصى*. ولم يكن هناك يوم لم تكن تدرس فيه القرآن الكريم".

تحوّل غضبها ضد إسرائيل إلى قوة محركة متّقدة ساندتها خلال عملها كمساعدة طبية. في السنة التي سبقت استشهادها، تعرضت للإصابة ثلاث مرات من قبل الجنود الإسرائيليين فيما كانت تداوي الجرحى العرب في شوارع رام الله. تتذكّر أمها قائلة: "كانت ابنتي تزداد غضباً في ذلك الوقت. كل ما كانت تحاول فعله هو إنقاذ الأرواح، ولكن الجنود لم يكونوا يكترثون. ثم قالت لي يوماً ما: "يا أمي، التحقت *بشهداء الأقصى*. إنها الطريقة الوحيدة التي أستطيع بها خدمة شعبي. يجب الانتقام لكل أولئك الذين ماتوا!" وكنت أتفهم شعورها".

لاستيعاب أهمية الشهادة لهؤلاء الناس، ليس على المرء سوى الذهاب إلى مسجد رام الله حيث شرح أحد الأئمة (لمؤلف الكتاب): "يجب أن تفهم أولاً معنى الروح. إنها تسمو بالإنسان فيما تحاول القوى المادية دفعنا إلى الخلف. لكن عندما تتملكك الرغبة الحقيقية بالشهادة، يتراجع تأثير المادة. ستبدأ بفهم ذلك فقط عندما تصبح مؤمناً حقيقياً. يستحيل على كل الكفار استيعاب ذلك. ولكن أولئك الذين اختاروا الموت، يعرفون أنهم قريبون من الحياة الخالدة. ليس لديهم شكوك حول العالم الرائع الذي ينتظرهم. كل واحد منهم يفهم شرعية ما هو مُقبلٌ عليه. كل واحد منهم أقسم على القرآن بأنه سينفّذ

ذلـك العمـل النبـيل. إنـه قسم الجهاد، وندعوه "بيت الرضوان" تيمناً بجنة المأوى المخصصة للنبيين والشهداء والصدّيقين".

فـي رام الله، يعتـبر الاستشـهاديون أبطالاً، وتظهر أسماؤهم على قائمة "شهيد الشـهر"، ويتم الاحتفال بهم غناءً وشعراً. ويذكرهم الأئمة في صلوات الجمعة في كل مساجد الضفة الغربية وقطاع غزة.

قال الشيخ أحمد ياسين، الزعيم الروحي لحماس: "حب الشهادة عميق في قلوبنا. ولكن هذه المكافآت ليست هدف الشهادة بحد ذاتها. والقصد الوحيد للمؤمن الحقيقي هو الفـوز برضـا الله (عـزّ وجـل). ويمكن تحقيق ذلك بأبسط وأسرع طريقة ألا وهي الاستشهاد في سبيل الله (عزّ وجل). ولا تنسوا أن الله (عزّ وجل) يختار الشهداء".

في آذار سنة 2004، اغتالت طائرة إسرائيلية الشيخ فيما كان يغادر المسجد في مديـنة غـزة. وتضمنت خطبته عبارات مألوفة: يجب أن يضحي المزيد من الشباب والشابات بأنفسهم.

لـم يكن هناك نقص في المتطوعين بعد وفاء علي إدريس، والتي فجّرت نفسها بعـد ظهـيرة ذلك الأحد من آذار سنة 2002 في مطعم مكتظ في القدس. قتلت رجلاً يـبلغ مـن العمـر إحدى وثمانين سنة، وجرحت ما يزيد عن مئة آخرين من الرجال والنسـاء والأطفـال. نسفت المتفجرات رأسها وإحدى يديها وتركت حفرة عميقة في بطنها. وقالت محطات الإذاعة في رام الله بعد ساعات إنها "بطلة حقيقية من شعبنا".

تم التلاعب بوفاء باسم التشدد الإسلامي من قبل العالم المظلم والخطير للعصبية الإسـلامية (وفقـاً للوصف الإسرائيلي) والتي ستقود أخيراً إلى الهجمات على مركز الـتجارة العالمـي والبنـتاغون، وكل الهجمات الانتحارية (وفقاً للوصف الإسرائيلي) الأخرى عبر الشرق الأوسط وباكستان والفلبين.

مـنذ وفاة (استشهاد) وفاء، واجهت المزيد من الشابات مصيراً مشابهاً. وتسببن جميعهـن بقـتل أو جـرح ما يقارب 250 إسرائيلياً. وصفت أفعالهن بأنها "تفجيرات مقدّسـة" لأن الانتحار محرّم في الإسلام. ولكنّ أطباء *شهداء الأقصى* محنكون في فن الدعاية السوداء.

كان العائد المادي للعائلات التي تسمح لأولادها بالتضحية بأنفسهم جيداً. وتتلقى كـل عائلة معاشاً مدى الحياة. ورغم أن المبلغ يختلف، إلا أنه لا يقل عن ضعف دخل العائلة قبل موت ابنهم أو ابنتهم. تأتي النقود من إيران، ويتم تبييضها عبر المصارف المركزية من دمشق إلى أثينا. ويتم تحويلها إلكترونياً من هناك إلى حساب في القاهرة،

ثم تنتقل إلى مدينة غزة لتوزّعها "لجنة الجهاد".

وضع مائير داغان نصب عينيه التحقق من المقصد النهائي للأموال على أمل أن تقود الموساد إلى الرجال الذين يجهّزون الاستشهاديين، ولكن تلك المهمة كانت عسيرة. يعمل *الشهداء* في خلايا صغيرة، ولا يكون هناك غالباً أكثر من رجلين أو ثلاثة في كل خلية. ولا يمكن تجنيد مخبرين للاستخبارات الإسرائيلية في العالم المغلق لمخيمات النازحين، ويتم إعدام المخبرين الذين يتم الكشف عنهم. يكون ذلك بالنسبة لهم موتاً قاسياً وبطيئاً، مسبوقاً بتعذيب لا يمكن تحمّله، وتتلقى عائلاتهم نظرات الكراهية لأنها أنجبت خائناً للأصولية الإسلامية.

لكن الاستشهادي لا يلقى سوى المجد، ولا يوجد في العالم الذي يسكنونه سوى القليل من ذلك. وربما يكون الموت بالنسبة لهم راحة مرغوباً بها في معظم الأحيان.

بعد استشهاد وفاء، تم توزيع كرّاسة صغيرة مع صورتها في كل أرجاء الضفة الغربية، مكتوب فيها: "ليس لدينا دبابات أو صواريخ، ولكن لدينا شيئاً أكثر تفوقاً؛ قنابلنا البشرية الإسلامية. إننا فخورون بترسانة المؤمنين لدينا التي تعيش وسط ترسانة الأسلحة النووية".

الشيء المؤكد أن شباباً وشابات آخرين سيفجّرون أنفسهم - وكثير آخرون - للوصول إلى الخلود. كان مائير داغان يعرف بأنه كلما كانت إسرائيل بعيدة عن آخر استشهادي، كلما كانت أقرب إلى الاستشهادي التالي. كانت تلك حقيقة الحياة المخيفة والموت في الأرض المقدّسة.

الفصل التاسع عشر

بعد صدّام

بحلول كانون الثاني سنة 2003، أي بعد خمسة شهور من دخوله إلى مطعم مقر قيادة الموساد لتقديم نفسه بشكل مدوٍ، أصبح مائير داغان بطلاً في نظر موظفيه، ورجلاً مخيفاً لأعداء إسرائيل. لقد كان أشد أعداء إسرائيل يعرف أن الموساد أصبح مرة أخرى أكثر أجهزة الاستخبارات في الشرق الأوسط، وما وراءه، فاعلية وقسوة. كان داغان يعرف عن أسرار أجهزة الاستخبارات العربية أكثر مما يعرفه الحكّام العرب، وقام بزرع عملاء جدد في المكاتب الخاصة للمسؤولين الحكوميين البارزين في العديد من الدول العربية، كما وصل عملاء الموساد بإشرافه إلى قطاعات حيوية جديدة من الحياة السياسية العربية، ومجتمعاتها التجارية ومناطق أخرى من المجتمعات الإسلامية.

خلال الشهور الأربعة الأولى لتوليه منصبه، درس الأخطاء التي قادت إلى انهيار معنويات الموساد، وعالج ذلك بإخراج المسؤولين عن ذلك من صفوف الموساد. وجاء بالبدلاء من الجيش، وجنّد البعض من الشين بيت وأجهزة الاستخبارات الإسرائيلية الأخرى. أخبر داغان المجندين الجدد أنه اختارهم لأنهم سيلتزمون بتعليماته؛ وليس بالقواعد المتّبعة. من ناحيتهم، شدّدوا على أنهم سيخدمونه بولاء انطلاقاً من اعتقادهم بأنه الرجل الذي يرغبون بالانصياع له.

عمل داغان ثماني عشرة ساعة في اليوم، وأحياناً أكثر، في مكتبه. وفي أحيان أخرى نام على الأريكة. كانت الحياة قاسية، وجاء وغادر مثل لص محترف في الليل. ذهب إلى مومباسا وأماكن غيرها لملاحقة آثار أسامة بن لادن والقاعدة. ولم يكن رؤساء أجهزة استخبارات آخرون سيغادرون مكاتبهم مثله، ولكن ذلك لم يكن أسلوبه. لقد كان يقود دائماً من الجبهة.

وضع داغان خطة شعر بأنها ستقلل من تهديد الانتحاريين (وفقاً للتعبير الإسرائيلي). وأشار إلى أن إسرائيل يجب أن تخفف من قبضتها على ياسر عرفات

ومن حصارها على الضفة الغربية وقطاع غزة؛ بعد الحصول على تأكيد قوي من السلطات الفلسطينية بأنها ستتعامل مع الانتحاريين (وفقاً للتعبير الإسرائيلي). رفع الخطة إلى مجلس الوزراء الذي يرأسه شارون الذي رفضها ما لم تتم تنحية عرفات.

تحيّن داغان الفرصة المناسبة. كان يفهم جيداً أن العلاقة بين أرييل شارون وعرفات تنطوي على كراهية شخصية: لن يكون هناك حل قبل تنحية عرفات. لاحظ داغان، بفطنته الاستخباراتية الشخصية، أن ذلك قد يحصل من داخل فلسطين. لقد كانت إحدى مهماته منذ توليه مهام منصبه إثارة عدم الرضا والحساسيات بين الجماعات الفلسطينية المختلفة، والترويج لفكرة أن عرفات يمثّل العقبة الأخيرة في الطريق نحو السلام. استخدم داغان كل أشكال الدعاية كسلاح في الأيام التي كان فيها قائداً عسكرياً.

لقد قام قسم الحرب النفسية في الموساد LAP بابتكار خرافة *أكاديمية الإرهاب* في مدينة غزة، حيث يتم تدريب الانتحاريين. حظيت القصة بتغطية واسعة، وتبعتها قصص أخرى كثيرة على هذا المنوال، وغالباً ما كانت نتيجتها تأتي في "خلاصة الاستخبارات اليومية" التي يتم تقديمها إلى أرييل شارون عندما يستيقظ. وكان التقرير الذي يُمليه داغان يناسب ما يفكر به شارون لليوم القادم.

كان كلا الرجلين صديقين قديمين، ويحملان نفس القيم لإسرائيل: وحسب تعبير شارون "ضمان أن هذه البقعة الصغيرة من الأرض، التي كانت قاحلة وقاسية حتى حوّلناها نحن اليهود إلى مركز القوة في المنطقة، لن تؤخذ منا أبداً".

على العشاء بعد فترة قصيرة من تعيين داغان، أراه رئيس الوزراءِ رأس سهم أسود في خزانة عرض، ويمثّل السهم الاسم المستعار هيتز شابور الذي اختاره شارون لهجومه ضد الجيش المصري في غزة في حرب الأيام الستة. كانت تلك بداية حياته المهنية كأقسى قائد عسكري منذ موشيه دايان. ثم جاءت المذبحة في مخيمي اللاجئين في لبنان حيث لقي حوالى الألف رجل، وامرأة وطفل حتفهم في 17 أيلول سنة 1982 فيما لم تتدخل قوات شارون. بدا أن حياته المهنية قد انتهت، ولكنه دخل المعترك السياسي وفاق بنيامين نتنياهو ذكاءً – بغض النظر عن السجل العسكري – ليتولى قيادة حزب الليكود. كانت تلك خطوة نحو رئاسة الوزراء التي وصل إليها بعد وقت قصير.

خلال ذلك العشاء، أخبر شارون داغان أنه اختاره لرئاسة الموساد لأنه لا يعرف الخوف، وقائد صعب المراس مثله. لكن كان هناك فرق واحد: كان شارون مغامراً،

ومســـتعداً للمجازفـــة، مـــثل زيارتـــه إلى المسجد الأقصى في القدس، والتي فجّرت الانتفاضة الثانية، ومهّدت الطريق أمام الانتحاريين (وفقاً للتعبير الإسرائيلي) ليزدادوا قوةً. بالمقابل لم يكن داغان مغامراً، وكان يحسب كل خطوة يقوم بها.

بعد أسابيع من تعيينه، استقل داغان طائرة العال إلى لندن ليلتقي رئيسي جهازي الاســـتخبارات البريطانيـــين، ريتشارد بيلنغ ديرلوف مدير M16 جهاز الأمن السري، وإليزا مانينغهام – بولر مديرة M15.

كـــان قـــد درس خلفيتهما كما لو أنه يتعامل مع عدو: ورغم أن مديري جهازي الاســـتخبارات لـــم يكونا كذلك بالتأكيد، إلا أنهما كانا مصدر قلق بالنسبة لـــه. كانت بريطانيا لسنوات طويلة مرتعاً للإرهاب..... تم تجنيد كل من ريتشارد ريد المعروف *بانـــتحاري الحذاء* والذي حاول تدمير طائرة أميركان إيرلاينـــز بمتفجرات أخفاها في حذائه، وزكريا موسوي الذي يعتبر الانتحاري رقم عشرين في هجمات 11 أيلول في مساجد لندن.

أصـــبحت العاصمة مقراً للدُعاة الإسلاميين المتطرفين والذين حاولوا عبر شبكة مـــن المنظمات نشر الكراهية المحضة: كراهية إسرائيل، وأميركا والغرب، وكراهية كـــل الديموقراطيات التي تمجّد التسامح والحرية والتي تمنح الحرية للمتطرفين بالعمل في بريطانيا.

رغم الاحتجاجات، استمرت بريطانيا بمنح ملجأ للأصوليين... المطلوبين لقيامهم بأعمـــال إرهابـــية فـــي بلاد أخرى. اعترضت حكومات فرنسا، والجزائر، ومصر، والأردن... إضـــافة إلـــى الولايات المتحدة على رفض بريطانيا تسليم هؤلاء... لكنّ البريطانيـــين نجحـــوا فـــي الـــترويج لفكرتهم بأن ترحيلهم من بريطانيا سيؤدي إلى "اضطهادهم سياسياً".

اســـتخدم الدّعاة الإسلاميون الذين جنّدوا هؤلاء الأشخاص في الإرهاب محامين بارزيـــن لمقاومـــة تســـليمهم إلى بلاد أخرى. لقد تسببت المناورات القانونية بتأجيل القضايا لسنوات طويلة. لقد استخدم خليل الفواز، المطلوب في الولايات المتحدة لدوره فـــي تفجير السفارة الأميركية في نيروبي، المحاكم البريطانية بنجاح لضمان بقائه في الـــبلاد. لقد تمّت تغطية تكاليف محاكمته القانونية التي بلغت ستين ألف دولار أميركي من الأموال العامة.

كان ديرلوف يرتدي واحدةً من بذلاته السوداء المخططة، وقميصاً أبيض وربطة عـــنق مقلّمة، ويجلس في مكتبه المطل على نهر التايمز فيما كان مائير داغان يشرح

قضيته حول ضرورة إنهاء وجود الإرهابيين في بريطانيا.

كـان رئيس الموساد يعرف تماماً استخدام النبرة المناسبة التي تضرب على وتر أحد أقوى أجهزة الاستخبارات في العالم والذي يضم في صفوفه 2000 شخص؛ منهم 175 جاسوساً وضابطاً ميدانياً. كان ديرلوف يتقاضى راتباً سنوياً قدره 150.000 جنيه إسترليني، وهو ما يفوق بعدّة أضعاف ما يتقاضاه داغان. كما كان مدير M16 يتمتع أيضاً بمخصصات إضافية: سيارة مع حارس مسلّح، وعضوية في عدّة نوادٍ لندنية فخمة. لم يحسده داغان على أي من ذلك، وكان يعرف أن ديرلوف يستحق تلك المخصصات الإضافية.

انضم ديرلوف، بعد تخرّجه من كامبردج، إلى M16 في سنة 1964، وعمل بعد أربع سنوات متخفياً في نيروبي. غالباً ما كان يسافر من العاصمة الكينية إلى جنوب أفريقيا ويبني علاقات مع BOSS، الذي كان عندها جهاز الأمن الأقوى في البلاد. في سنة 1973، تم تعيينه في براغ كنائب لمدير محطة M16. في ذلك المنصب، أشرف على إدارة عملية لاختراق حلف وارسو، وعمل تحت إشرافه العديد من الجواسيس في تلك المنظمة الذين قدّموا تقاريرهم إلى الغرب.

بعد أن عمل لفترة محدودة في باريس، عُين في جنيف، وكانت مهمته المعلنة دبلوماسياً ملحقاً بالأمم المتحدة. وهناك قام بأول اتصالاته الجدّية مع ضباط الاستخبارات العرب من العراق، وسورية ومع ضباط إيرانيين.

بعد سنة من ذلك، انتقل إلى واشنطن كضابط ارتباط M16 مع مجتمع الاستخبارات الأميركي. في ربيع سنة 1992، عاد إلى لندن، حيث تولّى مهام الإشراف على انتقال M16 من مقر قيادته القديم في سينشري هاوس في ضاحية لامبيث إلى مبناها الجديد الرائع في فوكسهول كروس والذي بلغت تكاليفه 236 مليون جنيه إسترليني، ويقال إنه في الوقت الذي تم فيه افتتاح المبنى، كان ديرلوف قد تفقّد شخصياً كل غرفة فيه، واختبر قوائم الأكل في المطعم، ونام في أسرّة المهجع الموجود في القبو الذي يستخدمه الموظفون خلال الأزمات.

كانت زيارات ديرلوف إلى واشنطن قليلة، وأذهل نظيره في CIA جورج تينت حين أوضح أنه لم يعد يعتبر القبض على أسامة بن لادن أولوية قصوى لـ M16، ونُقل عن ديرلوف قوله في جلسة خاصة إن "القبض على أسامة بن لادن، حياً أو ميتاً، يمثّل دعاية إعلامية لبوش".

أثنى داغان على ديرلوف عندما قال الأخير إنه ليس ملتزماً بالنظام الأميركي

سيجنت - *استخبارات الأقمار الصنعية*. كان يعتقد بشدة أن الجواسيس على الأرض أكثر فائدة وثقةً، وأنه مع الاستخبارات البشرية "تحصل على ما يرونه من مسافة قريبة، وليس من الفضاء الخارجي". في عالم الرسائل الإلكترونية المشفّرة وصور الأقمار الصنعية المتطورة، وجد داغان شيئاً يتماشى مع ما يؤمن به في هذا المجال، لقد كان ذلك يعكس وجهة نظره الشخصية.

تطلّع داغان قُدماً إلى لقائه مع إليزا مانينغهام - بولر أكثر من أي رئيس جهاز استخبارات آخر. كانت مديرة M15 المرأة الثانية التي تتولى ذلك المنصب في التاريخ. لقد كانت شخصية مميزة مع الجلد المتدلّي تحت الذقن والضحكة المدوّية والتي تبدو أنها جاءت من مكان ما في صدرها الواسع.

كانت مانينغهام - بولر تبلغ من العمر ثلاثاً وخمسين سنة، وهي بذلك أصغر بأربع سنوات من داغان، وتتقاضى راتباً أكبر مما يحلم بالحصول عليه يوماً ما، وكانت تحصل على أموال أكثر من أرفع مسؤول سياسي في البلاد؛ أي رئيس الوزراء طوني بلير.

كان صوتها الناعم بحدة يتماشى مع نسبها الرفيع. لقد كانت ابنة وزير عدل بريطاني سابق؛ وإحدى شقيقتيها متزوجة من نائب سابق للمسؤول عن النفقات الخاصة للملكة. درست في أوكسفورد حيث كانت معروفة باسم "الأسلوب المستبد" لطريقتها المخيفة في التعامل. في سنة 1968، وضع برنامج العروض الإيمائية "للجمعية المسرحية" في الجامعة اسم المبجّلة إليزا مانينغهام - بولر لتأدية دور *الجنية العرّابة* في *سندريلا*.. ووضعت تاجاً من الزهور على رأسها وزيّنت حواجبها الكثيفة وصعدت على خشبة المسرح في نفحة من الدخان. ودارت حول نفسها، وقالت *لساندريلا* الفزعة، والجمهور: "اعتقدنا أنكِ ستتفاجئين، ولكن لا تخافي. أنا *الجنية العرّابة* يا عزيزتي".

في تلك الليلة، اقترح أحد مطوّعي M15 - مدرس في أوكسفورد - بأنه يجب على إليزا التخلي عن أي خطط لاحتراف التمثيل والانضمام إلى الجهاز. أصغت إليزا بحذر، ثم استشارت والدها الذي قال إن التجسس ليس مهنة السيدات.

انضمت إليزا إلى M15 مباشرة، وعملت أولاً في مراقبة المحادثات الهاتفية المسجلة، والتي كان معظمها يعود لدبلوماسيي الكتلة الشيوعية في لندن. لكن سرعان ما أظهرت ذكاءً في استنتاج ما يدور في مكالماتهم الآمنة. وما لبثت أن أصبحت ضابطاً في مكافحة التجسس؛ أي صيادة جواسيس. وتحولت من "الأسلوب المستبد" إلى

"الأسلوب المرعب"، وارتقت بسرعة في سلم تراتبية M15.

تمـــتلك تلـــك الســـيدة - الأطول من معظم زملائها - طريقة مؤثرة في النظر للأســـفل تحت أنفها الروماني الإمبراطوري إلى من يزعجها. يقول أحد الزملاء إنها توبـــخ موظفـــيها فيما تخطو عبر إحدى أروقة M15 الكئيبة "مثل رجل محارب بكامل قوتـــه". عملـــت في واشنطن، وفي مواقع أخرى لا تحمل شوارعها أسماءً. كما أنها ترأست فريق M15 الذي حقق في كارثة لوكربي، قادت حرب M15 السرية ضد IRA. وفـــي سنة 1997، أصبحت نائب المدير العام للجهاز، وتولّت بعد ذلك بثلاث سنوات إدارة M15.

كان داغان يحمل نفس الرسالة العنيدة إلى كلٍ من مضيفيه: أصبحت لندن مرتعاً للإرهابيين، ومدينة تسمح للمتطرف بأن يعيش فيها بديموقراطية وأن يكون قادراً على تدمير ما تعنيه تلك الكلمة. يجب أن يتوقف ذلك لأن هدفهم الرئيسي ما يزال إسرائيل. قال داغان ذلك بأدب، ولكن بحزم.

أضـــاف أنه يتفهم الصعوبات التي تواجه بريطانيا، فقد كانت موطناً لحوالى 1.8 ملـــيون مسلم، الغالبية العظمى منهم مواطنون مسالمون يتقيدون بالقانون. كان يعرف أن لبريطانيا صلات تجارية قوية مع الدول العربية، ولكنه يعرف أيضاً أن الجماعات الإســـلامية المتشددة كانت قادرة على العمل ضمن المجتمع الإسلامي المغلق تماماً في بريطانيا. كان مستعداً لوضع الموساد في خدمة M15 وM16. وحتى يكون ذلك ناجحاً، يجـــب أن يحصل على إذن لزيادة عدد عملائه العاملين في بريطانيا. منذ سنة 1987، كانت أعداد هؤلاء تتناقص بعد احتجاج حكومة تاتشر على أساليب الموساد.

وافـــق كل من ديرلوف ومانينغهام - بولر على العرض بسرعة، ووصل عملاء الموساد إلى لندن في غضون أيام، وأحضروا معهم قائمة بالمتشددين الإسلاميين الذي يحضّـــرون لشن هجمات ضد الأهداف الإسرائيلية. أوضح فريق الموساد أنه سيعمل وحـــيداً، وأنـــه سيتعامل مع أي تهديد لإسرائيل بقوة كما فعل دائماً. كان الفريق قادراً على إظهار أي عملية اغتيال على أنها حادثة طبيعية، أو يدعها كما هي لتكون تحذيراً للآخرين بأن لا يفكّروا في إخفاء ما فعلوه.

فـــي كـــانون الثاني سنة 2003، كان هناك عملية اغتيال تشغل بال مائير داغان إضـــافة إلـــى جـــورج دبليو بوش ومساعديه. وكانت حول أفضل طريقة لقتل صدام حسين.

فيما كانت طبول الحرب الوشيكة على العراق تُقرع في واشنطن، أطلع الرئيس

جـــورج دبليو بوش أقرب مستشاريه على نيته إنهاء الحظر الذي يقيد CIA في اغتيال صــــدام حسين. كانت القيود على قيام الوكالة باغتيال أي قائد سارية المفعول منذ فشل CIA المخــزي فـــي محاولـــتها لقتل الزعيم الكوبي فيدل كاسترو في سبعينيات القرن العشـــرين. لـــم يتغـــير هذا "الأمر التنفيذي" رسمياً، ولكن في الأيام الأولى من السنة الجديـــدة، وفي طقس العاصمة الأميركية البارد، تبادل المحافظون الجدد الذين أحاطوا بالرئـــيس – رجـــال ونساء عملوا مع بوش الأب عندما كان رئيساً – الأنخاب بقرب نهاية صدام.

جـــادل وزيـــر الدفاع دونالد رامسفيلد بأن الولايات المتحدة تمتلك الحق القانوني باغتـــيال أي شـــخص مـــتورط سواءً مباشرة أو بالتخطيط لهجمات 11 أيلول. ادّعى رامســـفيلد أن هناك سبباً آخر لاغتيال صدام يتمثّل في تخزينه لأسلحة الدمار الشامل. رغم إصرار وزير الخارجية كولن باول ومدير CIA جورج تينت ومحلليها على عدم وجود دليل حاسم على تورط صدام بهجمات أيلول أو امتلاكه لأسلحة الدمار الشامل، إلا أن رامسفيلد أصرّ على أنه لدى مصادره قصة مختلفة.

اكتشـــف كاســـتا الموساد المقيم في السفارة الإسرائيلية في واشنطن أن المصدر الرئيســـي الـــذي يعتمد عليه رامسفيلد كان أحمد الشلبي الذي ساعد في إنشاء *المؤتمر الوطني العراقي* والذي يمثّل "حكومة عراقية في الظل" لاستبدال صدام المخلوع.

كـــان الشلبي الوسيم المتورد الوجه مخبراً للموساد في العراق بعد استيلاء صدام على السلطة سنة 1979. انتقل الشلبي إلى المملكة الأردنية المجاورة حيث تولّى إدارة مصرف بترا، الذي كان لفترة من الوقت قناة الموساد في تمويل العمليات السوداء في الشـــرق الأوســـط. لكـــن المصـــرف انهـــار سنة 1979، وكان مديناً بمئات ملايين الدولارات للمودعين.

اســـتطاع الموساد سحب ودائعه المتواضعة قبل الانهيار. بعد ذلك بوقت قصير، اتهم محمد سعيد نابلسي رئيس المصرف المركزي الأردني الشلبي بتحويل 70 مليون دولار أميركي من أموال المصرف إلى حساباته الخاصة في المصارف السويسرية.

وصـــل الشـــلبي إلى واشنطن في الوقت الذي تم فيه انتخاب جورج دبليو بوش رئيســـاً للولايات المتحدة. لم يكن الشلبي، لغاية حرب الخليج الأولى التي وقعت نتيجة غـــزو صـــدام للكويت، أكثر من مجرد شخص آخر يعمل في جماعات ضغط الشرق الأوسط في مدينة مليئة بهم، والذين يحاولون الترويج لمصالحهم الخاصة. لكن الحرب غـــيّرت كل ذلك. ووجد الشلبي نفسه، عبر *المؤتمر الوطني العراقي*، موضع ترحيب

من المحافظين الجدد حول بوش. كان ضمن هؤلاء نائب الرئيس المستقبلي ديك تشيني ونائب وزير الدفاع المستقبلي بول ولفويتز. استطاع الشلبي من خلالهما التعرف على دونالد رامسفيلد، وسرعان ما نشأت أرضية مشتركة بين الرجلين لاعتقادهما بأن صدام يشكل تهديداً للسلام ليس في الشرق الأوسط وحسب، ولكن ربما للعالم بأكمله.

بدأ الشلبي، بشكل لا يُصدّق، برؤية تقارير البنتاغون حول صدام والتي كانت تقدّمها CIA ووكالة الأمن القومي. حصر نفسه في البداية بالقول إن بعض تلك التقارير لا تتوافق مع ما تعرفه منظمته الصغيرة من داخل العراق. تدريجياً، أصبحت تلك الادّعاءات التي يقدمها إلى رامسفيلد مباشرة أكثر خطورة. كان الشلبي يشعر أن CIA، على وجه الخصوص، لا تعلم بما يحدث لأنه ليس لديها عملاء على الأرض في العراق.

في أواخر صيف سنة 2002، ومع اقتراب الذكرى السنوية الأولى للهجمات على البرجين التوأمين والبنتاغون، أصدر رمسفيلد أمراً بتشكيل وحدة خاصة سرية في البنتاغون *لإعادة تقييم* العلاقات بين صدام والقاعدة وبرنامج العراق لأسلحة الدمار الشامل.

أصبح أحمد الشلبي، المصرفي السيئ السمعة والمتهم باختلاس الأموال المؤتمن عليها، مصدراً رئيسياً لتزويد رمسفيلد بالمعلومات. ثار تينت مدير CIA غضباً؛ لدرجة أنه هدّد في آب سنة 2002 بالاستقالة. قام تشيني بمعالجة الوضع، وبقي تينت في منصبه. نقل تينت إلى ريتشارد ديرلوف مدير M16، عبر اتصالاته الخلفية مع الجهاز البريطاني، تدخّل الشلبي المستمر في الدوائر العليا في إدارة بوش.

عندما تولّى داغان إدارة الموساد، اطّلع على دور الشلبي الغريب كمصدر لرمسفيلد. كان واضحاً من ملف الموساد عن المصرفي أن الشلبي لم يقدّم سوى معلومات ضحلة عندما كان يتجسس لصالحهم في العراق. بعد عقد من مغادرته بغداد، لم يكن هناك ما يدل على وجود اتصالات حقيقية للمصرفي مع نظام صدام.

لم تكن تلك المرة الأولى التي يتساءل فيها محللو الموساد حول كيفية معالجة أمور بتلك الأهمية في إدارة بوش.

استطاعت رحلات داغان إلى واشنطن – الإلزامية لأي مدير جديد – جسر الفجوات في التقارير الواردة من الكاستا في السفارة الإسرائيلية في العاصمة الأميركية. في اجتماعات مع أعضاء من الإدارة الأميركية – رجال مثل لويس ليبي مدير مكتب تشيني، وإيليوت أبرامز المسؤول عن سياسة الشرق الأوسط في مجلس

الأمن القومي - واجه داغان ادّعاءات ما كانوا يطلقون عليه "ديموقراطية العضلات". وتبلوا محادثاتهم بكلمات عربية مثل "الجهاد" وتعابير مثل "الله أكبر ولله الحمد"، وكانوا يعـــرفون مـــا تعنـــيه تماماً. أخبروا داغان أن ما يحيرهم هو كيف أجاز الله مثل تلك المذبحة التي وقعت في 11 أيلول؟

لـــم يكن داغان مرتاحاً للدخول في مناقشات دينية، وكان إيمانه أمراً خاصاً مثل أي شـــيء آخر في حياته. تجنب بلباقة الإجابة عن السؤال. ورغم ذلك، أخبر زملاءه في تل أبيب لاحقاً بأنه كان مذهولاً من الأهمية التي يحتلها الدين في إدارة بوش.

اســـتقبل الرئيس بوش بعد عودته إلى البيت الأبيض بأربعة أيام من هجمات 11 أيلـــول زائـــراً عزيـــزاً. فقد جلس المبشّر بيلي غراهام، صديق عائلة بوش منذ وقت طويـــل، مع الرئيس المهزوز لسبب مفهوم، وتحدّثا لوقت طويل حول شرور الإرهاب و"الغضب المقدّس" المذكور في الإنجيل لتدميره.

أصبحت كلمات النبي حزقيال الموجّه لجورج دبيليو بوش، ونبراس عمل لكل ما ســـيقوله ويفعلـــه فـــي الشهور التالية من "حربه على الإرهاب": مبرر هجومه على أفغانســـتان، وحـــربه القادمـــة على العراق. كان الديكتاتور العراقي يمثّل "الفلسطيني" بالنسبة له. وسكب "حزقيال"، رجل الحديد في الإنجيل، قوة مماثلة في بوش.

فـــي نهايـــة الاجـــتماع، منح غراهام بوش إنجيلاً بحجم اليد. وكان لدى المبشّر الوقـــت الكافـــي ليضـــع ملاحظاته على الهامش، واستخدم قلماً فوسفورياً لتحديد كل المقاطع المقدّسة التي تؤكد على حق استخدام "الغضب المقدّس".

لـــم يكـــن بوش، مثل كلينتون ورؤساء أميركيين السابقين، جاهلاً بالإنجيل. فلقد ترعـــرع فـــيما يحـــب أن يدعـــوه "بلد يخاف الله"؛ فجزء كبير من الولايات الجنوبية معـــروف باســـم "حزام الإنجيل". ولا يوجد كوخ، أو منـــزل أو شقة تخلو منه. يوجد الإنجـــيل علـــى طاولة قريبة من علم الولايات المتحدة في مزرعة بوش في تكساس، وفـــي مكتـــبه عندما كان حاكماً للولاية. ولم يكن لدى الرئيس شك بأن الله إلى جانبه عندما أعطاه بيلي غراهام الإنجيل وعندما شن حربه العالمية على الإرهاب.

كـــان الإيمـــان يشكّل فهماً عميقاً في طريقة تفكيره. ظهر عامل آخر يتمثّل في اعـــترافه بأنه يريد "بن لادن حياً أو ميتاً". ظهر دليل آخر على تفكيره عندما تكلم عن "محـــور الشـــر"؛ إيـــران، والعـــراق وكوريا الشمالية. كان لتلك العبارة ارتباط قوي بالإنجيل.

خـــلال ســـنة 2002، وضـــمن خطاباته إلى الكونغرس وقادته العسكريين، وفي

خطابه الأسبوعي الإذاعي إلى الأمة، وفي اجتماعات مع قادة العالم، كان بوش يشير إلى مقاطع من هدية غراهام ذات الغلاف الجلدي ليعزّز من فكرة أن الحرب على الإرهاب تأتي بتأييد كامل من الله. اكتسبت الحرب المقدّسة - الجهاد وفقاً للتعابير الإسلامية - معنى جديد بالكامل.

يعود إصرار الرئيس بوش على القيام بضربة استباقية ضد العراق في جذوره إلى الإيمان الديني للمحافظين الجدد حوله. راقب الموساد، على خلفية حمّى الحرب الدينية المتصاعدة تلك، محاولة واشنطن لاغتيال صدام حسين؛ حركة قد تلغي الحرب الوشيكة ضد العراق.

في بداية شباط سنة 2003، وبعد محادثة هاتفية بين أرييل شارون والرئيس بوش، أخبر رئيس وزراء إسرائيل داغان بأنه عرض مساهمة الموساد المباشرة في اغتيال صدام، وأن بوش وافق على ذلك.

في تل أبيب، سار التخطيط للعملية وفق منهج موضوع بعناية. وتم أولاً فحص المحاولات السابقة لاغتيال صدام لفهم سبب فشلها. وكان هناك خمسة عشر هجوماً منفصلاً ضد الزعيم العراقي خلال السنوات العشر الأخيرة، والتي خطط لها جميعها إما الموساد أو M16. يعزى سبب الفشل إلى التخطيط غير الدقيق، أو الفشل في تطويع القتلة الذين إما كشفتهم أجهزة أمن صدام المرعبة، أو لم يكونوا ببساطة قادرين على الاقتراب من هدفهم.

حاول الموساد بنفسه مرة واحدة من قبل في تشرين الثاني سنة 1992، واكتشف عملاؤه في العراق أن صدام يخطط لزيارة إحدى عشيقاته الكثيرات التي تعيش قرب تكريت. علم العملاء أن صدام ينوي الوصول عند الغسق إلى منزل المرأة. وسيزور في اليوم التالي قاعدة عسكرية قريبة قبل أن يطير عائداً إلى بغداد. وفي الوقت المقدّر بخمس عشرة دقيقة بين مغادرة فيلا المرأة والوصول إلى القاعدة الجوية، قد يكون صدام غير حصين عن الهجوم.

بإشراف مباشر من الجنرال عميرام ليفني نائب مدير الموساد في ذلك الوقت، أقرّ بنيامين نتنياهو رئيس وزراء إسرائيل الخطة لاغتيال صدام. كان اسم العملية الرمزي *سكاه أتاد*، وتم تدريب فريق الاغتيال في صحراء النقب.

توفّر تفاصيل العملية فكرة عن التخطيط المتقن الذي سبقها. وسيدعم فريق كيدون الموساد أربعون عضواً من وحدة القوات الخاصة الإسرائيلية 262 العالية التدريب؛ محفورة في أذهان الإسرائيليين كونها الوحدة التي قامت سنة 1976 بإنقاذ

الرهائــن مــن مطــار عينتــب في أوغندا، والذين كان يحتجزهم الإرهابيون بعد أن اختطفوا طائرتهم المدنية.

ســيطير فريق الاغتيال كله إلى العراق على متن طائرتي هيركوليس سي 130 تحت مستوى الرادار، وسينقسمون إلى فرق أصغر عندما يصلون إلى هناك. سيتحرك فــريق كيدون إلى منطقة لا تبعد سوى مئتي متر عن المسار الذي سيسلكه صدام من فيلا عشيقته إلى القاعدة الجوية. بينما ستنتظر المجموعة الرئيسية على بعد حوالى ستة أمــيال، وستكون مزوّدة بصاروخ خاص طوّره الموساد ويعمل بالرادار ويحمل الاسم الرمزي *مدراس*، وهي كلمة عبرية تعني *الخطوة*.

كــان فــريق كيدون سيستهدف صدام ويفتح النار على سيارته. في نفس الوقت، كــان أحد أعضاء الفريق سيرسل إشارة إلى فريق الصاروخ لإطلاقه نحو الإحداثيات الدقيقة التي سيوفّرها لهم وتدمير المركبة.

لكنّ أرييل شارون وزير الخارجية، وإسحاق مردخاي وزير الدفاع، أمرا بإلغاء العملــية لأن مخاطــر الفشل كانت عالية جداً. بعد عقد من الزمن، لم يكن هناك تردد مماثل في محاولة اغتيال صدام حسين التي تدعمها واشنطن.

فــي صبيحة كل يوم وفيما يتسلل الليل مغادراً وينهض الصباح معلناً ولادة يوم جديد – اللحظة التي تعلّم صدام حسين من أمه بأنها أولى تباشير الفجر – كانت شاحنة تدخل أحد القصور التي سيقضي فيها رئيس البلاد مدى الحياة – كما عيّن صدام نفسه – ليلة آمنة أخرى.

كانت الشاحنة تحتوي على سرطانات بحرية حيّة، وقريدس طازج وأضلاع لحم الغــنم والبقر الطازج والتي تمّت إزالة كل الشحوم منها. كان هناك تشكيلة من الألبان والأجــبان، والمــادة المفضلة لدى صدام حسين وهي الزيتون المقطوف من مرتفعات الجــولان السورية. كان يحب قذف النوى خارج فمه بنفس "الطريقة التي سأقذف فيها إسرائيل من أرضها" كما قال لرئيس استخباراته السابق الجنرال وفيق السامرائي.

فــرّ رئيس الاستخبارات لاحقاً حفاظاً على حياته عندما أحس بأنه لم يعد موضع ثقــة، وســار أربعيــن ساعة للهروب عبر شمال العراق إلى تركيا. كان السامرائي محظوظــاً لأن معظم من تحدّى صدام حسين لقي حتفه بطرق تفوق ما ابتكرته غرف التعذيب في العصور الغابرة. تم إدخال ملاحظات السامرائي على خطة اغتيال صدام إلى حواسب الموساد.

كان يتم تفريغ محتويات الشاحنة فيما لا يزال صدام نائماً، ربما بين ذراعيّ شابة

أخرى اختارها الحرس الجمهوري لإرضاء حاجاته الجنسية الشرهة.

كان علماء من برنامج البلاد النووي يتخذون من كل قصر مقراً لهم. كانوا يعملون في منطقة مقيّدة في القبو، ولم يكن الوصول إليها ممكناً سوى باستخدام بطاقات تعريف تتغير شفراتها كل يوم. كان يوجد في القبو جناح يحتوي على آلة أشعة إكس قوية شبيهة بتلك الموجودة في المستشفيات، وكان العلماء يفحصون بالأشعة كل جزء من الطعام، ويبحثون عن أي علامة على وجود تسمم أو تعرّض للإشعاع.

كان الطعام ينتقل إلى مرحلة تدقيق أخرى عند عدم وجود ما يدعو للشبهة، وكان الطاهي يأخذ أجزاء صغيرة: قطعة من سرطان بحري أو سمكة، شريحة من اللحم، وقضمة من الجبن وملعقة صغيرة من اللبن، ثم يقوم بتحضير الطعام الذي سيتم طهيه. وبعد ذلك، يقوم الذوّاقة المنتظرون باختبار كل المواد، والذين يتم اختيارهم من بعض نزلاء السجون السرية المنتشرة في العراق.

كان كل سجين – تحت رقابة أعضاء من الحماية وهم حرس صدام الشخصي – يبتلع الطعام ويعرض فمه المفتوح أمام الحرّاس، والذين يستمرون بمراقبة السجناء لساعة بعد ذلك للتأكد من خلو الطعام من السموم. في اليوم التالي، يتم أخذهم إلى مختبر لسحب عينات دم منهم، والتي يتم اختبارها لضمان عدم وجود أثر للإشعاعات في الطعام الذي هضموه. كان يتم اقتياد السجناء بعد ذلك إلى إحدى ساحات القصر وإطلاق النار عليهم؛ عادةً برصاصة واحدة في مؤخرة الرأس.

كانت الرصاصات إشارة إلى صدام حسين بأن إفطاره والوجبات الأخرى التي سيأكلها خلال اليوم آمنة للاستهلاك. كان هذا التقليد المرعب واحداً من أعمال كثيرة طبعت حياته.

كان يتم صرف المرأة التي تشاركه الفراش خلال الليل أياً كانت. وكان قدرها، مثل كل أولئك اللواتي تم إجبارهن على النوم معه، مسألة تخمين. كان صدام يشق طريقه وحيداً إلى بركة السباحة الخاصة به، وكانت عدّة أشواط سباحة بالنسبة له تدريباً مهماً لتقوية نخاعه الشوكي. خضع قبل عدّة سنوات لجراحة انزلاق الغضروف في العمود الفقري، وكان يسبح عارياً لا يشاهده سوى حرّاسه الشخصيون فقط. ولم يكن هناك أسرار تخفى عليهم حول أمراضه الجسدية. كان يعرج، ولا يستطيع المشي علانية سوى بضع خطوات قبل أن يضطر للتوقف، وكان لديه حزام من الدهون حول المنطقة السفلى من بطنه، وهو ما كان مستغرباً بالنسبة لرجل يبدو بارز العضلات في اللباس الرسمي.

بعد انتهاء وقت السباحة، كان هناك تقليد أساسي آخر لبداية النهار، وهو الحلاقة. وكان حلاقه الخاص يسافر إلى كل مكان معه، ويكون جاهزاً في الصباح لتزيين شارب صدام، وصبغ شعره باللون الأسود. وكانت المواد المستخدمة في عملية الصباغ تأتي من باريس، ويتم اختبار كل قارورة للتأكد من أنها لا تحتوي على مواد قاتلة. كان الحلاق يعالج شعره كيلا يظهر عليه أيّ من علامات الشيب، وبعدها يتم تقليم أظافره وطلاؤها بملمّع لا لون له.

ثم يتولى أحد مرافقيه مساعدته في ارتداء ثيابه. وكانت ملابس صدام تخاط خصيصاً له، ويتم تفصيلها لإبراز عضلات جسمه. كانت عضلات ذراعيه وفخذيه القوية نتيجة سنوات المراهقة المبكرة عندما كان يشارك في سباق الجمال. كان يتم تفصيل سترته لإخفاء خصره الكبير الذي فشل في تغيير شكله رغم فترات الحمية القاسية التي أخضع نفسه لها.

كان صدام رجلاً مغروراً ومزهواً بنفسه، ويغضب من الطريقة التي يظهر بها شعر زوجته ساجدة البالغة من العمر أربعين سنة المخضّب بالحناء، ومن جسدها الممتلئ والمترهل.

بعد إرضاء حاجاته الجسدية، يكون صدام حسين مستعداً ليوم آخر. ولا يستطيع أحد إنكار قدرته على العمل، ولم تكن اثنتي إلى أربع عشرة ساعة من الاجتماعات يومياً شيئاً غير عادي بالنسبة له. في نهاية كل جلسة، كان يأخذ غفوة قصيرة في غرفة ملحقة بمكتبه. وبعد ثلاثين دقيقة، كان يستطيع العودة إلى رأس طاولة الاجتماعات مستعداً لخوض جولة جديدة من المناقشات.

كان كل اجتماع يبدأ بنفس الطريقة، ويقوم صدام بدراسة خلاصة التقارير التي يتم تحضيرها له. وكان يطلب أحياناً رؤية التقرير كاملاً لتمحيصه أكثر. لم يكن أحد حول الطاولة يعرف التقرير الذي سيختاره للتدقيق. وإذا لم تكن الخلاصة مطابقة للتقرير الكامل، كان يعاقب معدّي الاثنين بأسلوب المحقق القاسي. لقد كان طاغية بطبعه.

كان أقرب مساعدي صدام يعرفون أنه كل بضع ساعات - بغض النظر عن المكان الذي يوجد فيه - يجب أن يكون بالقرب من الماء: نافورة، شلال داخلي أو جدول متدفق، والماء رمز الصحة والقوة في أرض العراق الصحراوية. كان الماء في البيئة التي ترعرع فيها صدام - علاقاته الاجتماعية، والعادات والتقاليد التي نشأ عليها - ضرورة حياتية. في كل مكاتبه الخاصة - لم يكن أحد يعرف أعدادها المبعثرة في

بغداد وخارجها - كان هناك دائماً صوت شلالات الماء المتساقط.

كان هوس صدام بالعنف الشخصي يمثّل الجانب المرعب في شخصيته المتعددة المعـــالم. استحوذت عليه آليات التسبب بالألم، كان يقضي ساعات طويلة في مراجعة أشرطة الفيديو لأولئك الذين يتم تعذيبهم وإعدامهم، كانت أساليب القتل تتراوح من دفن الضحية حياً إلى الاختصاص الذي تعلّمه صدام من طالبان: غرس مسمار طويل عبر أذن الضـــحية وصـــولاً إلى دماغه. كانت غرف التعذيب لديه تحتوي على تماثيل من الخشب والحديد يتم تقييد الضحية إليها. وتحتوي التماثيل الفارغة على قضبان معدنية مدببة مصممة خصيصاً لاختراق جسد الضحية. كان الخنق والدفن على قيد الحياة في الصحراء مصيراً محتوماً لأولئك الذين يقرر أن الشنق طريقة سريعة جداً بالنسبة لهم.

انـــتقل تعلّق صدام بالتعذيب إلى ولديه عندما لم يكونا قد بلغا الثالثة عشرة بعد. كـــان عـــدي وقصي يؤخذان في زيارات أسبوعية لرؤية التعذيب ومشاهد الإعدام في سجون بغداد.

رغم الغلاف الخارجي الشرير الذي أحاط به، كان من المعروف عن صدام أنه بكـــى علانية بعد إدانة أي صديق أو قريب، أو حتى بعد الحكم على صهريه بالموت، وخـــلال عملـــية تطهـــير حـــزب البعث التي قام بها سنة 1979، والتي أوصلته إلى الســـلطة، وقف صدام على المنصة وبكى علانية فيما كان يدين أعضاء الحزب. وفيما كـــان كـــل رجل يُساق إلى حتفه، ردت قاعة الاجتماعات صدى نشيجه عبر مكبرات الصوت. وكان ذلك جزءاً مرعباً من المسرحية.

درس الموســـاد كـــل تلك السمات الشخصية، والكثير غيرها، قبل أن يقرّ خطة اغتـــيال صدام حسين. تمحورت العملية مرة أخرى حول شهوة صدام الجنسية التي لا تهـــدأ. علم كاستا للموساد في بغداد أن عشيقته الجديدة - زوجة جنرال أعدمه صدام مؤخراً لعصيانه أوامره - موجودة في فيلا على ضفة نهر الفرات. كان صدام معتاداً على السباحة في النهر مع حرّاسه الشخصيين قبل أن يزورها.

اعـــتمدت الخطة على ما أقرّته CIA من قبل في محاولتها لاغتيال فيدل كاسترو. فـــي تلك المناسبة، تم حشو أصداف بحرية بالمتفجرات وإلقاؤها قبالة سواحل كوبا في الموقـــع الذي كان كاسترو مارس فيه رياضة الغوص مرة من قبل. فشلت تلك العملية لأن CIA لم تأخذ بالحسبان أن التيارات البحرية القوية ستعمل على نقل الأصداف من تلك المنطقة.

لـــم يكـــن النهر يشكل مثل هذه المشكلة. وتم تصميم القنابل لتنفجر عندما يسبح

صدام وحرسه الخاص في الماء. قبل أيام من تطبيق الخطة، أرسل كاستا بغداد رسالة مشفّرة إلى تل أبيب بأن العشيقة انتحرت.

بـــدأت حرب الخليج الثانية بعد يومين، وقدّم عملاء الموساد في صحراء العراق الغربـــية، وبغـــداد والبصـــرة معلومات استخباراتية هامة مكّنت الطائرات الأميركية والبريطانية من شن هجمات جوية مدمّرة. في تلك الغارات لقي آلاف العراقيين حتفهم أو تعرضوا للإصابة.

فـــي التحضير للأعمال الحربية، اختبر داغان ضغطاً مألوفاً بالنسبة له. بدأ تينت يتصـــل عدّة مرات يومياً ليعرف فيما إذا كان الموساد قادراً على تأكيد امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل.

أجاب داغان بالطريقة التي استخدمها دائماً: "ليس بعد، لكننا ما زلنا نبحث". في الواقع، أصبح البحث أولوية للكاستا في العراق. كان الكاستا يعملون بشكل مستقل عن مفتشي الأمم المتحدة عن الأسلحة، الذين لم يحالفهم النجاح أيضاً، وأثار ذلك خيبة أمل أخفاها بالكاد كل من الرئيس بوش ورئيس الوزراء طوني بلير.

لكـــنّ محللي الموساد في تل أبيب أخبروا داغان أنه لا يمكن للجنة الاستخبارات المشـــتركة الأميركية – البريطانية (JIC) تقديم الدليل لأنه لا يوجد "إثبات مادي" على أن صدام يمتلك أسلحة دمار شامل. ورغم ذلك، حشد أرييل شارون، التزاماً بادعاءات واشـــنطن، ســـكان إسرائيل المدنيين: تم توزيع أقنعة الغاز على نطاق واسع، وتكرّر الـــتحذير من التعرض لهجمات كيميائية أو بيولوجية عبر الإذاعة. تم اتخاذ إجراءات احتياطـــية واسعة في الولايات المتحدة وبريطانيا، مما كوّن انطباعاً بأن أسلحة الدمار الشـــامل على وشك الانطلاق. غذّت الدعاية من الخوف، وأفضى الخوف إلى المزيد من الدعاية.

كان هناك حديث عن توجيه ضربة استباقية باستخدام أسلحة الدمار الشامل ضد إســـرائيل، أو قـــبرص حيث تحتفظ بريطانيا بقاعدة كبيرة فيها، أو إلى الخليج العربي حيث تتجمع البحرية الأميركية، أو الكويت قاعدة الانطلاق لشن الهجوم على العراق، وازداد الخوف مع كل شائعة.

لكن شيئاً من ذلك لم يحدث. ولم يتم إطلاق صاروخ واحد يحتوي على خلية من غـــاز الأعصـــاب أو نقطة من السموم الكيميائية. لم يكن هناك مثل هذا الإسفاف في التاريخ الحربي.

انتهى القتال بعد عشرين يوماً من بداية الحرب. ولكن حرباً أخرى، أكثر ضراوة

بطـــرق عديـــدة، كانـــت قـــد بدأت للتو. بدأ مزيج قوي من الكراهية الدينية، والنفط، والجشـــع داخـــل العراق بالتفاعل. في جنوب البلاد، بدأ الشيعة العرب الادعاء بأنهم صوت قوي في التخطيط لمستقبل العراق، وكانوا قد عانوا الأمرّين من قبل. أيد رجال الديـــن في طهران مطالبهم التي أذاعوها من على منابر مساجدهم، وسافروا إلى مدينة النجف العراقية المقدّسة لإظهار تضامنهم. ووقعت أولى المواجهات الكثيرة مع القوات الأميركية، وكان هناك إراقة للدماء.

في شمال العراق، استعد الأكراد للاستفادة من الفرصة لإعلان الاستقلال، وكاد ذلك يتسبب بنـــزاع مع تركيا، التي ترى بأن دولة كردية مستقلة أمر غير مقبول. في وســـط العراق، أرادت القبائل الأخرى أن يتم أخذ آرائها بالحسبان في تشكيل العراق الجديد، وكما كان الحال في ألمانيا بعد الحرب حيث ظهرت استحالة استئصال الحزب الـــنازي كلياً من الجهاز الإداري للحكومة، كان ذلك واضحاً مع البعثيين. كان الحزب مـــتغلغلاً في البنية التي كانت عليه الدولة العراقية، وقادراً على فعل الشيء نفسه مع الدولـــة التي ستكون. فقد كان الحزب يدير الشرطة، والخدمة المدنية، والمرافق. كان مـــن المستحيل إقصاء أو اعتقال كل أعضاء الحزب والذين أصبحوا الأمل الوحيد في جعـــل العـــراق ينبض ثانية. انحدر العراق بشكل مؤكد نحو الفوضى الشاملة، والتي تحولت بحلول أيار سنة 2003 لتكون أسوأ من عهد صدام المرعب.

أثـــناء ذلك، تحول البحث عن الطاغية إلى مطاردة يقودها الموساد مرة أخرى. ابـــتكر محللوه سيناريو يرتبط جزئياً بحب صدام للظهور المسرحي. قال المحللون إن صدام أزال الصباغ المكلف عن شعره، وحلق شاربه، وارتدى ملابس الفلاحين. وأنه، علـــى الأرجـــح، ســـيخرج من بغداد عبر المساحات الشاسعة والقاحلة والفارغة في صـــحراء العـــراق الشرقية، كان ذلك مسار المهربين من أفغانستان، والطريق الأول الذي استخدمه تجار الحرير ومن بعدهم تجار الممنوعات.

في الأسابيع القليلة التي تلت الحرب، أصبح ذلك المسار المفضل لدى العراقيين الذين يهربون خوفاً على حياتهم نتيجة انهيار النظام القائم آنذاك. هل كان صدام بينهم حقـــاً؟ لم يعرف أحد الجواب. لكن الشعور ازداد بأنه توجه إلى الجبال شمال العراق. كـــان هناك آراء – لم يدعمها أي دليل حقيقي – بأنه سيختفي هناك بمساعدة صديقين قويين اعتمد عليهما من قبل هما روسيا والصين. رغم أن كلا البلدين أنكر رسمياً أنه ســـيمنح صدام حق اللجوء السياسي، إلا أن سجلات موسكو وبكين لدعم صدام كانت طويلـــة، ووقـــوع صدام في أيديهم آنذاك سيضمن بالتأكيد أنه لن يكشف كل تفاصيل

الصفقات السرية التي عقدها معهما.

تعــزّز عمــل عمــلاء الموساد الميداني لاكتشاف موقع صدام بأقمار التجسس الصــناعية الأميركــية. قدّمت آلات تصويرها المتعددة آلاف الصور القريبة، وسجّلت الكثــير مــن محادثات اللاجئين عبر الرمال كل دقيقة. لكن المشكلة القديمة في تحليل وتــرجمة البيانات كانت هناك. وكان مجتمع الاستخبارات الأميركي ما زال يعاني من نقص في المترجمين، ولكن المطاردة استمرت.

فــي أيار سنة 2003، حوّل مائير داغان الكثير من الكاستا الذي يحاولون اقتفاء أثــر صدام لمواجهة تهديد أكثر أهمية بالنسبة لإسرائيل. ورغم يقظة الشين بيت، شن متشــددان مولــودان في بريطانيا هجوماً انتحارياً في أحد نوادي تل أبيب؛ ولقي ثلاثة أشخاص مصرعهم وتعرض خمسون للإصابة. تسللت المتفجرات التي استخدماها عبر الإجراءات الأمنية الصارمة في المطارات والطائرات. كانت تلك المواد أكثر فتكاً من السيمتكس؛ ويمكن تهريبها دون أن يلاحظها أحد من بلد إلى آخر، ومن خلية إرهابية إلــى أخرى. قلب ذلك السلاح مرة أخرى الموازين لصالح الإرهابيين (وفقاً للوصف الإسرائيلي) الذين كانت حواسب الموساد تسجل ثمانين مجموعة منهم.

بعــد أســبوع مــن التحقــيقات المكثّفة التي قام بها علماء الأحياء في المركز الإســرائيلي لأبحــاث الأسلحة في ضاحية تل أبيب، تم اكتشاف مواصفات المتفجرات القاتلة وبلد المنشأ. أثار ذلك الاكتشاف صدمة عامة عبر مجتمع الاستخبارات العالمي. وتوصــل الخبراء الإسرائيليون إلى نتيجة مفادها أن المتفجرات جاءت من مختبرات أبحاث الأسلحة في ZDF، أحد مقاولي الدفاعات العسكرية الرائدة في الصين.

ظهــر الدليل الأول على ابتكار الصين لنوع جديد من المتفجرات في آذار سنة 2001، عــندما فــرّ منشــق صــيني بارز هو العقيد كزو جنبينغ من جيش التحرير الصــيني، وأحد الاستراتيجيين العسكريين الروّاد، إلى الولايات المتحدة حيث استجوبه مدير CIA جورج تينت شخصياً. كان الاستجواب مهماً للغاية لدرجة أن الرئيس بوش سمح لكوندوليزا رايس بالاستماع إليه مباشرة.

فصّــل جنبيــنغ العمل الذي كان يقوم به لابتكار متفجرات جديدة في مختبرات ZDF الواقعة على بعد أربعين ميلاً غرب بكين. كشف أيضاً كيف ساعدت الصين سراً دولاً مارقــة مثل إيران، والعراق، وكوريا الشمالية. كان الشيء الأكثر خطورة الذي كشــفه هــو اتصالات الصين مع مجموعات إرهابية عبر أجهزتها الأمنية القوية مثل "إدارة الاســتخبارات العســكرية" (MID)، و"إدارة التقانة والعلوم" (STD). يعمل كلا

الجهازيـــن علـــى مســـتوى العـــالم عبر خمسة آلاف عميل ميداني ومحلل عسكري، وتحصل تلك الأجهزة على دعم الأقمار الصنعية ومعدّات تقنية حديثة جداً. أخبر كزو CIA أن جـزءاً مـن عمـل الجهازيـن كان المحافظة على العلاقة مع المجموعات الإرهابـية ليس في الشرق الأوسط وحسب، وإنما في الفلبين، وكولومبيا، وسريلانكا أيضـاً. لكن ما أذهل CIA كان اعترافات كزو بعلاقة الاستخبارات الصينية مع فارك فـي كولومبـيا، وإيتا في إسبانيا والدرب المضي في البيرو. بعد سنتين من اعترافات كـزو، كانت أجهزة الاستخبارات تجهّز نفسها لمواجهة السلاح الأخير الذي استنبطه للإرهابيين.

أدرك الموسـاد أن الانتحاريـين (وفقـاً للوصف الإسرائيلي) البريطانيين قاما بتهريـب المـتفجرات إلـى إسـرائيل عبر الأردن، والتي كانت قد وصلت سابقاً من باكستان التي يرتبط جهاز استخباراتها بعلاقة قديمة ووثيقة مع أجهزة الأمن الصينية.

كـان عمـلاء الموساد يعرفون سلفاً بأنه في لشهور التي سبقت الهجمات على البرجيـن التوأمين والبنتاغون قام أسامة بن لادن انطلاقاً من باكستان بثلاث زيارات منفصلة إلى بكين. كان يرافقه في كل مرة السفير الصيني إلى ذلك البلد ورئيس جهاز الاسـتخبارات الباكسـتاني القوي، PIS. وذهب أسامة بن لادن إلى الصين لعقد صفقة أسلحة لصالح طالبان قيمتها مليار دولار أميركي.

أخـبر مصـدر بارز في الموساد في تل أبيب المؤلف: "تعرف الآن بأنه اطّلع خـلال تلـك الزيارات على التقدم في تصنيع المتفجرات الجديدة". ووافق على وجود "احتمال قوي جداً" على حصول القاعدة على كمية من تلك المتفجرات، التي تم تزويد الانتحاريين البريطانيين بكمية صغيرة منها. لقد نقل هذا الإرهاب إلى بُعد آخر.

كـان ذلـك حُكماً ليس بعيداً عما يفكر به داغان وهو يقود الموساد نحو الألفية الجديدة.

أثـار الفشـل في تحديد موقع صدام أو اكتشاف فيما إذا كان ميتاً غضب أرييل شـارون، وطونـي بلير، وجورج دبليو بوش. وكانوا جميعاً يقولون ظاهرياً بأن ذلك لـيس مهماً، وأن صدام لم يعد يشكل تهديداً. ولكن لم يصدق أحد أن بوش، على وجه الخصـوص، سينهي الحرب قبل أن يكون قادراً على الإعلان بأن الحاجة التي تفاخر بها لتغيير النظام في العراق اكتملت بتأكيد موت صدام.

لكـن سـرعان ما تبين أن اختفاء الطاغية لم يعد يشكل هاجساً لكل من جورج بوش وطوني بلير، وإنما الفشل في تحديد مواقع أسلحة الدمار الشامل. أمر بوش مئات

عملاء وعلماء CIA بإيجاد تلك الأسلحة، وقام هؤلاء بالبحث والبحث دون جدوى. في لــندن، أصــرّ طوني بلير على وجود الأسلحة، وأن لديه معلومات عن وجود ثمانمئة موقع لم يتم التحقق منها في صحاري العراق.

بكــل الأحــوال كانــت الحقيقة تبدو مختلفة تماماً. قال كل من وزير الخارجية البريطانــي الســابق روبــن كوك، الذي استقال احتجاجاً على الحرب، وكلير شورت الوزيــرة الســابقة في حكومة بلير، إن بلير كذب على البرلمان والشعب البريطانيين عندما قال إن أسلحة الدمار الشامل موجودة.

بحلــول حزيــران ســنة 2003، كــان بلير يكافح لاستعادة مصداقيته ومستقبله السياســي. فــي واشنطن، أعلن الكونغرس عن افتتاح جلسات استماع علنية لمناقشة المسألة. ولم يكن أحد يعتقد جدّياً بأن الحقيقة ستظهر أخيراً. لكن في ذلك الوقت، كان هــناك حديث عن فضيحة قد تصل إلى مستوى ووتر - غيت أخرى. تذكّر المعلّقون بــأن والد بوش كسب حرب الخليج الأولى، ولكنه فقد الرئاسة لصالح بيل كلينتون بعد ذلك بوقت قصير.

فــي تل أبيب، أبقى مائير داغان الموساد بعيداً عن الأزمات المتصاعدة في لندن وواشنطن. عندما جاءت المكالمات الهاتفية من CIA وM16 للحصول على أي مساعدة قد يستطيع تقديمها، التزم بنفس القصة التي قدّمها الموساد سابقاً، لا أكثر ولا أقل.

فــي كــانون الأول سنة 2003، انتهت مطاردة صدام أخيراً. وتم إلقاء القبض عليه، ولسخرية القدر، بسبب مطالب إحدى النساء التي كان ما يزال يثق بهن: سميرة شهبندر، الثانية من بين زوجاته الأربع.

فــي 11 كــانون الأول سنة 2003، اتصلت بصدام من مقهى إنترنت في بعلبك شرق بيروت، وكانت تعيش مع علي، الوحيد من أبناء صدام الذي نجا، في لبنان تحت اسمين مستعارين بعد مغادرة بغداد قبل بداية الحرب ببضعة شهور.

كانــت سميرة، صاحبة الشعر الأشقر المجعّد والتي كانت تستخدم مستحضرات نفــس الشركة الفرنسية التي تقدّم صباغ الشعر لصدام، السيدة المتزوجة التي أصبحت خليلته ثم زوجته.

كانــت ســميرة مــتزوجة في بداية علاقتهما من طيار في سلاح الجو العراقي. اختطفه صدام ببساطة وقال له إنه سيطلق سراحه إذا وافق على تطليق سميرة، ووافق الزوج. وبالمقابل، عينه صدام رئيساً للخطوط الجوية العراقية؛ منحه صدام حق اختيار واحدة من خليلاته الكثيرات. أصبحت سميرة بعد زواجها من صدام المفضّلة لديه رغم

زواجه باثنتين بعدها وحصوله على الكثير من الخليلات.

أثمر ذلك الزواج عن ولادة علي، مما أثار كراهية ولدي صدام الأكبر سناً عدي وقصـــي تجاه سميرة. ولكنّ الاثنين لقيا حتفهما في كانون الأول بعد اشتباك بالأسلحة النارية مع القوات الخاصة الأميركية.

فـــي وقت سابق في آذار سنة 2003، ومع اقتراب قوات التحالف من بغداد، قام صدام بتهريب سميرة وعلي إلى لبنان. وأخذت معها 5 ملايين دولار نقداً وشاحنة من سبائك الذهب من موجودات مصرف العراق المركزي.

أخـــبرت أصدقاءها بأنها ذاهبة أولاً إلى فرنسا ومن ثم إلى موسكو، وادّعت أن صـــدام قـــد تلقى وعداً سرياً من فلاديمير بوتين، الرئيس الروسي، بمنحه حق اللجوء السياســـي. عوضـــاً عـــن ذلـــك، ذهبت إلى ملجأ معدّ سابقاً وهو عبارة عن فيلا في ضواحي بيروت.

اكتشف الموساد مكان تواجدها هناك في تشرين الثاني سنة 2003. وأرسل مائير داغـــان فريقاً من أخصائيي المراقبة من وحدة *ياهالومين* لمتابعة كل خطوات سميرة. اكتشـــف الفـــريق أن الحكومـــة اللبنانية منحتها وابنها علي جوازي سفر لبنانيين مع هويتين جديدتين. أصبح اسم سميرة الجديد خديجة، فيما أصرّ علي، الغائر العينين مثل والده، على الاحتفاظ باسم العائلة حسين.

لاحظ فريق الموساد بأن سميرة قد حولّت معظم أموالها خارج لبنان إلى حساب في مصرف الاعتماد السويسري في جنيف. في الماضي، كان المصرف مقراً لبعض مـــن ثروة صدام الخاصة. وفي بداية كانون الثاني سنة 2003، حولّت سميرة سبائك الذهب إلى دولارات أميركية عبر صرّاف في بيروت. ثم بدأت تتصل بصدام.

اكتشـــف ياهالوميـــن، بمســـاعدة طائرات استطلاع سلاح الجو الإسرائيلي، بأن المكالمـــات تتم من داخل سورية المحاذية للعراق. وقال مصدر بارز في الموساد بعد إلقـــاء القبض على صدام: "كانت المكالمات رقيقة، وكان واضحاً بأن العلاقة ما تزال حميمة بين الاثنين". كان أحد أعتى الطغاة في العالم – رجل أمر شخصياً بتعذيب عدّة آلاف منهم نساء وأطفال – قادراً على التكلم حول الحب، وهو ما أذهل فريق الموساد. ولكـــن إلى جانب عبارات الغزل التي سمعها الفريق عبر معدّاتهم الإلكترونية، كانت سميرة تطلب المزيد من الأموال.

أعـــادت ســـميرة مـــراراً وتكراراً طلبها بالحصول على المزيد من الأموال في مكالمـــات لاحقـــة في كانون الثاني، تم إجراء كل منها من رقم مختلف والتي استطاع

فـريق ياهالومين تحديد مكانه في منطقة صحراوية مهجورة في وادي الميرة القريب من الحدود السورية مع العراق.

كانت سميرة ابنة عائلة بغدادية أرستقراطية ثرية، لم تتخلَ أبداً عن أسلوب الحياة المترفة. وأمطرها صدام، خلال زواجهما، بالهدايا بما فيها قصرين.

كان الإسرائيليون يعرفون أن القوات الخاصة الأميركية تجول على طول الحدود العراقـية بحثاً عن صدام. سمع عملاء إسرائيليون آخرون على الجانب السوري من الحـدود محادثات لاسلكية بين الوحدات - المعروفة باسم "القوة 121 لمهام العمليات الخاصـة المشتركة" - فيما كانت تحاول أيضاً اقتفاء أثر صدام. كانت تلك القوة تضم أفـراداً مـن *قـوة دلـتا*، و*جوّالة الولايات المتحدة*، وSAS و*وحدة القوارب الخاصة* البريطانيتين، وSAS الأسترالية. وقال مصدر مقرّب من مائير داغان للمؤلف: "لم نُدع رسمياً للمشاركة في البحث لأسباب سياسية".

قـرّر الموسـاد - لـيس للمرة الأولى - إبقاء المعلومات التي حصل عليها من مراقـبة سـميرة لنفسه. ثم التقط فريق ياهالومين يوم الخميس 11 كانون الثاني سنة 2003، مكالمة بين سميرة والرجل الذي أصبح مؤكداً آنذاك أنه صدام. وأخبرها بأنه سـيلتقيها قرب الحدود السورية، وكانت تفاصيل اللقاء كافية لحث الإسرائيليين أخيراً علـى إنـذار واشنطن. تلقّت سميرة مكالمة ثانية فيما كانت تستعد للذهاب إلى الموعد بأنه تم إلغاء الاجتماع. لم تكن المكالمة الثانية من صدام.

فـي وقـت لاحق، ظهر أن صدام كان يعيش داخل حفرة عمقها ثمانية أقدام في ضـواحي تكريـت مسـقط رأسه في العراق. سمعت سميرة وعلي أنباء القبض على صدام من الإذاعة، وانفجرت بالبكاء فيما لم يعرف أحد رد فعل علي.

فـي تل أبيب، انكبّ محللو الموساد - مثل كل المحللين في أجهزة الاستخبارات الرئيسـية - على صور الفيديو التي يظهر فيها صدام بصورة لم يرها العالم من قبل. بـدأ محللو الموساد، كجزء من عملهم، بطرح أسئلة متنوعة. من الرجلين الغامضين المسـلحين الذيـن يحملان بنادق الكلاشينكوف ويقفان يحرسان الحفرة؟ هل كانا هناك لحراسـة صـدام، أو لقتله إذا حاول الهرب؟ لماذا لم يستخدم صدام مسدسه للانتحار ويصبح الشهيد الذي لطالما تمناه؟ هل أوقفه الخوف، أم أنه كان يتوقع عقد صفقة ما؟ هـل سيكشـف الحقيقة حول أسلحة الدمار الشامل، وتعامله مع روسيا والصين الذي ساعده دعمهما السري على الاستمرار في مواجهة الولايات المتحدة؟

لم يكن هناك سوى فتحة واحدة في حفرة اختبائه، وكانت مغلقة؛ ولم يكن يستطيع

الهروب منها. هل كانت في الحقيقة سجناً؟ هل تم وضعه هناك كجزء من صفقة؟ ماذا كان سيفعل بمبلغ 750.000 دولار أميركي الذي كان معه؟ هل كان سيرسله إلى سميرة؟ أم كان سيعطيه لشخص يساعده على الهروب؟ لماذا لم يكن معه معدّات اتصال؟ لم يتم إيجاد حتى هاتف خلوي معه. هل يشير كل ذلك إلى أن أتباعه أصبحوا يعتبرونه ورقة خاسرة، وكانوا مستعدين لمقايضته مقابل حريتهم؟ قد يفسر ذلك سبب ثرثرته وتعاونه عندما تم إخراجه من تلك الحفرة، والتي وضعت نهاية لعهد من الرعب استمر خمساً وثلاثين سنة بتلك الطريقة المثيرة. تشكّل الأجوبة عن هذه الأسئلة جزءاً من الاستجواب الذي كان صدام حسين على وشك الخضوع له.

بعد ساعات من إخراجه من تلك الحفرة، خضع صدام للفحص من قبل أطباء أمراض عقلية، وعلماء نفس، وخبراء سلوك ومحللين نفسيين بإشراف اللجنة الأمنية الأميركية - البريطانية المشتركة. كان هؤلاء معروفون باسم *الأخصائيين*، ومهمتهم دراسة فحوصات صدام الطبية. ولم يكن البحث داخل فمه للحصول على الحمض النووي وحسب، وإنما لاكتشاف ما إذا كان صدام يضع قرص انتحار في أحد أضراسه الخلفية سراً أيضاً. ولم يتم إيجاد أي شيء.

كان ذلك بالنسبة للأخصائيين دليلاً إضافياً على أن صدام لا يمثّل حالة انتحارية. ورغم ذلك، ارتدى ملابس مكوّنة من قطعة واحدة برتقالية اللون، وكان لها أزرار ليفية تذوب إذا حاول ابتلاعها. كانت قطعة الملابس قوية للغاية بحيث لا يستطيع تمزيقها لشنق نفسه. انتعل صدام في قدميه حذاءً ليفياً ناعماً لا يمكن تمزيقه.

خضعت زنزانته لرقابة دائمة من قبل آلات التصوير والحرّاس. كان هناك متابعة لكل حركة تصدر منه، ويتم استخدامها لتقييم قدرته على احتمال الاستجواب الذي سيخضع له لاحقاً. وفي لغة الأخصائيين: "لم يسمح صدام لفقدان هيبته الشخصية بأن تؤثر على ذاته الجمعية".

لم يكن صدام الرجل نفسه الذي ظهر على شريط فيديو لحظة إلقاء القبض عليه: كان مثقلاً باليأس، ويبدو فجأة أكبر من عمره الحقيقي البالغ ستاً وستين سنة، ونظرات الشك في عينيه. استنتج الأخصائيون أن شعوراً بالغباء انتابه نتيجة إلقاء القبض عليه، وهذا ما يفسّر "كلامه الاضطراري" مع سجّانيه، والذي كان يخفي وراءه خوفاً شديداً من الطريقة التي تم سحبه بها خارج الحفرة. أخبر الأخصائيون المحققين: "ربما كان يتوقع أن يلقى حتفه في الموقع".

مرّ لاحقاً بمرحلة استعاد فيها توازنه النفسي، وعاد إليه تعجرفه. لم تعد عيناه

زائغتان، أو شفتاه متدليتان من الاحتباس داخل الحفرة. كان هناك خيلاء في تصرفاته، وساعد كل ذلك المحققين على وضع خطة لتحطيمه. كان المركز الذي تم استجوابه فيه مضاداً للصواريخ وتحرسه نخبة القوات الأميركية الخاصة، ويتضمن قسماً طبياً مع أطباء متواجدين على مدار الساعة.

على أمل الحصول منه على بعض التجاوب، تم اصطحاب طارق عزيز نائب رئيس الوزراء العراقي السابق لرؤية صدام. كان عزيز في مخيم اعتقال خارج مطار بغداد، وتم نقله بالمروحية لمقابلة صدام، وحثّه على الكلام. وعوضاً عن ذلك، انفجر صدام واتهم عزيز بأنه خائن.

في الوقت الذي بدأ فيه المحققون باستجواب صدام، تم قطع كل علاقاته مع العالم الخارجي بالكامل. ولم يكن لديه أدنى فكرة عن الوقت أو التاريخ. ولم يكن هناك شيء مثل النهار أو الليل في عالمه. وتم تغيير أوقات استيقاظه ونومه ووجبات طعامه عمداً. ولم يكن هناك تعذيب جسدي، ولكنه بدأ يتلقّى ما يدعى "معاملة إكراه كاملة". ولم يستخف المحققون بالتحدي الذي يواجهونه.

قال مايكل كوبي، المحقق الذي استخدمه الموساد لسنوات طويلة: "يمثّل صدام تحدياً فريداً. إنه رجل يرى نفسه متفوقاً أخلاقياً وروحياً وذهنياً على العالم الغربي، وستتضمن معاملة الإكراه الجلوس لساعات مغطّى الرأس لزيادة شعوره بالعزلة، وسيتم تصميم الأسئلة طوال الوقت لزيادة الغضب في ذهنه حول تعرضه للخيانة، وسيكون التأقلم مع الخيانة أمراً شديد الصعوبة بالنسبة لشخص مثل صدام. كانت المواجهة مع طارق عزيز جزءاً من ذلك. لقد أخبر المحققون صدام بأن طارق عزيز كان يتطلع لأن يصبح الرقم واحد. وقد يفعل صدام نفس الشيء بأن يكشف معرفته بذلك؛ وهو سيكون أمراً بالغ الشأن".

قال كوبي للمؤلف: "لم يكن شيء ليزعج صدام أكثر من الحقائق التي اعتقد أنها لم تعد موجودة بمرور السنين. كان ذلك سيثير شعوره بالأهمية، وسيفكّر أكثر قبل أن يكذب لأنه سينكشف. يمثّل الاستماع إلى أجوبة صدام بلغته الأم جزءاً من التحقيق. وقد يكون لكلمة واحدة في اللغة العربية معانٍ مختلفة. أضاف كوبي: "إذا اختار استخدام كلمة غير صحيحة، سيقول المحققون إنهم يعرفون المعنى الصحيح".

بعد كل استجواب – الذي قد يستمر لساعات عديدة، مع سيل من الأسئلة – يقوم الأخصائيون بتقييم صدام. وكانوا يتطلعون لرؤية ردة فعله على أسئلة معينة. هل كان يكذب؟ هل يكتم الأسرار؟ هل طرفة العين التي التقطتها آلة التصوير دليل خوف

مفاجئ؟ أم كانت غطرسة أو حتى عدم مبالاة؟

يعـيش كوبـي اليوم في أشكيلون قرب قطاع غزة الذي تحتله إسرائيل، ويعرف تمامـاً الأسـاليب التي استخدمها المحققون وفريق دعمهم لدى استجواب صدام. قال كوبـي: "كـان الشيء الأول الذي قام به المحققون إظهار تفوقهم على صدام، وإزالة اعـتقاده بأنـه يسـتطيع السـيطرة على نفسه. كانوا يبحثون في كل مرحلة عن نقاط ضـعفه، والتـي تتضـمن التلاعب على خسارة صدام للسلطة وعدم اهتمامه بمصير عائلـته. كـان المحققـون يكذبون عليه، ويجبرونه على إبقاء بصره مرفوعاً عندما يطرحون عليه أسئلتهم. عندما كان يحاول النظر بعيداً، كانوا يستمرون في التحديق به بصمت. لم يكن صدام معتاداً على ذلك، ومثل هذه المعاملة تجعله يفقد رباطة جأشه".

بيـن الحيـن والآخر، طرح المحققون أسئلة كانوا يعرفون أن صدام لا يستطيع الإجابـة عنها. ما الذي كان يحدث في واشنطن ولندن أثناء التحضير لحرب الخليج؟ أيـن كـان بالتحديد في تاريخ معين؟ وعندما لم يكن يستطيع الإجابة، كان المحققون يتهمونه بإخفاء المعلومات.

قـال كوبـي: "بعـد فـترة قصيرة، يمر سؤال يستطيع الإجابة عليه. وإذا قام المحققـون بعملهـم علـى أكمـل وجه، سيكون صدام سعيداً للإجابة عليه. ثم ينتقل المحققون إلى أسئلة أخرى يريدون إجابات عنها".

شـرح كوبـي: "كان تقديم إغراءات بسيطة وسيلة أخرى لتحطيمه. وإذا أجاب صـدام عـن سلسـلة من الأسئلة، سيتلقى وعداً بنوم مريح، وربما تغيير في وجباته المراقـبة بعـناية. لكنّ المحققين لن يفوا بوعودهم دائماً. وسيكون هناك وعود أخرى بالإيفاء بالوعود الأولى إذا استمر في التعاون".

فـي كـانون الثانـي سنة 2004، زار فريق من أطباء منظمة الصليب الأحمر الدولية صدام، وأعلنوا أنه يتلقى معاملة حسنة.

اسـتمرت الألعاب الذهنية القاتلة حتى اقتنع المحققون والأخصائيون بأنه لم يعد مـن الممكن الحصول على المزيد من المعلومات من صدام حسين. ثم تركوه لقدره، الذي لم يكن قادراً على توقعه في ذلك الوقت.

أثـناء ذلـك، انضم الموساد إلى أجهزة استخبارات أخرى في البحث عن ثروة صـدام المفقـودة، وبحلول كانون الثاني سنة 2004، وجد فريق عملاء مائير داغان الخـبراء مالياً، والذين عمل بعضهم في سوق لندن المالي وول ستريت قبل الالتحاق بالجهـاز، أن مصـرف ملكـة إنكلترا كوتوس كان أحد ثمانية عشر مصرفاً بريطانياً

استخدمها صدام حسين لإخفاء 40 مليار دولار أميركي خلال ثمانينيات القرن العشرين.

كان صدام قد سرق تلك الأموال من موجودات المصرف المركزي العراقي، وحولها إلى مصارف في الشرق الأوسط، ثم وضعها في مصارف لندن تحت أسماء مستعارة. ولاحقاً، تم تحويل الأموال إلى مصارف في سويسرا، وألمانيا، واليابان، وبلغاريا.

يقول كريستوفر ستوري، المستشار المالي السابق لرئيسة الوزراء البريطانية مرغريت تاتشر عندما كان صدام يكدّس ثروته: "كان يتم اعتبار أي تحويل من أحد المصارف البريطانية قانونياً". يعتبر ستوري، السيد الإنكليزي المثالي الذي يرتدي ملابس من سافيل رو وأحذية تتماشى مع أحدث صرعات الموضة، مرجعاً معترفاً به في الإنفاق المالي للزعيم العراقي وعلاقاته الوثيقة سابقاً مع المصارف الرئيسية في العالم. يحرّر ستوري، الرجل الإنكليزي الذي يتحدث بإيجاز شديد، صحيفة *إنترناشونال كارنسي ريفيو* المصرفية المالية المحترمة. وتضم قائمة مشتركيها البنك الدولي، ومصرف الاحتياطي الاتحادي الأميركي ومصرف إنكلترا المركزي.

لقد قام ستوري بجمع وثائق تبين أن روبرت مكسويل، أسطورة المال السابق الذي كان مالكاً لمجموعة صحيفة ديلي ميرور اللندنية، قد رتّب عملية تبييض مليارات الدولارات عبر مصارف بلغارية إلى مصرف نيويورك. وآلت ملكية المجموعة الصحفية بعد ذلك إلى إدموند صفرا المعروف بأنه "خبير المافيا المالي"، والذي مات نتيجة حريق غامض اشتعل في شقته الصغيرة في موناكو سنة 1999. لقد قتل عملاء الموساد مكسويل عندما هدّد بكشف أسرار إسرائيل الاستخباراتية.

قال ستوري: "إذا كشف صدام أسماء كل الذين ساعدوه، سيؤدي ذلك إلى فزع أكبر من أي انهيار لوول ستريت. وما زال العديد من هؤلاء يحتفظون بمناصبهم العالية لغاية اليوم. ومن المستحيل أنهم ما كانوا يعرفون ما يحدث مع صدام الذي كان يحرك مبالغ مالية ضخمة حتى عشية الحرب".

بدأ صدام حسين تجميع واحدة من أكبر ثروات العالم الخاصة عندما أقلعت طائرة نفاثة صغيرة من لندن إلى بغداد سنة 1982، وهي قصة لم يكتبها أحد لغاية الآن. وخلال الرحلة التي تستغرق خمس ساعات من لندن، تناول راكبها الوحيد رولاند الصغير كافيار الحوت الأبيض وارتشف شراباً معتّقاً. كانت تلك وجبته المعتادة خلال رحلات العمل على متن طائرته النفاثة. وكان صدام حسين قد أرسل له أطباق

الطعام الشهي من بغداد.

لم تكن تلك رحلة عادية في ذلك اليوم الصيفي من سنة 1982، حتى بالنسبة للخبير المالي البالغ من العمر ثمانية وستين عاماً والذي يتمتع بسمعة مخيفة في سوق لندن المالي، وول ستريت، وفي أسواق الأسهم الأوروبية. كان رولاند يجلس على مقعد مكسو بالجلد المدبوغ يدوياً على متن طائرته النفاثة الخاصة، ويضع قدميه على سجادة يبلغ ثمن القدم المربع الواحد منها 150 دولاراً أميركياً. وكانت بطاقاته التجارية المكتوبة بالذهب تحمل اسم رولاند دبليو رولاند، والذي قطع شوطاً طويلاً منذ ولادته سنة 1917 في معسكر اعتقال بريطاني في الهند.

رولاند ابن تاجر ألماني يدعى فريتز فوهروب، كانت أمه ابنة أحد أعمدة الحكم البريطاني في الهند والتي تبعت زوجها إلى الاعتقال. بعد إطلاق سراحهما في نهاية الحرب العالمية الأولى، أطلقت مربية رولاند الهندية عليه اسم الصغير. ورغم أن طوله أصبح فيما بعد ستة أقدام، إلا أن ذلك الاسم لازمه، وكان صلته الوحيدة بالماضي؛ تلك الأيام عندما حفر المراحيض للجيش البريطاني في الحرب العالمية الثانية، وأصبح لاحقاً حمّالاً في محطة السكك الحديدية في لندن.

شحذت تلك البدايات المتواضعة عزيمته للانضمام إلى صفوف الأثرياء والأقوياء. بعد الحرب، باع السيارات المستعملة والثلاجات في لندن. وأصبح مليونيراً عندما بلغ الثلاثين من عمره، وبدأ التجارة بالذهب في جنوب أفريقيا، ونمت ثروته. تم تكليفه *بإنقاذ* شركة على شفا الانهيار تدعى مؤسسة لندن وروديسيا للأرض والمناجم - لونرو. حولها رولاند إلى أقوى شركة تجارية في كل أفريقيا، وأصبح محبوب المساهمين في لونرو نتيجة الأرباح التي يجنيها من تجارة النحاس، والقصدير والمعادن الأخرى.

لم يشك هؤلاء في الطريقة التي دفع بها رشى للورد دنكن سانديز، صهر ونستون تشرشل، وباستخدام حساب سري في جزر كايمان، حوّل رولاند للورد مبلغ 500.000 دولار أميركي للمساعدة على شراء أكبر حقول الذهب في غانا. عندما تورّط دنكن سانديز في فضيحة جنسية، قطع رولاند المحتشم كل العلاقات معه - حتى أنه رفض إرسال باقة زهور إلى جنازته سنة 1987. لم يكن رولاند الصغير يسمح لأحد، مهما كان ثرياً وواسع النفوذ، بأن يورّطه في مثل تلك الأمور. لقد حافظ على صورته كرجل إنكليزي مثالي، ولم يكشف عن معاداته للسامية وازدرائه لطريقة الإدارة في بريطانيا سوى لحلقة صغيرة من الأصدقاء اليمينيين المحافظين.

بعـد أن أصبح ملياردیراً، سمح رولاند الصغير لكراهيته للاشتراكية بأن تطفو على السطح خلال الأزمة البريطانية مع روديسيا (زيمبابوي الآن) عبر تصميمه على تحـدّي حكومـة ويلسون حول الحكم الذاتي. تم فرض عقوبات على ما اعتبره رئيس الـوزراء هارولد ويلسو "دولة منبوذة". وظهر لاحقاً أن رولاند خرق العقوبات، ولكن في ذلك الوقت كانت السيدة تاتشر في مقر رئاسة الوزراء، ولم يتم ملاحقة الأمر.

تطلّـع الصـغير إلـى ميادين جديدة يدخلها. اشترى الأوبزرفر، صحيفة الأحد اللندنـية، وحـاول اسـتخدامها لدعم مصالحه التجارية في أفريقيا، وجنّد لاحقاً تاجر السـلاح السعودي الشهير عدنان خاشقجي لعقد صفقة مع العقيد القذافي لشراء سلسلة فنادق ميتروبول مقابل 150 مليون دولار أميركي.

قـادت قـدرة رولاند على استخدام أي شخص لتوسيع مصالحه الخاصة رئيس وزراء بريطانـيا عندها تيد هيث لتوبيخه بوصفه "الوجه غير المقبول من الرأسمالية". لـم يكـترث رولاند الصغير لذلك الأمر بنفس الطريقة المستبدة التي كان يصرف بها الخبراء الماليون الآخرون الذين يأتون إليه بصفقات. كان يُفضّل العمل لوحده، وأن لا يشـترك في الأرباح مع أحد؛ عدا قططه السيامية. كان يغذّيها كل يوم بنفس الكافيار الرائع الذي تناوله على متن طائرته النفاثة عندما كانت تتجه إلى العراق في ذلك اليوم من حزيران سنة 1982. كانت تلك القطط تتجمع عند قدميه فيما كان يعمل من وراء مكتبه على التخطيط لإنجازه العظيم المتمثّل في إخفاء ثروة صدام.

كانـت آراء صـدام المناصرة للغرب موضع ترحيب في لندن وواشنطن عندما استلم السلطة، ورأت حكومتا البلدين، إلى جانب حكومتي فرنسا وألمانيا، حاجة لتعزيز البنـية التحتـية فـي العراق ضد التهديد المتصاعد من إيران. وأصبحت بغداد سوقاً عظـيمة، وكان من الشائع دفع رشى كبيرة لضمان الحصول على العقود. كانت تلك المـبالغ تصـب فـي حسابات صدام، وتدفق المزيد من الأموال لعقود بناء الطرق، والمستشفيات والمدارس. ولم يكن أحد يهتم بما يجري حتى إذا شكّ بالأمر.

بدأت علاقة صدام مع رولاند منذ عملية سرقة ثروة شاه إيران الخاصة التي تبلغ 3 مليارات دولار. في سنة 1979، وعندما كان رجال الدين على وشك الاستيلاء على السلطة في إيران، عقد مساعدو الشاه الموثوقون اجتماعات سرية مع مدير المصرف المركـزي العراقي. كان رولاند صلة الوصل بينهم، وبناء على نصيحته، وافق الشاه على تحويل ثروته إلى المصرف المركزي العراقي في بغداد، بعيداً عن متناول أيدي رجال الدين. وحصل رولاند على عمولة تبلغ 15%.

في صفقة ثانية وضعت حجر الأساس لثروة صدام، حوّل الطاغية العراقي الذي استولى على السلطة قبل أقل من سنة فقط الأموال خارج المصرف المركزي العراقي إلـــى حساباته السرية في مصرف الاعتماد في سويسرا ومصرف جزيرة كايمان. قام رولانـــد بترتيب تلك العملية، وحصل على عمولة أخرى. انتهى الأمر بالشاه المخلوع الـــذي يحتضـــر فـــي واشنطن إلى طلب مساعدة الحكومة الأميركية لاستعادة ثروته المســـروقة. ولـــم تلـــقَ طلباته آذاناً صاغية، لأن خارطة الطريق في الشرق الأوسط تغيّرت مرة أخرى. كانت واشنطن تدعم العراق علانية ضد إيران. واستطاع الموساد الحصول على كل هذه المعلومات، والكثير غيرها، عندما كان يبحث عن ثروة صدام في شتاء سنة 2004.

تحدثـــت إلى ضباط استخبارات في لندن، وواشنطن وتل أبيب الذين وصفوا لي وثـــائق أخـــرى تكشف اتساع الشبكة السرية التي أنشأها رولاند. تكشف إحدى وثائق الموســـاد كـــيف استخدم رولاند أحد مصارفه في لندن لتوفير تسهيلات لتاجر السلاح العراقـــي إحســـان بربوطي لإيداع 500 مليون دولار أميركي من أموال صدام. من لـــندن، ســـاعد البربوطي ليبيا في بناء مصنع للأسلحة الكيميائية. عندما مات فجأة – هناك اعتقاد على نطاق واسع بأنه ضحية أحد قناصي صدام – تم تحويل الأموال من مصرف لندن إلى المصرف المركزي في ليبيا.

تشـــرح وثـــيقة أخـــرى كيف ذهب عدي ابن صدام إلى جنيف سنة 1998 *لحل بعـــض المشـــاكل المالية* مع المصارف السويسرية التي كانت جزءاً من شبكة تبييض الأموال التي أنشأها رولاند.

عشـــية حرب الخليج الثانية، ذهب قصي ابن صدام برفقة وزير المالية العراقي حكمت مصبان العزّاوي (رهن الاعتقال لدى الأميركيين الآن) إلى المصرف المركزي العراقـــي مع رسالة مكتوبة من والده تقول إنه مخوّل بسحب مليار دولار أميركي من الموجـــودات. تـــم تحمـــيل الأموال في قافلة من الشاحنات، وأظهرت صور الأقمار الصنعية الأميركية أن القافلة اتجهت نحو الحدود السورية، ووجدت القوات الأميركية لاحقـــاً 656 مليون دولار أميركي في أكياس داخل 164 صندوق ألمنيوم في أرضية أحد قصور صدام، إلى جانب 100 مليون يورو في عربة مصفّحة.

بحلـــول ربـــيع ســـنة 2004، أصبح البحث عن مليارات صدام أكبر عملية من نوعهـــا منذ البحث عن ذهب النازيين بعد الحرب العالمية الثانية. جنّد الموساد، بدعم من M16 وCIA عشرات العملاء والخبراء الماليين في محاولة لاكتشاف الثروة الهائلة

التي استطاع صدام إخفاءها حول العالم بفضل خطة رولاند.

تضع إحدى وثائق الموساد، التي وقعها مائير داغان، أسماء ما يزيد عن سبعين مصرفاً متورطاً في تبييض الأموال لحساب صدام، والتي كانت تحولها من العراق إلى لندن وأوروبا، وعبر جبل طارق إلى جنوب أفريقيا، وعبر المحيط الأطلسي إلى هونغ كونغ ومنها إلى اليابان وروسيا، وعودة إلى البلقان. ولكنّ الباحثين - جواسيس، ومصرفيون وسماسرة - الذين حاولوا اقتفاء أثر الأموال توقفوا لأنهم اصطدموا بوسائل الحماية التي أنشأها رولاند.

أكّد أحد مصادر الموساد: "استخدم بدائل ومفاتيح، وأشخاصاً في عالم الصيرفة الدولية. واستخدم أيضاً مصارف في أوروبا الغربية عملت مع KGB، وكانت معتادة على عدم طرح الأسئلة".

كتب جون أونيل، مدير FBI التنفيذي في نيويورك في مذكّرة أعدّها قبل وقت قصير من موته في الهجمات التي استهدفت مركز التجارة العالمي في أيلول 2001، بأن أموال صدام: "تم بالتأكيد تبييضها عبر مؤسسات إجرامية عالمية تديرها اتحادات الممنوعات في أميركا الجنوبية والمافيا الروسية". أشارت المذكّرة إلى تورط ادموند صفرا، الملياردير الذي كان يملك حينها المصرف الجمهوري الوطني في نيويورك، واستخدمه *كقناة تبييض للأموال*.

وجد المحققون أن الأشخاص الآخرين الذين ربما يستطيعون مساعدتهم في تقفّي أثر الأموال ماتوا بشكل غامض. كان أحدهم جانوس باسزتور، المحلل في سوق وول ستريت، والذي عمل سابقاً لدى رولاند. مات باسزتور في 15 تشرين الأول سنة 2000 نتيجة إصابته بسرطان لم يتم تشخيصه سابقاً، رغم أن طبيبه منحه شهادة خلو من الأمراض قبل أسبوع من ذلك.

كان مصرف الاعتماد والتجارة الدولي (BCCI) قناة أخرى تدفقت عبرها ثروة صدام. كان مقر المصرف - المنحلّ الآن - يقع في لندن، ويقدّم أموالاً للجماعات الإرهابية التي كان صدام يدعمها. وتم إغلاق المصرف بعدما اكتشف المسؤولون في سوق لندن المالي نشاطاته.

تمتلك M15 ملفاً ضخماً عن أحد الوسطاء الآخرين الذين استخدمهم رولاند. ويعتبر سيروس هاشمي ظاهرياً مليونيراً عربياً مغامراً، والذي كان ينفق 150.000 دولار أميركي على بطاقة في كازينو ميفير، ويعطي البواب ساعة رولكس لركن سيارته الفيراري. سمح هاشمي باستخدام حسابه في مصرف BCCI لتحويل أموال

صدام نحو حلقة أخرى من السلسلة، ويقول ملف M15 الاستخباراتي عن هاشمي أيضاً إنه كان يحاول الحصول على صفقة أفضل مقابل خدماته. وفي 16 تموز سنة 1986، انهـــار فجـــأة في منـــزله في بلغرافيا وتم نقله سريعاً إلى العيادة الخاصة التي يملكها BCCI، ومات بعد يومين.

حقق قسم الجرائم في سكوتلنديارد في المسألة، واستدعى عالم التشريح المرضي الطبيب إيان ويست الذي قال: "كانت حادثة موت هاشمي واحدة من أكثر الحالات التي عملـــت علـــيها غرابةً". أرسل ويست عينات أنسجة إلى بورتون داون، وهي مؤسسة الحـــرب الكيميائية والبيولوجية، ليقرر علماؤها فيما إذا كان هاشمي قد مات مسموماً. وبقيت نتيجة فحوصاتهم غير معروفة لغاية يومنا هذا.

وربما يبقى موقع مليارات صدام غير معروف أيضاً في المستقبل المنظور.

فـــي نيســـان سنة 2004، أعلن المحامي الفرنسي جاك فيرجيه بأن عائلة صدام عينـــته كرئيس لفريق الدفاع في محاكمته. وأصبح فيرجيه مشهوراً عندما مثّل ضابط SS الســـابق كـــلاوس باربي المتهم بارتكاب "جرائم ضد الإنسانية" سنة 1987. عمل فيرجيه منذ ذلك الوقت في الدفاع عن الإرهابي السيئ السمعة كارلوس ابن آوى الذي يقضـــي عقوبـــة الســـجن مـــدى الحـــياة في باريس، وما يزال مستشاراً لسلوبودان ميلوســـيفيتش الـــذي وصلت قضيته في محكمة جرائم الحرب إلى سنتها الرابعة وقد تستغرق عدّة سنوات أخرى.

قـــال فيرجـــيه إنـــه يتوقع أن تستمر محاكمة صدام وقتاً أطول. "سأقدّمه كبطل منتصر"، وطلب استدعاء الرئيس جورج دبليو بوش ووالده الرئيس الأسبق كشاهدين، إلى جانب رئيس وزراء بريطانيا طوني بلير وقادة عالميين آخرين. قال فيرجيه الذي كان في الثامنة والسبعين من عمره عندما تولى القضية: "سوف يستغرق الجدال حول ضـــرورة حضـــورهم قرابة السنة". وسيكون أحد العناصر الأساسية في دفاعه إظهار "كـــيف حصل بعض الأشخاص المهمين جداً على حصتهم بمساعدة صدام على إخفاء أمواله. وما يزال بعضهم يحتفظون بمناصبهم، ولكن ليس بعد أن أنتهي منهم".

وحـــده الزمـــن كفـــيل بـــأن يكشف فيما إذا كان ذلك سيقود إلى ثروة الطاغية. والشيء المؤكد بأنه سيكون لدى الموساد أثناء ذلك طغاة آخرون يطاردهم.

الفصل العشرين

مصرفي الفاتيكان، وكاشف الأسرار، وأسامة بن لادن

في 22 نيسان سنة 2004، وهو أحد تلك الأيام اللطيفة التي يحب أن يتذكّر فيها الإسرائيليون سبب اختيار الله لأرضهم الموعودة، كان مائير داغان يشاهد بثاً حياً عبر جهاز تلفازه في مكتبه في الطابق الأخير من مقر قيادة الموساد.

كان يظهر على الشاشة مردخاي فعنونو العالم النووي السابق الذي فضح ترسانة إسرائيل النووية بعد أن خرج أخيراً من سجنه الذي يخضع لإجراءات أمنية مشددة في عسقلان جنوب إسرائيل وقضائه ثماني عشرة سنة فيه. قال شابتي شافيت الذي سبق داغان في إدارة الموساد، علانية بأنه كان سيأمر باغتيال فعنونو في حال توافرت له الفرصة المناسبة. كان المعارضون لإطلاق سراح فعنونو يصرخون على شاشة التلفاز بالمطلب نفسه: "اقتلوه! اقتلوه!" وردّ عليهم فعنونو برفع يديه فوق رأسه بتحية نصر الملاكم. واختلطت صرخات "خائن! خائن!" مع احتفالات المناصرين الذين جاءوا من كل أصقاع الأرض للترحيب بفعنونو.

لم يكن هناك مشهد مماثل من قبل، وهو ما كان داغان يجد صعوبة في فهمه. كيف يمكن لأي شخص أن يعامل رجل خان بلده على أنه بطل؟ قال داغان "إذا كان فعنونو، الذي كان يهودياً ملتزماً وتحوّل إلى المسيحية، فعل ذلك لقاء المال، فهذا سيجعله يفهم الأمر وربما يجعله يتقبّله". ولكن رئيس الموساد لم يستطع أن يفهم الدافع وراء قيام فعنونو بكشف النظام الدفاعي الرئيسي لإسرائيل؛ المئتي قنبلة ذرية التي جعلتها القوة النووية الرابعة في العالم.

كان داغان جزءاً من إسرائيل منذ إنشائها، ولعب دوره الخاص في مساعدتها على القتال للحصول على مكان لها بين الأمم. ولديه إيمان راسخ بأنه ما من شعب آخر كافح كثيراً ولوقت طويل ليشرح للآخرين المسائل الأخلاقية والروحية التي تحكم البشرية. في تلك الليالي الطويلة عندما كان يجلس وحيداً في مكتبه يقرأ البيانات الواردة من عملائه في كل أنحاء العالم، كان ذلك هو المبدأ الذي يرتكز عليه إيمانه

ومعينه الذي لا ينضب ويستقي منه قوته وأن "دولة إسرائيل" أهم شيء في حياته. لهذا السبب شغلته خيانة فعنونو العظمى.

مـــلأ فعـــنونو، خلال فترة سجنه، سبعة وثمانين صندوقاً من الوثائق التي تشرح كيفـــية صنع الأسلحة النووية في ديمونا، في صحراء النقب. وبالطبع، تمّت مصادرة تلـــك الوثائق عشية إطلاق سراحه، ولكن ما كتبه كان بالنسبة لداغان: "دليلاً على أن معرفة فعنونو ما تزال هائلة وشاملة بحيث لا يمكن السماح له بمغادرة إسرائيل".

كـــان ذلك أحد شروط إطلاق سراحه، والتي تتضمن أيضاً عدم قيامه بإجراء أي اتصـــال مـــع أجانـــب، ومراقبة الإنترنت والهاتف الخلوي اللذين يستخدمهما، وعدم الاقتراب مسافة خمسمئة متر من أي حدود أو بعثة دبلوماسية أجنبية. سيقوم فريق من ضباط المراقبة بوضعه تحت إشرافهم ليلاً ونهاراً.

وافـــق فعـــنونو على كل تلك الشروط باستهجان. كان هناك علامات استغراب كثـــيرة أخـــرى فـــي محاولة داغان الأخيرة فهم ذهنيته. في الليلة التي سبقت إطلاق سراحه، استجوب اثنان من محققي الموساد فعنونو أمام آلة تصوير حول السبب الذي قـــاده لخـــيانة إســـرائيل. هزّ الرجل كتفيه استخفافاً، وشن هجوماً قوياً على الموساد، وكيف تم خداعه للزج به في السجن. تحدّث عن "المعاملة القاسية والهمجية التي لقيها في السجن، والتي نظّمها ووافق عليها الموساد".

كان فعنونو يكرّر، على شاشة التلفاز، نفس الادعاءات أمام احتفالات مناصريه. كـــان الأمر كما قال داغان: "إذا كان هذا الرجل قد تعرّض للتعذيب، فإنه يبدو بصحة جيدة جداً".

فـــيما كان فعنونو في طريقه للصلاة في كاتدرائية القديس جورج الأنغليكانية في القدس، تحوّل مائير داغان نحو أمور أكثر أهمية. ورغم أن فعنونو أصبح حراً، إلا أن ذلك لا يعني أنه أصبح بعيداً عن قبضة الموساد.

مثل ملايين الأشخاص الآخرين، شاهدت سندي، عميلة الموساد التي لعبت دوراً مركـــزياً في القبض على فعنونو سنة 1986، أنباء إطلاق سراحه على شاشة التلفاز. كانـــت تعـــرف أنها ما تزال بطلة في عيون الكثير من الإسرائيليين، وشخصاً استخدم دهـــاءه لنصب مكيدة جنسية تقليدية. كانت بالنسبة لآخرين ماتا هاري، الغاوية الماكرة التـــي دمّـــرت حياة رجل مثالي كان يشعر بأنه مدفوع بقضية أسمى في تحقيق السلام العالمي.

لكـــن لم يكن لدى سندي (الاسم المستعار الذي استخدمته لصالح الموساد) الكثير

لتقوله علانية بعد أن شاهدت خروج فعنونو من السجن. قالت سندي للمؤلف: "هذا كله من الماضي. لقد قمت بعملي، وانتهت القصة". فيما كان فعنونو يقضي سنواته الطويلة فـــي السـجن، ويتعايش مع ما قام به ويقول دائماً "لقد فعلت الصواب"، حاولت سندي دون شك التعايش أيضاً مع ما قامت به.

تعيش سندي اليوم في منـــزل مكلف بجانب ملعب للغولف على بعد عشرين ميلاً خـــارج أورلانـــدو. وتـبدو بصـــحة جيدة بالنسبة إلى عمرها، ويساعد لون شعرها ومهـــارات مصففها على إخفاء تأثيرات شمس فلوريدا. تفضّل تلك السيدة التي لوّحتها الشـــمس ارتـــداء ملابـــس فضفاضة لإخفاء ملامح بدايات منتصف العمر. وأصبحت ابنـــتاها الآن مراهقتيـــن تذهبان إلى مدرسة خاصة مكلفة، ولا تتحدثان أبداً – علانية على الأقل – حول ماضي أمهما. لكن الأصدقاء في ملعب الغولف حيث تستمتع سندي بتناول الغداء يقولون إن لديها خوفاً حقيقياً من مجيء فعنونو أو أحد مناصريه لإيذائها.

أنكـــر فعنونو أي نية له بفعل ذلك. وقال: "بالنسبة لي ليست سوى شيء مضى. كنـــت شاباً ووحيداً، وكانت موجودة هناك. لقد وثقت بها"، وهذا يشرح الغلطة القاتلة التـــي ســـمحت لها بإغوائه بالذهاب إلى روما لممارسة الجنس معه، ووجد نفسه في قبضة الموساد عوضاً عن ذلك.

في سنة 2004، كانت سندي – تعيش في أورلاندو تحت اسم شيرل حنين بنتوف – تعمـــل فـــي العقارات مع زوجها ريكي حنين، وأمها التي تعيش قربها، وهم جميعاً أعضـــاء فـــاعلون في مجتمعهم اليهودي. ادّعت صحيفة يديعوت أحرنوت الإسرائيلية بأنها: "غادرت إسرائيل للهروب من وسائل الإعلام والأشخاص الذين نقّبوا في حياتها، وهـــو مـــا أزعجهـــا كثـــيراً. كانـــت خائفة من الصحفيين الذين يأتون إلى منـــزلها ويطـــرحون الأســـئلة، وشعرت بالحاجة للابتعاد. أرادت شيرل شيئاً واحداً فقط: حياة عاديـــة هادئـــة. كانـــت أعصابها ما تزال متوترة أثناء محاولتها دفن الماضي، وحتى الأقـــرباء الذين تكلموا عنها وجدوا أنفسهم بعيدين عن العائلة. إنها تتحرك بحذر شديد يحكمه جنون الارتياب". إذا كان هذا صحيحاً، سيكون ثمناً مرتفعاً تدفعه عملية إغواء الموساد الشهيرة.

كان هناك تقرير على مكتب مائير داغان من القنصلية في نيويورك بأنه لا حاجة للقلـــق بعد الآن من تقرير تلفزيون CBS الوثائقي حول موت الأميرة ديانا. كان دور الموســـاد بأكمله ما يزال طي الكتمان ويبدو أنه سيبقى كذلك في المستقبل المنظور. تم حفـــظ التقرير الوثائقي (الذي ساعد جزءاً من القصة على الظهور في هذا الكتاب) في

أرشيف الموساد مع تحذير مكتوب على العلبة: "لا يسمح بفتحه دون أمر مسبق مكتوب من المدير العام".

كان هناك تقرير آخر يثير اهتمام داغان بشكل أكبر بكثير من السفارة في واشنطن بأن إدارة بوش - مثل سابقتها - تستعد لمنع إطلاق سراح شخص آخر بنفس خطورة فعنونو على إسرائيل. كان جوناثان بولارد يقضي حكماً بالسجن مدى الحياة في سجن يخضع لإجراءات أمنية مشدّدة في بلمر في كارولاينا الشمالية، والذي وجدته المحكمة مذنباً بالخيانة العظمى الكبرى في تاريخ الولايات المتحدة، ويقضي الحكم بحق بولارد، على عكس فعنونو، بأن يموت في السجن.

كان داغان يعرف أن سبب هذا الحكم القاسي يعود إلى الشهادة الخطّية التي يبلغ عدد صفحاتها 64 لوزير الدفاع وقتها كاسبار واينبرغر في محاكمة بولارد. كانت الشهادة سرية للغاية، ولم تنشر علانية أبداً. لقد قوبلت كل محاولة للقيام بذلك بممانعة المدعيين العامين الاتحاديين في محاكم واشنطن المتنوعة. في نيسان سنة 2004، كانت الشهادة الخطية ما تزال تخضع لتصنيف "معلومات حساسة محجورة باللغة السرية" (SCI). ويتم وضع هذا التقييد لحماية البيانات الأكثر حساسية في مجتمع الاستخبارات الأميركي.

يعتقد داغان بأن تلك الشهادة تحتوي على تفاصيل حاسمة حول كيفية تطوير برنامج بروميس - ابتكرته شركة إنسلو للحواسب في واشنطن وسرقه الموساد لاحقاً - ليلائم الأنظمة الدفاعية على متن الغواصات النووية الأميركية. كانت القدرة الناتجة عن ذلك النظام معروفة باسم *دقة ما وراء الأفق*، وهي تسمح للغواصة بضرب أهداف بعيدة للغاية ضمن الاتحاد السوفياتي آنذاك والصين. يستطيع برنامج بروميس استخدام التفاصيل الموجودة حول هدف ما إلى جانب المعلومات الفيزيائية والرياضية المتطورة اللازمة لضمان إصابة مباشرة من مسافات بعيدة.

كان داغان يخشى أيضاً أن تحتوي الشهادة الخطية على شرح للطريقة التي تمكنت بها إسرائيل من تطوير نسختها الخاصة من برنامج *دقة ما وراء الأفق* لتستخدمها على الغواصات النووية الألمانية الصنع التي اشترتها، بناءً على ما سرقه بولارد. وشكّ داغان أيضاً بأن الشهادة تحتوي على تفاصيل حول مواقع التنصت الاستخباراتي الأميركية - البريطانية المشتركة في قبرص والشرق الأوسط، والتي فضحها بولارد، وأن تشرح كيف كشف بولارد أيضاً عمليات CIA-M16 في الاتحاد السوفياتي وألمانيا الشرقية سابقاً.

رغم أن ذلك قاد إلى تغيير كبير في الاستخبارات الأميركية، إلا أن البيانات في شهادة واينبرغر كانت ما تزال بالغة الحساسية بحيث يمكن أن يؤدي الكشف عنها إلى تقديم معلومات قيّمة إلى أجهزة استخبارات أجنبية؛ بما فيها الموساد.

كان بولارد مهماً جداً لإسرائيل بحيث أرسل داغان أحد محامي الموساد لحضور أول ظهـور علنـي له منذ تلقّيه الحكم بالسجن مدى الحياة. وتم عرض القضية في محكمة مقاطعة واشنطن في أيلول سنة 2003. وكان بولارد يبدو أكبر سناً من عمره الحقيقـي البالغ سبع وأربعين سنة، كان جلده شاحباً، ويلقي نظرات خاطفة حوله في المحكمـة المـزدحمة، وكان يضع نظارات معدنية الإطار وقبعة مثقّبة وقميص سجن أخضـر. لقد غزا الشيب لحيته البنية وطال شعره بحيث وصل إلى كتفيه؛ مما أكسبه مظهـر رسـل العهـد القديـم. ازدحم حوالى أربعين من أقاربه ومناصريه في قاعة المحكمة الصغيرة. وكان هناك عدّة حاخامات، من بينهم حاخام إسرائيل الأكبر السابق مردوخاي إيلاهو وزوجته إيستر ووالداه بين الحضور أيضاً، وتابع بولارد المناقشات القانونـية عن كثب، وجلس محامي الموساد، وهو رجل نحيل في منتصف العمر، في آخر القاعة يسجل ملاحظاته بالعبرية.

كانت العقدة في قضية بولارد هي السماح له باستئناف حكمه نظراً لفشل محاميه عـندها ريتشارد هيني في إعداد ملف الاستئناف عندما طلب الادعاء العام من قاضي المحكمـة أوبري روبنسون السجن مدى الحياة دون إمكانية إطلاق السراح بعد "إغراء بـولارد بالاعتراف بذنبه مقابل عدم طلب الولاية الحكم عليه بالإعدام". وتركّز نقاش آخـر حول الادعاء بأن فريق دفاع بولارد عندها لم يستطع الحصول على نسخة من شهادة واينبرغر الخطية "لأنهم لم يحصلوا على الإذن الأمني المطلوب". وأخبر محامو بولارد الجدد بأنهم أيضاً "يسعون لإصدار عفو أو تخفيف الحكم" من إدارة بوش. كان ذلـك الجـزء مـن الـنقاش "مستنداً على حقوق بولارد كمواطن أميركي أمام النظام القضائي".

خـلال السنوات، عقد محامو بولارد اجتماعات مع رؤساء الوزراء الإسرائيليين بنيامين نتنياهو، وإيهود باراك، وأرييل شارون. كما التقوا أيضاً رؤساء الموساد نعوم أدمونـي، وشابتي شافيت، وداني ياتوم، وإفرايم هالفي، ومائير داغان؛ الأخير بينهم. كانـت هناك حملة منسّقة في إسرائيل لإمطار السفارة الأميركية بالرسائل التي تطالب بحـرية بولارد. سافر أبرز المحامون اليهود من إسرائيل للقاء نظرائهم في الولايات المـتحدة لوضع خطط الإجراءات القانونية التالية. ولم يحظَ أي متهم بمثل هذا الدعم

القوي من قبل. وفي كل فرصة متاحة، حارب اللوبي اليهودي القوي في واشنطن بلا هوادة.

استمر "مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية"، وهو اتحاد من خمس وخمسين جماعة، طوال سنة 2004 بالقول إن ما قام به بولارد لا يمكن دعوته خيانة "لأن إسرائيل كانت وستبقى حليفاً مقرّباً"، وجاءت ضغوط أخرى من منظمات دينية يهودية عديدة، وكان أكثرها صخباً *اتحاد المحافل الأميركية*. قال أستاذ القانون في جامعة هارفارد ألان م. ديرشوفيتز، والذي كان أحد محامي بولارد: "لا يوجد شيء في ذهن بولارد يوحي بأنه عرّض قدرات البلاد في جمع المعلومات الاستخباراتية للخطر أو كشف بيانات استخباراتية على مستوى العالم".

لكن لا يزال أمام بولارد خصم قوي: جورج تينت، مدير CIA. والذي قال سنة 1998 إنه سيستقيل إذا تم إطلاق سراح بولارد، وما يزال ذلك موقفه في سنة 2004. قال تيد غوندرسون، عميل FBI البارز عند اعتقال بولارد: "سرق بولارد كل سر استخباراتي مهم لدينا، وما زلنا نحاول التعافي مما فعله. كان علينا سحب عشرات العملاء من الميدان في الاتحاد السوفياتي السابق، والشرق الأوسط، وجنوب أفريقيا وبلاد صديقة مثل بريطانيا، وفرنسا وألمانيا. إن الشعب الأميركي لا يعرف مدى حجم الضرر الذي تسبّب به".

في السجن، طلّق بولارد زوجته الأولى آن (التي تلقّت حكماً بالسجن خمس سنوات لاشتراكها في الجريمة)، وتحوّل إلى اليهودية الأرثوذكسية. في سنة 1994، تزوّج في السجن بمعلّمة من أورلاندو تدعى إيلين زيتز والتي أصبحت منذ ذلك الوقت رأس الحربة في الحملة لإطلاق سراح زوجها. في نيسان سنة 2004، كرّرت نفس الموضوع الرئيسي: "قضية جوناثان تهم كل يهودي، وكل مواطن ملتزم بالقانون. المسألة أكبر من جوناثان ومني. نحن نكتب صفحة في التاريخ اليهودي".

ظهر دليل على ما هو مكتوب في تلك الصفحة على السطح. عارض آري بن – ميناش، المستشار السابق لشؤون الاستخبارات لدى الحكومة الإسرائيلية والذي يحمل الآن الجنسية الكندية ويدير شركة استشارات سياسية في مونريال، بقوة حصول بولارد على حريته. قال بن – ميناش: "لا يزال هناك سؤال فيما إذا سلم بولارد نسخة مما سرقه إلى الصين أيضاً. معظم ما يعرفه بولارد ما زال في رأسه. ولا يفقد رجل مثل بولارد لمسته لأنه محتجز".

لكن في نيسان سنة 2004، علم مائير داغان أن لاري ثومبسون، نائب المدعي

العـــام الأميركي، قد قال إنه يجب النظر إلى حرية بولارد في سياق "الصورة الكبيرة" للشـــرق الأوســـط. كانت تلك وجهة نظر لم تمر دون أن يلاحظها مناصرو بولارد. مؤخـــراً، وقّـــع 112 مـــن أصل 120 عضواً في الكنيست - البرلمان الإسرائيلي - عريضـــة تطالـــب "بإطلاق سراح بولارد لأسباب إنسانية. وأشارت العريضة إلى أن واشنطن تتعامل بمعايير مزدوجة وتطلق سراح معتقلين فلسطينيين خطيرين فيما يبقى بولارد سجيناً".

تـــم مـــنح بـــولارد الجنسية الإسرائيلية سنة 1996 لتتمكن حكومة تل أبيب من ممارســـة ضـــغط إضـــافي لإطـــلاق سراحه. بعد سنتين، تم التوقيع على اتفاقية بين إســـرائيل ومـــنظمة الـــتحرير الفلســـطينية بـــرعاية أميركية، وحاول رئيس الوزراء الإســـرائيلي حيـــنها بنياميـــن نتنياهو ربط المعاهدة بإطلاق سراح بولارد. وعارض الرئيس كلينتون ذلك بحزم مما اضطر إسرائيل للتراجع.

ربمـــا يكـــون البـــيان الذي أدلى به بيل هاملتون، رئيس أنسلو - الشركة التي طـــوّرت بـــرنامج بروميس - يشكل عائقاً أمام أي حركة جديدة لحصول بولارد على حريته: "كان يجب على القاضي هوغان أن يدرك أيضاً أن مكتب FBI في نيومكسيكو قـــام بتحقيق حول مكافحة التجسس الأجنبي يتناول روبرت مكسويل سنة 1984 لبيعه برومـــيس فـــي نيومكسيكو، وهي مقر جهازي الاستخبارات الأميركيين حول الحرب الـــنووية فـــي مختـــبرات "سانديا" و"لوس ألاموس" القومية. ورغم أن الحكومة نقّحت النســـخة التـــي حصـــلت علـــيها أنسلو من تقرير تحقيقات FBI بموجب "قانون حرية المعلومـــات" لأســـباب تتعلق بالأمن القومي، إلا أن النص كان يحتوي على اكتشافات تضمّنها تحقيق FBI واعتمدت على شكوى من عاملين في "مختبر سانديا القومي".

يقول إندرسون إن ادعاءات هاملتون تحتوي على "الحقائق الأساسية التي ستضع مســـألة بـــولارد في سياقها الصحيح". وسوف تلقي الضوء أيضاً على آخر نشاطات رافي ايتان.

بحلـــول نيســـان ســـنة 2004، قـــام مدير استخبارات إسرائيل الأسطوري بعدّة رحـــلات سرية إلى الولايات المتحدة. وأقرّ عملاء FBI الذي تعقّبوه بأنهم غير قادرين علـــى استجواب إيتان، الذي كان المشرف على جوناثان بولارد، لأنه يسافر باستخدام جـــواز ســـفر دبلوماسي إسرائيلي. كانت زياراته للإشراف على حشد آلاف السيانيم (كلمـــة عـــبرية تعنـــي "المساعدة") الذين تلقّى العديد منهم تدريباً على السلاح خلال خدمـــتهم العسكرية. عمل آخرون في الاستخبارات العسكرية الأميركية. كان بعضهم

وقـتها لا يـزال يعمل في الشرطة عبر البلاد. وشرح لهم إيتان كيفية تحديث أنظمة الحمايـة للمصـارف اليهودية، والكُنس، والمدارس الدينية، والمؤسسات الأخرى التي يملكها اليهود.

قال مير عميت، الرئيس الأسبق للموساد: "رغم أنه لا يمكن الشك بولائهم لبلدهم الـذي ولدوا فيه، كان كل سايان يدين بولاء أكبر: الولاء الروحي لإسرائيل والحاجة لحمايـتها مـن أعدائهـا". ساهم عميت في إنشاء قوة سيانيم السرية، والمعروفة في إسـرائيل *بالجـيش الخفي*، والذي يقوم ضباط استخبارات الموساد أو الكاستا بتدريب أعضائه قبل تجنيدهم لحماية مصالح إسرائيل الكثيرة في الولايات المتحدة. لكن وزارة الأمن الداخلي وFBI لا يثقان بقدرة تلك القوات على حماية تلك المصالح.

سـافر إيـتان خـلال رحلاته بصفة "مستشار الأمن ومكافحة الإرهاب" لرئيس وزراء إسـرائيل أرييل شارون الذي كان صديقه منذ وقت طويل. في بداية سنة 2004، زار إيـتان منطقة لوس ألاموس موطن تقانة البلاد النووية المتقدمة. وفي سنة 1985، استطاع بيع مختبرات سانديا في لوس ألاموس نسخة من برنامج بروميس الإسرائيلي. مكّنـت "القـناة الخلفية" في البرنامج إسرائيل من الإطلاع على عمل سانديا في تزويد الغواصات النووية الأميركية بأحدث تقنيات الحاسوب المتطورة. وقدّم بولارد تفاصيل إضافية، والتي تتضمنها شهادة كاسبار واينبرغر السرية لغاية الآن.

بحلـول نيسـان سنة 2004، كان السيانيم على أهبّة الاستعداد، ولم يخفِ إيتان دورهم. أكّد (للمؤلف) في اقتباس عن مير عميت: "يقوم السيانيم بالكثير من الوظائف. سـايان سيارات يدير شركة تأجير، ويخبر عن أي شخص مشبوه يستأجر منه سيارة. ويقـدّم الوسـيط العقـاري معلومات مشابهة حول أي شخص يسعى لاستئجار شقة. ويجمـع السـيانيم أيضـاً معلومات تقنية وكل أنواع البيانات العلنية. شائعة في حفلة كوكتيل، وخبر عبر الإذاعة، ومقال في صحيفة وقصة يسمعها في حفلة عشاء".

كـان سـايان في فونيكس بولاية كاليفورنيا قد اكتشف في ربيع سنة 2004 أن الشخصـية الأسـوأ سـمعةً فـي تـاريخ الكنيسـة الكاثوليكية، رئيس الأساقفة بول مارسـينكوس، قـد تعهّد بعدم الكشف عمّا يعرفه حول دور الموساد في اختفاء 200 ملـيون دولار أميركي. كان مصرف الفاتيكان قد أرسلها إلى حركة التضامن البولندية عندما كان مارسينكوس رئيساً له.

فـي بداية ثمانينيات القرن العشرين، كان مارسينكوس متورطاً في فضائح مالية كبيرة، وبقائمة مذهلة أخرى من الجرائم بما فيها "التورّط في تهريب الأسلحة، وتسهيل

مـــرور الذهـــب المسروق، وتزييف العملات والتجارة في المواد المشعّة" وفقاً للائحة الاتهامات التي قدّمها المدّعي العام في روما سنة 1989. كانت الاتهامات ما تزال قيد التحقـــيق في نيسان سنة 2004. لم يستجوب مارسينكوس أو يعتقل أبداً. سمح له البابا يوحـــنا بولـــس الثاني بالبقاء في الفاتيكان بحيث يكون تحت حصانة سيد المدينة التي منحها بينيتو موسوليني للحبر الأعظم سنة 1929.

فـــي إحـــدى الليالي – يبقى تاريخها الدقيق ضمن أسرار الفاتيكان الكثيرة – تم إخراج مارسينكوس بسرعة من الفاتيكان في سيارة تحمل لوحات دبلوماسية. في اليوم التالـــي وصـــل إلى شيكاغو، من هناك سافر إلى مدينة صن في فونيكس. كان يعيش بالقـــرب مـــنه شخصـــية مثيرة أخرى هي أوستروفسكي. كان ضابط الموساد السابق كاشف أسرار. مثل آري بن – ميناش، كشف أوستروفسكي الكثير من أسرار الموساد فـــي المقـــابلات الصحفية معـــه. كان كلا الرجلين ما زالا يعيشان حياة مريحة سنة 2004. لكـــن مارســـينكوس، فـــي الثمانيـــن من عمره، يعيش أواخر سنين حياته في منـــزل إسمنتي متواضع مطلي باللون الأبيض بالقرب من نادي ريفي في مدينة صن، وبخلاف عميلي الموساد السابقين، حافظ مارسينكوس على الصمت عندما كان معروفاً بمصرفي الفاتيكان وحافظ أسرار البابوات؛ بولس الرابع، ويوحنا بولس الأول وخليفته يوحنا بولس الثاني. كان البابا البولندي، الحبر الأعظم للعالم الكاثوليكي، الرجل الوحيد إضـــافة إلـــى مارسينكوس الذي يستطيع الإجابة عن السؤال: ما هو دور الموساد في اختفاء 200 مليون دولار أميركي؟

يمكن القول بثقة إن السر بدأ عندما وصلت سيارة ليموزين أخرى إلى الفاتيكان. وحوالـــي منتصف الليل، توقفت الليموزين الزرقاء التي تحمل لوحات ديلوماسية أمام الـــبوابة الحديدية المزخرفة قبل قوس الأجراس، وهي البوابة إلى القصر الرسولي في الفاتـــيكان. كانت تلك فاتحة لسلسلة من الأحداث التي أرخت بظلالها لغاية اليوم على بابوية يوحنا بولس، وفيما ينتظر مارسينكوس حتفه الآن، ما تزال الأجوبة عن الأسئلة التي ستشكل الحكم النهائي على دوره الطويل تؤرق كل أولئك الذين يهتمون بالكنيسة وما يجري باسمها.

هـــل ســـمح الـــبابا لنفســـه بالخروج عن معاييره الأخلاقية الشخصية لمساعدة *التضامن* بسبب شغفه والتزامه الثابت ببولندا؟ هل كان ببساطة بريئاً وضحية غافلة بما كان سينكشف عندما دخلت تلك الليموزين إلى الفاتيكان؟

فـــي رأي ديفـــيد يـــالوب، المحقق المالي الإنكليزي المعروف والخبير في عالم

الفاتيكان المالي السري، سمح يوحنا بولس لبابويته بأن "تصبح جنّة للصوص المال العالميين الدُهاة. وأعطى البابا أيضاً مباركته لإرسال كميات كبيرة من الدولارات الأميركية سراً وبشكل غير قانوني إلى *التضامن*".

قال كريستوفر ستوري، رئيس تحرير إنترناشونال كارنسي ريفيو، مجلة عالم الصيرفة، عن القضية إنها: "إحدى أكبر أسرار الثقب الأسود في الصيرفة المعاصرة".

الشيء المؤكد أنه في تلك الليلة من نيسان سنة 1983 عندما تقدّم الحرّاس السويسريون الذين يرتدون ملابس يعود طرازها لعصر النهضة للأمام لتحية راكب الفيات، كانت تلك البداية لسلسلة من الأحداث المذهلة. بدأت في وقت دعاه يوحنا بولس: "فترة مظلمة للغاية من تاريخ العالم". قبل سنتين، حاولت KGB – عبر بديلها الاستخبارات البلغارية السرية – اغتياله في ساحة القديس بطرس. ولإبعاد الشبهات عن نفسه، سمح الموساد لمسلم متعصب هو محمد علي آغا بتنفيذ المحاولة. ولغاية يومنا هذا، ما زال البابا يعاني من الشظية التي ما زالت في جسده. لكن عداؤه للشيوعية قاد إلى إنشاء حركة *التضامن* في بولندا، وفي واشنطن، وصف الرئيس رونالد ريغان ولادتها بأنها "إلهام للعالم الحر، ويجب أن ندعمها".

بقيت طريقة دعم تلك الحركة سراً. ويمكن الآن سرد القصة غير الطبيعية والغريبة حول كيف استطاعت CIA بالتعاون مع مصرف الفاتيكان تدبير مبلغ 200 مليون دولار كرأسمال سري *للتضامن*. في سنة 1983، كانت CIA تحتفظ بمبالغ مالية من أموال الممنوعات لتنفيذ "عمليات سوداء سرية" في كل أنحاء العالم.

كان ريتشارد برنك، وهو رجل لطيف يتكلم بحذر بأسلوب المحاسبين المقتصد، عميل CIA المسؤول عن الأموال السرية في الوكالة لمثل تلك العمليات. كان يعمل ست عشرة ساعة في اليوم، وينقل الأموال السرية من وإلى المصارف السويسرية مثل مصرف الاعتماد في جنيف، ويجعلها تدور في تحويلات معقّدة عبر مصارف العالم. وبتفويض كامل من مدير CIA ويليام كيسي، بدأ برنك باستخدام مصرف الفاتيكان لتبييض الأموال. قدّم كيسي برنك إلى الأسقف بول مارسينكوس. وقام برنك منذ ذلك الحين بعدد من الزيارات إلى مكتب مارسينكوس في البرج الذي يعود للقرن السابع عشر داخل جدران الفاتيكان. يتذكّر برنك: "تم تبييض 400 مليون دولار أميركي في يوم واحد". وجاء قسم كبير من الأموال من عمليات CIA البالغة السرية.

قال ديفيد يالوب (للمؤلف): "مثل أجهزة الاستخبارات الأخرى، أنشأت CIA علاقات سرية مع المافيا. كان لدى CIA، مثل الفاتيكان، خوف حقيقي من وقوع

إيطاليا في أيدي الشيوعيين. كانت CIA ترى المافيا كمتراس ضد حدوث ذلك. اعتمدت CIA لاحقاً سياسة تقول إنه يجب غض النظر عن نشاطات المافيا في إيطاليا إذا ساعدت في ضمان عدم وقوع إيطاليا العضو في الناتو في أيدي موسكو".

بحلول سنة 1983، وسّعت CIA من علاقاتها السرية بالجريمة العالمية لتتضمن تسليح إيران وثوار نيكاراغوا، وقال برنك: "كانت الوكالة تستخدم أموال الأسلحة التي يتم بيعها إلى إيران لشراء الممنوعات في أميركا الجنوبية. وكان يتم شحن الكوكايين إلى الولايات المتحدة وبيعه إلى المافيا. كان يتم استخدام الأموال بعدها في شراء أسلحة للثوار في نيكاراغوا. أخبرت دون غريغ مستشار الأمن القومي للرئيس ريغان بأن الأمر خرج عن السيطرة، وطلب مني نسيان الأمر". قال برنك إنه قام حينها بتبييض 10 مليارات دولار أميركي، وجاء قسم كبير من ذلك المال من عائلة المافيا غوتي في نيويورك. كانت عائلة غوتي، مثل عائلات غامبينو وكولومبو الإجرامية، كاثوليكية ملتزمة. لاحظ عملاء FBI أن رؤساء العائلات يقدّمون منحاً سخية للكنيسة. وتباهى زعيم مافيا آخر، هو سلفاتور *"المحظوظ"* لوسيانو بزيارة الفاتيكان قبل وفاته.

قال يالوب: "بحلول سنة 1983، كانت المافيا تستخدم مصرف الفاتيكان بشكل اعتيادي لتحويل الأموال من وإلى إيطاليا. جاءت الأموال من الممنوعات، والدعارة، ومجموعة من الجرائم الأخرى التي أدانها الفاتيكان رسمياً".

هل جاء مبلغ 200 مليون دولار أميركي الذي تلقّته *التضامن* من المافيا؟ لم تظهر الإجابة على هذا السؤال وغيره سوى لاحقاً بعد مرور إحدى وعشرين سنة على دخول الليموزين الفيات عبر بوابة قوس الأجراس.

كان لويجي بوغي رئيس الأساقفة الراكب الوحيد في السيارة التي دخلت الفاتيكان ليلة نيسان سنة 1983. كان مبعوث البابا الدبلوماسي للتعامل مع الأزمات، وسفيراً بابوياً فوق العادة، وشخصية فاعلة في عالم السياسات البابوية البالغة السرية. يوجد في حقيبته أرقام الهواتف المباشرة لمدير CIA كيسي – كاثوليكي ورع أيضاً – ولش فاليسا رئيس نقابة *التضامن* البولندية، ووزراء خارجية ستة بلدان أوروبية. كان الرقم الأخير الذي وضعه على قائمته، ذلك الخاص بنعوم أدموني، الذي كان حينها مدير عام الموساد. التقى رئيس الأساقفة ورئيس الاستخبارات في باريس بعد انتهاء رحلة بوغي الأخيرة في أوروبا. كان بوغي يعرف حول خلفية أدموني البولندية – هاجر والداه إلى إسرائيل من غدانسك – وكان لدى رئيس الاستخبارات أكثر من مجرد فضول عابر تجاه الكنيسة.

فـــي وارســـو، تباحث بوغي كالعادة مع الكاردينال جوزيف غليمب في قصره، وتحدثـا في غرفة مطلية بالرصاص للتغلب على رقابة أجهزة الاستخبارات البولندية. رغـم ذلـك، تحـدّث الرجلان باللاتينية. قدّم أدموني، الذي يعيش حالياً في الولايات المتحدة، دليلاً على ما جرى في ذلك الاجتماع.

"ســرعان ما عرفت أن الفاتيكان سيساعد *التضامن*، واعتقدت أنهم سيفعلون ذلك عـبر مكتب *التضامن* في بروكسل، وهو سفارة غير رسمية. كان جيرزي مايلفسكي اليهودي البولندي، الذي يجيد طرق الأبواب المغلقة لتفتح، الممول الرئيسي".

يؤكد بوريس سولوماتن، مدير محطة KGB في روما: "كنا نعرف بأمر التحالف الســري بيــن CIA والفاتــيكان لدعم *التضامن*". ويقول سولوماتن إن KGB كان لها "جاســوس مهم في الفاتيكان"، ورغم أن هذا الأمر مشكوك فيه، إلا أنه لا يمكن إنكاره بشــكل كامل. قال غيتانو إليراندي، السفير البابوي في أيرلندا، والذي أصبح فيما بعد رئيساً للأساقفة، في مقابلة (مع المؤلف) بعد محاولة اغتيال البابا في أيار سنة 1981: "كان يبدو أن السوفيات لديهم معلومات داخلية حول موقف الحبر الأعظم في الشؤون الخارجية".

فـــي تلك الأمسية من نيسان سنة 1983، وفي وقت متأخر تماماً، كان أمين سر البابا ستانسلو دزفيسز ومارسينكوس ينتظران اللقاء مع بوغي. كان البابا يوحنا بولس الثانـــي قد عيّن مارسينكوس مؤخراً محافظاً لمدينة الفاتيكان. وكان مسؤولاً أيضاً عن أمن رحلات الحبر الأعظم الخارجية.

قــدّم سكرتير البابا السابق للغة الإنكليزية المونسينور جون ماجي، والذي أصبح آنذاك أسقف كلونــز في أيرلندا، فهماً نادراً لشخصية بوغي: "كان مشبعاً بثقة راسخة حول قدراته، وحول مهمته في الحياة وعلاقته مع الله".

لــدى جلوســهم في مكتب دزفيسز في أمانة السر البابوية في القصر الرسولي، أخــبرهم بوغـــي أن ســفير الولايات المتحدة السابق إلى بولندا، فرانسيس ج. ميهان المعســول الكــلام، قال إن إدارة ريغان ستعمل على تحويل 200 مليون دولار لدعم *التضــامن*. وجــاءت الأنباء عند نهاية الزيارة الثالثة والثلاثين التي قام بها بوغي إلى وارســو فـــي الســنتين الماضيتين. كان ينــزل في كل مرة لدى الكاردينال جوزيف غليمــب، كبــير أســاقفة بولندا، ويخفي نفسه في الغرفة المطلية بالرصاص ويتحدث باللاتينــية. لــم يشــكل ذلــك أي فــرق. كان الموساد، جهاز الاستخبارات السرية الإســرائيلي، قــد نفّذ عملية ناجحة قبل شهرين فقط من حديث بوغي مع مارسينكوس

ودزفيسز.

خطــط لــتلك العملية نعوم أدموني، رئيس الاستخبارات الذي تناول العشاء مع بوغي في باريس وناقش معه شؤون الكنيسة. ثم قام رافي ايتان مدير عمليات الموساد بإجــراء محادثــات ناجحة مع وزارة العدل الأميركية ومطوري البرنامج الذي تفوق علــى كــل مــا عداه في الترسانة الإلكترونية للحصول على نسخة. كان ذلك برنامج بروميس.

عبر السنين، سيتحدث بيل هاملتون رئيس إنسلو عن رافي ايتان والطريقة الهادئة التــي سرق بها بروميس: "خدعني رافي. وخدع الكثيرين أيضاً". اعترف إيتان الذي بلــغ السبعينات من عمره الآن (للمؤلف سنة 2004): "كانت تلك ضربة ناجحة تماماً. نعم، ضربة ناجحة".

أعــاد الإسرائيليون بناء بروميس وأدخلوا بوابة خلفية في البرنامج. وحثّ إيتان د. جــيرزي مايلفســكي، الــيهودي البولــندي النشيط والمسؤول عن جمع التبرعات *للتضــامن*، أثــناء زيــارة له إلــى بروكســل على قبول البرنامج المعدّل "كهدية من إسرائيل". وأصبح الموساد أول جهاز استخبارات يخترق قلب وروح *التضامن*.

ولد بول مارسينكوس وترعرع في سيسرو – ضاحية قرب شيكاغو كانت مسقط رأس آل كــابون أيضــاً – واكتسب الكثير من أساليب العصابات، وخصوصاً طريقة ترهيــب المخبريــن فــي مصــرف الفاتــيكان أو تهديــد أي رئيس أساقفة. استمتع مارسينكوس أيضاً بأن يكون على ما دعاها "قائمة موسكو للعشرة المطلوبين. وإضافة إلــى البابا، كنت الرجل الذي أرادوا التخلص منه". ولكن بالنسبة لمصرفي الفاتيكان، كــان لديــه زبائن غير اعتياديين: كازينو مونتي كارلو، شركة *بيرتا* لتصنيع الأسلحة وشــركة كندية تصنّع حبوب منع الحمل. ومنذ اليوم الذي تولّى فيه رئاسة المصرف، زاد مارسينكوس استثماراته بشكل فاق كل التوقعات. وبحلول سنة 1983، وفي الليلة التــي اســتمع فيها لبوغي، كانت موجودات المصرف الكلية تساوي عشرات مليارات الدولارات. وقال مارسينكوس مرة لجون ماجي: "هذا كسب غير مشروع فعلاً".

رحّب مارسينكوس بانضمام CIA كزبون، واستضاف كيسي وبرنك على العشاء فــي "فيلا سريتش" حيث يمتلك المصرفي شقة فيها ثلاث غرف نوم. وفيما كان يقوم علــى خدمتهم شباب كاثوليكيون وسيمون – كان مارسينكوس يشير إلى الشباب بأنهم حرّاســه الشخصــيون – علــم رئيس الأساقفة الطويل والبدين كيف سيكون مصرف الفاتــيكان قــناة لتحويل 200 مليون دولار إلى *التضامن*. وفي وقت آخر، وفيما كان

يلعـب مـع ضيفيه جولة من الغولف في أكواستينا - أفخم نوادي الغولف في روما، والذي منح مارسينكوس العضوية - تم وضع التفاصيل النهائية.

ستغادر الأمـوال أميركا من عدد من الحسابات التي سيكون من بينها مصرف أميركا ومصـرف المدينة. واستنبط برنك رموزاً خاصة لكل تلك التحويلات والتي كانت تتغيّر بانتظام. ولم يكن أي من تلك التحويلات يبقى في حساباته أكثر من اثنتين وسبعين ساعة. وستدخل أموال *التضامن* مصرف الفاتيكان من مصرف بنما الوطني، ومصـرف ستاندار فـي جنوب أفريقيا، وكوتس أو مصرف الملكة في لندن. وسيتم تحويـل الأموال بعد ذلك إلى مصرف لامبرت في بروكسل. وكان برونك يدعو ذلك النظام SOP؛ إجـراء عملـي قياسي. وتم تصميمه في جزء منه للتعامل مع ما دعاه كيسي: "مشكلة صغيرة".

كانـت *التضامن* قلقة حول ما إذا أصبح معلوماً أنها تتلقى مساعدة مالية ضخمة مـن واشنطن لأن ذلك قد يقود إلى قيام نظام جارزلسكي بحل الحركة، وحتى اعتقال قادتها. ولكن تلك السرية ستقود لاحقاً إلى نـزاع علني بين الأستاذ ريتشارد بايبز أحد مستشـاري الرئـيس ريغـان الأساسيين، وزبغنيف برجنسكي مستشار الأمن القومي للرئيس جيمي كارتر.

يقـال إن بايـبز ادّعـى بأنه يعرف جيداً بأنه يتم تحويل مبالغ مالية ضخمة إلى *التضـامن* عـبر عـدّة حسابات عائدة لـ CIA. وهناك تقارير تقول بأن بايبز تحدّى برجنسكي بأن الأموال لم تصل أبداً إلى *التضامن*؛ إذاً إلى أين ذهبت؟ كان ذلك سؤالاً لم يجب عنه برجنسكي عندها، ولغاية الآن.

في أحسن الأحوال، ذهب جزء صغير من النقد الأجنبي - الذي كانت *التضامن* تحـتاجه بسرعة لتدفع لأعضائها أجراً أسبوعياً أثناء إضرابهم عن العمل - إلى مقر *التضـامن* فـي بروكسل. وأصبحت إليزابيث وازنتسكي، التي خدم والداها في NSZ وهـي جزء من المقاومة البولندية، رئيسة لمكتب بروكسل. وأصرّت على أن الأموال المخصصـة *للتضـامن* جاءت من منظمات نقابات التجارة العالمية، و*المنحة الوطنية للديموقراطـية*. وجـاءت مبالغ أخرى لاحقاً عبر منظمة تدعى *مجموعة ستانتون* في الولايات المتحدة، وتبرع بها دافعو الضرائب الأميركيون.

قالت: "لم نتلقَ ما يزيد عن مئتي ألف دولار سنوياً. ولم يكن هناك مبالغ أكبر أو أصـغر من المال، على حدّ علمي، تتلقاها قيادة *التضامن* من CIA. ولم يكن هناك أي دليل على مثل هذا النشاط منذ استقلال بولندا سنة 1989. أعتقد أن CIA تدّعي فضل

شـــيء لم تقم به. وفي حال كانت CIA مشتركة فعلاً، كنا سنحصل على دعم أكبر من واشنطن".

تُصرّ مصادر في مصرف لامبرت في بروكسل أنه لا سجلات لديها عن ورود مـــبالغ مالـــية ضـــخمة إلى صناديقها من مصرف الفاتيكان. إذاً، أين ذهبت الأموال؟ ويظهـــر الآن، ولـــيس للمرة الأولى، أحد أكبر الأوغاد بلا شك في الاحتيال المالي؛ روبرت مكسويل.

بـــاع مكســـويل بـــرنامج برومـــيس الإســـرائيلي المعدّل إلى الجنرال وسيتش جارزلسكي، الزعيم البولندي الشيوعي. وكان الغرض منه استخدامه – وتم استخدامه – ضـــد نقابـــة *التضامن* وأي شخص يدعم المعارضة الديموقراطية الناشئة آنذاك في بولـــندا. ولكـــن خـــلال جولاته العالمية لبيع البرنامج، قام مكسويل في سنة 1985 – عـــندما كان يتم تحويل الأموال لمساعدة *التضامن* – ببيع بروميس إلى جهاز مكافحة التجسس البلجيكي "سورتي دل ليتات" (Surete de l'Etat). ومنح ذلك الموساد نافذة على عملـــيات الاســـتخبارات البلجيكـــية؛ بمـــا فيها العمليات المالية التي قام بها سيميون يوكوفيتش موغيلوفيتش.

فـــي ذلـــك الوقت، كان موغيلوفيتش ما يزال يعمل من قاعدته في بودابست في بلغاريـــا، وقدّم نفسه بسرعة كأخصائي في الجريمة المالية استعداداً للاندماج في العالم المالـــي لمـــا بعد الشيوعية. بحلول سنة 1985، كان لديه مكاتب في جنيف، ونيجيريا وجـــزر كايمان. وكان يحمل أيضاً جواز سفر إسرائيلي ساعده مكسويل في الحصول علـــيه. وقـــدّم مصرفي سويسري يعمل كوسيط استثمارات في جنيف، ولديه تعاملات تجارية دائمة مع مصرف الفاتيكان ومصرف لامبرت، موغيلوفيتش إلى مكسويل.

كـــان مارسينكوس آنذاك متورطاً في عمليات احتيال ضخمة في المصرف مما دفـــع الـــبابا يوحـــنا بولـــس للموافقة على إعادة النقود إلى أولئك الذين تضرروا من نشـــاطات مارسينكوس. وفي إحدى الوثائق المميزة التي نشرها المصرف للعلن، قال الفاتيكان في أيار سنة 1984: "سوف تسترجع المصارف العالمية ما يعادل تقريباً ثلثي 600 ملـــيون دولار التي أقرضتها لمصرف الفاتيكان. وسيتمّ دفع حوالى 250 مليون دولار مـــن ذلـــك المبلغ بحلول 30 حزيران سنة 1984. وسيقوم الفاتيكان بدفع هذه المبالغ على أساس عدم المسؤولية الجزائية، ولكن اعترافاً بالمسؤولية الأخلاقية".

كان مارسينكوس عندها سجيناً في الواقع داخل الفاتيكان، ولا يجرؤ على المشي خطوة واحدة خارج جدرانه خوفاً من الاعتقال. وانتظر عدد كبير من التهم ظهوره في

المحكمــة، لكــن مارسينكوس استمر في الذهاب إلى مكتبه كل يوم *للإشراف* – وهي الكلمة التي استخدمها الفاتيكان – على الشؤون اليومية للمصرف.

في مكان ما من تلك الشبكة المعقّدة – CIA، وقيام مارسينكوس بتبييض الأموال، والاســتخبارات البولندية، والموساد ومكسويل – يوجد جواب عن السؤال الذي طرحه علــناً الشــهير ريتشارد بايبز. أين ذهبت المئتي مليون دولار المخصصة *للتضامن*؟ وظهــر أن الجــواب بسيط بشكل مدهش. حوّل الموساد، باستخدام بروميس، الأموال لتمويل عملياته السوداء الخاصة.

فــي الماضي، استخدم جهاز الاستخبارات نسخته المعدّلة من البرنامج لاختراق حســابات أصــحاب الملــيارات من الإسرائيليين في المصارف الأجنبية، والتي كانوا يــأملون بــتحويل أموالهــم إليها سراً خارج البلد الذي كان يعاني من نقص في النقد الأجنبي. ولم يضع الموساد يده على المبالغ وحسب، وإنما استدعى أصحاب المليارات الســيئي الطــالع إلــى اجتماع. وأخبرهم الجهاز بأنه سوف يتم فرض "غرامة" عليهم لخــرق قوانيــن النقد الصارمة في البلاد. وكان الرفض يعني المحاكمة وقضاء وقت معين في السجن. وقال رافي ايتان بارتياح لم يخفِه (للمؤلف): "دفعوا جميعاً".

فــي شــباط سنة 2004، أخبر ويليام هاملتون رئيس أنسلو المؤلف بأن استخدام بروميس "سيجعل سرقة تلك الأموال عملية بسيطة نسبياً بالنسبة للموساد".

انتهــت نسخة من البرنامج أيضاً في أيدي أسامة بن لادن، والتي كان قد سرقها ريتشارد هانسن، أخصائي الحواسب البارز لدى FBI والذي كان لوقت طويل جاسوساً رئيسياً في المكتب. ويقضي الآن عقوبة السجن المؤبد للتجسس. يقال إن KGB باعت البرنامج إلى بن لادن مقابل مليوني دولار.

بحلــول ربــيع ســنة 2004، استمر الموساد في بحثه عن بن لادن. وفي ذلك الوقــت، حصــل مائــير داغان من خلال عملائه الميدانيين ومحلليه على ملف نفسي مذهــل عــن بــن لادن ربما لا يضاهيه أي ملف لدى أجهزة الاستخبارات الأخرى. ويتضمن الملف الطريقة التي يدير بها المطلوب رقم واحد في العالم القاعدة.

إذا كانــت القاعدة متعددة الجنسيات، فلا بد أن بن لادن رئيسها التنفيذي. وهناك مجلــس: مجموعــة مقاتلة من المقربين والذين كانوا معه منذ إنشاء القاعدة. وتمتلك المــنظمة، مــثل أي شركة، أقساماً: أحدها للمالية، وآخر للتخطيط المستقبلي، وثالث للتجنــيد. وهــناك أيضاً قسم يتولى تجهيز وتوزيع أشرطة الفيديو السمعية والبصرية الخاصة بالمنظمة. وسبب وجود القاعدة الوحيد هو شن حرب عالمية مقدّسة.

لم تغير منظمة أخرى في الذاكرة الحية العالم كما غيرته القاعدة تماماً عندما انهار البرجان في مركز التجارة العالمي يوم 11 أيلول سنة 2001، واشتعلت النيران في أحد أقسام البنتاغون. وفقد آلاف الرجال، والنساء والأطفال حياتهم في أعنف الهجمات الإرهابية على الأراضي الأميركية. ولم يتعرض البر الرئيسي للولايات المتحدة في تاريخه لمثل تلك الهجمات المرعبة. ويعتبر القصف المفاجئ الذي قامت به اليابان على بيرل هاربر السابقة الوحيدة في الذاكرة الحية؛ وكان ذلك هجوماً ضد قاعدة عسكرية بعيدة على جزيرة في المحيط الهادئ.

كتب الأستاذ جيل كيبل من "معهد الدراسات السياسية" في باريس: "استهدفت مجزرة 11 أيلول المدنيين عمداً، وضربت الرموز الأساسية للهيمنة الأميركية، وقوتها التجارية والمالية، وتفوقها العسكري وقوتها السياسية. كانت حدثاً مدوّياً له آثار لا تُحصى. وكشفت عن هشاشة إمبراطورية الولايات المتحدة، ونسفت أسطورة منعتها، وأثارت أسئلة حول كل الحقائق والمعتقدات التي ضمنت انتصار الحضارة الأميركية في القرن العشرين. وأصبح الكثيرون يخشون أن تكون هذه العملية الأولى ضمن أعمال وحشية عديدة".

منذ ذلك الوقت، شاهد العالم دون مبالاة التفجيرات في بالي وإسطنبول، والمجزرة في مدريد. وكانت النتيجة استمرار مشاهدة معاناة الضحايا وعائلاتهم، وانهيار سريع في أسواق الأسهم، وخطر إفلاس عدّة شركات طيران، واضطراب عام في الاقتصاد العالمي.

تلك هي الحقائق التي لا يمكن إنكارها حول متعصب لا يعرف شيئاً تقريباً عن الحضارة، والأفكار، والوسائل الغربية. إنه رجل *الكلمة*، والنصير المطلق لحرفية النص كما يدل التاريخ - كان هتلر وستالين مثالين - ولا يتمتع بأي مخيلة، أو أنها أصبحت خلف قدرته على الفهم.

بن لادن عبد للتفسيرات الحرفية: إن الاستقراءات الفكرية الطبيعية التي يعتمد عليها تفكير معظم الأوروبيين خارج قدرته. مثلاً، في إحدى خطبه الطويلة، قال مرة بأنه متأكد من أن "بضع هجمات ستؤدي إلى انسحاب الولايات الأميركية من الاتحاد الأميركي (أي ما يعرف بالولايات المتحدة)(*)".

قال د. أريل ميراري، مدير دراسات الإرهاب في مركز جافي في تل أبيب:

(*) نص مترجم من الانكليزية.

"يجب أن ننظر إلى الصورة الكاملة للطريقة التي جعل بن لادن بها القاعدة اسماً مرادفاً للإرهاب. وأكّد أن لا موته ولا نبذ العنف من جانبه - غير محتمل أبداً - سيوقف الجهاد الإسلامي. وبدلاً من ذلك، سوف يستمر في نشر نيفان السموم على عالمنا".

أكّد بن لادن مؤخراً استعداده لاستعادة الأندلس التي كانت بيد العرب، والتي تحتل حضارتها موقعاً عالياً في الفخر الإسلامي. وبدأ ينشر من جديد عبر العالم الإسلامي تذكيراً بتلك الحقبة الذهبية في سنة 1200 على سبيل المثال كان في مدينة قرطبة الإسبانية تسعمئة حمام عام، وسبعون مكتبة كانت رفوفها مليئة بنفائس الكتب في العالم الإسلامي. وكان فيها أفضل الأطباء، وأفخم المطاعم، وأجمل النساء كما يقال. ومجزرة تفجيرات مدريد على صلة بهذا الحلم أكثر بكثير من وجود القوات الإسبانية في العراق وانسحابها منه لاحقاً. ولهذا السبب فجّر عناصر القاعدة أنفسهم - اكتشف الأمن الإسباني أنهم يختبئون في مبنى سكني في إحدى ضواحي مدريد - حتى بعد انتخاب خوسيه ثاباتيرو كرئيس جديد لوزراء البلاد في آذار سنة 2004.

يعتبر الحلم النازي في استعادة تلك الأجزاء من أوروبا التي تمتلك جذوراً ألمانية المثال الأقرب في التاريخ لاستخدام العنف لاستعادة أراضٍ قديمة. وكتبت المعلّقة المتميزة جانيت ديلي: "قادت الأسطورة الرومانسية الألمانية في الترحيل عن الأرض إلى مهمة توتونية (لغة ألمانية قديمة) مقدّسة لاسترداد ما تم فقدانه، ولها صلة غريبة مشابهة مع الادعاءات الإسلامية الجديدة عن عزل وظلم المسلمين".

فيما كان بن لادن جالساً في كهفه في جبال تورا بورا على الحدود الأفغانية - الباكستانية، كان يحرّكه حلم إنشاء خلافة عظيمة تمتد من آسيا إلى جنوب إسبانيا وما ورائها.

وقال د. ميراري: "هذا هو الخطر الحقيقي في هذا الرجل. وفي سعيه لتحقيق هدفه، سيقتل ويذبح وفقاً لنظام كان المغول، وجنكيزخان، والصليبيون، والنازيون والطغاة في روسيا سيتوقفون للتفكير قبل القيام به".

وفقاً لتقديرات CIA، تم إنفاق ما يزيد عن 100 مليون دولار في السنتين الأخيرتين على المطاردة بالأقمار الصنعية واستخدام معدّات تقفّي حديثة جداً لتحديد موقع أسامة بن لادن.

وبعكس صدام حسين، أعلن بن لادن أنه سيموت "شهيداً" ولن يسمح لأحد بالقبض عليه. وجسده مثقل بالقنابل اليدوية التي تجعله على بعد كبسة زر من الخلود.

وينام في الليل على حصيرة محاطة بالمتفجرات.

يعرف عملاء القاعدة - الانتحاريون - جيداً أن قسم المعاشات في المنظمة سيعتني بعائلاتهم. ولا يعرف أحد أين أو متى تعقد المنظمة الاجتماعات لأنه ليس لديها مكاتب. ويُقدّر رأسمالها بعدد الذين تقتلهم، والمباني التي تدمّرها. ممتلكاتها الثابتة - المتفجرات والأموال التي تتحرك باستمرار - مختبئة حتى عن آلات تصوير أقوى الأقمار الصنعية.

تم تجميد ممتلكات بن لادن الشخصية الخاصة سنة 2001، والتي قُدّرت مرة بحوالى 20 مليون جنيه إسترليني من حصته في أعمال البناء التي تقوم بها عائلته. ولكنه استطاع تمويل القاعدة من هبات المسلمين الأثرياء في آسيا.

قال أحد محللي وزارة الخارجية الأميركية في واشنطن: "يعتبر بن لادن الغراء بين المجموعات الإرهابية التي لا يوجد ما يجمع بينها، ولكنها متحدة في كرهها للغرب".

في سنة 2003، قام بن لادن بعدما شعر أن الخناق يضيق عليه بتعيين عشرين قائداً للمناطق لإدارة عمليات القاعدة. وكان هناك تقارير متواصلة بأن الأموال تصلهم في حقائب دبلوماسية لدول مارقة مثل إيران، وليبيا لغاية وقت قريب. وفي بريطانيا، عمل M15 شهوراً في محاولة تعقّب الأموال المخصصة للقاعدة. وقال مصدر في M15 (للمؤلف): "ليس لدينا لغاية الآن سوى شكوك مؤكدة، ولكن لا يوجد دليل واضح".

كان الموت أو الحياة سواء بالنسبة إلى بن لادن. ويعتبره ملايين المناصرين في العالم الإسلامي بطلاً شعبياً. ويمثّل بالنسبة لهؤلاء جميعاً رسولاً حياً جاء لتطهير العالم مما دعاه "الانحطاط الغربي". ويظهر بن لادن بعظام الوجنتين البارزتين، ووجهه النحيل وردائه الموشّى بالذهب مثل محارب جبلي تقليدي من رجال القبائل التي تأويه الآن. وله لحية وشارب سوداوان غزاهما الشيب، وعينان نافذتان مما يشكل صورة يمكن التعرف عليها بسهولة. ولكن ابتسامته هي فقط لأنصاره، والذين يرونه كمدافع عن قضاياهم، يعيش بن لادن حياة شخصية بسيطة جداً لدرجة أنهم يجدون صعوبة في قبولها. وهو متورط أيضاً في العنف الشخصي، وقاد مرة دبابة مستولى عليها فوق سجناء روس في الحرب الأفغانية.

للمفارقة، كانت CIA تزوّده بالسلاح في تلك الأيام، وأوصلت له ترسانة من صواريخ ستنغر. وبعد أن ساعد في دحر المحتلين السوفيات، تحوّل ضد أميركا و"قيم

الهامبرغر والكوكا – كولا". ويفتخر بأنه عدوها الأول. ويرافقه حرّاسه الشخصيون أينما ذهب: قرابة الخمسين رجلاً بلحى طويلة، الذين يلتزمون الصمت المطبق. ويتم اختيار كل منهم بعناية شديدة، وهم مستعدون للموت من أجله.

عندما يستيقظ، ينظّف أسنانه على الطريقة العربية بعود من نبات المسواك. ثم يصلي طلباً للقوة لتدمير أعدائه، الذين يستحوذون عليه مثل السرطان، ويتغلغلون في ذهنه، ويدفعونه للبكاء أحياناً. ثم تسقط دموع حقيقية على وجنتيه، وهو بكاء متعصب لا يرحم ويكره بطريقة غريبة. ورغم أن أعداءه يفوقونه عدداً، إلا أنه استطاع تفادي مراقبتهم الإلكترونية ومصادرهم البشرية، لأن القوات التي تصطف ضده لا تستطيع الاتفاق على استراتيجية للقبض على أسامة بن لادن.

في تل أبيب، قال محلل موساد بارز (للمؤلف): "يعود جزء من المشكلة إلى تفكير الأميركيين أن الحل يتمثّل في وضع المزيد من الأقمار الصنعية في الفضاء وزيادة معدّات الرقابة الإلكترونية. وأخبرناهم بأن أفضل حل هو الاستخبارات البشرية".

شخّص رافي ايتان، الذي قاد عملية القبض على أدولف إيتشمان، مشكلة اعتقال أسامة بن لادن: "هناك حاجة للصبر، ولا تستطيع الأقمار الصنعية سوى أن تخبرك بما يحدث *الآن* – وليس ما قد يحدث في المستقبل. وهذا ما لا يمكنك أن تعرفه إلاّ من خلال الرجال على الأرض. لقد حقق الموساد أعظم نجاحاته عبر هيومنت؛ أي الاستخبارات البشرية".

يدرك أسامة بن لادن، منذ وقت طويل، أن الولايات المتحدة تمتلك قدرات عالية في الرقابة الإلكترونية ولهذا يكتب أوامره بيده، ويسلمها إلى مساعدين موثوقين. ويسافر هؤلاء إلى البلاد المجاورة ويرسلونها من هناك إلى شبكة بن لادن العالمية التي تتكون من حوالى 2500 عنصر. وكانت مثل تلك الأوامر هي التي قادت إلى مذبحة مدريد.

في سنة 2003، قال أسامة بن لادن عبر موقع إنترنت إسلامي: "لا نعتبر امتلاك أسلحة نووية، وكيميائية، وبيولوجية جريمة. فالقوات الأميركية والإسرائيلية تحتل أراضينا المقدّسة. ولدينا الحق بالدفاع عن أرضنا المقدسة وتحريرها"(*).

ضاعفت واشنطن من مكافأتها المالية للقبض على بن لادن إلى 50 مليون

(*) مترجم من نص إنكليزي.

دولار. وقال مير عميت – أحد مدراء الموساد السابقين – إن مثل هذا التكتيك لا ينفع غالباً. "الخيانة مقابل المال ليست مغرية لشخص ملتزم مع قائده. ويعود جزء من السبب إلى الخوف من اكتشاف شخص ما للخيانة، وجزء آخر إلى أن القائد يختار رجاله بعناية شديدة. ولن تجعل المكافأة هؤلاء الرجال يفكرون بتسليم بن لادن".

بكل الأحوال، قال إيلي كوهن الكاستا السابق للموساد في تل أبيب (للمؤلف) بأن نقطة الضعف ربما تكون علاقات بن لادن العائلية القوية مع زوجاته الأربع، وأطفاله السبعة وأحفاده الأربعين. "تعرف أين يسكنون وكيف يتحركون. وإذا تم اختطاف إحدى زوجاته وبعضاً من أطفاله، سيكون ذلك هاجساً لبن لادن. ويمكن على الأقل الاحتفاظ بهم كرهائن حتى لا يقوم بأي اعتداءات أخرى. وإذا قام بذلك، يجب أن يتوقع تطبيق سياسة *العين بالعين، والسن بالسن*. وبكلمات أخرى، سيتم إعدام عائلته". ولكن لا أحد يعرف فيما إذا كان أسامة بن لادن سينحّي جانباً مثل هذا التهديد بنفس الطريقة التي يتجاهل بها كل الحياة البشرية.

خلال شهور صيف سنة 2004، أصابت صور العراقيين الذين يتعرضون لمعاملة مهينة من قبل سجّانيهم الأميركيين في سجن أبو غريب، العالم بالصدمة. وكانت إحدى الصور البشعة لسجين عراقي عارٍ يتعرض لسوء المعاملة من إحدى الجنود. وكان هناك إجماع على أن الصور مرعبة، وأن الأفعال نتيجة مزيج سام من الملل، والسادية، وأفكار الحرّاس الشاذة عن التسلية. وأصرّ البنتاغون على أن الأمر لم يتعد ذلك، ولكن هناك إجراءات سيتم اتخاذها، وسيتعرض المتورطون لعقوبات شديدة.

تم عزل قائدة السجن العميد جانيس كاربنسكي من منصبها. واتهمها تقرير للتفتيش بأنها افتقدت لحس القيادة خلال توليها لمنصب آمرة السجن مما أنهى فعلياً سيرتها المهنية في الجيش.

وردّت كاربنسكي على التهم الموجهة إليها في 4 تموز، وقالت بأن سجن أبو غريب كان يضم محققين تابعين للموساد، وأنهم يتكلمون العربية بطلاقة، وكان باستطاعتهم العمل بحرية مع أي سجين فيه.

كان لادّعاء كاربنسكي تداعيات سياسية امتدت خارج أسوار السجن. واستخدمت وسائل الإعلام العربية ادّعاءها لتأجيج غضب الرأي العام الإسلامي. وكان هناك اتهامات بأن محققي الموساد مسؤولون عن استجواب محتجزين فلسطينيين في العراق. وأنكرت إسرائيل بحدّة تلك الاتهامات. ولم يكن هناك مصدر مستقل يؤكد هذه

الادعاءات، وقد لا يتم ذلك أبداً.

لكن سرعان ما كان هناك حادثة أثارت انتباه العالم كله، وكانت ظهور صدام حسين في محكمة بغداد في تموز لمواجهة تهمة ارتكاب جرائم حرب بما فيها الإبادة الجماعية. وكان الرجل الذي ظهر من تلك الحفرة في الأرض قد اختفى. فعادت إليه غطرسته القديمة، ورفض الاعتراف بالمحكمة. وعامل القاضي باستخفاف وازدراء أحياناً. وكان ذلك تذكيراً مرعباً بما كان عليه صدام مرة: مستبد، وطاغية، يحمل مصير شعبه بين يديه. وربما استغرق الأمر سنة، أو أكثر، قبل أن تأخذ المحكمة مجراها. وخلال ذلك الوقت، كان صدام يعيش بنفس الطريقة بغض النظر عن ظهوره في المحكمة.

كان يستيقظ عند الساعة 4:30 كل صباح؛ نفس الساعة التي كان صدام يسبب بها الرعب لملايين العراقيين بصرخته "الفجر الحقيقي". ويسمع من بعد أصوات المؤذنين تدعو للصلاة. وهناك غرفة أخرى إلى جانب تلك التي ينام فيها، أرضيتها مغطاة بسجادة من قصره، والتي تشكّل ذكرى مرئية عن ماضيه.

كانت عيناه تطرفان للحظة في ضوء مصباح سقف غرفة نومه. ويوجد فوق الباب، بعيداً عن متناول اليد، آلة تصوير أمنية تقدّم صورة واسعة الزاوية لغرفته التي يبلغ طول كل جنب من جنباتها 15 قدماً. ويوجد في الغرفة أيضاً كرسي يضع عليه اللباس العربي الذي اعتاد ارتداءه. ويوجد في غرفة مراقبة قريبة شاشات وحواسب تسجل كل حركاته، وكلماته النادرة، ونظراته الغاضبة على آلة التصوير. ويصرخ أحياناً مطالباً بإطفاء الأضواء التي تبقى مضاءة دائماً.

يتلقّى صدام نفس المعاملة التي يتلقّاها نزيل محكوم بالإعدام في أميركا. وهو يخضع رسمياً الآن للسلطة القضائية للحكومة العراقية الانتقالية، ولكنه في الحقيقة ما يزال أسير الولايات المتحدة. وكان قد فاز بمعركة ضد قيام معتقليه بحلاقة لحيته.

وقالت أليس بياعة، الخبيرة في حياة صدام: "أقنعهم صدام بأن لحيته ترمز إلى حداده على ولديه. وتتطلب التقاليد إطلاق اللحية لسنة على الأقل. وكان ياسر عرفات، صديق صدام القديم، قد أطلق لحيته حزناً على الشعب الفلسطيني".

لكن سجّانيه يتحكمون بكل لحظة من حياته خارج أوقات لقائه مع فريق دفاعه تحضيراً لظهوره في المحكمة، وسوف يراقبونه حتى النطق بالحكم عليه. ولكن ذلك قد يستغرق سنتين على الأقل، وربما أكثر. وخطط صدام أيضاً لتأخير الأمور بطلب استدعاء رؤساء ورؤساء وزراء بصفة شهود. وظهرت أسماء جورج بوش، وطوني

بلير، وفلاديمير بوتين على القائمة التي قدّمها لقضاته العراقيين.

بحلول تموز سنة 2004، تطوّع ستمائة محامي للدفاع عنه. وكانت فرصة ذهبية بالنسـبة لهم لإظهار مهاراتهم. واختارت عائلته عشرين منهم. ولم يكن مسموحاً لأي منهم بزيارته في سجنه؛ فلقد كان يدخل وحيداً إلى صومعته.

كـان السـرير الحديدي مثبتاً إلى الأرض، والفراش يشبه ما هو موجود في أي سـجن عسكري أميركي، فهو بعيد تماماً عن الملاءات الحريرية التي كان صدام ينام علـيها ويتم شراؤها من هارودز في لندن. وكانت وسائده عندها محشوة بأفضل ريش الطيور النادرة التي يصطادها حراسه في أهواز جنوب العراق.

يقـع مـأوى صـدام في غرفة المؤونة، والتي كانت حاشيته تستخدمها لتخزين كمـيات كبـيرة من العطور لإضافتها إلى مياه استحمامه. وكان يتم الاحتفاظ بكميات أخـرى لتدليك جسمه. ويتألف حمامه الآن من قطعة صابون عادية واحدة، وإسفنجة، ومعجون أسنان. ولكنه عاد إلى أيام طفولته فيما يخص الصحة الفموية، وينظف أسنانه على الطريقة العربية بعود من المسواك.

ويوجـد في حمّامه دش سقفي ورف أوروبي الطراز عبر كل المساحة الأصلية التـي كـان يجلـس علـيها خدمه القرفصاء. ويكمل حوض غسيل معدني ومنشفتان المشـهد. ومثل أي فندق رخيص، يتم تغيير المناشف مرة أسبوعياً. وورق الحمام من النوع الذي يباع في أي سوق بغدادي.

عـندما يصـل إفطاره – وجبته الرئيسية هي اللبن، والخبز المحمّص، والشاي والتي يتم تقديمها في نفس الأطباق الرخيصة التي يأكل منها حرّاسه – يعامله الحرّاس باحـترام. ويدعونه الرئيس صدام، وهو اللقب الوحيد الذي يستجيب له. وفيما يستخدم أدوات مـائدة بلاستيكية شبيهة بتلك الموجودة على متن الطائرات لتناول طعامه، يقف الحـرّاس مراقبيـن عند الباب، وهم غير مسلحين؛ تحسباً لقيام صدام بمحاولة لسحب سلاح أحدهم. وقال أحد ضباط الاستخبارات البريطانية البارزين، والذي يعرف تماماً أحـوال صدام، (للمؤلف): "يعتقد علماء النفس أن صدام لديه ميل نحو الانتحار، ولكنه قد يصبح مزاجياً وبذيئاً. وربما يصبح عدائياً جداً إذا لم تتم تلبية مطالبه".

تتضمن تلك المطالب كتب عن القوانين الدولية. وهناك إشارات متزايدة على أن صدام، مثل سلوبودان ميلوسيفيتش، يخطط للإشراف على الدفاع عن نفسه.

قال ضابط الاستخبارات البريطاني: "تشغله فكرة أنه يستطيع إحداث ضرر هائل للرئـيس بوش وطوني بلير. وعندما يتكلم عنهما، تضطرب عيناه، ويشعر المرء بأنه

يكرههما بشكل فظيع".

ويتكرّر الأمر نفسه كل يوم. ويتناول صدام غداءه في منتصف النهار، وهو طعام عربي يطهوه عراقي يعمل لدى قوات التحالف. وهناك شخص يتذوق عينات من كل أطباق الطعام قبل إحضارها إلى صدام. ويأتي ماء الشرب في قوارير مختومة، جزء من الشحنات التي ترسلها الولايات المتحدة إلى قواتها.

يخرج صدام مرتين يومياً، بعد الغداء وقبل المساء بقليل، إلى ساحة صغيرة لممارسة التمارين الرياضية. وغالباً ما يكون مرتدياً قميصاً خفيفاً وسروالاً قصيراً عسكرياً، بعيدة كل البعد عن الأيام التي كان يرتدي فيها ملابس داخلية مصممة خصيصاً له من أجود أنواع القطن المصري، والتي كان يتم شراؤها من متجر في نيويورك. ويجد صنبور ماء في إحدى زوايا الساحة. ولطالما كان صوت تدفق الماء يذكّره بأنه يستطيع دائماً تطويعه في أرض فقيرة به أصلاً. وكان هناك شلالات اصطناعية رائعة في قصوره، وكان صوت الماء يصل إلى مكتبه. ويُجري صدام الماء من الصنبور رقيقاً عندما يمشي في الساحة. ويغلق الصنبور عندما ينتهي وقت التمارين.

يستعد صدام لقضاء ليلته عندما تصبح ظلمة السماء حالكة. ويكون عشاؤه من الفواكه – لا بد من التمور والزيتون على القائمة – إضافة إلى الحساء، وربما الدجاج والأرز. وأدّى ذلك النظام الغذائي إلى اختفاء كرش صدام. ويتم تشذيب لحيته السوداء التي غزاها الشيب مرة أسبوعياً، مما يعزز مظهر عينيه الحادتين النافذتين. ويعود إلى كتبه القانونية بعد العشاء محاولاً ترتيب دفاع لما يعتقد العالم بأنه لا يمكن تبريره. ولكن ستُتاح له الفرصة لعرض قضيته؛ أكثر مما كان يسمح لأولئك الذين قتلهم.

مثل أسلافه، اقترب مائير داغان من قبول حقيقة أن الاستخبارات لا تنجح سوى أحياناً، وأنه يتم تجاهل أفضل أعمالها التي لا يمكن للعامة أن يعرفوا عنها شيئاً. وإضافة إلى ذلك، كانت هناك المهمة اليومية في تزويد قادة الموساد السياسيين بأنباء غير جيدة.

أصبح الحجم الكبير من التقارير الاستخباراتية، وبشكل متزايد، يعني أن السياسيين لم يعد لديهم وقت كاف لاستيعاب كل ما يقال. واستمر داغان في نفس النظام الذي يحصل بموجبه بعض الأشخاص – عادة الأعضاء البارزون في حكومة شارون – على كل المعلومات الاستخباراتية. وليس الأمر محصوراً بالموساد؛ وإنما تحرص CIA، وBND الألماني، وحتى M15 وM16 – الجهازان اللذان يحترمهما

داغــان كثــيراً - على المعلومات المسموح لها بتجاوز الأبواب المغلقة. وفي أحيان كثيرة، عملت وسائل الإعلام الفضولية على عدم إبقاء أي حقائق جوهرية أو عمليات استخباراتية سرية بشكل كامل لفترة طويلة من الوقت.

اســتمر داغــان فــي مقاومة الطريقة التي توظّف بها أجهزة استخبارات أخرى المــزيد مــن الأخصائيين، والذين يتم استدعاؤهم لتشغيل الأقمار الصنعية والمعدّات التكنولوجــية الأخــرى. وكان ما يزال يؤمن بأن التكنولوجيا وحدها لا تستطيع كشف خطــط ســرية. وكان ملتزماً بإظهار أن عدد الجواسيس الجيدين في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين يتناسب عكسياً مع حجم الأدوات المساعدة في الموساد.

كان جواسيس الموساد بالنسبة له أكثر أهمية من أي تكنولوجيا مهما كانت. وكان يستســيغ فكــرة أن يــبقى الموســاد مــنظمة غامضة، يستطيع فيها عدد صغير من الأشخاص المميزين المسلحين بشجاعة كبيرة تحقيق نتائج استثنائية. وكان ذلك بالنسبة له، ولرجاله ولنسائه، ضماناً مريحاً فيما كانوا يستعدون لمواجهة العالم المرعب الذي يتغير بسرعة.

فــي آخــر أســبوع من تشرين الأول سنة 2004، جلس ياسر عرفات، الزعيم الفلســطيني الــذي عــانق مــرة صدام حسين علناً وتسبب لنفسه بالمزيد من غضب إســرائيل، لتناول العشاء في المقاطعة في رام الله في الضفة الغربية. وكان عرفات، خلال السنوات الثلاث الماضية، محجوزاً في مبنى محصّن بأوامر من رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون. وكان قرار عزله على أمل أن يقوم عرفات بإلغاء الهجمات الانــتحارية (وفقــاً للوصف الإسرائيلي) والرعب الذي تسببت به في إسرائيل. وكان شارون يعتقد أنه يكفي أن يحرك عرفات شفتيه لإيقاف القتل والترويع.

كــان تأثــير عرفات، الذي تحاصره الدبابات الإسرائيلية ويستمع خبراء مراقبة الموســاد إلى كل كلمة يتفوه بها، على السلام في الشرق الأوسط ما يزال قوياً. وكان قــادة العالم مثل الرئيس الفرنسي جاك شيراك ما زالوا يتصلون به. وكان أتباعه بين ملاييــن المتشددين عبر العالم العربي أوفياء لــه. وقال شارون علانية مجدداً إنه لن يكون هناك سلام دائم حتى يرحل ياسر عرفات عن السلطة.

كانــت حــياته شهادة على فشله في أن يصبح أخيراً رئيس دولة فلسطين. وكان يــرى معنويات شعبه تضعف نتيجة نسبة البطالة العالية بين أفراده والتي جاءت نتيجة عدم قدرته على التوصل إلى تسوية، خصوصاً حول حق عودة اللاجئين الفلسطينيين، وهــو التنازل الذي ينعي دولة إسرائيل. ولم يكن هناك شيء يماثل عناده سوى أسلوبه

المستبد في الحكم، والذي تميّز بانتشار الفساد والرشوة.

أصــبح ياسر عرفات أكثر نحولاً وأضعف جسداً مما كان عليه عندما ظهر على المســرح العالمي في الأمم المتحدة قبل ثلاثين سنة كقائد لشعبه، وبلغ من العمر خمساً وسـبعين ســنة، وما يزال بالنسبة للإسرائيليين العاديين عرّاب الإرهاب الذي تحركه دوافع القضاء الكامل على دولتهم. وكان بالنسبة لإدارات أميركية سابقة الفائز بجائزة نوبــل للسلام، والفلسطيني الوحيد الذي يمكن التعامل معه. أما إدارة بوش فقد اعتبرته شخصاً منبوذاً.

لكــنه استشــعر بأنــه فــي حال عودة جورج دبليو بوش لولاية ثانية من أربع ســنوات، فقد تقرّر إسرائيل إزاحته. وطوال عشرين سنة، كان طبيبه أشرف الكردي يخــبره بأن هؤلاء سيفعلون شيئاً. وقال د. الكردي (للمؤلف): "هؤلاء تعني الموساد؛ وشيئاً تعني قتله".

فــي 26 تشرين الأول، جلس عرفات لتناول العشاء. وبدأ بالحساء الذي قال إن والدتــه أعطــته وصفته الخاصة. ثم جاءت قطعة مشوية من سمك بطرس من بحيرة الجلـيل، والتــي ســميت بذلك تيمناً بالصيد الذي التقطه بطرس قبل أن يحوله السيد المســيح (عليه السلام) إلى الديانة المسيحية. وتمّت إزالة كل حسك السمك بعناية قبل أن يأكلهــا عــرفات، والــذي تناول بعد ذلك الدجاج، والحمّص، والخبز، والطماطم والسلطة الخضراء. كانت مكوّنات العشاء، كما هي العادة، من السوق المحلي في رام الله. وكــان الطعام موضوعاً على الطاولة الطويلة في قاعة اجتماعات عرفات. وكان هناك أيضاً مشروب غير كحولي. وأصرّ عرفات على تحضيره من الأعشاب الطبية.

قــال د. الكردي لقناة الجزيرة: "كان يختارها سراً بنفسه. وكانت رائحة الشراب مريعة. وكانت تجعل الناس غير راغبين برشفة منه. ولكن عرفات كان يبتلعه كما لو أنه رحيق الزهر".

وكان يتم تحضير الشراب من مواد ليست متوافرة في أسواق رام الله. ولكن كان يــتم الحصول عليها من أحد متاجر بيع الأدوية في تل أبيب. وبعد ساعات من تناول عــرفات الشــراب عــانى من آلام مبرّحة في المعدة. وشخّص د. الكردي العلّة بأنها الــتهاب المعدة. ولكن عندما لم ينفع الدواء الذي وصفه، قرّر الطبيب أن عرفات لديه خلل في الدم: "ربما يكون أحد أشكال سرطان الدم المتعددة". ولكن الأعراض لم تؤكد ذلــك. وبعــد عدّة ساعات فقط، كان هناك خبرة طبية أخرى في طريقها إلى رام الله. وأرســل الرئيس المصري حسني مبارك فريقه الطبي الخاص الذي يتضمن أخصائياً

فـــي أمراض السرطان. وأرسل الملك الأردني عبد الله أيضاً أفضل طبيب متوافر في عمّـــان. وأوصـــى كـــلا الفريقيـــن بإرسال عرفات إلى أوروبا نظراً لعدم تمكنهم من تشخيص الأعراض بشكل قاطع. وتم الاتصال بالرئيس شيراك، الذي قال إن مستشفى بيرسي العسكري خارج باريس سيضع كل إمكانيات أخصائييه لمعالجة عرفات.

فـــي 29 تشرين الثاني، تم وضع عرفات الذي كان بكامل وعيه آنذاك على متن مروحية أخرجته من مقره في رام الله. وكان العالم العربي بأسره يطرح سؤالاً واحداً فقـــط: هـــل حصـــل الموساد على عينة من مكوّنات شراب أعشاب عرفات؟ هل فعل مائير داغان ما رفضه أسلافه – بناء على الخوف من تصاعد الهجمات الانتحارية – (وفقاً للوصف الإسرائيلي) وأجاز عملية متهورة لاغتيال ياسر عرفات؟

فيما كانت طائرة عرفات تتجه نحو باريس، أضاف د. الكردي تخمينه إلى سوق الشائعات. وقال: "التسميم احتمال قوي". وأشار الأطباء العرب الآخرون الذين عاينوا عرفات بشكل غامض إلى أنهم لا يستبعدون التسميم أيضاً. وفي باريس، أضافت سهى زوجـــة عـــرفات إلى جو المكيدة بقولها إنها ستكشف تفاصيل حالته الطبية؛ لكن فقط عـــندما تتلقى "تأكيدات تخص موقفي الخاص" التي تتعلق بمكان وجود ملياري دولار من أموال السلطة الفلسطينية، والتي قال *صندوق النقد الدولي* في نشرة له سنة 2003 أنهـــا ما تزال مفقودة. وسيتم عقد صفقة لاحقاً توافق بموجبها السلطة الفلسطينية على دفع مليوني دولار لها سنوياً مدى الحياة "اعترافاً بأهميتها في الحركة الفلسطينية وحياة زوجهـــا". ولم تكن قد رأته، في الواقع، منذ أربع سنوات قبل أن تزوره عندما وصل إلى مستشفى بيرسي العسكري. وسافرت من جناحها الضخم في فندق بريستول الفخم فـــي بـــاريس؛ وكان عرفات قد أوصى لها أيضاً بفيلا رائعة في شارع فابورغ سانت أونور.

فـــي الوقت الذي كان يتم فيه عقد الصفقة، كان لغز حالة عرفات الطبية يصبح أكثر غموضاً. وكان هناك تقارير متنوعة عن إصابته بفشل الكبد والكلية، وأن دماغه توقف عن العمل، وأنه فقد الوعي. ورفض أطباؤه الفرنسيون إعطاء أي تفاصيل عن صـــور الأشـــعة، وفحوص الأنسجة واختبارات الدم والتي كانت ستبين حالة أعضائه الحـــيوية. وجـــاءت المعلومـــات التـــي رشحت من المستشفى من مساعدي عرفات الفلسطينيين. وبغض النظر عن د. الكردي، رفضوا جميعاً الاقتراب من مريضه الذي يعالجـــه مـــنذ زمـــن طويل. وأعلن مساعدو عرفات في 4 تشرين الثاني بأنه يعيش باستخدام أجهزة دعم الحياة. ثم قال المتحدث باسم المستشفى بشكل مفاجئ إن الأطباء

لم يجدوا أثراً للسم بعد "قيامهم باختبار الأنسجة مرتين". ولم يقل ما هي الأنسجة التي أخذها الأطباء من عرفات وأخضعوها للاختبار.

تصـــاعد الغضـــب في العالم العربي. وفي عالم من الغمز، واللمز، والشائعات ظهـــرت بعض الحقائق المؤكدة على السطح. فقد استخدم الموساد مادة كيميائية مميتة لقتل أسطورة الصحافة روبرت مكسويل عندما هدد بفضح نشاطات الجهاز على صدر صـــحيفته إذا لـــم يوافق على المساعدة في انتشاله من المشاكل المالية الخطيرة التي يعانـــي منها. وكتب د. إيان ويست، عالم الأمراض الحيوية في وزارة الداخلية والذي قام بتشريح جثة مكسويل، في تقريره (لدى المؤلف نسخة عنه): "لا نستطيع إغفال أن يكون الانتحار السبب".

كان الموساد قد استخدم السم في محاولة اغتيال قائد حماس في شوارع عمّان في الأردن. ومنذ بداية الألفية الجديدة، استطاع عملاء الموساد اغتيال عشرات الإرهابيين (وفقـــاً للوصف الإسرائيلي) باستخدام سموم مختلفة لا تترك أثراً. وكان بعضها بطيء المفعول، فيما كان البعض الآخر سريع الانحلال لدرجة أنه حتى التدخل الطبي السريع كـــان دون فـــائدة، ولـــم تكن هناك آثار للعقار في جثة الضحية. وتم ابتكار كل تلك الأسلحة في *معهد إسرائيل للأبحاث البيولوجية*.

عـــندما أخـــذت حالـــة عرفات تسوء أكثر، قال مساعدوه إنه يعاني من نـــزيف دماغي، وسكتة سببها النـــزيف داخل الدماغ. هل كان ذلك صحيحاً؟ لم يؤكد المتحدث باسم المستشفى ذلك.

ويوم الخميس 12 تشرين الثاني، توفي ياسر عرفات في ساعات الصباح الباكر. وقـــال المـــتحدث باسم المستشفى للمراسلين بأنه لن يتم إعلان أي تفاصيل عن سبب الوفـــاة. ولن يكون هناك تشريح للجثة. وهكذا مات عدو الموساد اللدود بشكل غامض ومحاط بالسرية. وتم إرجاع جثته إلى مقره في رام الله ودُفن هناك في اليوم التالي في قـــبر خرساني، والذي تم بناؤه بسرعة قبل عدة أيام. وقال د. الكردي إن هناك سببين لتجهيز مثل هذا التابوت غير الاعتيادي. سيتم حفظ جسد عرفات لإجراء تشريح عليه، ومـــن ثم يمكن وضعه في قبره الخرساني، وبعد ذلك دفنه في واحد من أقدس المساجد في العالم الإسلامي؛ المسجد الأقصى في القدس.

عـــندما ســـمع مائـــير داغان ذلك، يقال إنه ابتسم. وكان هناك أيضاً مسألة أكثر أهمية في ذهنه. وفي اليوم السابق لوفاة عرفات، تم اعتقال مردخاي فعنونو في إحدى قاعـــات كنيســـة القديـــس جورج في القدس. وكان متهماً مرة أخرى بفضح معلومات

سرية حول إسرائيل. وكان فعنونو قد قال قبل ثلاثة شهور إنه يرغب بالتخلي عن جنسيته الإسرائيلية ليصبح فلسطينياً. وقال فعنونو إن عرفات سيرحب بهذه الرغبة العظيمة. ولم تخفف مدة البقاء الطويلة في السجن أو شهور الحرية القصيرة منذ إطلاق سراحه من سذاجة كاشف الأسرار. وليس هناك شك بأنه في حال التقى الرجلان فإن عرفات سيستغل المناسبة على أكمل وجه. لقد كان سيد التلاعب. ومات في النهاية بنفس الطريقة التي عاش بها: حيرة وتوتر، ومكيدة، ومسرحية علنية. ولن يعرف أحد الآن أبداً فيما إذا مات الرجل مسموماً. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فقد ترك عرفات ميراثاً سيستمر في الترويج لأفكاره.

عمل عرفات لسنوات طويلة وفقاً لنظرية الفوضى السياسية: طالما بقي الفلسطينيون مشكلة مقترحة لإسرائيل، سيعمل ليس أنصاره وحسب وإنما العالم الإسلامي بأكمله على إضرام النار. وفي خطابه الشهير أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة الذي أبرز ظهوره كرمز ثوري، واحتل مكانه إلى جانب تشي غيفارا وفيدل كاسترو، أعلن عرفات: "أتيت وأنا أحمل غصن زيتون وبندقية مقاتل لنيل الحرية. لا تدعو غصن الزيتون يقع من يدي. أكرر، لا تدعوا غصن الزيتون يقع من يدي".

في يوم وفاة عرفات، وفي حديث لاحق إلى مساعديه حول ما قد يحمله ذلك من معاني، قال مائير داغان إن المأساة الوحيدة في موت عرفات أنها لم تحدث باكراً لأنه فشل في التخلي عن البندقية.


صفحة فارغة

الفصل الحادي والعشرون

الخليفة الجديد للإرهاب

يضـــم الطابق السادس في مقر قيادة الموساد، بأروقته المطلية باللون الأخضر، وأبواب المكاتب التي يحمل كل منها رقماً بالعبرية دون اسم، المحللين، وعلماء النفس والســلوك، والمخططيــن وكلهــم معروفون بإسم الاختصاصيين. لقد استجمع هؤلاء مهــاراتهم بعــد وفـــاة ياسر عرفات لتقييم واستغلال ذلك الحدث داخل العالم العربي وخارجه.

ستوجّه استنتاجاتهم خطوات إسرائيل العسكرية والسياسية المستقبلية في مواضيع حساســة مثل خطة رئيس الوزراء أرييل شارون المثيرة للخلاف حول الانسحاب من قطاع غزة، والعلاقة التي ينبغي على إسرائيل إنشاءها مع منظمة التحرير الفلسطينية. لقــد حصــل الانســحاب في نهاية صيف العام 2005. وكانت تلك المرة الأولى التي أعــادت بها إسرائيل مستوطنات منذ انسحابها من سيناء عام 1978 بعد اتفاقية كامب ديفــيد للسلام مع مصر. لكن عشية موت عرفات، روّجت منظمة التحرير الفلسطينية للانســحاب علــى أنه الخطوة الأولى في إنشاء دولة فلسطين أخيراً، والتي كانت حلم عــرفات الدائــم. ولكن مستوطني قطاع غزّة نظروا إلى عملية إخلائهم كخيانة لحق إســرائيل فـــي الاحــتفاظ بالأرض التي احتلتها مرة كما هو مذكور في التوراة. كان شــعور المســتوطنين بالغدر كبيراً لأن الإخلاء كان عمل أرييل شارون، الذي لطالما كان يُعتبر أقوى مناصري الحركات الاستيطانية.

اتفــق محللو الموساد في وجهة نظرهم مع نائب رئيس الوزراء شمعون بيريس: تــم بــناء الصهيونية على الجغرافيا، ولكنها تعيش على الديموغرافيا. لقد رأى محللو الموســاد أن حوافز السياسة الواقعية التي جعلت شارون يأمر بإخلاء إحدى وعشرين مســتوطنة يهوديــة تتجاوز حدود البحر المتوسط. وأن حماية الثمانية آلاف مستوطن الذين يعيشون بين 1.3 مليون فلسطيني تستنزف موارد إسرائيل.

لقــد أمر شارون ببناء جدار أمني هائل من الإسمنت المسلّح والأسلاك الشائكة،

لحمايـــة المستوطنين في الضفة الغربية، إن هذا الجدار يزحف مثل الأفعى على طول البلاد؛ وكان هذا يعني توسيع حدود إسرائيل الحالية.

مـــثل معظم الإسرائيليين، كان المحللون مشغولين حول الوقت الذي ستصبح فيه بصـــيرة بـــيريس النافذة حقيقة. لقد توصل المخططون في الطابق السادس إلى نتيجة مفادهـــا أنـــه بحلـــول سنة 2010، سيفوق عدد العرب الذين يعيشون بين نهر الأردن والبحر المتوسط عدد اليهود الذي سيصل وقتها إلى 5.2 مليون يعيشون في إسرائيل.

فـــي الشهور التي سبقت الوفاة، توقع عرفات أن لا تكون غزة هي الوحيدة التي ســـتنظف مـــن المستوطنين، ولكن الضفة الغربية أيضاً ستشهد مغادرة مستوطنيها من الأرض القديمة ليهودا والسامرا (وفقاً للتعبير الإسرائيلي).

نصـــح المحللون مير داغان أن عرفات ترك ميراثاً مليئاً بالمخاطر. وتوقعوا أنه فـــيما ستصوّر منظمة التحرير الفلسطينية الانسحاب من غزة على أنه انتصار إعلامي كبـــير، ســـتتحدّى حركات فلسطينية متشددة مثل حماس دعوات قيادة منظمة التحرير الفلسطينية لإيقاف الهجمات على المستوطنات. وتبين لاحقاً أن ذلك صحيح.

نفّـــذت قـــوة عســـكرية إسرائيلية كبيرة عملية الإخلاء. وبعد إخلاء المستوطنين للكُـــنس، قامـــت حـــركة حماس بإحراقها كلياً. واستؤنفت الهجمات الانتحارية (وفقاً للوصف الإسرائيلي) على إسرائيل بعد توقف قصير. وبرّرت حماس تلك العمليات بأن الانسحاب من غزة ليس سوى مناورة من إسرائيل لاحداث مزيد من البؤس والإحباط للفلســـطينيين. وقالت حماس: "لن يكون هناك سلام، حتى يتم إخراج آخر يهودي من أرضنا".

تنافســـت مـــنظمة التحرير الفلسطينية وحماس خلال حياة عرفات على السيطرة علـــى الانتفاضـــة سنتي 1987 و2000؛ وحاولت كلتاهما الفوز بتأييد الشباب العربي الـــذي كـــان دعمـــه حاسماً في تحديد اتجاه القتال ضد إسرائيل. مع اندلاع الانتفاضة الثانـــية، أصبحت العمليات الانتحارية (وفقاً للوصف الإسرائيلي) الرمز الأساسي لها عـــندما أخذ ناشطو الجماعات الإسلامية وفتح يفجّرون أنفسهم ليقتلوا أكبر عدد ممكن من الإسرائيليين في المتاجر والمطاعم، ومحطات الحافلات، والأسواق – وكان القادة الشـــيوخ يدعـــون إلـــى الجهـــاد علـــى أرضية أن كل الإسرائيليين، بمن فيهم النساء والأطفـــال، أهداف شرعية لأن إسرائيل مجتمع عسكري – وكان هناك جهود لإقناع عـــرفات باتخـــاذ إجراءات ضد الإرهابيين (وفقاً للوصف الإسرائيلي)، ليس من قبل أريـــيل شـــارون فقط، وإنما أيضاً من قبل العناصر المعتدلة في العالم العربي. وكان

عــرفات مــا زال يمتلك شرعية سياسية بينهم. لكن حماس كانت تستفيد من تطرفها، وتشكّل عاملاً قوياً لإغراء الشباب، ويلخصون ذلك بصورة البطل التي يسبغونها على أســامة بن لادن، الذي ادّعى مراراً وتكراراً: "لن يكون هناك حل لمشكلة الفلسطينيين ســوى عــبر الجهاد". وفيما استمرت الانتفاضة الثانية تستعر في محرقة كبيرة، شاهد عــرفات تدمــير بنيته التحتية بالأسلحة الإسرائيلية المتطورة، والتي كانت تقودها إلى أهدافها المعلومات الاستخباراتية المتفوقة للموساد والشين بيت، (جهاز الأمن الداخلي). وفــي ما اعتبره محللو الموساد محاولة يائسة أخيرة لتثبيت قيادته المريضة، بدأ ياسر عــرفات الادعــاء بــأن طريقته في احتواء التوتر السياسي هي الوحيدة القادرة على الضغط على إسرائيل لقبول مطلبه بإنشاء دولة فلسطينية قابلة للحياة. قبل فترة قصيرة مــن وفاتــه، اســتطاع عــرفات الحصــول على دعم عدد كبير من المناصرين بين الفلسطينيين المؤثرين. وبالنسبة لأرييل شارون، كان منح عرفات الشهادة التي يطلبها يمــثل خطــراً بإغواء الفلسطينيين المعتدلين بالحذو حذوه، وفي نفس الوقت استمرت حماس بأعمال العنف، وهو ما لم يكن مقبولاً على الإطلاق.

كــان الاختصاصــيون يعرفون، من الاستماع لسنوات طويلة إلى الأشرطة التي ســجلها ياهولومين، *وحدة اتصالات الموساد*، بأن عرفات تحدّث دائماً عن اقتناعه بأنه تــم اختياره لقيادة العالم العربي، وكان ذلك حجز الزاوية في قيامه بأداء دور الخليفة المعاصر.

أســعف هــذا الوهــم عرفات خلال أحلك ساعاته في المنفى، في تلك السنوات العجــاف التــي كان يقول فيها بأن وجود إسرائيل هو سبب كل المشاكل، ليس للبلاد العربــية وحســب، وإنما لكل العالم الإسلامي. لطالما كان هناك جدال وفي واشنطن وأمكــنة أخــرى، بأنــه لا جدوى من الاستماع إلى خطب قائد سياسي مفوّه تتمحور رسالته الوحيدة حول العنف.

لكن في الطابق السادس، كان الاختصاصيون يعرفون أن تجاهل كلمات عرفات ســيكون خطيراً. ورغم أنه ورفاقه لم يعودوا يسيطرون على العمليات الإرهابية (وفقاً للوصــف الإسرائيلي) ، أو على بعضها على الأقل، إلا أن أيديولوجية عرفات ألهمت الكثــير مــن المجاهديــن الشباب الذي كان ينظرون إليه كمثال أعلى لهم، وأن عليهم واجــباً مقدّساً في ضرب الغرب بطريقة ما لما فعله بالدول العربية. وفي وقت لاحق لبــث المشــاهد العاطفــية التي واكبت مراسم دفن عرفات، أرسل كاستا الموساد في الشرق الأوسط، وكشمير، والشيشان تقارير تفيد بأن موته قد أثار المشاعر.

كانت الأولوية بالنسبة للاختصاصيين أن يثبتوا للعالم الإسلامي بأن ياسر عرفات لا يستحق أن يكون خلَف عبد المجيد الثاني، الخليفة الأخير الذي اختار المنفى بعد إلغاء القوميين الأتراك في الثالث من آذار سنة 1924 للخلافة. وحوّل القائد التركي، مصطفى كمال، أو أتاتورك، ما تبقّى من الإمبراطورية العثمانية التي انهارت في نهاية الحرب العالمية الأولى إلى جمهورية علمانية، وتبنّى القوانين وطريقة الكتابة والتقويم الأوروبية. إنها عملية نزعت بذور الجهاد في تركيا

في مصر، اندلعت الثورة المصرية ضد الاستعمار البريطاني. وأصبحت جماعة الإخوان المسلمون التي تأسّست سنة 1928 قوة سياسية فعّالة؛ وعندما خطط جمال عبد الناصر لانقلاب (الثورة) سنة 1952، نجح بفضل تأييدهم. لكن سرعان ما رأى ناصر أن تشدد الجماعة يشكل تهديداً، وقام بحظر نشاطها، وتم نفي أعضائها، وسجنهم أو شنقهم. ووجد الكثير منهم ملجأ لهم في ملكيات مثل الأردن والمملكة العربية السعودية.

إن كلاً من عرفات وبن لادن القادمين من بيئتين مختلفتين تماماً، كان متأثراً بعدد من العوامل: هزيمة الجيوش العربية أمام إسرائيل سنة 1967، الوفرة النفطية في الدول العربية، التي موّلت الإسلاميين في العالم الإسلامي؛ وثورة آية الله الخميني الإسلامية، التي أطاحت بشاه إيران سنة 1979، والغزو السوفيتي لأفغانستان في السنة نفسها، إنها عوامل أثارت الدعوات لشن الجهاد ضد الاتحاد السوفيتي، والتي تم تزويدها بأسلحة أمريكية، وتلقّت الدعم الكامل من أجهزة الاستخبارات الباكستانية السرية.

تمثّلت النقطة المركزية في الكفاح العسكري المتزايد باضطراد في العالم الإسلامي في اغتيال الرئيس المصري أنور السادات سنة 1981 بعد توقيعه اتفاقية سلام مع إسرائيل. بعد إغتيال السادات قام القادة العرب باحتجاز المتطرفين الموجودين كلٌ في بلده.

قال ديفيد كيمش، النائب الأسبق لمدير الموساد (للمؤلف): "أصبح الغرب للمرة الأولى قلقاً مما كانت إسرائيل تقوله طوال سنوات حول خطر الأصولية الإسلامية".

لكن التطرف، الذي استغلّه كل من أسامة بن لادن وعرفات، استمر بالظهور. فالولايات المتحدة أصبحت الشيطان الأكبر، وإمبراطورية الإلحاد. وأثار نشر القوات الأمريكية في المملكة العربية السعودية لطرد القوات العراقية من الكويت سنة 1991 المزيد من التطرف في العالم العربي.

في تلك المرحلة، قرر الاختصاصيون في الطابق السادس أن ياسر عرفات وأسامة بن لادن اختارا طريقين مختلفين لتحقيق أهدافهما، وكان بن لادن مصمماً على شن حرب ضد حليف إسرائيل القوي، الولايات المتحدة. في العام 1993، حصلت تفجيرات مركز التجارة العالمي التي جاءت بالإرهاب إلى الأراضي الأمريكية. وفي العام 1998، ومن أفغانستان التي تحكمها طالبان، أعلن بن لادن وأيمن الظواهري، تشكيل الجبهة الإسلامية العالمية للجهاد ضد اليهود والصليبيين. وأصدرا فتوى تعلن أن واجب على كل مسلم قتل الأمريكيين واليهود.

في 12 تشرين الأول سنة 2000، صدم المهاجمون الانتحاريون في قارب مليء بالمتفجرات السفينة الحربية الأمريكية يو أس أس كول في عدن، مما أدى لقتل سبعة عشر بحاراً. وبعد سنتين، في 28 تشرين الثاني 2002، نسف ثلاثة مهاجمين انتحاريين أنفسهم في مومباسا خارج فندق برادايس الذي يملكه إسرائيليون. ومات عشرة كينيين وثلاثة إسرائيليين. وفي نفس الوقت، أخطأ صاروخ أرض-جو إصابة طائرة إسرائيلية تقلع من مطار مومباسا وعلى متنها مئتي سائح في طريق عودتهم إلى تل أبيب.

ظهر الإرهاب النفطو-إسلامي من أنقاض القومية العربية. وتم استبدال أحكام شاه النظام الفارسي التي كانت بعيدة عن التقوى بمعتقدات آية الله الخميني، التي انتشرت خارج حدود إيران لتصبح مركز الأمل للعالم الإسلامي الكبير. وأصبح تسييس الإسلام الذي كان ينظر إليه الغرب حتى ذلك الوقت كعقيدة محافظة تخسر قبضتها في وجه التأثير المتزايد لما سيدعوه بن لادن مجتمع الكوكاكولا والشيطان الأكبر - ثورة مكتملة. كان هدفها الأول، والذي لم يتزعزع أبداً، إسرائيل. ووقع عبء التصدي لموجة من الهجمات على عاتق الموساد. وأصبح تدمير عرفات، وحماس، وحزب الله أهدافاً رئيسية للموساد.

سرعان ما قدّمت سورية الدعم لهذه الجماعات لسبب ذاتي: كان ذلك يقدّم المصداقية للنظام في العالم العربي في عدائه المزمن نحو إسرائيل. لكن ذلك أصبح سيفاً ذا حدّين. ورغم أن الهجمات الانتحارية (وفقاً للوصف الإسرائيلي) التي رعتها سورية قادت بالفعل إسرائيل أخيراً إلى التفاوض حول مرتفعات الجولان - بادرة لما حدث عند إخلاء المستوطنين من غزّة - إلا أن استثمارها المستمر في هذا النوع من الهجمات، عزّز من عدم ثقة الرأي العام الإسرائيلي بدمشق. ورغم ذلك، نتج عن إخلاء المستوطنات في غزة، كبادرة حسن نية عن السلام الدائم مع إسرائيل، ازدياد

الاستياء ضمن السكان الذين بدأوا يقلّدون بسخرية صرخات حرب حماس بأن الهجمات ستتوقف فقط عندما يتم رمي آخر يهودي في البحر.

استنتج محللو الموساد أن إحدى الطرق لاستعادة الدعم لخطة خارطة الطريق لتحقيق السلام كانت تحطيم أسطورة ياسر عرفات. وللقيام بذلك، استفاد قسم الخدمات التقنية في الموساد من مهارات استخدام آخر تكنولوجيا المعلوماتية. ومنذ بدء الانتفاضة الفلسطينية الثانية سنة 2000، استخدمت المجموعات الإرهابية العربية، الإنترنت للترويج لأهدافها. وأصبحت الشبكة الدولية، مع سهولة بناء المواقع عليها، وحرية الدخول إليها، وصعوبة مراقبتها المكان المثالي لإصدار البيانات السياسية، وإعلان المسؤولية عن الهجمات الانتحارية (وفقاً للوصف الإسرائيلي)، والسعي لإيجاد مصادر التمويل، وتقديم خبرات التدريب على السلاح والمتفجرات، وبيع أي شيء من ملابس الانتحار إلى مكوّنات تشكيل الحرب البيولوجية أو الجرثومية.

ربما يكون الموساد أول جهاز استخبارات يراقب الإنترنت؛ وكان أعضاء المليشيات يعرفون أن مساجدهم تخضع للمراقبة بشكل شبه مؤكد، ولهذا كانت مواقع الإنترنت طريقة جديدة وآمنة نسبياً لإتصالهم بأنصارهم. وابتكر الموساد عدداً كبيراً من مواقع الإنترنت التابعة له، والتي أدخلوا فيها بحرص شديد معلومات مزيفة بكل لغات الشرق الأوسط.

في الفترة التي تلت وفاة عرفات، بدأت القصص بالظهور على المواقع تدّعي بأنه خان شعبه لصالح تبجيل شخصيته، وتركّز على فقدانه للنزاهة الأخلاقية. وادّعت المواقع أن القسم الأكبر من الأموال المخصصة لتحسين حياة الفلسطينيين الذين يعانون من فقر مدقع انتهت في حسابات عرفات الشخصية.

كانت تلك الادعاءات من صنع حفنة من علماء النفس في LAP، *قسم الموساد المسؤول عن الحرب النفسية*. ولدى القسم تاريخ طويل من إثارة الخلافات بين أعداء إسرائيل. وقدّمت وفاة عرفات فرصة أخرى للـLAP لإظهار مهاراته.

بالعمل على معلومات جاءت من أربع وعشرين محطة للموساد حول العالم، أثبت علماء النفس أن عرفات استحوذ على محفظة مالية تقدّر بحوالى 6.5 مليار دولار أمريكي. ورغم ذلك كانت السلطة الفلسطينية، التي تقوم بإدارة الأراضي التي تسيطر عليها منظمة التحرير الفلسطينية في قطاع غزة والضفة الغربية، على وشك الإفلاس.

زرعت LAP قصة في صحيفة الأهرام التي تصدر في القاهرة بأن عبد الجواد

صالح، العضو البارز في السلطة، أراد استجواب محمد رشيد مستشار عرفات المالي، والـــذي يديـــر أموال منظمة التحرير الفلسطينية. وسرعان ما وجدت محطات التلفزة والصحف في البلدان الخليجية، والأردن، وسورية، ولبنان نفسها تحصل على نسخ من تقرير منظمة التحرير الفلسطينية في غاية السرية يظهر فيه أن المنظمة تقع في عجز مالـــي يـــتجاوز 95 ملـــيون دولار شهرياً. وأصبحت القصة أكثر إثارة عندما كشف صـــندوق الـــنقد الدولـــي أن عرفات حوّل مليار دولار أمريكي أو ما يزيد من أموال منظمة التحرير الفلسطينية بين سنتي 1995 و2000.

انتشرت القصة مثل النار في الهشيم عبر العالم العربي. وقال قاضٍ فلسطيني قام بالتحقـــيق فـــي فساد منظمة التحرير الفلسطينية أنه يعرف أن أربعة مسؤولين موالين لـــعـــرفات يحتفظون بحسابات سرية مصرفية في سويسرا. وقدّم القاضي تفاصيل عن الفســـاد المستشـــري. وكشـــف معلومـــات (للمؤلف شرط إبقاء اسمه سراً): تتضمن الصـــفقات الإسمنت ومواد بناء الأراضي الفلسطينية. وتصل مبالغ الفساد إلى ملايين الـــدولارات، والتي غض عرفات الطرف عنها مقابل حصوله على حصة من هؤلاء الجشعين. لقد كان عرّاب كل العرّابين الآخرين.

كـــان المقصود إضعاف منظمة التحرير الفلسطينية في حال دخولها بمفاوضات مـــع رئـــيس الـــوزراء الإسرائيلي شارون، عوضاً عن ظهورها كجبهة قوية موحدة. وبالتركـــيز على تعاملات عرفات المالية الغامضة دون شك، أنهى LAP بفاعلية أيضاً أي تفكير حول أي دور للموساد في وفاته. وكان ذلك عملاً نمطياً لما سمّاه رافي إيتان مـــرة (للمؤلف): "الكلمات التي توضع في مكانها الصحيح تكون غالباً فعّالة أكثر من القنابل".

كـــان تحطـــيم صـــورة عرفات جزءاً فقط من دور الموساد في حرب الموساد المعلوماتـــية، التـــي أصبحت أكثر المفاهيم سخونة في كيريا، مقر قيادة قوات الدفاع الإســـرائيلية. وتم تصميم الحرب المعلوماتية لاستغلال الأدوات التكنولوجية المتطورة باســـتمرار في أواخر القرن العشرين لتسمح لإسرائيل بشن هجمات سريعة، وخفيفة، وخفـــية، وواسعة النطاق على البنية التحتية الاقتصادية، والعسكرية والمدنية قبل القيام بأي عمل عسكري. كانت الأهداف الرئيسية سورية وإيران.

قدّمـــت الولايـــات المتحدة معالجات مجهرية حاسوبية قوية وحسّاسات متطورة، والتدريـــب علـــى اســـتخدامها، بموجب صفقة عزيزة أخرى عقدها شارون مع إدارة بوش.

تم إرسال ضباط IDF وعدّة اختصاصيين في الموساد إلى جامعة الدفاع الوطنية في واشنطن وكلية الحرب البحرية في نيوبورت رود ايلند، ليتعلموا كيفية القضاء على سوق أسهم العدو وتشكيل الصور عن أحد قادة العدو. وقبل أن يتخرّجوا، كان الطلاب يصـــعدون علـــى متـــن كوماندو سولو، طائرة شحن القوى الجوية الأمريكية السابقة المعدّلة، المزوّدة بتجهيزات تبلغ قيمتها 70 مليون دولار والتي تمكّن طاقم الطائرة من التشويش على البث الإذاعي والتلفزيوني لأي بلد وتبديل الرسائل – حقيقة أو مزيفة – على أي إشارة بث. لقد طلبت IDF نسخة عن تلك الطائرة.

كـــان تقنـــيو الموساد يبحثون عن طرق لتعطيل أنظمة حواسب العدو باستخدام مجموعة من السلالات الفتّاكة من فيروسات البرامج. وكانوا يستخدمون قنبلة المنطق، المصـــممة لتبقى راقدة في أنظمة العدو حتى وقت محدد سلفاً يتم تفعيلها فيه حيث تبدأ بتدمير البيانات المخزّنة. ويمكن لمثل تلك القنبلة أن تهاجم أنظمة الدفاع الجوي للعدو أو المصـــرف المركـــزي. لقد ابتكر التقنيون برنامجاً يمكنه وضع رقائق اختراق في الأسلحة التي يخطط مصنع سلاح أجنبي لبيعها إلى بلد معادٍ مثل إيران أو سورية. وتم توجـــيه كاســـتا الموساد في بلاد أوروبا الشرقية الرئيسية المصنّعة للسلاح للبحث عن المبرمجيـــن المســـتقلين الذين يعملون على إنشاء برامج لأنظمة الأسلحة تلك. وكانوا يـــتلقّون مبالغ ضخمة مقابل زرع الفيروسات في تلك الأنظمة. وقال أحد الإسرائيليين المتخصصـــين فـــي تقانة المعلومات (للمؤلف): "عندما يأخذ السلاح وضعية الهجوم، يعمل كل شيء فيه، لكن رأسه الحربي لا ينفجر".

عمـــلاء الموســـاد مزوّدون الآن بأداة بحجم الحقيبة اليدوية تستطيع توليد نبض إلكترومغناطيســـي شـــديد القـــوة. ولدى وضعه بجانب أحد الأبنية، يحرق النبض كل المعدّات الإلكترونية في ذلك المبنى. ويأتي الجهاز مزوداً بآلية مدمجة للتدمير الذاتي، والتـــي تضـــمن بقاء مكوّناته سراً. في معهد الأبحاث البيولوجية، كان العلماء يعملون للوصول إلى ميكروبات تستطيع العيش على تناول الإلكترونيات، وعزل المواد داخل الحواســـب بـــنفس الطـــريقة التي تستهلك بها الكائنات المجهرية القمامة. كان علماء آخـــرون يعملـــون على رذاذ يمكن نشره فوق قوات العدو. ويمكن لحسّاسات مجهرية عندها أن تتعقب حركاتهم من خلال تنفسهم أو عرقهم.

فـــي الطوابـــق الأخرى في الأسفل، حيث يبني الاختصاصيون مواقع الإنترنت حول ياسر عرفات، ينكبّ خبراء آخرون ماهرون أيضاً على علمهم.

تحتل مختبرات البحث والتطوير الطابق الثاني وتستمر في ابتكار وتطوير أدوات

المراقبة والأسلحة المعدّلة. وجاءت من هناك آلة التصوير بحجم علبة أعواد الثقاب، والتي تستطيع تسجيل وتصوير أي شيء على بعد ستين ياردة، ومجموعة من السكاكين، بما فيها تلك التي تستطيع قطع الحبل الشوكي. ويتم تصميم هذه الأشياء لفرق الكيدون المتخصصة بتنفيذ الاغتيالات.

يشغل الطابق الثالث مكاتب الأرشيف والارتباط مع الشين بيت – الجهاز الإسرائيلي المكافئ لمكتب التحقيقات الاتحادي FBI، والمسؤول عن الأمن الداخلي وأجهزة الاستخبارات الأجنبية التي يُعتقد أنها صديقة. وتتضمن هذه CIA، وMI6 البريطاني، وجهازي الاستخبارات الفرنسي والألماني، وجهاز الاستخبارات الروسي الخارجي. ويشغل جزء من الطابق قسم جمع المعلومات الذي يتولى تجميع كل ما يرد من الخارج، ويوزّعه إلى الأقسام المختصة على قاعدة الحاجة إلى المعرفة. ويستلم قسم الأرشيف كل شيء؛ وهي البيانات التي ينبغي تخزينها في حواسب عالية السرعة متصلة ببعضها البعض عبر شبكة.

تحتوي تلك الحواسب على الملفات النفسية لقادة العالم، والإرهابيين، والسياسيين، وأصحاب رؤوس الأموال الكبيرة – أي شخص يمكن أن يكون مفيداً أو يشكل عائقاً لإسرائيل. ويتضمن الملف عادةً التفاصيل الشخصية والعلاقات القريبة. فعلى سبيل المثال: يحتوي ملف الرئيس بيل كلينتون على تسجيلات عديدة لمحادثاته مع مونيكا لوينسكي، والتي شارف بعضها على أن يكون مكالمات جنسية (راجع الفصل الخامس – سيف جدعون النووي). ويحتوي ملف هيلاري كلينتون على تحليل موثّق لاتصالها مع فينس فوستر، نائب مدير المكتب البيضاوي أيام كلينتون. واستنتج الموساد أن فوستر لم ينتحر وإنما، وفقاً لأحد ضباط الموساد الذين قرأوا الملف: "تم قتله على الأرجح للتغطية على ما كان محاولة جدّية من قبل أشخاص في البيت الأبيض أيام كلينتون لإخفاء مواد سرية يفضلون بقائها كذلك (كما تم إخبار المؤلف)".

تم تخصيص أسامة بن لادن برف كامل من أقراص الحواسب تحتوي على خطاباته، وظهوره منذ 9/11، وتنظيم وبنية القاعدة. ويشرح ملفه بتفاصيل دقيقة كيف وضع الخطط التي أدّت إلى قتل الناس الأبرياء في الغرب أكثر مما توفي في أوروبا خلال أي نزاع منذ الحرب العالمية الثانية. وتشير تحليلات خطاباته أسامة بن لادن إلى أنه أسير تفسيراته الحرفية؛ وتبدو الاستنتاجات الفكرية العادية التي يعتمد عليها تفكير معظم الأوروبيين خارج مداه. وتم تخصيص أحد الأقراص الحاسوبية لتعيين ابنه البكر سعد كخليفة له، وتركّز التعليمات في هذه الأثناء على تطوير استراتيجيات

لشن هجمات على أهداف أمريكية. وجاء الإعلان عن قوة القدس، الاسم الذي يستخدمه بن لادن عندما يخاطب مناصريه كتذكير لطموحه النهائي لدخول المدينة منتصراً. وتعد نسخة من الرسالة: "عندما يحين ذلك اليوم، سيكون ابننا سعد على رأس قضيتنا المقدّسة". واستنتج محللو الموساد أن الكلمات تمثّل إشارة أخرى على أن بن لادن لا يتوقع العيش طويلاً ليشاهد مثل هذا الحدث. ويشير ملف منفصل عن سعد إلى سنه البالغ السادسة والعشرين، ويصفه على أنه ابن بن لادن من زوجته الأولى والمفضّل لديه ضمن الأولاد الثلاثة والعشرين الآخرين الذين أنجبهم. ويصف الملف سعد على أنه: "صورة مصغّرة عن أبيه، جسدياً وفكّرياً". ويكشف أن سعد جاهد مع والده في أفغانستان وقاتل ضد الاحتلال السوفيتي. يتذكّر الأمريكيون الذين التقوا به استعداده للقتل. وتقول آخر فقرة في التقرير أن سعد موجود على لائحة فرق الكيدون المتخصصة بتنفيذ الإغتيالات.

فيما كان عرفات يرقد محتضراً في باريس، أعاد بن لادن إحياء مطلبه الخاص بتشكيل خلافة كبيرة تمتد من آسيا إلى جنوب أسبانيا. واستخدم الاختصاصيون في الطابق السادس هذا المطلب لخدمة أهدافهم الخاصة. وقاموا بابتكار وثائق، نسبوها إلى حماس، بأن أسامة بن لادن مصمم على إلحاق العار بذكرى قائد منظمة التحرير الفلسطينية. في العالم العربي، ربما ينشأ عن مثل هذا الادّعاء بعض الاضطراب، وفي نفس الوقت لن تقلل من تأثير التسريبات بأن ياسر عرفات سرق من الفلسطينيين عشرات الملايين من الدولارات. لقد كان وضع عدو لإسرائيل في مواجهة عدو آخر تكتيكاً أجاده LAP.

كانت إحدى الطرق للقيام بذلك استغلال سلوك القائد الليبي العقيد معمّر القذافي. فمنذ توليه السلطة سنة 1969، عندما كان قائداً لمجموعة صغيرة من الضباط الشباب في سن السابعة والعشرين، أصبح القذافي هدفاً رئيسياً للاغتيال من قبل الموساد. وقادته نجاته من عدّة محاولات إلى تشكيل فريق حراسة شخصية من الفتيات الطوال القامة والقويات البنية اللواتي تلقين تدريبهن على أيدي خبراء سابقين في KGB. وركّز LAP على السخرية منه في العالم العربي باستخدام صور مزيفة من صنع مختبر التصوير في قسم الحرب النفسية في الموساد تظهر القذافي في أوضاع جنسية مع النساء. وكان القذافي آنذاك يدعم الإرهابيين، بما في ذلك تسليح IRA، ويرعى الهجمات على المطارات في فيينا وروما وملهى برلين، الذي كان يفضّله الجنود الأمريكيين المتواجدين في المدينة. وتم ربطه بتفجير الطائرة فوق لوكربي سنة 1998

. وبــدا سلوكه خارج حدود العقل في بعض الأوقات. وفي سنة 2001، عرض شراء كــل الموز الذي ينمو في الكاريبي لكسر احتكار منظمة التجارة العالمية. وكان ينافس فــي ارتــداء الملابس مايكل جاكسون، نجم البوب المفضّل لديه؛ وكان القذافي يرتدي عادةً ملابس برتقالية اللون، وأزياء عسكرية ذهبية متموجة.

فــي العــام 2002، سجل LAP نجاحاً دعائياً آخر بنشر قصة تقول إن القذافي أجــرى عملية زرع شعر. وفي وقت لاحق من تلك السنة، وصل إلى القمة الأفريقية علــى متــن سفينة شحن مليئة بذبائح الماعز ووزّعها على الوفود المشاركة. ووصفه جعفــر النميري، الرئيس السوداني الأسبق، بعد ذلك بالقول: "رجل يعاني من انفصام الشخصية – كلتاهما مجنونة تماماً". وكان LAP قادراً على استخدام هذا القول لإحداث تأثير كبير. وركّز أيضاً على نشاطات القذافي الجنسية. وبعد أن أنجب سبعة أولاد من زوجتين، كان يخص المراسلات الصحفيات الأجنبيات بمقابلات إذا ... معه. وأصبح ذلــك أيضــاً عنصــراً آخر يروّج له LAP في العالم. وفي زمن معاصر، وفي العام 2003، نشــر LAP قصصاً بأن القذافي يعاني من سرطان في مراحله الأخيرة. ولكن بعد ذلك، وفي منتصف العام 2004، كانت صورته كمهرج يمتلك ترسانة نووية قوية، التي هدد مراراً بإطلاقها ضد إسرائيل، على وشك أن تتغير بشكل مثير.

تــتمركز محطــة الموساد في لندن عميقاً داخل السفارة الإسرائيلية في مقاطعة كيسنغتون الراقية. ولا يمكن الدخول إليها سوى باستعمال بطاقات ممغنطة يتم تغييرها باستمرار، وتتمتع بنظام اتصالات مستقل عن ذلك الذي يخدم المقسم الرئيسي، وتتمتع بحمايــة لا مثــيل لهــا ضمن مبنى يعتبر الأمن هاجسه الأول. ويوجد في كل مكاتب المحطــة بــاب يعمــل بمفتاح خاص وخزنة، والتي لا يعرف أرقامها سوى الضابط المقيم. ويستخدم تقني من قسم الأمن الداخلي في الموساد (APM) بشكل دوري جهازاً يعمل يدوياً لكشف أي أدوات تجسس؛ ولم يتم لحظ أي منها إطلاقاً. ويتم اختيار ضباط الاســتخبارات الســتة وكــادر الموظفين المساعد بعناية فائقة لشغل موقع أساسي في محطــة الموســاد لمــا وراء البحار. وتنافس محطة الموساد في لندن الآن من حيث الأهمية قاعدة الجهاز في واشنطن.

يعمــل الكــادر وفقاً لتوجيهات رجل يدعونه جميعاً ناتان، والذي خدم في آسيا وأفريقــيا قبل أن يتولى منصب مدير المحطة. وتتضمن واجباته الرسمية التنسيق مع MI5 وMI6، وفصــيل سكوتلنديارد لمكافحة الإرهاب، وأجهزة الاستخبارات الأجنبية الأخرى المتمركزة في العاصمة. ويعتبر وجهاً مألوفاً في حفلات الكوكتيل الدبلوماسية

فـــي العاصمة، ويتناول غداءه بشكل منتظم في أحد النوادي المخصصة للأعضاء فقط إلـــى جانـــب نخبة السياسيين البريطانيين. ولفت أحد تلك النوادي المسمّى المسافر في بول-مول إنتباه ناتان في يوم شتاء قارص في كانون الأول.

فـــيما كـــان اللندنيون يشاركون في جولة أخرى من حفلات الميلاد في المكاتب، وصـــل سبعة أشخاص بشكل منفصل إلى النادي، والذي لطالما كان مكاناً مفضلاً للقاء ضباط مجتمع الاستخبارات البريطاني منذ أمدٍ بعيد. يقع النادي على بعد مسافة قصيرة مشـــياً من وزارة الدفاع، ووزارة الخارجية، ووزارة الداخلية، ومقر رئاسة الوزراء، ويعتبر مكاناً مريحاً وهادئاً حيث يمكن تبادل الأسرار عند تناول قطعة لحم مشوي في المطعم، أو السؤال حول شيء ما أثناء تناول وجبة عشاء في قاعة النادي.

شـــق ستة رجال يرتدون بذلات مقلّمة وامرأة ترتدي فستاناً أسود طريقهم خلف حجرة بواب النادي إلى غرفة خلفية. كانت الغرفة محجوزة باسم **ويليام إيرمان**، مدير عـــام الدفاع والاستخبارات في وزارة الخارجية. وتم تجهيز بوفيه خدمة ذاتية يحتوي علـــى الشاي، والقهوة والمشروبات الغازية، وتشكيلة من شطائر النادي الشهيرة على طاولـــة جانبـــية: لـــم يتضمن البوفيه لحم الخنزير احتراماً للرجال الثلاثة الذين كانوا ينتظرون في الغرفة مع إيرمان. وكان هؤلاء **موسى كوسا** رئيس الاستخبارات الليبية، و**علـــي عبداللات** السفير الليبي في روما و**محمد عبد القاسم** الزاوي السفير الليبي إلى لندن.

عـــرّف إيـــرمان الرجال الثلاثة إلى **إيلـــزا مانينغهام-بولر** رئيسة MI5، و**جون ســـكارليت** رئـــيس MI6، و**ديفيد لاندمان** رئيس قسم منع انتشار الأسلحة النووية في وزارة الخارجية، واثنين من المسؤولين البارزين من قسم إيرمان. جلس الجميع بشكل مـــتقابل حول طاولة طويلة من الخشب الصلب. وعند الساعة الثانية عشرة والنصف تماماً حسب الساعة الموجودة فوق رف الموقد، انطلق إيرمان يتحدث.

"أيها السادة، لقد قطعنا شوطاً طويلاً. دعونا ننتقل الآن إلى القرار".

هكذا بدأ اجتماع سيستمر ست ساعات للتفاوض حول إحدى أكثر القضايا المذهلة فـــي الدبلوماسية الدولية خلال عقود. وكان الهدف من الاجتماع الاتفاق على كل كلمة مـــن الـــنص الذي سيسمح للعقيد القذافي، الرجل الذي وصفه الرئيس ريغان مرة بأنه "كلب الشرق الأوسط المجنون"، بالتخلي طوعاً عن أسلحة الدمار الشامل الليبية.

اســـتطاع القذافي على مدى سنوات إنشاء ترسانة كانت الأقوى في قارة أفريقيا. وكانـــت ليبـــيا تحـــتفظ بمعمل كفرا للأسلحة البيولوجية والكيميائية قريباً من حدودها

الجنوبية مع مصر، والذي يختبئ عميقاً تحت رمال الصحراء وخارج مدى القنابل القادرة على إختراق الملاجيء المحصنة التي زوّدت الولايات المتّحدة إسرائيل بها. وكان هناك احتمال بشن هجوم تخريبي ناجح بعدما استطاع أحد عملاء الموساد المخفيين الحصول على مخطط تفصيلي لمتاهة المختبرات المحمية جيداً حيث يعمل علماء الذرة من الاتحاد السوفيتي وألمانيا الشرقية السابقين.

كان هناك معمل للأسلحة الكيميائية في رابطة، على بعد ستين ميلاً إلى الجنوب من طرابلس الغرب عاصمة البلاد، والذي ينتج غاز الخردل وهو سلاح تم استخدامه خلال الحرب العالمية الأولى، وصولاً إلى غازات الأعصاب الحديثة. وكان يتم تصنيع تلك الغازات أيضاً في مركز تاجورا للأبحاث النووية، الواقع على ساحل البحر المتوسط. وبالمحصلة، كان هناك عشرة مواقع لإنتاج أسلحة الدمار الشامل. وكانت جميعها محمية بصواريخ سكود البعيدة المدى المصنّعة بمساعدة كوريا الشمالية.

في ذلك اليوم من كانون الأول، كان الاجتماع في الغرفة الخلفية في نادي المسافر ذروة الجهود لإنهاء ثلاثين سنة من علاقات القذافي المتوترة مع الغرب، والسماح برفع اسم ليبيا أخيراً عن لائحة الدول المنبوذة.

بدأ طريق الإصلاح بانهيار الشيوعية السوفيتية، والذي قضى على أمل ليبيا بانتهاء ضغوط الولايات المتحدة المستمرة. وكان هناك فشل في البرامج الاقتصادية المتعاقبة التي جعلت القذافي متلهفاً لجذب الاستثمارات الأجنبية. أخيراً، أدرك أن النزعة الحربية الإسلامية تشكل تهديداً ثأرياً ضد نظامه وسجله الحافل في دعم الإرهاب. وحتى قبل إلقاء القبض على صدام، بدأت ليبيا تنبذ الجماعات الإرهابية التي احتضنتها من قبل؛ وبدا القذافي في وقت من الأوقات يمثّل صوتاً معتدلاً. في نيسان سنة 1999، وافقت ليبيا على السماح بمحاكمة اثنين من ضباط استخباراتها بموجب القوانين الاسكتلندية في جريمة تدمير طائرة بان آم 103 فوق لوكربي. وبعد هجمات 11 أيلول، قدّم القذافي سراً معلومات لـCIA وFBI حول القاعدة. وطلب من عرفات عدم إعلان قيام دولة فلسطين. ويلّخص كل ذلك ابنه سيف الإسلام القذّافي: "إذا تمتعنا بدعم الغرب والولايات المتحدة، سنحقق في خمس سنوات أكثر مما نستطيع خلال خمسين سنة أخرى. وكان الإثبات حضور مبعوثي والده في معقل المؤسسة الإنكليزية".

خلال الاجتماع، تناوب إيرمان وموسى كوسا الحديث عبر الهاتف في غرفة مجاورة. وكان إيرمان يتحدث إلى رئيس الوزراء طوني بلير، الذي كان يقوم بزيارة

إلى دائرة سيدجفيلد الانتخابية في شمال إنكلترا. وباستخدام هاتف آخر، كان بلير يطلع الرئيس بوش في البيت الأبيض على مدى تقدّم المحادثات. وكانت مكالمات كوسا إلى هاتف في خيمة بدوية حيث يستمتع القذافي بإقامته في الصحراء.

في الشهور التالية، سافر كوسا إلى لندن عدّة مرات مستخدماً جواز سفر دبلوماسي ليبي. وكانت مهمته، على اعتبار أنه موضع ثقة القذافي الكاملة، الموافقة على اتفاق يضمن بأن لا يفقد القائد الليبي ماء وجهه، ويرضي الفريق البريطاني بأنه لن يخلف بوعده. وفي منزل آمن لجهاز MI6 قرب مطار غيتويك، نظّم كوسا ومنظمو الوثائق في وزارة الخارجية البريطانية كل كلمة في الاتفاق. وعندما كان الاختراق يبدو غالباً وشيكاً، كان يتم إرسال المسودة إلى ليبيا عبر فاكس آمن، ويعود مع بعض الاقتراحات والتعديلات التي لم تكن مقبولة لوزارة الخارجية.

شكّلت شكوك كوسا في ضرورة إشراك واشنطن تعقيداً آخر. وكانت إدارة بوش مترددة أيضاً في البداية من الموافقة على أي صفقة مع ليبيا. لكن عندما استمرت الاجتماعات السرية، طلبت CIA الاشتراك. وكان كوسا متردداً مجدداً من حضورهم. وكان يخاف من أن تعرف إسرائيل بالخطة من CIA، وأن تقوم ربما بتخريبها. وقال أحد المسؤولين في واشنطن والذي اشترك في المفاوضات لاحقاً: "كان كوسا خائفاً من أن الإسرائيليين يريدون تدمير المفاوضات حتى يستطيعوا مهاجمة مواقع أسلحة القذافي. ووجد البريطانيون أن محاولة إبرام صفقة مع القذافي تشبه المشي على البيض دون كسره".

كان الأمر كذلك منذ ذلك اليوم في آب سنة 2002 عندما قام مايك أوبراين، الوزير في وزارة الخارجية، بزيارة القذافي في خيمته في الصحراء. وكان أول مبعوث بريطاني يقوم بمثل هذه الزيارة. وبقي ينتظر عدّة ساعات قبل أن تقوم شابتين من الحرس الشخصي بإرشاد الوزير الذي كان يتصبب عرقاً لمقابلة القذافي.

يستذكر أوبريان لاحقاً: "جلس القذافي يضع نظارات داكنة، وتحدث عبر مترجم، رغم أنني أعرف أنه تعلّم الإنكليزية في دورة دراسية في إنكلترا. وعندما أصبح الوضع مناسباً، أثرت مسألة أسلحته للدمار الشامل. ولدهشتي الشديدة، لم ينكر امتلاكها، وأضاف بأن تلك مسألة جدّية. وركّز غالباً على اهتمامه الكبير بتحسين العلاقات مع الغرب، والعمل خصوصاً على جذب الاستثمارات الأجنبية إلى صناعة النفط والغاز الليبية".

عاد أوبراين إلى لندن مقتنعاً بأن القذافي كان مستعداً تماماً لعقد صفقة. لكن كان

هناك شيء ينبغي الفراغ منه أولاً. وقام أوبراين بزيارات متعددة إلى ليبيا. ورغم أنه كـان مـتأكداً مـن اتخاذ كل الاحتياطات اللازمة للحفاظ على السرية، إلا أن عميل الموساد المتخفي في ليبيا كشف تحركاته.

فـي تل أبيب، قرّر مير داغان السفر إلى لندن. ووصل عشية الحرب العراقية. وخـلال زيارتـه، استطاع داغان اللقاء مع سكارليت ومانينغهام-بولر، والرجل الذي كـان سـيخلف سـكارليت على رأس MI6 السير ريتشارد ديرلوف. وتبين لاحقاً أن داغان، بأسلوبه الفظ المعتاد، أخبر رئيسي جهازي الاستخبارات وفقاً لمصدر إسرائيلي (تحدّث إلى المؤلف): "كونوا متأكدين أن إسرائيل لن تعيق خططكم. لكنني أتوقع منكم ألا تحاولوا خداعنا".

في تشرين الأول سنة 2003، ومع انتهاء الهجوم التمهيدي في الحرب العراقية، طلـب القذافـي مـن أوبرايـن تشكيل فريق من خبراء الأسلحة البريطانيين وضباط الاسـتخبارات من MI6 وCIA لتفتيش مواقع إنتاج أسلحة الدمار الشامل الليبية. وكان أحـد هـؤلاء الخبراء على علاقة وثيقة مع الموساد. ويقدّم ما يتذكّره الجو العام لتلك الرحلة.

"جعلنا الليبيون نشاهد كل شيء. وكانت قضية من: إلى اليمين أسلحتنا الكيميائية الشـهيرة، وإلـى اليسـار جهاز طرد اليورانيوم المركزي السري؛ وستشاهدون غداً أسـلحتنا البيولوجـية. وفـي نهاية زيارتنا، كان واضحاً أن ليبيا لم تمتلك بعد القدرة الـنووية، ولكـنها كانـت قريـبة منها أكثر مما كنا نعرف. وكانت تعمل أيضاً على مجموعة من أنظمة الدفع، بما فيها الصواريخ البالستية التي تستطيع ضرب أي مدينة رئيسية في أوروبا. والحقيقة أن القذافي كان يشكل تهديداً أكبر بكثير من صدام".

لكـن مـع هزيمة صدام، قرّر المفاوضون في لندن زيادة الضغط على القذافي. ووصـل فـريق من المفاوضين الأمريكيين البارزين من وزارة الخارجية إلى لندن. وأخـبروا كوسـا أن لديهم دليلاً قاطعاً على أن ليبيا ما كانت تستطيع تطوير برامجها لأسلحة الدمار الشامل دون مساعدة إيران وكوريا الشمالية.

قال أحد المسؤولين الذين حضروا الاجتماعات (للمؤلف): "أوضحنا لـكوسا أن ليبيا ستبقى على لائحة أهدافنا طالما أنها أحد أعضاء محور الشر".

تم الطلب من نلسون مانديلا، قائد جنوب أفريقيا السابق، توجيه إنذار إلى القذافي بـأن علـيه التصرف – وإلا فإنه سيواجه العواقب. واتصل مانديلا ببوش وقال " إن القذافي كان جاداً تماماً في عقد اتفاق".

لكن الحذر استمر في الفصل بين ليبيا والمفاوضين. وأوضحوا أخيراً لـكوسا أن الوقت سينفد إذا استمر القذافي في المراوغة. وكان الموعد الأخير في 1 كانون الثاني 2005. وتمت الدعوة لاجتماع في نادي المسافر.

كـان الجزء الأساسي في الاتفاق سيظهر في الخطاب الذي سيلقيه القذافي عبر التلفاز الليبي تلك الأمسية. وتم إرسال النص إلى ليبيا للتوقيع عليه. وتم إرسال نسخة إلـى كوندوليزا رايس في واشنطن، التي طلب منها بوش الإشراف على المفاوضات. وطلبـت إدخـال تعديـلات ثانوية على الصياغة والتعبير. وتم نقل هذه المطالب إلى كوسا.

قال ضابط الاستخبارات المبتسم: "حق خاص للمرأة. لكنه مقبول. لقد اتفقنا".

كـان الإعـلان التاريخي سيظهر على التلفزة الليبية في تلك الليلة. وتم إرسال نسـخة من النص إلى وحدة المراقبة في هيئة الإذاعة البريطانية في كافرشام، والطلب إلـيها تسـجيل البث. وبعد انفضاض الاجتماع في نادي المسافر بوقت قليل، تم تسليم نسخة من النص إلى ناتان. وكان على مكتب أرييل شارون خلال دقائق.

قـرأ رئيس الوزراء الإسرائيلي الوثيقة، وطلب من داغان الاستمرار في مراقبة النشـاطات الليبية بغض النظر عن الاتجاه الذي ستسلكه. وتم إرسال نسخة من الوثيقة إلـى الأرشـيف في الطابق الثالث، ووضعها في ملف القذافي النفسي، والذي يتضمن تقريـراً بأن موسى كوسا كان أحد المخططين لتفجير طائرة بان آم فوق لوكربي حيث لقـي 270 شخصـاً مصـرعهم قبل خمسة عشر سنة في نفس الأسبوع الذي تم فيه الترحيب بتحول القذافي من طاغية إلى رجل دولة.

فـي لـندن، امـتدح جاك سترو وزير الخارجية الحنكة الكبيرة التي يتمتع بها القذافي.

فـي واشـنطن، أعلنـت وزارة الخارجية عن السماح للشركات الأمريكية التي أبرمت عقوداً لتطوير حقول النفط الليبية والتي تنتهي سنة 2005 بإجراء محادثات مع طرابلس الغرب لتمديد امتيازاتها.

فـي باريس، أكدت الحكومة الفرنسية أن كوسا ما زال مطلوباً لعلاقته بالتفجير الذي طال سنة 1989 طائرة يوتا دي سي 10. لكن المتحدث اعترف بأن منح رئيس جهاز الاستخبارات وضعاً دبلوماسياً سيجعل من غير المحتمل على الأرجح استجوابه. وكان هناك تحقيق مطول آخر يأخذ مجراه في العاصمة الفرنسية مجدداً.

اسـتمر الموساد بمراقبة الأحداث حول وفاة الأميرة ديانا ودودي الفايد. وواجه

المحقق الملكي البريطاني الجديد د.مايكل بورغس انزعاجاً شعبياً متصاعداً على خلفية القرار الذي اتخذه سلفه بعدم إجراء أي استجواب حول المسألة. وأعلن عن فتح تحقيق سيرأسه قائد شرطة العاصمة السابق اللورد ستيفنس. وسافر ستيفنس إلى باريس لتفقد موقـــع الحـــادث. وكان ضمن الحشد الإعلامي الكبير الذي رافقه في كل خطوة بيت، كاســـتا هولـــندي المولد، وعضو في محطة الموساد في باريس. وكان من بين أولئك الذين جنّدهم مخبرة غير يهودية تعمل في إدارة شرطة باريس. وكان اسمها المستعار مونيك.

عـــندما وصـــلت ديانا التي تعرّضت لجروح بليغة إلى مستشفى سالبتري، كانت مونيك في الخدمة في غرفة الطوارئ لضمان عدم دخول أحد من وسائل الإعلام. وتم الإعـــلان عـــن موت ديانا بعد وقت قصير. وتم لفها بثوب نظيف وأخذها إلى غرفة مجـــاورة. وغســـلت ممرضتان جسدها. وقالت إحداهما لاحقاً لأحد المراسلين: "كانت تبدو في غاية الجمال كما لو أنها نائمة".

وصـــلت الطبيـــبة الشـــرعية دومينيك ليكوميه لتشهد حالة من الفوضى الشديدة، وقالـــت لاحقاً: "كان هناك أشخاص لا يُفترض بهم التواجد في غرفة العمليات. وكان بيـــنهم دبلوماســـيان بـــارزان في السفارة البريطانية في باريس، ومسؤولون كبار من وزارة العـــدل الفرنســـية، وقـــائد شـــرطة باريس". ووقف الدبلوماسيان والمسؤولون الفرنســـيون فـــي مجموعتين منفصلتين، يهمسون لبعضهم البعض. ووقف عضو من فـــريق MI6 في باريس بعيداً عن الآخرين، والذي كان يتعقّب ديانا بعد إطلاقها لحملة ضـــد الألغـــام الأرضية. وكانت تدعى في الدوائر الحكومية في لندن بـــالمدفع الحر. كـــان مـــتواجداً هناك ليضمن عدم ظهور أي عقبات لما تم إخبار البروفيسور ليكوميه بأنـــه ينبغي أن يكون إعادة سريعة لجسد الليدي دي إلى بريطانيا. لقد جاءت الأوامر من أعلى المستويات في لندن.

طلبت البروفيسور ليكوميه نقل الجسد إلى غرفة جانبية مجاورة لغرفة العمليات بحيـــث تســـتطيع تشـــريحه. وكانت تلك هي اللحظة التي غرست فيها أول نظريات المؤامرة جذورها. كان المستشفى مزوداً بكل المعدّات اللازمة لإجراء التشريح فيه. لم يـــتم اســـتخدام تلـــك الأدوات لأن نقلهـــا إلـــى هناك سيتسبب بتأخير الأمور؟ بدأت البروفيسور ليكوميه بمفردها التشريح الجزئي والتحنيط الجزئي. وحتى بالنسبة لعالمة خبيرة مثلها، كان التحنيط الجزئي يتطلب وقتاً بعد إجراء التشريح الجزئي. وكان ذلك يتطلب من البروفيسور ليكوميه نزع بعض أعضاء ديانا الداخلية – ربما يتضمن ذلك

قلبها وكليتيها. ولا بد أنها نزعت الأعضاء من منطقة حوض ديانا. وسيوسع ذلك من النظرية القائلة بأن البروفيسور ليكوميه نزعت أي دليل على أن ديانا حامل. وقامت عالمة التشريح بعدها بتنفيذ التحنيط الجزئي، والذي لا بد منه بموجب القوانين الفرنسية قبل السماح للجسد بمغادرة البلاد. وحتى التحنيط الجزئي يُترك عادة للحانوتي المدرّب على تلك العملية. إن المهارة مطلوبة للتخفيف من الفورمالدهايد (غاز عديم اللون) وذلك بهدف الحيلولة دون حدوث أي تأثير على لون الجلد أو ترك رائحة كيميائية غير مستحبة.

في السنوات التي أعقبت الحادثة التي وقعت في الساعات الأولى من يوم الأحد 31 آب سنة 1997، رفضت البروفيسور ليكوميه شرح دورها الحاسم. وأصر محمد الفايد، والد دودي للمؤلف: "كان قرار تحنيط جسد ديانا سيؤثر على أي عينات تؤخذ بعد الوفاة في لندن. ونتيجة لذلك، سيتم التغطية على قضية الحمل".

تحتوي ملفات الموساد حول وفاة ديانا ودودي معلومات تفصيلية حول الدور الذي لعبته CIA وMI6 وMI5، والاستخبارات الفرنسية. وتقدّم أجوبة حول مزاعم استخدام هنري بول من قبل MI6 لمراقبة ديانا سراً التي استمرت علاقتها في جذب اهتمام العالم، ويتضمن تفاصيل عن ثلاثة عشر حساباً مصرفياً يمتلكها هنري بول والتي كان يتلقى إليها الأموال من الاستخبارات الفرنسية. وعرض ضابط الاستخبارات الإسرائيلي السابق آري بن-ميناش على محمد الفايد تزويده بنسخ عن تلك الملفات الذي يدّعي أنها مدافع الدخان التي قد تكشف الدور الكامل للاستخبارات في وفاة دودي وديانا، حسبما قال للمؤلف. وطلب 750.000 جنيه إسترليني مقابل الملفات. إلا أن الفايد رفض دفع المبلغ.

في تل أبيب، قرر مائير داغان أنه لا فائدة للموساد من تزويد اللورد ستيفنس بنسخ عن ملفات الجهاز. وفي الأسبوع الأول من العام 2005، كان لديه مسائل أكثر أهمية يركّز عليها.

لقد طفت المسألة التي لطالما أرّقت أسلاف داغان على السطح مجدداً. لقد أعادت FBI فتح تحقيقها في محاولة لمعرفة هوية ميغا، جاسوس الموساد المتغلغل عميقاً في واشنطن. وتم تحديده أساساً على أنه يعمل في إدارة كلينتون. لكن FBI يعتقد الآن أنه نجح في إخفاء نفسه في مكان آمن في رئاسة بوش. ومثل سلفه، ربما كان داغان رئيس الاستخبارات الوحيد في إسرائيل الذي يعرف الهوية الحقيقية لمخبره الثمين (الفصل الخامس، سيف جدعون النووي).

نتيجة لعودة جورج بوش إلى البيت الأبيض مجدداً لولاية جديدة تمتد أربع

سنوات، أعلم مدير FBI روبرت مولر مستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس – التي سرعان ما أصبحت وزيرة الخارجية – أن ميغا قناة لتمرير وثائق سياسية بالغة الحساسية حول إيران إلى إسرائيل. وأخبر مولر رايس أن ميغا سيكون الآن أكثر أهمية من ذي قبل لإسرائيل لأن بوش بدأ في تشكيل سياسته في الشرق الأوسط.

كان FBI أمضى أكثر من سنة بحلول ذلك الوقت يحقق، باستخدام أحدث معدّات المراقبة الإلكترونية، بأمر من مسؤول في البنتاغون يدعى لاري فرانكلين، الذي كان محللاً بارزاً في مكتب البنتاغون الذي يتعامل مع قضايا الشرق الأوسط. كان فرانكلين قد عمل سابقاً مع وكالة الاستخبارات العسكرية.

أيدت وزارة الدفاع التحقيقات، وأضافت أن فرانكلين عمل في مكتب معاون وزير الدفاع دوغلاس جي. فيث، والذي كان صاحب نفوذ كبير على وزير الدفاع دونالد رامسفيلد.

قال FBI علناً إن تحقيقاته تتركز حول قيام فرانكلين بتمرير وثائق أمريكية سرية حول إيران إلى لجنة الشؤون العامة الأمريكية-الإسرائيلية AIPAC، والتي تعتبر لوبي إسرائيلي واسع النفوذ في واشنطن. وأسرعت اللجنة، مثل فرانكلين، لنفي أي عمل إجرامي. وفي إسرائيل، قام اريل شارون بخطوة غير عادية عندما أصدر بياناً مشابهاً قال فيه: "إسرائيل غير متورطة في أي نشاطات تجسس في الولايات المتحدة".

كان مائير داغان يعرف الأمور بشكل أفضل. وتبقى الولايات المتحدة هدفاً رئيسياً لعمليات الموساد بعد إدانة محلل البحرية جوناثان بولارد سنة 1985 بتسريب أسرار إلى إسرائيل.

يعتقد FBI الآن أن الموساد كان مسؤولاً عن سرقة أسرار نووية أمريكية كانت مخزّنة على أقراص حاسوبية في لوس ألاموس. ويبلغ حجم كل قرص حجم مجموعة من ورق اللعب، ويتم الاحتفاظ بها في قبو آمن محمي بكلمات سر في القسم إكس، الذي يقع على عمق عشرين قدماً تحت الجبال المكسيكية.

تم اكتشاف السرقة بعد حريق هائل أصاب المنطقة، وصدرت الأوامر للعلماء بدخول القبو لنقل الأقراص. ولكن بسبب شدة النيران، تم إغلاق لوس ألاموس لعشرة أيام، مما يعني إطلاق حملة بحث واسعة النطاق عن الأقراص بعد تلك الفترة فقط. وتم تصميم الأقراص لتناسب الحواسب المحمولة التي يحملها معظم أعضاء فريق خدمات الطوارئ النووية (NEST) المستعدين دائماً للسفر إلى موقع أي حادثة نووية في الولايات المتحدة. وتستخدم فرق NEST معلومات تقنية تفصيلية على الأقراص

لنزع وتفكيك الرؤوس النووية. وتم التأكّد من وجود جميع الأقراص في تفتيش جرى في نيسان من العام 2002.

عندما وصل رجال FBI أخيراً إلى الموقع في أيار من تلك السنة، دارت شكوكهم حول مجموعة إرهابية قد تكون نفّذت عملية السرقة. ولكن بعد ثلاثة شهور من ذلك، أغفلوا هذا الجانب عندما تم إيجاد الأقراص خلف آلة نسخ في مختبر آخر في لوس ألاموس. وفي تقرير إلى بيل ريتشاردسون، الذي كان حينها وزيراً للطاقة ومسؤولاً عن المختبرات، ورئيسة جهازه الأمني يوجين هابنغر، استنتج FBI أن السرقة كانت من عمل جهاز استخبارات أجنبي محترف مثل الموساد.

بعد ثلاث سنوات، أخبر مولر كوندوليزا رايس أن الوكالة لم تغير موقفها. وبقي أيضاً متأكداً أن ميغا مختبئ في مكان ما من إدارة بوش. ولم تكن تلك فكرة مريحة لمدير FBI.

قام مدير عام CSIS كياو شي بالإعداد لسرقة لوس ألاموس. وبالإضافة إلى كونه مدير جهاز الاستخبارات الصيني الذي أمضى أطول وقت على رأس الجهاز، يشغل كياو شي البالغ من العمر اثنان وثمانون سنة منصب رئيس الجمعية الوطنية الصينية منذ العام 1993، والمدير الأمني للحزب الشيوعي الصيني. وجعله ذلك شديد النفوذ في أعلى دوائر أجهزة التجسس الصينية.

في الشهر الذي سبق عملية لوس ألاموس، شاهد كياو شي دوره كنائب وزير والمنسق العام لأجهزة الاستخبارات الصينية يتآكل نتيجة سلسلة من الصراعات ضمن اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي. وتم تعيينه أخيراً، في مؤشر على تراجع نفوذه، كرئيس للقسم الخارجي في جهاز الاستخبارات الصيني. وأخبر أحد المصادر المؤلف: "سبب ذلك، كما قالوا، إن البلاد تحتاج في مجال جمع المعلومات الاستخباراتية العالمية لأكثر من رجل لتحقيق تلك المتطلبات.

قيل لكياو شي إن العمليات في المناطق التي تخضع لإدارته ستبقى تحت سيطرته. وبقي في منصبه حتى حزيران 2006".

حظيت عملية لوس ألاموس بأكملها بحالة من النفي القاطع في كل من واشنطن وتل أبيب. وقال دبلوماسي كندي سابق لديه إطلاع على العملية للمؤلف في تموز سنة 2006: "تلك العلنية أضرت فعلاً بالعلاقات التجارية المستمرة بين البلدين".

تم التخطيط لسرقة لوس ألاموس بتوجيهات من كياو شي، ونفّذها PLA-2، مكتب الاستخبارات الثاني التابع للقائد العام لجيش التحرير الصيني. وتضمنت مهامها العديدة

إســناد مهــام للملحقين العسكريين في السفارات الصينية في الخارج، وتنظيم عمليات تمويه. وخطط طوال شهور في مكتبه داخل زهونغانهاي، وهو المجمّع الحكومي حيث تعيش القيادات الصينية في عزلة كبيرة. ومن أجل التخطيط لتلك العملية، استفاد كياو شــي من العلاقة القائمة منذ زمن طويل مع الموساد، والتي تعود إلى تعاونهما الأول فــي أفريقــيا (الفصل الثالث عشر، العلاقات الأفريقية). وكان احتمال الإطلاع على بعض أسرار لوس ألاموس بالنسبة للموساد فرصة لا يمكن تفويتها. لقد جهّز الموساد فــريقاً مــن مبرمجــي لاكام وخبراء المراقبة من وحدة ياهولومين للسفر إلى بكين. وأصبحوا جزءاً من فريق سيسرق لوس ألاموس إلكترونياً فيما بعد.

تم إسناد مهمة إنجاز العملية لــوانغ تومغي من قسم العلوم والتكنولوجيا في مقر قــيادة وزارة الدفاع في مقاطعة دينشينغ في بكين. وبالمحصلة، تم إحضار مئة خبير لتنفــيذ عملية السرقة التي لم يسبق لها مثيل. وكان العديد منهم خبراء في فن اختراق الحواســب الصــعب دون أن يلاحظهم أحد. واكتسب البعض منهم مهاراته فيما كانوا يعملــون لصــالح شركات مختلفة في وادي السليكون في كاليفورنيا. وتم استدعاؤهم واحداً تلو الآخر إلى بكين لتنفيذ عملهم الاحترافي تحضيراً للسرقة.

تــم تحديــد الموعد ليكون 4 أيار 2004. وكان الهدف القبو الذي يتمتع بحماية أمنــية عالية، والذي يمثّل أكثر مواقع لوس ألاموس سرية. كان القسم إكس شبكة من المكاتــب الصــغيرة في الطابق الثالث من مبنى المختبرات الرئيسي. وتحميه بطاقات مشفّرة يتم تغيير أرقامها كل يوم، ويتم تخزين البيانات الأكثر حساسية في القسم إكس فــي غــرفة محصنّة تحميها كل الأجهزة المعروفة لخبراء الأمن الأمريكيين. وهناك ادّعــاء بأنها أكثر أماناً من مخازن الذهب في حصن نوكس. ويوجد داخل القبو حقيبة مضــادة للحــريق لا يمكــن فــتحها سوى باستخدام كلمة سر خاصة. كانت أقراص الحواســب في الداخل، وكل قرص منها يحتوي على معلومات تقنية تفصيلية، بما فيها كيفية تفكيك القنابل التي تنتجها دول مارقة مثل كوريا الشمالية. وكانت ستزوّد كل من يحصل عليها بأفضلية كبيرة لمعرفة الأسرار النووية التي تمتلكها الولايات المتحدة.

ابــتكر التقنــيون الصينيون والإسرائيليون نظاماً يمكنه أن يخترق إلكترونياً كل دفاعــات القسم إكس. وتم بناء نسخة طبق الأصل عن قبو لوس ألاموس بشكل خاص فــي سرداب قسم العلوم والتكنولوجيا. وتم وضع حقيبة مضادة للحريق داخل جدران القــبو الفولاذيــة، والتي كان يوجد داخلها أقراص صلبة تحتوي على معلومات غير ســرية. وكانــت مهمة القراصنة الحصول على المعلومات دون أن يكشفوا عمليتهم.

وكـــان علـــيهم القـــيام بذلك ليس من مكان ما في بكين، وإنما على مسافة بعيدة عن العاصـــمة الصينية. وتم نقل القراصنة إلى شانغهاي، على بعد عدّة مئات من الأميال، ويـــدأوا العمـــل، وعندما تم فتح القبو أخيراً، لم يكن هناك دليل على اختراق الحقيبة المضادة للحريق. وعاد فريق القراصنة إلى القاعدة. وأحضروا معهم نسخ حقيقية عن المعلومات التي تم انتزاعها إلكترونياً من الأقراص الصلبة المخبأة في الحقيبة.

عمـــل المخططـــون الصينيون على افتراض أنه سيتم نقل الأقراص الصلبة في لـــوس ألامـــوس من وقت لآخر من حقيبتها المضادة للحريق، ووضعها في حاسوب كـــانوا متأكديـــن من تواجده داخل قبو القسم إكس. وسيتم هذا إما لفحص المعلومات داخل الأقراص، أو للتأكد من أنها تعمل بشكل ممتاز. وفي شانغهاي، انتظر القراصنة عدّة أيام ليتم نقل الأقراص من القبو المطابق ووضعها في حاسوب قريب.

عمـــل الفـــريق الصيني والإسرائيلي أيضاً على افتراض ظهور فرصة جيدة في لـــوس ألامـــوس لترك الأقراص في الحاسوب في حالة الطوارئ. ولابتكار مثل هذه الحالـــة، كان على عملاء CSIS إشعال حريق هائل والذي في حال وجود رياح سائدة بالاتجاه الصحيح، سيشق طريقه نحو لوس ألاموس.

جـــرى الاختبار التالي في مضيق لوزان بين تايوان وجزر الفلبين. وكان فريق القراصنة هذه المرة على متن غواصة صينية تعمل بالطاقة النووية من أسطول البحر الأزرق فـــي بحـــرية جـــيش التحرير الشعبي. وصعدت الغواصة قرب السطح، وبدأ القراصنة عملهم. ونجحوا مرة أخرى في اختراق القبو المطابق إلكترونياً في سرداب بكين. وعادوا ليقدّموا تقريراً عن نجاحهم إلى كياو شي.

كان كل شيء معدّاً. ووصل فريق القراصنة إلى بورتو بيناسكو في أعالي خليج المكســـيك فـــي كاليفورنـــيا. وكانوا مزوّدين بمعدّات صيد وصناديق بكرات وحبال. وكانت رحلتهم إلى الميناء طويلة. وسافروا جواً من هونغ كونغ إلى مكسيكو عاصمة المكســـيك، ثـــم بالســـيارة إلى بورتو بيناسكو. وكان في انتظارهم قارب الصيد الذي اســـتأجروه. وكانـــت معدّات قرصنتهم مخبّأة على متن القارب، والتي وضعها هناك عملاء CSIS في المكسيك. واتجهوا إلى عرض البحر ليقوموا ظاهرياً برحلة صيد.

مـــع إخـــلاء لوس ألاموس نتيجة تهديد النيران بمحاصرة المبنى، انطلق الفريق للعمل. وباستخدام الأدوات التي تم تزويدهم بها، استهدف القراصنة قبو القسم إكس في لـــوس ألاموس. وكما تحيّنوا اللحظة المناسبة في شانغهاي، استطاعوا إلكترونياً أيضاً انـــتزاع كل البيانات من الأقراص الصلبة في الحقيبة المضادة للحريق. وبعد أسبوع،

كان الفريق في طريق العودة إلى بكين.

لن يعرف أحد أبداً كيف تم إيجاد الأقراص لاحقاً خلف آلة النسخ. هل كان هناك عميل للموساد أو CSIS داخل لوس ألاموس؟ لاحقاً في تشرين الثاني من العام 2002، عُقِدَ اجتماع في لوس ألاموس لمناقشة ذلك الاحتمال. وحضر في قاعة اجتماعات القسم إكس كل من جورج تينت، الذي كان عندها مديراً عاماً للـCIA، ورئيس MI6 آنذاك ديرلوف، ومدير FBI (سرعان ما فقد وظيفته)، ومديرة أمن لوس ألاموس يوجين هابنغر. وكان هناك إجماع في الآراء على أن السرقة غيّرت، في المستقبل المنظور بكل تأكيد، العلاقات الاستخباراتية الوثيقة بين واشنطن ولندن مع إسرائيل.

إن مستوى الاحترافية العالي الذي تم به تنفيذ العملية من قِبل CSIS وضعه في ذهن الموساد كجهاز الاستخبارات الوحيد الذي يمكن أن يجاريه. لكن في الماضي، كانت CIA قد عملت أيضاً مع الصينيين. وفي العام 1984، التقى ويليام كيسي، الذي كان عندها مدير CIA، كياو شي سراً وحثّه على العمل ضد الثالوث الذي يسيطر على 60% من سوق الهيروين في نيويورك. وكان في كل مدينة أمريكية عرّاب للثالوث، والذي يمر من خلاله مقدار متزايد من الكوكايين من كولومبيا والمثلث الذهبي في جنوب شرق آسيا عبر متعاملين تعود أنسابهم إلى أوكار الأفيون في القرن السابع عشر. واقترح كيسي عملية استخباراتية مشتركة للقضاء على المروجين الذين بدأوا يستهدفون الطلاب في الجامعات الصينية. وراقب الموساد اجتماعاً في فندق مندرين أورينتال في هونغ كونغ بين ضباط CSIS رفيعي المستوى وفريق من CIA وFBI و DEA في كانون الثاني من العام 1985. وكان ذلك مثالاً صارخاً آخر على العلاقات المخفية والتعاون بين جهازي الاستخبارات.

ساعدت CSIS في تحقيق بعض النتائج المذهلة في حرب الممنوعات، بما في ذلك قضية حوض السمك الذهبي في سان فرانسيسكو. وتم اكتشاف هيروين تبلغ قيمته مليون جنيه ملفوفاً بورق السيلوفان وموضوع داخل الأسماك المستوردة من آسيا. وحصل العملاء الاتحاديون الأمريكيون على فضل ذلك النجاح. ولكنهم اعترفوا في أحاديث خاصة أنهم ما كانوا يستطيعون تحقيق ذلك لولا فريق CSIS الذي طارد الشحنة عبر المحيط الهادئ. ولاحقاً، بعد سرقة لوس ألاموس، نقل كياو شي للموساد معلومات قيّمة يمتلكها الجهاز الصيني حول الثالوث. ومع أعضاء يقدر عددهم بمليون شخص منتشرين حول العالم، كان الثالوث أكبر مروّج للممنوعات على وجه الأرض.



الفصل الثاني والعشرون

أعداء قدامى، تهديدات جديدة

منذ أن اعتلى مائير داغان قبل ثلاث سنوات طاولة مطعم مقر الموساد في 11 أيلول سنة 2001، ودفع بقبضة يده في راحة اليد الأخرى وقال لموظفيه، بشكل مجازي، أنه يتوقع منهم تناول أدمغة أعدائهم، وأصبحت أعداد هؤلاء الأعداء وأفعالهم تتزايد باضطراد.

استمرت الهجمات الانتحارية (وفقاً للوصف الإسرائيلي) التي كان ينفّذ البعض منها أشخاص ما زالوا يافعين للغاية. وبدا أن مدد الشهداء لا ينضب أبداً.

تمت سرقة مواد انشطارية من مخازن في الاتحاد السوفيتي السابق، واقتفى علماء في معهد نقل اليورانيوم الأوروبي ومعهد كارلسروه الألماني، باعتبارهم المسؤولين عن تعقّب كل المواد المشابهة، آثار كمية صغيرة من اليورانيوم-235 إلى شقة ثلاثة مجرمين في باريس يعرفون بأدوارهم المشبوهة في عقد صفقات الأسلحة مع جماعات إرهابية مثل القاعدة. كان اليورانيوم قابلاً للاستخدام في صناعة الأسلحة. كان رجلان منهم – سيرجي سلفاتي وإيفز إكويلا- يسافران باستخدام جوازي سفر كاميرونيين. أما الثالث، ريموند لوب، فكان يمتلك وثائق جنوب أفريقية. وجاءت المواد من موقع تخزين يورانيوم في شليانبيسك-70، الواقع أسفل جبال الأورال. ونتيجة معلومات جاءت من الموساد، تمكنت الشرطة الفرنسية من اعتقال المجرمين.

تعقّب الموساد المسار الذي تم نقل اليورانيوم عبر من أوكرانيا، إلى بولندا وألمانيا فباريس، والذي قام به موظفون لدى سيميون يوكوفيتش موغيلفيتش. منذ انهيار الاتحاد السوفيتي، تخصص هذا الرجل في نقل ليس البشر والسلاح فقط وإنما المواد الانشطارية أيضاً. كما هو الحال في موقع الأورال، اختفت تلك المواد من أماكن أخرى لا تتمتع بالحراسة الكافية أيضاً.

تحدّث الرئيس فلاديمير بوتين عن: "شبكة جديدة من الإرهاب التي يتعين على قواتنا بذل جهود إضافية للتغلب عليها".

فـــي أفغانســـتان، وقـــرب المقاطعات الشمالية التي لا يحكمها القانون تقريباً في باكســـتان، كـــان يـــتم تدريـــب آلاف المجاهدين – مقاتلو الحرب المقدسة – لما كان يوعدون بأنه سيكون نهاية وإزالة إسرائيل عن وجه الأرض. عاد بعض الذين تخرجوا من تلك المعسكرات إلى أوطانهم في أماكن مثل قطاع غزة، والضفة الغربية، وأسواق القاهـــرة، واليمـــن، ومواقـــع أبعد مثل المدن البريطانية. ولم يخفِ أيٌ منهم استعداده للموت في الجهاد، أو الحرب المقدّسة، وعملوا على استخدام مهاراتهم الجديدة في أي مكان يستطيعون فيه إحداث أضرار للبنية المالية والاقتصادية في إسرائيل.

كـــانوا يـــتلقون الدعـــم دائمـــاً مـــن الإرهاب الذي ترعاه الدول، سواءً بسبب الأيديولوجـــية المشتركة (حزب الله وإيران)، أو لحسابات سياسية (حماس وسورية). وعملـــت إســـرائيل دون كلـــل أو ملل عبر الأمم المتحدة لإيقاف رعاة الإرهاب عبر العقوبات أو حتى الأعمال العسكرية. ونشر قسم الموساد المسؤول عن الحرب النفسية قصة بأن إسرائيل مستعدة لشنّ ضربة استباقية في حال استمر آيات الله في دعم حزب الله والجهـــاد الإســـلامي. أثار ذلك التهديد الخوف بين الإيرانيين، رغم أن المخططين العســـكريين أخبروا قادة البلاد أن الدولة العبرية بعيدة تماماً من الناحية الجغرافية عن إيران، ولا تستطيع تشكيل تهديد جدّي ومستمر. وفي حالة ليبيا، لعب ذلك التهديد دوراً هاماً في إقناع القذافي بأن مصالحه تتطلب تفادي أن يكون الراعي لعدد من الجماعات الإرهابية.

كمـــا هو الحال مع كل أجهزة الاستخبارات الغربية الرئيسية، تبقى القاعدة على رأس قائمـــة الموســـاد للـــتهديدات الإرهابـــية. في وقت مبكّر من تولي مائير داغان لمنصـــبه، ظهـــر اسمان إلى جانب أسامة بن لادن في تيار الأصولية الإسلامية. كان أحدهمـــا أيمن الظواهري، والذي لعب بازدياد دور زعيم الدعاية التلفزيونية للقاعدة. وظهـــر الطبيـــب المصـــري، الذي تلقّى علومه في لندن وباريس، في أكثر من ست أشـــرطة إذاعية وتلفزيونية سنة 2005، وقدّم نفسه للعالم العربي على أنه قوة التوجيه الفكـــريّة للمـــنظمة. وافترض محللو الموساد بأن بن لادن لن يظهر في تلك الأوقات ســـوى في المناسبات الرئيسية، مثل الحديث إلى الشعب الأمريكي قبل أربعة أيام من الانتخابات الأمريكية، حيث جلس إلى طاولة مثل مذيع الأخبار، ووعد بشنّ المزيد من الهجمـــات إذا أُعيد انتخاب بوش، وبعد الهجمات على القطارات في مدريد التي قتلت مئتـــي شـــخص وجرحت حوالى الألف، عندما كرّر نفس التحذير. العضو الآخر في ثـــالوث الشـــر كـــان أبو مصعب الزرقاوي، وهو المسؤول عن بعض أسوأ الأعمال

الوحشـية فـي العـراق. وقبل أن يصل إلى عمر الثلاثين، كان قد قطع رأس عشرة عراقيين وأجانب، ووزع أشرطة فيديو عن عملية قتلهم على مواقع الإنترنت الإسلامية حول العالم. ووعد أيضاً بأنه سيأتي اليوم الذي سينضم فيه إلى سعد، ابن بن لادن، في مسيرتهما المظفّرة نحو القدس.

فـي الأسابيع الأولى من العام 2005، وجد مائير داغان نفسه في مواجهة ليس مـع الإرهابيين فقط. وبدأت تساوره الشكوك حول مدير عام MI6 الجديد السير جون سـكارليت. وتعـود جـذور تلك التحفّظات إلى ما كان يعرفه داغان بأنها معلومات اسـتخباراتية غير دقيقة أبداً كانت بحوزة MI6، والتي تم تسييسها حول أسلحة الدمار الشـامل المزعوم امتلاك صدام لها. أثبت ذلك صحة وجهة نظر داغان بأن سكارليت لديه نزعة نحو إطلاق النار فوراً. بالنسبة لمدير الموساد الذي يفضل ارتداء القمصان المفـتوحة عند العنق، كان سكارليت مختلفاً تماماً، ويفضّل رئيس جهاز الاستخبارات البريطانـي الهـادئ ارتداء بذلات من جيفيز، وسافيل-رو، وقمصان قطنية مصنوعة يدويـاً، إضـافة إلى ملفاته السرية الصفراء اللون التي تحمل كل منها صليب القديس جـورج الأحمـر. وخلال العشاء في نادي المسافر، أظهر سكارليت حباً للنبيذ الثمين وشـهية خبير للطعام الشهي. وبعد اثنين وثلاثين سنة كضابط استخبارات قضاها في موسـكو، وكينـيا وباريس، أصبح سكارليت رئيساً للجنة الاستخبارات المشتركة التي تراقب أجهزة الاستخبارات البريطانية الأخرى، وتقدّم تقاريرها مباشرة إلى طوني بلير فـي داونينغ ستريت. كان معروفاً أن طوني بلير استخدم صلاحياته كرئيس للوزراء فـي تعيـين سـكارليت على رأس MI6. واستمرت علاقته الوثيقة مع بلير، ولم يكن داغان رئيس جهاز الاستخبارات الأجنبي الوحيد الذي شعر بأن لرئاسة الوزراء يد في بعض القرارات التي اتخذها سكارليت. كان ذلك يتعارض مع معتقد داغان الثابت بأن جهاز الاستخبارات ينبغي أن يكون مستقلاً عن التأثير السياسي.

تحـوّل قلـق داغان من ذلك إلى غضب عندما أرسل سكارليت سرًا، وبموافقة رئـيس الـوزراء طوني بلير، فريقاً من الضباط إلى غزة للتفاوض على وقف إطلاق الـنار مـع حماس، والذي قاده ضابط الاستخبارات أليستر كووك، الخبير في قضايا الشـرق الأوسـط. بالنسبة لـداغان، كان وصول جهاز استخبارات أجنبي دون دعوة إلـى عتـبة بابه مخالفاً للأعراف الراسخة التي تعود لزمن بعيد حول قواعد التعاون. وعـندما واجـه داغـان سكارليت بذلك، تم تذكيره بأن MI6 تمتلك تاريخاً طويلاً في الدخـول بمفاوضـات مع الجماعات الإرهابية الخارجة عن القانون، وأشهرها الجيش

الجمهـوري الأيرلـندي في ثمانينيات القرن العشرين، وأن ذلك الحوار قاد أخيراً إلى إيقاف الصراع المسلح في أيرلندا الشمالية، وأفسح المجال أمام المفاوضات السياسية.

قـال داغان قبل إنهاء المحادثة أن غزة ليست بلفاست. كان ذلك يشير بالنسبة له إلـى انخفاض مستوى علاقة عمل الموساد مع MI6. ولم تكن تلك المرة الأولى التي يسـمعه أحد يقول فيها إن الإنكليزية لم تكن يوماً مناسبة لرؤساء أجهزة الاستخبارات فـي العـالم. وكانـت تلك وجهة نظر اشترك بها مع كارلو دي ستيفانو، مدير وحدة مكافحة الإرهاب الإيطالية؛ ومانولو نافاريتي، رئيس الاستخبارات المدنية في أسبانيا؛ وبورتـر غـوس، الذي خلف جورج تينيت كمدير CIA. لم يكن غوس سهل المنال. وكـان مـثل دغان لا يهتم بارتداء اللباس الرسمي، وصرّح علانية أن تينيت تجاهل المهمـة الأساسـية للوكالة، وأنها ينبغي أن تعود إلى الأيام الخوالي في الاعتماد على الاسـتخبارات البشـرية عـند جمـع المعلومات، وليس الحواسب والأقمار الصنعية والمعـدّات المـتطورة الأخـرى، وإنما بزرع العملاء ضمن أو خلف خطوط العدو. استقال غوس فجأة في أيار سنة 2006، بعد نزاعٍ قاسٍ مع جون نغروبونتي، السياسي العنـيف والمديـر الجديـد للأمـن القومي، وهو منصب أنشأه الرئيس بوش لمراقبة نشـاطات الاستخبارات بعد 9/11. ولم يكن غوس آنذاك محبوباً من قبل مدراء CIA، وأجـبر سـتة منهم على تقديم استقالاتهم. وأخبر أحد ضباط CIA البارزين المؤلف: "عـندما اسـتقال غوس، كان هناك حفلات لتناول الشراب أكثر من عشية رأس السنة الجديدة".

ازداد انـزعاج داغـان مما عرفه عن تورّط MI6 في تقديم المعلومات الحاسمة التي وفّرت الحجة لرئيس الوزراء طوني بلير والرئيس جورج بوش لشن الحرب على العـراق. وقدّم جهاز الاستخبارات ما أصرّ على أنه دليل قاطع على أن كميات هائلة مـن الكعكة الصفراء، الفلز المعدني الذي يتم استخراج اليورانيوم منه، جرى شحنها سـراً من النيجر في غرب أفريقيا. وظهر الدليل في وثائق أصرّت MI6 أنها حصلت علـيها مـن مصدر موثوق. كان داغان يعرف أنه لا يخطر ببال أحد كشف مثل ذلك المصدر البالغ الأهمية، ناهيك عن تقديم اسمه أو اسمها. بغض النظر عن MI6، لم يرَ أحـد آخر الوثائق وكان هناك شكوك متصاعدة بأنها ليست كما تدّعي MI6. ولكن في حـال عـدم وجـود دلـيل آخر، توصل داغان إلى نتيجة أن إصرار جون سكارليت واستمراره في الدفاع عن صحة الوثائق تطرح تساؤلات حول حصافته.

تحولـت قصة حدوث ذلك إلى عملية خداع تقليدية قذرة بلغت أوجها في تشرين

الأول سنة 2005 مع توجيه تهمة اليمين الكاذب إلى لويس ليبي، مدير مكتب نائب الرئيس ديك تشيني، والتحقيق مع كارل روف، المستشار البارز في البيت الأبيض في إدارة بوش. وتركّز دورهما في الكشف عن ضابط CIA الميداني فاليري بالم، زوجة السفير الأمريكي السابق إلى النيجر جوزيف ويلسون. ويعتبر تحديد هوية عميل سري عامل جريمة جنائية في أمريكا. ولا يزال دور الموساد في هذه القضية غير معروف لحين كتابة هذه السطور.

بدأت القصة على الأرجح في صيف العام 2004 مع موظف سابق في SISMI، الجهاز الإيطالي المكافئ لـCIA، هو جيانكومو مارتينو قبل سنة من استقالته من الجهاز ليؤسس عملاً خاصاً كمحلل استخباراتي. وأصبح خلال وقت قصير في روما، المليئة بالصحفيين والجواسيس، مصدراً - بين آخرين - لمحطة الموساد المتمركزة في مبنى بالقرب من الفاتيكان.

في عالم يتلهف فيه الجواسيس والمراسلون للأنباء، كان جيانكومو مصدراً مفيداً قادراً على النفاذ من ثقوب جهاز الأمن الإيطالي. وقدّم الرجل الخبير الذي يبلغ من العمر ستين سنة، والذي يحب ارتداء البذلات ذات الألوان الصارخة، والذي يتكلم الإنكليزية بلكنة أمريكية، من وقت لآخر بعض المعلومات التي كانت سرية رغم أنها لم تكن مثيرة تماماً. كان آخر ما بحوزته نسخ عن وثائق SISMI التي تظهر تورط الوكالة في قضية روبيرتو كالفي الشهيرة. كان للرئيس السابق لمصرف أمبروسيانو علاقات وثيقة بمصرف الفاتيكان، والذي كانت نشاطاته محط اهتمام الموساد. وتم إيجاد كالفي مشنوقاً تحت جسر بلاكفرير في لندن سنة 1989. وتظهر الوثائق التي قدّمها جيانكومو أن ثلاثة ضباط بارزين من SISMI كانوا متورطين مع كالفي قبل وفاته.

في ذلك اليوم الصيفي في روما، التقى سامي - أو من الموساد مصدره جيانكومو - (يتم اختيار الأسماء المستعارة في عالم الاستخبارات على أساس الاسم الأول غالباً، وهو أسلوب تعتمده معظم الأجهزة). ولكن فيما كان يرتشفان شرابهما في مطعم في الهواء الطلق، لم يكن جيانكومو على وشك كشف العلاقة السرية بين عالمي المال والاستخبارات. وجاءت السبع عشرة صفحة المخزّنة على حاسبه المحمول من المهمة التي أوكلها القادة السياسيون لكل من CIA وMI6 لاكتشاف دليل يدعم الادّعاء في واشنطن بأن صدام حسين حصل على المادة الأولية للكعكة الصفراء من النيجر. ولم تكن تلك الصخور مواد أولية رئيسية في عملية إنتاج اليورانيوم المخصب

وحسـب، وإنمـا كانت حاسمة أيضاً في تسويغ مبررات قيام بوش بلير بشن الحرب. وأظهـرت الدراسة الأولية التي قام بها سامي-أو للوثائق بأن بعضها تم تشفيره، وهي إشـارة على أنها ربما تكون أصلية. ولكن كان هناك أيضاً أخطاء لغوية وعدم دقّة في المواعـيد. هل كانت تلك هي الوثائق التي استخدمها جورج دبليو بوش وطوني بلير لحشـد الدعم لغزو العراق؟ هزّ جيانكومو كتفيه استخفافاً. وهي الإيماءة المفضلة لديه عندما لا يريد توريط نفسه.

طلـب سـامي-أو مـن جيانكومو توضيح الأخطاء اللغوية. وهزّ المخبر كتفيه مجـدداً. من أين تم الحصول على الوثائق؟ أجاب جيانكومو، وفقاً لتقرير العميل الذي أرسله إلى تل أبيب، أن عميلاً في SISMI عرّفه على امرأة تعمل في السفارة النيجيرية في روما. التي قامت بدورها بتسليم الوثائق له بعد بعض المفاوضات. وطرح سامي-أو الأسئلة المعتادة: من رآها أيضاً؟ لماذا فعلت المرأة ذلك؟ ما هي الصفقة التي عقدها جيانكومو معها؟ رفض جيانكومو الإجابة. وتشير الوثائق إلى بيع فلز الكعكة الصفراء سراً إلى العراق. وظهر أنها تدعم ادّعاءات بوش وبلير بشأن شن الحرب.

تأتـي كعكـة النيجر الصفراء من منجمين تديرهما شركة فرنسية، والتي تعمل بموجـب قوانيـن دولية صارمة تحكم تصدير الفلز. تشير إحدى الوثائق إلى أن الفلز جـاء مـن أعمال تنقيب غير رسمية والتي يتم بيع منتجاتها في السوق السوداء. كان المفروض أن صدام توجّه إلى تلك السوق للحصول على المادة. وكان لدى سامي-أو سـؤال أخـير: كم يريد جيانكومو مقابل الوثائق؟ كان الجواب الفوري: خمسون ألف فرنك سويسري. وكسر جيانكومو الصمت الذي تبع ذلك.

"الوثـائق مزوّرة. وقد ابتكرتها SISMI لتدعم CIA وMI6 ادعاء بلير وبوش بأن صدام حسين حصل على الفلز. هل تعرف ما يعنيه ذلك؟"

كـان سـامي-أو يعرف. كانت الوثائق التي أكّدت MI6 على أنها أصلية، والتي اسـتخدمها طونـي بلـير وجورج بوش للدفاع عن قرار شن الحرب، مزوّرة. أيدت الوثائق ادعاء السفير السابق إلى النيجر جوزيف ويلسون، الذي أرسله بوش إلى هناك سنة 2002 ليتأكد من صحتها، والذي قدّم تقريراً لاحقاً بأن ما من كعكة صفراء ذهبت إلـى العراق. رفض الرئيس بوش تقريره، وذهب للحرب. عندما انتهى النزاع، أعلن ويلسون نتائج تحقيقه على الملأ، ووجد نفسه يتعرض لحملة عنيفة يقودها كارل روف ولويس ليبي، والتي تضمنت قيامهما بكشف هوية زوجة ويلسون، عميلة CIA السرية، فاليري بالم.

ما رشح من لقاء المقهى بين سامي–أو وجيانكامو كان كالآتي: دفع الموساد المبلغ المطلوب لقاء الحصول على الوثائق المزوّرة. وسيتم استخدامها كأداة تعليمية في مدرسة تدريب الجهاز، وكمثال على عملية ستسبب الإحراج فعلاً لاثنين من قادة العالم. وستبقى الجهة التي طلبت من SISMI تزوير الوثائق غير معروفة، لكن الموساد يعرف أن الجهاز الإيطالي راقب سراً في الماضي القصر الرئاسي للبلاد والمكتبة البابوية كخدمة للـCIA. وأن الوكالة تضامنت مع سادة واشنطن في المعلومات المضللة التي قدّمها البيت الأبيض حول حقيقة ترسانة صدام غير الموجودة. ويعتقد الموساد أن لانغلي دبّرت المكيدة لإحراج إدارة بوش، التي نحّت جهاز جمع المعلومات الاستخباراتية جانباً قبل الحرب العراقية، وبعد الإدانة التي تلقّتها لعدم تقديم المعلومات الكافية. وباستخدام SISMI – ولم يكن ذلك للمرة الأولى – كانت CIA تتوقع بقاء تواطؤها مجهولاً. وحدث ذلك من قبل في عمليات سوداء في أمريكا اللاتينية. وما لم تحسب له CIA حساباً هو جشع جيانكومو للمال. كان جيانكومو يعرف أن الموساد سيدفع للحصول على الوثائق، سواءً كانت أصلية أم مزوّرة، حالما يدرك أنها التي بنى عليها بلير قراره بشن الحرب. وكان رفض جيانكومو الإفصاح عمّن قد يكون شاهدها أيضاً دليلاً قوياً على أنه باعها إلى محطة MI6 في روما. وكل ما حصل لاحقاً نبع من ذلك.

بالإضافة إلى إصرار MI6 على أن الوثائق المزوّرة أصلية، كانت هناك ادّعاءات أخرى تدعم وجهة نظر الموساد حول الطريقة التي يعمل بها الجهاز بقيادة سكارليت. وادّعى MI6 أن مصدراً موثوقاً آخر قدّم دليلاً جيداً أثناء التحضير للحرب على أن صدام حسين لديه مختبرات كيميائية محمولة تجول في صحارى العراق، ومستعدة لإطلاق رؤوس حربية تحتوي غازات كيميائية وبيولوجية. ساند وزير الخارجية الأمريكية وقتها كولن باول الادّعاء في خطابه عشية الحرب في الأمم المتحدة، مستشهداً بالمعلومات التي استندت عليها MI6. ولاحقاً، أكّد عملاء الموساد أنه لا توجد مختبرات متنقلة إطلاقاً.

يقول أحد محللي الموساد البارزين (للمؤلف): "كانت MI6 تنشر بأفضل ما لديها من سبل، أسوأ ما تستطيع تقديمه من معلومات لا أساس لها، على أنها حقيقة. كان التأكيد المستمر المكتوب من قبل سكارليت بأن التفاصيل مستقاة من مصادر موثوقة هو الذي جعلها مقبولة. ولاحقاً فقط، وبعد انتهاء الحرب، لم تكن البيانات الصادرة عن لندن غالباً أفضل من الهراء الذي حلم به الجاسوس من رجلنا في هافانا. واستخدم

رســوماً من نسج المكنسة الكهربائية لدعم تقاريره. لقد قدّمت MI6 المختبرات المتنقلة كدمية إلى باول ليعرضها أمام الأمم المتحدة".

قــبل وقت قصير من توسيع الاتحاد الأوروبي في أيار سنة 2004، أخبر MI6 الموســاد بأنه سينتج عن التوسيع تدفق الإرهابيين إلى بريطانيا، والذين سيكون هدفهم الرئيسي مجتمع الأعمال اليهودي. وفشلت محطة لندن في إيجاد أي دليل لدعم ذلك.

في أيار 2004، شعر داغان ببداية حدوث تغيير في لانغلي، وكان مصمماً على جعــل الموســاد يستفيد من ذلك. آنذاك كان يعرف سمعة بورتر غوس من السنوات الثماني التي قضاها كرئيس جمهوري للجنة الاستخبارات في الكونغرس، والتي أعلن خلالهــا أن CIA أصبحت هدفاً لكل من هب ودب بعد هجمات 1998 الإرهابية على السفارتين الأميركيتين في شرق أفريقيا. وحقق داغان نصراً إضافياً عندما قال غوس علــناً "إنه ليس ضد الاغتيالات". وقال بعد أن رشّحه الرئيس بوش ليصبح مدير CIA التالــي: "أعــتقد أنه مفهوم يشعر معظم الأمريكيين بالراحة نحوه. وإذا تم استنفاد كل الوسائل الأخرى، يصبح استخدام القوة المميتة مفهوماً". وجدت كلماته صدىً طيباً بين المحافظين في وقت كانت فيه حرية أسامة بن لادن تمثّل تهديداً خطيراً لأمريكا.

مــنذ لقائهمــا الأول، شكّل مديري جهازي الاستخبارات رابطة فورية. واستمع غــوس فيما كان داغان يشرح كيف ورث الموساد في حالة معنوية منخفضة، وسمعته متضــررة بشــكل كبير، وكيف بث فيه الحماس بأسلوب بسيط وذلك من خلال تحوّله (أي داغــان) إلى مدير يستطيع الجميع تقريباً الوصول إليه. ومنذ توليه مهام منصبه، قام داغان بحوالى خمسين رحلة ما وراء البحار. وتحدّث غوس حول خلافه مع CIA فــي ستينيات القرن العشرين وقت أزمة الصواريخ الكوبية، ومحاولات اغتيال فيدال كاســترو باستخدام سيكار يحتوي على السم أو أصداف البحر المفخخة عندما يمارس القــائد الكوبي رياضة الغطس. وشرح غوس أن صحته المتوعكة أجبرته أخيراً على التخلــي عــن وظيفــته مع إدارة العمليات التي كانت مسؤولة عن كل مهام التجسس. ودخــل المعترك السياسي، وفاز بمقعد فلوريدا عن الحزب الجمهوري. ولكنه لم يفقد أبــداً اتصــاله بعــالم الاستخبارات العالمي. وفي لندن، وباريس والعواصم الأوروبية الأخرى، بقي متواصلاً مع شبكة ستخدمه جيداً في منصبه الجديد.

كخطــوة عملــية لــتحالفهما، أرســل غــوس وداغان جواسيسهما إلى قفاري كازاخســتان، وجــبال كشــمير وميــناء هورن البحري في أفريقيا، وإلى جبال كينيا وأثيوبيا، وعزّزا من وجودهما في العربية السعودية.

كـان أول القرارات التي اتخذها مائير داغان زيادة الكيدون من ثمانية وأربعين إلـى سـتين؛ وكان ثمانية منهم نساء. ويتخرج كل أعضاء كيدون من مدرسة تدريب الموسـاد في هيرسليا قبل أن يخضعوا لتدريب خاص في معسكر للجيش في صحراء النقب. وعند تخرجهم، يكونون في أواسط العشرينيات. ويخضعون بشكل منتظم لنفس الفحـوص الجسـدية التـي يخضـع لها طيارو الخطوط الأمامية في القوات الجوية الإسـرائيلية. وينبغـي أن يكـون بيـن أعضاء الكيدون من يتحدث العربية واللغات الأوروبـية الرئيسـية: الإنكلـيزية، والأسـبانية، والفرنسية. كما أن بعضهم يجيدون الصينية.

فـي صـناعة الاستخبارات العالمية التي يبلغ حجمها 100 مليار دولار، والتي توظّـف مـا يزيد على مليون شخص، يتم النظر إلى كيدون باحترام. وتتمتع كيدون بميزانـية غـير معروفة ولا يتم سؤالها حول طريقة إنفاقها، ولذلك تثير حسد أجهزة الاسـتخبارات السـرية الأخرى. ولا يتمتع سوى جهاز الاستخبارات الصيني السري CSIS بنفس الحرية لتنفيذ عمليات القتل.

أرسل داغان في السنوات الثلاث الأخيرة كيدون للبحث عن كل أولئك الذين تتم إدانـتهم في اجتماع يرأسه في مكتبه. ونفّذت تلك الفرق عمليات في بلاد عبر الشرق الأوسـط، وإيـران، وباكستان وأفغانستان، وضربت في أماكن لا تحمل فيها الأسواق والأزقّـة أسماء؛ وكانت عملية القتل في كل مرة سريعة وغير متوقعة، وتستخدم أي شـيء من رصاصة واحدة، إلى كسر العنق، إلى الخنق باستخدام سلك رفيع، أو بدفع سـكين في الحنجرة. لقد استخدمت فرق الكيدون أيضاً غازات الأعصاب وترسانة من المـواد السـمّية المصـنّعة خصيصاً لها. هناك الكثير من طرق القتل، وكلها تعرفها كيدون.

لإتقـان عملها، تشاهد تلك الفرق بعض الأطباء الشرعيين الإسرائيليين البارزين فـي معهـد أبحـاث الطب الشرعي في تل أبيب أثناء قيامهم بعملهم ليستوعبوا بشكل أفضـل كيفية جعل عملية اغتيال تبدو كحادث عرضي. ويتعلمون كيف أن أي عيباً أو شـائبةً علـى جلـد الضـحية ستثير الشكوك. ويشاهدون الأطباء الشرعيين يقطعون ويشـرّحون إحدى الجثث، ويتم تشجيع أعضاء الكيدون على طرح الأسئلة. كيف حدد الطبيـب الشرعي بالضبط طريقة قتل الضحية؟ ما هي المحاولات التي جرت لتمويه طـريقة القـتل؟ ما أهمية بعض العلامات الصغيرة على الجلد أو الضرر الذي لحق بالعضـو الداخلـي واكتشفه الطبيب الشرعي وقاده إلى استنتاج نهائي؟ ولاحقاً، ولدى

العودة إلى قاعدتهم، يقوم مدرب باستجواب أعضاء الكيدون حول ما شاهدوه وكيفية استخدامه لمصلحتهم الخاصة. ومن النادر أن يفشل عضو في الوحدة في اجتياز الاختبار، وهو ما يعني وضعه على لائحة التدريب المكثّف لدراسة علم التشريح مجدداً.

يتم اصطحاب أعضاء كيدون بانتظام إلى معهد الأبحاث البيولوجية في نيز-زيونا للتشاور مع علمائه في مختبراته الخاضعة لحراسة أمنية مشدّدة حيث يختبرون فعالية الأسلحة الكيميائية والجرثومية المصنّعة في إيران، وكوريا الشمالية، والصين. لقد عمل بعض علماء المعهد اليهود سابقاً لدى KGB وستاسي، جهاز استخبارات ألمانيا الشرقية السري. وعندما انهارت تلك الدولتان في نهاية الحرب الباردة، عمل الموساد على تجنيد هؤلاء العلماء.

في قاعة اجتماعات مخصصة لهذه الغاية، يجلس العلماء وأعضاء فرق الاغتيال (كيدون) ويتناقشون في مزايا ومشاكل ما هو متوفر لتنفيذ إحدى عمليات الاغتيال. هل سيكون القتل في النهار أم الليل؟ ولا تعمل بعض العوامل المرضية جيداً في ضوء النهار. هل سيكون الاغتيال في مكان مفتوح أم مغلق؟ تعمل غازات الأعصاب بشكل مختلف في كل موقف. هل سيكون الرذاذ أكثر فاعلية من الحقن؟ أي منطقة من الجسد تلك التي ينبغي استهدافها بالتحديد؟ خلف الأذن، أو ظاهر اليد، أو وخزة في الساق أو الفخذ؟ وتتطلب تلك الأسئلة إجابات دقيقة. فحياة الكيدون تعتمد على تلك الإجابات.

يكون اختيار الموقع مهماً أيضاً. وتبدو رائحة بعض غازات الأعصاب مثل العشب المحصود حديثاً، فيما غيرها مثل أزهار الربيع. وإذا تم استخدامها في مكان مكشوف، فإن ذلك يزيد من الشبهات. وبكل الأحوال، يكون مهماً في بعض الأحيان ترك دليل بأن الكيدون ضرب لإثارة مخاوف الآخرين.

كانت رحلات سفاري الموساد الأفريقية علامة مضيئة في مغامراتها الخارجية في سبعينيات القرن العشرين. وكان المثال التقليدي حول كيفية تخطيط مير عميت لعملية ناجحة جزءاً من المنهاج التعليمي في مدرسة تدريب الموساد. وعندما تولّى منصبه، قام بدراسة الحرب السرية والقاتلة التي تم شنها بنجاح ضد KGB وCSIS. وكان كلا جهازي الاستخبارات يدرّب الثوار الأفارقة لتنظيم حرب عصابات ضد المصالح الغربية من شواطئ المحيط الهندي إلى الأطلسي.

أثار احتمال وجود آلاف المقاتلين المسلحين والمدربين جيداً على بعد عدّة ساعات فقط من إسرائيل قلق السياسيين في البلاد. وأرسل مير عميت كل كاستا

وكـــيدون مـــتوفر إلى أفريقيا الوسطى. وشنّوا طوال ثلاث سنوات حرباً لا هوادة فيها ضد العملاء الروس والصينيين. وتم قتل الكاستا بنفس الدرجة من الوحشية. وتم حفر أســمائهم لاحقــاً على أحد الجدران الحجرية لصرح بشكل دماغ بشري في غليلوت، والذي يخلّد ذكرى قتلى الموساد. وفي سنة 2005، كان عددهم واحداً وتسعين.

يمكــن لهــذا الرقم أن يرتفع الآن لأن داغان أرسل عملاؤه إلى أدغال فنزويلا، وجــبال كولومبــيا، والشــوارع الخلفية في المكسيك، والأمازون وصولاً إلى تشيلي والأرجنتين؛ وكانت القاعدة تثير العداء ضد إسرائيل في كل تلك البلاد. ومرة أخرى، تــتلقى المــنظمة الإرهابية المساعدة من CSIS، مكتب الاستخبارات الثاني لدى القائد العام لجيش التحرير الشعبي.

أسّســت كلتا المنظمتين (CSIS والقاعدة) حضوراً قوياً في السلفادور؛ جزء من حملــتهما الكبــيرة لجعــل أمريكا اللاتينية لاعباً قوياً جديداً لصالح الصين في القارة، وتقديــم قــاعدة عملياتية للقاعدة يمكنها من خلالها زيادة التهديد للمصالح اليهودية في المــنطقة. لقــد أصبحت مصارف سان سلفادور – وفروع لمؤسسات مالية إسرائيلية، وبريطانــية وأمريكية – محطات توقف روتينية للمبالغ المالية الضخمة التي تقوم كل مــن CSIS والقــاعدة بتبييضها في سلسلة تحويلات عبر العالم. وتأتي تلك العوائد من عمليات تهريب الممنوعات التي أدارتها القاعدة مع كارتلات الممنوعات في كولومبيا.

أدار الكاستا والكيدون، بدعم من CIA وعملاء DAS، حملة اقتل أو تعرض للقتل فــي أدغال فنزويلا الكثيفة لإيقاف القاعدة عن نقل كميات هائلة من الكوكايين خارج الــبلد إلـــى الولايات المتحدة، وأوروبا وإسرائيل. وكان يتم ترك جثث مقاتلي القاعدة لتتعفن في الأدغال، كتحذير للآخرين فيما يتم انتشال جثث العملاء بالطائرة لدفنها في بلادهـــا. وفي إسرائيل، لم يكن هناك إقرار رسمي بمكان تواجدهم أو ما يقومون به. ولا يوجــد مـــا يــدل علــيهم سوى البناء الحجري في غليلوت الذي يحمل أسماءهم المنقوشة بفخر.

في مخابئ القاعدة في الأدغال، تم إيجاد دليل على اختراق المنظمة لما يزيد عن ثلاثة آلاف شركة أمريكية، والتي يعمل الكثير منها في الصناعات عالية التقانة، بشراء أسهمها. وقدّر مسؤولو وزارة الخزانة الأمريكية أن المجموعة الإرهابية استثمرت ما يــزيد عــن مليار دولار أمريكي في العام 2004 في هذا المجال. كانت الصفقات تتم عــبر وســطاء اســتثماريين فـــي آسيا، ومالطا، وبولندا وكان يتم دفع الأموال عبر مصـــارف فـــي.......... ولبنان. وعيّن مدير FBI روبرت مولر 167 عميلاً رفيع

المستوى لمحاولة كشف البنية المالية المعقدة التي تمنح القاعدة حضوراً متزايداً في أسواق المال العالمية.

وصف ديفيد سزادي، مساعد مدير FBI لشؤون مكافحة التجسس، للمؤلف الحالة بأنها: "موقف خطير وصعب. وربما يقوّض الأمن القومي والتفوق الاقتصادي للولايات المتحدة".

كان برنامج بروميس في صلب اهتمام نشاطات غسيل الأموال التي تقوم بها القاعدة، وبروميس برنامج أنتجته شركة متخصصة مقرها واشنطن، وحصلت عليه إسرائيل بعد ذلك. ووجدت نسخة عن البرنامج طريقها لاحقاً إلى أيدي أسامة بن لادن. وسرقها أصلاً روبرت هانزن من FBI، وهو جاسوس عمل طويلاً لصالح KGB داخل الوكالة. وقام بتمرير البرنامج إلى الاستخبارات السوفيتية، وباعه عملاؤها بعدها إلى بن لادن.

أثناء وجوده في واشنطن، لم يكن موقع القاعدة المالي يتعرض للكثير من التشويش، وفي أمريكا اللاتينية، استطاع الموساد معرفة كيف يستطيع عملاء المجموعة الإرهابية دخول القارة عبر هندوراس وفنزويلا. وكان لدى CSIS سفن صيد سريعة تتمركز في كوبا، وقادرة على نقل الإرهابيين عبر البحر الكاريبي إلى سواحل كلا البلدين التي لا تخضع نظرياً لأي حراسة.

عندما زار الرئيس الصيني هو جينتاو كوبا في أواخر سنة 2005، وافق على تزويد كاسترو بأحدث أجهزة الاستخبارات ومعدّات الحرب الإلكترونية. وكان مبنى الجهاز بالقرب من بيجوكال، على بعد عشرين ميلاً إلى الجنوب من هافانا. وفي الطرف الآخر من الجزيرة، أقام التقنيون الصينيون نظام مراقبة قادر على استراق السمع على الاتصالات العسكرية الأمريكية المشفّرة باعتراض بثها. ومكّنت مواقع المراقبة القوية هذه الصين من إدارة مراقبة إلكترونية على جنوب الولايات المتحدة وعبر أمريكا الوسطى. ومنحت القاعدة خلايا في القارة ضرورية لمعرفة تحركات الموساد وCIA في التحضير للهجوم عليها.

في تل أبيب، أخبر مائير داغان كبار موظفيه بأنه يشترك مع بورتر غوس في إحباطه من عدم القدرة على القيام بضربة استباقية للمواقع الكوبية.

نُقل عن داغان قوله لموظفيه: "ذكرى الكارثة في خليج الخنازير ما تزال تؤرق واشنطن".

في ظهيرة أحد أيام شباط سنة 2005، وعندما كان تلوث الهواء مقبولاً، وصل

أحـد عملاء الموساد واسمه المستعار مانويل إلى مطار مكسيكو (العاصمة المكسيكية) الدولـي. وكـان قـد استقل الطائرة من فلوريدا باستخدام جواز سفر أسباني؛ وكانت قاعدته في المدينة منزل آمن في حي معظم سكانه من اليهود المتقاعدين.

كـان مانويل قد زار في الأسابيع الماضية مقر قيادة DAS، جهاز الاستخبارات الكولومبـي فـي بوغوتـا، وأجهـزة استخبارت كل من البيرو، وبوليفيا، وجمهورية الدومنيكان. ووصف مضيفوه مدى اختراق القاعدة لبلادهم. في كولومبيا، عقد العميل اجـتماعات مـع FARC، المجموعـة الإرهابـية فـي البلاد، ومع الدرب المضيء، المجموعة البيروفية المثيرة للقلاقل. وقبل أن يغادر، سلّمت DAS مانويل وثائق كثيرة تظهر مدى صعوبة التصدي للإرهاب الذي جلبته القاعدة إلى داخل الحدود، والذي لا يمتلكون معرفة مباشرة بكيفية التعامل معه. ووعد مانويل بأنه سيرتب لزيارة أعضاء بارزين من أجهزتهم الأمنية إلى إسرائيل للتعاون في هذا المجال.

كـان الموساد يقوم بهذا طوال سنوات في بلاد العالم الثالث. وكانت تلك طريقة أخرى لبناء علاقاته مع ضباط تلك الأجهزة والعمل من خلالهم لمكافحة الإرهاب.

فـي المكسـيك، لم يكن مانويل واثقاً بأنه سيجد علاقات العمل المناسبة. وكانت وكالاتهـا المكلّفـة بتنفـيذ القانون، وخصوصاً شرطتها، تتمتع بسمعة سيئة في تلقّي الرشـاوي والفسـاد. وكـان الضباط متورطون في تهريب الممنوعات، والاختطاف، والابـتزاز، والقـتل. لكـن أكثر ما يثير القلق على الإطلاق هو الصلات بين القاعدة والجـيش الـثوري الشعبي EPR. لقد تم اكتشاف تلك العلاقات في وثائق تم الحصول عليها في عمليات قامت بها CIA في باكستان لتحديد موقع أسامة بن لادن. وتم تمرير نسـخ مـن تلك الوثائق إلى الموساد بناءً على طلب من بورتر غوس. وبالإضافة إلى تأكيد علاقات القاعدة مع الجالية الطلابية المسلمة الكبيرة في الدومنيكان، والعدد الكبير من العرب الذي يعيشون بالقرب من حدود البيرو مع تشيلي، كشفت الوثائق أن للجيش الـثوري الشعبي دوراً رئيسياً في مساعدة عملاء القاعدة على دخول الولايات المتحدة عبر أكثر مراكز الحدود ازدحاماً في العالم – تيجوانا.

كـان محللو الموساد يعتقدون بأن الوثائق من تحرير أيمن الظواهري، المخطط الاسـتراتيجي للقاعدة. ويتضمن ملفه النفسي في أرشيف الموساد ملاحظة بأنه يستمتع للغاية بمشاهدة أشرطة فيديو عن هجمات 9/11. وكان هناك تقارير بأنه قام بزيارات متعددة إلى أمريكا اللاتينية منذ ذلك الحين.

كـان مـانويل مـتلهفاً لمعرفة فيما إذا كان الجهاز المكسيكي للتحقيقات والأمن

القومـــي CISEN قـــادراً على توفير دلائل إضافية على ذلك. لكنه لم يكن محظوظاً. وأصـــرّ مديـــر الجهاز إدواردو مدينا على أن لا سبب لديه للاعتقاد بأن القاعدة تتمتع بأي حضور في المكسيك. وقال إنها: "مجرد توقعات إعلامية".

في اليوم التالي، استقل مانويل طائرة عائداً إلى فلوريدا. بعد أن عجز عن إيجاد مســؤولٍ واحد في الاستخبارات المكسيكية يمكن دعوته لزيارة إسرائيل. وبعد أن قدّم تقريره، سافر إلى واشنطن لتولّي مهمة أخرى مختلفة.

عــند الســاعة 10:00 قبل الظهر بالتوقيت الشرقي، وفي يوم 14 كانون الثاني القــارص من سنة 2005، دخلت مادلين أولبرايت اجتماع في قاعة اجتماعات إحدى الفنادق في مدينة واشنطن العاصمة، تحضيراً لقمة قادة العالم. واتفق المجتمعون على ضرورة النقاش حول أفضل السبل للتعامل مع أكبر كارثة طبيعية في التاريخ الحديث، تســونامي المحــيط الهــندي، والذي وصلت نسبة الوفيات فيه إلى ما يفوق مئة ألف شخص، وسيبلغ في نهاية المطاف حوالى ثلاثمئة ألف.

أثناء ذلك، كان مانويل بين عدد محدود من المراقبين الرسميين المدعوين لرؤية كــيف يتم التعامل مع أزمة أخرى أكثر خطورة. وكانت تشكّل تهديداً خاف منه مدراء الموســاد المتعاقبون، مثل كل مدراء الاستخبارات في كل مكان، أكثر من أي هجمات أخرى. وكان من المستحيل نظرياً الكشف عن التهديد الذي سيتم الحديث عنه في قاعة الاحتفالات سواءً أثناء تصنيعه أو إطلاقه.

علمــت CIA بــأن فصيلاً منشقاً عن القاعدة قد سرق كمية صغيرة من فيروس الجــدري مــن مختــبر بيولوجي في سيبريا. وكان المختبر أحد مكانين في العالم يتم الاحــتفاظ بهمــا بالفيروس بموجب القواعد الصارمة لمنظمة الصحة العالمية. وكان المكــان الآخــر مختبرات مراقبة الأوبئة في اتلانتا، جورجيا. كان الموقع السيبيري يتمــتع بنظام أمني بنته مجموعة بيشتل، وتدفع تكاليفه حكومة الولايات المتحدة لحماية حجــرات تجمــيد تحتوي على 120 عينة جدري مختلفة. ولم تكن CIA تعرف آنذاك كيف حدثت السرقة، أو المكان الذي تم نقل الفيروس إليه.

تــم إعــلام الرئيس بأن الفيروس كان أحد أكثر الأوبئة فتكاً على وجه الأرض، وأنــه قــتل فــي القرن العشرين لوحده 300 مليون شخص. وأعلنت منظمة الصحة العالمية عن استئصال مرض الجدري سنة 1980. وفي صبيحة ذلك اليوم من كانون الثاني، تم إعلام القادة بأن العالم يتعرض لتهديد جدّي مرة أخرى.

جلــس القــادة إلى طاولات عليها أجهزة هاتف، وحواسب، وشاشات تلفزيونية.

كانت كل طاولة تحمل اسماً: رئيس وزراء المملكة المتحدة؛ ورئيس فرنسا؛ ومستشار جمهورية ألمانيا الاتحادية؛ ورئيس وزراء كندا؛ ورئيس وزراء بولندا؛ ورئيس المفوضية الأوروبية؛ ورئيس وزراء السويد؛ ومدير عام منظمة الصحة العالمية.

جلست أولبرايت بينهم وبدأت تتحدث بإيجاز عن السرقة من مختبر سيبيريا. وكانت ما تزال تتكلم عندما نبضت شاشات التلفزة على الطاولات بالحياة. وقال رجل مقنّع أنه يمثّل الجهاد الجديد، وأنها مجموعة منشقة عن القاعدة، وادّعى المسؤولية عن سرقة الفيروس الذي سيتم استخدامه ضد أعداء الإسلام.

توقفت الشاشات عن البث فجأة، ونظر المستمعون المذهولون إلى بعضهم البعض غير مصدّقين لما يجري. وكسر رنين هواتفهم الصمت. وجاءت المكالمات بأنباء بأنه تم استخدام أول حقائب الجدري في هولندا؛ وتحديداً في روتردام فوق ثمانمئة شخص أصبحوا مصابين بالعدوى، وتم نشر الفيروس عبر قنوات تهوية أنفاق قطارات المدينة. وعانى بعض الضحايا من بقع على جلودهم وأذى في أفواههم، وهي علامات على أنهم في مراحل متقدمة من العدوى. وتم إرسال تقارير عن حالات مشابهة في اسطنبول. وشاهد الأطباء الأتراك أن الاندفاعات التحسسية للوباء بدأت تتحول إلى بثور. ويحدث هذا عادةً في اليوم الخامس أو السادس. ويمكن لتنشّق بضع قطيرات من اللعاب المصاب بالعدوى أن تتسبب بموت الضحية.

جاء التقرير التالي من مطار فرانكفورت الدولي، حيث كان المسافرون يعانون من صعوبة في تناول وابتلاع الطعام. وسافر بعض الركاب من ميونيخ التي جاء منها أول التقارير عن وجود الجدري في ألمانيا: ظهرت علامات المرض على إحدى العائلات بعد وصولها من تركيا. وبحلول ظهيرة ذلك اليوم، وبعد ساعتين من أول مكالمة هاتفية، ارتفع عدد الحالات المصابة إلى 3.320. وكان معظمها في أوروبا، ولكن جاءت تقارير في فترة بعد الظهر عن وصول مسافرين مصابين من المكسيك إلى مطار لوس أنجلوس الدولي.

أثناء ذلك، ثار الشغب المضاد للإسلام في روتردام، واشتبك البولنديون المصابون بالذعر على طول حدود بلادهم مع ألمانيا مع دوريات حرس الحدود التي حاولت منعهم من دخول الجمهورية الاتحادية. ولم تكن مخزونات اللقاح البولندية ضد مرض الجدري قادرة على حماية سوى خمسة بالمئة من السكان فقط. وكانت الجمهورية الاتحادية إحدى البلدان القليلة التي تمتلك مخزونات كافية من اللقاح لكامل شعبها. وكانت حكومة الولايات المتحدة قد أوقفت تلقيح شعبها قبل عشرين سنة

مضـــت، عـــندما تبين أن الآثار الجانبية للقاح أكبر من احتمال التقاط العدوى. وكانت نسبة الموت من الآثار الجانبية للقاح تصل إلى واحد بالمليون.

بعـــد خمـــس ســـاعات من اندلاع الأزمة، وكما حصل في 9/11 تماماً، أغلقت الولايـــات المتحدة حدودها. ولكن ذلك الإجراء جاء متأخراً جداً. وتسبب ذلك بتوقف العمل في وول ستريت، وكذلك في لندن، وطوكيو، وفرانكفورت وكل المراكز المالية الأخرى في كافة أنحاء العالم. وكانت تلك بداية انهيار الاقتصاد العالمي.

عـــندما انكشـــفت الأزمـــة، كانت القرارات موضع تساءل. ورفضت الولايات المتحدة تقديم اللقاح لتركيا، عضو الناتو والبلد الإسلامي المعتدل.

قالـــت أولبرايـــت: "تشعر الولايات المتحدة بأنها ليست موضع تقدير الآن بسبب الانـــتقاد العالمـــي لموقفنا في العراق. ويسأل الكثير من الأمريكيين حول سبب تقديم المساعدة لبلدان لا تدعمنا".

ذكّر رئيس الوزراء البريطاني زملاءه قائلاً: "قادت الظروف الاقتصادية القاسية التـــي أعقبـــت انهيار الاتحاد السوفيتي إلى هجرة علماء المختبرات السابقين، والذين عملـــوا في برامج أسلحة البلاد البيولوجية. ووجد بعضهم طريقه إلى سورية، وإيران، وكوريا الشمالية. والنتيجة ما نواجهه هنا".

في فترة بعد الظهر، تلقّى الرئيس الأمريكي وقادة العالم الآخرين احتمالات حول كيفـــية نشـــر الجدري. وخلال شهر، ستكون هناك مئات آلاف الوفيات. وفي غضون سنة، سيصل عدد الوفيات في العالم إلى عشرات الملايين. وأشارت التقديرات إلى أن طاعون القرون الوسطى الأسود، الذي كاد يتسبب بفناء أوروبا، ووباء الإنفلونزا سنة 1918، لن يكونا بنفس قوة كارثة الجدري سنة 2005.

عـــندها فقط، نظرت أولبرايت إلى قادة العالم وقالت: "أيها السادة، نعرف جميعنا مـــا نواجهـــه. وينبغـــي أن نشكر الله جميعاً لأن ذلك لم يحدث". وكان هناك همسات موافقة من أولئك الحضور.

كانـــت الأحـــداث التي تم عرضها في قاعة اجتماعات ذلك الفندق في واشنطن بعـــنوان عاصـــفة الأطلسي من ابتكار خبراء عالميين في الإرهاب البيولوجي. وكان هـــناك رؤســـاء وزارة سابقون، ودبلوماسيون بارزون يمثّلون بلادهم. وحاولوا خلال خمـــس ســـاعات قاسية التعامل مع تقارير طوارئ واحد تلو الآخر. وتعثّرت جهودهم لإيقـــاف انتشـــار الجـــدري بشكل متزايد. وأخبرت أولبرايت زملائها قادة العالم بأن: "ســـنواجه الأزمة التي فشلنا في التعامل معها بشكل ناجح، إذا لم يكن غداً، فربما بعد

غد. ولكنها ستأتي...."

ردد مائير داغان كلماتها عندما قرأها. ثم وضع مع بورتر غوس وثيقة سيتم توزيعها على مدراء أجهزة الاستخبارات الأوروبية. وكانت الوثيقة معنونة مستقبل الأسلحة البيولوجية، وتقدّم خلاصة مفادها: "سرعان ما ستصبح القاعدة في موقع يمكّنها من إنتاج غازات بيولوجية باستخدام الهندسة الاصطناعية، والتي يمكنها نشر الوباء على نطاق واسع. ويمكن الاستفادة من نفس العلم الذي يتم تدريسه في الجامعات لتصنيع أكثر الأسلحة فتكاً في العالم. وينبغي أن نكون حذرين من أن القاعدة تستثمر في الطلاب المسلمين قبل تخرّجهم داخل جامعاتنا بنفس الطريقة التي استثمرت بها بإرسال طياري 9/11 إلى مدارسنا لتعليم الطيران".

لم يكن هناك سوى استجابة مهذبة من رؤساء الاستخبارات الآخرين. وكان الشعور بأن الموساد وCIA يعملان مجدداً على زيادة مستوى التهديد الإرهابي. وكان ذلك محسوساً على وجه الخصوص في لندن حيث MI5 وMI6 كانا ما يزالان غاضبين من طلبات إسرائيل المستمرة بأن تقوم بريطانيا بكبح نشاطات الدعاة المسلمين المتطرفين الذي سمحت لهم بالبقاء في البلاد، والذين كانوا يستخدمون مساجد لندن وأماكن أخرى في بريطانيا لنشر الكراهية علناً ضد إسرائيل والولايات المتحدة.

في صبيحة يوم الاثنين من الأسبوع الأول في آذار سنة 2005، توجه رؤساء أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية من تل أبيب إلى كيريا، مقر قيادة قوات الدفاع الإسرائيلية. وكان بينهم مدير الشين بيت؛ (الجهاز المسؤول عن الأمن الداخلي) ورؤساء استخبارات القوى الجوية والبحرية؛ وقائد فوج القوات الخاصة – شولداغ، ورئيس مركز الأبحاث السياسية الذي يقدّم النصح لصنّاع القرار السياسيين حول الاستراتيجية الطويلة المدى. وترأس مائير داغان، باعتباره **الميمون**، والتي تعني بالعبرية الأول بين الأنداد، الاجتماع. وكان على جدول الأعمال موضوع ليس بعيداً أبداً عن أذهان المجتمعين في قاعة الاجتماعات: إيران.

يستطيع أي شخص استذكار سنوات التوتر التي سببتها الجمهورية الإسلامية لإسرائيل منذ سنة 1979. وفي السنوات الست والعشرين اللاحقة، كانت سياستها واضحة ومكتوبة على لائحة كبيرة موجودة فوق المدخل الرئيسي لوزارة الخارجية في طهران. وكانت تحمل كلمات مخيفة بالفارسية: إسرائيل ينبغي أن تحترق.

طوال كل تلك السنين، كانت إيران دولة داعمة للإرهاب، ولها علاقات وثيقة مع.......... وتأتي معظم الأسلحة التي يستخدمها...... من إيران. وكانت متورطة

مؤخراً أيضاً بتقويض الديمقراطية الوليدة في العراق بدعم الإرهاب المتزايد فيه. وما يــزال الدبلوماســيون في وزارة الخارجية في كل من واشنطن ولندن يتشبثون بالرأي القائل أن إيران تمر بفترة انتقالية نحو الديمقراطية، وأن هناك معتدلين في النظام يمكن حــثهم علــى الدخول في نوع من الشراكة مع الغرب وإقناع حزب....... وجماعات إرهابــية أخرى على إيقاف هجماتها على إسرائيل. وسمع مخبرون للموساد في غزة فريق MI6 يؤكد هذا الادّعاء.

اســتمر جــوردان سكارليت برفض سحب الفريق مما قاد إلى توتر متزايد في علاقــة الموساد مع MI6. ورغم تبادل معلومات استخباراتية مهمة بين كلا الجهازين على أسس الحاجة إلى المعرفة، إلا أن ناتان، رئيس محطة لندن، لم يعد يقوم بالرحلة المعــتادة مــن السفارة الإسرائيلية في كينسنغتون إلى المبنى الزجاجي الواجهة والذي يطــل على نهر التايمز، المعروف بإسم كعكة الزفاف لطبقاته المصفوفة فوق بعضها الــبعض، ليشــترك بســاعة مرح مع ضباط MI6 أثناء تناولهم للشطائر والمشروبات الغازيــة. لقــد كانــت تلك المناسبات فرصة لمعرفة طريقة التفكير داخل MI6 حول مجموعــة متــنوعة من القضايا، وكان هناك مناقشات مثيرة حول ما كان MI6 يدعوه حالــة اللعــب الحالــية في بعض العواصم العربية. وفي ذلك العالم المغلق في جناح الضــيافة في الطابق الخامس، كان الكلام المسكوت عنه بنفس أهمية الكلام المصرّح به. وكان سكارليت يشارك أحياناً في تلك التجمعات ليسأل عن الأحوال في تل أبيب.

لكــن حــتى تــتم تســوية قضية غزة، ستبقى العلاقات مع MI6 مقتصرة على الأساسيات. ولم يتحسن الجو العام في الموساد عندما قال ضابط ارتباط MI6 مع ناتان أن فــريق حماس يعتقد أنه يحرز تقدماً طيباً في إقناع حزب...... لوقف هجماته على إسرائيل.

لكن الموقف مع لندن في تلك الأثناء كان أقل أهمية من سبب الاجتماع. وبالنسبة للــرجال حــول طاولة الاجتماعات، والذين ساعدوا إسرائيل على النجاة من الحرب والانتفاضــات المتعاقبة، كانت صور الأقمار الصنعية عالية الدقّة الموضوعة أمامهم تخــبرهم بقصة كئيبة. وكانت صور المواقع النووية الإيرانية مأخوذة قبل أسبوع فقط بوساطة القمر الصنعي الإسرائيلي. وكانت تظهر فيها المعامل الرئيسية الستة المبعثرة فــي أرجاء البلاد. وكان كل موقع مدفون تحت آلاف الأطنان من الإسمنت، والتي لا تســتطيع قــنابل المخابــئ بلــو-109 التي باعتها الولايات المتحدة لإسرائيل مؤخراً اختراقها.

كـــان الصـــور مـــرفقة بتقارير من عملاء الموساد المتخفين في البلاد. وكانت هويـــاتهم ســـراً محفوظـــاً بعناية بين داغان ومعاونه في الطابق السابع من مبنى مقر الموســـاد. لقد كشف أحد العملاء أن موقع ناتنز جنوب إيران يعمل على مدار الساعة لتســـتطيع أجهـــزة الطرد المركزي الخمسين ألفاً فيه إنتاج كميات هائلة من اليورانيوم المخصّـــب في أبنيتها الثلاثة المحصنّة بقوة تحت الأرض. وشرح تقرير آخر كيف أن روسيا وفّرت 150 تقنياً لتطوير محطة الطاقة النووية في بوشهر على الخليج العربي، والتـــي تعرضـــت لأضـــرار كبيرة في حرب إيران مع العراق. ووصف تقرير ثالث وجـــود أجهـــزة طـــرد مركـــزي في جامعة شريف للتقانة قادرة على تطوير برنامج تخصيب اليورانيوم. وألقى تقرير آخر الضوء على قدرة مفاعل جامعة طهران النووي علـــى بـــناء قنـــبلة نووية. وحدّد أحد العملاء مواقع مداخل الأبنية تحت الأرض في صـــحاري إقليم يزد. ووصف أكثر التقارير تفصيلاً معملاً في ضواحي مدينة أصفهان الأثرية. وتقع مجموعة المباني الحديثة في الضواحي الشرقية بالقرب من مسجد الإمام والجســـر الـــرائع مـــن القرن الحادي عشر فوق نهر زادانا رود، والذي تعوّد صُنّاع السجاد في أصفهان على استخدامه لتصدير منتجاتهم طوال ألفية من الزمان.

شـــاهد الرجال حول طاولة الاجتماعات المنطقة حول معمل تخصيب اليورانيوم والتـــي جـــرى تحصينها حديثاً، مما جعلها الأكثر تحصيناً بين كل المناطق الأخرى. ويحيط سور دفاعي من الأسلحة المضادة للطائرات، والأسلاك الشائكة، وآلاف الجنود المســـلحين جيداً الآن بالمصنع المحفور في الصخر. لقد مثّلت قدرة ذلك المصنع على تخصيب غاز الفلورايد السداسي سبباً كافياً ليتواجد مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي في تلـــك الغـــرفة. وانـــتهى تقريـــر عميل الموساد بالكشف أن موقع أصفهان لتخصيب اليورانـــيوم أنتج لغاية ذلك الوقت ثلاثة أطنان من غاز الفلورايد السداسي. وكان ذلك كافياً لتخصيب اليورانيوم للاستعمالات المدنية – وهو ما ادّعته إيران – كما هو الحال مـــع الخمســـين ألـــف جهاز طرد مركزي في ناتنز على بعد تسعين ميلاً إلى الشمال الغربي منه والقادر على إنتاج الأسلحة النووية.

ذكـــر تقريـــر العمـــيل مواقـــع أخـــرى يتم فيها إنتاج الصواريخ. وكان أكبرها دارخوفـــن، جـــنوب مديـــنة أهفاز. وكان فوجان من الحرس الثوري يحرسان الموقع المحصّـــن جيداً. ويعمل فيه ثلاثة آلاف عالم ومهندس. ويتركز معظم عملهم في أبنية تحـــت الأرض علـــى بناء محركات الصواريخ. ويقع موأليمن كالياه في الجبال قرب قاصـــفن، وتنـــتج أجهـــزة الطـــرد المركزي لتخصيب اليورانيوم فيه المواد اللازمة

للــرؤوس الحربية النووية. وكان ساغهاند في صحراء بعيدة إلى الشرق من طهران. وكـــان يوجد فيه ثمانمئة تقني يبنون أجساد الصواريخ. وكان نيكا، قرب بحر قزوين، مدفونـــاً تحـــت الأرض؛ ويعمل به ما يزيد على الألف عالم. وتتضمن مبانيه مفاعل نيوتروني تم شراؤه من كوريا الشمالية.

كـــان هـــناك تقريـــر منفصل على الطاولة أمام مدراء الاستخبارات من خبراء إسرائيل في الطاقة النووية. وكانت تقديراتهم تشير إلى أن ما بين ألف وخمسمئة وألفي جهاز طرد مركزي يمكنها إنتاج ما يكفي من اليورانيوم المخصّب لتصنيع قنبلة نووية واحـــدة سنوياً، ويمكن لهذا أن يحدث في بداية العام 2007، عندما تعمل أجهزة الطرد المركزي في موقع ناتنز بكامل طاقتها.

كشف داغان أن الموساد اكتشف أن علي شمخاني، وزير الدفاع الإيراني، أجرى محادثات سرية مع سورية لنقل أحد عشر عالماً نووياً عراقياً من دمشق إلى طهران. وكـــان هـــؤلاء وصلوا إلى دمشق قبل وقت قصير من انهيار نظام صدام، وأحضروا معهـــم أقـــراص مضـــغوطةِ حول أبحاثهم في برنامج صدام حسين النووي. وتم منح العلمـــاء هويات جديدة في سورية وتخبئتهم في قاعدة عسكرية إلى الشمال من دمشق. واشترط الرئيس السوري بشار الأسد شيئاً واحداً للموافقة على نقلهم: ينبغي الاشتراك مـــع سورية في نتائج الأبحاث. ويمكن لهذا أن يوفّر للقاعدة الأساس اللازم لبناء قنبلة قـــذرة، وهو ما كان يمثّل تهديداً آخر لطالما خاف منه أولئك الرجال الجالسون حول الطاولة.

قـــبل ســـت سنوات، وفي 21 نيسان سنة 1999، وصل ما يزيد عن مئة بحار إســـرائيلي إلى فنادق صغيرة في مدينة كيل الألمانية الساحلية. وكانوا يرتدون ملابس عادية، وكانوا يجيبون عند توجيه الأسئلة لهم أنهم أعضاء في نادي للعطلات. وكانوا جميعاً أعضاء في القوة 700، والتي تم إنشاؤها لمنح إسرائيل ركيزة ثالثة حاسمة في دفاعها النووي لتوازي قدرات البلد القوية في المجالين البري والجوي.

قـــبل اثنيـــن وثلاثين سنة، قام أسلافهم بعملية مشابهة لتهريب سبعة سفن حربية خـــارج شـــيربورغ، عندما فرضت الحكومة الفرنسية آنذاك حظراً على بيع الأسلحة لإسرائيل بعد تدمير قواتها الخاصة لثلاث عشرة طائرة مدنية لبنانية في مطار بيروت – عملية حدثت انتقاماً للهجوم الذي شنّته منظمة التحرير الفلسطينية على طائرة العال 707 في مطار أثينا قبل يومين.

جـــاء قرار إنشاء القوة 700 بعد ذلك بكثير، عندما وقّعت إسرائيل عقداً مع أحد

أحـواض السـفن الألمانية لتزويدها بثلاث غواصات من طراز دولفين، والتي كانت حينها من بين الأحدث في العالم، ويبلغ وزن كل منها 1.720 طناً وتكلفته 300 مليون دولار. وكان وصول البحارة إلى كيل في يوم ربيعي دافئ محاطاً بسرية أكبر من تلك التي أحاطت بعملية نوح لتهريب السفن الحربية خارج فرنسا.

كـان مـن الضـروري لـنجاح عملـية كيل الحفاظ على السرية بين البحارة الإسـرائيليين الخمسة والثلاثين، وكان مخصصاً لكل غواصة خمسة تقنيين مختصين سـيكونون مسؤولين عن إطلاق الأسلحة النووية إذا تلقوا الأوامر بذلك. وسيتم تزويد الغواصات بتلك الأسلحة عند وصولها إلى ميناء حيفا.

غـادرت غواصـات الدولفيـن الثلاثة كيل واتجهت نحو حيفا حيث كان هناك أحواض خاصة بانتظارها. وخلال الأسابيع الستة التالية، تم تزويدها بنسخة معدلة عن برنامج بروميس الذي أنتجته أساساً أنسلو، الشركة المتخصصة التي تتخذ من واشنطن مقـراً لها. وسوف يسمح كل برنامج للغواصة بتحديد موقع وتدمير أي هدف على بعد ألـف ميل. كان بروميس مبرمجاً أيضاً لاختراق الدفاعات حول أي هدف، واحتساب الرياضيات المعقّدة التي تضمن إصابة مباشرة. وبعد تنصيب البرنامج، كان يتم تزويد كـل غوّاصة بأربع وعشرين صاروخ كروز. وكانت تلك الصواريخ قادرة على حمل رؤوس نوويـة، والتـي تمـتلك كل منها قدرة تدميرية أكبر من قنبلة هيروشيما. وتم إجـراء اختـبارات ناجحـة لإطلاق النار باستخدام رؤوس حربية فارغة في المحيط الهندي.

فـي ذلـك اليوم من آذار سنة 2005، اتجهت غواصات الدولفين الثلاث لتتخذ مواقع لها في أعماق الخليج العربي، وتصوب أسلحتها على المواقع النووية الإيرانية.

كانـت مسـألة ضـرورة وتوقيت إطلاق ضربة استباقية ضد إيران تتطلب من الموسـاد تقديم توصية واضحة إلى رئيس الوزراء أرييل شارون. وفيما كان الجو في قاعة اجتماعات كيريا يعبق بدخان لفائف التبغ، كان الجميع يعرفون أن الرد المحتمل قد يدمّر خطة الرئيس بوش للسلام في الشرق الأوسط – الذي تلفّه الشكوك – ويتسبب بـرد انتقامي من طهران ضد إسرائيل والمصالح اليهودية حول العالم. وربما تتسبب الضـربة الاستباقية ضد إيران بدخول سورية أيضاً على خط إطلاق النار، وكذلك كل المجموعات الإرهابية (وفقاً للوصف الإسرائيلي) التي تنادي بالجهاد.

أثـار رئـيس مركز الأبحاث السياسية اعتبارات أخرى. كيف سيكون رد فعل أمريكا، وبريطانيا وبقية الغرب لمثل هذه الضربة؟ وكان هناك آنذاك أصوات قوية في

الولايـــات المتحدة وأوروبا ستطلق حملة كلامية عنيفة ضد إسرائيل لأن الهجوم على إيــران ســيحدث كارثة بيئية توازي ما حدث في تشيرنوبيل سنة 1986. وربما تجد إسرائيل نفسها معزولة سياسياً واقتصادياً في العالم.

لكن أي هجمة تتطلب مقداراً من التنسيق مع القوات الأمريكية في الخليج. وربما تحــتاج الطائــرات الحربية الإسرائيلية للتحليق فوق تركيا وقريباً من الفضاء الجوي العراقـــي، والـــذي كـــان يخضع لسيطرة البنتاغون الكاملة. ولكن ذلك سيسبب مشكلة أخــرى مع واشنطن. وسيرى العالم العربي، وربما غيره أيضاً، الهجمَة الجوية كجزء مـــن جهـــد مشـــترك مع الولايات المتحدة. والشيء المؤكد أن هجمات إرهابية جديدة ستتبعها على الأراضي الأمريكية.

كـــان الشـــعور السائد بين الرجال في غرفة اجتماعات كيريا أنه ينبغي أخذ كل أسباب الحيطة والحذر بعين الاعتبار، ولكنهم لا ينصحون بشن هجمة استباقية. وأثناء ذلـــك، أرسل مائير داغان عملاءه المتمرسين إلى كردستان العراق ليتولوا إدارة موقع تنصـــت بالقرب من إيران، وأرسل كاستا آخرين إلى بلد أصبح مثار مخاوف متزايدة لمدير الموساد ألا وهو باكستان.

الفصل الثالث والعشرون

مسوّق المواد النووية الباكستاني

كانــت أزهار الربيع الجبلية في هندو-كوش قد تفتحت قبل وقت قصير من لقاء عمــيل الموســاد مع مخبره. كان كلاهما في خط المواجهة مع الإرهاب، وتربطهما قضــية مشتركة. لقد أصبحت باكستان جزءاً من جبهة الموساد الأمامية ضد الإرهاب مــنذ ظهور القاعدة كأعتى قوة إرهابية في العالم. كان تجنيد مخبرين في البلاد أولوية قصوى. والتقى جمال، وهو الاسم المستعار لعميل الموساد، مع هوراج في أول زيارة له إلى المنطقة سنة 2001. واستمع جمال بحرص إلى هوراج الذي عبّر عن مخاوفه مــن أن تصبح باكستان مهداً للتطرف الإسلامي الذي كان مستعداً للقيام بأي شيء في سبيل إيقافه. ولكن علماء نفس الموساد درسوا تقارير جمال عن خلفية هوراج وقرّروا بأنــه ربمــا يستطيع القيام بدور مفيد. كان إقصاء باكستان عن قائمة واشنطن للدول الراعــية للإرهاب لافتاً للنظر. وبعد هجمات 11 أيلول، كان البلد يوصف بشكل دائم على لسان كوندوليزا رايس بأنه: "حليفنا المهم في الحرب على الإرهاب". وكان هناك زر ضــمن قائمــة الاتصــال الســريع على هاتفها المكتبي يسمح لوزيرة الخارجية بالاتصال بالرئيس الباكستاني برويز مشرّف. وكان هناك زر آخر لخطّها المباشر مع الرئيس جورج بوش. وكانت د.رايس، الأكاديمية والمختصة بقضايا الاتحاد السوفيتي السابق والتي تبلغ من العمر خمسين سنة، مستشارة بوش الرئيسية في قضايا السياسة الخارجية، وعملت على توجيه قراره بتنحية باكستان جانباً، واختارت تجاهل حقيقة أن ذلــك الــبلد، ومنذ سنة 1989، قدّم الدعم لعدد من الجماعات الإرهابية الكشميرية في حــربها ضد الهند. ونفّذت تلك الجماعات عدّة مجازر جماعية في شبه القارة الهندية، وســاعدها فــي ذلــك عملاء الاستخبارات الباكستانية الذين كانوا يختارون الأهداف، ويقدّمون المخططات المتطورة، والتي كان من بينها الهجوم على البرلمان الهندي سنة 2001.

تزايدت درجة التأهب في الموساد عندما طورت باكستان قدراتها النووية، والتي

أعلــن مشــرف بأنهــا: "ســلاحنا الموازي، الذي يمتلك تأثيراً كابحاً على الهند". في واشــنطن، تــم التقليل من مخاوف الموساد من امتلاك باكستان لسلاح يستطيع تهديد الدولــة العــبرية. فــي الحقــيقة، لم يكن عدد كبير من ضباط الاستخبارات السرية الباكســتانية أعضاء في الجماعات الدينية المتشددة في البلاد وحسب، وإنما مناصرين أقويــاء للقــاعدة أيضاً. هل تستطيع تلك المجموعة الإرهابية يوماً ما الحصول على الوسائل اللازمة لصناعة قنبلة قذرة على الأقل، أو سلاح نووي كامل القوة؟ وكان يتم طــرح ذلــك السؤال باستمرار ضمن الموساد، والذي قاد جمال في رحلة طويلة عبر الوديــان الجلــيدية وخلــف الجبال التي تغطيها الغيوم للحفاظ على موعده. وكان في انتظاره مخبره هوراج. وربما كان ما يتلقاه هوراج في كل مرة يلتقي بها جمال عاملاً مساعداً على حضوره من جديد إلى هذه البراري القفرة القريبة من سقف العالم.

كانــت تلك هي الأرض التي خسر بها الإسكندر الأكبر فرقة كاملة من جنده في أحد فصول الشتاء، وبعد قرون من ذلك، دخل الروس في حرب ضد مجاهدي القبائل الأفغانــية وخســروها. وهنا عند قمة جبلية مغطّاة دائماً بالثلج، والصدوع التي تشق الصــخر، فقــدت القوات الخاصة الأمريكية بعضاً من أفضل رجالها في البحث عن أسامة بن لادن.

تــم اســتخدام أكــثر التقانات تطوراً في عملية البحث. وتمركزت أقمار صنعية طيفــية، وهــي الأولى من نوعها، في الجو، والتي تستطيع المئات من أجهزتها التي تعمــل بــالأمواج القصــيرة كشــف الطاقة من الأشياء على الأرض، والكشف عن تضــاريس معيــنة مثل الصخور، والنباتات، والمباني، والكهوف وأي وجود بشري. ويســتخدم قمر صنعي آخر بصمات طيفية، ويستطيع التقاط صور تتمتع كل منها بدقة عشرة سنتيمترات لكل بكسل. وينقل رادار اختراق صناعي صوراً ليلية للمنطقة حتى فــي أقســى الظروف الجوية. وتلتقط درونز – طائرة دون طيار – باستمرار صوراً للمــنطقة التــي تــبلغ مساحتها مساحة كاليفورنيا على مدار الساعة من ارتفاع خمس وســتين ألــف قدم. وتطير بردياتور – طائرات يتم التحكم بها لاسلكياً – على ارتفاع يبلغ مئة إلى خمس وعشرين ألف قدم، وترسل بيانات إلى مكان تأهب القوات الخاصة بجانــب مروحــياتها، والمزوّدة كل منها بتقانة الهمس التي تجعل من طيرانها صامتاً نظرياً. وتكون تلك المروحيات مزوّدة بصواريخ إيه-جي-إم 130 التي يمكن توجيهها بالــرادار إلى مداخل الأنفاق التي ربما يكون بن لادن مختبئ داخلها. ولكن الأهداف كانت قليلة ومتباعدة، ولم يكن أي منها وكر الرجل الذي يلاحقه العالم بأسره.

في ربيع العام 2005، تحولت الأسلحة الأمريكية المذهلة للبحث في مكان آخر. وتسبّب رحيلها برسم ابتسامة ساخرة على وجه مائير داغان عندما شاهد أن التقانة لا تستطيع التغلب على الاستخبارات البشرية. وهناك قول في الموساد بأن المعلومة جيدة مثل مصدرها فقط. وكان جمال يعتقد أن هوراج يستطيع القيام بعمل رائع. ولم يكن جمال يجيد اللغة الباكستانية الرسمية – الأوردو وحسب، وإنما عدد من اللهجات المحلية أيضاً. ولكن مثل كل شيء آخر يتعلق بالرجلين، كانت اللهجة التي يتحادثان بها مغطاة بحجاب من السرية التي تعتمد عليها حياتهما. ولم تكن مجموعة هوراج العرقية، سواءً كان بنجابي، أو سندهي، أو بوشتو، أو بالوشي أو مهاجر، معروفة سوى من قبل جمال فقط والضابط المسؤول عنه في إدارة العمليات. وكل التفاصيل الشخصية الأخرى، مثل سنه وحالته العائلية، كانت سرية أيضاً. وكان أكثر الأسرار حماية هو مكان عمل هوراج، ومستوى المعلومات القيّمة (الحيوية) لإسرائيل التي يستطيع الوصول إليها. ولهذا السبب، لم يكن أي من تقاريره ينتهي في ملفات أرشيف الموساد عن الشخص الذي تسببت أعماله في جمع كلا الرجلين معاً.

كان ذلك الشخص هو عالم الذرة الباكستاني البارز عبد القدير خان. لم يكن عبد القدير ضخماً من الناحية الجسدية، وكان يعوّض عن ذلك بابتسامة مشرقة لأي امرأة تلتقطها عيناه، ويقابل أولئك الذين يتجرأون على تحدّيه بغطرسة كبيرة. وكان يستطيع لقاء القادة الباكستانيين بسهولة؛ وكان السياسيون من المراتب الأقل يتلفظون اسمه برعب. وكان أولئك الذين يرفضون تنفيذ طلباته يجدون أنفسهم في خصام مع دائرته الداخلية؛ وحتى رئيسة الوزراء السابقة بنازير بوتو أقرّت بأنه لم يكن مسموحاً لها بزيارة مختبرات أبحاث خان عندما كانت في منصبها. في تلك المختبرات، في تموز سنة 1976، استخدم سنوات أبحاثه في ألمانيا، وبلجيكا، وهولندا لفهم تقنيات إنتاج اليورانيوم المخصّب اللازم لصناعة القنبلة النووية. وقبل ثماني سنوات، وبعد اختبار الجارة الهند لقنبلتها النووية، تم تعيين خان مديراً لبرنامج باكستان النووي.

اكتشف الموساد أنه خلال تواجده في هولندا وعمله في مختبرات أبحاث الديناميكية الفيزيائية، استطاع خان الدخول إلى موقع يورينكو لتخصيب اليورانيوم في ألميمو. وتم إنشاء المعمل سنة 1970 بالتعاون بين بريطانيا، وألمانيا الغربية وهولندا، لتقديم كميات من اليورانيوم المخصّب للمفاعلات النووية الأوروبية. وللقيام بذلك، كان المعمل يستخدم أجهزة طرد مركزي عالية التقانة لفصل اليورانيوم الانشطاري 235 عن اليورانيوم 238، وإخضاع مزيج النظائر لما يصل إلى مئة ألف دورة بالدقيقة.

وتوصـــل الموساد إلى معلومات تفيد بأن الإتقان الناجح لهذه التقانة مكّن خان من بناء ترسـانة باكسـتان الـنووية بسـرية مطلقة. وبعد قيامه بذلك، أظهرت صحف البلاد مفخـرته علـى صـدر صفحاتها الأولى: "طغاتنا الذين أخبروا الولايات المتحدة أن باكسـتان لا تستطيع أبداً إنتاج القنبلة النووية يعرفون الآن أننا نستطيع ذلك". وأصبح خـان شخصـية موقّرة لملايين الباكستانيين المعجبين به، والعبقري الذي قدّم الوسائل التي تمنع أي ضربة استباقية من قبل الهند.

بقـي خان شخصية ساحرة لا مثيل لها في باكستان، وربما لا مثيل لها في العالم الإسـلامي الذي قرأوا عنه في صحفهم أو سمعوا به عبر إذاعاتهم أو أجهزة تلفازهم. وتـودّد إليه الأغنياء والمشاهير، وتمت دعوته للإبحار في يخوتهم الفاخرة بالقرب من سواحل الريفيرا الفرنسية، والسفر إلى هناك بطائراتهم الخاصة.

كان الموساد يعرف أن هناك جانباً مظلماً وأكثر خطورة على إسرائيل فيما يتعلق بـعـبد القديـر خـان. وخلال إحدى نزهاته الأوروبية، استطاع أحد عملاء الموساد الدخـول إلـى جـناح الفندق الذي يقيم فيه خان، وفتح حقيبته اليدوية. وباستخدام آلة تصـوير بحجـم علـبة أعواد الثقاب، التقط العميل صوراً للوثائق التي قدّمت الدليل الملمـوس الأول عن قيام خان مؤخراً بشراء خمسة آلاف مغنطيس خاص من شركة حكومـية في بكين. وكانت تلك المغنطيسات تستطيع تسريع آلية تخصيب اليورانيوم. وأظهـرت وثـائق أخـرى أن خان أجرى اتصالاً أيضاً مع دول أخرى تطمح للقوة الـنووية، وأهمها كوريا الشمالية، والعراق، وإيران. وفي مكتبه المليء بالكتب، كان هناك تقرير من معهد جون ف. كينيدي الحكومي في جامعة هارفرد. وكان خان يحب أن يعـرض لـزواره الممر الذي أشار إليه: "تهرب قنبلة تبلغ قوتها 10 كيلوطن إلى مانهاتـن، وتفجـر في المحطة المركزية. وسيلقى نصف مليون شخص حتفه، وتعاني الولايـات المتحدة من أضرار اقتصادية تبلغ قيمتها تريليون دولار". ويقوم خان بعدها بإغلاق الكتاب بسرعة ووضعه دون تعليق على الرف، مطمئناً دون شك إلى المعرفة التي استطاع بها تزويد باكستان بسلاح يمكنه تحقيق مثل ذلك السيناريو المروّع. وكان خـان عـبقرياً مخـتلاً، ولم يكن يحفّزه طمعه للمال وحسب وإنما تشدده الديني أيضاً وإزدرائه للقيم الغربية. وأصبحت مختبرات أبحاث خان محجاً لعلماء دول العالم الثالث الـذي يـأتون إليه لمساعدتهم على امتلاك مهارات الفن الأسود لصنع القنبلة النووية، وأصـبح الرجل غنياً وقوياً. وأصبح أيضاً هدفاً لكيدون الموساد. وبدأت الفرقة عملية بطيـئة ودقـيقة لتجميع كل المعلومات التي يحتاجها أعضاؤها لاستنباط أكثر الطرق

فاعلية لقتله.

كان الموساد تعامل سابقاً مع عالم أجنبي تم اعتباره تهديداً هو جيرالد بول. وكان جيرالد بول قد ابتكر لصالح نظام صدام حسين مدفعاً عملاقاً قادراً على إطلاق رؤوس حربية نووية من العراق مباشرة إلى إسرائيل. وفي 20 آذار سنة 1990، أعدم ثلاثة أعضاء في كيدون بول على عتبة شقته المترفة في بروكسل (الفصل السادس، المنتقمون). وبكل الأحوال، ستكون عملية اغتيال خان أكثر تعقيداً. فقد كان خان بطلاً قومياً، وستمتد آثار ذلك إلى ما هو أكثر من مجرد انتقام مباشر ضد إسرائيل. ورغم أن واشنطن فرضت عقوبات على كل من باكستان والهند لقيامهما بتجارب نووية، إلا أن الولايات المتحدة أرادت الحافظ على دعمهما ضد النفوذ المتزايد للصين؛ وستدين إسرائيل لقيامها بعملية الاغتيال. ورغم ذلك، تم الطلب من كيدون تجهيز عدد من الخيارات – البحث التفصيلي الذي سيسبق أي اغتيال لخان. وقال آري بن–ميناش، الذي تولى قيادة الفريق المكلف ببحث الخيارات خلال خدمته في الموساد (للمؤلف): "كانوا يقومون بما هو ضروري لذلك النوع من العمليات. وكان أساس عملهم معرفة هدفهم جيداً، وعاداته وأسلوب حياته. وردة فعله عند التعرض لموقف ما، والأشياء التي تجعله يتوتر. ويستطيعون بعدها فقط وضع الخطة العملياتية".

تمت دراسة لقطات من ظهور خان على التلفاز، والأفلام الإخبارية القصيرة، إلى جانب مقابلاته الصحفية التي لا تعد ولا تحصى، وصوره في المجلات. وتم تسجيل أسماء مساعديه المقرّبين – علماء في البرنامج النووي، والعملاء السريين الذين يعملون مباشرة معه. وتم وضع مخطط بياني لرحلاته في أرجاء باكستان، وآسيا وإلى أوروبا؛ ومقعده المفضل عند سفره على متن الخطوط الجوية الباكستانية – 3إيه في الدرجة الأولى – وكانت أماكن إقامته في العواصم الأوروبية الأجنحة الرئاسية عادةً. وكان يلتقي هناك بدبلوماسيين من الصين، وإيران، والعراق. وكان الكثير من أجنحة الفنادق تلك موجودة سلفاً في حواسب كيدون، ويمكن زرع أجهزة تنصت فيها إذا دعت الحاجة لذلك. وتم التحقيق في رغباته الجنسية. هل كان يرغب بنوع معين من النساء؟ هل يمكن ابتزاز أي من مرافقيه الذين يظهرون معه في العلن؟

تم بناء ملف عبد القدير خان بجهد كبير من مصادر واسعة النطاق. وكان أحد أجزاء ذلك التخطيط تجنيد هوراج. التقى هوراج مع جمال مجدداً بعد ذلك اليوم المشهود في 4 شباط سنة 2004، عندما جلس خان في استوديو تلفزيوني في إسلام أباد، وواجه آلة التصوير، وأدلى بواحدة من أكثر الاعترافات دهشةً في تاريخ الخيانة

الطويل.

قـــال بصـــوت هـــادئ: "أنا مسؤول وحدي عن إدارة سوق سوداء عالمية لمواد الأسلحة النووية".

قبل أن تتمكن الأمة المصدومة من التكيّف مع الاعتراف، أخذ الرئيس الباكستاني برويز مشرف، الذي كان يرتدي بذلة القوات الخاصة – كان ما يزال جنرالاً عسكرياً – مكان خان وأعلن أنه: "شعر بالصدمة لهذه الاعترافات، إلا أنه مع ذلك يلتمس العذر لـــخـــان"، الذي دعاه بـــبطلي، بسبب الخدمات التي قدّمها لباكستان. وكان العذر أقبح من الذنب. وكان الموساد يعرف بأن مشرف لا يستطيع إخضاع خان للمحاكمة.

فيما استمر كيدون بالتحضير لأرضية أي قرار لاغتيال خان، رأى مائير داغان ومحللوه أن اعتراف العالم، والاستجابة الاستثنائية من قبل مشرف، كدليل على عملية ضـــخمة لإخفاء مدى تواطؤ باكستان في الانتشار النووي. وكانت تلك تغطية بمناورة سياســـية مكشـــوفة. وبـــدأ كل شيء عندما استطاعت باكستان الفوز بدعم الصين في نـــزاعها الحـــدودي مع الهند. وقاد ذلك إلى نشوء علاقة وثيقة بين إسلام أباد وبكين. وفـــي المـــنطقة التـــي تتشـــابك بها التحالفات والمصالح، أدّى ذلك إلى دخول كوريا الشـــمالية، الحليف القديم للصين، في علاقة ودية مع باكستان. وكانت في البداية بشكل زيارات ثقافية واستطلاعية يقوم بها دبلوماسيون. ولكن في اسطنبول، كان خان يراقب وينـــتظر؛ وأخـــبره أنفـــه العالي الحساسية سياسياً أن الأمر لن يطول قبل عقد صفقة نووية.

كانـــت الصـــين تطوّر علاقتها مع إيران أيضاً. وبدأ ذلك في تشرين الأول سنة 1984 عـــندما حطّت أول طائرة محمّلة بالمواد النووية في طهران. ومنذ ذلك الوقت، قدّمـــت بكين ثلاثة مفاعلات بدائية وجهاز فصل نظائر الكترومغنطيسي يتم استخدامه فـــي عملـــية تخصيب اليورانيوم. وتبع ذلك مفاعل أبحاث حراري بقوة 80 كيلووات. وكان عملاء الموساد في إيران يراقبون كل شحنة عن كثب.

أثناء ذلك، تحوّل صدام حسين، وفي منتصف السنة الثامنة من حربه مع إيران، إلى الهند طلباً للمساعدة للبدء في بناء ترسانته النووية. ولتشجيع دلهي، أيّد علناً تجربة الهـــند الـــنووية، وبـــدأ العـــراق يتلقّى معدّات لتصنيع كميات صغيرة من اليورانيوم المخصّب. وتم كل شيء بسرية مطلقة، وكانت الأجهزة توصف بأنها معدّات زراعية. وانطلـــق الموساد لعرقلة ما كان يحدث. ونفض الغبار عن اتفاقية منسية حول التعاون الـــنووي كـــان العـــراق وقّعها مع الهند سنة 1974. وتم تسريب الاتفاقية إلى وسائل

الإعلام الإيرانية. وتسبب الكشف عن المسألة بصخب إعلامي كان يريده الموساد في طهران.

تحوّل آيات الله إلى الصين للمساعدة. ولكن بكين كانت متورطة في ذلك الوقت، بـنفس درجـة سرية تسليحها لإيران، بتزويد العراق بالصواريخ لمساعدة صدام على تحقـيق حلمه بإعادة تشكيل الشرق الأوسط كما يتخيله، وإحداث فوضى في الاقتصاد والأمـن السياسي العالميين. اقترحت بكين - المستعدة دائماً لمساعدة الدول المارقة - علـى آيات الله دعوة عبد القدير خان لزيارة طهران. وسرعان ما تم اتخاذ الترتيبات اللازمـة. وتم تزويد خان بجواز سفر مزوّر يصفه بأنه بائع سجاد. وفي الحقيقة، كان انتهازياً وعالماً مستعداً لبيع أثمن أسرار بلده السرية مقابل المال.

عاد بعد عدّة أسابيع، ووصفه مضيفوه بأنه عرّاب آمالهم النووية، ومع مبلغ مالي كبـير فـي حساب مصرفي في سويسرا. استمتع خان دون شك بالمحاباة التي أسبغها عليه آيات الله، وتطلّع نحو دول أخرى يستطيع تقديم خدمات مماثلة لها. وللقيام بذلك، طلـب مسـاعدة وكالة الاستخبارات السرية الباكستانية ISI، الأقوى في النظام الأمني للـبلاد. وكـان لـدى الجهاز عدد كبير من الضباط المعادين للسامية، والذين جعلت تهجمـات خـان ضد إسرائيل منه ضيفاً مرحباً به بينهم. واستنبطوا عن طيب خاطر الوثائق المطلوبة ليستطيع العالم القيام بعمليات نقل التقانة النووية.

بعـد طهران، كانت كوريا الشمالية محطة التوقف التالية في جهود خان التي لا تهـدأ. وفعـل ذلك مستفيداً من صفقة باكستان مع بيونغ يانغ للتزوّد بمعدات عسكرية تقلـيدية. ووافـق خـان بالمقـابل على تقديم مخططات وأجهزة طرد مركزي حديثة لـبرنامج الـبلاد النووي. وسرعان ما تحولت الصفقة التي ترتكز على حاجة كوريا الشـمالية للقطـع الأجنبـي ومتطلبات باكستان للمعدّات العسكرية التقليدية إلى اتفاقية مقايضة.

قـال أحد محللي الموساد (للمؤلف): "ظهر أن أحد مخططات خان تساوي شحنة مليئة بمدفعية الميدان من صنع كوريا الشمالية".

أكسـبت نشـاطات خـان باكستان نفوذاً متزايداً كونها أول قوة نووية في العالم الإسـلامي؛ وتجلّى ذلك بتدفق مبالغ مالية طائلة إلى حسابات خان المصرفية مباشرة. وفي الوقت الذي أدلى فيه باعترافه على التلفاز، قدّر الموساد أن ثروته تصل إلى 10 مليون دولار. وجعله ذلك أحد أكثر الرجال ثراءً في باكستان.

مرّر الموساد كل هذه المعلومات إلى CIA في الوقت الذي كان فيه جورج تينت

علـــى وشك الاستقالة. لكن لم يكن هناك أي إشارة على أن إدارة بوش حذّرت مشرف لإيقـــاف نشـــاطات خان. ولم يكن هناك تفسير أيضاً لقيام واشنطن أخيراً بإعلان رد معتدل على اعتراف خان التلفزيوني. في الحقيقة، أسبغ ريتشارد أرميتاج، نائب وزيرة الخارجية، المديح على العفو الذي أصدره مشرف بحق خان. وقال بوجه خالٍ من أي تعبير: "الرئيس الباكستاني رجل مناسب في المكان المناسب".

تم اعتبار كلمات أرميتاج كدليل آخر على أن بحث واشنطن عن أسامة بن لادن أصـــبح، كمـــا قال أحد ضباط الموساد الذين يتمتعون بخبرة كبيرة في مجال مكافحة الإرهـــاب (للمؤلـــف): "الأكثر خطورة على الإطلاق بالنسبة للاستخبارات، ومطاردة يحكمهـــا هوس يهيمن على كل ما سواها. وكان النيل من بن لادن قد تحوّل إلى أمر شخصـــي بالنســـبة لـــــبوش منذ 9/11. وكان سيستمر في تخصيص المبالغ المالية الكبيرة، والرجال والموارد لإلقاء القبض عليه. وأي شخص يستطيع المساعدة في ذلك يمكنه طلب أي شيء. وكان مشرف من تلك الفئة".

كـــان الرئيس الباكستاني قد استولى على السلطة في انقلاب سنة 1999. ورغم أن أغلبـــية كبـــيرة مـــن الســـكان في البلاد من المسلمين، والذين كان الكثيرون منهم متشـــددين، إلا أن مشـــرف عـــرض عند وقوع أحداث 9/11 تقديم دعم غير محدود لحـــرب بـــوش ضـــد الإرهاب. وكانت المجازفة كبيرة للرئيس الذي كان يجد آنذاك صـــعوبة بالغة في تولّي زمام السلطة. وكان قد نجا من ثلاث محاولات اغتيال، ووجد نفسه يواجه يومياً ليس قادة البلاد الدينيين بسبب آرائهم المعادية لأمريكا وحسب، وإنما الجـــيش والاســـتخبارات أيضـــاً لدعمه الحرب على الإرهاب. كان بن لادن بالنسبة للكثيريـــن منهم بطلاً شعبياً، وفيما كان ينتقل بسرعة عبر الجبال المحاذية لأفغانستان وعلى قمم التخوم الشمالية الغربية، متقدماً دائماً بخطوة على القوات الخاصة الأمريكية التي تطارده، كان يتلقى المساعدة من أعضاء في الاستخبارات الباكستانية.

في الوقت الذي كان فيه خان يدلي باعترافه على التلفاز، اقتفت القوات الخاصة قـــرب أقاليم باكستان الشمالية آثار بن لادن. وتم إرسال المشاهدات إلى قيادة العمليات الخاصة المشتركة في حصن براج في كارولينا الشمالية، ومنها إلى CIA، وأخيراً إلى البنتاغون، ووزارة الخارجية. كان الجميع يدرك أن تلك مرحلة حساسة. وقبل أسبوع فقط، وفي منتدى العالم الاقتصادي في دافوس في سويسرا، قال مشرف: إنه "لن يسمح للقوات الأمريكية بالبحث عن بن لادن داخل باكستان". وأطبقت واشنطن على أسنانها ولم تقل شيئاً.

جمعــت محطــة الموساد في العاصمة أجزاء التفاهم الذي تم الاتفاق عليه خلف الستارة. واشنطن لن تضغط على مشرف لإخضاع خان للمحاكمة بشأن نقل تكنولوجيا السـلاح الـنووي. وعوضــاً عن ذلك، سيتم التركيز على دعم باكستان المستمر في الحــرب علــى الإرهاب. وبالمقابل، سيبحث الجيش والاستخبارات الباكستانية عن بن لادن داخل البلاد. وسيتم السماح للقوات الخاصة الأمريكية بالاشتراك، ولكن فقط تحت القيادة الباكستانية. وكانت تلك صيغة التعاون المشترك في الميدان؛ وبعد أربع أسابيع، لا عجب أنهم لم يجدوا أي أثر لــبن لادن، وتم إيقاف البحث.

كــان بــن لادن قــد ظهر في عدّة تسجيلات فيديو منذ ابتهاجه أول مرة بتدمير البرجيــن التوأم والبنتاغون. وتوصل اختصاصيو الموساد – علماء النفس والسلوك – إلى أن بن لادن ما زال يبدو مثل رجل يشكّل واقعه بنفسه. وكان استنتاجهم (الذي رآه المؤلــف): "الموت في صميم تفكيره. ومن أسلوبه وطريقة حديثه، يشكل الموت الآن جــزءاً متمماً في حياته. وهو ليس مدفوعاً بالغضب. وهناك قوة أعمق مفعمة بالحيوية وظاهــرة للعــيان. وصوته لا يعبر ببساطة عن ديماغوجية شوارع تقليدية، وإنما ما يمكــن تسـميته الشر المطلق. لقد امتلك كل من هتلر وستالين نفس الميزة الصوتية. ويحــركه العنف الأعمى. ويسمح له ذلك بالعمل بطريقة مستقلة تماماً ضد كل أولئك الذين لا يوافق على أن لديهم الحق بالحياة".

ســبب شريط الفيديو الخاص به في تشرين الثاني سنة 2004 موجة من الانفعال الشــديد بيــن محللــي الموساد. وتم التحضير لذلك الشريط في استوديو تلفزيوني مع إضاءة وصوت متميزين بالجودة. وتم تصويره أمام ستارة حريرية؛ وكان معروفاً أن لونها الأصفر يتماشى مع الزهرة المفضلة لديه في أفغانستان. لكن بن لادن نفسه حيّر المحلليــن. ولــم يكــن يرتدي ملابس رجل الجبال آنذاك، وإنما ساكن المدينة الثري. وكانت كل من عصاه وبندقية الكلاشينكوف – التي لطالما رافقتاه في الأشرطة السابقة – قد اختفتا. وكانت لحيته مهذبة بأناقة، وعيناه صافيتان، وجلده يدل على الصحة. ولم يعــد يبدو ذلك الرجل المريض كما كان الحال في الأشرطة الماضية. وعندما تحدّث، كــان خطابه هادئاً ومدروساً. وكان هناك ملاحظات على تمتمته وتردده في الأشرطة الســابقة. وأظهــر ذلك الشريط أنه تلقّى تدريباً صوتياً احترافياً. وكان يتحدث إلى آلة التصوير مباشرة.

تساءل محللو الموساد فيما إذا كان تم تصوير الأشرطة في باكستان أو حتى في أحــد أقاليم الصين الشمالية الغربية، حيث يعيش عدّة ملايين من المسلمين ليسوا على

علاقة طيبة بنظام بكين. وكان الآلاف منهم مناصرين للقاعدة، ويعملون في عصابات تهريــب البشر أو الممنوعات إلى الغرب. واستنتج المحللون أن إحدى تلك العصابات قامــت بــنقل الشريط إلى قناة الجزيرة. وكما هي العادة، أصرّت المحطة علناً أن لا فكرة لديها عن كيفية وصول الشريط إليها.

لكن في ذلك اليوم الربيعي من العام 2005، التقى جمال مع هوراج، ليس لتلقّي تأكـيد إضــافي علــى أن الصين تقدم، رغم نفيها الغاضب، الملجأ لــبن لادن، ولكن لاكتشــاف المزيد عن طريق سري يسلكه المنشقّون عن النظامين في الصين وكوريا الشــمالية إلــى الحــرية في الغرب. وكان موضع اهتمام الموساد أحد علماء كوريا الشمالية الذين عملوا على الأسلحة الجينية.

مــنذ آذار العام 1984، عندما ألقى طيارو صدام حسين 100 ليتر من الأسلحة البيولوجــية على السكان الأكراد في مدينة حلبجة، مما أدى لمقتل خمسة آلاف شخص في غضون دقائق، أصبح تهديد الهجمات غير التقليدية على إسرائيل أولوية للموساد.

تعقّــب العمــلاء الذين يتقنون الروسية العلماء الذين عملوا سابقاً في القسم 12 السري التابع لإدارة مدير KGB. وكانت أعمالهم مسؤولة عن الجاسوسية البيولوجية، والتخطــيط والتحضــير للإرهــاب البيولوجي، والحرب البيولوجية بشكل عام. كانت الولايــات المــتحدة، وبريطانيا وإسرائيل بين الأهداف الرئيسية للقسم 12. واستطاع علمــاؤه اســتخدام الهندســة الجينية بنجاح في مختبراتهم في موسكو لتحضير بعض الفيروســات الأكــثر خطــورة في العالم؛ إيبولا، والجمرة الخبيثة، والجدري. وكانوا يعملــون أيضــاً على الجينات المسؤولة عن تحديد الجنس، والعرق وميزات الأجناس الأخرى. وكان أحد الأسلحة الأخرى التي يتم العمل عليها نيفان يسبب ضرراً للقدرات العقلية البشرية، ويثير مخاوف لا مبرر لها، ويقود إلى الموت. وتم ابتكار مواد أخرى خاصة لتسميم المستودعات، ومخازن الطعام، ومعامل الأدوية وكان علماء آخرون في القســم 12 يعملون على الوصول لطرق متقدمة لنشر الطاعون، أو الموت الأسود من العصــور الوســطى، عــبر الهواء. واكتشف علماء الموساد أنه عندما انهار الاتحاد السوفيتي، تم تجنيد عدد من العلماء للعمل في كوريا الشمالية والصين.

تــم إيجــاد صلات أيضاً بين هذين البلدين وأبحاث الأسلحة الجينية، والتي عمل علــيها أيضاً نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا؛ وكان مشروع الساحل يرمي أساســاً إلــى ابتكار قنبلة عرقية. وكان رئيس المشروع فاوتر باسون عالماً موهوباً، وقاســياً جداً، ولا يتمتع بأي فضائل أخلاقية، وكان قادراً على تطوير أسلحة بيولوجية

ستجعل منه، بكلمات رئيس الأساقفة توتو (Tutu): "تابعاً للشيطان يعمل في أكثر مشاريع الفصل العنصري شراً". وباستخدام شركات تمويه تدّعي القيام بأبحاث بنوايا حسنة، جمع مشروع الساحل معلومات علمية من كل أنحاء العالم. وجاء بعضها إلى كوخ صغير مستأجر قرب أسكوت في بيركشاير في إنكلترا. وكان كوخ المزرعة رقم 1 في وترسبلاش عنواناً لا يمكن الشك به لتلقّي مواد الحرب الجرثومية من علماء كوريا الشمالية وآخرين غيرهم. ولكن بالنسبة لهم – معزولون مثلما كانت جنوب أفريقيا عن مجتمع العالم العلمي أيام نظام الفصل العنصري – كان الكوخ يمثّل مقراً لتبادل البيانات، ولم يكن يخضع لرقابة MI5. ولاحقاً، زار علماء من مشروع الساحل العراق، وليبيا، وأخيراً إيران.

في البداية، رفض آيات الله الاستمرار في إنتاج الأسلحة البيولوجية لأنها مناقضة لأحكام الشريعة الإسلامية، وهي حقيقة روّج لها الموساد بنجاح عبر الشرق الأوسط. ولكن بعد مذبحة الأكراد في العراق، غيّر نظام طهران رأيه، وصوّت المجلس – البرلمان الإيراني – بالإجماع على إنتاج الأسلحة البيولوجية والكيميائية بشكل واسع. ونفضت قوات القدس المشكّلة حديثاً الوثيقة التي تركها خلفهم علماء جنوب أفريقيا بعد زيارتهم لطهران، والتي كانت ستمنح إيران قدرة تدميرية كبيرة حتى تحصل على ترسانتها النووية. وضمنت مخططات علماء جنوب أفريقيا التفصيلية تقدم العمل بسرعة.

تحدثت إحدى وثائق مشروع الساحل (التي شاهدها المؤلف): "يستند العامل الرئيسي في صنع قنبلة عرقية ناجحة في عزل الفروق الصغيرة ولكن الحاسمة في خريطة الجينات البشرية. ولا يتجاوز الفرق 0.1 بالمئة. ولكن عند تجميعها، والتي قد تصل إلى 3 ملايين رسالة من الشيفرة الجينية، يمكن عندها إجراء مقارنة بين شخص وآخر. ويمكن لهذا أيضاً تمييز الفروق بين الجماعات العرقية الكبرى. ويمكن استغلال تلك الفروقات لتصنيع أسلحة عسكرية". وكان هدف مشروع الساحل عزل الحمض النووي الريبي من بعض الجينات المعينة بحيث تستطيع بعض الكائنات المجهرية القاتلة التي يطورها العلماء في مختبراتهم مهاجمتها. ومثل القسم 12، كانوا يدعونها أيضاً القنبلة العرقية، وكان الغرض منها إضعاف، وحتى قتل، سكان جنوب أفريقيا السود. وكان العمل ما يزال في مراحله الأولى عندما انهار نظام الفصل العنصري.

اكتشف الموساد شخصية مثيرة عملت مع جنوب أفريقيا وكوريا الشمالية هو عالم الجينات الذي يعتنق المورمونية (فرقة دينية أمريكية أسّسها جوزيف سميث سنة

1830)، د.لاري فـورد، الـذي يعمـل في إحدى كليات جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلـوس. ولم يكن أحد من المرضى يشك بأن الطبيب المهذّب، الذي يرتدي ملابس اعتـيادية، وينـتعل حذاء كرة السلة العالي، ليس سوى وغد خرج من صفحات إحدى مجـلات الرعـب التـي كان يحتفظ بها في مكتبة غرفة انتظاره. وكان د. فورد بنى علاقة وثيقة مع فاوتر باسون، وأنشأ عبره علاقات مع علماء كوريا الشمالية الأشرار مـثله. ولـم يكن أحد من المرضى يشك بأن د.فورد يحمل دائماً مواد قاتلة في حقائبه خـلال رحلاتـه إلى جنوب أفريقيا. سيبقى المكان الذي حصل عليها منه، ومن أجاز نقلهـا خارج الولايات المتحدة، وهوية المستخدم النهائي أسراراً سيحملها د.فورد معه إلى القبر، لأنه انتحر في ربيع سنة 2000. وعندما فتحت الشرطة التي تولّت القضية ثلاجـة د.فـورد فـي منزله في إيرفين في كاليفورنيا، وجدت قوارير صغيرة كافية لتسـميم، بكلمات أحد الضباط: "الولاية بأكملها. وعرفنا عندها أننا لا نتعامل مع حالة انـتحار عاديـة". وكـان هناك قوارير تحتوي مزارع كوليرا، وسموم وحمّى تيفية. وستبقى كيفية وصولها إلى هناك سراً أيضاً.

نتـيجة لحرب العراق، تم السماح للموساد باستجواب د.رحاب طه، التي حملت اسـماً مستعاراً هو د. جراثيم، والتي أدارت برنامج صدام حسين للحرب البيولوجية. وجعـل استعدادها الكامل لإجراء اختبارات نهائية على البشر، وحماسها لإيجاد طرق جديـدة لاسـتخدام الجراثيم في تصنيع ترسانة فعّالة، من عالمة الأحياء النحيلة إحدى الشخصيات المفضلة لدى الطاغية العراقي. واكتسبت ابنة إحدى عائلات البعث الحاكم للـبلاد مهاراتهـا في جامعة إيست أنغليا في نورويش في إنكلترا. وذهبت هناك سنة 1979، ووصـلت إلى مطار هيثرو ببطاقة درجة أولى على الخطوط الجوية العراقية مـن بغداد. وكان بين أمتعتها ملابس مختبرات من باريس. واستقلت سيارة أجرة إلى حـرم الجامعـة بـتكلفة 150 دولاراً. ولم يكن أحد يعتقد أن ذلك مثير للشبهات لأن الطـلاب الأجانـب كانوا معروفين بإنفاقهم الكبير. وسجّلت لدراسة أوبئة المحاصيل. وكانـت في الثالثة والعشرين من عمرها آنذاك، ولديها عادة بشعة في مضغ سويقات الأزهـار والتـي حولـت لـون أسنانها إلى الأصفر. ورغم أن الطلاب وجدوا طه متغطرسة، إلا أنها أثارت إعجاب أساتذتها بتفانيها في دراستها، وكانوا متعاطفين معها عـندما جاءت نتائجها النهائية مخيبة للآمال. ولم يشك أحد بأن تلك كانت حيلة متعمّدة لضمان بقائها في الجامعة للاستمرار بدراستها.

كانـت تلـك فكرة ضابط الاستخبارات العراقي المسؤول عنها، والذي اتخذ من

السفارة العراقية في لندن مقراً له، وسمح لها ذلك بالوصول إلى مستندات سرية عن الحرب الجرثومية، والتي جاء البعض منها من بورتون داون، المركز البريطاني للأبحاث البيولوجية. واستفادت من الوثائق لتعلّم كيفية استخدام الجمرة الخبيثة، والجدري، والسموم الأخرى في صناعة الأسلحة. وتعلّمت كيف يمكن لتلك الجراثيم أن تكون قاتلة إذا تم نشرها في الأسواق، وكيف يمكن توزيع قنابل الكائنات الجرثومية فوق حلبة رياضية مثلاً. ويمكن تحقيق كل ذلك باستخدام معدّات أكثر تطوراً بقليل مما يملكه مختبر مدرسي. وعندما عادت طه إلى العراق سنة 1984، كانت قد حصلت على شهادة في الأحياء الدقيقة، وانضمت إلى فريق صغير من العلماء العراقيين الذين تلقّوا علومهم في بريطانيا لتشكيل برنامج صدام للأسلحة البيولوجية. وبعد أن أصبحت مديرة البرنامج سنة 1986، تخلّت عن ملابس المختبرات الطبية لترتدي البذلة العسكرية التي كان صدام يفضّلها، وصبغت شعرها بالحناء ليصبح بلون الفرات الذي يجري بجانب منزلها. وأقامت مختبراتها في معهد الحسن بن الهيثم خارج بغداد. وبدأت هناك بقتل ضحاياها، وكانت الأساليب تتضمن كيفية حقن الرضّع بجرعات قاتلة من مسببات الإسهال. وكان الرضّع يؤخذون من النساء السجينات.

في صيف العام 2004، حاولت د.طه مقايضة حريتها مقابل الإبقاء على حياة رهائن أمريكيين، وبريطانيين وأيرلنديين تحتجزهم مجموعة إرهابية إسلامية في العراق. وعندما رفضت الولايات المتحدة الصفقة، قام قائد المجموعة أبو مصعب الزرقاوي بقطع رؤوس الرهائن.

في تل أبيب، اجتمعت لجنة رؤساء الاستخبارات تلك السنة بقيادة مائير داغان، واتفقت أنه بعد إيران فإن تهديد الإرهاب البيولوجي الذي قد تتعرض له إسرائيل سيأتي من كوريا الشمالية. واستمر النظام بتهديد إسرائيل بالدمار بتزويد إيران بالصواريخ القادرة على حمل رؤوس حربية جرثومية. وعلم الموساد قبل أسبوع من ذلك الاجتماع أن نظام بيونغ يانغ على وشك إرسال شحنة من الرؤوس الحربية إلى طهران. وباستخدام قناة الموساد الخلفية مع CIA، طلب مائير داغان من بورتر غوس حثّ البيت الأبيض على الطلب من بكين إيقاف الصفقة. وكانت مكالمة هاتفية من كوندوليزا رايس كفيلة بتحقيق النتيجة المرجوة. ولكن في تل أبيب، لم يكن ذلك التدخل كافياً لإيقاف النقل القاتل وغير الشرعي بين الدولتين المارقتين.

انتهى الاجتماع بالطلب من مائير داغان إرسال فريق صغير من العملاء إلى كوريا الجنوبية لاكتشاف ما يحدث عبر الحدود مع جارتها الشمالية. وكان جمال أحد

أعضـــاء الفريق. وتخفّى بهيئة تاجر إيراني يعمل بالمشغولات اليدوية، وأقام شبكة من المخبرين عبر جنوب آسيا. وكان أحد أولئك هوراج، الذي قدّم أول تفاصيل لما أصبح معروفاً لدى الموساد بـــالخروج الجديد، وهو الطريق السري الذي استخدمه اللاجئون للهـــرب من نظام كوريا الشمالية المستبد. وأصبح بالنسبة لهم موازياً لـــسفر الخروج في التوراة.

يتمتع الطريق بتاريخ طويل ومتنوع. وكانت CIA أنشأته أصلاً في نهاية الحرب الكوريـــة، وتـــم استخدامه لتهريب عملاء الوكالة والمخبرين المتميزين خارج كوريا الشـــمالية والصـــين. وكان يتم نقل المخبرين من منزل آمن إلى آخر برفقة دليل عبر بلـــدات وقـــرى الصـــين إلى حدود كولومبيا، ولاوس وهونغ كونغ، والذين لم يكونوا يـــتلقّون مقابل عملهم الخطير ذلك سوى القليل أو لا شيء على الإطلاق. وربما تكلم دلـــيل نيابةً عن الكثير من زملائه عندما أخبر ضابط CIA المسؤول عنه: "أفعل ذلك من أجل الديمقراطية".

كانت الرحلة تستغرق أسابيع وشهور أحياناً. ويقول أحد ضباط CIA المسؤولين عـــن إدارة العملـــيات لاحقاً (للمؤلف): "كان الأمر شبيهاً بالسفر على سكة حديدية لا تعـــرف أبداً متى تتغير إشارتها من الأخضر إلى الأحمر. ويتم إيقاف كل شيء حتى يظهر الضوء الأخضر مجدداً".

كان مسلك الخروج من الصين مليئاً بالصعاب، ويتطلب غالباً العودة إلى الوراء عـــدّة مـــرات، ويتضمن السفر براً، وعبر الأنهار وعلى متن القطارات. ولم يستطع العديد ممن حاولوا الهروب الخروج سالمين؛ وكان خطر افتضاح أمرهم يشكل تهديداً مستمراً. وكان جواسيس جهاز الأمن الشعبي الصيني، والاستخبارات السرية المخيفتين يمثلون ثنائياً مرعباً. ولا أحد يعرف عدد عملاء أو مخبري CIA الذين تم إلقاء القبض علـــيهم، ولم يسمع أحد عنهم مجدداً. وتوقف مسلك الخروج أخيراً عن العمل. وخلال التسعينيات، بدأت إشارات أخرى على فساد نظام كوريا الشمالية بالظهور. وسرد كل المنشقّين نفس القصة عن الأمة التي تزداد فيها حالات الجوع، وعن التعذيب، والعمل الإجـــباري. وكـــان الأكثر ترويعاً على الإطلاق التقارير عن التجارب غير الإنسانية علـــى الســـجناء والتي رواها أقرباؤهم الذين استطاعوا عبور الحدود التي يبلغ طولها 880 مـــيلاً مع الصين. ولكن لم يجد أولئك الذين هربوا الراحة التي كانوا ينشدونها. وكـــان فـــي الصـــين 5 ملاييـــن سجين في معسكرات كئيبة كما هو الحال في كوريا الشمالية. وعند إلقاء القبض عليهم، كان يتم إعادة طالبي حق اللجوء السياسي بسرعة

عبر الحدود إلى القدر المحتوم المتمثّل بالاستجواب، والتعذيب، والوفاة.

لإنقـــاذهم، أعاد اثنين من ناشطي حقوق الإنسان فتح مسلك CIA. ورسم الموساد لهما صوراً تقريبية.

كان كل من دوغلاس شين ونوربرت فولرستن في أواخر الخمسينيات من العمر ومن بيئتين مختلفتين تماماً. وكان شين راعي كنيسة أمريكي من أصل كوري، والذي تم تعيينه كقس بعد مسيرة حافلة بالتجارة وصناعة الأفلام، وعاش في إحدى ضواحي لــوس أنجلــوس. وكان يتمتع بالصفات الآسيوية المتمثّلة بالتهذيب والحياء، ولم يكن يــنفعل ســوى عــندما يتحدث عن سوء معاملة كوريا الشمالية لشعبها. وكانت كلماته تمتلئ حينها بالاستعارات الدينية؛ ويظهر الألم والغضب في عينيه. وكان هناك شعور حوــله بأنه إذا لم تكن جزءاً من الحل الذي يريده، فلا بد أنك جزء من مشاكله الكثيرة فــي إنقــاذ الــناس من رعب نظام كيم جونغ إل. وكان أحد أسياد المحطات الاثنين للخروج الجديد. وكان الثاني فولرستن.

يــبدو فولرســتن، الــرجل الطويل، والنحيل والعريض المنكبين، مثل المحتجين الهيبــي الذيــن خرجوا إلى الشوارع ضد حرب فيتنام، وضد صانعي الأسلحة النووية لاحقاً. وكان بعض الناس يدعونه المجنون الصغير؛ فيما قال آخرون إن العالم يحتاج للمــزيد مــن الــرجال مــثله. وتقبّل فولرستن تصفيقهم بنفس الطريقة التي واجه بها منتقديه؛ الابتسامة الفاترة، وتسريحة الشعر التي تعود جذورها إلى جيل مضى. ويقول ملــف الموساد عنه: "كان ذلك يجعله جذّاباً حتى عندما يستمر بالجدال حول مسألة ما إلى مرحلة لا يبقَ فيها شيء للجدال حوله".

تضمنت حياة فولرستن الجامعية في دوسلدورف السياسة والصحافة حتى أصبح طبيــباً بشــرياً، وتزوج وأنجب أربعة أبناء. ولكن عشية الألفية الجديدة، كان كل ذلك علــى وشــك أن يتغير. ودخل في جدال مع السلطات الصحية الألمانية حول طريقة إدارة العــناية الاجتماعية. وعندما تم تجاهله، أطلق حملة بين مرضاه للاحتجاج علناً؛ كانــت تلــك أول مرة يقوم بها طبيب بمثل هذا النشاط في ألمانيا. وتم تجاهله مجدداً. ونظم المزيد من مسيرات المرضى. وقامت نقابة الأطباء في مدينة غوتنغن المحافظة بفصــله من عضويتها. وأخيراً، قامت زوجته بتطليقه، وادّعت أنه مجنون. كان يبدو بشــعره الأشقر الطويل وشاربه الكث مثل أحد نجوم موسيقى الروك الذين عفى عليهم الزمن. وانضم بعد ذلك إلى منظمة تدعى أطباء الطوارئ الألمان؛ والتي كانت ترسل الأطــباء إلــى أي مكــان تظهر فيه الحاجة للمساعدة الإنسانية. وكان على فولرستن

الاختـيار إما صحارى جنوب السودان الشديدة الحرارة أو كوريا الشمالية. وقرأ عدّة كتيبات سفر حول السودان. ولكن لم يتوفر لديه أي شيء حول كوريا الشمالية. وقرّر أن يذهب إلى هناك.

جـاء شين من كوريا الجنوبية إلى كاليفورنيا عندما كان في العشرين من عمره. لكـن المعرفة بما يجري في كوريا الشمالية تبعته، وفي الوقت الذي أصبح فيه راعي كنيسـة، كـان كل ما قرأه وسمعه قد ترك انطباعاً حاسماً لديه. وبدأ برسم مخططات المسـالك لما سيصبح الخروج الجديد، وعمل بجد مع منظمات أخرى لحقوق الإنسان حول العالم.

فـي غضـون ذلـك، وفي كوريا الشمالية، كان فولرستن يواجه بشكل متكرر الصمت المروّع لمرضى يسألون عن حياتهم. ولدى مغادرته كوريا الشمالية في نهاية عقـده، أطلق حملة عنيفة ضد النظام. وبحث عن لاجئين خرجوا من كوريا الشمالية، وأعـاد سـرد قصصهم لأي شخص قد يستمع له؛ صحفيين، وسياسيين، وعاملين في مجال حقوق الإنسان. سافر فولرستن في أرجاء آسيا، يحاضر ويحث الآخرين؛ وكان هـناك شيء حوله، كما أقرّ بنفسه، يتعلق بمشاعر الغضب لشخص فتح عينيه أخيراً. وأصـبحت صرخة كفاحه: *بلّغ، وحرّض، واحشد شعاراً له*. وأصبح مع شين صوتين متحديـن حول قضية مشتركة تخص لفت أنظار العالم حول أولئك العالقين في كوريا الشمالية، أو الذين هربوا من وطنهم إلى بيئة الصين المعادية. وأصبح الخروج الجديد الطريق لكل ما يريدان تحقيقه.

كـان عمـلاء الاسـتخبارات ومخـبريهم ينتظرون على طول طريق النقل في المحطـات – مـنازل آمـنة فـي مدن الصين، ومزارع في الأرياف، وقوارب على أنهارهـا. وكما هي العادة، عمل جمال وعملاء الموساد الآخرين وحيدين، وكانت تلك طريقـتهم، ومهمتهم سهلة؛ تحديد موقع أي منشق يستطيع تقديم معلومات حول كوريا الشـمالية، وعملهـا في تطوير أسلحة الدمار الشامل. ثم أصبح الجواسيس ومخبريهم موحدين في قضية مشتركة، تحديد موقع د.ري تشي–وو (Ri Che-Woo)، والذي كان دون شك أهم الهاربين على طريق الخروج الجديد.

كـان د.ري عالم أحياء، ومدير المشروع الأكثر سرية من كل المشاريع السرية الأخـرى في بلد يتم فيه غرس السرية في النفوس منذ الولادة. ومثلما سعى القسم 12 ومشـروع الساحل لبناء القنابل العرقية؛ كان د.ري موظفاً في المعهد 398 الواقع في سوغرام–ري جنوب مقاطعة بيونغ يانغ لتطوير أسلحة مماثلة، والتي كان الهدف منها

ضـــرب السكان البيض على الأرض. وكعلامة على أهمية المعهد، كانت ثلاث كتائب مـــن القوات تدافع عنه. وجاءت أول إشارة عن عمل د.ري من أحد المنشقّين. وخلال الشـــهور التالية، انبثقت تفاصيل من منشقّين آخرين تقول إن د.ري، وعلماء الجينات الـــ250 الذيـــن يعملـــون معه ربما وصلوا إلى مرحلة أكثر تطوراً مما وصل إليها العلمـــاء فـــي جـــنوب أفريقيا وروسيا. وبعد بضعة شهور لاحقة، طلب هوراج عقد اجـــتماع مع جمال، ونقل لـــه معلومات كان الموساد متلهفاً - مثل أجهزة استخبارات أخـــرى - لتلقـــيها. كـــان د.ري في مكان ما على مسلك الخروج الجديد يحاول شق طـــريقه الخطـــير نحو الحرية. وعلم نوربرت فولرستن أن د.ري لديه إضبارة تحمل تفاصـــيل الـــتجارب البشرية التي تم إجراؤها في برنامج كوريا الشمالية البيولوجي. وراقـــب عمـــلاء الاستخبارات الغربية خطوات CSIS وجهاز أمن كوريا الشمالية في محاولـــتهما تحديـــد موقـــع د.ري. ولكـــن ضمن سكان يبلغ تعدادهم 1.3 مليار نسمة والمعتادين على أن يكونوا تحت المراقبة الدائمة، اختفى عالم الأحياء الدقيقة في الهواء أسرع من الألعاب النارية السيئة في احتفالات رأس السنة الصينية.

فـــي تلـــك أبيب، استشار علماء الموساد شبكتهم الخاصة من الباحثين في بعض أكـــثر المعـــاهد العلمية تطوراً في العالم. وتذكّر أحدهم كيف شغلت فكرة ابتكار قنابل جينـــية علمـــاء CIA في ذروة التدخل الأمريكي في نيكاراغوا. وصدرت لهم الأوامر بتحديد ما أصبح معروفاً في الوكالة بـــالجين النيكاراغوي. وتم إنفاق أموال طائلة في الحصـــول علـــى عينات دم من النيكاراغوانيين وفحصها في مختبرات CIA. ولم يتم تحديـــد أي جيـــن خاص بالنيكاراغوانيين. وتم التخلي عن المشروع ليتم إحياؤه لاحقاً لتحديد جين كوبي فقط. ولم يتوصل هذا البحث إلى شيء أيضاً.

لكـــن أبحـــاث د.ري أظهـــرت أن ابتكار قنبلة عرقية لم يعد خيالاً بعيد المنال. وأصـــبح الأمـــر كمـــا يدعوه العالم الفائز بجائزة نوبل جوشوا ليدربيرغ: "وحش في ســـاحتنا الخلفية". وتوقّع عالم الأعراق جون مور، الخبير في مخاطر القنبلة العرقية، بـــأن تصـــنيع مثل هذا السلاح سيطلق اختلافات جينية ربما ينتج عنها عدوى واسعة الـــنطاق بيـــن البشـــر مع معدلات فناء مثل سلالة أندروميدا الكفيلة بالقضاء على كل الأجناس.

في الوقت الذي افترق فيه هوراج وجمال بعد اجتماعهما في هندو-كوش، حصل عميل الموساد على صورة لدكتور ري. وظهر فيها أنه مثال المواطن الكوري القصير القامـــة، والمربوع، ووجه مدوّر مشرق، وعينين متباعدتين خلف نظاراته. وجاء مع

الصـــورة ســـيرته الذاتية التي تضمنت أهميته بعد تخرجه من جامعة هامبونغ المحلية باختصـــاص الصـــناعة الكيميائية، والتي تقدّم العلماء لبرامج كوريا الشمالية النووية، والكيميائية، والبيولوجية.

خلال السنوات التي تلت تخرجه، تم نقل د.ري من مركز تقانة حيوية إلى آخر، وكـــان يلتقي بين الفينة والأخرى مع بعض العلماء والتقنيين الثمانية والثلاثين ألفاً من الاتحـــاد الســـوفيتي، والذيـــن تم تجنيدهم للعمل في برامج الحرب البيولوجية لكوريا الشمالية. وذهب آخرون إلى الصين، وسورية، وليبيا، وإيران.

فـــي العام 1999، تم تعيينه للعمل في المعهد 398 في سوغرام-ري. وأظهرت الصـــور التـــي تلـــتقطها أقمار ناسا الصنعية والتي تذهب بشكل روتيني إلى الموساد المبـــنى الذي يحتل مساحة نصف ميل مربع، والذي تحدّه طرق عليها حراسة مشددة. وتتضـــمن المبانـــي الخالـــية مـــن أية معالم مقراً للقيادة، ومبنى للاتصالات، وثكنات عسكرية، وخزانات وقود. وينتهي القسم الذي يوجد فيه مباني الضباط والعلماء بمدخل إلـــى أحد الأنفاق. واعتقد محللو الصور أنه يقود إلى مبنى تحت الأرض حيث يعمل د.ري مع فريقه.

كان المعهد بقيادة د.يي يونغ سو. وتقول مصادر الاستخبارات أن عالمة الجينات يـــي يونـــغ البالغة من العمر خمسين سنة موضع احترام على نطاق واسع، ويخشاها زملاؤهـــا العلمـــاء كثيراً. وكان معروفاً عنها علاقتها الوثيقة مع كيم جونغ إل، الذي خلف والده سنة 1994 ليصبح قائد البلاد الأعلى.

لـــم تنـــبه الأنباء عن خطط د.ري الهروب الموساد وحسب وإنما CIA، وMI6 وأجهـــزة الاستخبارات الألمانية، والفرنسية، والاسترالية أيضاً. ثم جاءت، كما يحدث غالـــباً فـــي عـــالم الاستخبارات، همسة: كان د.ري يتجه نحو غوانغزهو، ميناء إقليم كانـــتون فـــي جنوب الصين. وكان هناك فرصة، بوجود هونغ كونغ على بعد مسافة قصـــيرة، لتهريـــب د.ري إلى إحدى السفن الأجنبية الكثيرة في الميناء. وفي ساعات الصـــباح الباكر من أحد الأيام – سيبقى اليوم والأسبوع والشهر غير معروفة – ظهر د.ري، يـــرتدي ملابـــس عمـــل زرقـــاء داكنة، عند أحد مداخل الموظفين في فندق غوانغدونـــغ. وإلـــى جانـــب مرافقه الرائعة، يحتوي الفندق على عدد من القنصليات الأجنبية في الطابق الخامس عشر. واستخدم د.ري بطاقة مختلسة للدخول إلى المبنى؛ وســـتبقى طريقة حصوله عليها غير معروفة أيضاً. وفي مكان ما داخل الفندق، واجه ضـــباط الأمـــن الصينيين. وبعد وقت قصير من ذلك، قادته شاحنة للشرطة بعيداً عن

مدخل موظفي الفندق.

في تل أبيب، تم إغلاق ملف د.ري وإرساله إلى الحفظ. وتم تكليف جمال وعملاء الموساد الآخرين، الذين كانوا يأملون بإيجاد وإقناع العالم للعمل لصالح إسرائيل، بمهام أخرى. وكانوا يعرفون من طبيعة عملهم أن فرصة أخرى ستظهر لا محالة.

في بداية أيار سنة 2005، علم جمال من أحد مخبريه في راوالبندي أن رجلين مسجونين لدى جهاز الاستخبارات الباكستاني كشفا للمحققين معهما أنه طُلب منهما الاشتراك في الهجمات على أنفاق لندن. وتم تحديد هوية الرجلين زيشام حيدر صدّيقي، الذي قبض عليه عملاء باكستانيون في بيشاور، ونعيم نور خان، الذي تم إلقاء القبض عليه في لاهور.

كان الرجلان موجودين على قوائم حواسب الموساد بصفتهما عضوين في تنظيمين مختلفين من الجماعات الخمس والأربعين المتشددة في باكستان. وكان خان ينتمي إلى جند الله، وصدّيقي إلى حركة الجهاد الإسلامي. وكانت كلتا الحركتين تتعاونان مع القاعدة.

رغم شح المعلومات من جمال، إلا أن مائير داغان بعث برسالة مشفّرة إلى إليزا مانينغهام-بولر، رئيسة MI5. وكانت شهور الصقيع بين الموساد وجهاز الاستخبارات البريطاني، والذي يعود لوجود MI6 في غزة في محاولة لعقد صفقة مع حماس، تعود إلى طبيعتها بعد سفر مائير داغان للقاء مدير MI6 جون سكارليت. والتقى الاثنان مع إليزا مانينغهام-بولر في غرفة خاصة في نادي المسافر على الغداء. وستبقى تفاصيل محادثاتهم سرية. ولكن بعد ذلك بوقت قصير، غادر عملاء MI6 غزة، وتلقّى ناتان رئيس محطة الموساد في لندن تفاصيل الاستجواب الذي قام به اثنان من محققي MI5 في باكستان مع صدّيقي وخان. واعترف الاثنان بأنهما زميلان مقرّبان للمسلمين البريطانيين الآخرين الذين قاما بعملية انتحارية في أحد نوادي تل أبيب الليلية قبل سنتين. وقدّما أيضاً تفاصيل إضافية حول مدى تغلغل شبكة القاعدة عبر الجالية المسلمة في بريطانيا.


صفحة فارغة

الفصل الرابع والعشرون

موقع الإرهاب الإلكتروني

يبقى جمع النسخ اليومية من الصحف المنشورة بالعربية، والأوردو، ولغات الشرق الأوسط الأخرى جزءاً من الروتين اليومي لمحطة الموساد في لندن لأن العاصمة البريطانية تعتبر مركزاً للإسلاميين المتطرفين الذين يشجبون بشدة إسرائيل والغرب.

بعد تقييم مبدئي يقوم به محللو محطة لندن، يتم إرسال المواد بحقيبة السفارة الدبلوماسية اليومية إلى تلك أبيب. وهناك يتم التدقيق بها مجدداً بحثاً عن أسماء منشورة لأولئك المتعاونين مع القاعدة، والذين تقوم CIA بترحيلهم إلى مراكز استجواب لا يتم فيها تطبيق معاهدة جنيف أو القانون الأمريكي. ويقدّم أقرباء الإرهابيين المحتلمين أحياناً تفاصيل للصحف الناطقة بالعربية حول أماكن القبض عليهم، مما يساعد محللي الموساد على بناء صورة عن نشاطات CIA. ولم يكونوا يقومون بذلك لأن الموساد لا يمارس التعذيب، وإنما لحماية إسرائيل. دانت منظمة العفو الدولية، والصليب الأحمر، ومنظمات أخرى لحقوق الإنسان الدولة العبرية لاستخدام أساليب قاسية في الاستجواب، وظروف السجون فيها. وإذا جاء يوم يتم فيه إجبار الولايات المتحدة على دعم التحقيق بالأساليب الإسرائيلية في الاستجواب، سيكون لدى الموساد ملف يظهر أنه ليس الجهاز الوحيد الذي يستخدم مثل تلك الطرق.

كان أمراً حاسماً لعمليات CIA وجود طائرتين مستأجرتين من شركة خاصة في ماساشوستس تدعى خدمات نقل التنفيذيين الأولى. وكانت إحداهما من طراز غولفسرتيم بسعة أربع عشرة راكباً، وتحمل رقم التسجيل إن 379 ب، والأخرى بوينغ 737 بيضاء اللون، برقم تسجيل إن 313 ب (رفضت الشركة لاحقاً مناقشة التأجير مع المؤلف). وحصل الموساد على سجل طيران كلا الطائرتين الذي يحتوي على معلومات تفصيلية عن الرحلات التي قامتا بها إلى بلدان لا تقيم لحقوق الإنسان وزناً؛ وبحلول تشرين الأول سنة 2005، كان هناك تسع وأربعين رحلة إلى.....

وأوزبكستان و.... وخليج غوانتانامو. وسيدّعي روب باير، ضابط استخبارات أمريكي في الشرق الأوسط سابقاً، لاحقاً (لصحيفة واشنطن بوست): "إذا أردت القيام باستجواب قوي، ينبغي عليك إرسال السجناء إلى.... وإذا أردتهم أن يتعرضوا لتعذيب قاسٍ، أرسلهم إلى...، حيث لن يعودوا أبداً. وإذا أردت تعريضهم لأقصى درجات التعذيب لانتزاع المعلومات منهم، أرسلهم إلى أوزبكستان". تم صرف كريغ موري، السفير البريطاني السابق إلى أوزبكستان، من الخدمة في خريف سنة 2004 لتسريبه مذكّرة كتبها إلى وزير الخارجية جاك سترو، والتي يزعم فيها الدبلوماسي أن بعض السجناء الذين تم إرسالهم إلى أوزبكستان تعرضوا: "للغلي أحياء. ونفّذ محققوها المدربين سوفيتياً عمليات تعذيب راقبها ضباط CIA المتمركزين في البلد، والذي يعتبر حليفاً قريباً لإدارة بوش".

أخبر أحد ضباط MI6 المؤلف: "لدي معلومات شخصية بأنه تم تقييد السجناء إلى مقاعدهم بالأصفاد، وغالباً ما كان يتم سد أفواههم وحقنهم بعقاقير خلال رحلاتهم".

تم السماح لبعض الرحلات بالطيران في المجال الجوي الإسرائيلي من مركز استخبارات CIA السري في كابول المعروف باسم *الهاوية* (The Pit)، والذي كان جزءاً من مجموعة مراكز احتجاز سرية حول العالم، بعضها صغير مثل حاويات الشحن فيما بعضها الآخر كبير مثل المباني في خليج غوانتانامو. وقال نجيب النعيمي، وزير العدل القطري السابق الذي يمثّل عائلات عشرات ما يطلق عليهم اسم المختفين، للمؤلف: "لن يعرف أحد أبداً عدد الذين اختفوا. لكن ربما يكونوا بضعة آلاف".

تصف منظمة حقوق الإنسان التي تتخذ من نيويورك مقراً لها الظروف التي تم احتجازهم بموجبها بالقول: "يبقون مقيدين بالأصفاد باستمرار، ويتم إجبارهم على البقاء مستيقظين عمداً لفترات طويلة من الزمن، وعلى الركوع أو الوقوف بأوضاع مؤلمة لفترات طويلة".

علم الموساد أن بعض التقنيات المستخدمة في مراكز الاستجواب السرية مستمدة من برنامج غسيل الدماغ المسمّى إم كي-ألترا الذي استعملته CIA في ذروة الحرب الباردة. ويدّعي ضابط MI6 الذي شهد السجناء المصفّدين في طريقهم إلى أوزبكستان (للمؤلف) "عند وصولهم يصبحون عُرضة لحرمان حسي لفترات مطوّلة، وعمليات إعدام صورية، وتجويع، وعنف جنسي، واغتصاب، وغمر بالمياه إلى مرحلة الغرق، والضرب، والتعرض لحرارة شديدة أو برودة قارصة، وإعاقة الدورة الدموية باستخدام أسلاك خاصة، والخنق حتى الموت تقريباً، وحرق الجلد بلفائف التبغ، واستخدام

مجموعة متنوعة من العقاقير لإضعاف مقاومة السجين".

أثناء ذلك، استمر الموساد عن طريق الصحف العربية بكشف أسماء الإرهابيين الذيـن يـتم إرسـالهم إلـى غرف التعذيب. وكانت الشبكة اليومية تجمع أيضاً آخر الكرّاسـات التي تمجّد هؤلاء على أنهم أبطال هجمات 9/11 وتنشر قوائم معدّلة عن عناويـن الكُنس اليهودية في بريطانيا ومنازل حاخاماتها. وحثت مجموعة المهاجرون المـتطرفة التي تتخذ من لندن مقراً لها: "ينبغي تذكيرهم بالجرائم التي ارتكبها اليهود ضـد المسـلمين". وجـاء تذكـير مماثل من مجموعة أخرى تدعى ألوية أبو حفص المصـري. وطلبـت من أنصارها الذين تتزايد أعدادهم في بريطانيا "أن يشنّوا حرباً دموية ضد جيراننا غير المسلمين. وسوف نسوّي مدن أوروبا بالأرض. وسنحولها إلى مدن تسبح بالدماء حتى يسحب قادتها قواتهم من العراق".

كانـت هيئة الإذاعة البريطانية تدعو الشيوخ المسلمين بانتظام إليها لتبرير دوافع شـهادة الانتحاريـين (وفقـاً للوصـف الإسرائيلي) لأنه وحسبما قال الدكتور يوسف القرضـاوي لـبرنامج أخبار المساء الذي ترعاه المحطة: "إنها إشارة على عدالة الله القدير". وما يزال الكثير من المسلمين البريطانيين يحملون معهم فتوى أسامة بن لادن التـي أصـدرها في شباط سنة 1998. "واجب قتل الأمريكيين وحلفاءهم – المدنيين والعسـكريين – فرض عين على كل مسلم، ويستطيع القيام بذلك في أي بلد يقيم فيه، فـي سبيل تحرير المسجد الحرام في مكة من قبضتهم، وفي سبيل إخراج جيوشهم من أرض الإسلام"(•).

بمسـاعدة شـبكة السـيانيم من المتطوعين اليهود عبر بريطانيا، جمعت محطة الموسـاد فـي لـندن دلائل متزايدة على تصاعد تهديد التشدد الإسلامي الموجه ضد المملكـة المـتحدة. وكان هناك آنذاك ما يقارب خمسة آلاف سيانيم في بريطانيا سنة 2005، والذيـن يشكلون عيون وآذان الشبكة التي أنشأها مير عميت. ولم تعد الشبكة مؤلفـة مـن أقـارب اليهود الأوروبيين الذين وصلوا إلى البلاد في ثلاثينيات القرن العشرين هاربين من النازية. بل أصبحت تضم يهوداً من لبنان وسورية، ومؤخراً من العـراق وإيـران: "أصـحاب محـال صغيرة، وملاك أراضي، ومالكي مقاهي في المجتمعات الآسيوية والذين كانوا يقدّمون سيلاً مستمراً من المعلومات".

قـدّم صـاحب مكتبة عراقي في ضاحية ويمبلي شمال لندن دليلاً على وصول

(•) ترجمة عن الانكليزية.

المتشـــددين الإســـلاميين إلـــى قلب حكومة بلير. وتم تعيين أحمد ثومسون، المحامي المســـلم، وعضو نقابة المحامين المسلمين، لتقديم المشورة لرئيس الوزراء حول كيفية الـــتعامل مع هذه المسألة. وكان ثومسون أيضاً مؤلف كتاب لقي أصداء واسعة ضمن الجالـــية المســـلمة، بعنوان *النظام العالمي الجديد*. ويدّعي فيه أن هناك خطة صهيونية لتشكيل أحداث العالم، ويتوقّع بأن أحداث 9/11، والهجمات الانتحارية (وفقاً للوصف الإســـرائيلي) فـــي إســـرائيل، ليســـت سوى جزء من المواجهة القادمة بين المؤمنين والكفّـــار. وكان مستشارون مسلمون آخرون للحكومة قد وصفوا، قبل تعيينهم، أسامة بـــن لادن بأنه المحارب المقدّس ودافعوا عن الهجمات الانتحارية على أنها استشهادية خالصة.

رغم أن حكومة بلير وعدت أخيراً بأن يتم ترحيل الشيوخ والمدرسين المتشددين الذيـــن يروجون للإرهاب، إلا أن هؤلاء الأئمة المتطرفين استمروا خلال صيف العام 2005 بالتشجيع على خوض الحرب المقدّسة في مساجدهم، ونشروا مواد ملتهبة على مواقعهم على الإنترنت.

اســـتمر محمـــد المصـــاري، والذي هرب من بلده إلى بريطانيا واستطاع إقناع الحكومـــة بأنه سيواجه الموت إذا عاد إلى بلده.....، يستخدم موقعه على الإنترنت في حزيران سنة 2005 لعرض رهائن بريطانيين وأمريكيين يتم قطع أعناقهم في العراق. وأدار أيضاً محطة إذاعة عبر الإنترنت تدعو إلى الجهاد. وسمحت السلطات ببقاء أبو قـــتادة، الـــذي هـــرب إلى لندن من.... مدّعياً أنه تعرض للاضطهاد هناك لمعتقداته الديـــنـية، وأوفـــى بدينه للبلد الذي استضافه بتحريض أتباعه على الذهاب إلى العراق، وقـــتل جـــنود قوات التحالف. واستخدم حزب التحرير الباكستاني، المحظور في بلده، مكتبه في لندن لتجنيد المسلمين الشباب للذهاب إلى أفغانستان للتدرب على شن حرب ضـــد أمـــريكا. وفي جيوب إسلامية أخرى في الضواحي الشمالية والغربية من لندن، ألقـــى الأئمـــة خطـــباً كمـــا فعلـــوا في مدن ليسيستر، ومانشستر، وليدز، وبرادفورد وغلاسكو؛ والتي لقّنوا فيها آلاف الشباب المسلم الحساسين، والذين ولد الكثيرون منهم في بريطانيا، الكراهية ضد وطنهم.

قـــام ناتـــان بتخزيـــن كل تلك المعلومات في حاسوبه. وجاء بعضها من ضابط ارتـــباط MI5 فـــي مركز مراقبة الإرهاب المشترك في مكاتب MI5 في ميلبانك. وتم افتتاح هذا المركز سنة 2003 كجزء من الدور البريطاني في الحرب على الإرهاب، ويضم مئة موظف من كل أطياف مجتمع الاستخبارات الذي يحارب الإرهاب العالمي،

ويعملون في غرفة مضاءة دون نوافذ في قبو المبنى؛ ولا يتم فتح بابها سوى باستخدام بطاقــات ممغــنطة تتغــير شيفراتها باستمرار. ويأتي سيل مستمر من المعلومات من محطــات فرعية، مزوّدة بمعدّات حديثة جداً. ويتم توزيع المواد الحساسة، بعد إرسالها إلى CIA، والموساد، وجهازي الاستخبارات الفرنسي والألماني، على نطاق واسع منذ هجمــات بالــي ومدريد. وكانت النتيجة تدفق معلومات استخباراتية بالغة الأهمية من مصادر مثل وحدة مكافحة الإرهاب البولندية، والتي قدّمت تفاصيل حول جمال زوغام المتورط في تفجيرات محطة قطارات مدريد، والذي خطط لحملة تفجيرات في وارسو أثــناء فــترة الميلاد. وأرسلت الاستخبارات الأسبانية تفاصيل حول زيارة زوغام إلى لــندن، حيث زار مسجد فينسبوري بارك الذي يأوي المتطرفين. وقام إمامه أبو حمزة بالــتحريض على دعم بن لادن، وكان يكافح آنذاك لمنع ترحيله إلى الولايات المتحدة من زنزانة سجنه لدوره في قتل أمريكيين في الشرق الأوسط. في العام 2006، صدر حكــم يقضـــي بســجن أبو حمزة سبع سنوات بتهمة الترويج والاشتراك في نشاطات إرهابــية. وبعد انقضاء مدة حكمه، سيتم ترحيله إلى أمريكا حيث سيواجه تهماً تتعلق بتواطئه في قتل مواطنين أمريكيين في الشرق الأوسط.

قــدّر تقرير لجهاز الاستخبارات الفرنسي أنه نتيجة لحملة التجنيد فقد وصل عدد مناصري القاعدة في البلاد إلى ما يزيد عن 35.000 شخص اعتنق معظمهم الإسلام. وتــم تنظــيمهم في وحدات عسكرية، ويلتقون بانتظام للتدريب على استخدام الأسلحة، والمتفجرات، وتعلّم التكتيكات القتالية والشريعة الإسلامية. ويتم التحكم بهم من مراكز سيطرة محلية وفي المقاطعات تحت قيادة القاعدة الوطنية. وفي معلومات أخرى، أفاد جهــاز الاســتخبارات الألماني أنه يقدّر في حزيران سنة 2005 وجود حوالى ثلاثين ألــف متعاطف مع القاعدة في الجمهورية الاتحادية. وأخبر ناتان ضابط الارتباط بأن الموســاد يعتقد بأن قادة الحركة يتمركزون في مدينة هامبورغ الساحلية، والتي خرج منها العديد من منفذي هجمات 9/11.

في حزيران سنة 2005، سافر ناتان وضابط الارتباط مرة أخرى إلى عدّة مدن فـــي شــمال إنكلترا كجزء من عملية أمنية لم يسبق لها مثيل. ووحّد عشرون من قادة الأجهــزة الأمنــية قواهــم للمساعدة في حماية قمة الثمانية الكبار في غلين إيغلز في اسكتلندا خلال تموز.

أقــاموا جميعاً طوقاً أمنياً يمتد إلى الحدود الألمانية مع بولندا، لاعتراض حركة الإرهابييــن خارج البلقان. وكان عملاء الاستخبارات الأسبانية مرتبطين عبر محطات

استراق سمع بريطانية في جبل طارق وقبرص لمراقبة سواحل شمال أفريقيا، والتي لطالما كانت محطة انطلاق للقاعدة إلى أوروبا. ونشرت الاستخبارات السرية الإيطالية SISMI الكثير من عملائها لمراقبة الإرهابيين الذين يخرجون من الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي السابق. وتمركز ضباط الاستخبارات الفرنسية والألمانية في موانئ القناة.

باستخدام قمر التنصت البريطاني في الفضاء، استمر اللغويون، والمحللون، والتقنيون باعتراض المكالمات بحثاً عن أول إشارة علي وجود تهديد. وكانت الحواسب المتصلة به قد التقطت للتو محادثاً يقول إن ثائراً إيطالياً خطط لدخول بريطانيا قبل القمة. وراقبت الأقمار الصنعية الأمريكية، التي تتحكم بها قاعدة ناسا في تل مينويث في شمال إنكلترا، منطقة تمتد من صحارى العراق في الغرب إلى جبال الأورال في الشرق.

اكتشفت الاستخبارات السرية الفرنسية DGSE، المكلفة بحراسة الرئيس شيراك أثناء القمة، أن أوروبيين مثيرين للشغب، بمن فيهم مجموعة يا باستا، قد التقوا مؤخراً مع جماعة الحرب الطبقية البريطانية السيئة الصيت في كاليس. وكانت كلتا المجموعتين معروفتين بتنظيمهما لاحتجاجات عنيفة. وأكّد جهاز الاستخبارات الألماني BND بأن ألماناً مثيرين للشغب حضروا مؤخراً أيضاً مؤتمر الفوضويين الذي عُقد خارج نوتنغهام في إنكلترا.

كانت MI5، التي نسّقت العملية الأمنية المتعددة الجنسيات بالتعاون مع MI6، تبحث آنذاك عن إرهابي إيطالي يحمل اسماً مستعاراً هو الغراب، والذي تعتقد أنه دخل بريطانيا، وكان معروفاً بصلاته مع خلية القاعدة في بولونيا في إيطاليا، التي تعتبر مركزاً للإرهابيين. وتم اكتشاف تفاصيل حوله أثناء غارة قام بها العملاء الإيطاليون والتي قادت إلى اعتقال ثمانين مثيراً للشغب كانوا يخططون للذهاب إلى غلين إيغلز. وخصصت CIA مئتي عميل، ومعدّات إلكترونية حديثة جداً لحماية الرئيس بوش. وزوّدت أجهزة الاستخبارات الروسية الثلاثة، GRU، وFCS وSVR جهاز الاستخبارات البريطاني بمجموعة صور لإرهابيين شيشانيين ربما يحاولون الاعتداء على القمة. وطلب جهاز مكافحة الإرهاب الاتحادي من لجنة مراقبة الإرهاب المشتركة عدم التقليل من احتمال وقوع هجمات انتحارية خلال القمة.

في محاولة لتفادي ذلك الاحتمال، سافر ناتان مرة أخرى إلى الجيوب المسلمة في شمال إنكلترا. ولم يكن للموساد شبكته الخاصة من السيانيم هناك وحسب، وإنما

استطاع أيضاً بناء شبكة من المخبرين ضمن الجاليات المسلمة. وكان معظم هؤلاء شباب، ويخاطرون بحياتهم وحياة عائلاتهم لتزويد الموساد بالمعلومات. وتم الطلب منهم أيضاً التأهب لمراقبة أي إشارات على التخطيط لهجمات انتحارية.

في لندن، وكجزء من الاستعدادات لقمة مجموعة الثمانية، كان الموساد قد وزّع آنذاك وثيقة على أجهزة الشرطة والاستخبارات حول كيفية التعرّف على المهاجم الانتحاري. وتقول الوثيقة في جزء منها:

"سيكون الانتحاري شاباً، وفي أواخر العشرينيات في معظم الأحوال. ورغم أنه سيكون رجلاً عادةً، إلا أن هناك عدداً متزايداً من الانتحاريات الإناث. وسيحمل الانتحاري إما جعبة على ظهره مليئة بالمتفجرات، أو حقيبة مزوّدة بنفس المواد. وسيكون الشخص الذي يوشك على تنفيذ هذه المهمة العالية الخطورة يتصبب عرقاً. وانظروا إلى اليدين؛ هل تتصبب عرقاً؟ وانظروا إلى العينين. هل تختلسان النظر؟ هل ينظر الشخص حوله باستمرار؟ هل تتفادى عيناه أي اتصال مباشر بالنظر؟ وسيرتدي الانتحاري عادة قبعة بيسبول أو غطاء آخر للرأس سيخفي وجهه عن أجهزة تلفاز الدوائر المغلقة. وإذا كانت القنبلة في الحقيبة، ربما يتفحّصها الانتحاري باستمرار، خصوصاً في وسائل النقل العامة. وانظروا إلى شكل الجسد. ساقان متوسطتا الحجم تعنيان عادة جسداً متوسط الحجم. ولكن إذا كان الشخص أضخم من ساقيه، وعنقه أو ما يوحي به وجهه، ربما يكون ذلك مثيراً للشبهات. ولا تقتربوا تحت أي ظرف من المشتبه به. وإذا صرختم إنها قنبلة!، سوف تتسببون على الأرجح بإثارة الرعب في نفس الانتحاري ودفعه لتفجيرها. وتذكّروا: لا بد أن الانتحاري عاش في مكان ما. وسلوكه أو سلوكها ربما يثير الشبهات في مجتمعه. والاستخبارات الجيدة تعني أن يكون لديك شخص ما في ذلك المجتمع لتنبيهك. ولكن تذكّروا أيضاً أنه لا يوجد علم دقيق لتحديد الانتحاري. ويعتمد الأمر على الخبرة الماضية والحظ".

لم يكن الموساد وحيداً في اختراقه للجاليات المسلمة، فقد أنشأت MI5 مواقع مراقبة متطورة في المناطق التي تتجمع بها الجاليات الآسيوية ضمن المجتمع البريطاني، حيث يحظى الشباب بوظائف دائمة ويقومون برحلات مستمرة لرؤية أقاربهم في باكستان وأماكن أخرى، وحيث لا يختلط الشباب علناً مع المتطرفين الغاضبين بعد صلاة الجمعة. وكان بعض هؤلاء الذين يخضعون لرقابة MI5 قاموا بإجراء بعض الاتصالات مع القاعدة في تلك الرحلات إلى باكستان. وكانوا معروفين باسم تروجان، ويتم تجنيدهم ليصبحوا إرهابيين ضمن البلاد التي يسكنون بها. وكان

يتم التنصت على هواتفهم الخلوية، وتسجيل أحاديثهم وتحليلها، وتصوير تحركاتهم، وإخضاع علاقاتهم لمراقبة حثيثة. وكانت موجات الراديو تتسلل عبر زجاج النوافذ للاستماع إلى الأحاديث في الغرفة؛ وكان يتم استخدام آخر التقانات لغربلة البريد الإلكتروني والبحث عن ملفات جنائية على مواقع الإنترنت. وكان مع كل وحدة مراقبة MI5 محامي من لجنة مراقبة الإرهاب المشتركة ملحقاً بها، والذي يراقب العملية ليضمن عدم رفض أي دليل يتم تقديمه إلى المحكمة. ولكن عدد الاعتقالات كان صغيراً.

كان جزء من السبب أن الجماعات الإسلامية سريعة في استيعاب تقانة المعلومات لتحقيق أهدافها. ولفتت الإنترنت الأنظار إلى قوتها في العالم العربي عند اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية سنة 2000. وكان أكثر المواقع نجاحاً موقع الانتفاضة الإلكتروني، الذي وصفه ياسر عرفات: "سلاح الدمار الشامل الذي نمتلكه". وكان أعضاؤه المؤسسون موجودين في هولندا، وكندا، وشيكاغو، وليسيستر في أواسط إنكلترا. وشنّوا من هناك حملة منسّقة باستخدام أحدث التقانات المتوفرة لنشر رسالة الكراهية (وفقاً للوصف الإسرائيلي) عبر الشبكة الدولية.

مثل MI5، كانت محطة الموساد في لندن تحصل على مجلات المجاهدين الإلكترونية التي تصدر مرة كل أسبوعين منذ سنة 2001، ونسخة فصلية عن مجلة المجاهدات. وكانت نفس المواقع الإلكترونية تخضع لرقابة دبلوماسيين في السفارة الأمريكية في ميدان غروسفينور في لندن. وكان هناك فرق جوهري واحد. كانت محطة الموساد تمتلك موظفين قادرين على قراءة ما يتم نشره على مواقع الإنترنت مباشرة؛ بينما لم تكن هذه الإمكانية متوفرة لدى أولئك الدبلوماسيين. وكانوا بالكاد يرسلون المواد إلى وزارة الخارجية أو CIA. وكان المترجمون والمحللون في كلا القسمين الحكوميين يؤدون ما قال عنه أحد المترجمين: انتق واختار من السيل اليومي لمواد باللغة الأجنبية. وأخبر المؤلف: "عند التمحيص بالأمر، لم يتغير الكثير منذ الأسبوع الذي سبق 9/11 عندما اعترض الموساد مكالمة هاتفية من بن لادن إلى أمه – نعم، *أمه*، بحق السماء! – أنه لا يستطيع حضور ذكرى ميلادها لأنه مشغول جداً. وتم تمرير الرسالة إلى الإدارة المتوسطة في CIA. وكان الاعتقاد السائد بأن المكالمة غامضة جداً، ولا يمكن التحرك بموجبها.

من خلال اتصالاته مع السيانيم والمخبرين في ليدز، حيث يعيش اليهود والمسلمون جنباً إلى جنب، علم ناتان أن المتطرفين بدأوا بكتابة رسائل في بريدهم

على مخدّمي هوتميل وياهو للرسائل الإلكترونية – لكن دون إرسالها. وتركوها عوضاً عن ذلك مخزّنة في ملفات المسودة على بريدهم. ولم يكن ممكناً اعتراض تلك الرسائل نظـراً لعـدم إرسـالها. وبكـل الأحـوال، أي متطرف آخر يعرف كلمة سر البريد الإلكتروني يستطيع الولوج إليه من أي مكان في العالم وقراءة الرسالة.

زوّد أحـد المخبرين ناتان بكلمة سر. ولكن لم يكن هناك شيء على الموقع يدل على هجوم انتحاري وشيك، أو أي نوع من الهجمات، على قمة غلين إيغلز.

فـي الأسـبوع الأول من تموز سنة 2005، كان ناتان يبدأ يومه بالاستماع إلى بـرنامج الـيوم في المحطة 4 ضمن هيئة الإذاعة البريطانية حينما يقود سيارته إلى العمـل. وكـان الـبرنامج مـنذ وقت طويل يقدّم السياسيين، والدبلوماسيين الأجانب، وموظفـي وايـتهول في لندن بالإضافة إلى أعضاء في مجتمع استخبارات العاصمة. وكان الجميع يتوقع حدوث أزمة أخرى بين حكومة بلير وهيئة الإذاعة البريطانية حول الجدل المستمر لدورها في الحرب العراقية. ورغم انتهاء الحرب على العراق، إلا أن قضـية أسـلحة صـدام للدمـار الشامل بقيت في قلب العاصفة السياسية التي هددت حكومتـي رئـيس الوزراء طوني بلير والرئيس جورج دبليو بوش. وكان في مركز العاصـفة المريرة ادّعاء صحيفة توداي بأن طوني بلير وافق على تلفيق إضبارة تعلن أن صدام لديه القدرة على إطلاق أسلحة الدمار الشامل ضد الغرب، وهو السبب الذي قدّمـه بلير للانضمام إلى بوش في الحرب ضد العراق. وتم تحديد د.ديفيد كيلي علناً في البرنامج على أنه العالم الذي شكّل أحد تقاريره دليلاً على أن الإضبارة تم تلفيقها.

عمل د.كيلي مع الحكومة البريطانية. وكان خبيراً عالمياً في الأسلحة البيولوجية فـي مؤسسـة الدفاعات البيولوجية والكيميائية البريطانية في بورتون داون، ورئيس قسمها للأبحاث المجهرية. وفي عالم مواجهة تهديدات الأسلحة البيولوجية الذي لا زال سـرياً بشـكل كبير، أصبح د.كيلي صوت السلطة الذي لا يمكن تجاوزه، ويلجأ إليه ضباط في مكاتب مكافحة الإرهاب الجرثومي في وزارتي الخارجية والدفاع، وMI5 و MI6 والموسـاد للحصـول على مشورته. وخلال ما يزيد على عقد من الزمن، واجه خـداع وأكاذيب وحيل برنامج صدام للأسلحة البيولوجية. ويتلقى في مكتبه يومياً، في الغرفة رقم 235 في أمانة سرّ الحدّ من انتشار الأسلحة في وزارة الدفاع في وايتهول، رسائل إلكترونية ومكالمات هاتفية تطلب منه المساعدة.

الـتقى ناتان بالدكتور كيلي بعد اشتراك د.كيلي في عملية مشتركة بين الموساد والاسـتخبارات الكندية لاعتراض مواد بيولوجية يتم شحنها من مونريال إلى العراق.

ولاحقـــاً، اصطحب ناتان العالم إلى معهد الأبحاث البيولوجية في تل أبيب، وكان أحد الأجانـــب القلائـــل الذيـــن حظوا بمثل هذه الزيارة. وعندما انتهت الحرب الثانية ضد العراق سنة 2003، عاد د.كيلي إلى بغداد. وأخبره كل من CIA وMI6 بوجود قذائف وصواريخ تستطيع رؤوسها الحربية حمل كميات ضخمة من الجراثيم تم تطويرها سراً بيـــن الحربين. ولم يجد مثل تلك الأسلحة. وحثّه المشرفون عليه على العودة والبحث مجدداً. ومع ذلك لم يجد شيئاً أيضاً. واستمر الضغط. ولم يشك أحد بأن الآلية الداخلية لصـــنع القرار بدأت تفقد توازنها في نفس د.كيلي. وتابع ناتان كل خطوة من الإذلال العلنـــي الـــذي تعرض له د.كيلي بسبب فشله في إيجاد أسلحة الدمار الشامل: ظهوره أمـــام لجـــنة استخبارات مجلس العموم، وتسريب اسمه كمصدر لقصة صحيفة توداي حول تلفيق الحكومة لتلك الإضبارة، وملاحقة وسائل الإعلام المستمرة له. في النهاية، أصبح الأمر لا يُطاق بالنسبة إلى د.كيلي.

عـند الثانية والنصف من بعد ظهيرة الخميس 17 تموز سنة 2003، جلس كبير المفتشـين ألان يونـغ أمام حاسوبه الآمن، وبدأ بكتابة ملف سري للغاية. وعلى قمة شاشـــة حاســـوبه، كتب اسماً مستعاراً: *عملية الماسوني*. وتنهّد ثم أضاف: *غير قابل للـــتداول. معلومـــات عملياتـــية خاصـــة بالشرطة*. وأضاف تحت ذلك الأرقام الآتية: 14.30 و17.07.03، والتـــي تعنـــي أن الملـــف تم فتحه الساعة الثانية والنصف بعد الظهـــر يـــوم الخمـــيس 17 تمـــوز 2003. وتـــم فتح ملف يونغ بعد صبيحة حافلة بالمناقشات الحادة في مكاتب حكومية مختلفة في وايتهول. وكان جون سكارليت شارك فـــي مكتـــبه فـــي مقر لجنة الاستخبارات المشتركة، التي كان رئيسها طوال السنتين الماضيتين، في المناقشات. ويتمتع سكارليت بقدرة فائقة على توقع المشاكل، ولا بد أنه شـــعر أن ردود أفعال د.كيلي أمام لجنة الاستخبارات، والجدال الحكومي المستمر مع هيئة الإذاعة البريطانية يتحول إلى مشكلة خطيرة.

لعـــب سكارليت دوراً محورياً في تحضير الإضبارة المثيرة للجدل. وأثناء قيامه بذلـــك، تجاهل الحكم الموضوعي الذي أدلى به د.كيلي في المسودات الأولى. وجاءت المعلومـــات الاســـتخباراتية الأصلية من MI6، ووافق عليها مديرها العام حينها السير ريتشارد ديرلوف، قبل أن تنتقل إلكترونياً عبر مجتمع الاستخبارات البريطاني، وتحط علـــى مكتب مدير استخبارات وزارة الدفاع. ولم يدعم أيٌ منهم جزم د.كيلي الأصلي بأن صدام لا يمتلك أسلحة دمار شامل. في النهاية، أصبح صوت الدكتور كيلي وحيداً، فقـــرّر التحدث إلى هيئة الإذاعة البريطانية. وما الذي يستطيع كيلي فعله غير ذلك *ولم*

يفعله؟ ويقله؟ وكانت تلك الأسئلة التي تقض مضجع سكارليت.

تلقّـى د.كيلـي مكالمات هاتفية كانت زوجته جانيس كيلي متأكدة أنها من MI6. وتـتذكّر أن زوجهـا تلقّـى بعض المكالمات خلف الأبواب الموصدة لمكتبه، المجهّز بسـبعة حواسـب محمولة وحاسبه الشخصي الآمن على طاولته والذي زوّده به MI5 إضـافة إلى خطه الآمن مع بورتون داون. وتبيّن لاحقاً أنه عندما غادر المنزل، تلقّى مكالمتيـن إضـافيتين على هاتفه الخلوي فيما كان يمشي. ولم يتم التعرف على هوية المتصلين أبداً.

تـم إيجـاد جـثة د. كيلي في غابة في اليوم التالي. وحدد فريقين منفصلين من الشـرطة موقعيـن مختلفين لمكان وجود جثته. وفي ذلك الوقت، رفع ضباط المركز التقنـي التابع لجهاز MI5 من مكتب د.كيلي كل معدّاته الإلكترونية. وستبقى البيانات التـي كانـت عليها سراً. وبكل الأحوال، قال ثلاثة أطباء مختصين بريطانيين بارزين علـناً، وبشـكل غـير معتاد في مثل هذه الظروف، إن د.كيلي لم ينتحر استناداً إلى تفاصـيل التشريح المنشورة. وأثارت استنتاجاتهم أسئلة مزعجة. ما الذي يعنيه فقدان الـدم من الجرحِ الصغير في المعصم؟ ما الدور – في حال وجوده – الذي لعبه العدد القلـيل من مسكّنات الألم التي ابتلعها؟ هل يمكن أن ترتبط الأسئلة بتوقع د.كيلي لأحد أصدقائه "بأن لا يتفاجأ إن عثر على جثته في أحد الأيام في الغابة؟".

كان هناك عدد من الأسباب التي تجعل الموساد يهتم كثيراً بتلك الكلمات. وتسبب د.كيلـي بـاندلاع أزمـة لا سـابق لها لحكومة بلير بعد أن تساءل علناً عن شرعية الإضبارة السيئة الصيت الآن. وادّعى آري بن-ميناش (للمؤلف): "رغم أنها تبدو غير معقولـة للدخلاء، إلا أن فكرة القضاء على مثير المشاكل ليست خارج الجانب المظلم للاسـتخبارات السرية. وكان الموساد يقوم بذلك بوساطة فرق الكيدون. ولدى الأجهزة الأخرى رجال محترفين، وعقود مع قتلة لا يمكن تتبع آثارهم".

كان هناك تقارير مستمرة على أن د.كيلي مستهدف من قبل فصائل الاغتيال لدى صـدام حسين أثناء تواجده في العراق ينزع ترسانة البلاد. وحذّره المشرفون عليه في MI5 أن حـياته فـي خطـر. وكـان هناك تهديدات محتملة أخرى تستهدف سلامته. وأغضـب أثناء عمله في تفكيك ترسانة الاتحاد السوفيتي البيولوجية السرية الكثير من العملاء السوفيات عندما رفض مساعدتهم في المجيء إلى بريطانيا والعمل فيها. وحذّر MI5 د.كيلي أن بعض العلماء يحتفظون بعلاقات وثيقة مع جهاز الاستخبارات الروسي الخارجـي، والذي لديه ثلاثين عميلاً يعملون خارج السفارة الروسية. وحصل د.كيلي

على قائمة بأرقام لوحات كل سياراتهم. وقبل أسبوع واحد فقط من وفاته، شوهدت لاند روفر – تحمل لوحة دبلوماسية يبدأ رقمها 280 د، والمخصصة لكل المركبات الدبلوماسية الروسية – على بعد أقل من عشرين ميلاً من ساوثمور، وهي القرية التي يعيش فيها د.كيلي.

طلب مائير داغان من ناتان إعداد تقرير حول وفاة العالم. وبدأ مدير محطة الموساد عمله بدراسة خلفية وفاة د.كيلي بعدما تم إيجاده في تل هارو داون، وهو موقع جميل بالقرب من منزله. وكان التقنيون في مركز التقييم التكتيكي قاموا بتحليل أقراص الحواسب التي حصلوا عليها من مكتب د.كيلي، والمكالمات من وإلى هاتفه الخلوي الذي تم إيجاده على جسده. ورغم أن معظم المعلومات تتعلق بعمله اليومي في وزارة الدفاع في بورتون داون، إلا أن معلومات شخصية انبثقت أيضاً منها. وكان بينها عرضين يدرسهما بجدية للعمل في القطاع الخاص في أمريكا.

كان أحد العرضين من شركة هادرون للأنظمة البيولوجية المتطورة والتي تتخذ من واشنطن مقراً لها. وكان يملكها منشق سوفيتي اسمه كاموفتجان علي بيك، والذي كان عالماً بارزاً في برامج ذلك البلد البيولوجية، ومبتكر أقوى سلالات الجدري باستخدام الهندسة الجينية. ووجد موطناً له في صناعة الأحياء الدقيقة الدفاعية في أمريكا، وغيّر اسمه إلى كين علي بيك. وكان لشركته علاقات وثيقة مع البنتاغون و CIA، ووصف نفسه بأنه مختص بتطوير حلول تقنية لمجتمع الاستخبارات الأمريكي. وكانت الشركة الأخرى ريغمان للتقانات البيولوجية، والتي ساعدها د.كيلي على تأسيس فرع لها في بريطانيا. وفي وقت وفاته، كانت الشركة قد وقعت عقداً مع البحرية الأمريكية من أجل تطوير تشخيص ولقاح للجدري. وتقول إن وظيفتها الرئيسية البحث عن بدائل قوية للمضادات الحيوية. وعرضت كلتا الشركتين على د.كيلي تعويضات تبلغ ضعف راتبه الحالي، وما يكفي لتغطية المعالجة الطبية الخاصة التي كانت جانيس بحاجة لها، والتي كانت قائمة الانتظار للحصول عليها من خدمة الصحة العامة في بريطانيا طويلة جداً.

استنتج نيكولاس غاردينر، الموظف القضائي في أوكسفوردشاير، أن د.كيلي انتحر بقطع معصمه الأيسر بسكين غير حادة والتي استخدمها كأداة للبستنة. وتناول أيضاً ثمانية وعشرين حبة كوبراكسمول، مسكّن الألم للمصابين بالتهاب المفاصل. ولم يكن كيلي يعاني من ذلك المرض. وسيكون صعباً جداً ابتلاع تلك الحبوب دون ماء، أو طحنها بأسنانه. ووقعت حادثة غريبة بعد ذلك، وبعد ساعة من اكتشاف جثته،

اختفت سجلات أسنان د.كيلي من عيادة محلية. وأبلغ طبيبه الشرطة بالواقعة. وظهرت السجلات مجدداً في العيادة بعد يومين. وطلبت الشرطة من د.نيكولاس هنت، الطبيب الشـــرعي الذي أجرى التشريح، إجراء اختبار حمض نووي للتأكد أن الجثة تعود فعلاً للدكـــتور كيلـــي. ولاحظ طبيب التشريح أن هناك عدّة خدوش سطحية على المعصم وجـــرح بلـــيغ مـــزّق شريان الساعد دون الشريان الكعبري. واستنتج أن ذلك قاد إلى نزيف قاتل.

عارض الأطباء المختصين الثلاثة، الذين بحثوا في فرضية انتحار د.كيلي، ذلك الاســـتنتاج مجدداً؛ د.ديفيد هالبن، المستشار في الإصابات الرضية؛ د.ستيفن فروست، طبيب الأشعة؛ د.مارتن بيرستنجي، جراح الأوعية، والذين قالوا جميعهم إنهم بخبرتهم السريرية المجتمعة – التي تبلغ حوالى خمسين سنة – لم يسبق لهم أن رأوا حالة مات فـــيها أحـــد من قطع شريان الساعد. وقال د.هالبن: "للموت نتيجة النزيف، ينبغي أن يكون د.كيلي فقد حوالى خمسة وحدات من الدم". وقال د.فروست: "من غير المحتمل أن يكـــون د.كيلـــي فقـــد جراء تلك الإصابة أكثر من وحدة دم". وبرأي د.بيرسنجي: "عندما يتم قطع شريان الساعد، ينخفض ضغط الدم بسرعة، وبعد دقائق قليلة، يتوقف الشـــريان عـــن الـــنزيف. ولـــم يطلب أحد من هؤلاء الخبراء الإدلاء بشهاداتهم أثناء التحقيق".

قـــام ناتان شيئاً فشيئاً بجمع وتحليل شهادات أولئك الذين عملوا على وفاة العالم. وكشـــف عـــن تفاصـــيل صلات د.كيلي ببرنامج الحرب البيولوجية في نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا – وأنه في الأسبوع الذي سبق وفاته، تم إبلاغه بأن MI5 سوف تستجوبه حول إحضار رئيس البرنامج د.فاوتر باسون إلى بورتون داون. ومع كـــل الضـــغوط الأخرى التي كان يواجهها، هل كان احتمال استجوابه من قبل محققي جهـــاز الأمـــن القشّة التي قصمت ظهر البعير؟ هل لوفاته أي علاقة بأساليب باسون المتهورة؟ هل تم قتله لضمان صمته، وأنه ضحية أخرى للجانب المظلم للاستخبارات الـــذي كشـــف عـــنه آري بـــن ميـــناش؟ وبقيت الأسئلة دون أجوبة حتى قيام مايكل شريمتون، المحامي الذي يقدم استشارات للجنة الاستخبارات في الكونغرس الأمريكي حول قضايا أمنية، بتقديم تفسير لإنهاء الغموض.

ادّعـــى لصـــحيفة صنداي إكسبرس اللندنية "أن فريق اغتيال تابع للاستخبارات الفرنســـية الســـرية DGSE قتل على الأرجح د.كيلي، ثم ألبسوا جثته ثياباً ليبدو الأمر انـــتحاراً. وفي غضون ثمانية وأربعين ساعة من وفاة كيلي، تلقيت اتصالاً من ضابط

اسـتخبارات بريطانـي ليخبرنـي أنه تم قتله. لم تكن MI5 أو MI6 متورطتين، وكلا الجهازيـن غير سعيد بما حدث. وأعتقد أن هناك أشخاصاً نافذين في وايتهول اعتبروا أن كيلي يشكل تهديداً لبقاء الحكومة، واستخدموا فريقاً من خارج البلاد للقضاء عليه. وتقـول معلوماتـي أن الفرنسـيين استخدموا قتلة الاستخبارات العراقية لتنفيذ عملية الاغتـيال". ولم يقدّم شريمتون أي دليل قاطع يدعم ادّعاءه. ولكن ذلك شكّل جزءاً من تقرير ناتان، والذي بالمقابل سيصبح جزءاً من منهاج مدرسة تدريب الموساد.

فـي الأسبوع الأول من تموز سنة 2005، كان الصيف قائظاً في لندن، وغرقت المدينة بالتفاؤل. وخيّمت موجة حارة على الحشود التي ارتدت ملابس خفيفة وقمصان مفـتوحة عـند العنق. ووضعت المقاهي طاولاتها خارج المحال لتناول الوجبات في الهـواء الطلـق. وكـان مـا يزال سوق الأسهم في حالة ازدهار، والمحال تعرض تخفيضـات علـى الأسـعار المنخفضـة أصلاً. وتلاشت صور التلفاز من بغداد عن الشاشات.

كـان الموساد بين أجهزة الاستخبارات الأجنبية التي تخبرها وزارة الداخلية أن التهديدات بحدوث هجمات إرهابية في بريطانيا انحدرت من العام إلى المستوى الثالث الظرفـي. وفـي ذلـك الأسـبوع، قـام مفوض سكوتلنديارد السير ايان بلير بإبلاغ المسؤولين أن MI5 واثقة تماماً أن الحرب ضد الإرهاب تحت السيطرة.

قابل ناتان المفوض الذي أثار إعجابه. ومنذ تعيينه في كانون الثاني الماضي، بدأ بلـير بـإدارة قـوة شرطة لندن بشكل عصري بناءً على آخر تقنيات الإدارة. وبنبرة صـوته الهادئـة والموزونة، وجسمه المربوع والمتناسق، وقبعة الشرطة التي يضعها بإحكـام علـى رأسه وفمه المندفع للأمام، كان بلير يشع ثقةً. وبدأ فترة توليه لمنصبه بطـريقه تشـبه إلى حدٍّ بعيد ما قام به مائير داغان عندما تولى قيادة الموساد. وأخبر بلـير كـادره البالغ عددهم ثلاثين ألف جندي وخمسة عشر ألف مدني أنه ينوي قطع صـلتهم بمـا يراه ماضياً مليئاً بالخوف والتمييز العنصري. وذكّرهم أنه كان شرطياً ويعـرف ما يعنيه إخراج جثة من حادث قطار، وأضاف في حديثه الأول الذي أوضح فـيه قواعد العمل الجديدة لضباطه البارزين مقتطفات من فولتير. ورسم ابتسامة على وجهـه عـندما قال إن المفكّر الفرنسي الكبير، وعلى فراش موته، وعندما طُلب منه التـبرأ مـن الشـيطان، أجاب بأن الوقت غير مناسب لاكتساب أعداء جديد. وأخبر الضـباط أنه لا يريد منهم أن يعاملوه كعدو لهم، ولكنه لن يسامح أي شخص يحن إلى الطـرق القديمـة. ومـنذ ذلك الحين، استطاع التسلل بسهولة إلى لغة العمل الخاصة

بجماعات الشرطة المتنوعة. وكان يستخدم تعابير أمنية غير مألوفة مثل القولبة، والكاتدرائية السابقة، والتضاد، ونصيحة الكمال.

كان ناتان يشتبه بأن هذه الكلمات لن تتوافق بسهولة مع لغة مائير داغان الفظّة، ولا الطريقة التي يوقّع بها بلير على مذكّراته بقلم الحبر المذهب الريشة، ولا لوحة ميرو الموجودة على جدار مكتبه المليء برفوف الكتب مع نسخ من أعمال تينيسون ويتس.

نتيجة اقتناعه بعدم وجود خطر هجمات إرهابية يتهدد لندن، أمر بلير ألفاً وخمسمئة من جنود شرطة العاصمة بحماية قمة غلين إيغلز، حيث يتواجد مثيرو الشغب بين المحتجين. وأرسل فصيل سكوتلنديارد لمكافحة الإرهاب كل جنود تقريباً إلى اسكتلندا. وكثّف جهازا MI5 وMI6 من جهودهما للبحث عن والقبض على الإرهابيين. ولم يتم إيجاد أحد. وحتى البحث عن الغراب توقف عندما قال الموساد إنه دخل وخرج من بريطانيا، واختفى في مكان ما من أوروبا. واستطاعت حشود رجال الشرطة حول غلينايغلز التعامل مع المحتجين. وكانت لحظة التوتر الوحيدة التي برزت عندما وقع الرئيس جورج دبليو بوش عن دراجته الهوائية، وكشط يده.

استيقظت العاصمة البريطانية في 6 تموز لتجد أن المدينة فازت بحقوق تنظيم الألعاب الأولمبية سنة 2012، وعندما كان ناتان يقود سيارته إلى عمله في ذلك الصباح، ويستمع إلى برنامج *اليوم*، سمع المفوض بلير يؤكد للندنيين "أنه ورجاله سيتعاملون مع أي تهديد إرهابي للألعاب الأولمبية. وقوات الشرطة لدينا تحسدها أجهزة الشرطة في العالم فيما يخص مكافحة الإرهاب. لدينا اليد العليا".

كان هناك لعبة حرب في ظهيرة يوم الأربعاء ذاك في مركز مكافحة الإرهاب المشترك. وكان التوقّع بسيناريوهات كارثية على حواسبهم جزءاً أساسياً من عمل المختصين في محطاتهم المتصلة ببعضها البعض. وركّز أحد السيناريوهات على نوعين مختلفين من الهجمات على لندن. وتوقع السيناريو الأول بأن يقوم الإرهابيون بالطيران فوق العاصمة بطائرة خفيفة مستأجرة من إحدى المهابط الخاصة إلى الغرب من المدينة، وإلقاء غاز الأعصاب في إكس (VX) للاستفادة من الرياح السائدة. وقدّر المختصون أن يلقى ثلاثون شخصاً حتفهم في مكان الإطلاق، و250 آخرين في اتجاه الريح. وكان السيناريو الثاني يتصور قيام الإرهابيين بنشر فيروس ذات الرئة بشكل دخان على هيثرو. ولن يلقى الآلاف حتفهم في القسم الذي تعرض لذلك وحسب، وإنما ستحمل الرياح الكارثة إلى لندن. وكان العدد المقدّر للقتلى يصل إلى مليونين حيث

ستكون كل الخدمات الصحية مشغولة. وللتعامل مع الموتى، اقترح مركز مكافحة الإرهاب المشترك أن تقوم مجموعة عمل لندن لمدافن الكوارث الاستراتيجية، والتي تعتبر جزءاً من مجموعة عمل المملكة المتحدة للكوارث الضخمة، تشييد مدافن في ضواحي المدينة لتقديم استيعاب متزايد لحالات وفاة مئات الآلاف.

تلقت محطة الموساد في لندن تلك الأمسية تقريرها اليومي من تل أبيب بعدم وجود أي دليل على تزايد خطر إرهابي يتهدد المملكة المتحدة. وفي مقر قيادة MI5، الذي يطل على نهر التايمز في ويستمنستر، لم تكن غرفة العمليات الواسعة، التي لا يوجد فيها فواصل وتمتد على معظم الطابق، في حالة تأهب: شاشاتها البلازما لا تعمل، والألواح البيضاء خالية، وخرائط شوارع لندن موضوعة جانباً، والهواتف صامتة تماماً.

لم يكن أي جهاز أمن أو قوة شرطة لديها فكرة عن الكارثة التي على وشك الوقوع.

في صبيحة الخميس 7 تموز، كان ناتان يترأس اجتماعاً لموظفيه في مكتبه في السفارة الإسرائيلية عندما اتصل به ضابط ارتباط MI5 هاتفياً بعد التاسعة صباحاً بقليل. ولم يزعج نفسه بإخفاء التوتر والغضب في صوته. لقد وقعت ثلاث هجمات منفصلة في ساعة الذروة في أنفاق لندن، وأخرى على الحافلات المؤلفة من طابقين الشهيرة. وستكون محصلة الوفيات كبيرة (تبين لاحقاً أنها خمس وخمسون، وأكثر من مئتي جريح). وحملت الكارثة كل علامات هجمات القاعدة الانتحارية. وختم ضابط MI5 اتصاله بالطلب من الموساد تقديم كل مساعدة ممكنة.

في السنوات الثلاثة الأخيرة، طلب جهاز MI5 عدّة مرات مساعدة الموساد فيما يتعلق بمكائد مشبوهة لمهاجمة وسائل نقل لندن، والذي يعتقد أن لها صلات شرق أوسطية. وكانت تلك الخطط تتضمن تسميم الأنفاق بغاز السارين، ونشر السيانيد في أنظمة التكييف الهوائي، ووضع سموم قاتلة على القطارات. وتتمحور مكيدة أخرى حول تفجير سيارة مفخخة في ضاحية سوهو، وهي منطقة يقصدها السياح. وفشل الموساد في إيجاد أي دليل لدعم ادّعاءات MI5 على أن الخطط خرجت من الشرق الأوسط. وقبل وقت قصير من تفجيرات لندن، أصرّ اللورد ستيفنس، الذي كان في إجازة قصيرة من تحقيقه في وفاة الأميرة ديانا، علناً على أن MI5 أعاقت تلك الخطط. وأغضبت تلك التصريحات الموساد.

كان ناتان يعرف أن طلب المساعدة تم توجيهه إلى كل رؤساء محطات أجهزة

الاستخبارات الأجنبية في العاصمة. وكان عليهم، في غضون ساعات، سحب عملائهم من قمة مجموعة الثماني للمساعدة في تجميع أجزاء الصورة عن أولئك الذين نفّذوا أسوأ الهجمات الإرهابية التي شهدتها بريطانيا. كان الموساد سيركز جهوده على الشرق الأوسط وأفريقيا، وهي المناطق التي كانت فيها شبكته من العملاء والمخبرين لا مثيل لها. كانت معلوماتهم تمر عبر مقر قيادة الموساد لتقييمها وإعادة إرسالها مشفّرة عبر البريد الإلكتروني إلى محطة لندن. وكان ناتان وعملاؤه يقومون بعملية تقييم أخرى لتلك المعلومات قبل إرسالها إلى مركز مكافحة الإرهاب المشترك. وأرسل كاستا مقيم في مقديشو، عاصمة الصومال، في القرن الأفريقي تقريراً يقول فيه أنه استمع إلى محادثة قد تربط تفجيرات لندن مع إرهابيي القاعدة الذين يتحكمون بالبلد عبر أمراء الحرب المحليين. وفي السنوات الثلاثة الأخيرة، حصل ما يزيد عن خمس وثلاثين ألف صومالي على اللجوء السياسي في بريطانيا هرباً من الأعمال الوحشية التي تجتاح بلادهم. وربما يكون أئمة بريطانيا جعلوا أحدهم أو أكثر متشدداً.

في فترة بعد الظهر، علمت محطة الموساد في كيب تاون عاصمة جنوب أفريقيا بنزاع بين عملاء MI6 وCIA حول ما ينبغي فعله مع المواطن البريطاني من أصل هندي هارون رشيد أصوات، الذي كان محتجزاً في زامبيا لصلته المزعومة بالقاعدة. وقالت CIA إنه مطلوب في الولايات المتحدة ليواجه تهماً حول تقديم دعم مادي للقاعدة، ومحاولته إنشاء معسكر تدريب إرهابي في بالي، أوريغون سنة 1999. وقالت CIA إنها أخبرت MI6 بأن لديها اعتقاداً قوياً على أن أصوات أجرى عدداً من المكالمات الهاتفية مع مسلمين متشددين في بريطانيا قبل وقت قصير من التفجيرات.

كانت CIA تريد وضع أصوات على متن إحدى طائراتها من طراز غلفستريم، وترحيله إلى غرف التعذيب في أوزبكستان. ولكن رغم أن جهاز MI6 كان مستعداً لدعم عملية نقل أصوات قانونياً إلى أمريكا بسبب اتهامات أوريغون، إلا أنها لم تكن لتسمح بتعريض مواطن بريطاني للتعذيب. وأخبر الجهاز البريطاني CIA أيضاً أن مكالمات أصوات الهاتفية لا تربطه بتفجيرات لندن.

فيما استمر البحث عن منفذي تفجيرات لندن، تطورت العلاقة ضمن مجتمع الاستخبارات العالمي بطريقتها الخاصة. وأخبر جهازا الاستخبارات الفرنسي والبريطاني MI5 أن لا دليل لديهما يدعم الادعاء على قيام عميل بارز للقاعدة يدعى مصطفى بالسفر عبر وسط أوروبا ومن وإلى بريطانيا قبل وقت قصير من حدوث التفجيرات. ورغم ذلك بقي مصطفى على قائمة الأهداف الأولوية على لوائح أناكابا،

وهــو المخطــط الخاص في مركز عمليات MI5 لبناء صورة مكتملة من المعلومات الــواردة. وطلب ضابط اتصال MI5 من ناتان المساعدة في التحقيق حول ما إذا كان مصــطفى العقــل المدبّر وراء الهجمات الانتحارية. وهل أخبرهم عن الأهداف التي ينبغــي ضــربها؟ ونشر الموساد مرة أخرى الكلمة بين شبكات السيانيم عبر بريطانيا ومخــبريه في الشرق الأوسط. وبقي مصطفى الغامض في الأسابيع التالية كما كان – غامضاً.

بقيــت لندن في قبضة الخوف عندما تعرضت المدينة في 21 تموز إلى هجمات أخــرى بالقــنابل. ولكن العملية حملت هذه المرة كل دلالات عمل الهواة غير المتقن؛ وفشــلت القــنابل المنزلــية الصنع في الانفجار، وسرعان ما تم التعرّف على الجناة. ورغم ذلك، استمرت مئات التقارير في الوصول إلى سكوتلنديارد حول أشخاص تحوم حولهــم الشــبهات. وتــم التدقيق في كل واحد منهم، وكانت معظم الشبهات سخيفة. وحذّرت الشرطة أن الأشخاص الذين يتصرفون على تلك الشاكلة في أوقات الأزمات يتعرضون لمخاطر إساءة الفهم من الآخرين.

كانــت تلك هي الحالة مع جان تشارلز دو مينزيس، الشاب البرازيلي المختص بالكهــرباء، فــي طريقه عبر الأنفاق استجابة لنداء حريق في شمال لندن. وبينما كان يمشــي في مكان ما بين منزله ومحطة أنفاق ستوكويل القريبة، أثار انتباه إحدى فرق مكافحــة الإرهــاب العديدة في الشوارع. وكان كل فرد من أعضاء تلك الفرق يعرف جــيداً بأنــه لا يستطيع إطلاق النار إلا إذا اعتقد بأن الشخص أمامه يحمل قنبلة. ولا يصــدر أمــر إطلاق النار بقصد القتل، والتسديد نحو رأس الشخص، إلا بعد أن يمنح قائد ذهبي في سكوتلنديارد الإذن عبر جهاز لاسلكي إلى قائد الفريق الميداني. ولم يكن ينبغــي على الشرطة إطلاق صرخة تحذير قبل إطلاق النار لأن ذلك سيفسد المفاجأة الضــرورية. وكان قواعد الاشتباك مأخوذة من قوانين القوات الخاصة الإسرائيلية في التعامل مع العمليات الانتحارية في البلاد.

تــم اللحاق بــدي مينزيس المطمئن عبر محطة قطار الأنفاق، ونزولاً على سلم مــتحرك وصولاً إلى الرصيف حيث كان أحد القطارات على وشك المغادرة. وعندما صعد على متنه، تحرك فريق الشرطة. وألقى أحدهم دي مينزيس أرضاً، وأطلق اثنان آخران سبع رصاصات على رأسه وجسده. وسببت التفاصيل غضباً شعبياً عارماً حيث تبين كذب سكتوتلنديارد في ادعائه بأن ملابس دي مينزيس كانت مثل مهاجم انتحاري. كــان ميتريس يرتدي ملابس خفيفة. ووجد مفوض الشرطة بلير نفسه يكافح بصعوبة

مع بياناته التي أطلقها لتبرير القتل. وكان يتعرض ضمن قوات الشرطة نفسها للانتقاد من قبل الضباط البارزين الذين بدأوا بتسريب تفاصيل لوسائل الإعلام حول التذمر ضمن صفوف الضباط حول قيادة بلير. وتعمّق الانتقاد عندما أظهرت المراحل الأولى من التحقيق حول وفاة دي مينزيس فشلاً في الاتصال بين الفريق الذي يتعقّب دي مينزيس والمشرفين عليه في اسكوتلنديارد. وظهر أن أحد أعضاء الفريق دخل، بشكل غير معتاد، الحمام خلال مرحلة مهمة من المراقبة، وانقطع الاتصال اللاسلكي بين الفريق وسكوتلنديارد مؤقتاً في مرحلة حاسمة. وجاءت الأنباء المحرجة لاحقاً بأن بلير أجاز دفع مبلغ صغير من المال لعائلة دي مينزيس لمساعدتهم في تغطية تكاليف الجنازة. ورفضت العائلة العرض.

أثناء ذلك، استمر مقتل الكهربائي الشاب بإذكاء صيحات الاحتجاج المتصاعدة في وسائل الإعلام البريطانية. واستغلت منظمات حقوق الإنسان عملية القتل لشن حملة ضد وسائل الشرطة، وطالبت بإعادة النظر في سياسة إطلاق النار من أجل القتل. وفي آذار سنة 2006، وجد بلير نفسه متورطاً في جدال جديد. وأقرّ بأنه سجّل سراً محادثته مع المدعي العام في بريطانيا اللورد غولدسميث. وكانا يبحثان المراقبة الهاتفية والتنصّت على المشتبهين في ذلك الوقت. وأثار الكشف عن تلك المحادثة مطالب جديدة بضرورة استقالته، وهي المرة الخامسة التي تتجدد فيها هذه المطالب منذ مقتل دي مينزيس، ولكنه نحّى كل تلك الدعوات جانباً. وكان يتمتع بدعم شخص واحد على عمليات إطلاق النار. وأخبر ناتان ضابط ارتباط MI5: "يعتقد رجال الشرطة أولئك أنهم يتصرفون لما فيه مصلحة الجميع بناءً على المعلومات التي يحصلون عليها. والأخطاء تقع فعلاً".

في تل أبيب، كان مائير داغان ينظر إلى القضية على أنها مقتل شخص مقابل الخسارة في الأرواح التي تسببت بها هجمات الانتحاريين، ليس في لندن وإسرائيل فقط، وإنما في كل أنحاء العالم. وأخبر موظفيه بأن الحقيقة المؤكدة أنه كلما كانت الهجمة الأخيرة أبعد، كانت الهجمة التالية أقرب.

في الساعات الأولى من أول أحد في تشرين الأول سنة 2005، تلقى الضابط المناوب في مكتب آسيا في مقر قيادة الموساد بريداً إلكترونياً عاجلاً من كاستا مقيم في جاكرتا، عاصمة إندونيسيا. وكان يحمل أنباءً أن انتحاريي القاعدة ضربوا مجدداً في منتجع بالي الشهير، مما أدى لمقتل وجرح ما يزيد عن الخمسين شخصاً. وفي سنة 2002، دمر انتحاريون آخرون نوادي ليلية على الجزيرة، وقتلوا العشرات وجرحوا

المـئات. وانتهـت الرسـالة بكلمـات مثيرة: "تشير كل الدلائل إلى أن ذلك من عمل حسين".

جـنّد أسـامة بـن لادن شخصياً المهندس البالغ من العمر ثمانية وأربعين سنة، والذي تخرج من جامعة ريدنغ في إنكلترا، ليصبح صانع القنابل الرئيسي في المنظمة. وكمـا كان الحال في تفجيرات بالي السابقة، نظّم أزاري حسين هجمات انتحارية على فـندق ماريوت المملوك لأمريكيين في جاكرتا سنة 2003، وعلى السفارة الاسترالية فـي المدينة سنة 2004. وقتل ثلاثون شخصاً في الهجمات، وتعرض ما يزيد عن مئة آخرين لإصابات مختلفة.

قبل بضعة أيام، أكّد الموساد أخيراً تخمين MI5 بأن مصطفى الغامض هو نفسه حسين الذي خطط وجنّد متطوعين لتنفيذ تفجيرات لندن. وأرسل مائير داغان معلومات إلـى إيلزا مانينغهام-بولر بأن حسين سافر إلى لندن قبل الهجمات، باستخدام واحد من جـوازات السفر العديدة التي يمتلكها، وبصفة إحدى الشخصيات التي يتخفّى وراءها. وربمـا كان متواجداً في العاصمة وقت وقوع الهجمات؛ وكانت إحدى سماته المميزة مراقـبة تأثـيرات الدمـار الذي يكون مسؤولاً عنه. وشوهد في مواقع مختلفة، وكان يهـرب فـي كل مرة نتيجة حالة الارتباك التي تسود المنطقة ويعود إلى أحد مخابئه، والتـي كـان الموسـاد يعتقد أنها تقع في سلسلة جبال توبا-كاكار التي تفصل التخوم الشمالية الغربية لباكستان عن الجبال الموحشة لأفغانستان.

وضعت وكالة الأمن القومي الأمريكي قمراً صنعياً فوق منطقة تمتد من مورغا وخـانوزي، وهمـا قريـتان صغيرتان على سفوح سلسلة توبا-كاكار. وبدأت القوات الباكسـتانية، المدعومـة مـن القـوات الخاصـة الأمريكية وقوات SAS البريطانية، بالاستعداد للقيام بغزوة أخرى في المنطقة. وفي الساعات الأولى من 8 تشرين الأول، تعرضـت المنطقة بأكملها لزلزال مدمّر بلغت شدته 7.6 على مقياس ريختر. ودفنت ملاييـن الأطنان من الصخور والحجارة المنطقة. وتوصل محللو الموساد، الذين كانوا يراقـبون المـنطقة عن كثب، إلى نتيجة مفادها أنه في حال كان حسين موجوداً تحت الأنقاض لن يكون ممكناً إيجاد جثته أبداً.

ثـم جـاءت تقارير لم تصعق المحللين في تل أبيب وحسب، وإنما أولئك الذين يعملـون فـي كل أجهزة الاستخبارات الرئيسية الأخرى أيضاً؛ ومفادها أن أسامة بن لادن ربمـا يكون بين الأموات. وأرسل المخبرون تقارير للمسؤولين عنهم أنه شوهد في المنطقة المنكوبة. وأشار أحد التقارير أن وجهه كان يبدو نحيلاً. هل كان ذلك دليلاً

على سوء حالة كليته؟ وفي الأسابيع الأخيرة، اكتشف الموساد أن بن لادن استلم من الصين جهاز غسل كلية متنقّل. وأرسلت درونز، وهي طائرة دون طيار أطلقتها القوات الخاصة الأمريكية فوق منطقة البحث، صوراً تظهر بأن كل محطات الإمداد بالطاقة مدمرة. وفي إسلام أباد، وافق الرئيس برويز مشرف على طلب CIA بأن لا تقوم فرق إنقاذ الناجين من الزلزال بدخول منطقة البحث عن بن لادن وحسين. وفي واشنطن، دخل الباحثون عن بن لادن في خانة التوقعات. وقال بروس هوفمان من شركة راند، التي تقدم النصح لمجتمع الاستخبارات الأمريكي، "بأنه إذا نجا بن لادن من الكارثة فربما شق طريقه عائداً نحو أفغانستان". وأضاف ميلت بيردمان، ضابط CIA الخبير بمنطقة البحث: "إذا مات بن لادن، لن يعرف العالم بذلك أبداً. وينبغي أن ننتظر حتى يأتي شخص ما ويسحب جثته، والقيام بفحوص الحمض النووي الريبي، والقول هذا بن لادن. وأعتقد أن هذا لن يحدث".

بالرغم من كل ذلك، استمرت التوقعات. وقال دونالد رمسفيلد، وزير الدفاع الأمريكي القوي، أن سنة تقريباً مرّت منذ ظهور بن لادن لآخر مرة، وأنه ربما يكون ميتاً؛ وستكون تلك عدالة الطبيعة. واستغرق رمسفيلد في تأملاته قائلاً: "ليس هناك وجه للقاعدة بعد الآن". ولاحظ محللو الموساد بالتأكيد على مواقع إنترنت الجهاديين أن أبو مصعب الزرقاوي، الأردني المسؤول عن بعض أفظع الأعمال الوحشية في العراق، كان يشكل القوة الرئيسية في حلم استعادة الخلافة الإسلامية.

ظهر على أحد مواقع الإنترنت وثيقة مثيرة تدعى، قنبلة الجهاد النووية والطريق نحو تخصيب اليورانيوم. وتضمنت صفحاتها الثمانين تعليمات مفصّلة حول كيفية البحث عن الراديوم، البديل الفعّال لليورانيوم، والمتوافر في الأسواق. وقال ماتي ستينبرغ، أحد خبراء الموساد في مجال بحث القاعدة عن سلاح نووي، بأن الدراسة: "دقيقة بشكل خطير". ورغم أن المؤلف وصفه نفسه ليث الإسلام، إلا أن الطريقة التي أهدى بها الدراسة زادت الشكوك حول موت بن لادن: "هبة إلى قائد المجاهدين الشيخ أسامة بن لادن، من أجل الجهاد وفي سبيل الله".

في 18 تشرين الأول، سجل عميل للموساد متخفّي في طهران محادثة بين أكبر أبناء بن لادن المدعو سعد، وأخويه محمد وعثمان. وكان الرجال الثلاثة يعيشون في مبنى آمن في إحدى ضواحي المدينة حيث يديرون عملياتهم الإرهابية عوضاً عن الإقامة الجبرية كما كانت الحكومة الإيرانية تدّعي. وفي المحادثة، قال سعد: "إنه تحدّث ذلك اليوم إلى والده، الذي أراد أن يعرف أبناؤه أنه ما يزال حياً وبخير". وتم

تسجيل الحديث بعد عشرة أيام من حدوث الزلزال.

بعـد وقـت قصير، ظهر أول دليل لمحللي الموساد على وجود نقل للسلطة في دوائر القاعدة العليا. ففي أفغانستان، اعترضت CIA رسالة كان يتم نقلها باليد من أيمن الظواهـري، نائـب بـن لادن والمفكر الاستراتيجي للقاعدة منذ زمن طويل، إلى أبو مصـعب الزرقاوي، الذي تسببت حملة التفجيرات القاسية التي أدارها في العراق إلى رصد مبلغ 25 مليون دولار مقابل رأسه من قبل حكومة الولايات المتحدة. وتم إرسال نسخة عن الرسالة إلى الموساد للدراسة. وأصابت محلليه الدهشة: ورغم استخدام اللغة العربـية المـتكلّفة، إلا أن هـناك حدّة في اللهجة التي تناولت موت مئات الشيعة في تفجيرات انتحارية أطلقها الزرقاوي. وتساءل الظواهري حول حكمة مثل هذه السياسة التـي تتبعها. ومثل هذه الأفعال ليست مقبولة لمناصرينا الشيعة، ولن تؤدي إلى تحقيق أهدافـنا. وقد اختبرت شخصياً مرارة الوحشية الأمريكية عندما لقيت عائلتي حتفها في هجوم بالقنابل في أفغانستان. ورغم ذلك أقول لك: "نحن في معركة، وأكثر من نصف تلك المعركة يتم في وسائل الإعلام. وما تقوم به هو قتل إخوتنا الشيعة، ولن يساعدنا هذا بالفوز في المعركة" (•).

أرسـل الزرقاوي ردّه بعد أيام. وفي ليلة باردة في عمّان، أشعل انتحاريوه النار فوق العاصمة الأردنية بتنفيذهم لتفجيرات ضخمة ألحقت أضراراً جسيمة بثلاثة فنادق ونـادي ليلي، والتي كانت في الموسم السياحي مليئة بالزوار الأجانب. ولكن في تلك الليلة، كان أغلبية القتلى الستة والتسعين والكثير من الجرحى عرباً، بما فيهم عدد من العائلات الشيعية التي سافرت عبر الحدود من العراق لقضاء العيد بعد رمضان.

نظر محللو الموساد إلى تلك العملية كدليل على أن الزرقاوي يقدّم عرضاً قاسياً لأعضاء القاعدة على أنه قائدهم المنتظر.

(•) مترجم عن الانكليزية.

الفصل الخامس والعشرون

مواجهة التنين

مع تلاشي ضوء نهار أحد أيام تشرين الأول سنة 2005، حطّت طائرة تابعة للقوى الجوية الإسرائيلية في مطار محاط بإجراءات أمنية مشددة قرب بكين. وتم تنظيم الرحلة خصيصاً لسفر مائير داغان، الذي كان الراكب الوحيد على متنها. ولم يكن سوى رئيس الوزراء شارون وأعضاء لجنة رؤساء أجهزة الاستخبارات يعرفون هدف رحلته الطويلة عبر آسيا.

كان لدى رئيس محطة الموساد في موسكو دليل على قيام أعضاء سابقين في القوات المسلحة الروسية بتزويد كوريا الشمالية بتقانة الصواريخ، مما يساعد الدولة المارقة على بناء صواريخ قادرة على ضرب ليس إسرائيل وحسب، وإنما كل العواصم الأوروبية. والأكثر خطورة أن نظام بيونغ يانغ كان ينقل سراً التقانة إلى إيران، التي تعزّز بشكل ضخم من قدراتها العسكرية. وفي الشهر الماضي، أرسلت شركة تشونغتشينغانغ الحكومية للسلاح في كوريا الشمالية، التي عقدت الصفقة مع الروس، طائرات إلى إيران محملة بسائل البروبيلانت الضروري لتشغيل الصواريخ. وكان كل صاروخ مصمماً لحمل 1.2 طناً، وهو أكثر من كافٍ لتحويل تل أبيب إلى أرض قاحلة. ويستطيع أحد الصواريخ، تايبو-دونغ 2، الوصولَ إلى الساحل الغربي لأمريكا عند إطلاقه من المحيط الهادئ من على متن إحدى غواصات SSN-6 السوفيتية التي باعتها موسكو لكوريا الشمالية سنة 2003.

جاء تقرير لاحقاً أثار المزيد من القلق من أحد عملاء الموساد المتخفين في سيوول، عاصمة كوريا الجنوبية. ولطالما كانت المدينة فردوساً للجواسيس من كل أنحاء العالم، والذين كانوا يترقبون دائماً لاجئين من الشمال يستطيعون تقديم معلومات داخلية عن النظام، والأهم أن يكونوا عملوا في البرامج العسكرية السرية لكوريا الشمالية. وطوال أسابيع، كان العملاء يترقبون منشقاً عمل كمدير إنتاج في المصنع رقم 395 قرب بلدة جيجن في أقصى الشمال الشرقي للبلاد. ولم يقدّم معلومات عن

أنظمــة توجــيه الصــواريخ التي ينتجها المعمل وحسب، وإنما تفاصيل عن عشرات المعــامل الأخــرى لإنتاج أسلحة الدمار الشامل أيضاً. ويعمل ما مجموعه مئتي ألف شخص في إنتاج المواد النووية، والأسلحة الكيميائية، والبيولوجية. وكشف المنشق أن أنظمــة توجــيه الصواريخ التي ينتجها المصنع 395 قادرة على حمل رؤوس حربية كيميائــية وبيولوجــية. وكانــت واجباته تقتضي شراء معدات إلكترونية مصنوعة في معمل خارج ناغازاكي. وكان رجال المبيعات يسافرون باستمرار إلى المصنع 395. وتــم إرسال أسمائهم إلى مكتب آسيا في الموساد، ومنه إلى محطته في طوكيو؛ وكان احتمال تجنيد أحد رجال المبيعات كمخبر مغرياً.

وصــف المنشــق القصة المألوفة حول اضطهاد النظام؛ اجتماعات الفجر، وقيام أفراد العائلات بالتجسس على بعضهم البعض، والموت جوعاً، وإساءة استخدام السلطة مــن قــبل أولئك المقربين من النظام. وكانت أقل حماقة تلقى عقاباً قاسياً. وتم إطلاق الرصــاص علــى رجال بعد طمسهم لصور كبيرة لقائد البلاد، والتي تزيّن كل مكان عــام. ويقتاد أفراد الشرطة النساء إلى ثكناتهم ويغتصبونهن جماعياً. وتنتحر بعضهن بعــد ذلــك. وقدّم المنشق أسماء بعض أولئك الذين تعرضوا للتعذيب، وأسماء بعض الذيــن عملوا في التعذيب، إلى جانب الأماكن التي تحدث فيها تلك الأعمال الوحشية. وشــهد في المعمل حرق امرأة في فرن كهربائي، وضرب رجل حتى الموت بمنخس فولاذي. وتم إلقاء القبض عليهما يحاولان تهريب بعض الطعام من مطبخ المعمل.

لقد تضمن تقرير عميل الموساد تفاصيل حول كيفية تعديل صاروخ تيبو-دونغ 2 مــن قبل علماء كوريا الشمالية بحيث يمكن إطلاقه من ناقلة برية. وتم تفكيك المركبة ونقلها جواً إلى طهران، وذهب معها رأس حربي مصمم لحمل سلاح بيولوجي.

تــم إرسال التفاصيل إلى واشنطن. وطارت كوندوليزا رايس، وزيرة الخارجية الأمريكــية، إلى موسكو للاحتجاج أمام الرئيس فلاديمير بوتن حول الوضع الذي نتج عــن بــيع التقانة الروسية الأولية إلى كوريا الشمالية. ولقيت هناك تجاوباً بارداً بأن علــيها الاحتجاج إلى كوريا الشمالية. وسافرت د.رايس إلى لندن لمناقشة القضية مع رئــيس الــوزراء طونــي بلير والضغط الدبلوماسي الذي يمكن أن تمارسه بريطانيا والولايات المتحدة مجتمعتين على إيران. وكان رئيس الوزراء يفضّل إحالة إيران إلى مجلــس الأمن الدولي. وأعلن جون بولتون، السفير الأمريكي لدى الأمم المتحدة، علناً بأن لديه دليلاً على أن إيران مصممة على إنتاج أسلحة نووية، والتي يمكن استخدامها لــتهديد الشــرق الأوســط وأوروبا مع وجود احتمال لتزويد الإرهابيين بالصواريخ.

وارتكز بيانه بشكل كبير على تقرير الموساد من سيوول.

تــم التأكــيد على محتويات بيانه عندما التقت د.رايس مع مدير عام MI6 جون سكارليت. وأخبرها بأن الموساد يضمن صحة الدليل، وأنه من المتوقع أن تكون كوريا الشــمالية تصــرفت بمعــرفة كاملة من الصين. وكان هناك اتفاق سريع على تفادي تصــعيد الموقف إلى أزمة، وينبغي أن تكون بكين على دراية كاملة بالمعلومات التي حصــل علــيها الموســاد، والطلب إليها استخدام نفوذها على كوريا الشمالية لتسحب دعمهــا لإيران. وكانت الدبلوماسية العلنية التي اعتمدتها كوندوليزا رايس على وشك التحول إلى سرية.

كــان هــناك مناقشات أخرى حول كيفية إيصال الطلب. وكان يمكن القيام بذلك على مستوى السفراء، ولكن لم يكن هناك ضمانة بأن يرافق ذلك الجدّية المطلوبة من قبل بكين. ولم يكن باستطاعة سواءً د.رايس أو وزير الخارجية البريطاني جاك سترو ركــوب الطائرة التالية إلى الصين لأن ذلك سيدل على شعور بالخوف تستغله بكين. ورغم ذلك كان من الضروري الإيضاح لقادتها بأنه ينبغي إيقاف كوريا الشمالية، وأن بكيــن وحدهــا تستطيع الضغط على النظام الخطير غير المستقر للكف عن مساعدة إيران. وبعد ساعات من المناقشات بين المستشارين في لندن وواشنطن، والقيام أخيراً بمكالمــة هاتفية عبر خط آمن مع أرييل شارون في تل أبيب، تقرر أن يقوم الموساد، الــذي قدّم معظم التفاصيل، باستخدام علاقاته مع جهاز الاستخبارات الصيني السري CSIS لــنقل جدّية الموقف. وقال جون بولتون: "إن لم تكن أزمة متفجرة بعد، سرعان ما ستصبح كذلك".

لــم تكن تلك المرة الأولى التي يلعب بها الموساد مثل هذا الدور. وفي الماضي، مهّــد الطريق أمام التبادل الدبلوماسي للأسرى المصريين الذين تم إلقاء القبض عليهم خــلال حرب الأيام الستة؛ ونظّم بناء الجسر الذي مكّن الدبلوماسيين الإسرائيليين من إقامة علاقات عمل مع الأردن ولبنان.

اســتخدم كــل قــادة إسرائيل السياسيين الموساد في الدبلوماسية السرية. وبالغ بعضــهم مــثل إســحاق شــامير، وبنيامين نتنياهو، وإيهود باراك في آمالهم حول ما يســتطيع الموســاد القــيام بــه؛ ويعود سبب ذلك إلى علاقاتهم الماضية مع عمليات الاستخبارات. وفي حالة أرييل شارون، كان الموساد يتعامل مع قائد سياسي يمتلك كلاً مــن الحساســية والخــبرة للتعامل مع الجهاز. وفي أكثر من مناسبة، طلب من مائير داغــان استخدام قناته الخلفية مع CIA لإثارة قضية حساسة سياسياً واختبار ردة الفعل

فـــي واشـــنطن قبل أن يطرحها شارون رسمياً مع البيت الأبيض. وكان داغان أخبر بورتر غوس بأن إسرائيل سوف تستمر في مهاجمة حماس فيما ستحاول التفاوض مع السـلطة الفلسـطينية. وكـان شـارون يفهـم أيضاً بأنه في عالم التقانة العالية لجمع المعلومـات الاستخباراتية يبقى العامل البشري حاسماً عندما يتعلق الأمر بالدبلوماسية السرية. وكانت شخصية مائير داغان مناسبة تماماً للدور وتتكامل مع شخصية شارون الحـيوية التي منحته اهتماماً كبيراً بالجواسيس ونشاطاتهم. وبالنسبة لرئيس الوزراء، كان يهتم طبيعياً باستخدام مائير داغان كمبعوثه الدبلوماسي السري.

أخـبر مـير عميـت مرة المؤلف: "تعتمد طريقتنا الدبلوماسية على علاقاتنا مع أجهـزة الاسـتخبارات الأخـرى. وسنقوم بإخبار قادتها بما يرغب مسؤولو السياسية الخارجية لدينا برؤيته يحدث. ونعرف أن رجال الاستخبارات يمتلكون نفوذاً قوياً عادةً علـى حكوماتهم أو أنظمتهم التي يعملون لها. وفي أغلب الأحيان، تكون هذه الطريقة ناجعـة. ويحصل الدبلوماسيون على الفضل العلني. وينتابنا الرضا الخاص بأننا قمنا بعملنا بشكل جيد.

كـان دور الموسـاد في الجانب المظلم من الدبلوماسية شيئاً طوّره مائير داغان خلال السنوات الثلاث التي قضاها في منصبه. وكان في حاسبه الخاص أسماء، وأرقام الهواتـف المباشرة، وعناوين البريد الإلكتروني المشفّرة لرؤساء أجهزة الاستخبارات فـيما يـزيد عن مئة بلد. وتتضمن علاقاته أيضاً دبلوماسيين، ورجال أعمال، وأولئك الذين يعملون قريباً من حافة القانون.

كانت هذه ثاني زيارات داغان إلى الصين. وقبل ثمانية عشر شهراً، كان عضواً فـي وفـد تضـمن أيضاً الجنرال أموس يارون، مدير عام وزارة الدفاع الإسرائيلية، وفـريقاً مـن قسم مبيعات الأسلحة في الوزارة. وكانوا قد طوروا صلات درّت على إسـرائيل مـا يصـل إلـى 4 مليارات دولار أمريكي من مبيعات السلاح والمعدّات العسـكرية. وكانـت إسرائيل تلقّت معظمها من الولايات المتحدة، وعندما اعترضت واشنطن أخيراً على قيام الصناعات الجوية الإسرائيلية ببيع أنظمة إنذار مبكر أواكس، دفعـت إسـرائيل بعـد مماطلة مبلغ 350 مليون دولار كتعويض عن إلغاء الصفقة. وتجمّدت العلاقات الدبلوماسية بين بكين وتل أبيب التي تعود إلى سنة 1992.

فـي آسـيا هووس في وسط تل أبيب، كان مدراء الصناعات الجوية الإسرائيلية غاضبين بعد سنوات قضوها في جعل صناعة السلاح الإسرائيلية تحتل قائمة صادرات البلاد. وكانوا قد عقدوا صفقات ليس مع الصين وحسب، وإنما مع جنوب أفريقيا وبلاد

أمـــريكا اللاتينـــية. وأصبحت الصناعات الجوية موطناً لمدراء الموساد السابقين زفي زامر، وإسحاق هوفي، وداني ياتوم. وكان مكتب أموس مانور، أول مدير للشين بيت، الـــذي يـــوازي مكتـــب التحقيقات الاتحادي، ضمن مباني الصناعات الجوية. وكانت الدعابـــة بينهم تقول: "السؤال الكبير فيما إذا كانت الدولة تمتلك الصناعات الجوية، أو أن الصـــناعات الجويـــة تمـــتلك دولة إسرائيل". وتعتبر الشركة الوحيدة في إسرائيل المعفية تماماً من الضرائب على دخلها.

كـــان داغان يعرف أنه عندما يحين الوقت للتنحي عن منصبه كرئيس للموساد، ســـتقدّم له الشـــركة أيضـــاً مكتباً مريحاً للعمل معها. وستتم مراقبة طريقة توليه هذه المهمة إلى بكين بحرص شديد.

خـــلال رحلات البيع السابقة إلى بكين، جلبت الوفود الإسرائيلية معها عدداً من الأســـلحة الجديـــدة المغرية، والتي تم تطوير معظمها من أسلحة أمريكية. وكان بينها النســـخة الأحدث من بروميس، البرنامج الذي يستطيع تقفّي حركات عدد غير محدود نظـــرياً مـــن الأشـــخاص في أي مكان في العالم (الفصل العاشر، الارتباط الخطير). وكانت الصين من بين الدول الـــ142 التي اشترت البرنامج الذي يحتوي على مصيدة وضـــعها مـــبرمجون إسرائيليون، والتي يستطيع من خلالها الموساد مراقبة كل أولئك الذين يستخدمون البرنامج. وكانت النسخة الجديدة تستطيع القيام بذلك بشكل أفضل.

فـــي تلـــك الزيارة الأولى، عرف داغان أن تلك التقانة أصبحت شيئاً لا تستطيع الصـــين الاكتفاء منه؛ وأنها تنفق عليها أكثر من الطعام. وكان ذلك جلياً أكثر ما يكون في المراقبة. اللاقطات الصوتية الحساسة لأقل ضجيج أو حركة، والأشعة الخفية التي تفعّـــل آلات تصوير مخفية وأجهزة إنذار صامتة، وأجهزة التنصت وكشفها: كان لدى إســـرائيل الأفضـــل، ووجدت سوقاً جاهزة في الصين. وتضمنت بعض المعدّات التي أحضـــرها فريق المبيعات أدوات طوّرها الموساد، مثل أجهزة التعرف على الصوت التـــي تســـتطيع مراقـــبة التوتر في حديث شخص ما على الهاتف. وكانت الصناعات الجويـــة الإسرائيلية طوّرت راداراً جديداً يصدر نبضات طاقة إلكترومغناطيسية ترتد عـــن طائـــرات العدو وتميّز شكلها وحجمها. ووجدت شركات إسرائيلية أخرى سوقاً جاهزة لمعدّات المراقبة التي أصبحت جزءاً مكملاً من البنية التحتية الصينية؛ شاشات مراقـــبة إلكترونية تحلل كل دقيقة من يوم العمل، وتتحقق من معدلات الأداء، وتسجّل حـــتى فترات الدخول إلى الحمام والنشاطات الشخصية. وافترض مائير داغان أنه لا يوجد مبنى في بكين يبدو قادراً على العمل دون وجود حصته من الرقاقات الإلكترونية

الإسرائيلية التي ترسل المعلومات باستمرار إلى الحواسب التي تحتفظ بها الحكومة لمتابعة مواطنيها من المهد إلى اللحد.

في الولائم التي كانت الوفود تحضرها، كان الخطيب تلو الآخر يتحدث عن القرن الآسيوي، وأنه بحلول سنة 2005، سيكون من بين ثلاث عشرة مدينة يزيد عدد سكانها عن العشرة ملايين نسمة، سبعة حول المحيط الهادئ. وتتوقع الصين نمواً اقتصادياً يبلغ 8% سنوياً، وسيسمح لها ذلك بإنشاء أكبر مدينة تكنولوجية في العالم؛ وستتجاوز احتياطياتها من النقد الأجنبي سنة 2010 احتياطيات اليابان؛ وبحلول تلك السنة، ستكون واحدة من كل عشر شركات في حوض الهادئ تحت سيطرة المستثمرين الصينيين؛ وبحلول سنة 2015، ستخضع بلدان مثل تايلاند والفلبين لإدارة الصين الاقتصادية. وتحمّس أحد الخطباء ليقول أنه يمكن تحقيق كل ذلك إذا استطاعت الصين تصدير التقانة التي تشتريها من إسرائيل. ولم تكن السخرية غائبة عن الضيوف.

في إحدى الولائم، تعرف مائير داغان إلى كياو شي الذي كان مرة الرئيس الأعلى للاستخبارات الصينية. ويبلغ طول الرجل ما يزيد عن ستة أقدام، وهو شيء غير معتاد بالنسبة لصيني. وكانت هناك شائعات بأن تقوّس ظهر شي يعود إلى مرض أثناء الطفولة أبقاه طريح الفراش لفترات طويلة تعلم خلال اللغة الصينية المكتوبة. وعند بلوغه سن السادسة، أتقن جذورها، وإعرابها، ونظامها الصوتي والإنشاء. وكان انضباطه في التعليم تدريباً جيداً لمستقبله كرئيس للاستخبارات الصينية، وأصبح الرجل الذي قضى أطول فترة على رأس جهاز استخبارات في العالم. وفي مقابلتهما القصيرة، اكتشف مائير داغان أن كياو شي مهذب، ولكنه غير ودي، وأنه مستعد لرفع كأسه من الشراب الفرنسي لتحية الوفد الإسرائيلي وتقديم السيكار الكوبي لهم.

الآن، بعد مرور ثمانية عشر شهراً من ذلك اليوم في تشرين الأول سنة 2005، جاء داغان كرسول يحمل طلباً إلى كياو بأن بكين ينبغي أن تتدخل لإيقاف كوريا الشمالية عن تزويد إيران بالسلاح، وهو ما قد يؤدي ليس إلى نشوب حرب إقليمية وحسب وإنما نزالاً عالمياً أيضاً.

انعقد اجتماعهما بموجب قاعدة الإنكار الكامل المتعارف عليها. ولن يكون هناك سجل يتم الاحتفاظ به بتسجيلات عن المكالمات الهاتفية السرية التي مهدت للاجتماع أو الهدف منه. وتم التكتم على مخطط سير الطائرة وشخصيات الركاب. ولم يكن يعرف بهدف الاجتماع سوى بورتر غوس وجون سكارليت فقط. ولم يتم إبلاغ

مسـؤولين بارزيـن في وزارة الخارجية في واشنطن أو لندن عمداً بحيث يستطيعون إنكار أي معرفة لهم عن المهمة بصدق.

أطلّع داغان على ملف الموساد عن كياو شي، والسيطرة المطلقة التي كان يتمتع بهـا علـى نشـاطات أجهـزة الاستخبارات الصينية الرئيسية الخمس: جهاز التنسيق الدولـي، المسـؤول عن النشاطات السرية الموجهة خصوصاً ضد الولايات المتحدة؛ وجهـاز الاسـتخبارات العسكري، الذي يستهدف القدرات العسكرية للولايات المتحدة وبريطانـيا العظمى ودول أخرى أعضاء في الاتحاد الأوروبي؛ ووزارة أمن الدولة، التـي تـتولى كل أنشطة مكافحة التجسس ضمن الصين؛ وفرع التقانة الخاص ضمن وزارة أمـن الدولة، الذي ساعد على تنفيذ السرقة من لوس ألاموس والذي يصل إليه أيضـاً كـل الإشارات من السفارات الصينية حول العالم؛ وNCNA وكالة الأنباء التي تنشـر تقاريراً حول الشؤون الصينية، والتي يستخدمها جواسيس CSIS كغطاء لهم في الخارج.

تمتلك CSIS مبانيها الخاصة في بكين. ويقع مركز مكافحة التجسس في مبنى من أربـع طبقات على شارع كيانانمين الغربي؛ وتعمل الاستخبارات الخارجية ضمن بناء حديـث قـرب محطة السكك الحديدية الرئيسية في المدينة. لكن يتم تنسيق النشاطات الرئيسـية لعـدّة مئات من الرجال والنساء الذين تستخدمهم CSIS من داخل مبنى في زهونغناناهي، حيث تقيم وتعمل القيادة الصينية. ويقع إلى جانب مكتب رئيس الوزراء بـناء مـن طابق وحيد مبني بشكل مربع، مع سقف تقليدي من الآجر الأحمر ومنطقة مرصـوفة تحتوي على مهبط مروحية ومرآب للسيارات. وتكثر أجهزة الهوائي على سطح المبنى. وكشفت صورة لأحد الأقمار الصنعية الأمريكية أن للمبنى ساحة داخلية يوجد فيها بركة مزخرفة وحديقة مصغّرة. وكان مكتب كياو شي الخاص الوحيد الذي يمكن الخروج منه مباشرة إلى الساحة الداخلية.

مـن هـناك، كان يدير شبكات الاستخبارات التي تمتد عبر المحيط الهادئ إلى الولايـات المـتحدة وأوروبا، وإلى الشرق الأوسط، وآسيا، واستراليا، واليابان. وكان تحت قيادته جيش من الجواسيس والمخبرين وميزانية منقطعة النظير لتحريكهم.

اعتمدت مسيرته المهنية كلها على انتقالات بطيئة بارعة كان يتسلق بها المراتب من وزارة إلى أخرى. وتسبب إتقانه للغات الأجنبية – الفرنسية، واليابانية والكورية – بـنقله إلى وزارة الخارجية. وانتقل كدبلوماسي بشكل كبير قبل أن يتم استدعاؤه لتولي منصب بارز في الوزارة. وفي سنة 1980، عيّنه دينغ كزياوبينغ كرئيس لأمن الدولة.

ورغم موت دينغ، إلا أن قوة كياو استمرت: يعرف كل الأسرار، والهفوات، والعيوب الشخصية الأخرى لرجال زهونغناناهي الكبار، وآخر الباقين من المسيرة الطويلة لسنة 1934 عندما قاموا برحلة لا تُنسى استغرقت سنتين قطعوا خلالها ستة آلاف ميل عبر سلاســل جبلية وأقاليم أكبر من معظم الدول الأوروبية؛ ولم تكن الرحلة مجرد تراجع عســكري اســتراتيجي عن الحقيقة المرعبة بقيام الأخ بقتل أخيه، ولكن هجرة رئيسية قادت أخيراً إلى الشعور بالانتماء إلى الصين الجديدة.

كانــت واحــدة من أولى القرارات التي اتخذها ماو تسي-تونغ بعد إعلانه ولادة الدولــة الشــيوعية في تشرين الأول سنة 1949 تشييد مبنى في فناء المدينة المحرّمة التي حكم منها الأباطرة سبعمئة سنة. وساعد كياو شي في تحويلها إلى واحدة من أكثر المناطق تحصيناً على وجه الأرض. وكان هناك نقاط حراسة في أماكن غير متوقعة: شــقوق فــي جــذوع الأشــجار لا تتســع سوى لرجل فقط، أو مخابئ صغيرة بين الشجيرات. وتم زرع حسّاسات، وأفخاخ وآلات تصوير حساسة لحرارة جسم الإنسان. ولــم يكــن مســموحاً لأي طائرة بالتحليق فوق تلك المنطقة، وكانت المروحيات التي تحمــل الــرجال الكبار من وإلى قصورهم الصيفية في التلال إلى الغرب من المدينة تجــيء وتــروح. وعاشــوا في المبنى على طول الساحل الشرقي لبحيرة في مركز المــنطقة. وكانت الكثير من المنازل قصوراً، وتحتوي غالباً على ثلاثين غرفة نوم أو أكــثر، وصــالونات رائعــة، وأحواض سباحة داخلية. وكان كل قصر مفروشاً بأثاث مــأخوذ مــن المديــنة المحرّمة، ويضم حاشية من الخدم والحراس الذين يعيشون في الجانــب الشمالي من البحيرة في عدّة ثكنات محجوبة بالنباتات الخضراء. وكان هناك مــا يزيد عن مئة نوع مختلف من الأشجار والنباتات المزروعة حول المباني كذكرى عــن أولــئك الرجال الكبار الذين شاركوا في المسيرة الطويلة. وكانت البحيرة نفسها مليــئة بسمك الشبوط. لقد أمر ماو بوضع مئة ألف فيها؛ ولكن العدد تزايد عبر السنين إلــى بضــعة ملاييــن كمــا يقول البعض. والشيء المؤكد أن المياه كانت قاتمة من مخلفاتها، وأنه تم توظيف فريق من العاملين بالبستنة لإزالتها باستمرار. وقال الأجانب القلائــل الذيــن سُــمح لهم بدخول زهونغناناهي بأن رائحة غير مستحبة تصدر عن البحيرة.

ســيبقى غير معروف فيما إذا اجتمع مائير داغان مع كياو شي في ذلك المجمّع، كمــا هو الحال بالنسبة لما تم الاتفاق عليه بينهما. ولكن بعد أربع وعشرين ساعة من هبوط طائرته، حلّقت مجدداً عائدة إلى إسرائيل.

بعـد عـدّة أيـام، كـان الموساد بين عدد من أجهزة الاستخبارات الغربية التي اكتشفت أن كوريا الشمالية تستخدم فيروس أنفلونزا الطيور في صناعة الأسلحة. وزاد ذلـك من القلق الذي كان يجتاح العالم آنذاك خوفاً من تكرار تفشي وباء أنفلونزا سنة 1918 الـذي قتل خمسين مليون شخص. ولم يكن هناك عندها، كما هو الحال الآن، لقـاح يكفـي لكـل سكان الكوكب. وقالت تقارير لأجهزة الاستخبارات أنه لن يكون بالإمكـان اكتشاف الفيروس عند عبوره الحدود، مما يجعله سلاحاً مثالياً للإرهابيين. وفـي واشـنطن، وزّعـت إدارة بوش تعليمات مصنّفة سرية للغاية معلومات خاصة حسّاسـة إلـى أعضاء مجلسي النواب والشيوخ، كشف فيها مدير CIA بورتر غوس ومدير الاستخبارات القومية جون نغروبونتي تفاصيل عن التهديد الإرهابي.

نشأت المسألة في آسيا، وشرح مدراء الاستخبارات بأنه سيكون سهلاً نسبياً على عمـلاء كوريـا الشـمالية الحصول على طيور مصابة بفيروس H_1N_1 لاستعماله في صـناعة الأسلحة. وقال عالم الأحياء الدقيقة د.كين علي-بيك، الذي انشق عن روسيا وأصبح آنذاك مستشاراً بارزاً لإدارة بوش حول الأسلحة البيولوجية للمؤلف: "لا يمكن المغالاة في تأكيد خطر استخدام فيروس أنفلونزا الطيور في صناعة الأسلحة. وسيكون أسـوأ سـلاح في يد الإرهابيين. وسيكون مستحيلاً متابعة أنفلونزا الطيور من موجة انتشرت طبيعياً عن طريق طيور مصابة. لكن الفيروس المنتج في المختبرات سيكون أكثر فتكاً، ويمكن توجيهه نحو أهداف معينة".

قـال بيتر أوبنشو، أستاذ الفيروسات في جامعة إمبريال في لندن: "سيكون أكثر تـرويعاً من الجدري المهندس وراثياً. وسيكون سهلاً احتواء ذلك المرض لوجود لقاح لـه. وقـال هـيو بينيغتون، أستاذ الأحياء الدقيقة في جامعة أبردين في اسكوتلندا، أن علمـاء الأحـياء الدقيقة في كوريا الشمالية يستطيعون مزج فيروس أنفلونزا الطيور بفيروسات أنفلونزا أخرى، مما يجعله أسهل انتشاراً من الاتصال الشخصي".

هـل كانـت التقارير حول استخدام كوريا الشمالية لأنفلونزا الطيور في صناعة الأسـلحة إشارة على أن النظام رفض طلب الصين لإيقاف تزويد إيران بالسلاح؟ هل اسـتمع كـياو شـي بأدب إلى داغان ولم يفعل شيئاً؟ أو أنه وافق الرجال الكبار في زهونغناهي أنه ليس من مصلحتهم الضغط على جارتهم الغير مستقرة؟

الشـيء المؤكـد أن ملء رأس حربي بالفيروس المعدّل وإطلاقه نحو تل أبيب سـيكون له عواقب كارثية. ولكن لم يكن احتمال استخدام فيروس أنفلونزا الطيور في صناعة سلاح مدمّر يهدد إسرائيل والعالم خارج حدودها فقط، وإنما علماء الذرة الستة

الذين عملوا في الصناعة النووية الباكستانية وغادروا البلاد.

كـان الموسـاد اكتشف نشاطاتهم قبل أن يغادروا باكستان بعدما عملوا مع عبد القديـر خـان، أب القنبلة الإسلامية وعرّاب التوسع النووي. وتتضمن خبرتهم التقنية المعـارف المعقّدة لاستخدام أجهزة الطرد المركزي لإنتاج اليورانيوم المخصّب، الذي يمهّد لإنتاج القنبلة النووية.

تطـوّرت مهاراتهم على أيدي خبراء جنوب أفريقيا الذي استخدمهم سراً برنامج باكسـتان النووي في مختبرات أبحاث خان. وتم تفكيك برنامج جنوب أفريقيا الخاص بالفضـاء بعدمـا هدّدت أمريكا بفرض عقوبات تجارية عليها سنة 1993. وبين ليلة وضـحاها، ألغـى الرئيس نلسون مانديلا حلمه بوضع شخص في الفضاء الخارجي. وإلى جانب إنفاق مليارات الراندات، وجد مئات الرجال والنساء الماهرين جداً أنفسهم دون عمل.

لكن البارعين منهم لم ينتظروا طويلاً قبل أن يتلقوا عروضاً جديدة. وجاء أولها من ديمونا، موقع إسرائيل النووي. وازدهرت علاقته ببرنامج جنوب أفريقيا في الوقت الـذي اسـتفاد فـيه ديمونـا من المعرفة التي قدمتها جنوب أفريقيا لصنع الصواريخ المتوسطة المدى، وكان أرنستون نسخة طبق الأصل عن صاروخ أريحا2 الإسرائيلي. وانتهى عقد من التعاون الوثيق أخيراً سنة 1992، وبسبب ضغط من الولايات المتحدة أيضاً. ولكن العلاقات بين العلماء استمرت.

جـاءت عـروض مغـرية لأولئك الذين عملوا في كيمبتون بارك، موقع خارج جوهانسبورغ كان يطوّر أنظمة تصوير عالية الدقة للأقمار الصنعية؛ وفي سمورست ويسـت علـى الرأس الشرقي، حيث كان يتم تصميم محركات الصواريخ؛ وفي موقع هندسـة الأنظمة في جامعة ستيلنبوش قرب كيب تاو. ولم يكونوا بحاجة للعيش في بلد مـع أعلى معدل للقتل في العالم ومصاب بفضائح فساد. وسوف يكسبون في إسرائيل رواتب بالنقد الأجنبي الذي يختارونه والذي يفوق كثيراً ما كانوا يحصلون عليه سابقاً. ويـدأوا فـوراً ببـيع مـنازلهم قرب مواقع اختبار الصواريخ في كوازولاناتال، وفي المحمـية الطبيعـية السابقة قرب كيب تاون، وسافروا شمالاً على متن رحلات شركة العـال المنتظمة إلى تل أبيب، وانضموا إلى آخرين من معامل إنتاج الرؤوس الحربية الـنووية على الهضاب خلف عاصمة بريتوريا. وتم تغطية كل نفقاتهم، وحصلوا على دفعـات مقدمـة مجـزية فـي حساباتهم المصرفية، واستقروا في حياتهم الجديدة في مسـتوطنات تحيطها أشجار النخيل تم إنشاؤها لهم في صحراء النقب. ووجدوا أنفسهم

يعملون إلى جانب عدد من الروس الذين تم إغراؤهم بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

كـــان المجندون من باكستان مشغولين أيضاً، ويعملون بسرية أكبر مما يعمل به الإســـرائيليون، وعرضوا على علماء آخرين ساخطين رواتب أعلى بكثير من ديمونا. وتلقّـــوا وعوداً بأن يكون أسلوب حياتهم يضاهي ما تمتع به هؤلاء العلماء خلال أيام الفصـــل العنصـــري المجيدة: سيكون الخدم الذين سرحوهم بعد انهيار برنامج جنوب أفريقـــيا الفضـــائي متوفريـــن بكثرة في باكستان، إلى جانب التمتع بغروب الشمس، وطقـــوس تـــناول شـــراب الفواكه عند الغروب الذي كان جزءاً مكملاً من حياتهم في جـــنوب أفريقـــيا. وسوف يعيشون في منازل أفضل حتى من تلك الموجودة في كيب تـــاون؛ وسيتلقى أطفالهم التعليم في مدارس خاصة يعمل بها خريجو جامعات إنكلترا وفرنســـا والولايـــات المـــتحدة، وسيتم إرسال أفضل الأطباء إلى مستوصفاتهم الطبية الخاصة. وإلى جانب العطلات الكريمة، ستكون مداخيلهم معفاة من الضرائب، وسيتم تحويلهـــا إلـــى المصرف الذي يختارونه في أي مكان من العالم. وتم قبول العروض بحماس، وكانت الرحلات من جوهانسبورغ إلى إسلام أباد مليئة بالعلماء وعائلاتهم.

عـــبر الســـنين، ســـاعدوا في تطوير مهارات ستة علماء ذرة باكستانيين والذين خـــرجوا خلســـة من البلاد بعدما ثبت أنهم متورطين فيما أصبح الموساد وMI6 وCIA يعرفونه بأنه هيروشيما أمريكا. وكانت النية تتجه نحو تهريب أداة نووية إلى الولايات المـــتحدة يـــتم تفجيرها في واشنطن. وسيتم نقل القنبلة في إحدى سفن الحاويات التي تصـــل إلـــى موانـــئ الساحل الأمريكي الشرقي كل أسبوع. ولم تكن جميعها تخضع لتفتـــيش كـــامل. وسيحصـــل عمـــلاء نـــائمون على القنبلة الموجودة داخل الحاوية، ويأخذونهـــا إلى واشنطن لتفجيرها هناك، وسينتج عن ذلك أعداد من القتلى والجرحى أكبر مما سببته هجمات 11 أيلول.

ابـــتكر أسامة بن لادن تلك العملية مع خطوات دقيقة لإحداث نفس الأثر المدمّر لهجمـــات 11 أيلـــول. ولم تكن النية تتجه نحو الترويع والترهيب نتيجة عدد الضحايا الضخم، ولكن في نفس الوقت تقديم مثال عن تحقيق النصر عن طريق العنف. وكانت العملية مصممة سياسياً لإطلاق الدعوة للجهاد العالمي. وسيتم القضاء على قادة الدول الإسلامية الذين يعارضون تلك العملية في سبيل ما كان بن لادن يحب دعوته بالخلافة الجديـــدة التـــي يحلـــم بها. وتخيّل كيف أنه بعد جيل بالكاد من حصول معظم الدول الإسلامية على استقلالها، معظمها عن بريطانيا، ستدخل في حقبة دينية جديدة. وكانت الحقبة الأولى في إيران حيث أثارت ثورة الخميني سنة 1979 الحشود المحرومة.

انبثقــت تفاصــيل عن خطة تفجير قنبلة نووية في أمريكا عند إلقاء القبض على خــالد شيخ محمد، رئيس عمليات بن لادن العسكرية في أحد منازل القاعدة الآمنة في كراتشــي فــي 2 آذار سنة 2003. وقام عملاء الاستخبارات الباكستانية بإلقاء القبض علــى الرجل، مما سمح للرئيس مشرف بتقديم إثبات آخر لواشنطن بأنه يبقى مناصراً وفــياً للحــرب علــى الإرهاب. وبكل الأحوال، لم تكن تلك الحقيقة كاملة. ورغم أن باكستان احتجزت فعلاً العشرات من أعضاء القاعدة، إلا أنها لا تزال ترعى جماعات إرهابية في إقليم كشمير المتنازع عليه، وتمولها، وتدربها، وتزوّدها بالسلاح في حربها ضــد الهــند. واســتمرت إدارة بوش باعتبار باكستان حليفها القوي في الحرب على الإرهــاب التــي يــروّج لها بن لادن. وأخبر مسؤول في وزارة الخارجية الأمريكية المؤلف: "كشمير قضية جانبية".

أثــار اعــتقال محمد المزيد من الامتنان العلني من واشنطن. ولم يكن هناك أي إشارة إلى CIA والقوات الخاصة الأمريكية التي رافقت الأسير العالي القيمة إلى مبنى الاســتجواب التابع لها داخل القاعدة الأمريكية في باغرام، أفغانستان. وأخذوا معهم ما يــزيد عــن الألــف وثــيقة ومئة قرص صلب من شقة محمد الآمنة في أحد شوارع كراتشــي الخلفــية؛ والــذي تعــرض للخيانة مقابل ألف دولار. وتم وصف الوثائق والأقراص لاحقاً بأنها منجم ذهب عملياتي، وشكّلت الأساس لاستجواب محمد.

كــان خــالد شــيخ محمد يجلس مقيداً ومغطى الرأس في إحدى عربات الشحن الموجــودة داخل المنطقة، ويتعرض للحرمان من النوم، ولفترات طويلة من الضجيج الأبــيض المضــخم، ودون تكيــيف للهواء في ذروة حرارة اليوم أو تدفئة أثناء البرد القارص في الليل، ويتم حقنه بعقاقير لإضعاف مقاومته ويترافق ذلك مع عنف جسدي وتهديــدات بالإعدام السريع – تقنيات كشفتها لاحقاً منظمة العفو الدولية – وبدأ يكشف تفاصــيل عن هيروشيما أمريكا. وكانت الخطة تقضي بتفجير سبع قنابل نووية تكتيكية في سبع مدن بالتزامن مع بعضها البعض. وكانت تلك المدن هي نيويورك، وواشنطن، وســان فرانسيســكو، ولوس أنجلوس، وسياتل، وشيكاغو، وبوسطن. وكانت كل قنبلة قــادرة على إحداث تفجير بقوة عشرة كيلوطن. وكان التخطيط للتفجيرات المتعددة لا يــزال فــي مراحله المبكرة، وسوف تتطلب العملية أخيراً تهريب القنابل النووية إلى الولايــات المــتحدة في حاويات شحن محمولة بحراً. وتصل كل سنة حوالى 18 ألف ســفينة شــحن إلــى موانئ الولايات المتحدة؛ ولا يتم تفتيش سوى جزء يسير منها. وسيتطلب فحصها جميعها قوة عاملة تفوق ما هو متوفر، وسيكون لها عواقب خطيرة

على التجارة الأمريكية.

في تلك المرحلة في أيار سنة 2003، أصبح الموساد مشتركاً في العملية.

تـم تمريـر مجموعـة من الوثائق المكتشفة ونسخة عن الاستجواب الأول إلى الموسـاد كجـزء مـن الـتعاون الوثيق الذي أسس له بورتر غوس ومائير داغان. وبالمقابل، زوّد الموساد CIA بخبر صاعق. كان عبد القدير خان التقى في نيسان سنة 2003 بين لادن. وسافر العالم بالطائرة إلى بيشاور في الإقليم الشمالي الغربي، وانتقل بالسـيارة فـي الجبال الوعرة وعبر الحدود الباكستانية إلى أرض أفغانستان الشرقية المعزولة والقاسية. وذهب مع خان أحد علماء الذرة الستة الذين كان الموساد يتعقّبهم. وكـان اسـمه مراد قاسم، وكان الخبير البارز في تعقيدات تقانة الطرد المركزي في مختبرات خان.

بعد شهر تقريباً، وفي منتصف أيار، كان قاسم بين ضيوف خان في منزله الذي يقضـي بـه العطـلات والمطل على بحيرة خارج روالبندي في الجزء الشمالي من البنجاب. وكانت المنطقة فردوساً طبيعياً.

أقـام فـريق ياهولومين من الموساد، المتخفي بهيئة صيادي سمك، شبكة رقابة قرب المنزل. وتم تمويه ميكروفونات الصوت لتبدو مثل عصي الصيد.

مرّت خمس سنوات منذ استطاع خان تفجير أول قنبلة نووية باكستانية في موقع اختبار تحت صحراء بالوشستان. وفي السنوات اللاحقة، استمر ببيع التقانة النووية إلى إيران وكوريا الشمالية. وإضافة إلى مراد قاسم، حدّد الموساد خمسة من زملائه الذين سـافروا أيضاً إلى هناك وهم: محمد زبير، وبشير الدين محمد، وسعيد أختر، وامتياز بيك، ووحيد ناصر. وكانوا جميعاً مدراء بارزين في مختبرات خان. وفي عطلة نهاية الأسبوع تلك من أيار، كانوا بين ضيوف خان في منزله قرب البحيرة.

مـثل مضيفهم، كان ضيوف خان من مناصري القاعدة. وإضافة إلى ذلك، عقد بشير الدين محمد اجتماعاً مع بن لادن وقائد طالبان الملا عمر في قندهار، أفغانستان في وقت مبكر من السنة. وفي طريق عودته إلى باكستان، احتجزته القوات الأمريكية فـي الـبلدة لوقـت قصير. وادّعى محمد أن لديه حصانة دبلوماسية، وأصرّ على أنه موجـود فـي الـبلد في زيارة زراعية. ولدى عرضه لوثائق تثبت صحة ادعائه، تم السـماح له بـالعودة إلـى إسـلام أبـاد. وبعد السماح للـCIA بمقابلته، كان ضباط الاسـتخبارات الباكسـتانية مذهولين عندما أقرّ محمد أنه التقى فعلاً الإرهابيين الذين طلـبوا مسـاعدته في صنع قنبلة شعاعية. وكان سيتم بناؤها من مواد نووية موصولة

بمــواد شديدة الانفجار، والتي حصل عليها بن لادن من موقع نووي للاتحاد السوفيتي السـابق فــي أوزبكسـتان. وأصــرّ محمد على أنه رفض الطلب. وأخبرت الحكومة الباكسـتانية واشنطن أن محمد فوق كل الشبهات. ولم يأتِ أحد على ذكر اجتماعه مع بن لادن والملا عمر.

ســمع فريق تنصت الموساد محمد يخبر خان وضيوفه بأن علاقاته الخاصة مع الاستخبارات الباكستانية حذّرته بأن CIA تعرف عن دورهم الخاص بهيروشيما أمريكا بعدما ظهرت أسماؤهم في الوثائق التي تم اكتشافها عند القبض على خالد شيخ محمد. وتــم تأكيد شكوك الموساد التي تعود لوقت طويل: لم يذهب محمد إلى قندهار ليبحث مــع بن لادن تصنيع قنبلة قذرة بسيطة نسبياً، وإنما ليعرض خدماته والعلماء الخمسة الآخرين حول طاولة خان.

في اليوم التالي، وعندما كان مائير داغان يرسل إلى بورتر غوس التفاصيل التي سجّلها فريق الياهولومين، غادر كل العلماء الستة باكستان. وأنكر خان بشدّة لاحقاً أي معرفة حول تورط موظفيه في مكيدة لإطلاق هجمات نووية ضد أمريكا.

ظهرت أسماؤهم على قوائم الاعتقال لدى عدد من أجهزة الاستخبارات. لكن كما هــو حــال آخريــن لديهم ارتباطات إرهابية، اختفى العلماء مثل لصوص في الليل. وستمر سنة قبل أن يعثر الموساد على أثر لهم.

بعــد ســنة تقريــباً من اعتراف عبد القدير خان المتلفز بأنه يسوّق مواد نووية سوداء، حطّت طائرة تجارية من قبرص في مطار تل أبيب. وكان بين ركابها موشيه فنستين، وكان الاسم مستعاراً. وكان كاستا للموساد وخبيره في التقانة النووية.

فــي تشــرين الثاني سنة 2005، كانت العملية التي يرعاها الموساد تصل إلى ذروتهــا في مدينة باتو الاستوائية في اندونيسيا. ومرّ شهر منذ عرف كاستا في دلهي، العاصــمة الهـندية، أن أزاري حسين، خبير صنع القنابل في القاعدة، والذي اعتبره الموســاد العقل المدبر وراء هجمات تموز في لندن، كان موجوداً في دلهي قبل وقت قصــير من انفجار قنابل في مقاطعة بهارجاني. وحمل الهجوم بصمات جماعة القاعدة في كشمير عسكر طيبة. ولقي ما يزيد عن الستين شخصاً مصرعهم، وتعرض حوالى المئة لجروح خطيرة. وقبلت الاستخبارات الهندية عرض الموساد بالمساعدة في تعقّب آثار حسين بسرعة.

لــم يؤدِ البحث طوال ثلاثة أسابيع إلى أي نتيجة حول الإرهابيين المطلوبين. ثم أخــبر سيانيم في جافا الشرقية، وهي جزء من الأرخبيل الاندونيسي، الكاستا المسؤول

عــنه أن عدداً من الرجال استأجروا منزلاً في ضاحية باتو، وأن اثنين منهما يشبهان الصــور الصحفية للإرهابيين المشتبه بأنهم وراء هجمات الشهر الماضي على مطعم في بالي حيث لقي ثلاثة وعشرون شخصاً حتفهم. ووصل الكاستا في غضون ساعات إلى باتو. وكانت صور الصحف لكل من أزاري حسين وقائد مجموعة عسكرية أخرى هــي الجماعة الإسلامية ويدعى نور الدين محمد توب، وهو قاتل قاسي على هيئة أبو مصــعب الزرقاوي في العراق. وأرسل السيانيم تقريراً بأن توب غادر باتو في الليلة الماضية.

بالعمل ضمن قواعد محددة سلفاً تضمن عدم ظهور الموساد، أخبر الموساد مدير محطــته في السفارة الإسرائيلية في دلهي، الذي أخبر بدوره وزارة الخارجية الهندية. وأرســلت الوزارة رسالة إلى نظيرتها في جاكرتها، العاصمة الاندونيسية. وبعد ساعة مــن الرســالة الأولــى، كان هناك عملية واسعة النطاق في باتو بقيادة وحدة مكافحة الإرهاب الاندونيسية. وتمركز قناصون على السطوح القريبة، وبدأت معركة شرسة. ومــن داخل المنزل، اندفعت القنابل اليدوية ونيران الرشاشات عبر الشارع فيما كانت الوحدة تجتاح المنزل. وحالما دخل أعضاؤها إليه، وضع حسين يده على صاعق حزام التفجــير الــذي يــرتديه، ولكن أحد ضباط الشرطة أوقفه عندما أطلق عليه النار في صــدره وساقيه. ولكن لم يكن هناك وقت لإيقاف إرهابي آخر عن تفجير الحزام الذي يحمله. واقتلع الانفجار سقف المنزل. وانتهت حياة أزاري حسين مثل معظم ضحاياه، في وسط دمار تفجير انتحاري.

كــان صــانع القــنابل فــي أعلى قائمة الإرهابيين الذين يطلب تسليمهم مركز اســتخبارات مكافحة الإرهاب في لانغلي. وقامت إدارة كلينتون أصلاً بإنشاء المركز فــي أواســط التســعينيات، وتوسع بسرعة بعد هجمات 9/11 لمواجهة تهديد إرهاب الأصــولية الإســلامية والتغلب على الصعوبات التي تواجهها CIA في الحصول على إدانــات ضد الإرهابيين. وحصلت توسعة أخرى بعد نهاية الحرب على العراق عندما تم عقد عدد من الاجتماعات في لندن وواشنطن، التي رأسها مديري الاستخبارات في كــلا البلديــن، للوصول إلى أفضل الطرق في التعامل مع العدد الكبير من الإرهابيين المحتمليــن الذيــن تــم إلقاء القبض عليهم. وكان للموساد مقعد حول الطاولة. وكانت إحــدى نتائج تلك الاجتماعات إنشاء مركز معدّ للاستجواب في القاعدة الأمريكية في باغرام يعمل فيه أربعون رجلاً وامرأة بمن فيهم أطباء مدربون على استخدام العقاقير النفسية. وكان العديد منهم يعرف استخدام المواد الكيميائية المذهلة التي طورها برنامج

CIA أم كـــي-ألترا السيء السمعة في ستينيات القرن العشرين. وتمتع محققو الموساد بحـــرية الوصـــول والتعامل الكامل مع المقبوض عليهم. وكانوا يشتركون بالمعلومات التي يحصلون عليها مع مركز استخبارات مكافحة الإرهاب.

ســـرعان مـــا أصبحت باغرام مزدحمة بالمقبوض عليهم من طالبان والمرتزقة الأجانـــب. وفـــي الأســـابيع الأولـــى، توفي اثنان نتيجة الاستجواب، وأصبح كثيرون عاجزون جسدياً بشكل دائم. ولكن سرعان ما أصبح المركز مكتظاً بالأسرى. وترأس جـــون سكارليت اجتماعاً في لندن في نيسان سنة 2002 في مكاتب لجنة الاستخبارات المشتركة، وحضره ضباط من مركز استخبارات مكافحة الإرهاب، وكان مائير داغان حاضـــراً بصفة مراقب، وتقرر فيه أن باغرام لم تعد قادرة على العمل بكفاءة في مثل هـــذه الظروف. وحتى عندما كان يتم نقل المحتجزين إلى ما يدعى معسكر غوانتانامو فـــي كوبـــا، سرعان ما كانت الزنازين في باغرام تمتلئ مجدداً بالأسرى. وتم طرح السؤال: هل يمكن إيجاد موقع آخر - أو عدّة مواقع؟ وكان سكارليت خدم في موسكو كضـــابط MI6، وتذكّـــر وجـــود مراكز استجواب في كل الاتحاد السوفيتي: وقال "أن KGB كان يدير أسوأها في أوزبكستان، ومولدافيا وبولندا. وكانت تلك المراكز تستطيع خدمـــة أهـــداف مركـــز اســـتخبارات مكافحة الإرهاب جيداً. وكان سكارليت يعرف ضـــابطين بارزين في الاستخبارات العسكرية البولندية، والذين عملا مع غروم، وهي وحـــدة استخبارات بولندية خاصة في العراق. وتمت دعوتهما إلى لندن للقاء أعضاء بارزين في جهاز MI6 والذين عملوا في أوروبا الشرقية. وأرسل جورج تينيت، الذي كـــان يقضي شهوره الأخيرة في منصبه، عدّة ضباط بارزين لحضور الاجتماع. وأكّد البولـــنديان وجـــود مراكـــز اســـتجواب KGB على حالها، وأن أجهزة الأمن المحلية تستخدمها لاستجواب المجرمين.

كانـــت الطـــريقة الوحيدة لنقل إرهابيي القاعدة وطالبان المهمين من باغرام عن طريق الجو بسبب بعد المسافة. وكان لدى مركز استخبارات مكافحة الإرهاب طائراته الخاصـــة، وقـــال ضـــباطه الـــبارزون في الاجتماع أنه لا مشكلة في ترتيب رحلات الطـــيران والـــتزوّد بـــالوقود في بلاد مثل بريطانيا، وألمانيا وأسبانيا. وحدّد ضابطا الاســـتخبارات البولنديـــن مهـــابط تقع ضمن معاهدة وارسو القديمة يمكن استخدامها كمحطـــات توقف؛ وهي القاعدة الجوية في تازار جنوب هنغاريا، والقاعدة الجوية في سزكزيتنو-سزيماني في بولندا ومهبط ماركولشتي في مولدافيا. وكانت القوات الخاصة الـــتابعة لمعـــاهدة وارسو تستخدمها جميعها أثناء الحرب الباردة للقيام بعمليات سرية.

وكانت KGB تقوم بعمليات استجواب أيضاً في تلك الأماكن.

تطـوّرت الخطـط العملياتـية بشـكل جيد، وحان وقت حصولها على الموافقة السياسـية. وأخـبر سكارليت رئيس الوزراء طوني بلير، وأطلع تينيت الرئيس بوش. وسـرعان ما وافق كلاهما على الخطة. وكانت بولندا ستلعب دوراً هاماً كنقطة التزوّد بـالوقود لكـل الـرحلات الذاهبة إلى أوزبكستان - التي اختارها مركز استخبارات مكافحـة الإرهـاب لـتكون مركز الاستجواب الرئيسي لكل الإرهابيين - ولهذا كان ضـرورياً الحصـول على دعم ليسزيك ميلر، رئيس الوزراء الذي أيّد الحرب على العـراق. ووافق فوراً على استخدام قاعدة سزكزيتنو-سزيماني كنقطة التزوّد الرئيسية بـالوقود في أوروبا الشرقية، وأشار إلى أنه سيخبر زملائه في مجلس الوزراء بقراره ذلـك. وأخبر مصدر في استخبارات لندن المؤلف: "ربما لم يكن ميلر يعرف المصير النهائي لهؤلاء الذي سيطيرون سراً إلى وخارج بلاده. ولكنه أراد أيضاً أن يبقى لاعباً في التحالف بعد الحرب على العراق".

بـدأت الرحلة الأولى في أيار سنة 2002، وحطّت طائرة غلفستريم، تحمل رقم التسـجيل إن379بي في مطار نورثهولت، المهبط العسكري الآمن قرب لندن. ويتمتع المهبط بتاريخ طويل كموقع وسيط لضباط CIA وMI6 أثناء رحلاتهم لأداء مهام سرية فـي أوروبـا خلال الحرب الباردة. وبموجب ما دعته وزارة الدفاع لاحقاً بأنه أنظمة قائمـة، لم يكن هناك من تفاصيل عن رحلات غلفستريم سوى أسماء الملاحين ومالك الطائـرة. ولم يكن هناك أي إشارة إلى المسافرين على متنها. وكانت الطائرة مسجلة بإسـم شركة خدمات النقل الجوي الأولى. ولاحقاً، قالت ميل-اون-صنداي، الصحيفة الواسـعة الانتشار في بريطانيا، أن مدراء الشركة غير موجودين سوى على الورق. ولـم يكـن هـناك تفاصيل شخصية أو تاريخ عمل سابق لكل من بريان بي. داينز، وسـتيفن إي. كنـت وأودري إم. تـايلور. وكان ذلك النوع من الهويات العقيمة التي تستخدمها CIA لإخفاء تورطها في عمليات سرية.

فـي يوم ربيعي مشمس، طارت غلفستريم مع ركابها من نورثهولت إلى قاعدة سـزكزيتنو-سزيماني شمال بولندا التي كان ثلج الشتاء ما يزال يغطيها. وبعد التزوّد بـالوقود، حلقت الطائرة جنوباً من هناك إلى أوزبكستان. وسرعان ما أخذت الطائرة تقوم برحلات منتظمة، وتنقل المحتجزين من جاكرتا في اندونيسيا، وباكستان وباغرام. وكـان علـى متنها مرة عالم الأحياء الدقيقة اليمني جميل قاسم سعيد محمد المطلوب لمركـز اسـتخبارات مكافحة الإرهاب لعلاقته بتفجير يو-أس-أس-كول عندما كانت

المدمّرة ترسو قبالة ميناء عدن. وتم نقله إلى أوزبكستان، وبقي مصيره مجهولاً. وكان أحد الركاب الآخرين محمد سعد إقبال مدني، المشتبه به المصري الذي عمل مع حامل قنـبلة الحذاء البريطاني ريتشارد ريد. والذي سلّمته جاكرتا إلى دولته. وبقي مصيره غير معروف أيضاً.

بحلول كانون الأول سنة 2005، كان مركز استخبارات مكافحة الإرهاب يوظف أكـثر مـن ألف شخص: ضباط ميدانيين، ومحللين، ومترجمين، وضباط ارتباط مع أجهزة استخبارات أجنبية. وبقيت أوثق علاقاته مع الموساد: لقد قدّم الكاتسا في إيران، وباكسـتان، وسورية وأفغانستان باستمرار معلومات عن تحركات الإرهابيين المشتبه بهـم علـى لوائح المركز، الذي كان يتخذ قرار تسليمهم إلى جهة معينة بالتنسيق مع مدير CIA بورتر غوس.

كـان يـتم تنسـيق قرار تسليمهم بشكل ممتاز. وكان ضباط مركز استخبارات مكافحـة الإرهـاب متمركزيـن آنذاك في اثنين وعشرين دولة في العالم للتعامل مع الاعـتقالات ونقـل المشتبه بهم. كانت سلطات الأمن المحلية تقوم بالاعتقالات عادة، والاحـتفاظ بالمعتقليـن فـي سجون انفرادية حتى يتم نقلهم إلى موقع أسود معين – الوصـف الـذي يطلقه مركز استخبارات مكافحة الإرهاب على مراكز الاستجواب. وكـان ضـباط المركـز البارزين يتخذون القرار المتعلق بالموقع الذي ينبغي إرسال المشبه به إليه.

أخبر ضابط موساد بارز المؤلف: "إذا كان الأمر يتطلب استجواباً نفسياً قوياً مع بعض القوة الجسدية، يتم نقل المحتجز إلى...... وإذا كان ينبغي استجواب المشتبه به على فترات من استخدام القوة الجسدية، يتم إرساله إلى...... ولتطبيق أقصى درجات التعذيـب للحصول على المعلومات، يتم إرساله إلى أوزبكستان، حيث يتم قتله بعد أن يكشف عن كل ما لديه".

كتب كريغ موراي، الذي كان السفير البريطاني في أوزبكستان حينها، في مذكرة إلى جاك سترو وزير الخارجية البريطاني في تشرين الثاني سنة 2004 (رأى المؤلف نسـخة عـنها): "أخبرني مدير محطة CIA في هذا البلد بأن تعذيب أولئك المحتجزين يتضمن غلي بعضهم". وتم عزل موراي عن منصبه، ووصفه بأنه غير مستقر ذهنياً، وصرفه أخيراً من السلك الدبلوماسي. وبحلول كانون الأول سنة 2005، كان من بين أول مـن كشـفوا علانية تفاصيل عن عملية نقل المحتجزين. "وقال إنه تعرض نتيجة لذلك لتهديدات من قبل أجهزة الأمن البريطانية".

لكن الرحلات استمرت مع قيام طائرات مركز استخبارات مكافحة الإرهاب بالتجول حول العالم. وانضم إلى طائرة غلفستريم آنذاك طائرات هيركوليس سي-130 ، وكاسا توربوبروب، وغلفستريم أخرى وبوينغ 737. وكانت جميعها مطلية باللون الأبيض وخالية من أي علامات مميزة. واستأجرت بعضها أيضاً شركة خدمات النقل الجوي الأولى. ولدى اتصال المؤلف بها، رفضت مناقشة موضوع الطائرات أو الهدف من استخدامها. وجاءت لمحة خاطفة عمّا يدور على متن تلك الطائرات من مصدرين في الاستخبارات - أحدهما في لندن، والآخر في واشنطن.

أخبر مصدر الاستخبارات في لندن المؤلف: "كان يتم تقييد الأسرى إلى مقاعدهم، وسدّ أفواههم وحقنهم غالباً بعقاقير خلال رحلاتهم. وكان ضباط مركز استخبارات مكافحة الإرهاب يسافرون معهم إلى بلد الاستجواب. ولم تكن سجلات الرحلة تتضمن أي تفاصيل عن هوياتهم. وكان يتم حجب نوافذ الطائرة في منطقة إعادة التزوّد بالوقود. ولم يكن مسموحاً لأي مسؤول محلي بالصعود على متنها. وكان يتم دفع قيمة الوقود ببطاقات الائتمان التي يحملها الملاحون. وكان يتم إرسال فواتيرها إلى مركز استخبارات مكافحة الإرهاب". وأضاف مصدر الاستخبارات في واشنطن: "في بلاد مثل أوزبكستان، يقوم المحققون المدربون على الطرق السوفيتية بممارسة التعذيب. ولديهم لائحة بالمعلومات التي ينبغي الحصول عليها. وكانت الأجوبة تذهب إلى مكتب مركز استخبارات مكافحة الإرهاب المقيم. وكان يرسلها بدوره إلى واشنطن".

من هناك، كان يتم توزيع المعلومات ضمن مجتمع الاستخبارات الأمريكي وإرسالها إلى عدد محدد من أجهزة الاستخبارات الأجنبية، بما فيها الموساد. وفي تل أبيب، كان يتم مقارنتها بدقة مع معلومات أخرى جمعتها شبكة الجهاز الخاصة من العملاء والمخبرين.

في أواخر سنة 2005، نقلت رحلات التعذيب (الوصف الذي أطلقته عليها منظمة العفو الدولية) مئات المشتبه بهم إلى مواقع سوداء سرية بعيدة عن أعين العامة والنظام القضائي الأمريكي.

بحلول أواخر كانون الأول سنة 2005، وصل عدد رحلات التعذيب إلى ما يزيد عن المئتين من وإلى بريطانيا، واقترب عددها من أربعمئة عبر المجال الجوي الألماني. وعبرت رحلات أخرى مطارات أسبانية، وشانون مطار أيرلندا الدولي. وتظهر السجلات التي تحتفظ بها سلطات مراقبة النقل الجوي في تلك البلاد ما يزيد

عن سبعمئة رحلة لطائرات مركز استخبارات مكافحة الإرهاب. وكان أحد أولئك الذين نجـوا مـن تلك الرحلات الكويتي المولد خالد المصري، الذي أصبح مواطناً ألمانياً. وكان ذهب في رحلة إلى مقدونيا سنة 2003 عندما ألقت الشرطة المحلية القبض عليه في حافلة واحتجزته لثلاثة أسابيع في زنزانة لا نوافذ لها. وتم اقتياده في إحدى الليالي إلى مطار سكوبجي، وتسليمه إلى ضباط مركز استخبارات مكافحة الإرهاب. وادّعى المصري أن ما حدث معه كان الآتي:

"تـم اقتيادي إلى غرفة في المطار وحقني بالعقاقير. وتم بعدها وضعي على متن طائـرة، وكانـت من طراز غلفستريم على ما أعتقد. وخلال الرحلة، تم إبلاغي أنني ذاهـب إلى مكان خاص حيث لن يجدني أحد. ولم يكن لدي فكرة آنذاك حول المكان. ولكـن بعد رحلة طويلة، غطوا رأسي واقتادوني إلى سجن. ووجدت نفسي بين سجناء مـن باكستان، وتنزانيا، واليمن. وبقيت هناك خمسة شهور، وتعرضت للضرب بشكل متكرر، وطلـبوا منـي الاعتراف بأنني إرهابي. ثم سحبوني يوماً ما من زنزانتي، ووضعوني داخل شاحنة مغلقة، واقتادوني إلى طائرة. وكانت نفس تلك التي نقلتني إلى هناك. وبعد رحلة على متنها، تم إخراجي من الطائرة. وأخبرني شخص أمريكي بأن خطأً قد وقع. ووضعني في سيارة مع المزيد من الأمريكيين، والتي سارت بنا لبعض الوقـت. ثم طلبوا مني الخروج منها، وابتعدوا بها. ووجدت نفسي في ألبانيا. وسرت في طريقي عائداً إلى ألمانيا".

أبلـغ خـالد الشـرطة فـي فـرانكفورت بقصـته. وتم إرسال التفاصيل إلى كريمينالامت، جهاز البلد الموازي لمكتب التحقيقات الاتحادي. واستجوب عميلين خالد المصـري. ولـدى اقتناعهما بما قاله، قاما بإخبار المكتب الاتحادي لحماية الدستور. واتصل المكتب مع مدير محطة CIA في برلين، الذي أرسل بدوره تقريراً إلى لانغلي. وأخبره المسؤولون، وفقاً لملف الشرطة الألمانية حول القضية، أنه كان خطأ، وتشابهاً فـي الأسـماء. وأثار وزير الداخلية الألماني أوتو شيلي، في زيارة له إلى واشنطن، القضية مع كوندوليزا رايس. وقدّمت له الجواب نفسه. وانتهت القضية رسمياً. وفشلت محـاولات خالد المصري في الحصول على تعويض حتى الساعة، وتم إبلاغه أن لا فائدة من متابعة الأمر.

فـي تل أبيب، بدأ أعضاء بارزون في الموساد باعتبار الاحتجاز قضية محرجة يمكـنها أن تعـيق عمل CIA الحقيقي، ولا تستطيع تقديم معلومات قيّمة. وقال كاستا موسـاد محنّك (للمؤلف): "الخطورة في رحلات التعذيب أنها تقدّم دعاية لا تقدّر بثمن

لأعدائنا. أين يعبر الاستجواب الحدّ الفاصل مع التعذيب؟ ولا نكره الاستجواب القاسي، ولكننا نضع الحدود للأساليب التي تسمح بتعريض السجناء للضرب المبرّح، والاعتداء الجنسي، والصدمات الكهربائية المتكررة والتهديدات لعائلاتهم. ولسنا مفرطين في الاحتشام، وإنما عمليون. ولا يقدّم هذا النوع من الاستجواب معلومات استخباراتية يمكن الوثوق بها".

لكن رحلات التعذيب استمرت في الأيام الأخيرة من سنة 2005. ولم يكن هناك خطط لإيقافها في وقت كتابة هذه السطور. وأبلغ مصدر استخباراتي في واشنطن المؤلف: "سوف تستمر طالما استمرت حرب بوش على الإرهاب. والشيء المؤكد أن الرحلات كانت غير قانونية وتخرق كل مواثيق الأمم المتحدة حول منع التعذيب".

فيما كانت سنة 2006 الجديدة تطل على تل أبيب، استمر اختصاصيو الموساد في تقييم الحالة الذهنية للرئيس الإيراني محمد أحمدي نجاد. وطوال أسابيع، وأثناء عملهم من الفجر وحتى منتصف الليل سبع أيام في الأسبوع، درسوا خطاباته وشاهدوا أشرطة فيديو عن ظهوره علناً أمام العامة للتثبت من شخصيته والعالم الذي جاء منه.

ولد أحمدي نجاد في قرية في ظلال ألبورز، وهو الرابع بين سبعة أبناء، وكان عمره سنة واحدة عندما نقل والده أحمد العائلة إلى طهران ليعمل كحداد. وتأمل الاختصاصيون حول مدى تأثير الفقر في سنواته اللاحقة على مسيرته المستقبلية وتشكيله لمعتقداته المتطرفة. وأصبح الشاب الذي حصل على المرتبة 130 في فحص الدخول إلى الجامعة الحكومية، وكان زميلاً لثلاثة آلاف طالب، ناشطاً جامعياً ملتزماً خلال عهد الشاه، وتعرض للاعتقال على أيدي السافاك، جهاز أمن النظام المرعب. وبعد خلع الشاه، رحّب أحمدي نجاد بآية الله الخميني كحاكم جديد على البلاد.

أصبح الشاب النحيل، الهزيل الوجه، ذي اللحية الكثيفة، والعينين الفاحمتين شخصية مألوفة في جامعة طهران للعلوم والتكنولوجيا، حيث عمل على تجنيد الشبان لمنظمته الطلابية التي تدعى مكتب التأييد. وأصبح المكتب مشهوراً عالمياً عندما احتجز الدبلوماسيين الأمريكيين في سفارتهم في طهران سنة 1979 لـ444 يوماً. وأظهر أحمدي نجاد مهارات سياسية غير عادية في استغلال الوضع لإذلال الولايات المتحدة. وفي سنة 2006، أصبح أحمدي نجاد محط اهتمام توقعات شديدة عند نشر صورة ادّعت أنه زعيم المجموعة التي احتجزت الرهائن، وأنه أساء شخصياً معاملة أسراه. لكن CIA قالت إن الادعاء ليس صحيحاً. وقبل وقت طويل من ذلك، حصل على دكتوراه في الهندسة، وانضم إلى الحرس الثوري، وشارك في الحرب الإيرانية

العراقــية. وفي تعاقب سريع، أصبح نائب محافظ إقليم ماكو البعيد، ثم محافظاً لإقليم أردبــيل المهم. وكان مكتب المحافظ في طهران هدفه التالي، وتم انتخابه سنة 2003 بفارق 12% من النقاط. وألغى الكثير من الإصلاحات التي قام بها أسلافه، وشدّد على الحاجــة إلــى الــورع الديني، وتصاعدت شعبيته بإنشائه لمطابخ تقدّم الحساء لفقراء المدينة. وكانت تلك أرضية حملته نحو الرئاسة، وكان شعاره وظائف للجميع، وأموال الــنفط علــى الطاولة. وخسر الرئيس السابق علي أكبر هاشمي رفسنجاني البالغ من العمــر ســبعين ســنة معركة الرئاسة أمامه. وراقب العالم ما يحدث، وكان يأمل بأن يســتمر أحمــدي نجاد بالحوار مع الغرب حول مخاوفه من سعي إيران لامتلاك القوة الــنووية، والتــي كان يعتبرها مجرد غطاء لإنتاج الأسلحة النووية. وأشار رفسنجاني إلــى أنــه مستعد لمنح الضمانات التي تطلبها واشنطن ولندن وتُصرّ عليها إسرائيل. ولكن الإشارة الأولى على أن الرئيس الجديد لن يكون مطواعاً للغاية جاءت عندما قال أمــام تجمّــع في طهران في تشرين الأول سنة 2005 أنه سيعمل على تطوير أقوى أسباب القوة التي ستمنحنا القوة والسلام الدائم - القوة النووية.

مــنذ ذلك الحين، يدرس اختصاصيو الموساد بعناية فائقة كل كلمة يقولها أحمدي نجــاد، وكــل حــركة دبلوماسية يقوم بها، وكل تهديد متصاعد ضد إسرائيل باللهجة القاسية لقريته الجبلية. قدّمت سيرة حياته وسائل مفيدة لهم لاستكشاف ما يحرك محمد أحمــدي نجاد. وكان جزء منها بالتأكيد السياسة الواقعية التي اعتمدها للفوز بالموافقة داخلــياً ونشــر الخــوف خارجياً. وكان يفهم قوة مصادر النفط الإيراني على السوق العالمي، وسعره الآخذ بالارتفاع. وكان يرى أيضاً أن أمريكا ضعفت نتيجة التمرد في العــراق. وكــان مثل أي متشدد إسلامي من أمثال أسامة بن لادن، يستمسك بإغراء الأصولية الإسلامية التي تنادي بإزالة إسرائيل وإنكار المحرقة اليهودية. ولم يكن كل ذلــك من بنات أفكار أحمدي نجاد؛ وجاء الكثير منها من المدارس الإسلامية المتطرفة التــي لطالمــا نــادت بالجهاد ضد إسرائيل والغرب. واستمر أحمدي نجاد باستخدام والتركيز على السلطة الدينية في كل ما يقوله.

لاحظ الاختصاصيون بشكل متزايد قضية أثارت قلقاً كبيراً، وتتعلق بمدى إدراك أحمدي نجاد لفكرته حول موقعة أرمجدون (معركة فاصلة بين قوى الخير والشر ورد ذكرها في سفر الرؤيا في التوراة) عبر الشرق الأوسط - واحتمال وقوعها قريباً. وفي يــوم رأس الســنة ذاك، كانوا يعرفون أن احتمال قيام إسرائيل بتوجيه ضربة استباقية ضد منشآت إيران النووية سيعتمد على تحليلاتهم.

تم الانتهاء من وضع الخطط، وسيقوم خمسون كلباً ألزاسياً بالهجوم على ناتانز، مبانـــي صـــنع القنابل النووية على بعد تسعين ميلاً إلى الشمال الشرقي من طهران. وســيتم تزويد الحيوانات بأحزمة متفجرات على أجسادها قادرة على اختراق المدخل إلـــى المختــبرات تحــت الأرض حيــث اكتشف عملاء الموساد آلاف أجهزة الطرد المركـــزي – الأدوات الضرورية لإنتاج الأسلحة المخصّبة باليورانيوم – والتي تعمل علـــى مـــدار الساعة. وتم تدريب الكلاب على موقع مطابق لمباني ناتانز في صحراء النقب. وكان مدربوها جزءاً من وحدة أوكيتز الخاصة. وسيتم تفجير الأحزمة الناسفة بالــتحكم عن بعد. وتدرّب أفراد الوحدة على شن هجمات من مروحيات على ارتفاع منخفض على الموقع. وكانت قوة شولدوغ ستوفر الحماية النارية لأي هجوم. وسيقدّم لهــم الدعــم ســرب القوى الجوية رقم 69، المتمركز في قاعدة هيرزيرم الجوية في النقــب. واستمر طياروه خلال السنة الجديدة بالتدريب على القيام برحلات ليلية طويلة المدى إلى إيران، والعودة دون التزوّد بالوقود. وكانت قيمة كل طائرة 60 مليون جنيه إســترليني ومــزوّدة بأحدث الأسلحة، بما فيها برنامج فوق الأفق الذي يستطيع تحديد الهدف على بعد أربعين ميلاً. وبقيت غواصات الدلفين مختبأة في أعماق خليج عمان. وستدعم صواريخها العشرين الهجمة الجوية.

فــيما اســتمر محمــد أحمــدي نجاد في تهديد إسرائيل بأنه ينبغي محوها عن الخارطـــة، ترأس مائير داغان اجتماع أزمة في كيريا في أوائل كانون الثاني لدراسة آخــر صــور القمر الصنعي الإسرائيلي في الفضاء. وأظهرت الصور اكتمال تشييد مصــنع ضــخم جديد لتخصيب اليورانيوم تحت الأرض في ناتانز. وكان مع الصور تقاريــر جديــدة من عملاء الموساد في إيران وعواصم عربية أخرى. وتم الطلب من الاجــتماع تقييم نتائج الضربة الاستباقية ضد إيران. وكان مقبولاً أن يتبع ذلك موجة مــن الأعمــال الإرهابية. وسيقوم... ... بإطلاق صواريخ من لبنان. وسوف تستنكر الــدول العربية الحادث علناً. لكن رئيس الموساد داغان قال إن استخباراته تتوقّع بأن تكــون الدول العربية، بالرغم إدانتها العلنية، مسرورة لتقليم مخالب إيران. وتم إبلاغ الاجــتماع بأن طائرتي نقل تابعتين للقوى الجوية الصينية حطّتا في القاعدة العسكرية قــرب ناتانــز، وأفرغــتا صناديق من أجهزة الطرد المركزي المعروفة بإسم بي-2، والمصــممة لوصــل 164 جهاز طرد مركزي وتشكيل سلسلة. ويدور الغاز بسرعة عالــية في السلسلة لتخصيب اليورانيوم 235 إلى نفس درجة قنبلة هيروشيما. وقدّمت كل من الصين وكوريا الشمالية في الماضي لإيران تقانة إنتاج الأسلحة النووية. وباع

عالم الذرة الباكستاني عبد القدير خان، أب القنبلة الإسلامية، لاحقاً تصميمات ومعدّات نووية إلى إيران ودول مارقة أخرى.

أخبر مدير الموساد داغان رؤساء الدفاع في اجتماع كيريا: "تقول آخر معلوماتنا أن العلماء في ناتانز بدأوا بإنتاج يورانيوم الأسلحة النووية. وهذا يعني أن تقديراتنا بأن تتحول إيران إلى قوة نووية خلال خمس سنوات قد هبطت إلى النصف. ولا نبعد سوى ثلاث دقائق عن منتصف الليل". وفي أيار سنة 2006، أعاد داغان التقدير ليصبح حوالى السنة – دقيقة واحدة قبل منتصف الليل. واستمر اختصاصيو الموساد بتحليلهم لخلفية الرجل الذي انبثق من ظلال السياسة الإيرانية ليصبح التهديد الرئيسي للسلم في العالم. وظهر أحمدي نجاد بشكل متزايد على أنه ينفذ مهمة مقدّسة. وأخبر شعبه بأنه يشعر أن يد الله تستمر في توجيهه بعدما هدّد إسرائيل أول مرة. وفي كانون الأول سنة 2005، وعندما تحطمت طائرة في طهران، ولقي 108 أشخاص حتفهم، شكر الرئيس الموتى لأنهم أرشدونا إلى طريق الشهادة التي ينبغي أن نسلكها. ويعبّر نجاد يومياً عن إخلاصه للإمام المهدي، والذي سيعود ليقود العالم الإسلامي نحو الحرية. وتؤمن كل فروع الإسلام بالمخلّص الذي تسبق عودته الفوضى العارمة وانتشار الحروب. وهذه الرؤية مشابهة للرؤية المسيحية في سفر الرؤيا. وادّعى محمد أحمدي نجاد بأن المهدي سيعود في زمانه، وأنه مكلف بمهمة إنتاج الفوضى لتسريع وصوله. وافتتح السنة الجديدة بتهديد فتّاك آخر بتدمير إسرائيل، وتهلل للمخاوف المتجددة التي أثارتها كلماته عبر العالم. هل كان ذلك السبب في ترحيبه بالنزاع مع إسرائيل والولايات المتحدة – لأنه يراه نقطة البداية لظهور المهدي؟ وكانت تلك هي الأسئلة التي درسها الاختصاصيون، لكن دون إيجاد أجوبة قاطعة لها.

عندما انتهى اللقاء في غرفة اجتماعات كيريا، ذكّر مائير داغان الآخرين حول الطاولة ببعض الكلمات الأخيرة التي تحدث بها أرييل شارون قبل أن يتم نقله على عجل إلى المستشفى مصاباً بجلطة دماغية: "إسرائيل لا تستطيع، ولن تسمح لإيران بامتلاك التقانة النووية". ثم غادر رئيس الموساد الغرفة ليطّلع على آخر المستجدات الطبية التي ألقت بظلالها على آمال إسرائيل في السنة الجديدة.

في 4 كانون الثاني، وفيما كانت الشمس تغرب فوق تلال يهودا(*)، قاد مائير داغان سيارته إلى صحراء النقب، وتجاوز أولى نقاط الحراسة التي تحمي محيط أكثر

(*) وفقاً للوصف الإسرائيلي.

مقتنيات شارون قيمةً ألا وهي مزرعة التوت الشامي. ويعكس المبنى، المندمج مع المحيط القاحل، شخصية مالكه القوية التي لا يمكن التأثير عليها. وكان على المقعد بجانب داغان حقيبة تحتوي على آخر التقارير من شاؤول موفاز وزير الدفاع المعسول الكلام، والجنرال دان حالوتس رئيس أركان القوات المسلحة. وبينها، كانت موافقته على عشرة أهداف في أي ضربة استباقية ضد إيران. وكتب موفاز: "تمثّل إيران الآن أكبر تحدٍ يواجهنا". وكانت لجنة رؤساء أجهزة الأمن قد اتخذت قرار شن الهجمة. وكان داغان سيقدّم آخر المعلومات الاستخباراتية. وسيكون هناك استشارات مع بينيامين نتنياهو، رئيس الوزراء السابق الذي استقال من حزب الليكود ليتولى فيما بعد رئاسته فقط عندما استقال أرييل شارون في كانون الأول ليشكّل حزبه الخاص كاديما (إلى الأمام). وحطّمت حركته نظام الحزبين في إسرائيل، الليكود والعمل، لتشكّل قوة ثالثة مهيبة. وانضم عدد من سياسيي الليكود البارزين إليه، بالإضافة إلى رئيس الوزراء الأسبق شمعون بيريس. وفيما كان الإسرائيليون يكافحون لاستيعاب المتغيرات، تعرض شارون لجلطة خفيفة، ولكنه عاد بعد أيام إلى مكتبه، وكان ما يزال في سن السابعة والسبعين قادراً على العمل اثني عشر ساعة في اليوم. وسيكون قراره الأخير مهاجمة إيران.

فيما كان داغان يقود سيارته نحو المزرعة، كان يعرف أنه لن يستطيع رؤية رئيس الوزراء مجدداً بعد هذا الاجتماع سوى بعد تعافيه التام من عملية لإصلاح ثقب صغير في قلبه، والذي تم اكتشافه أثناء معالجته من الجلطة الخفيفة. وإلى جانب الخطط لتوجيه ضربة إلى إيران، كان هناك تقييم الموساد حول إنهاء حماس للهدنة مع إسرائيل. وجاء ذلك في الوقت الذي كان فيه شارون ما يزال يفكّر بالسماح للفلسطينيين في القدس الشرقية بالتصويت في الانتخابات المقررة في وقت لاحق من الشهر؛ وكانت كل الدلائل تشير إلى أن حماس ستحقق مكاسب جيدة. ولكن داغان كان يعرف أن شارون يعاني من مشاكل شخصية ينبغي عليه التأقلم معها. وتم إجبار ابنه عمري على الاستقالة من الكنيست جراء فضيحة مالية قادت إلى توجيه تهم جنائية ضده. وحملت أنباء التلفاز في الليلة الماضية تقريراً أن الحلقة تضيق في تحقيقات الشرطة حول 3 ملايين دولار دفعها ثري نمساوي لمساعدة رئيس الوزراء على دفع نفقات انتخاباته الأخيرة.

وصل داغان إلى المزرعة، والتي تم بناؤها على أنقاض قرية فلسطينية وتمتد على ألفي فدان. وكما جرت العادة، كان شارون ينتظر رئيس استخباراته قبل أن

يجلســا معاً لتناول وجبة أعدتها كنته إنبال. ولطالما كانت العلاقة بين الرجلين وثيقة، وكــان يجمعهمــا خلفيتهما المشتركة بالقتال في لبنان. وبقي شارون أنيقاً مثل داغان، ولكن وزن رئيس الوزراء الذي يبلغ 280 رطل أصبح آنذاك غير مناسب لطوله البالغ خمســة أقدام وتسعة إنشات. ولمناقشة خطة مهاجمة إيران، جلس الرجلان في ردهة المــزرعة المترفة. وارتشفا بعد ذلك القهوة فيما كان شارون يستغرق في الذكريات؛ وأصــبحت عيــناه اللتيــن كانتا لا تهدأان وقاسيتان أثناء شبابه تدلان على رقة رجل عجــوز، ولكن ذاكرته كانت قوية. وتذكر كيف استطاع السيطرة على منطقة محصّنة في سيناء بهبوط المظليين من المروحيات، وهو التكتيك الذي ما زال يدرّس حتى الآن في أكاديميات الولايات المتحدة وبريطانيا. وكيف أنه في حرب سنة 1973، عندما تم خــداع الموساد، حوّل لوحده تقريباً الهزيمة المحققة إلى نصر مؤزّر. واستمع داغان، كما هي العادة، بتركيز فيما كان شارون يشرح كيف ساعد على تشكيل حزب الليكود بعدمــا رفض العمل قبوله – وكيف ينوي جعل كاديما يرتقي إلى اسمه الآن. وتحدّث حــول عــدم محبته لــنتنياهو لمعارضته الشديدة لإخلاء المستوطنات اليهودية. وفيما كانــت الأمسية تمضي، تقاطر الأصدقاء القدامى ليتمنوا لــشارون الشفاء بعد جراحة الــيوم التالــي. وأخبر أحدهم هو روفين أدلر أنه قلق من التخدير العام. وحوّل أدلر المســألة إلــى دعابــة: "ما الأمر يا أريك، هل تحولت إلى جبان فجأة"؟ وعندما حان الوقت ليغادر داغان، لاحظ أن شارون يبدو متعباً ومستغرقاً في أفكاره.

بعــد وقت قصير من مغادرة داغان، اشتكى شارون لابنه الآخر جلعاد أنه يشعر بتوعك ولديه بعض المشاكل في التركيز وشعوراً غريباً في الجانب الأيسر من جسده. وأخــذ يواجــه صــعوبة في الكلام أيضاً. وتم استدعاء شلومو سيجب طبيب شارون الخــاص الذي كان في المزرعة. واستدعى جلعاد أثناء ذلك أحد الأطباء المناوبين مع ســيارة إســعاف ورئيس حرس شارون الخاص. وقال جلعاد إنه ينبغي نقل والده إلى أقرب مستشفى والذي يبعد حوالى العشرين دقيقة. وعارضهم سيجب الذي أصرّ على أن رئــيس الــوزراء تعرض لجلطة دماغية كبيرة، وينبغي نقله مباشرة إلى مستشفى هداســا فــي القــدس. واســتغرقت الرحلة خمس وخمسين دقيقة، ساءت خلالها حالة شارون. وعانى في سيارة الإسعاف من نزيف دماغي تسبب به انفجار أحد الشرايين.

بعــد سبع ساعات من الجراحة، وضع الأطباء شارون على آلة دعم الحياة وهو فــي غيــبوبة عميقة. وكان مائير داغان بين أولئك الذين عرفوا أن شارون يعاني من ضــرر دماغــي لا يمكن إصلاحه. ولن يستطيع وضع بصماته على مستقبل إسرائيل

مجدداً. ولن يحظى الموساد مجدداً، والذي كان محط إعجاب شارون، بمثل ذلك القائد السياسي الذي منحه حرية الحركة في العمل. وكان هناك كرسي ضخم في الغرفة الملحقة بمكتب داغان كرمز للفراغ الذي حدث في السياسة الإسرائيلية نتيجة غياب قيادة شارون، الذي كان يحب الجلوس هناك. وأخبر داغان كبار مساعديه بأنه أياً يكن الشخص الذي سيحل محل شارون، لن يجلس في ذلك الكرسي. وقام بنزع قطعة القماش عنه.

تهلل المتطرفون في غزة وما وراءها لوفاته. ومن كهفه الجبلي في سلسلة تورا بورا التي تفصل شمال باكستان عن أفغانستان، دعا أسامة بن لادن كل المسلمين لأن تكون ميتة شارون: "طويلة ومؤلمة، وأن لا يموت مثل بطلنا أزاري حسين، الذي ذهب إلى الجنة كشهيد حقيقي".


صفحة فارغة

الفصل السادس والعشرون

حسابات خاطئة

دور الموساد في القضاء على أزاري حسين لم يكن معروفاً علناً في التهاني التي تبادلـتها البلاد حيث تركت تفجيراته الموت والدمار. وبقيت الأمور كما كانت دائماً: تحـيات بين أجهزة الاستخبارات التي ساهمت في العملية المشتركة، إلى جانب شعور المواساة تجاه العمليات التي فشلت أو الأشخاص الذين فقدوا حياتهم. وقال رافي إيتان، مدير عمليات الموساد السابق، مرة للمؤلف: "لا مكان للبطولة في عملنا. إننا نقوم بما ينبغـي علينا وحسب. وإذا نجح الأمر، لابأس. وإذا لم ينجح، نبذل ما بوسعنا لضمان نجاحـه في المرة التالية. وستبقى بعض العمليات التي اشترك بها شخصياً أو أسلافه سـرية للأبد؛ وسيبقى العدد المتزايد من الأسماء المنقوشة على النصب التذكاري في غليلوت الدليل الوحيد على الخسارة التي تصيبهم في الأرواح" (الفصل الثالث، نقوش غليلوت).

قـال إيـتان مرة: "إن جمع المعلومات الاستخباراتية ليس عملاً خطيراً وحسب، ولكـنه فـنّ دقيق للغاية. وهو مكلف جداً أيضاً". وبحلول سنة 2004، كانت الولايات المتحدة تنفق 40 مليار دولار سنوياً على الاستخبارات، فيما تنفق إسرائيل نسبة مئوية صـغيرة مـن ذلك الرقم؛ وسترتفع التكاليف بالنسبة لكلا البلدين في السنوات القادمة. ولكـن فـي واشنطن، وتل أبيب، ولندن وكل تلك البلاد التي تمتلك أجهزة استخبارات متفوقة، فإن المعلومة تعني القوة وكلفة الحصول عليها غير مهمة.

كانت ميزانية الاستخبارات في بريطانيا بحلول سنة 2005 حوالى ملياري جنيه إسـترليني، تـم تخصـيص نصـفها لـمقر الاتصالات الحكومي في تشيلتنهام قرب غلوسترشاير. وكانت كلفة البناء تبلغ 1.2 مليار جنيه، وأنفق المقاولون 50.000 جنيه علـى درابزيـن الستانلس-ستيل لتفادي خدشها من الخواتم التي يحملها الموظفون في أصابعهم. ويجوب قطارين كهربائيين قبو المبنى لحمل صناديق الملفات والشطائر إلى الموظفيـن البالغ عددهم 7000 شخص في الطوابق الأربع. ويتخذ المبنى شكل حلوى

الدونـــات العملاقـــة، وفيه ساحة داخلية بمثل مساحة قاعة ألبرت. وهو مكسو بغطاء بسماكة ثمانية إنشات على كل الجدران الخارجية.

تـتعامل حواسـب المبنى المحمية تماماً مع معلومات استراتيجية، وهي العنصر الأهـم فـي عمـل الاستخبارات الحديثة؛ وتسمح للحكومة البريطانية ومستشاريها - الموظفين المدنيين، والدبلوماسيين والقادة العسكريين - الإطلاع على آخر المستجدات التـي تـتعلق بالبلاد الأخرى وخططها المستقبلية. ويأتي بعد ذلك المعلومات التكتيكية التـي تركّـز على خطط العدو الحربية المحتملة، وتراقب مناوراته العسكرية لتمييز الأساليب التي يحتمل أن يستخدمها في الحرب. والعنصر الثالث هو مكافحة التجسس، والـذي يدعـى فـي بريطانـيا .حماية المملكة. ويركّز على كشف نشاطات التجسس الأجنبية.

تتضـمن مهـام الموساد العناصر الثلاثة كلها، ولكنه يشترك في المعلومات مع أجهـزة صديقة تطبيقاً لسياسته الطويلة الأمد التي أوضحها للمؤلف نائب مديره العام السابق ديفيد كيمش: "إسرائيل أولاً وأخيراً - ودائماً".

بكـل الأحوال، تحتفظ الاستخبارات البريطانية بعلاقة عدم حجب أي معلومة مع أقـوى منظمة استخباراتية على وجه الأرض، والتي تمتد جذور نشاطاتها إلى الفضاء الأسود الواسع. ومن هناك، تستخدم وكالة الأمن القومي الأمريكي NSA أسطولها من الأقمـار الصـنعية للتجسـس على الكوكب. وزاد تهديد الإرهاب من قوة NSA؛ وتم إضـافة أهداف جديدة إلى قائمتها من قبل CIA وأجهزة استخبارات الولايات المتحدة الأخرى.

بلغت تكاليف إدارة NSA ما يفوق 4 مليارات دولار سنة 2005، وتوظّف بدوام كـامل 27 ألف خبير، ومحلل، وتقني إضافة إلى مجموعة من آلات التقطيع للتخلص مـن أربعين طناً من الورق يومياً؛ وتستطيع أيضاً استدعاء 100.000 موظف خدمة ومدنـي أمريكي منتشرين حول العالم. ويتم إنفاق جزء من ميزانيتها على إدارة مواقع تنصـت بالغـة السـرية فـي بريطانيا: في تشيكساندز في بيدفوردشاير، وإدزيل في سـكوتلندا، وبرودي في ويلز، وأكبرها على الإطلاق في تلال مينويذ قرب هاروغيت شمال إنكلترا. وتتصل جميعها بمقر الاستخبارات البريطانية ومحطات المراقبة التابعة لها في قبرص، وألمانيا الغربية، واستراليا. وتضمن كلها عدم إفلات أحد من الرقابة.

خلـف سور NSA المزدوج: الذي تعلوه الأسلاك الشائكة المتداخلة مع الأسلاك الكهربائية، تمسح حواسبها الضخمة كامل الطيف الكهرومغناطيسي للكوكب، وتحتوي

على قاموس من الكلمات الرئيسية بعدد كبير من اللغات. ولا يهرب شيء مهم سياسي، أو اقتصـــادي أو عســكري فــي مكالمة هاتفية، أو محادثة في مكتب أمين عام الأمم المـــتحدة كوفي عنان، أو في فاكس أو بريد إلكتروني من رقابة NSA. ورغم أن مقر الأمم المتحدة في نيويورك إقليم مستقل، ووضع أجهزة تنصت هناك عمل غير قانوني بموجــب القوانيــن الدولـــية، إلا أن NSA والاستخبارات البريطانية تقوم بذلك بشكل دوري للتجســس علـــى بلاد معادية وتلك التي يفترض أنها صديقة للولايات المتحدة وبريطانـــيا، والتـــي يتم التجسس عليها لأسباب تجارية أساساً أو لمنح لندن وواشنطن الأفضـــلية فـــي المفاوضات الدبلوماسية. ويتعرض الحلفاء في الناتو لمراقبة مستمرة أيضاً في الأمم المتحدة، ويحتفظ الموساد بوحدة ياهولومين في نيويورك للتجسس على العرب والبعثات الأخرى.

تجـد المعلومـــات طـــريقها فـــي الأروقة الإلكترونية لمجتمع الاستخبارات في واشـــنطن ولندن، ومنها إلى تل أبيب. وبالمقابل، يكشف الموساد معلومات استخباراتية لـــــNSA والاســـتخبارات البريطانية على قاعدة الحاجة للمعرفة. ويتم الاحتفاظ بنسخ أصلية من بيانات NSA في أقبية مضبوطة الحرارة تحت الأرض. وتوجد في مكان ما ضـــمن مكتـــبة الأسرار 1015 صفحة من وثائق مراقبة الوكالة لكل من الأميرة ديانا ودودي الفـــايد في الأسابيع التي سبقت وفاتهما في باريس. وفي سنة 2005، استمرت وكالة الأمن القومي الأمريكية في مقاومة كل المحاولات التي قام بها محمد والد دودي للحصـــول علـــى نســـخ من تلك الوثائق، وأصرّت على أنها تحتوي مواد ذات أهمية قومية.

في سياق التحضير لحرب العراق، اجتمعت كلتا الوكالتين لتقدّما للقادة السياسيين - الرئـــيس جورج بوش ورئيس الوزراء طوني بلير - المحادثات الخاصة الحساسة لأحد القادة الذين التزموا بدعم الحرب.

فـــي 9 شباط سنة 2003، أجرى السير ريتشارد ديرلوف، مدير عام جهاز MI6 المعسول الكلام والأنيق المظهر، عدداً من المكالمات الهاتفية حول عملية مراقبة سيتم تنفـــيذها ضـــد رئيس وزراء أسبانيا خوسيه ماريا أزنار، والسفير الأسباني في الأمم المتحدة ومسؤولين بارزين في وزارة الخارجية في مدريد. وكان اسم العملية المستعار النســـر، ووصـــفت بأنها سرية للغاية، وهو التصنيف الأعلى الذي تشترك به MI6 مع NSA.

تحدّث ديرلوف إلى جورج تينيت مدير CIA. وكان كل منهما يكن احتراماً كبيراً

للآخر؛ وكانا شخصين محترفين على رأس جهازي جمع المعلومات الاستخباراتية في عالم حالك يستعد لشن الحرب على العراق. وكان ذلك العالم، والكلمات لرئيسة وزراء بريطانيا السابقة مرغريت تاتشر، "لا يمكن مفاجئة أحد فيه مثل صديق".

وافــق طوني بلير، المستعد جيداً للحرب القادمة مع العراق، سراً على التجسس علــى أزنــار الــذي كان يدعوه الصديق الصدوق. وأرادت بريطانيا وأمريكا – بلير وبوش – أن تكونا متأكدتين تماماً أن حليفهما الأسباني في النزاع القادم سيبقى ثابتاً في الــتزامه خلــف الســتار كمــا فعــل علناً. وكان ما يزيد عن 95% من الأسبان إما يعارضــون الذهــاب إلى الحرب أو غير متحمسين للفكرة. ويتذكّر جورج غالاوي، المنشــق عن حزب العمل الذي أسّس لاحقاً حزب الاحترام، والذي اعتبره طوني بلير قــائد الحــركة المتصاعدة المناهضة للحرب في بريطانيا: كانت هناك أزمة تلوح في الأفــق، وتقترب من الرعب في كل من داونينغ ستريت والبيت الأبيض. وكان انهيار أزنار تحت الضغط سيسبب كارثة".

كــان أول شخص تحدث إليه ديرلوف في ذلك اليوم من شباط جون سكارليت. وكــان الرجل طويلاً، ممشوق القامة ذو رأس مدور، ورئيس سابق لــMI6، ورئيس لجــنة الاستخبارات المشتركة حينها – الممر الذي تعبر عبره كل معلومات MI6 إلى داونيــنغ ســتريت. ومنح موقع سكارليت كمشرف عام على أجهزة الأمن البريطانية مقعــداً في وزارة بلير (سيحل لاحقاً محل ديرلوف كرئيس MI6، وهو المنصب الذي لطالمــا تاق إليه). ولكن كرئيس للجنة الاستخبارات المشتركة، كانت مهمته الرئيسية معــرفة مــا يحــدث فــي العراق، وما يمكن معرفته حول صدام حسين، والتوقّع بما ســيحدث عــند اقتراب الحرب. وكان ذلك يتضمن معرفة النوايا الحقيقية لحلفاء مثل أزنار اعتباراً من كانون الثاني سنة 2003.

فــي الشــهرين الماضيين، كانت MI6 وCIA وNSA مشتركة أيضاً في التنصت علــى أميــن عام الأمم المتحدة كوفي عنان وهانز بليكس رئيس مفتشي الأسلحة لدى الأمــم المــتحدة. وطفت تلك العمليات أخيراً على السطح عندما ادّعت كلير شورت، الوزيــرة الســابقة فــي حكومــة بلير، في شباط سنة 2004 في البرلمان أنها تعرف بتسجيلات سرية قام بها جهاز MI6 لمحادثات عنان حول الحرب المرتقبة مع العراق. وتالياً لمعلومات كلير شورت التي كشفت بها التجسس على كوفي عنان، قال أنوسينشو أريــاس، الســفير الأســباني في الأمم المتحدة: "الجميع يتجسس على الجميع. وعندما تكــون هــناك أزمة كبيرة، تتجسس الدول الكبرى كثيراً. وإذا لم يكن مقر بعثتك مليئاً

بأجهزة التنصت، فهذا يعني أنك لا تساوي شيئاً". وبقيت تفاصيل كيفية وسبب التنصت على أزنار سرية لغاية كشفها في هذا الكتاب.

فـــي الأســـابيع التي سبقت الحرب، وصف بلير أزنار وفقاً لألستر كامبل، مدير الاســـتراتيجية فـــي داونينغ ستريت، بأنه أحد أكثر المتصلين هاتفياً ثقةً. وكان أزنار يعـــرف ويقـــبل بأن يتم الاستماع إلى مكالماته الهاتفية مع بلير وتسجيل ملخص لها. ولكنه لم يتوقع أبداً – ليس للحظة واحدة فقط – أن يأمر رئيس الوزراء بالتنصت على تعليماته لمساعديه.

كـــان كامـــبل، الشخصـــية الذكية الحكيمة، بين أولئك في داونينغ ستريت الذين يحتارون من علاقة بلير الوثيقة مع رئيس الوزراء الأسباني. وقال لاحقاً بشكل خاص لـــبيـــتر ســـتوتهارد، رئيس التحرير السابق لصحيفة التايمز: "كان أزنار رجلاً يلتزم الحقوق الأوروبية، وكان من الصعب شرح علاقته الوثيقة مع طوني بلير كما هو حال علاقة رئيس الوزراء مع جورج بوش".

كانـــت الحقـــيقة أن بلير وأزنار موحدين في مواجهة ضعف الدعم الشعبي الذي يتمتعان به في الحرب على العراق. وكان بلير يتلقى مكالمات أزنار في مكتبه الكائن فـــي مقـــر رئاسة الوزراء في داونينغ ستريت. وكانت غرفة مريحة يوجد فيها طاولة صغيرة عليها صورة كبيرة مؤطرة لـــنلسون مانديلا، الذي يعتبره بلير بطله المفضل. وكـــان إلـــى جانبها هاتف. ولكن الرنين يأتي من هاتف فرعي موضوع على طاولة صـــغيرة فـــي الـــزاوية البعيدة للغرفة، والتي يجلس إليها شخص يسجل الملاحظات. وكانـــت الغـــرفة منفصلة عن بقية المقر بأبواب طويلة من الجلد الأزرق. وكان بلير يحيـــي أزنـــار دائمـــاً بشكل عاطفي، ويقول له: "مرحباً يا خوسيه ماريا". وكانت تلك إحـــدى مهـــارات بلـــير الهاتفية التي تجعل الشخص الذي يتكلم معه يشعر كما لو أنه الوحـــيد المهم. وحاول بلير في تلك المحادثات نقل وجهة نظره التبشيرية حول أهمية إزالة صدام حسين؛ وتحدث حول إنشاء أمم متحدة متحررة من سباتها البائس الحالي؛ وكـــيف أن إزاحـــة طاغـــية ســـيعمل كإنذار للبلاد المتشددة الأخرى التي يجتمع بها الإرهـــاب بـــالقوة المرعـــبة. وستكون أيضاً رسالة إلى الفلسطينيين والإسرائيليين أنه ينبغي إيقاف ظروف عدم الاستقرار الحالية في الشرق الأوسط.

فـــي ذلك اليوم من شباط وعبر نهر التايمز، استمر ديرلوف في إجراء اتصالاته الهاتفـــية. وكـــان أزنار آنذاك لا يتمتع بتأييد سوى أقل من 5% من جمهور الناخبين لقراره دعم بريطانيا والولايات المتحدة في حربهما على العراق. وخاطب بلير كامبل

مداعــباً بعــد مكالمـــة أخرى من مدريد بالقول: "هذه نسبة أقل من عدد أولئك الذين يعــتقدون أن ألفيس بريسلي ما يزال حياً". وكانت تلك النسبة المنخفضة جداً من تأييد جمهــور الناخبين السبب في قيام ديرلوف بمكالماته الهاتفية. هل سيبقى رئيس وزراء أسبانيا ملتزماً بقرع طبول الحرب، أم أنه سيتردد ويغير رأيه مما سيؤدي إلى تقويض الخطــط العسكرية التي وضعت لندن وواشنطن اللمسات الأخيرة عليها لغزو العراق وإزاحـــة صدام حسين؟ وكانت الطريقة الوحيدة لاكتشاف الجواب التنصت على سفير أسبانيا في الأمم المتحدة، ومسؤولي وزارة الخارجية البارزين في مدريد، والمناقشات التي يجريها أزنار معهم.

فـــي نهاية ذلك اليوم البارد الواقع في 9 شباط في لندن، تم اتخاذ قرار بالتنصت علـــى أزنـــار. وكان المشتركون مباشرة في القرار السير ريتشارد ديرلوف، وجورج تينيــت، وجــون ســكارليت ومدراء الاستخبارات البريطانية وNSA الآخرين. وجاء الضوء الأخضر للقيام بذلك من داونينغ ستريت بعد محادثة مطوّلة بين بوش وبلير في اليوم التالي.

جاء قرار عملية النسر عندما أرسل فرانك كوزا، المحلل البارز في وكالة الأمن القومي الأمريكية بريداً إلكترونياً إلى نظيره في الاستخبارات القومية البريطانية يطلب منه فيها القيام بمراقبة أعضاء بارزين في مجلس الأمن الدولي. وطلب كوزا تلقي كل المعلومـــات التي تستطيع منح صانعي السياسة الأمريكيين تفوقاً واضحاً. وتم تصنيف طلــبه بأنـــه ســـري للغاية تعليق إكس آي. وتشير إكس آي إلى أنه ينبغي عدم كشف الطلـــب نهائـــياً، وأن يبقى سرياً للغاية. وبكل الأحوال، وجدت نسخة من الرسالة فيما بعــد طريقها إلى مترجمة الأمن القومي البريطاني كاثرين غن. وقامت بإرسالها إلى وسيط أوصلها بدوره إلى الصحفية البريطانية يوفن ريدلي، التي اكتسبت شهرة واسعة بعــد تحريرها من قبضة طالبان في أفغانستان لتصبح مناصرة قوية للحركة المناهضة للحرب. وبالمقابل، مرّرت المذكرة إلى صحفي في الأوبزرفر اللندنية. وتم اعتقال غن بموجب قانون السرية الرسمي البريطاني، وإسقاط التهم عنها لاحقاً.

في ذلك اليوم من شباط، كان النشاط الأساسي الذي تقوم به الاستخبارات القومية البريطانـــية، وNSA وMI6 وCIA التجسس على أزنار. وكان يتم إدارة العملية خارج تـــلال مينويذ باستخدام برنامج في نظام إيشلون التابع لوكالة الأمن القومي الأمريكي يدعى المعجم: وكانت حواسب النظام تستطيع استهداف أرقام هواتف، وكلمات معينة، ويمكـــنها كذلـــك تحليل الأصوات الشخصية عن طريق أشعة الليزر التي يتم توجيهها

علـــى الـــنوافذ لقراءة التغييرات في أصوات الناس الذين يتكلمون داخل الغرف. وتم وضع مقطع من صوت أزنار في حواسب المعجم، الذي كان مبرمجاً لمتابعة كل كلمة يقولهـــا الـــرجل ومسؤوليه البارزين حول العراق في أي مكان في العالم. وتم تنزيل المعلومـــات الـــواردة في حواسب تلال ميويذ. وعملت سلاسل من الحواسب المتصلة علـــى حـــل شـــيفرة وتحلـــيل البـــيانات الواصـــلة لها، وإرسالها عبر خط آمن إلى الاســـتخبارات القومية البريطانية حيث كان يتم تصنيف المواد على أنها سرية للغاية. وكـــان يتم إرسالها بعد ذلك إلى جون سكارليت، رئيس لجنة الاستخبارات المشتركة. ومـــن هناك، كان يتم نقلها باليد مسافة قصيرة إلى داونيننغ ستريت في ملفات صفراء اللـــون يحمـــل كـــل مـــنها صليب القديس جورج على غلافها الخارجي، وهي إشارة مفـــتوحة إلى وطنية سكارليت. وللوصول إلى بلير، كان على رئيس الاستخبارات أن يطـــأ غالـــباً ألعاب ليو (Leo)، أصغر أبناء رئيس الوزراء الذي كان يستخدم أرضية داونيـــنغ ستريت كملعب له. وكان يتم إرسال نسخ عن الملفات عبر NSA إلى جورج بـــوش. وأصبحت تلك المعلومات المصدر الرئيسي لكلا السياسيين للحكم على مزاج أزنـــار ومســـؤوليه. وظهـــر بعد الحرب أن أزنار بقي ثابتاً في دعمه. وسيكلّفه ذلك منصبه كرئيس للوزراء في الانتخابات الأسبانية القادمة.

فـــي الأســـابيع الأخـــيرة من سنة 2005، افتتح مائير داغان اجتماعاً لموظفيه باقتـــباس قول سيرجي كوندراشوف، رئيس مكافحة التجسس في KGB سابقاً، بأنه إذا كان على KGB الاختيار بين تقارير جاسوس روسي في الإدارة الأمريكية والاشتراك فـــي نـــيويورك تايمز، فإنه سيختار الصحيفة. وذكّرهم داغان أنه لغاية تولّي بورتر غوس مهام إدارة CIA، كانت الوكالة تقيّم التقارير الاستخباراتية وفقاً لقاعدة بسيطة: أ ب ت ث بالنســـبة لصـــدقية المصـــدر، و4321 لمدى دقة المعلومات. وتعني أ1 أن المصـــدر موثـــوق تماماً، والمعلومات صحيحة بشكل غير قابل للنقض. ب2 تعني أن المصـــدر جـــيد، وأن المعلومة صحيحة على الأرجح. الفصل ث4 يعني أنه لا يمكن الوثوق بالمصدر، والمعلومات مزيفة تماماً. وتوقف داغان عن الكلام قليلاً ثم قال "إن غوس سأل عدداً من مساعديه حول ذلك التصنيف فاعترفوا أنهم لم يشاهدوا حالات أ1 ســـوى نادراً، وعدداً محدوداً فقط من ث4. وكانت الأغلبية العظمى من التقارير التي تمـــر عـــبر مكاتـــبهم مصـــنفة ت3 – كان المصدر موثوقاً في الماضي، ولهذا فإن معلوماتـــه ربما تكون صحيحة". وجال داغان ببصره حول طاولة الاجتماعات، وقال "إنه من الناحية المنطقية فإن المصدر الذي كان موثوقاً عادةً أصبح أحياناً غير موثوق

أيضـــاً، وأن المعلومات التي يمكن وصفها بالصحيحة" ربما تكون غير حقيقية أيضاً. وذكّــرهم أنه بالنسبة للموساد فإن الاستخبارات الجيدة تتطلب الحذر دائماً مثلما ينظر القدّيــس بولس إلى السماء – عبر كوب قاتمة." وكانت تلك إشارة حول الطريقة التي ينبغي على الموساد الاستمرار بها لمواجهة التحديات بعدما أصبح العالم قرية صغيرة، ويزداد الطلب فيها على خدمات الاستخبارات يومياً. ولم تعد تلك الحدود الفاصلة بين الاتحــاد الســوفيتي والغرب قائمة. وغيّر الإرهاب، وتبييض الأموال عالمياً، والطغاة القســاة، والــنزاعات العرقــية الدور التقليدي للتجسس ومكافحة التجسس. في البحث اليائس عن المعلومة لمواجهة الأهداف الجديدة، تم إجبار أجهزة الأمن على العمل في مناطق غير مألوفة لها.

فــيما كانــت سنة 2005 تشارف على نهايتها، لم تكن الحرب على الإرهاب قد حققــت الكثير من أهدافها بعد. ورغم إلقاء القبض على صدام، إلا أن أسامة بن لادن والقــاعدة بقيا يشكلان تهديداً قوياً. واستنتج محللو الموساد أن القبض على بن لادن أو قــتله لن يقضي على القاعدة؛ التي تمتلك بنية تنظيمية قوية قادرة على استبداله فوراً، وكانت المنظمة نفسها تركّز على نشر أيديولوجيتها لجذب الآخرين ومحاكاة ما حققته فــي 11 أيلــول سنة 2001. وكانت مدريد، ولندن، وبالي، وعمّان كلها مواقع على الطــريق نحــو مذابح أخرى. وقدّر المحللون أن القاعدة منتشرة آنذاك في ستين بلداً، وتشكل بالتالي وحشاً متعدد الرؤوس.

لــم يكن أحد يستطيع تخيل ما سيحدث في لعبة القوة بين أيمن الظواهري، وبين أبــو مصــعب الــزرقاوي. وكــان كلاهما يستوعب أهمية استخدام الإنترنت كقاعدة افتراضــية لنشر أفكارهما وتوزيع التعليمات. وكانت الشبكة الدولية تعني أن مخيمات تدريــب القــاعدة تســتطيع جذب المجاهدين الذين يكرهون أصلاً الولايات المتحدة، وبريطانــيا وفــوق كــل شــيء إســرائيل. وأصبح الوقت اللازم لالتحاق المجندين بالمعســكرات أقصــر، مما خفف من مخاطر تعرضهم لهجمة جوية أو برية. والمثير للسخرية أن الزرقاوي تعرض للقتل جراء هجمة جوية نفذتها الولايات المتحدة بعناية في العراق سنة 2006.

ازدهر الإرهاب الذي ترعاه الدول بشكل مضطرد، وسوف يستمر في المستقبل المــنظور. وأخــذت بــلاد مــثل سورية، وكوريا الشمالية، وإيران بالحسبان مخاطر العقوبــات التــي قد تواجهها؛ ووصلت إلى نتيجة مفادها أنها تستحق المخاطرة. وفي دمشــق، وبــيونغ يانغ، وطهران كانت وجهة النظر لدى الجميع بأنه ليست الولايات

المتحدة التي تنوي شن حرب عالمية بإطلاق قنابل نووية ضد تلك الدول؛ ولا إسرائيل كذلك، لأن كل ما تمتلكه من غواصات متمركز في خليج عمان لا يمكنه شن ضربة استباقية حاسمة. ولهذا استمرت الأصولية الإسلامية في النمو، وكان رعاتها يعرفون أنهم لن يواجهوا، في أقصى الحالات، سوى ضربات عسكرية تقليدية. ولم تكن العقوبات، التي تعرض لها العراق أيام صدام حسين، فعّالة.

كانت القاعدة تعرف أن الإرهاب ليس سوى حرب تحت مسمّى آخر، ولكنه لا يعتبر عملاً حربياً. وتستطيع باكستان تسليح الانفصاليين الكشميريين لمهاجمة البرلمان الهندي سنة 2001؛ ويستطيع أعضاء حماس المولودون في دمشق تفجير الحافلات الإسرائيلية كما فعلوا طوال سنوات: ورغم ذلك، لم يكن يتم اعتبار أي من هذه الأفعال سبباً لإعلان الحرب على الدول التي ترعاها.

يتمثل خطر الإرهاب، كما حاضر مائير داغان دائماً في عناصر الموساد الجدد، في فعاليته المؤثرة. ولا يتطلب الأمر مبالغ ضخمة لتحضير انتحاري. ويمكن لهجمة واحدة إحداث فوضى عارمة، وإجبار حكومة ما على استخدام مواردها - القوة العاملة والتقانة - في محاولة لإلقاء القبض على الإرهابيين. ووفقاً لحسابات أحد محللي الموساد (للمؤلف) فإن: "إرهابي واحد يكلف تدريب مئة شخص للقضاء عليه أو اعتقاله".

كان دور الاستخبارات السرية الصينية CSIS المتزايد واضحاً في هذا الموقف المعقد. وتمتلك الصين تراثاً من الجاسوسية يمتد إلى ألفين وخمسمئة سنة خلت. ولكن نشاطاتها لم تكن ملحوظة كما هي اليوم.

منذ سرقة الأسرار النووية من لوس ألاموس، استمرت CSIS في توسيع نشاطاتها في الولايات المتحدة. والكثير من الدبلوماسيين الصينيين في السفارة في واشنطن، والقنصليات المختلفة والبعثات التجارية عبر الولايات المتحدة إما ضباط استخبارات عاملين أو مرتبطين مع الجهاز مباشرة. وقدّر مكتب التحقيقات الاتحادي أنه بحلول سنة 2005 وصل عدد عملاء ومخبري الاستخبارات الصينية إلى ما يفوق أي جهاز أجنبي آخر يعمل ضمن الأراضي الأمريكية. ومنذ عملية لوس ألاموس، حصل هؤلاء العملاء سواءً بالسرقة أو الخداع على ما قيمته 35 مليون من الأسرار معظمها من شركات التقانة التي تعمل لصالح الصناعة الدفاعية. وأعطى مدير مكتب التحقيقات الاتحادي روبرت مولر تعليمات بأن تشدد كل الشركات من إجراءاتها الأمنية، وأن يتم تلقين منظمي المؤتمرات التكنولوجية، التي تجذب العلماء الصينيين

دائمـــاً، حـــول كيفية التعرف على عملاء CSIS المحتملين. وتم الطلب إلى الجامعات تقديم تفاصيل حول الدورات والاهتمامات الأخرى للطلاب الصينيين الثلاثين ألفاً داخل حـــرمها بعدما وصل إلى مكتب التحقيقات الاتحادي أنباء بأن CSIS يدفع لعدد متزايد مـــن الأشخاص للدراسة في أمريكا؛ وكان الكثيرون منهم ينضمون إلى دورات ما بعد التخرج في جامعات مثل أوكلا، وهارفارد، وييل، وستانفورد. وبعد التخرج وحصولهم غالــباً علـــى درجات علمية في الحواسب والمواضيع العلمية الأخرى، كانوا يتقدمون للحصـــول على وظائف في الشركات التي تحصل على عقود دفاعية حساسة. وأخبر ضـــابط مكتـــب التحقـــيقات الاتحـــادي البارز تيد غندرسون، الذي عمل في مكافحة الإرهـــاب فـــي مكتـــب لـــوس أنجلوس، المؤلف: "يتم تعليم الطلاب كيف يسرقون، ويصورون، ويحصلون على مخططات أولية قيّمة وعقود سرية، وتهريبها إلى الخارج متخطين الحراس الأمنيين. وغالباً ما تكون المواد مصورة على مايكروفيلم يوضع في تجويـــف الســـن أو يـــتم ابتلاعه ليخرج بعد ذلك في أحد المنازل العديدة الآمنة التي يمتلكها CSIS في أرجاء البلاد".

اســـتطاع مائير داغان، من خلال علاقته الوثيقة مع بورتر غوس، استخدام القناة الخلفـــية لـــتزويد الأخـــير بتفاصـــيل حول ما يعرفه الموساد عن نشاطات CSIS في الولايـــات المتحدة. وكان رئيسا الاستخبارات يعرفان أن الكثير من المعلومات حساسة أكـــثر من اللازم سياسياً ليتم تمريرها إلى البيت الأبيض أو وزارة الخارجية حتى لا يكون هناك إثبات كامل على حدوث عملية التجسس.

فـــي تشـــرين الأول ســـنة 2005، أخـــبر كاستا في لوس ألاموس الموساد بأن جاسوساً لجهاز الاستخبارات الصيني في كاليفورنيا على وشك نقل أقراص مدمجة إلى الصـــين تحتوي على تفاصيل بالغة السرية حول أنظمة تسليح الولايات المتحدة، والتي كانـــت مشـــفّرة ومخبأة خلف أكداس من أقراص الموسيقى وآخر إصدارات الأفلام. وأصاب الشك سيانيم للموساد يعمل لدى نفس شركة الصناعات الدفاعية الفائقة السرية باور باراغون في أنايهم في كاليفورنيا، والتي توظّف العضو في شبكة التجسس تشي ماك، والذي أخبر بدوره الكاستا. وتم الطلب من السيانيم متابعة الرقابة. وفي غضون أسابيع، قدّم تفاصيل وافية للكاستا ليقوم بإنذار تل أبيب.

قـــام مائير داغان بتمرير التفاصيل إلى بورتر غوس عبر القناة الخلفية، وجهّز مكتب التحقيقات الاتحادي نفسه للقيام بعملية كبيرة. وفي 27 تشرين الأول، وهو اليوم الـــذي يسبق سفر تشي ماك خارج لوس أنجلوس مع زوجته ريبيكا، وعضوين آخرين

فـــي شبكة التجسس – شقيق تشي ماك المدعو تي وانغ، وزوجته فوك هيونغ لي – تم القبض على الثنائيين في منزل تشي ماك في داوني بكاليفورنيا.

اكتشـــف المســـؤولون مـــا وصفه عميل مكتب التحقيقات الاتحادي جيمس إي. غـــيلورد. بـــمـــنزل ملـــيء بالأســـرار. وتبين لاحقاً أنها أكثر عمليات التجسس ضد الولايـــات المـــتحدة خطـــورة منذ سرقة لوس ألاموس. وتم إيجاد مئات آلاف الوثائق والمعلومـــات الحاســـوبية في منزل تشي ماك، والذي حصل مع زوجته على الجنسية الأمريكية بعد وصوله إلى الولايات المتحدة في أيار سنة 2001. وكانت شبكة تجسس CSIS قائمـــة آنذاك، ولكن تشي ماك طوّر من نشاطاتها. وحصل على عمل كمهندس مـــع شركة باور باراغون، مما سمح له بالوصول إلى أنظمة تسليح فائقة السرية، بما فـــي ذلـــك المخططات الأولية لغواصة فيرجينيا الجديدة وأنظمة القيادة والسيطرة من طـــراز إيغـــس، التـــي تمـــثّل نواة مدمرات البحرية الأمريكية، وطرّاداتها وحاملات طائـــراتها. وســـرق تشـــي مـــاك، مهندس الإلكترونيات الذي يتمتع بما دعاه مكتب التحقـــيقات الاتحادي مهارات حاسوبية متطورة، مواد ستمنح الصين تفوقاً إذا أرادت الولايات المتحدة الدفاع عن تايوان في أي نزاع مع نظام بكين.

وصـــف الجيران تشي ماك وزوجته بأنهما مهذبان، ولكن متحفظين، وشخصين عاديين يعيشان حياة هادئة. وبعد وقت قصير من تحولهما إلى دعامتي مجتمعنا، تأقلما مع معايير العميلين المتخفيين اللذين لا يختلفان عن أعضاء لا يمكن حصرهم في عالم الاســـتخبارات الســـرية المظلـــم والخطير دائماً. وانتهى الأمر بالنسبة لهما. ولكن كم ســـيطول الوقـــت قبل ظهور فضيحة التجسس التالية؟ وعندما يحدث ذلك، كان مائير داغان مصمماً على أن لا يكون الموساد متورطاً في نهب الأسرار.

لـــدى وصوله كالمعتاد إلى مكتبه في الساعة 6:30 من صبيحة يوم الثلاثاء 24 كانون الثاني سنة 2006، وجد داغان على طاولته تقريراً كان ينتظره بتلهف من قسم الأبحاث والتطوير في الموساد. ونجح علماؤه، ومبرمجوه، وتقنيوه في ابتكار مجموعة جديـــدة من الأدوات التي ستضمن بقاء الجهاز في طليعة العمل الاستخباراتي. واختبر الكاســـتا كـــل أداة مـــنها ميدانياً عبر أوروبا. وفي باريس وبروكسل، جرّبوا صندوق البريد الإلكتروني الصامت، الذي يستخدم نظاماً حاسوبياً مصغّراً وفائق التطور بحيث يســـتطع العميل تبادل المعلومات مع عملاء ميدانيين آخرين أو المشرف عليه في مقر الموساد. وكان ضمن ذلك الصندوق الإلكتروني جهاز تشفير يعتقد المبرمجون في قسم الأبحاث والتطوير أنه حتى العاملين في فك الشيفرة لدى الاستخبارات السرية الصينية

– المعروف عنهم بأنهم الأفضل في العالم – لا يستطيعون اختراقها. وجاء مع الصندوق هاتف خلوي مطوّر بحجم علبة لفائف التبغ، والمعروف بإسم أداة اللانهاية، والذي يمكن وصله مع أي هاتف خلوي عادي، وجعله يعمل دون تشغيل أضواء الشاشة. وتم اختبار الجهاز خارج مقر الاتحاد الأوروبي في بروكسل، ووفّر قناة للتنصت على مدى أربع وعشرين ساعة، وكان يحوّل آلياً، كل ساعة، المحادثات التي سجّلها. وكانت أداة أخرى معروفة بإسم ضربة المفتاح وصممها فريق في قسم الأبحاث والتطوير ليتم وضعها داخل حاسوب هدف لتنزيل كل المعلومات المخزّنة على قرصه الصلب. وتم اختبارها في وكالة ترتيب مواعيد في مدريد. وكان الاسم المستعار لأداة أخرى العاصفة، والتي تم تصميمها لفحص كل الحواسب في مبنى ما واكتشاف مستوى الحماية الإلكترونية التي يتمتع بها كل منها. وتم اختيار موقع الاختبار ليكون مبنى سيمنس في ميونيخ. وتضمن تقرير قسم الأبحاث والتطوير أن العاصفة قدّمت نتيجة مرضية. وكان الانتصار الكبير بالتأكيد إنشاء أداة مراقبة تعرف بإسم الغبار البارع. وكانت تلك عبارة عن حسّاسات بحجم النملة تستطيع الانتشار في أرض معادية – تختبئ في الغبار، وبين الأعشاب أو داخل التربة – وسوف تلتقط ميكروفوناتها المجهرية البيانات وتنقلها إلى صندوق بريد إلكتروني مصمم لتخزين عدّة ميغابايت من المعلومات، والتي سيتم تحويلها فيما بعد إلى مقر الموساد. وكانت مدة حياة الحسّاس شهراً قبل أن يدمّر نفسه ذاتياً.

كان أول من حصل على هذه الترسانة من المعدّات الجديدة عملاء الموساد الميدانيون في البلقان، حيث أقامت القاعدة شبكة تمتد من البوسنة في الشمال نزولاً إلى ألبانيا، وحيث تعمل منظمات تمويل ومراكز معلومات تتخذ من المساجد مقرات لها. وفي الجبال خلف البحر الأدرياتيكي حيث توجد معسكرات تدريب المجاهدين من إنكلترا، وفرنسا، وأسبانيا، وإيطاليا قبل أن يتابعوا رحلتهم الطويلة شرقاً إلى أفغانستان، ويسافروا عبر إحدى مسالك تهريب الممنوعات المعروفة. ولاحقاً، يكتمل تدريبهم في جبال أفغانستان – حيث يبقى بن لادن وكبار مساعديه مختبئين – ويعودون عبر إيران إلى شمال تركيا، ويعبرون جنوب بلغاريا إلى مقدونيا، ومنها إلى ألبانيا. ومن هناك، إما يعبرون الأدرياتيكي إلى إيطاليا، أو يسافرون شمالاً عبر البوسنة، وكرواتيا، وسلوفينيا وصولاً إلى النمسا. ويعودون من هناك إلى منازلهم. ويدعوهم الموساد خيول طروادة، وهم انتحاريون صامتون ومترقبون، وصانعو قنابل، وإرهابيون مدربون على حرب الشوارع ومستعدون للضرب في قلب أوروبا.

وسـيكون هدفهم الرئيسي دائماً، كما قال مائير داغان للكاستا، المؤسسات اليهودية – المصـارف، والكـنس، والمدارس وأي منظمة يستثمر بها اليهود. ثم تأتي المؤسسات الأمريكية والبريطانية. ولكن تلك التي يمتلكها أو يديرها اليهود ستكون الأولى.

خصص داغان أفضل عملائه لتعقب وقتل المجاهدين في طريقهم إلى أفغانستان أو رحلـة عودتهـم. وكـانوا يلاحقون أولئك الذين ينجون فيما يشقون طريقهم شمالاً عائدين إلى أوروبا. وكانوا يبلغون أجهزة الاستخبارات الأخرى عن الذين يستطيعون تفادي الموت رغم كل تلك الإجراءات. وبحلول سنة 2006، زوّد الموساد جهاز الأمن الهولندي السري AIVD بأسماء خمسين مجاهداً وصلوا إلى هولندا في السنوات الثلاثة الماضـية. وفـي بلجـيكا، ساعد الموساد جهازها الأمني في كشف خلية للقاعدة قام أفـرادها بـرحلة طويلة عائدين من أفغانستان. وفي شقة الخلية في بروكسل، اكتشف الأمـن جوازات سفر مزورة وكتيبات للقاعدة حول كيفية صنع القنابل. ولكن الإحباط أصاب الموساد مرة أخرى لرؤية أن مستوى التعاون بين أجهزة الأمن الأوروبية الذي لطالمـا كـان مصـدراً للتباهـي لم يكن قريباً من المستوى الذي يحافظ عليه القادة السياسيون. واستمرت الاستخبارات الفرنسية في الجدال سنة 2006 بأن هولندا فشلت في تسليم الإرهابيين المشتبهين المطلوبين في فرنسا. ورفض الهولنديون الاتهام.

كـان المشـتبه بهـم أعضـاء في جماعة التكفير والهجرة. وهرب مؤسسوها من...... إلى......، حيث اندمجت الحركة مع القاعدة. ووصلت إلى ذروة نشاطها في سنة 2003. وكان أعضاؤها، الذين يعملون في خلايا سرية للغاية، يجندون المجاهدين للسـفر إلى أفغانستان لتلقي التدريب هناك. واستلقت أجساد أولئك الذين لم يعودوا إلى أوطـانهم على طول الطريق من وإلى أفغانستان. وكالعادة، نشر الموساد نعواتهم في الصـحف العربية المحلية. وكانت عائلاتهم تتلقى أحياناً الزهور وبطاقة تعزية *قبل* أن يتم قتل المجاهد. وكان ذلك مصمماً لبث الرعب في قلوب أولئك المجاهدين.

كـان أحـد الذين تمكنوا من الفرار ليونيل دومنت، الفرنسي الأصل من روبيه، وهـي بلدة صناعية في شمال فرنسا. اعتنق في سنين مراهقته الأولى الإسلام، وأنهى خدمته العسكرية لاحقاً في الجيش الفرنسي العامل في الصومال. وكان لوحشية الكثير من زملائه الجنود تجاه السكان المسلمين تأثير قوي ودائم على دومنت. وخلال الحرب في يوغوسلافيا السابقة، ذهب إلى البوسنة للقتال مع المجاهدين الذين تدعمهم القاعدة.

كـان أسـامة بن لادن يبحث في ذلك الوقت عن أماكن جديدة لهزيمة الكافرين. وبشكل متزامن تقريباً مع القتال في البوسنة، تفجّر النزاع في الشيشان. وشكّلت ألبانيا

ساحة قتال أخرى للقاعدة؛ وانتشرت الفوضى في البلد، مما جعله أرضية هشة لمهربي السلاح والجماعات الأخرى المتصلة بالإرهابيين. وحولتهم القاعدة إلى قوة كبيرة؛ ودعمتهم مادياً، إلى جانب تقديم المساعدات الإنسانية لهم. وأصبحت ألبانيا نقطة الانطلاق نحو كوسوفو المجاورة. وكان دومنت بين حوالى خمسمئة مجاهد تم تهريبهم إلى العاصمة الألبانية تيرانا. وقاد العملية أيمن الظواهري نائب أسامة بن لادن. وبعد نزاع لا رحمة فيه ضد القوات الحكومية، انتقل المجاهدون إلى مقدونيا. واستطاع المال والمساعدات الإنسانية مجدداً الفوز بثقة القرويين البسطاء. وفي النهاية، استطاع الناتو القضاء عليهم. ولكن القاعدة استطاعت حينها تجنيد مئات الأشخاص الآخرين. وذهب الكثيرون منهم إلى أفغانستان لتلقي تدريبات خاصة.

عندما ساد سلامٌ مضطرب المنطقة، عاد دومنت إلى روبيه وشكّل مجموعته الخاصة، التي درّبها وقادها لتنفيذ عدد من الهجمات الإرهابية. وحاولت الشرطة الفرنسية، وفشلت، في اعتقاله، وهرب دومنت إلى البوسنة وأصبح عضواً بارزاً في القاعدة هناك والتي أخذت تكبر بسرعة. وتم إلقاء القبض عليه أخيراً، ولكنه هرب من السجن، وشق طريقه نحو أفغانستان. وكاد كاستا الموساد يقتله مرتين قبل أن يصل إلى أمان الجبال القاحلة حيث تقيم القاعدة معسكراتها على طول الحدود الأفغانية مع باكستان. وفي كانون الثاني سنة 2006، كان الموساد يعتقد أن دومنت ما يزال هناك، ويشرف على تدريب المجاهدين الآخرين المولودين في فرنسا. وكان سيتم استخدام الأدوات التي ابتكرها قسم الأبحاث والتطوير في الموساد لتعقّبه وقتله.

وافق أرييل شارون على تخصيص ميزانية تبلغ مئات ملايين الدولارات لتصنيع ترسانة أدوات المراقبة. ولكن في صبيحة يوم 24 كانون الثاني، عرف مائير داغان أن السياسي الإسرائيلي الذي يفضله على كل الآخرين لن يتعافى أبداً من الجلطة الدماغية التي تركت شارون في غيبوبة دائمة، ومشلولاً وموصولاً بآلة دعم الحياة في إحدى مستشفيات القدس. وأشار فريقه الطبي إلى أنهم لا يستطيعون فعل المزيد. وكان داغان يزور، كلما استطاع، جناح الطابق السابع حيث يستلقي صديقه القديم على فراش الموت، ويقف أمام الباب، ويراقب بعينيه الذكيتين الحادتين ضربات قلب شارون تستمر في الخفقان عبر شاشة المراقبة قرب سريره، وكانت النبضات الظاهرة على الشاشة تخفف من قبضة الرجل العجوز على الحياة إلى الرمق الأخير. وكانت عائلة شارون متواجدة هناك عادةً، ومجتمعة حول السرير، هادئة وتجتاحها المشاعر باقتراب الموت. وكان داغان يستطيع رؤية الأسف واليأس وفقدان الأمل الذي أصاب

العائلــة والأطباء والممرضين المستسلمين تماماً. وتساءل فيما إذا كان شارون يشعر بوجودهــم. والشـــيء المؤكد أن العائلة التي تجتمع حول السرير تشترك في طقوس عميقة، وبدائية، وغريزية وتحدّق بصمت على الشخص الراقد دون حراك، كما لو أنه لا توجــد كلمــات تستطيع التعبير عن مشاعرهم الداخلية. وكان داغان يفهم جيداً أنه، خلال حياته كجندي ورئيس للموساد، رأى تأثير الموت على الآخرين مرات كثيرة.

كـــان يعــرف أن الأجهــزة الطبية التي تحيط بــشارون، والآلات التي تصدر أصـــواتاً مخــتلفة، ســتقدّم بعض التأكيد للعائلة بأنهم لم يفقدوا الأمل بعد، وأن هناك إجــراءات أخــرى يمكــن اتخاذها لإبعاد الذي لا مفر منه. وكان هناك عربة جراحة مطلية باللون الأحمر قرب السرير. وكانت تلك مخصصة للطوارئ، وتشكل المساعدة الطبــية الأخــيرة مــع عقاقير لتحفيز القلب، وأكياس مختلفة، وحقن، وضواغط وقف النزيف، ومبازل، وقسطرة، وأنابيب هواء، وجهاز تنفس، وجهاز إلكتروني قادر على تولــيد صــدمات كهربائــية قوية لتشغيل قلب شارون إذا توقف. ولن يتم اتخاذ قرار الإنعاش سوى عندما تحين تلك اللحظة. وأخبر داغان مساعديه أنه في حال كان الأمر بيده، لن ينعش صديقه ليعيش في حالة نباتية.

بعــد مراجعة تقرير قسم الأبحاث والتطوير، استعد داغان لأولى اجتماعاته في ذلــك الــيوم، والذي كان مخصصاً للقاء ضابطين بارزين من إدارة مراقبة الأراضي الفرنســية DST. وتعتــبر الإدارة أكبر أجهزة استخبارات الجمهورية الست، وتوظّف آلاف الأشــخاص، وطــوّرت عبر السنين علاقات وثيقة مع الموساد. وتم تثبيت تلك العلاقــات عندما ساعد الموساد DST على إحباط مكيدة إرهابية بجعل طائرة تصطدم بــبرج إيفــل. وتعاون الجهازان منذ ذلك الوقت لمواجهة عدد من هجمات القاعدة في فرنسا. ولم تظهر تفاصيل أي من العمليات علناً، ولكن إحداها كانت مخططة لاغتيال الرئيس شيراك.

أيدت فرنسا، مثل الكثير من البلاد الأوروبية الأخرى، علناً الحرب العادلة على الإرهــاب، وتــم اعــتقال الإرهابيين حينما كان ذلك ممكناً؛ وعملت DST بمثل قسوة الموســاد مــن وراء الســتار. وكان ذلك نتيجة لإصلاحات شاملة سنة 1986 طالت شــرطة الــبلاد وأجهــزتها الأمنية. وبعد هجمات 9/11، تزايد التعاون مع الموساد بســرعة. وكان لدى كلا الجهازين أرضية مشتركة في التعامل مع تأثيرات الجهاد في الشيشــان، وغزة، والضفة الغربية، وكشمير والذي قاد إلى بروز التطرف بين عرب الشــرق الأوسط الذين وصلوا إلى باريس، ومرسيليا، وليون وهي مدن تحفل بالكثير

مـــن الاستثمارات والنفوذ اليهودي فيها. وتشكلت شبكة القاعدة في فرنسا بشكل كبير من الجيل الثاني لمهاجري عرب شمال أفريقيا من عائلات الطبقة العاملة أو الوسطى. وكانـــت الأغلبـــية مـــا تزال في بداية العشرينيات من أعمارها، والتي أغراها الوعظ التبشـــيري لأسامة بن لادن عبر الفيديو ليصبحوا مجاهدين بعد استماعهم إلى خطباء متطرفين في المساجد. وشق المئات طريقهم نحو أفغانستان، ولاحقاً نحو العراق.

جعـــل قـــرب المســـافة مع شمال أفريقيا من أسبانيا نقطة انطلاق مهمة للقاعدة لتهريـــب العملاء إلى فرنسا. وتتهم وثيقة أعدّها أحد محللي الموساد سنة 2005 (رآها المؤلـــف) الشـــرطة....... بتلقـــي دفعات نقدية مقابل تهريب الإرهابيين إلى أسبانيا. تسيطر القاعدة على الشبكات الإجرامية في أسبانيا، وتتعامل بتبييض الأموال، وتهريب الممـــنوعات من البلقان. وما تزال أسبانيا تعتبر ملاذاً آمناً للمتطرفين الإسلاميين حتى بعد تفجيرات مدريد. وتشير التقديرات الحالية إلى أنهم على صلة بالجماعات المتطرفة الثمانية عشر التي لم تستطع الاستخبارات الأسبانية اختراقها بنجاح.

تم تمرير المعلومات التي حصل عليها سيانيم أسباني للموساد إلى DST، إضافة إلـــى حضـــور القاعدة المتزايد على الحدود الفرنسية مع ألمانيا. ووجدت الجمهورية الاتحادية نفسها تصبح أرضية خصبة للقاعدة التي تعمل على تجنيد المجاهدين في مدن الجامعـــات مـــثل هامبورغ، وبرلين وفرانكفورت، وفايزبادن، وديوزبورغ، وميونيخ. ورغـــم أن الموســـاد ســـاعد في تدمير أهم خلايا القاعدة في ألمانيا قبل أن تتمكن من إطلاق هجمة إرهابية في ستراسبورغ ضد كاتدرائية المدينة وكنيسها التاريخي، إلا أن شبكة القاعدة ما تزال كبيرة؛ وجاء الكثير من أفرادها من البلقان.

للـــتزوّد بآخر المعلومات، يزور ضباط DST تل أبيب باستمرار، وتتمتع محطة الموســـاد فـــي بـــاريس بحرية الوصول إلى بيانات DST. والشيء المركزي في هذه العلاقـــة هـــي المراقـــبة المشـــتركة للمساجد والأشخاص عبر فرنسا. وكان الفريقان يحصـــلان علـــى مذكـــرات السماح بالتنصت على الهواتف بسهولة، وامتدت عمليات المراقبة منذ كانون الأول سنة 2005 لتشمل استخدام آلات تصوير الفيديو في المناطق العامـــة، واتصالات المشتبه بهم التي تتم عبر الهاتف والبريد الإلكتروني. واستطاعت DST، وبمســـاعدة الموساد مجدداً، إنشاء شبكة من المخبرين المسلمين ضمن الجاليات المسلمة في البلد. وبالنسبة للموساد، كانت العلاقات مع DST تخدمه في الحصول على معلومات من الوكالات الفرنسية الأخرى بما فيها الشرطة الوطنية.

كـــان الموســـاد يستطيع، عبر DST، تقديم الدلائل لذراع البلد القضائي لإصدار

مذكرات الاعتقال، والسماح بالتنصت والاستدعاء أمام المحاكم. وكان يتولى هذه الأمور فريق من قضاة التحقيق الذين يستطيعون أيضاً إصدار الأوامر باحتجاز المشتبه بهم مدة ستة أيام، وحتى إبقاء بعضهم مسجوناً لسنوات. وفي المحاكم، كان قضاة محترفون يحاكمون المشتبه بهم عوضاً عن نظام هيئة المحلفين في بريطانيا والولايات المتحدة. وشعر مائير داغان أن هذه الطريقة توفّر دروساً لإدارة بوش في مواجهتها للضغوط المتزايدة حول طريقة محاربتها للإرهاب: المعتقلين في معسكر غوانتانامو، والمشتبه بهم المحتجزين في مواقع سرية في أوروبا الشرقية، وشرعية قضائها العسكري المشكوك بها لمحاكمة كل أولئك.

تم عقد الاجتماع مع ضابطي DST البارزين في مكتب داغان وليس في إحدى غرف الاجتماعات الصغيرة حيث يلتقي عادة ضباط الاستخبارات الأجنبية؛ وكان ذلك إشارة أخرى حول العلاقة الوثيقة بين DST والموساد. وكما هو حال عملاء من الاستخبارات البريطانية والأوروبية الأخرى، كانت DST ترسل باستمرار ضباطاً رفيعي المستوى إلى المناطق الفلسطينية قبل سفرهم لمقابلة داغان. وكان مدير الموساد يصف تلك الزيارات بأنها جس نبض، ويراها طريقة أخرى في شدّ أزر الحماسة الفلسطينية. وعلى السطح، كانت طريقة لمحي آثار عقود من العزلة التي لم تقلل منها إزالة المستعمرات اليهودية من غزة.

لم يكن داغان يعرف الكثير عن زيارات ضباط MI6، وجهاز BND الألماني، والاستخبارات الأسبانية وCIA. وقال أحد مساعديه للمؤلف: "شكّلت تأويلاته أحياناً علامة فارقة. ولكن DST كانت تقدم عادةً معلومات موثوقة، وساعدها في ذلك قدرة عملائها على التحدث بالعربية بطلاقة وفهمهم لثقافتها. وكان ذلك يعني أنه يمكن الوثوق بتقييمات DST بما فيه الكفاية ليتم مقارنتها بالتقارير الواردة من غزة والضفة الغربية". وبالنسبة لداغان، كان الحصول على وجهة النظر الفرنسية حول الانتخابات الفلسطينية القادمة والنفوذ المتزايد لحماس على المستويات كافة في مواجهتها لفتح، الحزب الحاكم، حاسماً. كان ياسر عرفات أنشأ الحركة لتصبح إطاراً وطنياً يستخدم من خلاله رموز الكوفية، والخنجر، والبندقية لإذكاء الشعور الثوري الذي يكون فيه النزاع السياسي هو البطولي، والكفاح المسلح متفوقاً على السلطة الحكومية، والرفض الشديد أفضل من المساومة، وأن كل الخصوم – خصوصاً إسرائيل – أشرار، وأن الإرهاب عمل مشروع، والنصر النهائي لا يتحقق إلا من خلاله. ولكن عرفات توفي في السنة الماضية، وتزايد اليأس بين الشباب بشكل كبير،

إلى جانب انتشار البطالة، والفوضى الاجتماعية، وبدت فتح غير قادرة على إدراك أن الحكم يتطلب اهتماماً بالتفاصيل العادية.

انبثقت حماس من ذلك الوضع. وتم إنشاؤها على كراهية إسرائيل، وجنون الارتياب والنظرة الخاصة بكيفية تدمير إسرائيل، والدعم المالي الهائل من إيران. وكانت تسيطر على قادة حماس السياسيين رؤاهم الخاصة: الانتقام مجيد، ولا يمكن تحقيق النصر سوى بالشهادة. وتأسست حركة حماس في كانون الأول سنة 1987 على يد الشيخ أحمد ياسين، الذي أصبح زعيمها الروحي، وكانت تنظر إليها إسرائيل كطريقة لتحقيق التوازن مع المتطرفين ضمن فتح. ويتذكر رافي إيتان: "كنا نعتقد أن سياسة فرّق تسد ستعمل بشكل لا يصدّق كما عملت في الماضي". وفي آب سنة 1988، أعلنت حماس ميثاقها الذي يدعو كل المسلمين إلى تدمير إسرائيل وشعبها. وكان الرد سريعاً. ولقي ياسين حتفه في كرسيه المتحرك نتيجة استهدافه بصواريخ طائرات حربية إسرائيلية. وتم اغتيال عبد العزيز الرنتيسي، المفكر الاستراتيجي للمنظمة، بنفس الطريقة بعد ذلك بوقت قصير. وكان الموساد قد فشل في العام 1997 في اغتيال خالد مشعل، رئيس المكتب السياسي للمنظمة في عمّان (الفصل السابع عشر، بنغلغيت). ولقي صلاح شحادة، مهندس استراتيجية العمليات الانتحارية (وفقاً للوصف الإسرائيلي) في حماس، حتفه عندما دكّت طائرات أف-16 إسرائيلية منزله في غزة بالقنابل. وتوفيت زوجته وأطفاله أيضاً في الهجوم. ولغاية ذلك الوقت، كان ما يزيد عن ثلاثمئة هجمة انتحارية (وفقاً للوصف الإسرائيلي) قد أودت بحياة أربعمئة إسرائيلي، العديد منهم نساء وأطفال. ولكن حماس استمرت في الحصول على الدعم الشعبي بين الفلسطينيين مع تعهدها بالسيطرة على الأراضي الفلسطينية بحلول سنة 2027.

كان السؤال بالنسبة لمائير داغان في صبيحة ذلك الثلاثاء: كيف ستقترب حماس من تحقيق هدفها النهائي عبر الانتخابات الفلسطينية القادمة؟ وسيعود أي نجاح لها بشكل كبير إلى فشل ياسر عرفات في أن يترك لفتح حكومة فاعلة بعدما انفردت بالسلطة طبقاً لاتفاقات أوسلو سنة 1993. وبعد ثلاث عشرة سنة، لم تستطع فتح تجديد صورتها بضخ دماء جديدة من ضمن كوادرها. وتألفت قيادتها من رجال كبار السن يتعلقون بالماضي. وكانت الحقيقة أن حال معظم الفلسطينيين كانت أسوأ في سنة 2006 مما كانت عليه قبل اتفاقية أوسلو، ويعيشون داخل حلقة من الحصار العسكري الإسرائيلي، ويختنق اقتصادهم وخصوصاً في منطقة غزة الجنوبية بالقيود على

تحــركاتهم. وهــل سيفيقون بعد بضعة أيام على فجر أخضر - عدد ضخم من رايات حماس ابتهاجاً بالنصر؟

كانــت الــتوقعات من مخبري الموساد في غزة والضفة الغربية، ومن محلليها أيضــاً، بأن حماس ستحرز نصراً معقولاً في صناديق الاقتراع - لكن فتح ستعود إلى السلطة. وتردّد صدى ذلك في تقارير مراقبة خالد مشعل في دمشق؛ وأشارت محادثاته الهاتفــية إلــى قــادة حمــاس فــي غــزة والضفة الغربية إلى أن نجاحهم في إدارة المستشــفيات، والمــدارس، ووكالات الغوث لن تكون كافية في النهاية. وما لم يعرفه داغان هو فيما إذا كان مشعل يعرف أنه مراقب ويزرع معلومات مضللة بمهارة. لكن محللــي الموساد لم يكونوا يعتقدون ذلك: كان مشعل أيضاً يرى في الانتخابات القادمة مجــرد خطــوة أولــى على السلم السياسي، وأن حماس لا تتوقع الحصول على قوة سياسية نافذة قبل مضي سنوات عديدة.

ظهــر لاحقــاً أن ضــابطي DST نقلا وجهة النظر هذه إلى داغان. وعند تلك الملاحظة، اصطحب رئيس الموساد كبار مساعديه لمشاهدة فيلم.

كــان مائير داغان مجنداً شاباً في قوات الدفاع الإسرائيلية عندما استخدم خمسة مــن أعضاء مجموعة أيلول الأسود في الساعات الأولى من يوم 5 أيلول سنة 1972، في مدينة ميونيخ حيث كانت تقام الألعاب الأولمبية، مفتاحاً خاصاً لدخول مبنى سكني يــنام فيه عدد من الرياضيين الإسرائيليين. وبعد خمسة وعشرين دقيقة، لقي اثنان من الرياضــيين حــتفهما نتيجة قتلهما بدم بارد. وتعرض تسعة آخرون للتعذيب. وكانوا سـيلقون حــتفهم أيضــاً في الأيام التالية. وصدمت المذبحة في تلك الليلة الدافئة من الخــريف العالم. وفي إسرائيل، وحتى قبل أن تجف الدموع، طالب الجميع بالثأر فيما كــان الإرهابيون يطالبون بإطلاق سراح 236 سجيناً سياسياً. وخلال أربع وعشرين ســاعة، كــان هــناك توتــر شــديد بين مختطفي الرهائن والشرطة الألمانية. جلس الإســرائيليون بمن فيهم داغان أمام أجهزة التلفاز غير مصدقين لما يحدث، فيما كانت تفشــل عملــيات الإنقــاذ الواحدة تلو الأخرى. وتم التخلي عن محاولة لاقتحام المبنى السكني عندما أدركت شرطة ميونيخ أن الإرهابيين يشاهدون استعداداتهم مباشرة عبر التلفاز. وفشلت محاولتان أخريان بعدما طالبت مجموعة أيلول الأسود بالحصول على طائــرة لــنقلهم مــع رهائــنهم خــارج ألمانيا. وسرعان ما وافق الألمان على تقديم مروحيتين لنقلهم إلى مطار ميونيخ. وكان بالانتظار قرب باب الطائرة فريق مسلح من الشرطة يرتدي ملابس موظفي لوفتهانزا. ولكن قبل لحظات من هبوط المروحيتين، تم

الطلـــب من الفريق إلغاء المهمة لأنها خطيرة جداً. وتمركز خمسة قنّاصة ألمان حول المنطقة للتعامل مع ثمانية إرهابيين مسلحين جيداً. وعندما حطّت المروحيتان، حصلت معـــركة نارية عندما حاول القنّاصة إصابة أهدافهم. وفجّر الإرهابيون قنبلة يدوية في إحـــدى المروحيتين، وقلبوا ما بداخل الثانية بنيران أسلحتهم. واستمر القنّاصة بإطلاق الـــنار. وفـــي غضون دقائق، لقي كل الرهائن التسعة الذين كانوا ما يزالون على قيد الحـــياة مـــن الهجـــوم الأولى على الشقة حتفهم، إلى جانب خمسة من مجموعة أيلول الأسود. وتم إلقاء القبض على ثلاثة منهم. ولكن بعد ستة أسابيع، وفي 9 تشرين الأول سنة 1972، تم اختطاف طائرة تابعة لشركة لوفتهانزا على أرض مطار فرانكفورت. وطالـــب الإرهابيون بإطلاق سراح الثلاثي المعتقل. ووافقت الحكومة الألمانية بسرعة على ذلك الطلب. وطار الإرهابيون، الذين ارتسمت على وجوههم ابتسامات عريضة، إلى إحدى قواعد مجموعة أيلول الأسود في الشرق الأوسط ليختفوا بعدها.

لـــم يكن هناك رجل، أو امرأة أو طفل في إسرائيل لا يعرف ما سيحدث لاحقاً. وتـــم الطلب من الموساد القضاء ليس على قتلة ميونيخ وحسب، وإنما كل أولئك الذين خططـــوا للمذبحـــة. وكان كل مدير عام جديد للموساد ينشغل في الأيام الأولى لتوليه منصـــبه بدراســـة ملفات الموساد حول كيفية تنفيذه للمهمة، والتي أطلقت عليها غولدا مائـــير رئيســـة الـــوزراء آنـــذاك اسم غضب *الرب*. ولم يحاول أحد ممن خلفها في المنصب، مثل بنيامين نتنياهو، وشمعون بيريس، وإيهود باراك وأرييل شارون قراءة كيف استطاعت فرق كيدون الموساد زرع بذور الخوف في قلب كل إرهابي. وبكلمات باراك (للمؤلف): "كانت النية تتجه نحو ضرب الإرهاب، وكسر إرادة أولئك الذين بقوا أحياء حتى لا يبقَ أحد منهم".

نفّـــذ الموســـاد طوال سنتين سلسلة من عمليات الاغتيال الخالية من أي مشاعر والمخططـــة بدقـــة. ولقـــي الأول حتفه في بهو شقته في روما بإطلاق النار عليه أحد عشر مرة – رصاصة لكل رياضي إسرائيلي ساعد على قتله. ومات آخر عندما أجاب علـــى مكالمة هاتفية في شقته الباريسية؛ عندما فجّرت قنبلة في السماعة رأسه. ولقي التالـــي حـــتفه بدفعـــه تحت عجلات حافلة لندنية في ذروة الازدحام. وفي نيقوسيا في قبرص، انفجرت قنبلة في مصباح كهربائي بجانب السرير. وقبل موتهم بعدّة ساعات، كانت عائلة كل رجل تتلقى الزهور وبطاقة تعزية تحمل نفس الكلمات: "تذكير بأننا لا ننسى أو نسامح". وبعد كل عملية إعدام يقوم بها الكيدون، كان يتم نشر نعي للإرهابي الميت في الصحف الناطقة بالعربية في الشرق الأوسط. وكان قسم الحرب النفسية في

الموساد يرتب إرسال الزهور والبطاقات والنعوات. وفيما كان الكيدون ينفذون عمليات الاغتيال، كان الأمر يتطلب وجود دعم من ثماني فرق أخرى. وكانت إحدى الفرق مسؤولة عن ملاحقة كل قاتل من أيلول الأسود. وكان التقنيون من الياهولومين، وحدة اتصالات الموساد، يزرعون معدّات تنصت لمراقبة كل إرهابي في مكان إقامته. وكان فريق آخر ينظم صناديق بريد سرية في عشرات المدن الأوروبية لتلقّي الرسائل من المخبرين. وتم استئجار منازل آمنة لعقد الاجتماعات السرية في لندن، وباريس ومدريد.

الآن، بعد أربع وثلاثين سنة، حوّل ستيفن سبلبيرغ، أحد أفضل صانعي الأفلام في العالم، المذبحة إلى فيلم بكلفة بلغت 65 مليون دولار أمريكي. وعندما سمع داغان عن نوايا سبلبيرغ، أصابته الدهشة عندما عرف أن المخرج لم يتصل بالموساد، على افتراض أنه لم يسع لتعاون كامل معه، للسؤال على الأقل عن توجيه لصحة العرض. واستند الفيلم إلى رواية الانتقام للمؤلف جورج جوناس، التي تم نشرها سنة 1984 وأنكرها الموساد باعتبارها محض خيال.

ادّعى جوناس في الكتاب بأنه يسبر مباشرة المشاعر، والتردد والشكوك التي انتابت كل فرد من فرق تعقّب الموساد، والتي أدت في النهاية إلى تغيير نظرتهم للمهمة ولأنفسهم. واختتم بالقول أن قصته – التي استند إليها فيلم سبلبيرغ – ستثير مشاعر الخوف. وأنها تتناول موضوع الثأر الذي يتعلق بصفوة أسئلة الكتاب المقدّس القديمة حول الخير والشر، والخطأ والصواب، والتي تبقى أخيراً الهم الأكبر للشعب اليهودي وتستمر في ملاحقة آفنر ورفاقه في مهمتهم.

لكن آفنر الغامض في الكتاب – قائد فريق الانتقام في الفيلم – لم يعمل للموساد أبداً، ناهيك عن اختياره ليكون عضواً في الكيدون. وحتى قبل أن يجلس مائير داغان ليشاهد ميونيخ، كان يعرف أن أعضاء آخرين في الموساد قالوا إن الفيلم لا قيمة له. وقال عنه ديفيد كيمش، نائب المدير السابق: "أنها مأساة أن يقتبس شخص ذو مكانة رفيعة مثل ستيفن سبلبيرغ، والذي قام بإنتاج أفلام رائعة، ميونيخ من كتاب مزوّر". واعتبر عافي ديشتر، المدير السابق للشين بيت، جهاز الاستخبارات الإسرائيلي الداخلي، الفيلم بأنه: "حكاية مغامرة للأطفال. وانضم أعضاء آخرون متقاعدون من الموساد، ومن كل أنحاء العالم، إلى موجة الانتقادات".

يتم تصوير الكيدون في الفيلم على أنهم أشخاص تملؤهم الشكوك حول أخلاقية المهمة. وعلى العكس، يتم منح الإرهابيين الأرضية لتبرير أعمالهم، كما يفعل

المدافعـون الآن عن الانتحاريين (وفقاً للوصف الإسرائيلي) في تسويغ مذابحهم. وتم القـيام بذلـك بالاستغلال الأمثل لمهارات منتج أفلام كبير. وما أغضب أعضاء فريق الاغتـيال الذين ما زالوا على قيد الحياة، إضافة إلى أعضاء حاليين في فرق الكيدون، أن الفيلم مثل الكتاب لم يشرح الأسباب الإسرائيلية في القضاء على الإرهابيين الذين لا يمكـن جلبهم إلى المحاكمة بطرق الاعتقال التقليدية. وفي الفيلم، يظهر فريق الاغتيال معزولاً في الميدان لشهور، واثنين من أعضائه أحدهم مزوّر والآخر صانع قنابل.

قال رافي إيتان، رئيس عمليات الموساد السابق، والذي لعباً دوراً هاماً في تعقّب مجموعة أيلول الأسود والقضاء عليها، للمؤلف: "لم يخطر ببالي مطلقاً أن أجد مزوراً لتحضـير الوثـائق في ظروف عملياتية بالغة الدقة. لقد قام قسم التزييف في الموساد بتحضـير كـل الأعمـال الورقية في العملية الحقيقية. ولم يكن هناك صانع قنابل في الفريق. وكانت يتم تجهيز المتفجرات في تل أبيب، وإحضارها إلى الفريق في الميدان. ولـم يتضمن فريق الفيلم أي امرأة، رغم أن نساء الكيدون لطالما كن جزءاً من فرق الاغتـيال. وكـان حضورهن هناك يساعد في الاقتراب من الهدف. لكن الناحية التي أخطأ بها الفيلم تماماً كانت قيام أعضاء فريق الاغتيال بمناقشة أخلاقية أعمالهم. وهذا مـا لـم يحـدث علـى الإطلاق. ولا يمكن أن يحدث أبداً. ويتم انتقاء فريق الاغتيال الحقيقي لتنفيذ مهمة ما بعناية شديدة نظراً لاستقرارهم الذهني. ومثل كل فرق كيدون، قام علماء نفس الموساد بإجراء عملية تقييم لهم قبل العملية، وجلسوا معهم بعدها. ولم يظهـر الفـريق أدنى إشارة إلى اعتلال في الشخصية. وكان الأمر بالنسبة لهم تنفيذ مهمة مدعومة قانونياً من دولة إسرائيل".

لكن داغان أراد الحكم على الأمر بنفسه. واصطحب معه الرجال الذين اشتركوا مباشرة في التخطيط والتنفيذ العملياتي للقضاء على قتلة أيلول الأسود. وكان قراره في نهايـة الفـيلم الـذي تبلغ مدته 145 دقيقة بليغاً: "ترفيهي – ربما. دقيق – قطعاً لا". وكانت تلك وجهة نظر داغان التي لم تظهر في أي من مراحل فيلم سبلبيرغ.

يـوم الخميس 26 كانون الثاني سنة 2006، وهو اليوم الذي أصبح معروفاً في إسـرائيل بـالخمـيس الأسود، كان مائير داغان يشاهد غير مصدق شاشة التلفاز في إحـدى زوايـا مكتبه. وتحولت المشاهد من مدينة غزة إلى الضفة الغربية، إلى نابلس وبيت لحم، ومن رام الله إلى القدس الشرقية، ومن مدينة عربية إلى أخرى وإلى قرى لـم تكـن سـوى نقاط على الخريطة الموجودة على جدار مكتب داغان. وكانت كل صورة تقدّم نفس المنظر المذهل لرايات حماس الخضراء التي ترتفع احتفالاً بالنصر.

ورفرفت الأعلام من مآذن المساجد وسطوح المباني، وانتقلت عبر الشوارع في موجة كبـيرة من اللون الأخضر التي تحملها الحشود عالياً. لقد حققت حماس نصراً تاريخياً كاسـحاً قلب كل توقعات المراقبين الأجانب، والأهم بالنسبة لـداغان توقعات محللي الموسـاد. كيف لم يستطع أحد التوقّع بما حدث؟ كيف لم يفهم أحد أن حماس أظهرت نفسـها يـوم التصـويت كمنظمة منضبطة قادرة على الاستفادة من ولاء أفرادها في الانتخابات؟ لماذا لم يكتشف أحد الاستعدادات لتحضير الرايات الخضراء الضخمة التي تـم تعلـيقها علـى المبانـي العامة؟ كيف استطاعت كتائب القسّام، الجناح العسكري لحمـاس، القـيام بمسيرات أمام شاشات التلفزة، وإطلاق النار من بنادق أعضائها في الهـواء، الذين قاموا بإزالة أقنعتهم المعتادة، وكيف استطاعوا التدرّب على ذلك دون إثـارة الشبهات؟ وكانت تلك هي الأسئلة التي طرحها مجلس الوزراء الإسرائيلي على داغـان. ولـم يكـن لديه أجوبة جاهزة. ولم يكن هناك شخص مستعد لإطلاق أحكام متسرّعة، وبقي جالساً في مقعده يراقب ما يحدث كما فعلت كل إسرائيل.

كـان هناك شيء واحد مؤكد. ستبقى محادثات السلام مجمّدة. ويعود السبب إلى الإحصـاء الـذي ظهر على الشريط أسفل شاشات التلفاز. لقد فازت حماس بـ132 مقعداً، ولم تترك لفتح سوى 43، وهي أغلبية كبيرة أنهت ما يزيد عن أربعين سنة من هيمـنة الأخـيرة علـى الحياة السياسية الفلسطينية. ولم يكن داغان ليختلف عن معلّق الإذاعـة الإسرائيلية الذي شبّه الانتصار بـزلزال أو تسونامي. وغيّر ذلك الفوز على المدى المنظور علاقة إسرائيل مع الفلسطينيين والعالم العربي خارج حدودها. للأفضل أم للأسـوأ؟ لـم يكـن يعرف ذلك. وكان يشك فيما إذا كان أي شخص في إسرائيل يستطيع الإجابة على ذلك السؤال.

فـي ظهـيرة يـوم الخمـيس، تلقّى داغان المكالمات الأولى من رؤساء أجهزة الاستخبارات الخارجية. وكانوا يريدون معرفة كيف استطاعت حماس، التي عارضت باسـتمرار كـل خطـوة باتجـاه السلام الذي يمثّل رغبة كل الفلسطينيين المعتدلين، الحصول على مثل تلك الغالبية الساحقة في الانتخابات. وهل سيضمن فوزها ذاك بأن توقف هجماتها ضد إسرائيل وتحاول إنشاء دولة فلسطينية حقيقية تعيش جنباً إلى جنب بسلام مع جارتها إسرائيل؟

زوّدهم داغان جميعاً بنفس الإجابة. ستركّز حماس أولاً على مسائل مثل التعليم، والصـحة والشـؤون الاجتماعية: كان ذلك حجر الزاوية في نجاحها الانتخابي. ولكن لتحقـيق ذلـك، تحتاج إلى التمويل بما في ذلك 52 مليون دولار التي تتلقاها السلطة

الفلســطينية من إسرائيل. ورغم أن حماس أظهرت بدخولها العملية الديموقراطية أنها كانت على الطريق للتحول من منظمة خارجة عن القانون إلى قوة سياسية رئيسية، إلا أنــه فــي ســبيل اكتساب معنى دائم لوضعها الجديد، كان لا بد لها من تغيير دعامة وجودها السابق: تدمير إسرائيل. وحتى تقوم بذلك، لن يكون هناك حوار ذي فائدة مع حمــاس. وذكّر داغان أولئك الذين لتصلوا به أن المتشددين في إسرائيل قدموا تقليدياً تــنازلات أكــبر من المعتدلين. مناحيم بيغن، الإرهابي الذي تحول إلى صانع سلام، والــذي ســلّم ســيناء مقابل اتفاقية سلام مع مصر. ودفع محارب إسرائيلي آخر هو إســحاق رابيــن حــياته ثمناً لمحاولة عقد صفقة سلام مع جيران عرب آخرين؛ وتم اغتــياله في النهاية على يد متطرف إسرائيلي. وتسبب أرييل شارون، الذي كان فيما مضى بطل الحق الإسرائيلي (وفقاً للوصف الإسرائيلي)، بإغضاب المستوطنين عندما أنهى حقهم في استيطان غزة.

نظــراً لارتــباطات حمــاس مع سورية وإيران، ينبغي على إسرائيل أن تدرس بجديــة مــدى الثقة التي يمكن أن تمنحها إياها قبل أن تطمئن لها. وجاءت حماس إلى الســلطة بعدمــا تعهــدت باقتلاع جذور الفساد، وكانت بعض أسوأ الاتهامات موجهة للقــوى الأمنية الفلسطينية التي أنشأها ياسر عرفات وتتألف من عشرة أجهزة منفصلة يصــل عــدد أعضــائها إلى ستين ألف شخص، وهو عدد ضخم لحماية كامل الشعب الفلسطيني الذي يبلغ تعداده أقل من 4 ملايين نسمة في غزة والضفة الغربية. واتهمت إســرائيل القــوى الأمنية بالفشل في منع الهجمات على الأهداف اليهودية؛ واستمرت حمــاس في الادعاء خلال الانتخابات بأن إسرائيل تستخدم تلك القوى لاغتيال عناصر حمــاس. وتوجــد الحقيقة في مكان ما في الوسط. ولدى كل من الموساد والشين بيت مخبريه داخل الأجهزة الأمنية الفلسطينية. ويتم استخدامهم لتحديد مواقع الأهداف التي تقــوم القوى الجوية الإسرائيلية باغتيالها. وساعد مناصرو حماس في الأجهزة الأمنية علــى تهريــب الانتحاريــن (وفقاً للوصف الإسرائيلي) خارج غزة والضفة الغربية لضــرب أهــداف داخل إسرائيل. وبالنسبة للغالبية العظمى من الفلسطينيين، لم تفعل القــوى الأمنــية شيئاً يذكر لإيقاف الأعمال الخارجة عن القانون في أراضيها. ويعتقد مائــير داغــان أن وعد حماس بإصلاح تلك الأجهزة ومحاكمة قادتها، الذين أصبحوا فاحشي الثراء بابتلاع ملايين الدولارات وتحويلها إلى حساباتهم المصرفية في سويسرا وبلدان أخرى، تهدف إلى تحسين الحالة الأمنية. وكان مستعداً لاستخدام موارد الموساد لتعقّب تلك الحسابات. ولكن ليس بعد. كان يريد أولاً رؤية ما ترغب حماس بفعله.

كان داغان حذّر محللي الموساد، الذين أخطأوا تماماً في تقدير النصر الذي أحرزته حماس، حول التوقّع بما سيحمله المستقبل. ومنذ اتفاقيات أوسلو، حافظت القيادتان الإسرائيلية والفلسطينية على مستوى معين من الحوار يتراوح من مفاوضات سلام حثيثة سنة 2000 إلى اتصالات محدودة خلال السنوات الثلاثة الماضية نظراً للعنف السائد. ولم تشترك حماس في أي من تلك الاتصالات - عدا إرسالها الانتحاريين (وفقاً للوصف الإسرائيلي) من غزة والصواريخ من الضفة الغربية إلى إسرائيل.

لم يدرس المحللون انتصار حماس الانتخابي الكبير فقط لأنه جاء في وقت وجدت فيه إسرائيل نفسها تعاني من ثورة سياسية. فقد استمر كاديما، حزب الوسط الذي أنشأه شارون، في جذب الأعضاء له. وهل كان ذلك في جزء منه تعاطفاً مع مؤسسه، أم أنه دليل على تعب الإسرائيليين من تشدد حزب الليكود وتردد حزب العمل؟ وقال عامي ايالون، الرئيس السابق للشين بيت، والمرشح العمالي للبرلمان في الانتخابات القادمة في آذار، أنه "لن يكون هناك انسحاب آخر أحادي الجانب من الأراضي الفلسطينية". لكن رئيس الوزراء المكلّف إيهود أولمرت أصرّ على أنه في حال فاز حزب العمال بالانتخابات في آذار سنة 2006، "فإنني سوف أنسحب من أجزاء في الضفة الغربية وأحافظ على الأغلبية اليهودية داخل حدود الدولة، ولكني أفضّل القيام بذلك بالاتفاق مع الفلسطينيين".

هل كان ذلك يعني أنه يرغب بالتفاوض مع حماس؟ ورفض الإفصاح في هذه المرحلة. لكن داغان تساءل فيما إذا كان ذلك مجرد كلام يحمل أكثر من معنى. (عقد كاديما صفقة مع رافي إيان وحزب المتقاعدين الذي يقوده ويسيطر على سبع مقاعد في البرلمان. وسينضم إلى حكومة كاديما الائتلافية لضمان انتخاب أولمرت كرئيس للوزراء. وبعد وقت قصير، كان هناك هجمات انتحارية على إسرائيل تبعها إطلاق صواريخ. ونفت حماس أي دور لها في الهجمات. وأخبر داغان في مؤتمره الصباحي يوم الاثنين أنها الحياة كالمعتاد).

الشيء المؤكد أن فوز حماس حقق مكاسب كبيرة للمتطرفين. ووفقاً لتحليلاته الخاصة، أظهر مائير داغان وضوحاً سياسياً لطالما أثارت دهشة شعبه. وقال لكبار موظفيه في مؤتمرهم الصباحي يوم الاثنين التالي للانتخابات: "هناك تغيير كبير يجري على امتداد الشرق الأوسط بأكمله. وستمر شهور عديدة قبل أن نستطيع رؤية ما وراء الوضع الحالي. إنها طبيعة التغييرات التاريخية الكبرى. وهي ببساطة طريقة حدوث

الأشــياء. وينبغي أن نكون مستعدين للتعامل معها – مهما حملت لنا. ولكن الحقيقة أن إسرائيل، والولايات المتحدة، وبريطانيا وبلدان أوروبا لا تستطيع تجهل الإرادة الشعبية للناخبيــن الفلسطينيين. لقد حققوا نصراً بنسبة 78%. ولا يستطيع أي بلد ديموقراطي آخر الادّعاء أنهم لم يحققوا شيئاً. وينبغي أن نرى الأمر كإشارة على أن الديموقراطية تغرس جذورها عميقاً. وينبغي أخذ ذلك بعين الاعتبار عند اتخاذ القرارات. ولا يعني ذلك الإسراع في إطلاق الأحكام. وإنما يعني أن نكون واقعيين".

فــي 14 أيــار سنة 2006، أصدرت لجنة أمن الاستخبارات البريطانية تقريرها حــول تفجــيرات لــندن الإرهابــية في 7 تموز سنة 2005. ونُقل عن السيدة إيلزا مانيــنغهام-بولر قولها: "حتى مع حكمة الإدراك المتأخر، أشك بأن MI5 كان يستطيع القــيام بأفضــل مما فعله، نظراً للموارد المتوافرة لنا في ذلك الوقت والمهام الأخرى المطلوبة منا. ولا نستطيع ضمان إيقاف هجمات مستقبلية".

رغــم أن مائير داغان كان معجباً بصدقها، إلا أنه رآه أيضاً كنتيجة لا مفرّ منها لفشل MI5 في وقف التهديد الذي يمثّله التطرف منذ نهاية التسعينيات. وتطلب الأمر ما كــان داغــان يدعوه صحوة 9/11 لإثارة انتباه الاستخبارات الأمريكية. ووجد الأمر محبطاً للآمال عندما قرأ حكم السيدة إيلزا بأن MI5 ما زال على موقفه بأنه كان يمكن تفــادي هجمــات الأصولية. وقال لمساعديه: "ربما يكون ذلك أمراً واقعياً، ولكنه يبدو قانعــاً أيضــاً. لا يمكــن للاستخبارات أن تكتفي بالقناعة. وكان هناك أفكار ستوجه الموساد في المستقبل".

اللحظة الحالية

يعتبر سجل أي جهاز استخبارات سري التعبير الحقيقي عن لاوعي الأمة، وتاريخ الدولة التي يخدمها. وتعتبر المعرفة بالنسبة لأي أمة الخط الأول في الدفاع. وتبدو هذه الحقيقة البديهية أكثر وضوحاً بالنسبة لدولة إسرائيل وعلاقتها بالموساد.

وهذا الكتاب نسخة منقّحة عن ذاك الذي نشرته منذ ست سنوات. وفي ذلك الوقت، وصف مير عميت، مدير عام الموساد الأسبق بكل كرم ذلك الجهد على أنه "يقدّم المعلومة كما حدثت - وكما هي". وفيما أثنى نُقّاد آخرون على الكتاب بعبارات مماثلة، إلا أن الحقيقة تبقى أن أي كتاب حول أجهزة الاستخبارات لا يأمل بأن يكشف القصة الكاملة لأي من نشاطاتها. وإلى أي حدّ استطعت الاقتراب، لا يستطيع سوى القارئ الحكم على ذلك؛ والشيء المؤكد أنه لا يوجد كاتب غير إسرائيلي استطاع الاقتراب إلى هذا الحدّ؛ ولم يُسمح لأي كاتب إسرائيلي أيضاً، في حال كانت لديه العلاقات المناسبة، بأن يكتب ما عرفه. ويحرس الموساد بشكل مفهوم أسراره بغيرة، وينتقي بحرص الأشخاص الذين يشاركهم ببعضها. لقد عرفت أكثر مما كنت أتوقع في السنتين والنصف التي قضيتهما أعمل مع، وليس لصالح، الموساد لدراسة وكتابة وبث الفيلم الوحيد الذي سمح الجهاز بإنتاجه حول نشاطاته. وعنوان الفيلم هو "آلة التجسس" (The Spying Machine)، والذي عرضته القناة الرابعة في التلفاز البريطاني، وقنوات أخرى في العالم. وقد حصل الفيلم أيضاً على مديح النقّاد.

وساهم العملاء الميدانيون، والمحللون، ورؤساء الأقسام وعدّة رؤساء للموساد بوجهات نظرهم حول كيفية عمل الموساد، وآلية اتخاذ القرارات فيه، وعلاقاته مع الأجهزة الأخرى. وكنت أتفاجأ في كل يوم قضيته استمع وأسجل وجهات نظرهم: صدق الشخص الذي أقابله، وقدرته أو قدرتها على استذكار التفاصيل الدقيقة، والرغبة في عرض التقارير والوثائق عليّ، والتي لم ينشر منها الكثير بعد. وما تزال العديد من تلك العلاقات الأصلية باقية لغاية اليوم. وقد استطعت من خلالها كتابة قصص دقيقة حول الموساد لصحف ومجلات تتمتع بسمعة جيدة.

ولم تكن بعض تلك القصص تروق للموساد، ولكن لم يشتك أي من المصادر

بسبب ذلك ولو مرة واحدة. وقال لي رافي إيتان، مدير العمليات الأسبق في الجهاز - ومصدر مهم لهذا الكتاب - بعد نشر إحدى المقالات: "على الأقل أنت لا ترى الأحداث عبر موشور يعكس الألوان".

ومنذ صدور النسخة الأولى من هذا الكتاب، استمرت المعلومات حول الموساد بالوصول إلي. وجاء بعضها من بعض التسريبات. وعلمت منذ وقت طويل أن الموساد، مثل أي جهاز استخبارات آخر، يحب إخفاء دوره. وطوال الوقت الذي تعاملت به مع موظفيه، لا أستطيع القول إن أي تسريب للمعلومات كان مضللاً. ورغم ذلك، تم تعزيز الدور الذهبي في عملي البحثي: تحقق، وتحقق مجدداً. ولا أستطيع تذكر أي مثال لم يقل مصدري الأصلي الحقيقة حوله.

ومنذ وضع مسودة هذا الكتاب، وجد الموساد نفسه، مثل كل أجهزة الاستخبارات، يواجه تحديات جديدة. ورغم أن نهاية الحرب الباردة أدت إلى اختفاء المواجهة بين القوى العظمى، إلا أن النظام العالمي الجديد يتطلب دوراً جديداً للجواسيس. ووجد الموساد نفسه، مثل CIA وM16، وكل أجهزة الاستخبارات الرئيسية الأخرى، يواجه تهريب الممنوعات، والإرهاب على الأصعدة كافة والجاسوسية الاقتصادية. وفي نفس الوقت، كان الموساد مصمماً على الحفاظ على موقعه كجهاز ما زال يصر على أن تلعب القوى البشرية دوراً رئيسياً يتكامل مع الأقمار الصنعية والأنظمة التقنية الأخرى لمواجهة التهديد الذي يشكله أسامة بن لادن.

وقاد تنوع التهديدات التي تواجهها إسرائيل والعالم خلف حدودها إلى قيام الموساد بالعمل بأسلوب أكثر فتكاً. وتعكس الكمية الكبيرة من المواد الجديدة في هذه النسخة غالباً قسوة أساليب الموساد التي لا ترحم، والذي لا يزال جهاز الاستخبارات الوحيد الذي يمتلك وحدة اغتيالات مجازة رسمياً: تستمر سرية *كيدون* في القتل والقتل مجدداً.

وقال مائير داغان، آخر مدراء الموساد لكادره: "تقاتل النار بالنار". ولكن فيما التزم الجهاز بالصمت في الماضي حول عمليات الاغتيال التي نفّذها، يسمح اليوم للتفاصيل بالظهور علناً على أمل أن يردع ذلك أعداءه. وليس هناك دليل مقنع على تحقيق ذلك.

ورغم أن معظم الناس اليوم يملكون فكرة معقولة، حتى وإن كانت محدودة، عن كيفية عمل الجواسيس ويفهمون تعابير مثل *عميل مزدوج*، و*منازل آمنة*، إلا أنهم لا يعرفون آلية عمل الجاسوسية الدولية وكلفتها الاقتصادية. وجزء من السبب الذي

دفعني لوضع نسخة منقّحة من هذا الكتاب كان لتوفير نظرة حول الآلية التي ما زال الموساد يستخدمها لتأكيد القول المأثور أن المعلومات قوة. وزاد زوال اتفاقية وارسو، وحرب العراق سنة 2003، وظهور القاعدة كعرّاب جديد للإرهاب من الحاجة للاستخبارات.

وتحتل الجاسوسية جزءاً مهماً من مخيلة العامة لاكتساب المعلومات. وكان هدفي إرضاء ذلك التعطّش.

الحقيقة الوحيدة اليوم هي أنه إذا نجحت حرب الرئيس بوش العالمية ضد الإرهاب - التي شنّها متفائلاً بعد أحداث 11 أيلول سنة 2001، والهجوم على البرجين التوأم والبنتاغون - لن يكون هناك حاجة لأن تسجل أجهزة استخبارات أخرى ملاحظات حول كيفية إدارة الموساد لعملياته. وقد يكون ذلك صعباً على التصديق لأعدائه. وغالباً ما يكف الجهاز يد عملائه الذين يفشلون في إظهار مقدار معين من القسوة الذي لا يستطيع أي جهاز آخر - عدا جهاز الاستخبارات السرية الصينية - التعامل به. ولكن الموساد يضع نفسه بين الأفضل، إن لم يكن الأفضل على الإطلاق. ولا يمكن اعتبار هذا الكتاب مديحاً للموساد، ولكن آمل أن يكون استمراراً لما قاله مير عميت بعد نشر النسخة الأولى منه: "يقدّم المعلومة كما حدثت - وكما هي".

غوردون توماس

باث، إنكلترا - تموز 2004


صفحة فارغة

شرح الرموز والكلمات

CIS		رابطة الدول المستقلة
CIO		مكتب التمويه المركزي
Cold Approach	محاولة باردة	محاولة تجنيد مواطن أجنبي
Comint	كوميت	استخبارات الاتصالات
Cover	غطاء	هوية عميل الاستخبارات عندما يعمل خارج بلاده
Cultivation	زراعة	إنشاء علاقة مع مصدر للمعلومات
CW		أسلحة كيمائية
Daylight	ضوء النهار	أعلى درجات الاستعداد
Dardasim	داردااسم	عملاء يعملون في الصين
DEA		إدارة مكافحة الممنوعات
DI		إدارة الاستخبارات
DCI		مدير إدارة الاستخبارات المركزية
DIA		إدارة المخابرات العسكرية
Diamond	ماس	وحدة اتصالات
DO		إدارة العمليات
Dry Cleaning	تنظيف جاف	تقنيات متنوعة لتفادي المراقبة
ECM		إجراءات إلكترونية مضادة
EDP		معالجة البيانات الإلكترونية
Elint	إلنت	المعلومات الإلكترونية التي يعترضها الرادار والأقمار الصنعية
Exfiltrate	تصفية	إخلاء عميل من بلد معادي
Falach	فالاش	عميل يعمل في لبنان
FACES	وجوه	نظام تحوير ومقارنة صفات الوجه

False Flagging	راية مضللة	تجنيد شخص يعتقد أنه سيعمل لبلد آخر
Fumigate	تعقيم	تفتيش منطقة بحثاً عن معدّات إلكترونية
Go-away	ابتعاد	إشارة معدّة مسبقاً لعدم إجراء أي اتصال بمواعيد معدّة سلفاً
Grinder	مطحنة	غرفة استنطاق، وتستخدم أيضاً لاستجواب المشبه بهم
Honey Trap	مصيدة عسل	مصيدة جنسية لأغراض استخباراتية
Humint	هومنت	المعلومات التي يجمعها العملاء الميدانيون
IDA		قاعدة بيانات استخباراتية
IED		أداة تفجير مبتكرة
IFF		تمييز العدو من الصديق
II		تمييز الصور
Institute	المعهد	الاسم السابق للموساد - معهد الاستخبارات والعمليات الخاصة؛ وكان يسمّى أصلاً معهد التنسيق
IR		الأشعة تحت الحمراء
ISA		نشاط لدعم الاستخبارات
JIL		مركز الاستخبارات المشترك
Jumper	القافز	عميل يعمل ما وراء البحار لفترة قصيرة
Kasta	كاستا	ضابط القضية
Kidon	كيدون	عميل مختص بالاغتيالات
LAKAM		إدارة الاستخبارات التي تجمع معلومات علمية
Legend	أسطورة	سيرة حياة زائفة لـــ "كاستا"
LAP		إدارة الحرب النفسية
Light Cover	غطاء خفيف	كاستا يعمل تحت غطاء دبلوماسي
Loot		جمع المعلومات من العمليات
Mabuah	مابواه	مخبر ليس يهودي

Measles	حصبة	اغتيال يظهر نتيجة لأسباب طبيعية
Meluckha	ميلوخا	إدارة التجنيد
Memune	ميمون	لقب مدير إدارة الموساد
Miketel	ميكتل	أداة اعتراض/تسجيل المكالمات الهاتفية
Mishalshim	ميشالشيم	صندوق رسائل مخفي؛ مكان آمن يتلقى فيه العميل التعليمات أو يوصل إليه المعلومات
Music Box	علبة موسيقى	جهاز إرسال لاسلكي
Naka	ناكا	نظام كتابة الرسائل المشفّرة
Nativ	ناتف	عميل يعمل فيما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي
Neviot	نيفيوت	اختصاصي بالمراقبة
NHITC		المركز الوطني لقوى الاستخبارات البشرية
NIC		مركز الاستخبارات الوطني
NSA		إدارة الأمن الوطني
NSTL		قائمة التهديدات الأمنية الوطنية
OAU		منظمة الاتحاد الإفريقي
Oter	عطر	عربي مجند ليعمل مع عرب آخرين
PFLP		الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين
PLF		جبهة التحرير الفلسطينية
PLO		منظمة التحرير الفلسطينية
Photint	فوتنت	معلومات الصور
PROD		تقنية استرداد الصور من القرص البصري
Radint	رادنت	معلومات الرادار
Reg-sig	ريغ - سيغ	إشـارة تعريف كاستا للاتصال بالعميل الميداني في مكان عام
RAF		فصيل الجيش الأحمر (ألمانيا)
Safanim	صفانيم	وحدة استهداف منظمة التحرير الفلسطينية

Safe House	منزل آمن	شـقة أو مـنزل يستخدم لعقد اجتماعات سرية أو كقاعدة للعمليات
Shiklut	شيكلوت	إدارة المراقبة والإشراف
Sleeper	نائم	كاستا/عميل لا يتم استدعاؤه إلا في أحلك الظروف
Slick	منزلق	مكان إخفاء الوثائق
Target	هدف	مهمة استخباراتية
Teud	تود	وثيقة ملفّقة
Telint	تلنت	جمع المعلومات عن بعد
Vacuamer	فاكوامر	عميل يقدّم معلومات عن كل تفاصيل الهدف
Walk-in	متطوع	شخص يتطوع للخدمة
Wash	غسيل	استخدام جواز سفر صالح تم الحصول عليه سرقةً أو شراءً
Yahalomin	ياهالومين	وحدة اتصالات خاصة

أجهزة استخبارات أخرى

إسرائيل

IDF	مسـؤولة عن تنسيق كل نشاطات الاستخبارات للقيادة العامة لقوات الدفاع الإسرائيلية. وتكّلف الموساد بمهام معينة من وقت لآخر.
AMAN	فـرع الاسـتخبارات من IDF، والمسؤول عن جمع المعلومات العسكرية، والجغرافـية والاقتصـادية. ويبقى اهتمامه الرئيسي نشاطات الدول العربية المجاورة لإسرائيل في الألفية الجديدة.
AFI	فـرع الاسـتخبارات للقـوى الجوية الإسرائيلية، ومختص بجمع معلومات الإشارة والاستطلاع الجوي. وبحلول سنة 2001، تم استبدال المهمة الثانية بالأقمـار الصنعية، مما قصر دور AFI على تقديم معلومات الدعم الجوي التقليدية.
BP	شـرطة الحـدود فـي الأراضـي التـي تحتلها إسرائيل. دورها في جمع المعلومات الاستخباراتية محدود.
NI	وحدة الاستخبارات البحرية لعموم القوى البحرية الإسرائيلية. ويشمل عملها مراقـبة السـواحل الإسـرائيلية، وتحديث قاعدة بيانات المصادر البحرية الأجنبية.
GSS	معروفة باسم شين بيت أو شاباك، ومسؤولة عن الأمن الداخلي والدفاع عن المواقـع الإسـرائيلية في الخارج مثل السفارات، والقنصليات والمنظمات الإسرائيلية المهمة.
RPPC	مركز التخطيط والأبحاث السياسية، والذي يقدم نصائحه لرئيس الوزراء في الشؤون اليومية والاستراتيجية الطويلة الأمد.

الولايات المتحدة الأميركية

CIA	تتولى العمليات السرية، وتقدم التحليل الاستخباراتي للرئيس. وهي ممنوعة بموجب أمر تنفيذي من القيام بعمليات اغتيال.
DIA	تنسّق عمل الاستخبارات العسكرية لرئيس الأركان المشتركة.
INR	قسم صغير للاستخبارات والأبحاث في وزارة الخارجية (كادرها سنة 1999 لم يتجاوز 500). تقدّم تقاريرها لوزارة الخارجية فقط.
NIO	مكتب الصور القومي، وقسم من البنتاغون، وتجمع المعلومات الاستخباراتية لكل الأقمار الصنعية الأميركية. وتكلّفها CIA و DIA بمهمات دائماً.
NRO	قسم من البنتاغون. تعمل بالتنسيق مع NIO ولديها مسؤوليات محددة تتعلق بتجهيز الأقمار الصنعية ونشرها.
NSA	تعمل من قاعدة سانت ج. ميد في ميريلاند. وحصلت وكالة الأمن القومي عبر السنين على سمعة *جاسوس في الأجواء*، وهذا ما ميّزها عن CIA. وتختص بجمع معلومات الإشارة والرسائل المشفّرة. وتعمل بالتنسيق مع NIO لجمع المعلومات الاستخباراتية عبر الأقمار الصنعية.

المملكة المتحدة

GCHQ	يعمل كادرها المؤلف من 7000 شخص (تقييم 1999) مثل *عين خفيّة على العالم الخارجي*. وكانت معروفة سابقاً باسم مركز *قيادة الاتصالات الحكومية*، وتراقب وتفك شيفرة رسائل اللاسلكي، والتلكس، والفاكس والبريد الإلكتروني الواردة والصادرة من المملكة المتحدة. ويتم إسناد *مهام* خاصة لها من قبل جهازي الاستخبارات البريطانيين الرئيسيين.
M16	معروف أيضاً *بجهاز الاستخبارات السري*. ويخطط كادره المؤلف من حوالى 2000 شخص وينفّذ ويحلل العمليات السرية العالمية، ويجمع المعلومات الاستخباراتية.
M15	يتكون كادره من 2000 شخص. وهي الإدارة البريطانية الداخلية الرئيسية المضادة للتجسس. وتختص بمراقبة كل النشاطات المشبوهة في البلاد، وتقوم بالإشراف على عدد كبير من الدبلوماسيين والسفارات الأجنبية بما فيها تلك العائدة لإسرائيل.

روسيا

GRU	توفر المعلومات الاستخباراتية العسكرية للكرملين. ويتكون كادرها من أفضل عملاء الاستخبارات في الاتحاد السوفيتي السابق. ومزودة بشبكة أقمار صنعية.
FCS	*جهاز الاستخبارات المضادة الاتحادي*، وهو النسخة المحدثة عن KGB. ويبلغ تعداد كادره حوالى 142.000 شخص (تقييم 1999). ويركز على مراقبة الحركة عبر الحدود، ومكافحة التجسس، والإشراف على كل الدبلوماسيين الأجانب، والكثير من الصحفيين، ورجال الأعمال. ويمتلك قسماً قوياً للاستخبارات السرية مع وحدات في كل مدينة رئيسية في روسيا.
SVR	يتولى جمع المعلومات الاستخباراتية المتعددة المستويات على مستوى العالم. وتجمع وحداته المختصة المعلومات السياسية، والصناعية، والتجارية. ويتولى العمليات السرية بما فيها عمليات الاغتيال.

الصين

ILD	إدارة الاتصال الدولية، وهي جهاز يتولى تنفيذ الكثير من النشاطات السرية المتنوعة. والهدف الرئيسي له هو الولايات المتحدة.
MID	إدارة الاستخبارات العسكرية وترتبط بالقائد العام لجيش التحرير الشعبي. وتتضمن مهامها تحديد القدرات العسكرية للجيوش الأجنبية (خصوصاً الولايات المتحدة)، وتنفيذ عمليات الاستطلاع عبر الأقمار الصنعية. ويوجد لها ملحقين في كل سفارة وقنصلية صينية.
MSS	تم إنشاؤها سنة 1983، وهي وزارة أمن الدولة ومسؤولة عن مكافحة التجسس ضمن الصين. ولها سمعة مخيفة.
STD	ترتبط بوزارة الدفاع، وهي قسم مختص بالعلوم والتكنولوجيا، ولها وظيفتين رئيسيتين: اعتراض البث اللاسلكي الصادر عن الأسطول الصيني والسفارات الأجنبية عبر البحار؛ واستهداف المؤسسات والشركات الأميركية التي تعمل في مجال التكنولوجيا العسكرية والمدنية.
NCNA	وكالة أنباء تُعنى بالشؤون الصينية. وتعمل منذ زمن طويل كغطاء لجميع أجهزة الاستخبارات الصينية التي تتولى تنفيذ مهمات سرية.

فرنسا

DAS	قسم صغير لا يجاوز عدد أفراده 50 شخصاً (تقدير 1999). يركّز على تقييم الخطط الدفاعية الطويلة الأمد التي تضعها الدول الأخرى.
DPSD	إدارة إنتاج وأمن الدفاع. وهي مسؤولة عن جمع المعلومات الاستخباراتية العسكرية في الخارج.
DRM	إدارة جمع المعلومات الاستخباراتية باستخدام الأقمار الصنعية. وتنقسم إلى خمس وحدات منفصلة، وتقدّم تقاريرها يومياً إلى رئيس الوزراء.
DST	إدارة رقابة الأراضي الفرنسية. وهي أكبر وأقوى أجهزة الاستخبارات الفرنسية. ويبلغ تعداد موظفيها عدّة آلاف. وتعمل داخلياً وخارجياً. وتتولى مسؤوليات واسعة النطاق تتضمن مراقبة كل السفارات الأجنبية في باريس، وتنفيذ عدد كبير من العمليات السرية. وتقدّم تقاريرها إلى وزير الداخلية مباشرة.
DGSE	الإدارة العامة للاستخبارات الخارجية. وتتولى جمع المعلومات الصناعية والاقتصادية، واختراق المنظمات الإرهابية، وإدارة التجسس.
SGDN	الأمانة العامة للدفاع الوطني وتقدّم تقاريرها لرئيس الوزراء والتي تتضمن مراجعة للتطورات العسكرية في البلاد التي تهم فرنسا.

اليابان

NAICHO	جزء من مكتب الأبحاث التابع لرئاسة الوزراء. ولديه ميزانية ضخمة لتحليل السياسات الدفاعية لكل البلاد الرئيسية التي تهم اليابان.
MITI	مسؤولة عن جمع البيانات التجارية والاقتصادية من كل أنحاء العالم.
PSIA	إدارة الأمن العام وتركّز على مكافحة الإرهاب ومكافحة التجسس. وتعمل داخلياً بشكل أساسي، لكنها تنفّذ منذ العام 1999 وبشكل متزايد مهام خارجية.

مصادر الكتاب

إسرائيل

مير عميت	آيسر هاريل
جوفال أبيب	ديفيد كيمشي
آري بن – ميناش	مايكل كوبي
باري شاميش	أميرام ليفين
يعقوب كوهين	أرييل ميراري
مير داغان	روفين ميرهاب
أليكس دورون	داني ناغير
ران إيدلست	يول بن بورات
رافايل إيتان	يوري ساغوي
إفرايم هالفي	نفي سبيلمان

وأولئك الذين لا نستطيع ذكر أسمائهم بعد

خارج إسرائيل

محمد الفايد	مارتن ليتماير
أليس بايا	لويس ليبي
ريتشارد برينكي	جون ماجي
شان كاربيري	بول مارسينكوس
أحمد شلبي	جون مكنمارا
سيباستيان كودي	لوري ماير
ديفيد داستيش	مادلين موريل
كارولين ديمبسي	سامر سادوي

آرت دوركين
سميرة شبندر
هيذر فلورنس
كريستوفر ستوزي
تيد كندرسون
سوزانا طربوش
ويليام هاملتون
مايكل طوق
شيرل حنين بنتوف
إليزابيث توملنسون
آماندا هاريس
ريتشارد توملنسون
بير - إريك هاوثورن
جاك فيرجيس
ديانا جونسون
رسل وارين - هوي
إيمري كابونغو
ستيوارت وينتر
جيل كيبل
كاثرين وايتاكر
أوتو كورميك
ديفيد يالوب
زاهر قصيباتي

لعب كل منهم دوراً بطريقته الخاصة

وأخيراً وليس آخراً

ويليام بوكلي
ويليام كاسي
يواكيم كرانر إيدث

ساهموا في إغناء الفكرة